جـــــــــامعة اليرموك
كليـــــــــــــــــــــة الآداب
قسم اللغة العربية



ألفـاظ القول في القـرآن الكريـم

دراســة بلاغيــة

Phrases of (Saying) In The Holy Quran

"A Rhetorical Study"

إعداد الطالبة

أميمة سليمان العوض البشايرة

إشراف

الأستاذ الدكتور مخيمر صالح

2014

ألفاظ القول في القرآن الكريم دراسة بلاغية

Phrases Os (Saying) In The Holy Quran
"A Rhetorical Study"

إعداد الطالبة:

أميمة سليمان العوض البشايرة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في تخصص اللغة العربية–أدب ونقد في جامعة اليرموك، إربد، الأردن

وافق عليها:

الدكتور مخيمر صالح يحيى.. مشرفاً

ورئيساً أستاذ في الأدب القديم في الدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك

الدكتور أحمد الزعبي...عضواً

أستاذ الأدب القديم، جامعة مؤتة

الدكتور مصطفى حيادرة...عضواً

أستاذ اللغة والنحو، جامعة اليرموك

نوقشت وأجيزت بتاريخ

٢٠١٤/٨/٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــــداء

إلى روح الحبيب المصطفى ﷺ، المعلم الأول الذي أخرجنا من دياجير الظلام إلى نور العلم والهداية، المعلم الأمي الذي فرش لنا طريق العلم بواسع الأمل، إلى المعلم الأمي الذي ما زال العلماء والأدباء والبلغاء يحثون الخطا ليلحقوا بركاب بلاغته، وإعجاز رسالته، ومجاراة بيانه، ومحاكاة لسانه الفصيح القويم من فجر الإسلام الأول إلى يومنا هذا - وما لحقوا -، إلى المعلم الأمي الذي ما زالت دور العلم والكتابة والنشر مذ كانت رقاعا، إلى ما وصلت إليه الآن من فنون في العلم والأدب والبلاغة والكتابة ووسائلها، تتعلم وتعلم وتكتب وتنشر لتلحق، وما لحقت، إليه أهدي عملي، وثمرة جهدي، لعلي إن لم ألحق بعلمه؛ تشملني شفاعته لاعترافي بفضله، وسيري على نهجه، فإليه تشد الركاب وتُهدى النفائس، وهذا أنفس ما لدي أهديه لروحه الطاهرة عله يهدينا أنفس ما لديه يوم تعز النفائس؛ شربة ماء لا نظمأ بعدها أبدا نحن ووالدونا ووالديهم، وإخواننا وأخواتنا وذرياتنا وأزواجنا، وكل من له حق علينا من المسلمين. . . اللهم آمين.

إلى روح والدي الطاهرة أهدي هذا العمل لعله يكون امتدادا لعلمه، وبذرة غرسها أينعت بعد رحيله، ومن عمله الذي لا ينقطع بعد موته، فتكون صدقة جارية عن روحه، ودعاء من ولد -لعله يكون صالحا- يدعو له فينير بها قبره، وتثقل بها موازينه . . . اللهم آمين.

إلى شخص زوجي العزيز يوسف البشايرة (أبو محمود) الذي رعاني بعطفه، وأغدق عليّ بصبره، وضحى بفضائل وقته، ويسر لي -بفضل الله- أسباب إنجاز هذا العمل ماديا ومعنويا، حتى يرى النور، فآليت على نفسي أن أهديه عملي هذا لمّا ألملم فيه أوراقي، فحان لي أن أوفي بقسمي، اللهم إني أهديه ثمرة جهدي، وما أمضيت فيه وقتي، فاجعله في ميزان حسناته ثقيلا مضاعفا، اللهم مد في عمره، وقر عينه، واجعله عونا لي وسندا، فلن أوفيه حقه إلا أن تشاطر جزاء هذا العمل . . .

إلى نور حياتي، وشمعة أيامي التي إذا ما أظلمت الدنيا أشرقت، وإذا ما أدبرت الحياة أقبلت، إلى المدد المتصل من السماء غير منقطع، إلى ذات الأيادي التي عن الدعاء لا تنقشع، إلى التي بدعائها أرضى وأقنع، إلى والدتي ومهجة قلبي، إلى التي أدعو الله لها بمديد من العمر، وبها لا أُفجع، أهديها عملي الذي طالما حثتني على إنجازه، وسرعة إخراجه، فكنت أدعو الله في سري وفي علني اللهمّ مد لها عمرا، وأقر لها به عينا، وأعني بعد تمامه على وصلها الذي انشغلت به عنها .

إلى أخي وشقيقي الأستاذ الدكتور أحمد البشايرة (أبو مالك) الذي واكب عملي هذا مذ كان فكرة إلى أن أصبح ثمرة، فقد وجهني في اختيار الموضوع، حينما أشكلت عليّ وعزت . . . وفتح لي أبواب مكتبته وهاتفه، ووجهني في العمل، رغم ضيق وقته وكثرة مسؤولياته، اللهمّ مد في عمره، وعائلته، وبارك له في وقته، واجعله عونا لكل طالب علم .

إلى أخي وشقيقي الأكبر محمد البشايرة (أبو وسيم) الذي كنت أرى في عينيه حنان الأبوة، وشوق الأخوة، وسؤال المتمني كلما رآني سألني متى تكملين؟ فهذا جوابي أهديه إليه، اللهم مد في عمره، وبارك له في وقته، وولده وعائلته، وقر عينه .

إلى أشقائي وشقيقاتي، وأخواتي، وأزواجهم، وذرياتهم وعائلاتهم وآلهم جميعا، فقد كنت ألمس منهم العون والتشجيع، وأسمع منهم الدعاء، وطلب التوفيق، اللهم وفقهم لطاعتك، واستخدمهم في مرضاتك، وكافئهم بما أعجز عنه، فإنك نعم المولى ونعم النصير.

إلى صديقاتي في حياتي وزميلاتي في دراستي، اللواتي لمست منهن الصدق والإخلاص في الإجابة عن كل ما أسأل، وتقديم المبادرة فيما لا أسأل، وأخص بالذكر الزميلة إيمان وردات، وأختي في الله فاطمة إبراهيم علاونة لما كنت ألمس منهما الصدق في النصيحة، والإخلاص في المشورة أثناء إعداد هذه الرسالة، إلى المعلمات الفضليات في مؤسستنا الصغيرة في روضتي، إلى الأطفال الذين انشغلت عنهم في دراستي -استميحهم عذرا إن كنت قد قصرت في حقهم- علهم يلتمسون لي عذرا عندما يكبرون، ويسامحونني، على انشغالي عنهم، إلى فاطمة عيسى بشايرة حبيبتي التي هي بمثابة ابنتي، مع دعواتي لها بالتوفيق والنجاح وإلى والديها وأهلها الكرام جميعهم، إلى أهل بيتي، وأهلي وعمومتي وخؤولتي وجيراني جميعهم، أهدي عملي هذا، لا أبتغي عليه أجرا إلا المودة في القربى، ودعوة في ظهر الغيب علها تدفع عني ضرا.

لا أنسى أني قد آليت على نفسي عندما أنهي أطروحتي هذه أن أهديها لكل الأحرار في الوطن العربي الصغير، وفي العالم الممتد الكبير، الذين رفضوا الذل والظلم والهوان، وثاروا في وجه الاستبداد والطغيان، فقد واكبت هذه الأطروحة كل ثورات الربيع العربي، وكنت أرصد الأحداث، أقدمها على كتابتي لعلي أجد بارقة أمل لكل مضطهد، أو قبس من نور لمن خلف القضبان يصلي ويسجد، اللهم فرج همهم، وسدد خطاهم، وعلى الحق نور مسعاهم، واستر أعراضهم، واحقن دماءهم، يا رب.

أثناء المعاناة من ضغط البحث، وهموم الدراسة، وكثرة المراجع، وضيق الوقت، هداني الله إلى المكتبة العربية الشاملة (الإلكترونية)، فعرفت قيمة ما بذله القائمون على إعدادها، وتهيئتها لتكون في متناول يد كل طالب علم، لتيسر عليه الاستفادة مما جاء فيها، وتختصر عليه سبل العودة للكتب التي ينشدها، والمراجع التي يطلبها، فوجدت من حقهم على كل من استفاد من عملهم هذا، وعلمهم أن يشكرهم شكرا جزيلا، ويدعوا لهم بالتوفيق والسداد، وأن يكثر الله ﷻ من أمثالهم، وأمثال الغيورين على القرآن الكريم ولغته، راجية المولى ﷻ أن يبارك لهم في جهدهم، ويتقبل عملهم، ويثقل به موازينهم، لأنني أعترف أنهم قد وفروا لي المادة العلمية التي احتاج إليها، واختصروا عليّ من الوقت والجهد الذي يسر لي الاستفادة من مكتبتهم، وسهل علي أمر الكتابة.

إلى كل غيور على العربية، محب لكتابها؛ حريص عليه . . .

إلى كل هؤلاء أهدي عملي.

الباحثة

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله رب العالمين، الذي أعانني على انجاز هذه الرسالة، ووفقني لتمامها، وبعد:

فإنني أقدم عظيم شكري ووافر امتناني للأستاذ الدكتور مخيمر صالح، أستاذ الأدب القديم والدراسات الإسلامية في جامعة اليرموك، لتفضله بالإشراف على هذه الرسالة، وتلطفه بإسداء النصيحة، والأمانة في المشورة؛ فقد كان يوجهني، ويوجه الطلبة دائما إلى الإخلاص في العمل، والصدق في العلم والصبر عليهما، والدفع قدما في ميدان البحث والعلم، ما كان له أثر في إنجاز هذه الأطروحة، فجزاه الله عني خير الجزاء، وأدامه مثالا يحتذى في الصدق والأمانة والتواضع، وبارك اللهمّ له في وقته وعلمه وأهله.

كما وأقدم شكري وعظيم امتناني للجنة المناقشة المكونة من: الدكتور أحمد الزعبي، الأستاذ المشارك من كلية الآداب، قسم اللغة العربية في جامعة مؤتة، والدكتور مصطفى حيادرة، الأستاذ المساعد من كلية الآداب، قسم اللغة العربية في جامعة اليرموك، لما بذلاه من ثمين وقتهما في قراءة هذه الأطروحة، وتوجيهي فيما يلزم لإخراجها على الوجه المقبول قدر المستطاع، لهما مني جزيل الشكر والعرفان.

ولا يفوتني أن أشكر الهيئة التدريسية في قسم اللغة العربية وآدابها، في جامعة اليرموك، وأشكر الإداريين والعاملين في الهيئة الإدارية في قسم الآداب، وفي كلية الدراسات العليا والبحث العلمي في الجامعة، فقد لمست فيهم الإخلاص في العمل، والصدق في الأداء، اللهم على طريق الحق سدد خطاهم، وأحفظهم عونا لكل طالب علم.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الملخص

البشايرة، أميمة سليمان العوض، ألفاظ القول في القرآن الكريم – دراسة بلاغية– أطروحة ماجستير، جامعة اليرموك، 2014.

(المشرف: أ.د.مخيمر صالح يحيى)

جاءت هذه الرسالة في تمهيد وفصلين وخاتمة، وقفت من خلال التمهيد على أهمية القول في القرآن الكريم، وتعدد ألفاظه، والألفاظ الدالة عليه.

تناولت في الفصل الأول ألفاظ (القول) في القرآن الكريم المشتقة من مادة (قول) تحديدا، وقد بلغ عددها ألفا وسبعمائة واثنين وعشرين لفظا، موزعة على خمسين اشتقاقا، وتناولت كل مشتق بالدراسة على حده، وأخذت على كل مشتق ثلاث من الآيات بالتفسير والبيان والأساليب البلاغية التي وردت فيها، أما ما كان وروده ثلاث مرات فأقل فقد تناولتها كلها لغة وتفسيرا وبيانا وبلاغة.

وفي الفصل الثاني تناولت الألفاظ (الدالة على معنى القول في القرآن الكريم)، وجعلتها في عشرة مباحث، في كل مبحث عدد غير قليل من الألفاظ التي يجمعها حقل دلالي واحد، حيث تلتقي في جانب من جوانبها في معنى مشترك، وتفترق في جوانب أخرى، وتم تناولها بالدراسة لغة وتفسيراً وبياناً وبلاغةً.

فكشفت الدراسة عن تعدد الأساليب البلاغية بصورها المستخدمة في التعبير عن القول أو فيما يدل على معناها حسب اللفظ ودلالته؛ بما يتناسب مع السياق الذي يرد فيه.

كما خرجت الدراسة بمسلمة على الرغم من تعدد ألفاظ القول في القرآن الكريم، سواء ما كان مشتقا من مادة (قول) أو (دالّا على معنى القول) فإنها تلتقي في جانب من جوانبها في معنى يفيد القول، ولكنها تفترق في جوانب أخرى كثيرة، ملتزمة بالخصوصية الفردية، حتى لو كانت من بحر دلالي واحد، وهذا يقودنا إلى دحض دعوى الترادف في القرآن الكريم عند المروجين لها، لأن لكل لفظ معنى لا يغني عنه غيره في السياق الذي ورد فيه؛ وإن كان ظاهرا يدل على المعنى نفسه، فلفظ (تَقول) غير لفظ (تَقوّل) ولفظ (حدّث) غير لفظ (خطب) وهكذا.

وقد خرجت من البحث بتوصيات لكل المسلمين بأن يتدبروا آيات القرآن الكريم تلاوة وبيانا وتفسيرا؛ لتفقهوا في معانيه ويفهموا مراميه، ويتذوقوا حلاوة تلاوته، ويعاينوا أسرار بلاغته، التي أعجزت بلغاء عصره، وأعيت أدباء زمانه إلى هذا اليوم، ولن يتذوق هذه الحلاوة، ولن يلامس هذه الطلاوة إلا من تلا بتؤدة ومهارة.

والله ولي التوفيق.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وعبد ربه حتى أتاه اليقين، أما بعد؛

لقد كرم الله ﷻ الإنسان عن باقي مخلوقاته، وميزه بالعقل والإدراك، وجعله محور الحديث في القرآن الكريم، وإليه الخطاب، وليفهم ما يتخاطب به، ويدرك ما يوجه إليه علمه النطق وميزه به عن سائر مخلوقاته، وعلمه تفاصيل اللغة والحديث والحوار، فكان لا بد من أن يكون في الحوار وأسبابه وسائل وأساليب تحقق المرجو منه؛ فكانت الأسماء والمسميات، وأصبح تبعا لذلك الحروف والكلمات، فتعددت الألفاظ وكثرت، والتقت في كثير من معانيها واختلفت، ولحاجة الإنسان للتعبير عما يجيش في نفسه من المعاني ولتعبير عن المقاصد والغايات فقد كثرت ألفاظ (القول) في القرآن الكريم، كثرة لافتة جعلتها جديرة بأن تدرس بالتفصيل، ويوقف على أسرار كثرتها؛ فجاءت هذه الدراسة للكشف عن هذه الألفاظ، واستقرائها من القرآن الكريم، ورصد مواطنها، وتبويبها، والعمل على دراستها ما استطعت إلى ذلك تفصيلا، وسار العمل - بفضل الله ورعايته- على هذا النحو.

وحسب الدراسة ما وقفت عليه من العدد الضخم لألفاظ القول المشتقة من مادة (قول) تحديدا، فقد بلغ عدد تكرارها في القرآن الكريم حوالي ألفٍ وسبعمائة واثنين وعشرين لفظا، عدا عن الألفاظ (الدالة على القول) فقد بلغت أبوابها عشرة أبواب، في كل باب عدد غير قليل من الألفاظ المؤتلفة في جانب من معانيها، مختلفة في مبانيها.

وتكشف الدراسة – بفضل الله– عن أسرار تعدد تلك الألفاظ، وكثرتها، وإعجاز ورودها بهذا الكم الهائل من العدد؛ وما ذاك إلا تبعا لما يتطلبه السياق من تمام المعنى، وحسن الصياغة؛ فليس من البلاغة أن يقحم اللفظ كيفما اتفق في النص ليكون عبئا عليه على نية أنه لفظ (قول) أو من حقله، فهذا ما لا يستقيم في كلام الله ﷻ، الذي أعجز البلغاء نظمه، وحارت عقول الأدباء نحوه، وعجزت ألسنة البلهاء عن نطقه، ففي مجال إقامة الحجة ومحاورة الخصوم عبر بمادة (قول) فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿الأنعام: 19﴾، وفي مجال التعبير عن نقل المعلومة بالعلن، والإعلان بها جاء لفظ يشير إلى ذلك دون أن يكون حوله شبهة أو خلاف في قدرته على تحقيق الهدف من الرسالة وتوصيل المعنى المراد، فقال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ ﴿الحج: 27﴾، فالأذان قول يحمل معنى لا يستقيم لفظ (قول) بدلا عنه في سياقه، ودليل ذلك الاستجابة السريعة: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿الحج: 27﴾.

سيرى المتبحر في كتاب الله ﷻ أن كل لفظ من ألفاظ مادة الدراسة -وغيرها– يحمل معنى لا يحمله غيره، تكشف عنه معاجم اللغة، ويوظفها النص القرآني أمثل توظيف، وأبلغ استخدام، وعندما تلمس ذلك كقارئ، أو باحث تجعلك تقف عاجزا مذهولا في استعجاب واستغراب، -وأحيانا في بلاهة– لا تقول بعدها إلا: "يا الله...!"يا للروعة...! يا للجمال...! يا للإعجاز...! يا للعجز ...! أين المكذبون أين المتفلسفون؟ أين دعاة الترادف والتكرار الممجوج؟.

فإليه أدعوك لتقف على ذلك وقوفا فعليا، ومعاينة عقلية، ونفسية، وليس قول من أحد، ونحن نقول اللهم زدنا تبحرا في كتابك، وتذوقا لجمال ألفاظك، وإخلاصا في العمل لوجهك.

أهمية البحث وأسباب اختيار الموضوع

بعد قراءة سور القرآن العظيم وآياته تبين للباحثة أنه يحتوي على الأساليب البلاغية والصور الفنية المتعددة في استخدام ألفاظ "القول"، "والألفاظ الدالة على معنى القول"، وبألوان مختلفة، فجاءت هذه الدراسة لرصد تلك الألوان، وبيان الأساليب البلاغية في التعبير عنها.

وتهدف الدراسة إلى جملة من الأغراض، منها:

1- استثمارا للوقت فيما فيه خير لي ولعامة المسلمين.

2- تذوق الجمال والمعاني والعظمة في القرآن الكريم من خلال الكشف عن أدبيات الأساليب القولية، إعمالا للأمر الإلهي: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ ﴿ص: 29﴾

3- الوقوف على جوانب بلاغية في القرآن الكريم من مادة (قول) ومشتقاتها.

4- الوقوف على جوانب بلاغية في القرآن الكريم من الألفاظ الدالة على معنى (القول) في القرآن الكريم، وما يمت لها بصلة.

5- الرد على دعوى الترادف في القرآن الكريم عند القائلين بها، والمروجين لها، من خلال بيان النقد الأدبي للألفاظ، ودقة اختيارها في أماكنها السياقية من خلال التفسير اللغوي، والتفسير القرآني لكل لفظ مفردا ومنظوما.

6- تأصيل قواعد نقدية اهتداء بالقرآن الكريم في استخدام اللفظ في السياق الذي لا يغني عنه غيره، حيث يوصل قاعدة تكشف عن التفاوت في التعبير، واختيار الألفاظ التي قد تلتقي في جزء من معناها، وتفترق في جزئيات أخرى في دقائق المعاني، وكيف نسترشد بهدي القرآن العظيم في صياغة التعبير البلاغي، والأدبي القائم على دقة اختيار الألفاظ في سياقاتها المناسبة التي تليق بها.

7- الإسهام في خدمة القرآن الكريم من الجانب البلاغي والنقدي.

الجهود السابقة

لقد انبرى جل العلماء والباحثين لدراسة القرآن الكريم والكشف عن علومه المختلفة جملة وتفصيلا في دراسات ليس من السهل حصرها أو استقصاؤها، وعلى الرغم من ذلك لم تعثر الباحثة -فيما وصلت إليه- على دراسة في هذا الموضوع، وإن كانت هناك جوانب جزئية من المراد الكشف عنه ويمكن الاستفادة منها في جوانب فرعية من البحث، مثل النداء، والحوار، وأساليب الدعاة.

منهج الدراسة

تقوم هذه الدراسة على جانبين:

1- الجانب الاستقرائي: متمثلا بالبحث عن ألفاظ "القول" والألفاظ "الدالة على معنى القول"، وما يمت لها بصلة في القرآن الكريم ورصدها.

2- الجانب التحليلي، ويقوم على :

أ- تبويب ألفاظ مادة "قول" واشتقاقاتها، وتفصيل كل مشتق على حدة، والكشف عن مواطنه في القرآن الكريم، باختيار ثلاث آيات على كل لفظ، ومعالجتها لغويا وتفسيريا، والكشف

عن الأساليب البلاغية والصور البيانية التي وردت فيها، وما كان وروده في القرآن الكريم أقل من ثلاث آيات فقد تناولتها كلها بالدراسة بيانيا وبلاغيا.

ب- تبويب الألفاظ "الدالة على معنى القول" كل حسب الفن الذي تندرج تحته بيان دلالاتها، وذلك بالاستعانة بالمعاجم اللغوية، وكتب التفسير، ثم تحليلها، وجعلها في مباحث يجمعها عنوان مشترك، يدل على أكثر ما تشتهر به من معنى متقارب فيما بينها، وجاء ترتيب الألفاظ في كل مبحث بحسب الترتيب الهجائي للحروف.

ت- بيان الأساليب البلاغية التي استخدمت في سياقاتها تلك الألفاظ، ضمن السياق الذي وردت فيه؛ ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ثم تحليلها.

3- الرجوع في كل ما سبق إلى المصادر الرئيسية من الكتب، وبخاصة أمهات الكتب في التفسير، والقديم من المعاجم، وكتب البلاغة، وبعض الحديث منها.

4- التوثيق العلمي للمصادر والمراجع وفق المتعارف عليه في مثل هذه الدراسات؛ حيث التوثيق التفصيلي للكتاب في أول ورود له في الدراسة، ثم أكتفي بتوثيق اسم مؤلفه، واسمه، ورقم الصفحة ورقم الجزء إذا ما تكرر وروده.

5- أمّا الآيات القرآنية فقد كانت ملكة الدراسة في الحضور، ولا غرو في ذلك فهي المقصودة؛

فما وقع الاختيار عليه منها بالتفسير والبيان وكشف الأساليب البلاغية فيه، فقد أدرجتها كاملة في الدراسة، مع كتابة اسم السورة، ورقم الآية بجانبها.

في التمهيد

يعرف الإنسان بأنّه حيوان ناطق؛ وذلك لتميزه بخاصية النطق والكلام فيما يصدر عنه في التعبير عمّا يجيش في نفسه من المعاني، يعبر عنها بلفظ (قال) لذا فإنها؛ أي مادة (قول) كانت أكثر الألفاظ استعمالا في التعبير عن المقاصد والغايات، وتبادل الرأي بين الناس، ووسيلة التفاهم والتحاور؛ لذا كثر ورودها في القرآن الكريم كثرة لافتة للنظر، حيث بلغ عدد ورود مادة: (قول) ومشتقاتها حوالي ألف وسبعمائة واثنتين وعشرين مرة، وصدر بها القرآن الكريم الخطاب في كثير من آياته، ونقل بها كثيرا من الآراء المتبادلة بين الناس في مجالات التوافق والاختلاف، فبالتعبير عن المقاصد الإلهية وما أراد الله تعالى الإعلام به يصدره بلفظ (القول) كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ ﴿البقرة: 30﴾ ففعلُ (قَالَ) هو الحدث الذي دل على مضمونه (مقول القول) وأوصل مقصده إلى من أراد من عباده، وفي جواب الملائكة وتعبيرهم عن تعجبهم وتساؤلهم قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ﴿البقرة: 30﴾، فكان فعلهم المتولد عما سمعوه (قول) عبروا به عن تأثرهم بما سمعوا.

وفي مجال التلقين والتعليم والكشف عن الحقائق الإلهية صدرها كذلك بمادة (القول)، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿الإخلاص:1﴾.

وفي باب إقامة الحجة ومحاورة الخصوم عبر بمادة (قول)، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ﴿الأنعام: 19﴾، وقال في ميدان الاستدلال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ﴿فصلت: 9﴾، ولو تتبعنا ذلك لطال بنا المقام.

وفي مجال المحاورة بين الناس وعلى رأسهم الأنبياء في تبليغ رسالة الله تعالى وإقامة الحجة على الخلق عبّروا عمّا أرادوا (بالقول)، فقال عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ

فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ﴿الأعراف: 65﴾، وقال عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ﴿الأنعام: 76﴾، إلى غير ذلك من المواطن التي يطول استقصاؤها ويصعب حصرها، ولكنها تدل على أهمية هذا اللفظ، وأنه ركن أساسي من أركان التعبير؛ لذا أردت أن أسلط الضوء على هذه المادة في القرآن الكريم، وأدرسها دراسة بلاغية، أظهر ما وسعني الجهد قيمتها وأهميتها، وكان هذا محور الدراسة في الفصل الأول.

ولمّا كان (القول) يأخذ صورا متعددة يعبر عنها بألفاظ مخصوصة تدل على نوع (القول) لاعتبار من الاعتبارات؛ فكان لزاما أن أتبع الدّراسة بما يتممها، ويكمل دائرتها، فتناولت الدراسة في الفصل الثاني العديد من صور (القول) باعتباراتها المتعددة، فإذا كان التعبير عن صدور (القول) من المتكلم والنطق به عبر عنه بألفاظ حسبما يقتضيه المقام؛ كحدث، وخطب، وعبّر، ونطق، وتكلم، ولفظ.

وإذا كان التعبير عن (القول) بما يدل على القراءة وفيما معناها خص بألفاظ مخصوصة: كقرأ، وتلا، ورتل.

وإذا كان التعبير عن صورة نقل المعلومة والإعلان بها، أخذت ألفاظا مخصوصة: كأذّن، وبلّغ، وخبر، وأذاع، وأشاع، وعرّف، وأعلم، ونبأ، ونشر.

وإذا كان التعبير عن (قول) يحمل صورة الخفاء والسر عبر عنه بألفاظ أخر: كخفت، وسرّ، وكتم، وهمس، وهمز، ولمز، ووسوس، وأوحى.

وإذا كانت صورة (القول) دالة على النداء وما في معناها أخذت ألفاظا خاصة مثل: دعا، وجهر، وصدع.

وإذا كان النداء يحمل معنى التحسر والندم، حمل ألفاظا أخرى مثل: أوّه، جأر، تحسر، صاح، صرخ، استغاث.

وإذا كانت صورة (القول) معبرة عن صدور حكم وقضاء وما يتعلق به، أخذت ألفاظا مخصوصة مثل: حكم، وقضى، وفصل، وشهد، وأفتى.

وإذا كان (القول) دالّا على المرادّة بين طرفين متفقين أو مختلفين عبر عنه بألفاظ مخصوصة مثل: حاور، وشاور، وناجى، ونصح، أو جادل، وحاجّ، وحادّ، وخاصم، وشاقّ، وشاكس، ومارى.

وإذا كانت صورة (القول) تتناول أنواعا من الفنون الأدبية والتعليمية، أخذت ألفاظا مخصوصة مثل: درس، وشعر، وقصّ، وكتب، وملّ.

وإذا كانت دالة على التفسير والكشف عن الغوامض، أخذت ألفاظا مخصوصة، مثل: أوّل، وبيّن، وشرح...

ولمّا كان فن (القول) باستعمالاته والتعبير عنه أخذ هذه السعة والشمول، كان جديرا بأن يوقف عليه، ويكشف عمّا فيه من مخبوءات البلاغة والبيان.

ولمّا كان الخوض فيه بحر لا ساحل له، فلا نعدم أن نشير إلى أصوله، وبداياته، فكانت هذه الدراسة، وما لا يدرك كله فلا يترك جلّه، فكانت هذه الدراسة، فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فحسبي أنّي اجتهدت...

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿هود: 88﴾.

الفصل الأول

ألفاظ القول المشتقة من مادة "قَولَ" في القرآن الكريم

يتناول هذا الفصل مادة: "قَولَ" في القرآن الكريم، ومشتقاتها؛ وقد بلغ عددها (خمسين اشتقاقا)؛ بحسب تصنيفها في: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)[1]، وقد تناولت الدراسة هذه الاشتقاقات تفسيرا وبلاغة مراعيا في ترتيبها نظام المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم؛ ومبينا لكل اشتقاق عدد وروده في القرآن الكريم، ومواطنها، مكتفيا بدراسة ثلاثة أمثلة دراسة واضحة لكل لفظ ورد أكثر من ذلك؛ وما كان وروده ثلاث مرات فأقل تناولتها كلها.

وسأتناول بدايةً التعريف بمادة: (قَولَ) في معاجم اللغة العربية، ثم الحديث عنها وعن اشتقاقاتها، كما وردت في القرآن الكريم.

أولاً: (قَولَ) في معاجم اللغة العربية

جاء في عدد من المعاجم العربية القديمة حول التعريف مادة: (قول) ما يلي: قال ابن فارس[*]:"الْقَافُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَقِلُّ كَلِمُهُ، وَهُوَ الْقَوْلُ مِنَ النُّطْقِ. يُقَالُ: قَالَ يَقُولُ قَوْلًا. وَالْمِقْوَلُ: اللِّسَانُ. وَرَجُلٌ قُوَلَةٌ وَقَوَّالٌ: كَثِيرُ الْقَوْلِ. وَأَمَّا أَقْوَالٌ"[2]، وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: "المِقْوَلُ: اللسان. والمِقْوَل (بلغة أهل اليمن): القَيْل، وهم المَقاولة والأقيال

---

1 أنظر عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار ومطبعة الشعب، ق و ل، ص 554- ص 578.

(*) إن سبب تقديم الباحثة لابن فارس على غيره ممن سبقوه بتاريخ الوفاة لاستحسانها منهجيته في تعريف المادة اللغوية؛ بعرض أصولها والحروف التي تتركب منها.

2 الرازي، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، ت، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، ج 5، ص 42.

والأقوال، والواحد القَيْل. ورجل تِقْوالةٌ أي منطيق، وقَوّالٌ وقَوّالةٌ أي كثير القَول"[1]، وقال الجوهري:

"قول قال يقول قولاً، وقَوْلَةً، ومَقالاً، ومقالَةً. ويقال: كثُرَ القِيلُ والقالُ"[2]، وقال ابن سيده في المحكم في: (مقلوبه: (ق ول) "القَول: الْكَلَام على التَّقْرِيب. وَهُوَ كل لفظ قَالَ بِهِ اللِّسَان تَاما كَانَ أو نَاقِصا. وَ أَنّ " قلت " فِي كَلَام الْعَرَب: إِنَّمَا وَقعت على أَن تحكي بهَا مَا كَانَ كَلَاما لَا قولا. يَعْنِي بالْكَلَام: الْجمل، كَقَوْلِك: زيد منطلق وقَامَ زيد. وَيَعْنِي بالْقَوْل: الالفاظ المفردة الَّتِي يَنْبَنِي الْكَلَام مِنْهَا، كزيد، من قَوْلك: زيد منطلق، وَعَمْرو، من قَوْلك: قَامَ عَمْرو والجمع: أَقْوَال، فَأَما تجوزهم فِي تسميتهم الاعتقادات والآراء قولا، فَلِأَن الِاعْتِقَاد يخفى فَلَا يعرف إِلَّا بالْقَوْل، أَو بِمَا يقوم مقَام القَوْل من شَاهد الْحَال، فَلَمَّا كَانَت لَا تظهر إِلَّا بالْقَوْل، سميت قولا، إِذْ كَانَت سَببا لَهَا، وَكَانَ القَوْل دَلِيلا عَلَيْهَا، كَمَا يُسمى الشَّيْء باسم غَيره إِذا كَانَ ملابسا لَهُ وَكَانَ القَوْل دَلِيلا عَلَيْهِ"[3]. و"القول: هو اللفظ المركب في القضية الملفوظة، أو المفهوم المركب العقلي في القضية المعقولة"[4].

وأضاف الفيروز آبادي: "القَوْلُ: الكَلامُ، أو كُلُّ لَفْظٍ مَذَلَ به اللِسانُ، تاماً أو ناقصاً، والجمع منها: أقْوالٌ، وجمع الجمع: أقاويلُ. أو القَوْلُ في الخَيْرِ، والقالُ والقِيلُ والقالَةُ في الشَّرِّ.

---

1 الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري، (المتوفى: 170هـ)، كتاب العين، ت، د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج212، ص 5.

2 الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (المتوفى: 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ت، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط 4، 1407 هـ، ج1806، ص 5.

3 ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (ت: 458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، ت، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، 1421 هـ – 2000 م، ج6، ص 561- 561.

4 الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (المتوفى: 816هـ)كتاب التعريفات، ت، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م، ج1، ص 180.

أو القَوْلُ مَصْدَرٌ، والقيلُ والقالُ اسْمانِ له وتَقَوَّلَ قَوْلاً: ابتَدَعه كذباً. وكَلِمَةٌ مُقَوَّلَةٌ، كمُعَظَّمَةٍ: قِيلَتْ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ. والمِقْوَلُ، كمِنبرٍ: اللسانُ، ج: أَقْوالٌ وأَقْيالٌ ومَقاوِلُ ومَقاوِلَةٌ. واقْتالَ عليهم: احتَكَمَ، وـ الشيءَ: اختارَهُ. وقال به: غَلَبَ به، ومنه: "سُبْحانَ من تَعَطَّفَ بالعِزِّ وقال به"، وـ القومُ بفُلانٍ: قَتَلوهُ. ابنُ الأنْبارِي: قال يَجيءُ بمعنَى: تَكَلَّمَ، وضَرَبَ، وغَلَبَ، وماتَ، ومالَ، واستَرَاحَ، وأَقْبَلَ. ويُعَبَّرُ بها عن التَّهَيُّؤ للأَفْعالِ والاستِعْدادِ لها. يقالُ: قال فأكَلَ، وقال فضَرَبَ، وقال فتَكَلَّمَ، ونحوُه"[1].

ثانياً: "قَولَ" في القرآن الكريم

ورد لفظ (قول) واشتقاقاته في القرآن الكريم (ألفا وسبعمائة واثنين وعشرين مرة)؛ موزعة على خمسين مشتقا)[2]؛ وهذه الاشتقاقات هي:

(1)- بلفظ (قَالَ) المسند إلى ضمير المذكر المفرد، فيما يشير إلى الزمن الماضي، وهو أكثر الاشتقاقات تكرارا، فقد بلغ عدد وروده خمسمائة وتسعا وعشرين مرة)[3]، وحمل هذا التصريف كثيراً من المعاني والأخبار، والحوارات، والقصص، والمناظرات، والمحاجّات في القرآن الكريم بين أكثر من طرف:

(1)- فمنها (قول) الله ﷻ للملائكة - عليهم السلام- بشأن استخلاف الإنسان في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿البقرة: 30﴾.

---

1 الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: 817هـ)، القاموس المحيط، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط 8، 1426 هـ - 2005 م، ص 1051.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 554- ص578.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 554 - ص 561.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: "أنّ الله ﷻ قد أخبر الملائكة بأنه يريد أن يخلق في الأرض خليفة سواهم، ولم يخاطبهم لِلْمَشُورَةِ وَلَكِنْ لِاسْتِخْرَاجِ مَا فِيهِمْ مِنْ رُؤْيَةِ الْحَرَكَاتِ وَالْعِبَادَةِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ، فشق ذلك عليهم وكرهوا ذلك و﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: أتجعل فيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها كما أفسدت الجن وَيَسْفِكُ الدِّماءَ كما سفكت الجن وَنَحْنُ نصلي لك بأمرك ونسبح بحمدك ونحمدك وَنُقَدِّسُ لَكَ. ونطهر أنفسنا بالعبادة عن المعصية. ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأجابهم ﷻ بأنه يعلم من إبليس المعصية ويعلم من آدم الخدمة والطاعة، ولم تعلم الملائكة بذلك. وقيل أنه قد علم أنه سيكون من بني آدم من يسبح بحمده ويقدس له ويطيعه. ويقال: قد علم الله تعالى أنه سيكون في ولد آدم من الأنبياء والصالحين والأبرار"[1]، "وقيل إنه أخبرهم بذلك ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم. وقيل ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي أسماء المسميات"[2].

البعد البلاغي: جاء التعبير الإلهي في الجملة الأولى من الآية ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بجملة خبرية فعلية لا تحتمل غير صدق الخبر، وجاءت مصدرة بالظرف (إذ) للأهمية، ولتأكيد الحدث وربطه بالزمن الذي حصل فيه، وهي تحمل الخبر الأول الذي علم من خلاله الملائكة ما

---

1 السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (المتوفى: 373هـ)، بحر العلوم، ج1، ص 40-41.

2 القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ت، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط الثانية، 1384هـ – 1964م، ج1، ص 263- 264.

سيحدث في الأرض، فكان هذا الخبر بالنسبة لهم يحمل ما يسمى بفائدة الخبر؛ وهذا هو المطلوب منهم معرفته الآن من خلال جملة مقول القول؛ فجاء ردهم تبعا لما سمعوا، وتبعا لمقتضيات الموقف في جملة مقول القول، جملة إنشائية تعجبية؛ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ متعجبين من أن يستخلف الله ﷻ مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير، ولا يريد إلا الخير"[1]، "دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ هُوَ صَلَاحُهَا وَانْتِظَامُ أَمْرِهَا وَإِلَّا لَمَا كَانَ لِلِاسْتِفْهَامِ الْمَشُوبِ بِالتَّعَجُّبِ مَوْقِعٌ"[2]، أي: "متعجبين من الخبر سائلين لا ليعترضوا، ولكن ليسترشدوا، وليفهموا الأسباب. "وَأُوثِرَ التَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: مَنْ يُفْسِدُ وَيَسْفِكُ لِأَنَّ الْمُضَارِعَ يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ دُونَ الدَّوَامِ أَيْ مَنْ يَحْصُلُ مِنْهُ الْفَسَادُ تَارَةً وَسَفْكُ الدِّمَاءِ تَارَةً؛ لِأَنَّ الْفَسَادَ وَالسَّفْكَ لَيْسَا بِمُسْتَمِرَّيْنِ مِنَ الْبَشَرِ"[3]. "وجاء سؤال الملائكة في تلك الآية مثالا لسؤال الاسترشاد الذي يطرح المتكلم سؤالاً استفهامياً ظاهره يُشعر بالاستشكال أو الاعتراض، وغرضه الاسترشاد، وسؤال الملائكة من هذا القبيل"[4]؛ فهم بقناعتهم أنّ الله ﷻ لا يفعل إلا الخير، فلم هذا الاستخلاف، وهم بعلمهم القاصر لم يسبق لهم إلا أن علموا أنّه لن يكون من أي مخلوق آخر غيرهم سوى المعصية والفساد، لما رأوا من الجنّ ذلك، فهم يستفهمون الخبر، ليسترشدوا على ضوئه؛ لا ليعترضوا. وجاء لفظ (قال) في جملة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ﴿البقرة: 30﴾. في سياق الجملة الخبرية، "والجملة

---

1 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، ج1، ص 263- 264.

2 ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد الطاهر التونسي، (المتوفى1393هـ)، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الطبعة التونسية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس،1997م، ج19، ص 234- 235، الصعيدي، عبد المتعال (المتوفى: 1391هـ)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط17، 1426هـ-2005م، التحرير والتنوير، ج1، ص 403.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ج1،ص 400- 403.

4 حَبَنَّكَة، عبد الرحمن بن حسن الميداني الدمشقي، (المتوفى: 1425هـ)، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت،ج1، ص 292- 293.

الخبرية، هي الجملة الّتي اشتملت على خَبَرٍ مَا، فَمَضمُونُها إخبارٌ عن أَمْرٍ ما، إيجاباً أوْ سَلْباً. والقصدُ منها الإعْلاَمُ بالخبر وبأنَّ الْحُكْمَ الّذي اشتملت عليه له واقعٌ خارجَ العبارة الكلاميّة مطابقٌ له، وإفادة المخاطب الحكمَ الّذي تضمَّنَتْهُ الجملةُ أو الْجُمَلُ الخبريّة. ويُسمَّى هذا عند عُلماء البلاغة "فَائِدَةَ الْخَبَرِ"[1] "وهذه الفائدة هي المقصد الأول من مقاصد الإسناد الخبري"[2].

"فدلت الجملة الخبرية أنّه قدم ﷻ إلى الملائكة خبر ما أراده من سبب خلقه آدم ﷺ، واستخلافه، وما كان من ذريته في الأرض امتحانا لهم"[3]، وذلك في الجملة الخبرية الأولى من الآية؛ ثم جاءت الجملة الخبرية الثانية: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تأكيدا للجملة الأولى، و قاطعة في خبرها لمضمون الخبر الأول: مؤكدة بــ (إنّ)، وتحمل هذه الجملة ما يسمى بــ "لازم الفائدة"؛ أي إفادة المخاطب كون المتكلم عالمًا بالحكم، وإنما سمي لازم الفائدة؛ لأنه يلزم من إفادة المخاطب الحكم إفادته أن المتكلم عالم به، وهذا هو المقصد الثاني من مقاصد الإسناد الخبري؛ ذلك لأن الملائكة تعلم أن الله يعلم ما لا تعلم؛ وتحمل الجملة الإجابة عن تساؤل الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها...؟ كما اشتملت الجملتان على بلاغة الالتفات؛ "وهو في اللّغة: تحويل الوجه عن أصل وضعه الطبيعيّ إلى وضعٍ آخر. وفي اصطلاح البلاغيين هو التحويل في التعبير الكلاميّ من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: "التكلّم – والخطاب – والغيبة" مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أوّلاً دون التحوّل عنها. والتعبيرَ ابتداءً بواحدة من هذه الطُّرُقِ إذا كان على خلاف مقتضى الظاهر، كأنْ يتحدّث المتكلّم عن نفسه بأسلوب الخطاب الذي يخاطب به غيره، أو يتحدَّث مع من يخاطبه

---

1 حَبَنَّكَة، البلاغة العربية،ج 1، ص 166، وص 173.

2 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 – المعاني، كود المــادة: LARB4103، المرحلــة: بكــالوريوس، للناشر: جامعة المدينة العالمية، ج1، ص 72.

3 الأصفهاني، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (المتوفى: 421هـ)، الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417، ج1، ص 65.

بأسلوب التكلّم عن الغائب، أو يتحدّث عن نفسه بأسلوب الحديث عن الغائب، أو يتحدّث عن الغائب بأسلوب الخطاب، وهكذا ومنه حديث الله ﷻ في هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً﴾ فحديثه عن نفسه بأسلوب الحديث عن الغائب وكان مقتضى الظاهر أن يقول: وإذْ قلتُ للمَلائِكَة ....، وفي الجملة الثانية: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كان مقتضى الظاهر أن يقول: وإذ قلت لهم إني أعلم مالا تعلمون" ويُلَقّبُ الالتفاتُ بشجاعة العربيّة، وهو فنٌّ بديعٌ من فنون القول"[1].

ومن حيث البلاغة البديعية؛ فقد جاء بين لفظ (قَالَ) ولفظ: (قَالَ) الثاني جناس تام، وبين لفظ (قَالَ) ولفظ: (قَالُوا) ولفظ (قَالَ) جناس اشتقاق.

(2)- وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿البقرة: 31﴾.

التفسير: جاء في بعض كتب التفسير حول قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ "أَنَّ اللَّهَ ﷻ عَلَّمَ آدَمَ عليه السلام أَسْمَاءَ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا، جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْأَجْنَاسِ وَعَرَّفَهُ مَنَافِعَهَا، هَذَا كَذَا، وَهُوَ يَصلُحُ لِكَذَا. وأنّ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِاللُّغَاتِ كُلِّهَا مِنَ الْبَشَرِ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ"[2]، وقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾ أي: "عرض تلك المسميات، والذوات على الملائكة، أو مدلولات الألفاظ، ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ تبكيت لهم وتنبيه على عجزهم عن

---

1 حبنكة، حسن عبد الرحمن، البلاغة العربية، ج1، ص 479- 480.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج1، ص 279- 284.

أمر الخلافة، وليس بتكليف ليكون من باب التكليف بالمحال، والإنباء: إخبار فيه إعلام، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة لعصمتكم"[1].

البعد البلاغي: في هذه الآية جاء لفظ (قال) في جملة خبرية على النحو التالي: ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي أنّ حدث القول حدث واقع فعليا، وأنّ الله قد قال فعلا، وجملة القول الخبرية هذه تحمل في تفاصيلها جملة مقول القول الإنشائية التي طلب فيها المولى ﷺ من الملائكة إخباره عن أسماء مسميات الأشياء التي عرضها عليهم، ليس من باب الإلزام بالقيام بهذا الطلب، ولكن لإنشاء طلب القيام به؛ من باب إعلامهم بعجزهم، وأن الله يفعل ما يشاء، وليس فيه قصد للمطابقة ولا لعدمها خارج العبارة؛ إذ لو كان له خارج لكان خبرا يتصور فيه الصدق والكذب اللذان هما من لوازم الخارجية"[2]، ولو كان كذلك لوقعت الملائكة في العجز، ثم في المعصية-وهم الخلق المعصومون عن ذلك- لعدم قدرتهم على الإنباء؛ لأنها لا تعلم شيئا عن تلك الأسماء، أو لو كان كذلك لألهمهم ﷺ الإجابة، لتتحقق المطابقة، فما كان منهم إلا أن اعترفوا بعجزهم مباشرة ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا...﴾ ﴿البقرة: 32﴾، نزّهوه وتابوا إليه من مقالتهم، ومعناه سبحانك تبنا إليك من مقالتنا فاغفر لنا ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا...﴾ أي ما ألهمتنا"[3]، "وجاءت الجملة الإنشائية هنا لإنشاء طلب الفعل، وليس الاشتمال

---

1 البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: 685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ت، محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي- بيروت1418 هـ، ج1، ص 69.

2 القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: 739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، ت، محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، ط، الثالثة، ج 1، ص 56.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 42.

على خير ما؛ "لأنها لا تشتمل على خير"[1]، وجاء هذا متوافقا مع ما دل عليه مضمون الآية الكريمة من خلال ما سبق من تفسيرها؛ أنه من المحال أن يكون من باب التكليف والإلزام، كما أن بديعية الالتفات لا تعدو هذه الجملة فمقتضى التعبير بالفعل (فقال) أن يكون "فقلت أنبئوني"؛ ولكن البراعة في تلوين الخطاب والحديث عن الذات جاء بطريقة على غير المعهود من كلام العرب، فجاء وكأن الحديث عن الغائب- وأنى له سبحانه الغياب- وهو المتحدث عن ذاته.

(3)- ومنها حوار الله ﷻ مع آدم عليه السلام والملائكة، بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿البقرة: 33﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم﴾، "يعني أخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾، يعني أسماء الدواب وما فيها من الحكمة وما يحل أكله وما لا يحل أكله. ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ﴾، يعني فلمّا أخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال الله تعالى لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني سر أهل السماوات وسر أهل الأرض، وما عني سر أهل السماوات وسر أهل الأرض، وما يكون فيهما. ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما أظهرتهم من الطاعة يعني الملائكة ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني ما أسر إبليس في نفسه حين قال: لئن فضل علي لا أطيعه ولئن فضلت عليه لأهلكنه. وقال بعضهم: إنهم كانوا يقولون حين أراد الله أن يخلق آدم: إنه لا يخلق أحداً أفضل منهم، فهذا الذي كانوا يكتمون. وقد قيل: إنه لما خلق آدم عليه السلام، أشكل عليهم أن آدم أعلم أم هم؟ فسألهم عن الأسماء، فلم يعرفوها وسأل آدم عليه السلام عن الأسماء فأخبرهم بها، فظهر لهم أن آدم عليه السلام أعلم منهم. ثم أشكل عليهم أنه أفضل أم هم؟ فأمرهم ﷻ بالسجود له، فظهر لهم فضله"[2].

---

1 حبنكة، حسن عبد الرحمن، البلاغة العربية، ج1، ص 167.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 42.

وهذا لطيفة قرآنية ذكرها القشيري: "ومن آثار العناية بآدم عليه السلام أنّه لمّا قال للملائكة عليهم السلام: «أنبئوني» داخلهم من هيبة الخطاب ما أخذهم عنهم، لا سيما حين طالبهم بإنبائهم إياه ما لم تحط به علومهم. ولما كان حديث آدم عليه السلام ردّه في الإنباء إليهم فقال: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ومخاطبة آدم عليه السلام الملائكة لم يوجب له الاستغراق في الهيبة. فلمّا أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني ما تقاصرت عنه علوم الخلق، وأعلم ما تبدون من الطاعات، وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم عليه السلام"[1]. بجملة إنشائية استفهامية، تحمل معنى التذكير والتبكيت.

البعد البلاغي: جاءت الجملة الأولى من الآية الكريمة: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ﴿البقرة: 33﴾، جملة خبرية تفيد أنّ هذا ما كان من الله ﷻ ردّا عليهم، ومحاورته لهم، وجملة الحوار الخبرية تحمل في ثناياها جملة مقول القول الإنشائية، التي تفصل مضمون القول، والمراد من الحوار بجملة نداء طلبية، وهو ما أمر به المولى ﷻ آدم عليه السلام بفعله، وهو الإنباء، ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ﴾، وجاءت الاستجابة مباشرة بجملة شرطية، وهي دليل على سرعة القيام بعملية الإنباء، ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ﴾ ارتبط بها القول التالي للمولى ﷻ: ﴿قَالَ...﴾ جملة قول خبرية ثانية، تحمل في مقولها جملة استفهام إنشائية؛ تفيد معنى الاستفهام والتبكيت، تطلبها الموقف المناسب للرد على الملائكة حينما كان منهم الاعتراض: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿البقرة: 33﴾.

---

1 القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: 465هـ)، لطائف الإشارات = تفسير القشيري، ت، إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر ط 3، ج1، ص 78.

ومن حيث البديع؛ فقد جاء بين لفظ: (قَالَ) الأول، ولفظ: (قَالَ) الثاني جناس تام، وبين لفظ (قَالَ)، ولفظ: (قَالَ) ولفظ (أَقُلْ) جناس اشتقاق.

*****

(2)- و بلفظ (قَالَا) المسند إلى ألف الاثنين، الغائبَين ؛ ورد ثلاث مرات)[1]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿الأعراف: 23﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ الله ﷻ يخبر عن آدم وحواء فيما أجاباه به عندما أمرهما بالهبوط من الجنة إلى الأرض، بأنهما قد اعترفا على نفسيهما بالذنب، وسألاه المغفرة والرحمة، فـ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ قولا فعليا وإقرارا داخليا بأن ما قاما به هو من صنع يديهما، وأنهما جنيا على نفسيهما بالظلم لها، ويستحقان ما عوقبا به؛ دليل أنهما طلبا من الله ﷻ الرحمة والتجاوز منّة وتلطفا، مؤكدين ذلك بقولهم: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ معترفين أن المغفرة والرحمة لا تكون إلا منه، على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات، واستصغارهم العظيم من الحسنات، وَقَدْ جَزَمَا بِأَنَّهُمَا يَكُونَانِ مِنَ الْخَاسِرِينَ إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمَا"[2].

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 561.

2 الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر (المتوفى: 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، ت، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، 1420 هـ - 2000 م ، القشيري، لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، ج1، ص 527، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، (المتوفى: 538)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407ه ، ج2، ص 96، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 181، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج8 ب، ص 67.

البعد البلاغي: جاءت جملة القول جملة خبرية، تدل على ما كان من آدم وحواء من ردة فعلهما حينما أمرا بالهبوط من الجنة؛ بأنهما (قَالَا) قولا فعليا، والخبر الذي جاء فيها أنّه لا يحتمل إلا الصدق، نسبة إلى الخبر فيها، وهو ما دلّ عليه الكلام، ويسمى نسبة كلامية"[1]، أمّا مضمون قولهما وتفصيله فتفسره جملة مقول القول، الإنشائية الطلبية، التي بادرا فيها الدعاء لله، وطلب المغفرة منه ﷻ والرحمة، بقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهذا ما قالاه عليهما السلام بالفعل عندما أُمرا بالهبوط، وقد جاء الطلب المقرون بأسلوب الشرط النافي للفعل (لَمْ تَغْفِرْ) المتبوع بالجواب إذا لم تتحقق المغفرة وهو (لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الخسران المؤكد بنون التوكيد (لَنَكُونَنَّ)، وجاء أسلوب الشرط المنفي للاعتراف بالذنب، المتضمن الرجاء بالمغفرة.

(2)- وقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ ﴿طه: 45﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ موسى وهارون -عليهما السلام- قالا: ربنا إننا نخاف فرعون إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا به أن يعجل علينا بالعقوبة، أو يضر بنا، أو يقتلنا، أو يتجاوز الحدّ في صدنا، أوْ أنْ يَطْغى ويتكبّر ويستعصي علينا"[2]، وقيل إنّ:"هذا القول كان من موسى وهارون حين رجع موسى إلى مصر، وأوحى الله تعالى إليهما، وقيل إن الله ﷻ قد قال ذلك لموسى عند طور سيناء، فأجابه موسى عن نفسه وعن هارون، فأضاف القول إليهما جميعاً"[3]، "حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام: "إنَّنا نَخافُ". "ويقال لم يخافا على

---

1 المراغي، أحمد بن مصطفى (المتوفى: 1371هـ)، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، ص 43.

2 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 314، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 401، الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق، (المتوفى 427هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ت الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان، ط1-1422هـ - 2002م، ج6، ص 246.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص401.

نفسيهما شفقة عليهما، ولكن قالا ذلك خوفا على الدعوة من أن تموت في مهدها، وقيل إنهما خافا من تسليط الله إياه عليهما، ولكنهما تأدّبا في الخطاب"[1].

البعد البلاغي: جاءت جملة القول: ﴿قَالَا...﴾ جملة خبرية، لا تحتمل إلا الصدق نسبة إلى الخبر، وأنّهما (قالا) فعلاً؛ أمّا مضمون قولهما فتفصله جملة مقول القول: ﴿...رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ فهي جملة إنشائية، طلبية، تفيد معنى الدعاء؛ بأن يكف الله عنهما إفراطه عليهما بالعذاب، أو أن يطغى عليهما؛ "أن يا رب أمنّا، وكف عنّا..." وجاءت الجمل في الآية مثالا على: "البديعة المعنوية التي تسمى حسن المراجعة؛ والتي يحكي المتكلّم مراجعةً في القول بينه وبين محاورٍ له بأوجز عبارة، وأعدلِ سَبْك، وأعذب لفظ، وهذه المراجعة لا تتقيد بأن تكون بين المتكلم وبين مُحَاورٍ له محاورة وديّة؛ فقد تكون مراجعةً بين شخصين أو بين خصمين على الوجه الذي يحقق صفات المحاورة، وهي بذلك لا تخرج أيضا عن نطاق أنها عملاً بديعاً يدخل في حُسْن المراجعة"[2]، وقصة موسى وهارون عليهما السلام حينما بينا ما لديهما من توقّع للعواقب والموانع التي من الممكن أن تواجههما لما كلفهما المولى ﷻ بالذهاب إلى فرعون، ودعوتهما له بالتوحيد وجميل ردهما، وحسن حوارهما يحقق البديعية المذكورة؛ فهما مع خوفهما على دعوتهما بما يتوقعان من رد فرعون عليهما؛ لم يظهرا تأففاً، أو اعتراضا؛ ولكنهما ردا بجواب حسن، وراجعا بلطف من الكلام، والتمسا الوعد بالأمان دون أن يطلباه مباشرة، ولكن عن طريق التعريض لحاجتهما، فتحقق مطلبهما، وهما في قمة الأمان من الله ﷻ، والطاعة له.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿النمل: 15﴾.

---

1 القشيري، لطائف الإشارات، ج2، ص 460، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 66.

2 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 476.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ الله أعطى داوود وسليمان علماً فعملا به وعلماه، وعرفا حق النعمة فيه ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿النمل: 15﴾، والكثير المفضل عليه: من لم يؤت علما. أو من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير. وفي الآية دليل على شرف العلم وعلو محله وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم. وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله، كما قال ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ﴿المجادلة: 11﴾، وما سماهم رسول الله ﷺ «ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة، وذكر أنّ: "هَذَا الحَدِيث صَحِيح رَوَاهُ الإِمَام أَحْمد فِي «مُسْنده» وَأَبُو دَاوُد فِي «سننه» وَالتِّرْمِذِيّ فِي «جَامعه» وَأَبُو حَاتِم بن حبَان فِي «صَحِيحه» من حَدِيث (أبي الدَّرْدَاء) ﷺ مَرْفُوعا"[1]، وجاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل وسنن ابن ماجة: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دَاوُدَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ جَمِيلٍ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، أَتَيْتُكَ مِنَ الْمَدِينَةِ، مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ: فَمَا جَاءَ بِكَ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: وَلَا جَاءَ بِكَ غَيْرُهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا

---

1 سراج الدين، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: 804هـ)، البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير، المحقق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض-السعودية، 1425هـ-2004م، ج 7، ص 587.

دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1]، لأنهم القوّام بما بعثوا من أجله. وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم، منها: أن يحمدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم. وفيها التذكير بالتواضع، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم"[2].

البعد البلاغي: من البلاغة في الجملة القرآنية: ﴿وَقَالَا﴾ أنها جملة خبرية، جاءت معطوفة على ما قبلها بحرف الواو، بدلا من الفاء؛ وذلك كِنَايَةً عَنْ تَفْضِيلِهِمَا بِفَضَائِلَ غَيْرِ الْعِلْمِ. وجملة قولهما هذه جاءت مفصلة بجملة مقول القول الإنشائية: ﴿...الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والتي تفيد معنى الدعاء والحمد منه، وقوله: ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَغَيْرُهُمْ، وَتَنْوِيهٌ بِأَنَّهُمَا شَاكِرَانِ نِعْمَتَهُ. لِأَنَّهُ لَيْسَ حَمْدًا لِمُجَرَّدِ الشُّكْرِ عَلَى إِيتَاءِ الْعِلْمِ. وَأَنَّ حِكَايَةَ قَوْلَيْهِمَا وَقَعَتْ بِالْمَعْنَى، بِأَنْ قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنِي، فَلَمَّا حُكِيَ الْقَوْلَانِ جُمِعَ ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ شَكَرَ اللَّهَ عَلَى مِنَحِهِ وَمِنَحِ قَرِيبِهِ، عَلَى أَنَّهُ يَكْثُرُ اسْتِعْمَالُ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ لَا لِقَصْدِ التَّعْظِيمِ بَلْ لِإِخْفَاءِ الْمُتَكَلِّمِ نَفْسَهُ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ تَوَاضُعًا،و يحتمل أنه تعالى أخبر عما صنع بهما وعما قالا؛ كأنه قال: نحن فعلنا إيتاء

---

1 أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، رقم الحديث: 21715، ج 36، ص 45، 1421هـ - 2001 م، ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (المتوفى: 273هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، باب فضل العلماء والحث على العلم، ج1، ص 81.

2 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 351 -352، النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (المتوفى: 710هـ)، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، 1419 هـ - 1998 م، ج2، ص 594- 595، أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، ج10، ص 5442.

العلم، وهما فعلا الحمد، من غير بيان ترتّبه عليه؛ اعتمادا على فهم السامع"[1]. يلاحظ من لفظ (قالا) الذي ورد في المواقع الثلاثة أنه صدر من شخصين شريكين في الهمّ والقضية؛ ابتداء بقضية آدم وحواء عليهما السلام واعترافهما بالذنب، وطلب المغفرة، مرورا بقضية موسى وهارون عليهما السلام، وخوفهما من فرط فرعون عليهما، إلى اعتراف داوود وسليمان عليهما السلام، بما أوتيا من علم (فقالا) الحمد لله؛ مما يتطابق فيه الفعل (المسند) مع الفاعل، (المسند إليه) تطابقا تامّا.

*****

(3)- وبلفظ **(قالَت)** المسند إلى ضمير المؤنث، الغائب؛ بدليل تاء التأنيث التي لحقت به، فقد ورد ثلاث وأربعين مرة)[2]، ومن الاستقراء تبين أنه لا يشترط فيه الإنفراد؛ بدليل الآية التالية، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ ﴿آل عمران: 42﴾؛ فقد يشير إلى جماعة من جنسه، وكذلك لم يتقيد بالإشارة إلى المؤنث الحقيقي، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿إبراهيم: 10﴾، ومن هذه الآيات:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿آل عمران: 42﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ "أنّه قد يكون القائل هو جبريل عليه السلام لكن ذلك لا يعلم إلا بالخبر، فإن صح الخبر فهو كذلك، وإلا لم

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص 234- 235، الصعيدي، عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج2، ص 342- 343.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 561- 562.

يقل من كان مِنَ الملائكة قال ذلك"[1]، و"يجوز أن يكون هذا ابتداء خطاب من الملائكة على مريم من قبلهم رفعا بشأنها، ويجوز أن تكون قد سمعت كلامهم وشاهدتهم، ويجوز أنها لم تشاهدهم وأنهم هتفوا بها: إن الله اصطفاك وفضلك على أمثالك وأقرانك من النساء، وطهّرك من الفحشاء والمعاصي بجميل العصمة، وعن مباشرة الخلق واصطفاك على نساء العالمين في وقتك"[2]، كما ورد أيضا أن قولهم: ﴿يا مَرْيَمُ﴾ "أنّ الملائكة كلمتها مشافهة معجزة لزكريا، أو إرهاصا لنبوّة عيسى عليه السلام، وورد أنّ قول الملائكة لها كان بالإلهام، فإنه ما أوحى الله إلى امرأة وحي النبوة، وقيل: بل قد أوحي إليهن ولكن لم يبعثن رسلا"[3]، "والإجماع على أنه ﷺ لم يستنبئ امرأة لقوله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا﴾. وقيل ألهموها، لاصطفائها غير مرة؛ فالاصطفاء الأول تقبلها من أمها ولم يقبل قبلها أنثى وتفريغها للعبادة وإغناؤها برزق الجنة عن الكسب وتطهيرها عما يستقذر من النساء. والثاني هدايتها وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات الإلهية؛ كالولد من غير أب وتبرئتها مما قذفتها به اليهود بإنطاق الطفل وجعلها وابنها آية للعالمين فقد ﴿اصطفاك على نِساءِ الْعالَمِينَ﴾"[4] .

---

1 الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور (المتوفى: 333هـ)، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ت، د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، 1426 هـ - 2005 م، ج2، ص 367.

2 القشيري، لطائف الإشارات = تفسير القشيري، ج1، ص 242.

3 الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ)، تفسير الراغب الأصفهاني، جزء 1: المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، 1420 هـ - 1999 م، ج2، ص 551- 555، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 361.

4 الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 361، البيضاوي، ناصر الدين، أنوار التنزيل، ج2، ص 16، الأنجري، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ت، أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر، الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، 1419هـ، ج1، ص 351.

البعد البلاغي: ابتدأت الآية بالجملة الخبرية: ﴿وَإِذْ قَالَتِ...﴾ التي تفيد خبر (القول) الذي صدر من الملائكة فعلا حين نادت مريم عليها السلام، وتصدر الظرف: (إذ...) الجملة الخبرية وذلك للأهمية، ولتأكيد وقت حدوث ذلك الخبر؛ أي أذكر وقت قالت الملائكة...، وجاءت جملة مقول القول لتشير إلى ما قالت الملائكة لمريم بجملة النداء الإنشائية الطلبية، التي أنشئ النطق بها لمخاطبة مريم في ذلك الوقت من أجل رفع شأنها، وبث روح الطمأنينة في قلبها، بقولهم: ﴿يَا مَرْيَمُ...﴾. كما أنّ هذه الآية جاءت من باب الاستطراد؛ حيث إنه: "لَمَّا فَرَغَ مِنْ قِصَّةِ زَكَرِيَّا عليه السلام، وكَانَ قَدِ اسْتَطْرَدَ مِنْ قِصَّةِ مَرْيَمَ إِلَيْهَا، رَجَعَ إِلَى قِصَّةِ مَرْيَمَ، وهذه عادة من عادات العرب وأسلوب من الأساليب البلاغية في الحديث، مَتَى ذَكَرُوا شَيْئًا اسْتَطْرَدُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْأَوَّلِ إِنْ كَانَ لَهُمْ غَرَضٌ فِي الْعَوْدِ إِلَيْهِ، وكانت بداية العودة من الاستطراد بذكر نداء الملائكة لمريم ومواساتها، وبث الطمأنينة في قلبها، وتبرئتها مما رَمَتْهَا بِهِ الْيَهُودُ، وَإِظْهَارُ اسْتِحَالَةِ أَنْ يَكُونَ عِيسَى إِلَهًا، فَذَكَرَ وِلَادَتَهُ.كما جاء أيضا في قوله: ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ أَنَّهُ جَمْعٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ جِبْرِيلُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لِأَنَّهُ جاء أنه لَا يَنْزِلُ لِأَمْرٍ إِلَّا وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَقِيلَ: جِبْرِيل وَحْدَهُ. وَفِي نِدَاءِ الْمَلَائِكَةِ لَهَا بِاسْمِهَا تَأْنِيسٌ لَهَا وَتَوْطِئَةٌ لِمَا تُلْقِيهِ إِلَيْهَا وَمَعْمُولُ الْقَوْلِ الْجُمْلَةُ المؤكدة: بإنّ، وَالظَّاهِرُ مُشَافَهَةُ الْمَلَائِكَةِ لَهَا بِالْقَوْلِ"[1]. وجملة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ جملة خبرية لا تحتمل إلا الصدق نسبة إلى القائل، ونسبة إلى الخبر.

يتبين من الآية القرآنية – موضع الشاهد– أنّ استخدام لفظ (قَالَت) غير مقيد بجنس معين من المخلوقات، أو فيه دلالة على عدد محدد ممن أسند إليه الفعل، أو فيه جزما قاطعا على أنّه قول وحديث مما نعهده من الأصوات الصادرة من الفم، فقد أعطى السياق القرآني سعة في

---

1 أبو حيان الأندلسي، أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف أثير الدين الأندلسي، (المتوفى 745هـ)، البحر المحيط في التفسير، ت صدقي محمد جميل، دار الفكر– بيروت، ط1420هـ، ج3، ص 146.

استيعاب مدلول اللفظ، أكثر من ذلك، ومساحة أوسع في القص السردي، بعد رؤية منطلقة من الحقيقة والواقع لا من الخيال الوهمي، وأثرت مدلولات اللفظ من السياق الذي حلت فيه؛ فهو ليس مجرد فعل صدر من واحدة من الإناث البشرية العاقلة؛ بل تعدى ذلك إلى ما لا يعرف عدده ولا جنسه من المخلوقات النورانية العابدة، في أفراد وجماعات!

(2)- وقال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿هود: 72﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير حول قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿هود: 72﴾، أنّ هذا قول السيدة (سارة) زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام، عندما بشرتها الملائكة، فقالت: يا عجباً، وأصله في الشر فأطلق على كل أمر فظيع. وهو نداء ندبة وأصلها يا ويلتاه وهي كلمة يستعملها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه مثل يا عجباه ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين أو تسع وتسعين، ﴿وَهذا بَعلِي شَيْخاً﴾ أي: زوجي، وأصله القائم بالأمر، ابن مائة أو مائة وعشرين، وكان بين الولادة والبشارة سنة"[1].

البعد البلاغي: جاءت جملة القول: ﴿قَالَتْ...﴾ جملة خبرية؛ لا تحتمل غير الصدق، تشير إلى صدور عملية القول فعلا من السيدة سارة، وهي جَوَابٌ لِلْبِشَارَةِ، أمّا جملة مقول القول: ﴿يَا وَيْلَتَى...﴾ جملة نداء إنشائية؛ تفيد معنى التعجب، أنشئت للرد على الحدث الجديد الذي جاءت به الملائكة، بدلالة ﴿أَأَلِدُ...؟﴾ التي تفيد استفهاماً معناه التعجب، أُنشئ ليفيد ما يتعجب منه من الأمور العجيبة الشاقة، وهي هنا للأمر الشاق؛ لأن البشرى تحمل في نفسها آلام الحمل

---

1 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 142، الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، (المتوفى: 741هـ)، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، 1415هـ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج2، ص 494.

والوضع، كما أنها أحست في نفسها بما يتبع من وهن لما هي فيه من العجز، والتقدم في العمر" وَالنِّدَاءُ فِي يَا وَيْلَتى اسْتِعَارَةٌ تَبَعِيَّةٌ بِتَنْزِيلِ الْوَيْلَةِ مَنْزِلَةَ مَنْ يَعْقِلُ حَتَّى تُنَادَى، كَأَنَّهَا تَقُولُ: يَا وَيْلَتِي احْضُرْ هُنَا فَهَذَا مَوْضِعُكَ."[1]، وَالْوَيْلَةُ: الْحَادِثَةُ الْفَظِيعَةُ وَالْفَضِيحَةُ. وَلَعَلَّهَا الْمَرَّةُ مِنَ الْوَيْلِ. وَتُسْتَعْمَلُ فِي مَقَامِ التَّعَجُّبِ، ومن البلاغة فيها أيضا: اختصار القصة اختصارا بديعا لوقوعها فِي خِلَالِ الْحِوارِ بَيْنَ الرُّسلِ وَإِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وحكَايَة ذَلِك الْحِوَارِ اقْتَضَتْ إِتْمَامَهُ بِحِكَايَةِ قَوْلِهِمْ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ﴾. وَأَمَّا الْبُشْرَى فَقد حصلَت قَبْل أن يُخْبِرُوهُ بِأَنَّهُم أُرْسِلُوا إِلَى قَوْمِ لُوط كَمَا فِي سُورَةِ ﴿الذَّارِيَات: 28﴾ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾. فَلَمَّا اقْتَضَى تَرْتِيبُ الْمُحَاوَرَةِ تَقْدِيمَ جُمْلَةِ قَالُوا لَا تَخَفْ حُكِيَت قِصَّةُ الْبُشْرَى وَمَا تَبِعَهَا مِن الْمُحَاوَرَةِ بِطَرِيقَةِ الْحَال، لأن الحال تصلح للقبلية وللبعدية وهي الحال المقدرة.

وضحك امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام مِنْ تَبْشِيرِ الْمَلَائِكَةِ لهما بِغُلَامٍ، هو من باب التَّعَجُّبِ وَالاستِبْعَادِ"[2].

وجاء لفظ (قالت) في هذه الآية على الوجه الحقيقي للقول في استخدامه لما أسند إليه من المؤنث الحقيقي، العاقل فيما مضى من الزمن.

(3)- وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿النمل: 18﴾.

التفسير: ذكر في عدد من كتب التفسير حول قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿النمل:

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 119- 120، أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج7، ص 3732، الزحيلي، د وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية، 1418 هـ، ج12، ص 105.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 119- 120.

18﴾ ذكر أنّ في قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ...﴾ جاء على وجهين: "على حقيقة القول من النملة كما يكون من البشر، أطلع اللّه سليمان عليه السلام على ذلك، وألقاه على مسامعه؛ لطفًا منه وفضلا من بين سائر الخلائق، والثاني: أن يجعل اللّه في سرية النمل معنى يفهم بعضها من بعض لما يريدون فيما بينهم من أنواع الحوائج على غير حقيقة القول، وأطلع اللّه سليمان عليه السلام على ذلك؛ حتى فهم منها ما كانت تفهم بعضها من بعض؛ واللّه أعلم. وقوله تعالى في قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يكسرنكم، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أنّ في هذا ثناء على سليمان من النملة ومدح له لعدله في ملكه وسلطانه: بأنه لو شعر بكم، لم يحطمكم ولم يهلككم، أو أن لا يشعر جنوده كلام النملة، وكلام النملة يدل على أنها كانت رئيسة سائر النمل وسيدته؛ حيث قالت ذلك من بين غيرها من النمل، وعلى كل رئيس وسيد للقوم أن يحفظ رعيته وحواشيه عما يحملهم على الفساد"[1].

البعد البلاغي: جاءت جملة القول: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ...﴾ جملة خبرية، لا تحتمل غير الصدق فيما جاءت به من وقوع القول على الوجه الحقيقي (للخبر)، أمّا حقيقة القول ففيه أكثر من وجه؛ كما جاء في فقرة التفسير، وجملة مقول القول: "يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ " جملة نداء إنشائية، طلبية تفيد الأمر صنعها الموقف المفاجئ الذي خافت رئيسة النمل على جماعتها من أن تتعرض له؛ فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، وجاء هذا الأمر ترجمة لما ذهب إليه عدد من علماء البلاغة، أنّ الغالب في جملة النداء أن يصحبها أمر، أو نهي"، وذهب علماء البلاغة في هذا الباب مذهبا دقيقا؛ في أنّ هذه الجملة "تشكل مثالا من أمثلة الإيجاز بالقصر: وهو الإيجاز الذي لا يُعتَمَدُ فيه على استخدام الحذف، حيث يكون بأقوال ألفاظها قليلة، ومعانيها غزيرة، دون أن يكون فيها ما يدلُّ على كلام مطويّ محذوف من اللّفظ، مُشار إليه بقرينة من قرائن المقال، أو قرائن الحال، أو الاقتضاء العقلي. وفي القرآن أمثلة رائعة وكثيرة مشابهة لها، فيها قِصَر في

---

1 الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج8، ص 106.

ألفاظها، وثَرْوَةٌ واسعةٌ في معانيها ودَلالتها، مع أنَّها لا تحتوي على حذف، بل جاءت ثَرْوَةَ المعاني من منطوق الألفاظ المختارة بعناية فائقة"[1]، وإيجاز القصر الذي جاء في هذه الآية: "أنَّ التعبير عن قول النملة قد جمع ثلاثة عشر جنساً من الكلام: "النداء في "يا"، الكناية في "أيُّ"، التنبيه في "ها"، التسمية في "النّمل"، الأمر في "ادْخُلُوا"، القصة في "مساكنكم"، النهي التحذيري في: "لَا يَحْطِمَنَّكُمْ"، التخصيص في "سليمان"، التعميم في "وجنوده"، الكناية بالضمير في أكثر من موضع، حسن الاعتذار والالتفات في "وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ"، التأكيد في "لا يحطِمَنَّكُم"، والإيجاز بالعطف، بالإضافة إلى أنّ فيه أمراً بالدخول، وبيان الملجأ والمأمن"[2]، "ومن البلاغة في استخدام اللفظ في هذا الموقع أنّ هذا يشير إلى سعة مدلوله وإمكانية استخدامه بحسب السياق الذي يكشف عن عمق معناه، وتعدد استخداماته، وليس حكرا على جنس معين لا يتعداه، أو في نص ضيق الأفق؛ فها هو اللفظ قد استخدم في سياق لا يدل القائل فيه على عقلانيته، وقدرته الفعلية على القول في واقع الحياة والمعهود منها، ولكنه وسع مدارك العقل وتقبله بإيمان على قدرته ﷻ على إنطاق ما لا ينطق من غير العقلاء من المخلوقات، كما أنه أثرى البعد القصصي في القرآن الكريم، في تعدد الشخوص الفاعلة فيه، ووسع مجال الخيال المنطلق من الحقيقة لا من الوهم، وتعدد مصادر الدراما والحديث، ووضح مدلول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ* وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ ﴿النمل: 15- 16﴾، وبرهنة؛ فهذا جزء من العلم الذي فضل به سليمان، وشيء من الكل الذي أوتيه عليه السلام.

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 29- 30.

2 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، 39، الزحيلي، التفسير المنير، ج19، ص 271.

*****

(4)- وبلفظ (قَالَتَا) المسند إلى الألف والتاء، فيما يدل على المثنى من جنس الإناث من العقلاء، في الزمن الماضي، (فقد ورد مرتين)[1]، هما في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿القصص: 23﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿القصص: 23﴾، "أنّ موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وَجَدَ مِنْ دون الناس امْرَأَتَيْنِ منفردتين، تطردان غنمهما، وتحبسانه من أن تختلط بغنم الناس، ولا تسقيان حتى يسقي الناس، ويصدرون، ثم تسقيان مما فضل من أغنامهم، وحذف الغنم اختصاراً. فتوجه إليهما مستفسرا، مَا شأنكما ترعيان الغنم مع الرجال، ولا تسقيان مع الناس. وفي الخطب تضخيم الشيء؛ فقد استعظم ما هما فيه من العزلة وعدم حصولهما على حق السقاية لأغنامهما مثل باقي الرعاء! ﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ ﴿القصص: 23﴾، أي: قالت المرأتان - وهما ابنتا شعيب عليه السلام- لموسى عليه السلام: لا نسقي ماشيتنا حتى يصدر الرعاء مَوَاشِيهم، وينصرفوا، فنسقي مواشينا ما أَفضلَتْ المواشي في الحوض. وجاء أنّ في امتناعهما من السقي حتى يصدر الرعاء وجهين: أحدهما: تصوناً عن الاختلاط بالرجال لِأَنَّهُمَا كَانَتَا ذَوَاتَيْ مُرُوءَةٍ وَتَرْبِيَةٍ زَكِيَّةٍ. الثاني: لضعفهما عن المزاحمة بماشيتهما"[2].

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 562.

2 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 554، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 603- 60، الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، (المتوفى450هـ)، تفسير الماوردي- النكت

البعد البلاغي: جاءت جملة القول: ﴿قَالَتَا...﴾ جملة خبرية تشير إلى وقوع حدث القول وقوعا فعليا لا يحتمل توقعا آخر، مسندا إلى المثنى من النساء، وهما ابنتا شعيب ﷺ ردا على القول الصادر من سيدنا موسى ﷺ، من باب المحاورة، أمّا جملة مقول القول: "لَا نَسقِي حَتَّى..." جملة إنشائية ، تفيد معنى النفي، دلت عليها (لا) النافية، المقترنة بالفعل المضارع (نسقي)، وقد صنع هذه الجملة الموقف الراهن للرد على السؤال الموجه لهما، والمقصود امتناعهما عن القيام بعملية السقاء حتى يزول السبب؛ وهو صدور الرعاء، وجاءت الآية الكريمة بكاملها مثالا على: "بلاغة الإيجاز بحذف المفردات؛ ومنها بلاغة حذف المفعول به، فجاء في أحد وجهي الحذف؛ وهو: الحذف من جهة اللفظ ويراد من طريق المعنى، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص: 23). فقد تم حذف المفعول به في أربعة أماكن، إذ المعنى: وجد أمة من الناس يسقون "مواشيهم"، وامرأتين تذودان "مواشيهما"، وقالتا: لا نسقي "مواشينا"، فسقى لهما "مواشيهما"؛ لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس سقي: ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء"[1]، وتُـرك

والعيون، ت السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية/ بيروت- لبنان، ، ص 246، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص 100.

1 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 401، أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، (المتوفى 982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي_ بيروت، ج7، ص 8، ابن الأثير، ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: 637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة، ج2، ص 232، و ص 239، المؤيد بالله، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: 745هـ)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، 1423 هـ، ج 2، ص 56- 57، الصعيدي، عبد المتعال، بغية الإيضاح ، ج1، ص 204، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص 100.

المفعول لأن الغرض هو الفعل لا المفعول، فقد رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقي، ولم يرحمهما للنوع الذي يبتغيان سقايته من الأنعام"[1]. فقد جاء الذكر في الآية الكريمة على الجزء الأهم في القصة ؛ كما هو المعهود في القصص القرآني. أمّا من جهة البلاغة في الألفاظ المفردة؛ فقد جاء في الآية مثال على بديعية جناس الاشتقاق فيما بين لفظ: (قَالَ)، ولفظ: (قَالَتَا).

أضف إلى ما سبق أنّ الفعل (قَالَتَا) جاء على الأصل الذي وضع له؛ وهو الدلالة على صدور القول والرد نطقا من اثنتين من النساء، من جنس العقلاء؛ لذا ألحقت تاء التأنيث، وألف الاثنين بالفعل إشارة إلى ذلك، وقد يشير اتحادهما بفعل واحد هو تزامنهما في قوله؛ لأنه يعبر بصدق عن الحالة الواقعية والمعاناة المشتركة، فعلا وشعورا، فجاء الجواب (بقول) واحد: ﴿لا نَسقِي حَتَّى... ﴾.

(2)- وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ استَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرضِ ائتِيَا طَوعًا أَو كَرهًا قَالَتَا أَتَينَا طَائِعِينَ﴾ ﴿فصلت: 11﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرضِ ائتِيَا طَوعًا أَو كَرهًا قَالَتَا أَتَينَا طَائِعِينَ﴾ ﴿فصلت: 11﴾، أي: "أنّ الله ﷻ قد خاطب السماء والأرض، وأمرهما بأن يعطيا الطاعة لرب العالمين، فجاء التعبير الإلهي عن جوابهما بأن: ﴿قَالَتَا أَتَينَا طَائِعِينَ﴾ بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك لا نعصي أمرك فأعطيا الطاعة بالطوع"[2].

البعد البلاغي: جاء التعبير عن القول الإلهي بالجملة الخبرية: (فَقَالَ) الجملة التي لا تحتمل غير أن الله ﷻ قد قال ما قال فعلا، وعلى وجه الحقيقة، موجها قوله إلى السماء

---

1 الصعيدي، عبد المتعال، بغية الإيضاح، ج1، ص 204.

2 الطبري، جامع البيان، ج 21، ص 439، السمرقندي، بحر العلوم،ج 3، ص 220.

والأرض، بجملة مقول القول الإنشائية؛ بالأمر التكويني: "ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا"[1]؛ وجاء ردهما مباشرة بجملة مقول القول الخبرية الفعلية: "أَتَيْنَا طَائِعِينَ"، "ولم يقل طائعتين، علما أنّ السماء والأرض مؤنثتان، لأن النون والألف اللتين هما كناية أسمائهما في قوله ﴿أَتَيْنَا﴾ يماثل كناية أسماء المتحدثين من الرجال عن أنفسهم، فأجرى قوله: "طَائِعِينَ" على ما جرى به الخبر عن الرجال كذلك. و قيل ذلك لأنهما في ردهما وكلامهما هذا، أصبح فيهما شبه من جمع العقلاء؛ لأنه وصفها بالقول والطاعة"[2].

الملاحظ من الشاهدين الوحيدين في القرآن الكريم للفظ ﴿قَالَتَا﴾ أنّه لم يختصر على المثنى من مؤنث العقلاء؛ بل تعداه إلى ما لا يعقل من السماوات، والأرض، ومعاملتهما كمن يعقل من باب المجاز ؛ لما فيهما ممن يعقل، أو كونهما يعقلان سر وجودهما؛ وهو الطاعة المطلقة لله ﷻ، وجاء التعبير عن السماوات والأرض بالفعل ﴿قَالَتَا﴾ للدلالة على جماعة كل منهما؛ فألحقتا بجماعتين تجيبان عن نفسيهما، وبهذا يكون اللفظ قد اكتسب أبعادا جديدة في مدلوله من السياق الذي احتواه، وجعله مؤثرا ومتأثرا في مكانه الذي وظف فيه دون تعسف.

*****

(5)- وبلفظ (قَالَهَا) المسند إلى المفرد المذكر من جنس العقلاء، في الزمن الماضي، مضافا إلى ضمير نصب المفعول به، المفرد المؤنث الغائب، (ورد مرة واحدة)[3]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿الزمر: 50﴾.

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 246.

2 الطبري، جامع البيان، ج 21، ص 440، الثعلبي، الكشف والبيان، ج8، ص 287، الزحيلي، التفسير المنير، ج24، ص 191.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 562.

التفسير: جاء في عدد من كتب تفسير أنّ المقصود من الجملة القرآنية ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ "بــأنّ مَن سلف من المشركين، أو هم الكفار الذين كانوا من قبل كفار مكة، أو جميع الكفار من القرون الخالية؛ أمثال قارون وأشباهه، قد قالوا جملة من القول، أو الكلام، لرسلهم تكذيباً لهم واستهزاءً؛ تدل على افتتانهم وغرورهم بأنفسهم؛ فيما آتاهم الله من نعم، معتقدين أنّ ما أوتوه هو حق لهم؛ استحقوه بعلمهم، أو لعلم الله بفضلهم؛ وذلك عندما دعوا الله وأخلصوا في الــدعاء، فخــولهم الله وبدل محنتهم عافية ونعمة، فقالوا: ﴿عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ، أو على خير عندي، أو عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ بِفَضْلِي"[1]. فـ"الضمير في قالَهَا راجع إلى قوله: ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلَــى عِلْــمٍ﴾ لأنها كلمة أو جملة من القول. وقرئ: قد قاله على معنى القول والكلام "[2].

البعد البلاغي: جاءت جملة القول ﴿قَدْ قَالَهَا...﴾ جملة خبرية مؤكدة بحرف التحقيق "قد" للتأكيد على حدوث أمر القول، وجاء التعبير بلفظ: (قال) للدلالة على من أُسند إليهم القول؛ وهم جماعة المشركين، فعامل الجماعة على إنها واحد من جنسها، أو للدلالة على المفرد الحقيقــي، وهو فرعون وقارون وأشباههما ممن سبق من العتاة، "وأنث الضمير في: ﴿قالَهَا﴾؛ لأن المراد هو الجملة أو الكلمة التي هي: ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾. فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْــسِبُونَ مِــن متاع الدنيا فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا جزاء أعمالهم"[3].

*****

---

1 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 304، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص 266.

2 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 304، القرطبي، الجامع لأحكام القــرآن، ج15، ص 266، الزمخــشري، الكشاف، ج4، ص 135، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 37.

3 الزحيلي، التفسير المنير، ج 24، ص 30- 31.

(6)- وبلفظ (قَالُوا)، الفعل الماضي، المسند إلى واو الجماعة من جنس الذكور العقلاء، (ورد ثلاثمائة واثنتين وثلاثين مرة)[1]، اخترت منها فيما يدل على الدعاء؛ منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿البقرة: 250﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّه لمّا ظهر جالُوتُ وَجُنُودُهِ لطالوتَ وجنوده ودنوا منهم؛ استعان طالوت وجنوده بالله ﷻ وطلبوا منه النصر والمعونة؛ ليثبتهم عند لقاء عدوهم فدعوا الله و: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي ربنا أنزل علينا الصبر، وقو قلوبنا على جهادهم، لتثبت أقدامنا فلا نهزم عنهم، ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين كفروا بك فجحدوك إلها وعبدوا غيرك، واتخذوا الأوثان أربابا، والتجئوا إلى الله ﷻ بالدعاء "[2].

البعد البلاغي: جاءت جملة القول: (قَالُوا) جملة خبرية فعلية، تدل على حدوث عملية القول قولا واحدا، بحسب مصدر القائل؛ وهو المولى ﷻ، والقائلون هم طالوت وجنوده، أمّا تفصيل قولهم، وبيانه فقد جاء في جملة مقول القول الإنشائية: "رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا..." الدالة على الأمر، أي: "يا ربنا أفرغ..." وتفيد معنى الدعاء لأنها طلب الأدنى من الأعلى؛ -من العبد إلى ربه- من الجملة الطلبية الإنشائية"[3]، وقد تطلب الموقف العصيب الذي يواجهه طالوت وجنوده هذه الجملة، وإنشاء هذا الدعاء؛ لما هم فيه من الحاجة للثبات، وتحقيق النصر، "وَعَبَّرُوا عَنْ إِلْهَامِهِمْ إِلَى الصَّبْرِ بِالْإِفْرَاغِ اسْتِعَارَةً لِقُوَّةِ الصَّبْرِ فَإِنِ الْقُوَّةَ وَالْكَثْرَةَ يَتَبَادَلَانِ الْأَلْفَاظَ الدَّالَّةَ عَلَيْهِمَا، فَاسْتُعِيرَ الْإِفْرَاغُ هُنَا لِلْكَثْرَةِ مَعَ التَّعْمِيمِ وَالْإِحَاطَةِ وَتَثْبِيتِ الْأَقْدَامِ اسْتِعَارَةً لِعَدَمِ الْفِرَارِ،

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 562- ص 566.

2 الطبري، جامع البيان، ج5، ص 354، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص 152، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 499.

3 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص 152.

وشبه الفِرَارِ وَالْخَوْفِ بِزَلَقِ الْقَدَمِ، فَشَبَّهَ عَدَمَهُ بِثَبَاتِ الْقَدَمِ فِي الْمَأْزِقِ"[1]. وقد جاء التطابق التام بين المسند والمسند إليه، أي: بين الفعل "قَالُوا" وبين الفاعل الذي صدر منه اللفظ وهم جماعة "طالوت وجنوده" من حيث العدد والجنس والزمن.

(2)- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿آل عمران: 173﴾.

التفسير: جاء في مناسبة هذه الآية: "أنه انطلق رسول الله ﷺ وعصابةٌ من أصحابه بعد ما انصرف أبو سفيان وأصحابه من أحد خلفهم، حتى كانوا بذي الحليفة، فتقدم أبو سفيان وأصحابه إلى نُعيم بن مسعود، وقالوا: إذا مررت بمحمدٍ وأصحابه، فقل: إنا قد أجمعنا على تصدهم بخيلٍ لا قبل لهم بها لنستأصلهم؛ فَاخْشَوْهُم، ولا تأتوهم، فلما أتاهم، وقال لهم ذلك، ردوا عليهم بدعائهم الله ﷻ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

البعد البلاغي: جاءت جملة القول: (فقالوا...) جملة خبرية، فعلية، تفيد صحة وقوع حدث القول وقوعا فعليا، ليس فيه احتمال آخر؛ نسبة إلى مصدر القول، وهو المولى ﷻ، أمّا جملة مقول القول، فهي قولهم: "حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" جملة إنشائية، صنعها الموقف الذي وضع فيه الرسول ﷺ وأصحابه، بصيغة الدعاء إلى الله ﷻ والتضرع فيما هم فيه، واللجوء إليه في التماس المعونة والكفاية منه، ورد كيد الكائدين.

أمّا من حيث البلاغة في الألفاظ المفردة في الآية؛ فقد جاء بين لفظ: (قَالَ) ولفظ: (وَقَالُوا) بديعية جناس الاشتقاق. وجاء التطابق التام بين المسند والمسند إليه في جملة القول؛ أي أنّ

---

1 الطبري، جامع البيان، ج5، ص 354، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص 152، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 499.

الفعل: (قالوا) تطابق تطابقا تامّا مع الفاعل من حيث دلالته على جماعة المذكر من جنس العقلاء، وهم رسول الله ﷺ وجماعة من أصحابه، فيما مضى من الزمن.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿الأعراف: 43﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ الله قد أخرج الغل والحسد من قلوب المؤمنين في الدنيا، فمن كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا نزع منه، فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التوادّ والتعاطف وألف بين قلوبهم في الجنة. وجاء أنّ هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعليّ ﷺ ونحوهم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم على سنتهم ومنهاجهم إلى يوم القيامة، تَجْرِي من تحت غرفهم وقصورهم وأشجارهم الأنهار ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ الذي أكرمنا بهذه الكرامة. ويقال: إنّ الذي وفقنا للأمر الذي أوجب لنا هذا الثواب هو الإسلام. ويقال: هدانا لهاتين العينين. وذلك أنّ أهل الجنة لما انتهوا إلى باب الجنة، فإذا هم بشجرة تنبع من ساقها عينان، فيعمدون إلى إحداهما، فيشربون منها، فيخرج الله تعالى ما كان في أجوافهم من غل وقذر؛ ثم يعمدون إلى الأخرى فيغتسلون فيها فيطيب الله تعالى أجسادهم من كل درن وحسد وجرت عليهم نضرة ولا تشعث رؤوسهم، ولا تغير وجوههم، ولا تشحب أجسادهم أبداً، فقالوا بعد ما اغتسلوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ "[1].

البعد البلاغي: جاءت جملة القول: (وَقَالُوا...) جملة خبرية تفيد وقوع حدث القول، قولا واحدا؛ نسبة كلامية، أمّا جملة مقول القول؛ فهي جملة إنشائية، تفيد معنى والشكر، والثناء

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 515- 516، الماوردي، النكت والعيون، ج 2، ص 225، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 8ب، ص 131- 134.

بالحمد على الله ﷻ: بقولهم "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا..."، وقد صدرت من جماعة المؤمنين، المتوافقة تماما مع مدلول اللفظ: (قالوا) المسند إلى جماعة المذكر من جنس العقلاء، فيما يشير إلى الزمن الماضي، "وفي هذا لطيفة بأن التَّعْبِيرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الْمَاضِي لِلتَّنْبِيهِ عَلَى تَحَقُّقِ وُقُوعِهِ"[1]، "ويقول المؤمنون قولتين في الجنّة شاكرين نعمة الله وفضله: القولة الأولى: الحمد لله الذي هدانا في الدنيا للإيمان الصحيح والعمل الصالح، الذي كان جزاؤه هذا النّعيم. وما كان من شأننا وتفكيرنا أن نهتدي إليه بأنفسنا، لولا هداية الله وتوفيقه إيانا لإتباع رسله. والقولة الثانية: لقد جاءت رسل الله ربّنا بالحقّ الثابت والكلام الصادق، وهذا مصداق وعد الله على لسان رسله"[2].

*****

(7)- **وبلفظ (قُلْتُ)** المسند إلى المفرد المذكر، من جنس العقلاء، المتكلم منهم، أو المخاطب، فيما مضى من الزمن ورد ست مرات)[3]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ ﴿التوبة: 92﴾.

التفسير: جاء في مناسبة هذه الآية: "في أنّه لا حرج على النفر الذين جاءوك لتحملهم على الجهاد ولا سبيل عليهم ليبلغوا إلى مغزاهم لعدم توفر ما تحملهم عليه، فقلت لهم –

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 8ب، ص 131.

2 الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير الوسيط، دار الفكر – دمشق، ط1- 1422هـ، ج1، ص 662.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 566.

والخطاب للرسول ﷺ: "لا أجد حَمُولةً أحملكم عليها" فتولوا وهم يبكون من حزن على أنهم لا يجدون ما ينفقون، ويتحسّلون به للجهادِ في سبيل الله."[1].

البعد البلاغي: جاءت جملة القول: (قُلْتَ...) جملة خبرية، فعلية، تشير إلى حقيقة حصول حدث القول من المخاطب؛ وهو الرسول ﷺ، وصدق الخبر منسوب إلى الخبر نفسه، وصدقه يعود لذاته؛ لأنه خبر من الله تعالى؛ هذا بالنسبة لخبر (القول)؛ أمّا الحديث عن مقول القول فهو قوله تعالى عن رسوله ﷺ: " لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ "، جملة إنشائية، تفيد معنى النفي؛ دل عليها الفعل المضارع: "أجدُ" المقترن بـ "لا" النافية، وفي الواقع لم يكن لهذه الجملة وجود سابق؛ ولكنها أُنشئت حديثا، اقتضاها الموقف الراهن بين الرسول ﷺ والجماعة الذين طلبوا منه الخروج للغزو) فكان قوله ﷺ حقا بأنه لا يجد ما يحملهم عليه للغزو، وأكد الخبر القرآني هذه الواقعة، ومن البلاغة في هذه الآية أيضا أنّ: "﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ مثل قول تفيض دمعاً، وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأنّ العين جعلت كأن كلها دمع فائض"[2]، كما توافق المسند مع المسند إليه، أي توافق اللفظ (قُلْتَ) مع ما دلّ عليه في السياق توافقا تامّا: وهو المخاطب المفرد المذكر، من جنس العقلاء، بله أعقل العقلاء وهو الرسول ﷺ.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿هود: 7﴾.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج14، ص 421- 422، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 81، القشيري، لطائف الإشارات، ج 2، ص 54، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 8، ص 226- 229، الزحيلي، التفسير المنير، ج 10، ص 349.

2 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 301.

التفسير: جاء في عدد من كتب تفسير:" أن لئن قلت لهم – والخطاب لسيدنا محمد ﷺ – إنكم مبعوثون من بعد موتكم؛ أي يقسم لهم، لقالوا: إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ باتّين القول ببطلانه. ويجوز أن تضمن «قلت» معنى «ذكرت» ومعنى قولهم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أنّ السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهاً له به. أو أشاروا بهذا إلى القرآن لأنّ القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره"[1]، والله ﷻ يؤكد لهم أن خلق السماوات والأرض أكبر من عملية البعث بعد الموت التي ينكرونها.

البعد البلاغي: جاءت جملة القسم: (وَلَئِنْ قُلْتَ) جملة قول خبرية لا تحتمل غير الصدق، نسبة إلى الخبر فيها، وصدق الخبر يعود لذاته لأنه خبر من الله تعالى، وهو ما يسمى بالنسبة الكلامية، فعبر القرآن الكريم عن إخبار الرسول ﷺ للكافرين عن قضية البعث، مؤكدا قوله باللام الموطئة للقسم، وبإن المخففة، تأكيدا على حصول الفعل من الرسول ﷺ، بمعنى أنك (قلت) فعلا على وجه الحقيقة في الزمن الماضي، ثم تأتي جملة مقول القول: "إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ" جملة خبرية ثانية، اسمية مصدرة (بإنّ) المشددة تأكيدا لها، ويأتي ردهم في جملة القول: (لَيَقُولَنَّ)، ومقولها: "إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ" جواب القسم من باب المحاورة، أي: " أَنَّ اللَّامُ مُوَطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ، وَجَوَابُ الْقَسَمِ لَيَقُولَنَّ إِلَخْ، فَاللَّامُ فِيهِ لَامُ جَوَابِ الْقَسَمِ. وَجَوَابُ (إِنْ) مَحْذُوفٌ أَغْنَى عَنْهُ جَوَابُ الْقَسَمِ؛ لأنه إذا اجتمع شرط وقسم يحذف جواب المتأخر منهما. وَتَأْكِيدُ الْجُمْلَةِ بِاللَّامِ الْمُوَطِّئَةِ لِلْقَسَمِ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنْ نُونِ التَّوْكِيدِ لِتَنْزِيلِ السَّامِعِ مَنْزِلَةَ الْمُتَرَدِّدِ فِي صُدُورِ هَذَا الْقَوْلِ مِنْهُمْ لِغَرَابَةِ صُدُورِهِ مِنَ الْعَاقِلِ، فَيَكُونُ التَّأْكِيدُ الْقَوِيُّ وَالتَّنْزِيلُ مُسْتَعْمَلًا فِي لَازِمِ مَعْنَاهُ وَهُوَ التَّعْجِيبُ

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 380- 381. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 7- 9، الزحيلي، التفسير المنير، ج 12، ص 19- 20.

مِنْ حَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يُحِيلُوا إِعَادَةَ الْخَلْقِ وَقَدْ شَاهَدُوا آثَارَ بَدْءِ الْخَلْقِ وَهُوَ أَعْظَمُ وَأَبْــدَعُ"[1]، والله ﷻ يؤكد لهم أن خلق السماوات والأرض أكبر من عملية البعث بعد الموت التي ينكرونها.

وتربط لفظ "قُلْتَ" ولفظ "لَيَقُولَنَّ" علاقة بديعية من نوع جناس الاشتقاق.

(3)- وقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ﴿نوح: 10﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير أنّه: "بعد أن أخبر الله تعالى عن إرســال نــوح عليه السلام إلى قومه، وامتثاله أمر ربه، ذكر مناجاته لربه وشكواه إليه، وتبرئة نفسه مما وكل إليه أنه دعا قومه وأنذرهم، فعصوه وتمردوا عليه، بالرغم من تغيير أساليب الدعوة..."[2]، "فيقول سيدنا نوح عليه السلام يا رب إني قد قلت لهم سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم، وعبادة مــا سواه من الآلهة ووحدوه، وأخلصوا له العبادة، يغفر لكم، إنه كان غفارًا لذنوب من أناب إليــه، وتاب من ذنوبه، وفي هذا ترغيب في التوبة"[3].

البعد البلاغي: جاءت جملة القول: (فَقُلْتُ)، جملة خبرية فعلية، تدل على حصول عملية القول من نوح لقومه – فالفعل هنا مسند إلى المتكلم– ثم يبين ما قال لهم، ويفصّله في جملة مقول القول: "اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا"، جملة أمر إنشائية، تفيد معنى الطلب والإغراء، وقد "فَصَّلَ عليه السلام دَعْوَتَهُ بِفَاءِ التَّفْرِيعِ فَقَالَ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ فَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي قَالَهُ لَهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا وَجِهَارًا وَإِسْرَارًا. وَمَعْنَى اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، ءامنوا إِيمَانًا يَكُونُ اسْتِغْفَارًا لِذَنْبِكُمْ فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ وَعَلَّلَ ذَلِكَ لَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْصُوفٌ بِالْغُفْرَانِ صِفَةً ثَابِتَةً تَعَهَّدَ اللَّهُ بِهَا لِعِبَادِهِ الْمُسْتَغْفِرِينَ، فَأَفَادَ التَّعْلِيلَ بِحَرْفِ (إِنَّ) وَأَفَادَ ثُبُوتَ الصِّفَةِ لِلَّهِ بِذِكْرِ فِعْلِ كَانَ وَأَفَادَ كَمَالَ غُفْرَانِهِ

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 9.

2 الزحيلي، التفسير المنير، ج29، ص 140– 141.

3 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 633، السمرقندي بحر العلوم، ج3، ص 500، الماوردي، النكت والعيون، ج6، ص 101، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص 301.

بِصِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ بِقَوْلِهِ غَفَّاراً. وَهَذَا وَعْدٌ بِخَيْرِ الْآخِرَةِ ورتب عَلَيْهِ وَعدا بِخَيْرِ الدُّنْيَا بِطَرِيقِ جَوَابِ الْأَمْرِ، وَهُوَ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ الْآيَةَ التالية. وَكَانُوا أَهْلَ فِلَاحَةٍ فَوَعَدَهُمْ بِنُزُولِ الْمَطَرِ الَّذِي بِهِ السَّلَامَةُ مِنَ الْقَحْطِ وَبِالزِّيَادَةِ فِي الْأَمْوَالِ. والسَّمَاءَ: هُنَا الْمَطَرُ، وَمِنْ أَسْمَاءِ الْمَطَرِ السَّمَاءُ"[1].

"والمستفاد من فاء التفريع أنها ترتب ما جاء بعدها على ما قبلها"[2]، فهو في رسالته قد أنذر قومه ودعاهم ليلا ونهارا، ومما دعاهم إليه هو حثهم على الاستغفار، مرغبا لهم بما يجنيه لهم، وفي لفظ: (استغفروا) ولفظ: (غفّاراً) مثال للفظَيْن المتلاقِيَيْن في الاشتقاق"[3].

الملاحظ من شواهد لفظ (قُلْتَ) كما جاء في النصوص القرآنية الثلاثة أنها وردت من سيدنا محمد وسيدنا نوح عليهما الصلاة والسلام.

*****

(8)- وبلفظ (قُلْتُمْ) المسند إلى جمع المخاطبين من جنس الذكور العقلاء، في الزمن الماضي، ورد تسع مرات)[4]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ﴿البقرة: 55﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ نفراً من بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام لن نصدقك حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً أي عياناً، وذلك حينما "انطلق موسى عليه السلام إلى طور سيناء للمناجاة، اختار من قومه سبعين رجلاً، يعتذرون إلى الله عز وجل من عبادة العجل، وخرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربّه، فلما انتهوا إلى الجبل أمرهم موسى بأن يمكثوا في أسفل الجبل، وصعد عليه السلام فناجى

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 197- 198.
2 الزحيلي، التفسير المنير، ج26، ص 120.
3 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 514.
4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 566- ص 567.

ربه فأعطاه الله الألواح، فلما رجع إليهم قالوا له: إنك قد رأيت الله فأرنا إياه حتى ننظر إليه، فقال لهم: إني لم أره، ولكن سألته أن أنظر إليه، فتجلى للجبل، فدك الجبل، فلم يصدقوه وقالوا: لن نصدقك حتى نرى الله جهرة. فأخذتهم الصاعقة وهي نار مهلكة جاءت من السماء فأحرقتهم فماتوا جميعا، فدعا موسى ربه فأحياهم"[1]، " وأصل الجهر من الكشف"[2].

البعد البلاغي: جاءت جملة القول: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ جملة خبرية، ابتدأت بالظرف (وَإِذْ...) للأهمية، وتذكيرهم بزمن حدوث الفعل، والتأكيد على صدقه؛ أي اذكروا وقت قولكم، بأنكم قلتم كذا وكذا؛ حتى لا يفسح أمامهم مجالا للإنكار. ثم جاءت جملة مقول القول: "يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً"، جملة إنشائية ابتدأت بالنداء لتنبيه المخاطب، وإصغاء سمعه، وذكر اسمه للتخصيص، والتأكيد على ما سيقولون، نفوا عن أنفسهم قبول الإيمان: "لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى..."، إلا بشرط أن: "نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً..."!.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿النور: 16﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين في معنى الآية: "أنّ الله ﷻ يقول أيها الخائضون في الإفك الذي جاءت به عصبة منكم وصدقتموه، ولولا (إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) ممن جاء به (قُلْتُمْ) لمن جاء به ولأنفسكم ما يحلّ لنا أن نتكلم بهذا، وما ينبغي أن نتفوّه به "سُبْحَانَكَ" تنزيها لك يا ربّ وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء فهذا القول بهتان عظيم، وإيذاء للنبي ﷺ، وخوض في عرضه. والمعنى:

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 54.

2 الثعلبي، الكشف والبيان، ج1، ص 199، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص 403، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص 81.

هلا حين سمعتم ما لا يليق من فحش الكلام وخبث المقال قلتم: "ما ينبغي لنا وما يصح، ولا يحل لنا أن نتفوه بهذا الكلام، ونخوض في عرض النبي ﷺ، ولا نذكره لأحد إذ لا دليل عليه"[1].

البعد البلاغي: ابتداء الآية بـ (لَوْلَا) دليل على مقت تصرفهم وقت سماعهم خبر الإفك، وإنكاره؛ وتوبيخهم على ما قاموا به عند تلقيهم الحديث، والتنديد بهم؛ "ذلك أنّ (لَوْلَا) إذا جاءت للتوبيخ والتنديد تختص بالماضي"[2]، ودل على ذلك وجود (إِذْ) الظرفية، والتي فصلت بينها وبين الفعل للأهمية وتقديمه على غير المعهود؛ والفائدة في وقوعه فاصلا أن فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت أهمّ وجب التقديم، كما أنّ (لَوْلَا) أفادت التحضيض، وجاء بعدها فعل مظهر مؤخر ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ﴾؛ أي: هلا قلتم إذ سمعتموه؟)[3]، فجاء الحض على (القول) من باب الأولى في التصرف، والأجدر في التقديم؛ أمّا ماذا يقولون...؟ فهذه جملة مقول القول التي لم تقل! وغابت عن أذهانهم، فيذكرهم القرآن بها، ويوبخهم، لو أنكم قلتموها، أو لو أنّ ظرف المحنة ولدها لكم لكان أفضل مما أتيتم به! ولكن غاب عن عقولكم أن تقولوا: " مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ" -ولكنكم خضتم مع من خاضوا- وهي جملة إنشائية، تفيد معنى النهي، والتعبير

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 132، الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج8، ص 174، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 503، القيسي، مكي بن أبي طالب، أبو محمد حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني، الهداية إلى بلوغ النهاية، ت مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي جامعة الشارقة، ط1 1429هـ-2008م، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج8، ص 5047، الزحيلي، التفسير المنير، ج18، ص 181، الزحيلي، التفسير الوسيط، ج2، ص 1737.

2 ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، (المتوفى: 761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ت: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر- دمشق، ط6، ص 361.

3 النجار، محمد عبد العزيز، ضياء السالك إلى أوضح المسالك، الناشر: مؤسسة الرسالة، 1422هـ - 2001م، ج4، ص 78.

بوجود "يكون" يعني: ينبغي، ويصح، أي: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا. وما يصح لنا، علما أنّ الكلام بدون (يكون) تام لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا؟ كما أنّ فيه تنبيهاً عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا وَكَيْنُونَةَ الْخَوْضِ فِيهِ حَقِيقٌ بِالِانْتِفَاءِ. وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَ: "مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَفْعَلَ"، أَشَدُّ فِي نَفْيِ الْفِعْلِ فِي قول: "لَيْسَ لِي أَنْ أَفْعلَ". وَهَذَا مَسُوقٌ لِلتَّوْبِيخِ عَلَى تَنَاقُلِهِمُ الْخَبَرَ الْكَاذِبَ وَكَانَ الشَّأْنُ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ فِي نَفسهِ: "مَا يَكونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا"، وَيَقُولُ ذَلِكَ لِمَنْ يُجَالِسُهُ وَيَسْمَعُهُ منْهُ. فهذَا زِيَادَةٌ عَلَى التَّوْبِيخِ عَلَى السُّكُوتِ عَلَيْهِ"[1]. "ومَعنَى: ﴿قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنا﴾ أَنْ يَقُولُوا لِلَّذِينِ أَخْبَرُوهُمْ بِهَذَا الْخَبَرِ الْآفِكِ؛ أَيْ قُلْتُمْ لَهُمْ زَجْرًا وَمَوْعِظَةً. وَضَمِيرُ لَنا مُرَادٌ بِهِ الْقَائِلُونَ وَالْمُخَاطَبُونَ. فَأَمَّا الْمُخَاطَبُونَ فَلِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا بِهِ حِينَ حَدَّثُوهُمْ بِخَبَرِ الْإِفْكِ. وَالْمَعْنَى: مَا يَكُونُ لَكُمْ أَنْ تَتَكَلَّمُوا بِهَذَا، وَأَمَّا المتكلمون فلتنزههم من أَنْ يَجْرِيَ ذَلِكَ الْبُهْتَانُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ"[2].

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ ﴿الجاثية: 32﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّه إذا قيل للمشركين أنّ الوعد الذي وعده الله عباده، أنه محييهم من بعد مماتهم، وباعثهم من قبورهم ﴿حَقٌّ﴾ ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ التي أخبرهم أنه يقيمها لحشرهم، وجمعهم للحساب والثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، آتية لا شكّ فيها، فاتقوا الله وآمنوا بالله ورسوله؛ فكان ردكم أيها المكذبون الذين تنكرون وحدانية الله وحقيقة البعث بأن قُلْتُمْ: "مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ" هَلْ هِيَ حَقٌّ أَمْ بَاطِلٌ." تكذيبا منكم بوعد الله جل وعلا، وردًا لخبره، وإنكارًا لقُدرته على إحيائكم من بعد مماتكم، وأجبتم: لا نعرف ما القيامة؟ وقوله:

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 220، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج18، ص 179- 180.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج18، ص 180.

﴿إِنْ نَظُنُّ إلا ظَنًّا﴾ أي: وقلتم ما نظنّ أن الساعة آتية إلا ظنا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنها آتية، ولا أنها كائنة، أي كأنهم نفوا كل الظنون وأكدوا هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾"[1].

البعد البلاغي: جاء في البلاغة: ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أنّها جملة خبرية، لا تحتمل إلا الصدق، نسبة إلى الخبر، حيث تشير إلى حقيقة ما قال المشركون، ونسبة الصدق فيها نسبة كلامية، فهمت من الخبر، ودل عليها الكلام، أي أنه قد صدر منكم القول فعلا، أمّا ماذا قلتم؟ فجاء في جملة مقول القول: "مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ" جملة خبرية تفيد النفي والجحود والإنكار، وَالمَعْنَى: أننا مَا نَعْلَمُ حَقِيقَةَ السَّاعَةِ، وَنَفْيُ الْعِلْمِ بِحَقِيقَتِهَا كِنَايَةٌ عَنْ جَحْدِ وُقُوعِ السَّاعَةِ، أَيْ عَلِمْنَا أَنَّهَا لَا وُقُوعَ لَهَا، اسْتِنَادًا لِلتَّخَيُّلَاتِ الَّتِي ظَنُّوهَا أَدِلَّةً"[2]. والجملة بشقيها الخبري والإنشائي، أو القول ومقوله وردا على سبيل تذكيرهم بزمن القول والظرف الذي حصل فيه عند تقديم "إذا" الظرفية، للأهمية، ومحاجتهم إن أرادوا الإنكار، وتوبيخهم عليه، وهذا القول يقال: "للذين أنكروا وحدانية الله والبعث على سبيل التوبيخ: ألم تكن آياتي الكونية والقرآنية تتلى على مسامعكم، فاستكبرتم وأبيتم الإيمان بها، وكنتم قوما مجرمين في أفعالكم، بارتكاب الآثام والمعاصي"[3]. ومن بلاغة البديع أن جاء بين لفظ: (قِيلَ) ولفظ: (قُلْتُمْ) جناس الاشتقاق.

*****

---

1 الطبري، جامع البيان، ج22، ص 86، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 282، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص 177، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 ، ص 371، الزحيلي، التفسير الوسيط، ج3، ص 2406، الزحيلي، التفسير المنير، ج25، ص 292.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص 371- 372.

3 الزحيلي، التفسير الوسيط، ج3، ص 2406، الزحيلي، التفسير المنير، ج25، ص 292.

(9)- **وبلفظ (قُلْتُهُ)** المسند إلى ضمير المتكلم المفرد، في الزمن الماضي؛ متصلا بضمير المفعول به المذكر (ورد مرة واحدة)[1]؛ هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿المائدة: 116﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين: "أنّ الله ﷻ يدعو عيسى عليه السلام، ويدعو النصارى، يوم القيامة فيقفهم، ويسأله ليفضحهم على رؤوس الناس فيقول: "يا عيسى، أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين معبودين تعبدونهما من دون الله؟". فتأخذ عيسى الرّعدة من هيبة ذلك القول و يحفظ أدب الخطاب فلم يزكّ نفسه، بل بدأ بالثناء على الحق ﷻ فقال: "تنزيها لك! إنني أنزهك عما لا يليق بوصفك: "سُبْحَانَكَ" إن كنت قلت لهم ذلك القول ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فإنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ وما كان مني في الدنيا ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ولا أطلع على غيبك وما كان منك. وتعلم ما في ضميري، وَلاَ أَعلَمُ مَا فِي حقيقتك وغيبك. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾"، فبدأ بالتسبيح قبل الجواب تنزيهاً لله عما أضيف إليه وخضوعاً لعزته وخوفاً من سطوته. فرد ذلك إلى علمه تعالى، وقد كان الله عالماً به أنه لم يقله"[2]. هي الحقيقة التي كان عليها عيسى عليه السلام، وهي حجته.

البعد البلاغي: "جاء أنّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ﴾ أنّه ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشريف لعيسى عليه السلام، وتبكيت للكفرة وتكذيب لهم؛ ووجه سؤاله هذا مع علمه تعالى أنه لم يكن من عيسى ذلك؛ ولَكِنْ أُريد تبرئة ساحته، وإعلانُ

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 567.

2 القشيري، لطائف الإشارات، ج1، ص 456، الراغب الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج5، ص 500.

كَذِبِ مَنْ كَفَرَ مِنَ النَّصَارَى"[1]، "وجاء السؤال في معنى الاستفهام وليس باستفهام على قولين: تحذيرا لعيسى عن قول ذلك ونهيه عن فعله، توبيخاً وتقريعاً، وتحذيرا لمن ادعى ذلك واتخذ عيسى إلهاً، والتهديد له فيه. والآخر: إعلامه أنّ قومه الذين فارقهم قد خالفوا عهده، وبدّلوا دينهم بعده، فيكون بذلك جامعًا إعلامَه حالَهم بعده، وتحذيرًا له من قوله؛ لأنهم مجمعون أنه صادق وأنه لا يكذبهم الصادق عنده. وذلك آكد في الحجة عليهم وأبلغ في التوبيخ. والتوبيخ ضرب من العقوبة، وَهَذَا مَبْدَأُ تَقْرِيعِ النَّصَارَى ثم قال: "ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ" أي أني إن كنت مخصوصا من قبلك بالرسالة- وشرط النبوة العصمة- فكيف يجوز أن أفعل ما لا يجوز لي؟ ثم إنّي "إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ" فقد كان واثقا بأن الله ﷻ عليم بنزاهته من تلك القالة"[2]، "والضمير في "قلته" يعود على جملة: "اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ"؛ وهذا ما لا يكون من عيسى عليه السلام، وذلك أنّ: "قَوْلَهُ: "مَا يَكُونُ لِي" مُبَالَغَةٌ فِي التَّبْرِئَةِ مِنْ ذَلِكَ، أي ما يوجدُ لَديَّ قولُ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، فَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: مَا يَكُونُ لِي لِلِاسْتِحْقَاقِ، أَيْ مَا يُوجَدُ حَقٌّ أَنْ أَقُولَ. وَذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْ لَمْ أَقُلْهُ لِأَنَّهُ نَفَى أَنْ يُوجَدَ اسْتِحْقَاقُهُ ذَلِكَ الْقَوْلَ. وَقَدْ أَفَادَ الْكَلَامُ تَأْكِيدَ كَوْنِ ذَلِكَ لَيْسَ حَقًّا لَهُ بِطَرِيقِ الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ لِأَنَّهُ نَفَى أَنْ يُبَاحَ لَهُ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَحِقُّ لَهُ، فَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ حَقًّا لَهُ وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ لِأَجْلِ كَوْنِهِ كَذَلِكَ. فَهَذَا تَأْكِيدٌ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ وَالتَّفَنُّنِ. ثُمَّ ارتقى فِي التبرّي فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، فَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِأَنَّهَا دَلِيلٌ وَحُجَّةٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، فَكَانَتْ كَالْبَيَانِ فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ، فَاسْتَدَلَّ عَلَى انْتِفَاءِ أَنْ يَقُولَهُ بِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ، فَلِذَلِكَ

---

1 القشيري، لطائف الإشارات، ج1، ص 456، الراغب الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج5، ص 500.

2 الطبري، جامع البيان، ج11، ص 234و ص 236، وص 237، الماوردي، النكت والعيون، ج2، ص 86-88، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 694، القشيري، لطائف الإشارات، ج1، ص 456- 457، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص 112- 115، الزحيلي، التفسير المنير، ج7، ص 121- 122، الزحيلي، التفسير الوسيط، ج1، ص 521.

أَحَالَ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى. ولِذَلِكَ قَالَ: تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي، فَجُمْلَةُ: "تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي" بَيَانٌ لِجُمْلَةِ الشَّرْطِ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ وَقَوْلُهُ: وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ اعْتِرَاضٌ نَشَأَ عَنْ "تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي" لِقَصْدِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي الْوَقْتِ الْوَاحِدِ وَفِي كُلِّ حَالٍ"[1]، "والمعنى: تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، فقد سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه، فقيل في نَفْسِكَ لقوله في نفسي إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ تقرير للجملتين معاً، لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب، ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه علم أحد"[2]، "وَتَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاسْتِفْهَامَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى تَخْصِيصِهِ بِالْخَبَرِ دُونَ غَيْرِهِ مَعَ أَنَّ الْخَبَرَ حَاصِلٌ لَا مَحَالَةَ. فَقَوْلُ قَائِلِينَ: اتَّخِذُوا عِيسَى وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ، وَاقِعٌ. وَإِنَّمَا أُلْقِيَ الِاسْتِفْهَامُ لِعِيسَى أَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ تَعْرِيضًا بِالْإِرْهَابِ وَالْوَعِيدِ بتوجّه عُقُوبَة ذَلِك إِلَى مَنْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ إِنْ تَنَصَّلَ مِنْهُ عِيسَى فَيَعْلَمُ أَحْبَارُهُمُ الَّذِينَ اخْتَرَعُوا هَذَا الْقَوْلَ أَنَّهُمُ الْمُرَادُ بِذَلِكَ. وَالْمَعْنَى أَنَّهُ إِن لَم يَكن هُو قَائِلُ ذَلِك فَلَا عُذْرَ لِمَنْ قَالَهُ لِأَنَّهُمْ زَعَموا أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَقْوَالَ عِيسى وَتَعَالِيمهُ، فَلَوْ كَان هُو الْقَائِلَ لَقَال: اتَّخِذُونِي وَأُمِّي، ولِذَلِكَ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِهَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ فِي الْآيَةِ"[3]. أمّا لفظ (قُلْتُهُ) فقد وقع فعل للشرط، في جملة الشرط الخبرية: "إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ"، وجملة: "فَقَدْ عَلِمْتَهُ" هي جملة جواب الشرط،وقد استوفى بيان المعنى آنفا.

*****

(10)– وبلفظ (قُلْنَ) المسند إلى جماعة الإناث، في الزمن الماضي، (ورد مرتين)[4]، هما في:

---

1 ابن عاشور، التحرير والتوير، ج7، ص 112– 115.

2 الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 694.

3 الزحيلي، التفسير المنير، ج7، ص 121– 122، الزحيلي، التفسير الوسيط، ج1، ص 521.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 567.

(1)- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿يوسف: 31﴾.

التفسير: جاء أنّ النسوة عندما رأين يوسف عليه السلام قلن: "حَاشَ لِلَّهِ"، أي: "معاذ اللّه كلمة تنزيه من القبيح، وتنزيه له عن صفات العجز، وتعجب من إبداع الخلق الجميل مثل يوسف، وإثبات الحسن العظيم له، لما حواه من الحسن الفائق؛ أي ما يوسف من جنس البشر لأن هذا الجمال غير معهود للبشر"[1].

البعد البلاغي: جاءت جملة القول :(وَقُلْنَ) جملة خبرية؛ معطوفة على جملة (أكبرنه) تفيد حدوث عملية القول العائدة على جماعة من النساء؛ وقوعا فعليا، في الزمن الماضي؛ والخبر فيها لا يحتمل إلا الصدق نسبة مفهومة من الخبر، دل عليها الكلام، وتسمى نسبة كلامية"[2]، أمّا جملة: "حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ" جملة مقول القول، إنشائية غير طلبية، تعني التسبيح، والتنزيه عن صفات العجز لله تعالى، وإنشاء فعل التعجب من إبداع حسن الخلق الجميل؛ مثل يوسف عليه السلام، و قَوْلُهُنَّ: "مَا هَذَا بَشَراً " مُبَالَغَةٌ فِي فَوْتِهِ مَحَاسِنَ الْبَشَرِ، فَمَعْنَاهُ التَّفْضِيلُ فِي مَحَاسِنِ الْبَشَرِ، وَهُوَ ضِدُّ مَعْنَى التَّشَابُهِ فِي بَابِ التَّشْبِيهِ. ثُمَّ شَبَّهْنَهُ بِوَاحِدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِطَرِيقَةِ حَصْرِهِ فِي جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ تَشْبِيهًا بَلِيغًا مُؤَكَّدًا؛ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾"[3]، "وحَاشَ لِلَّهِ تَرْكِيبٌ عَرَبِيٌّ جَرَى مَجْرَى الْمَثَلِ يُرَادُ مِنْهُ إِبْطَالُ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ وَبَرَاءَتُهُ مِنْهُ. وَأَصْلُ (حَاشَا) فِعْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْمُبَاعَدَةِ عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ يُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الْحَرْفِ فَيُجَرُّ بِهِ فِي الِاسْتِثْنَاءِ فَيُقْتَصَرُ عَلَيْهِ تَارَةً. وَقَدْ يُوصَلُ بِهِ اسْمُ الْجَلَالَةِ فَيَصِيرُ كَالْيَمِينِ عَلَى النَّفْيِ يُقَالُ: "حَاشَا اللَّهَ"، أَيْ أُحَاشِيهُ عَنْ أَنْ

---

1 الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج6، ص 234، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 191، الزحيلي، التفسير المنير، ج12، ص 252، الزحيلي، التفسير الوسيط، ج2، ص 1105،
2 المراغي، أحمد بن مصطفى، علوم البلاغة، ص 43.
3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 263.

يَكْذِبَ، كَمَا يُقَالُ: لَا أُقْسِمُ"[1]، كما أنّ من البلاغة في هذه الجملة التطابق التام بين المسند الفعل: قُلْنَ ، والمسند إليه جماعة النساء في قصر زليخة، في الزمن الماضي.

(2)- وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿يوسف: 51﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أن الملك جمع النّسوة اللاتي قطّعن أيديهن عند امرأة العزيز، يوم الضيافة، وقال مخاطبا لهن كلهن، وهو يريد امرأة العزيز: مَا خَطْبُكُنَّ وشأنكن يوم حصل ما حصل؟ وهو يريد معرفة قصة يوسف مع امرأة العزيز وما حصل فيها، منزها جَانِبَ يُوسُفَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾، هل ليوسف في ذلك ذنب؟ هل وجدتنّ منه ميلا إليكنّ؟ فأجابت النسوة بكل جرأة وصدق، وأخبرنه ببراءة يوسف، وما رُمي به و: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ وحاشَ لِلَّهِ مُبَالَغَةٌ فِي النَّفْيِ وَالتَّنْزِيهِ؛ أي معاذ الله تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها، وصونها عن الفاحشة، أو أن يكون متهما بها"[2].

البعد البلاغي: من البلاغة أنّ: جملة القول: (قُلْنَ) جملة خبرية، تفيد وقوع عملية القول وقوعا فعليا لا تحتمل غير الصدق، وجملة: "حَاشَ لِلَّهِ" جملة مقول القول، إنشائية غير طلبية، تعنيْ التسبيح، والتنزيه عن صفات العجز لله تعالى، وإنشاء فعل التعجب "مُبَالَغَةٌ فِي النَّفْيِ وَالتَّنْزِيهِ؛ أي معاذ الله تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها،

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 263.

2 الطبري، جامع البيان، ج16، ص 138، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 478، المتريدي، تأويلات أهل السنة، ج6، ص 252، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص 288.

وصون نفسه عن الفاحشة، أو أن يكون متهما بها"[1]، "وَجُمْلَةُ مَا عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ مُبَيِّنَةٌ لِإِجْمَالِ النَّفْيِ الَّذِي فِي حاشَ لِلَّهِ. وَهِيَ جَامِعَةٌ لِنَفْيِ مُرَاوَدَتِهِنَّ إِيَّاهُ وَمُرَاوَدَتِهِ إِيَّاهُنَّ لِأَنَّ الْحَالَتَيْنِ مِنْ أَحْوَالِ السُّوءِ. وَنَفْيُ عِلْمِهِنَّ ذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ نَفْيِ دَعْوَتِهِنَّ إِيَّاهُ إِلَى السُّوءِ وَنَفْيِ دَعْوَتِهِ إِيَّاهُنَّ إِلَيْهِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ وَقَعَ لَكَانَ مَعْلُومًا عِنْدَهُنَّ، ثُمَّ إِنَّهُنَّ لَمْ يَزِدْنَ فِي الشَّهَادَةِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِسُؤَالِ الْمَلِكِ فَلَمْ يَتَعَرَّضْنَ لِإِقْرَارِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ فِي مَجْلِسِهِنَّ بِأَنَّهَا رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ، خَشْيَةً مِنْهَا، أَوْ مَوَدَّةً لَهَا، فَاقْتَصَرْنَ عَلَى جَوَابِ مَا سُئِلْنَ عَنْهُ"[2]. "وَجُمْلَةُ قُلْنَ مَفْصُولَةٌ لِأَجْلِ كَوْنِهَا حِكَايَةَ جَوَابٍ عَنْ كَلَامِ الْمَلِكِ أَيْ قَالَتِ النِّسْوَةُ عَدَا امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ بَعْدُ: قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ. وحاشَ لِلَّهِ مُبَالَغَةٌ فِي النَّفْيِ وَالتَّنْزِيهِ، وَالْمَقْصُودُ: التَّبَرُّؤُ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِنَّ مِنَ الْمُرَاوَدَةِ"[3]. وأُنشئ جواب النسوة ردا على الموقف الراهن، الذي أخذ منحى الكشف عن الحقيقة؛ علما أنه قبل ذلك لم يكن بهذه الصورة، ولا بهذه الشفافية، ولكن تطور الأحداث في قصة يوسف ﷺ، جعلت لكل حادث حديثا، علما أن الحقائق ثابتة؛ ولكن المولى ﷻ أراد لها أن تتكشف على يدي منكريها، أما من حيث البلاغة في الكلمات المفردة؛ فقد جاءت بديعية جناس الاشتقاق بين لفظ: (قَالَ)، ولفظ: (قُلْنَ)، ولفظ: (قَالَت). كما جاءت الموافقة التامة بين المسند الفعل (قُلْنَ) وبين المسند إليه مجموع النسوة تطابقا تاما من حيث الجنس وعقلانيته، والعدد والزمن.

*****

(11)- وبلفظ (قُلْنَــا) المسند إلى ضمير الجمع المتكلم، فيما مضى من الزمن، ورد سـبعا وعشرين مرة[4]، منها:

---

1 الطبري، جامع البيان، ج16، ص 138، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 478، الماتريدي، تـأويلات أهـل السنة، ج6، ص 252، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص 288.

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص 288، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 289- 291.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 290.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 567.

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿البقرة: 60﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّ موسى طلب من ربه الماء وَسَأَلَه السُّقْيَا لِقَوْمِهِ عندما عطشوا في التيه، فَأَمَرَهُ اللَّه - تعالى- أَنْ يَضرِبَ بِعَصَاهُ الصَخْرَة فَضَرَبَ فَانْفَجَرَ مِنْهَا الْمَاءُ، (واللام في (الْحَجَر) إمّا للعهد والإشارة إلى حجر معلوم، فقد روى أنه حجر طوري حمله معه وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم، وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه"[1]، والضمير في (قُلْنَا) عائد على ذات الله ﷻ، "وَقَدْ كَانَ ﷻ قَادِرًا عَلَى أن يفجر الْمَاءِ وَفَلْقِ الْحَجَرِ مِنْ غَيْرِ ضَرْبٍ لَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَرْبِطَ الْمُسَبَّبَاتِ بِالْأَسْبَابِ حِكْمَةً مِنْهُ لِلْعِبَادِ فِي وُصُولِهِمْ إِلَى الْمُرَادِ وَلِيُرَتِّبَ عَلَى ذَلِكَ ثَوَابَهُمْ وَعِقَابَهُمْ فِي الْمَعَادِ"[2].

البعد البلاغي: من البلاغة أن جاءت جملة: (فَقُلْنَا) جملة خبرية فعلية، لا تحتمل غير الصدق، وهذا ما كان من الله ﷻ موسى عليه السلام، والضمير فيها يعود على ذي الجلالة ﷻ، وجملة مقول القول: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ جملة أمر إنشائية، طلب فيها المولى ﷻ من سيدنا موسى عليه السلام ضرب الحجر، على طريق الاستعلاء من الأعلى إلى الأدنى - وهذا هو الأصل في الأمر-فجاءت الاستجابة الفورية (فَانْفَجَرَتْ...) "وهنا بلاغة الإيجاز بالحذف؛ لسرعة الاستجابة، ففي الآية بلاغة الإيجاز فيما يعرف بحذف الجملة التامة التي تفيد معنى مستقلًا ؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾،

---

1 الطبري، جامع البيان، ج2، ص 100، الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج1، ص 471، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 44، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 517.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص 419.

أن التقدير: فضرب فانفجرت، فحذفت جملة ضرب، والبلاغة من حذفها يشير إلى سرعة إجابة موسى عليه السلام وامتثاله لأمر ربه"[1] "وأنّ هذا الإيجاز قد أدى المقصود من الكلام بأقل من العبارات المتعارف عليها في المعهود من كلام البشر"[2]، وأسباب هذا الحذف هو الاكتفاء بالسبب عن المسبب، وبالمسبب عن السبب؛ فاكتفى بالمسبب – الذي هو الانفجار– عن السبب الذي هو الضرب"[3]. وجاء هذا الطلب حسب مقتضيات الظرف الذي كان فيه بنو إسرائيل، منّاً من الله ﷻ عليهم، للخروج من أزمتهم.

(2)- وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿هود: 40﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ الله ﷻ أمر سيدنا نوح عليه السلام، فقال: (قلنا) لنوح حين جاء عذابنا قومه الذي وعدناه أن نعذبهم به، أن يحمل في السفينة من ﴿كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ من كل صنف من الحيوانات وذلك لنجاتهم بأمر الله؛ إذا ما رأى آية مجيء العذاب، ووقت حلوله، وهي فوران الماء من التنور"[4]، والضمير في لفظ (قلنا) يعود على ذي الجلالة ﷻ.

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: (قُلْنَا) جملة خبرية فعلية، تدل على حصول فعل القول فيما مضى من الزمن، وثبات وقوعه، ومضي الحكم فيه، قولا واحدا، لأن الضمير فيه

---

1 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 – المعاني، ج1، ص 506.

2 السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 1407 هـ - 1987 م، ص 277.

3 ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص 221، و ص 223- و ص 225.

4 الطبري، جامع البيان، ج15، ص 321- 322. السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 149، الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، مفاتيح الغيب التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3 – 1420 هـ، ج17، ص 347. الأنجري، البحر المديد، ج2، ص 529.

يعود على ذي الجلالة ﷻ، وهو لازم الفائدة، ثم جاءت جملة مقول القول: "احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" لتفصل المطلوب من القول، وتنفيذ عملية الحمل بجملة أمر إنشائية، على وجه الإلزام، وليس التخيير؛ لأن الأمر وقع على حقيقته من الأعلى إلى الأدنى، وترجم فعل القول إلى حقيقة، وحمل نوح في السفينة من كتبت له النجاة بأمر الله ﷻ، هذا وجاء في ضمير الفعل (قلنا) بديعية الالتفات، بمعنى (قلت) احمل...، والإسناد كله لله ﷻ.

(3)- وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿الأنبياء: 69﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير أنّه: "لمّا رمي إبراهيم خليل الله ﷺ في المنجنيق، فجعل يهوي نحو النار، قال: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال جبريل عليه السلام: يا رب، عبدك إبراهيم يحرق فيك، قال الله تعالى: إن استغاث بك فأغِثْهُ. فأتاه جبريل وهو يهوي نحو النار، فقال: أتطلب النجاة؟ فقال: أما منك فلا، قال: أفلا تسأل الله عز وجل أن ينجيك منها؟ فقال إبراهيم عليه السلام: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فلما أخلص قلبه لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾، يعني: سلميه من حرك وبردك: فبردت نار الدنيا كلها يومئذ، فلم ينتفع بها أحد من أهلها"[1]، والضمير في لفظ (قُلْنَا) عائد على ذي الجلالة الله ﷻ.

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: (قُلْنا) جملة خبرية تفيد وقوع حدث القول، والضمير يعود على الله ﷻ، وجملة مقول القول: "يَا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ" جملة أمر إنشائية، تطلبها الموقف الذي تعرض له سيدنا إبراهيم عليه السلام، "وجاءت بديعية الالتفات في الفعل (قلنا)، بمعنى (قلت) للنار، وكُونِي بَرْداً مجاز مرسل، من إطلاق المصدر، وإرادة اسم

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 431، الأنجري، البحر المديد، ج3، ص 475.

الفاعل، أي باردة أو ذات برد"[1]، وجاءت جملة النداء: ﴿يَا نَارُ﴾ جملة إنشائية، صـــحبها فعـل الأمر التكويني: "كُونِي" من باب الإلزام، وليس الخيار، فكانت باردة.

و من الاستقراء للفظ (قُلْنَا) تبين أن الضمير فيه يعود على ذي الجلالة ﷻ في كل الآيات عدا ما جاء في سورة: ﴿الأنفال: 31﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿الأنفال: 31﴾. وفي سورة ﴿الكهف: 14﴾ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾.

*****

(12)- وبلفظ (أَقُلْ) المجزوم، المسند إلى ضمير المتكلم العاقل، فيما مضى من الزمن، (ورد ست مرات)[2]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿البقرة: 33﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ الله ﷻ قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْ الملائكة و أخبرهم بأسماء الدواب وما فيها من الحكمة وما يحل أكله وما لا يحل أكله، وبأسماء المسميات؛ فَلَمَّا أخبرهم بِأَسْمائِهِمْ قال الله تعالى لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾، وسر أهل السماوات وسر أهل الأرض، وما يكون فيهما. وما تبدون من الطاعة، وما أخفيتم"[3]،

البعد البلاغي: "جاء الاستفهام الوارد في الآية ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إني أَعلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض...﴾ استفهام من النوع المستعمل في التذكير؛ وهو يستخدم للتذكير بقولٍ أو فعلٍ أو

---

1 الزحيلي، التفسير المنير، ج17، ص 83.
2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 567.
3 السمرقندي، بحر العلوم، ج 1، ص 42.

حادثة جرتْ، وقد يُقتَصرُ فيه على بعض ما يُستَدْعَى بالاستفهام تَذكُّره، فتحصل به فائدةُ الإيجاز في القول. كما يحمل بالإضافة إلى معنى التذكير معاني أخرى كالعتاب أو التلويم. وقول اللّهِ ﷻ مخاطباً للملائكة بعد أن أثبت لهم تفوّق آدم عليهم بمعرفةِ الأسماء الّتي علّمهُ إيّاها، وبعد أن أعلنوا جهلهم يحتمل هذه المعاني، لأن الضمير في " أقُلْ" مسندا إلى الله ﷻ، وهذا السؤال من أقسام الجملة الإنشائية"[1]، وجاء أنّ: "وَقَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماوات وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" جوَابُ (لَمَّا)، في جملة: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾، وَالْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَصِيغَةُ الْمُضَارِعِ فِي تُبْدُونَ وتَكْتُمُونَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَيَقْتَضِي تَجَدُّدَ عِلْمِ اللَّهِ بِذَلِكَ كُلَّمَا تَجَدَّدَ مِنْهُمْ الإظهار والكتمان"[2]. وجاءت جملة مقول القول: "إنّي أعلَمُ غَيْبَ... وأَعلَمُ ما تُبْدُونَ" جملة خبرية اسمية مؤكدة بإنّ الثقيلة، للتأكيد على علم الله تعالى، وجاء تكرار الفعل: إنّي أعلَمُ للتنبيه على إحاطة علم الله تعالى بجميع الأشياء؛ وهذا يسمى بالإطناب، وجاء أيضا بين لفظ "تُبْدُونَ" ولفظ "تَكْتُمُونَ" ما يسمى في علم البديع بالطباق"[3].

(2)- وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿الكهف: 75﴾.

التفسير: "لمّا تصاحب الخضر وموسى عليهما السلام موسى في رحلة العلم؛ كان من شروط قبول صحبة موسى عليه السلام ألا يعترض الخضر عليه السلام؛ مهما رأى من تصرفات ينكرها عليه، وقبل موسى الشرط، فلما رأى ما رأى من تصرفات الخضر الغريبة، لم يستطع السكوت عنها، فبدأ ينكرها عليه أولا، وثانيا...، والخضر يذكره بوجوب الصبر حتى جاء الرد الحاسم من الخضر: " أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا" على ما ترى من أفعالي، لأنك ترى ما لم

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ج1، ص 282.
2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 417- 418.
3 الزحيلي، التفسير المنير، ج1، ص 124.

تُحط به خبرا"[1]، "ولأنّ التنبيه قد تكرر غير مرة فقد استوجب أن يضيف لفظ (لك) في هذه الآية للتأكيد؛ لأنه قد سبق منه الزجر مرة سابقة دون لفظ (لك)"[2]، وقد "بلغ اعتراض موسى ﷺ ثلاثا والثلاثة آخر حدّ القلّة وأول حدّ الكثرة، فلم يجد المسامحة بعد ذلك"[3]. فاقتضى الفراق.

البعد البلاغي: لمّا قال الخضر لموسى عليهما السلام في بدء الأمر: "إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا"، ﴿الكهف: 67﴾، كأول تنبيه وتحفيز لقبول الصحبة، كان هذا الكلام مؤكّداً ومُساوياً للمعنى المقصود بيانه، لا إطناب فيه ولا إيجاز. و حين اعترض موسى ﷺ الاعتراض الأول على الخضر بشأن خرقه السفينة، قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿الكهف: 72﴾، فهذا أيضاً كلامٌ مُؤكّدٌ ومُساوٍ للمعنى المقصود بيانه، لا إطناب فيه ولا إيجاز. وحين اعترض موسى ﷺ الاعتراض الثاني على الخضر بشأن قتله الغلام، قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿الكهف: 75﴾، فَأَطْنَبَ إذْ أضاف عبارةَ "لَكَ" مع أنّ هذه الزّيادة لا لزوم لها في الكلام المساوي، فعبارة: "إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا" بأسلوب الخطاب تَدُلُّ على أنّ الخطاب قَدْ وَجَّهَهُ الخضرُ له، فما الداعي لأنْ يقول لَهُ: "أَلَمْ أَقُلْ لَكَ؟" "وَهُوَ تَصْرِيحٌ بِمُتَعَلِّقِ فِعْلِ الْقَوْلِ. وَإِذْ كَانَ الْمَقُولُ لَهُ مَعْلُومًا وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ "لَكَ" لَامُ التَّبْلِيغِ، وَهِيَ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى اسْمِ أَوْ ضَمِيرِ السَّامِعِ لِقَوْلٍ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ، نَحْوَ: قُلْتُ لَهُ، وَأَذِنْتُ لَهُ، وَفَسَّرْتُ لَهُ فَيَكُونُ ذِكْرُ اللَّامِ لِزِيَادَةِ تَقَوِّي الْكَلَامِ وَتَبْلِيغِهِ إِلَى السَّامِعِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ لَامُ التَّبْلِيغِ، فلما نبهه أول مرة لم يكن بحاجة لأن يقول له "لك" في قوله: "أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا"، فكان

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، 73.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 357.

3 القشيري، لطائف الإشارات، ج2، ص 410.

التَّقْرِيرُ وَالْإِنْكَارُ معَ ذكر تَامِ تَعْدِيَةِ الْقَوْلِ أَقْوى وَأَشَدَّ؛ لتكرار المخالفة من موسى للعهد أو الشرط الذي التزمه، ومن ثم وجبت المفارقة؛ لأنها أول شروط الصحبة"[1]، "وجاءت زيادة "لَكَ" زيادة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية وقلة التثبت والصبر لمّا تكرر منه الاشمئزازُ والاستنكار ولم يَرعَوِ بالتذكير حتى زاد في النكير في المرة الثانية، وهَذِهِ اللَّفْظَةَ تُؤكد التَّوْبِيخَ؛ وَالدَّاعِي لِذَلِكَ أَنَّهُ أَهْمَلَ الْعَمَلَ بِهِ"[2]، وجاء هذا الإطناب لأنَّ مُوسَى عليه السلام تصرَّفَ تَصَرُّفَ من لم يُدْرِكْ أنّ الْخِطَابَ قَدْ كان مُوَجّهاً له فيما سبق، فاعترض، فاقتضى حالُهُ أنْ يقولَ لَهُ الخضر: إنّي كُنْتُ وجَّهْتُ الخطابَ لكَ بأنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا"[3]، "فزاد قيدا للمسند في الثانية لتربية الفائدة أي لتأكيد اللوم في الثانية؛ لأن المخالفة الثانية أحوج إلى مزيد من اللوم بتقريره وتأكيده"[4]، والسؤال في: "أَلَمْ أَقُلْ لَكَ" سؤال استنكاري، يستنكر الخضر من موسى التعجل والاعتراض، ويفيد التذكير؛ فيذكره بما نبهه عليه في المرتين السابقتين، ويفيد التلويم، والعتاب لموسى عليه السلام على قلة الصبر، وعدم التريث حتى يرى ويسمع تفسيرا لما أنكر من الخضر. ومن البلاغة في الألفاظ المفردة، جاء بين لفظ: (قَالَ) ولفظ: (أَقُلْ) جناس اشتقاق.

(3)- وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ﴿القلم: 28﴾.

التفسير: جاء في قصة هذه الآية: "أنّ رجلا صالحا كان يمتلك مزرعة غناء، فإذا ما أثمرت ترك المساكين والمحتاجين يأكلون منها ما يشاءون دون أن يمنع أحدا منهم، فلما مات وخلفه أبناءه الثلاثة اختلفوا في أمر الإطعام والصدقات، فأقسموا أن يجمعوا ثمرها، ويحرموا

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص 5، الزحيلي، التفسير المنير، ج16، ص 6- 8

2 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5، ص 236، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 736، الرازي، مفاتيح الغيب، ج21، ص 487، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص 5.

3 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 12.

4 أبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، ط7، ج1، ص 319.

المساكين من دخولها، فلما جاءوها صباحا، وجدوها قد احترقت، فجاء دور الأخ الأوسط والأعقل والأعدل الذي ذكرهم مغبة ما يفكرون به، وأقدموا عليه، وأنّه كان عليهم أن يستثنوا من قسمهم الذي أخذوه على أنفسهم، وذكرهم بذلك قائلا لهم: "أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ" أي: هلا تستثنون في أيمانكم؛ وتسبحون الله وتذكرونه وتقولون: "سبحان الله" أو تقولون: "إن شاء الله: وتذكروا نعمة الله عليكم وتشكرونه عليها؛ فتأدوا حقه من أموالكم، وتستغفرونه من فعلكم الذي عزمتم عليه من خبث النية من منع المساكين حقهم من الحصاد."[1].

البعد البلاغي: جاءت هذه الآية "أنموذجا مميزا من نماذج القصة في القرآن الكريم من حيث نَسْجُ نَظْمها عَلَى أُسلُوبِ الْإِيجَازِ لِيَكُونَ شَبَهُهَا بِالتَّذْكِيرِ أَقْوَى مِنْ شَبَهِهَا بِالْقِصَصِ، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ فَقَدْ حُكِيَتْ مقالة الأخ هَذِهِ فِي مَوْقِعِ تَذْكِيرِهِ أَصْحَابَهُ بِهَا لِأَن ذَلك موقع حِكَايَتِهَا وَلَمْ تُحْكَ أَثْنَاءَ قَوْلِهِ: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ﴾ ﴿الْقَلَم: 17﴾ "وَحُكِيَ هَذَا الْقَوْلُ بِدُونِ عَاطِفٍ لِأَنَّهُ قَوْلٌ فِي مَجْرَى الْمُحَاوَرَةِ جَوَابًا عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ﴿القلم: 27﴾ قَالَهُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ تَوْقِيفِهِمْ عَلَى تَصْوِيبِ رَأْيِهِ وَخَطَلِ رَأْيِهِمْ. وَالْاسْتِفْهَامُ فِي "أَلَمْ أَقُلْ" تَقْرِيرِيٌّ، ويفيد التذكير واللوم والعتاب، وَلَوْلا حَرْفُ تَحْضِيضٍ. وَالْمُرَادُ بِـ(تُسَبِّحُونَ) تَنْزِيهُ اللَّهِ عَنْ أَنْ يُعْصَى أَمْرُهُ فِي شَأْنِ إِعْطَاءِ زَكَاةِ ثِمَارِهِمْ. وَكَانَ جَوَابُهُمْ يَتَضَمَّنُ إِقْرَارًا بِأَنَّهُ وَعَظَهُمْ فَعَصَوْهُ وَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِالتَّسْبِيحِ حِينَ نَدِمِهِمْ عَلَى عَدَمِ الْأَخْذِ بِنَصِيحَتِهِ فَقَالُوا: "سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ" أَرَادُوا إِجَابَةَ تَقْرِيرِهِ بِإِقْرَارِ بِتَسْبِيحِ اللَّهِ عَنْ أَنْ يُعْصَى أَمْرُهُ فِي إِعْطَاءِ حَقِّ الْمَسَاكِينِ"[2].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج17، ص 329، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 483، الماوردي، النكت والعيون، ج6، ص 69، القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 620، الثعلبي، الكشف والبيان، ج 10، ص 17.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 65، و ج29، ص 87.

*****

(13) - وبلفظ (أَقُول) المسند إلى ضمير المتكلم المفرد من جنس العقلاء، في الزمن الحاضر، (ورد تسع مرات)[1]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿الأعراف: 105 ﴾.

التفسير: "جاء أنّ موسى عليه السلام ابتدأ حواره مع فرعون بإعلان واضح أنه رسول مرسل من رب العالمين، وأخذ يغرق في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام؛ ذلك لأن عدو الله فرعون قال له- لما قال: "إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" "كذبت"-، فيقول: أنا حقيق على قول الحق وواجب عليّ قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به، وأنا الحريص عليه، بِمَعْنَى وَجَبَ وَثَبَتَ عَلَيَّ قَوْلُ الْحَقِّ عَلَى اللَّهِ، ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به، وربي هو الذي أمرني بهذه الدعوة إليكم"[2].

البعد البلاغي: من البلاغة في هذه الآية: "أن لَوْ كَانَ قَوْلُ الْحَقِّ شَخْصًا عَاقِلًا لَكُنْتُ أَنَا وَاجِبًا عَلَيْهِ. أَنْ لَا يَصْدُرَ إِلَّا عَنِّي وَأَنْ أَكُونَ قَائِلَهُ، وَهُوَ عَلَى هَذَا اسْتِعَارَةٌ بِالْكِنَايَةِ: شُبِّهَ قَوْلُ الْحَقِّ بِالْعُقَلَاءِ. وَرُمِزَ إِلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ بِمَا هُوَ مِنْ رَوَادِفِهِ، وَهُوَ كَوْنُ مَا يُنَاسِبُهُ مُتَعَيِّنًا عَلَيْهِ. وَجُمْلَةُ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا، لِأَنَّ مَقَامَ الْإِنْكَارِ مِمَّا يُثِيرُ سُؤَالَ سَائِلٍ أَنْ يَقُولَ هَذِهِ دَعْوَى غَرِيبَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى بَيِّنَةٍ. وَالْبَيِّنَةُ: الْحُجَّةُ"[3]، والجملة القرآنية ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ جملة خبرية اسمية، تؤكد التزام سيدنا موسى عليه السلام بدعوته، وقول الحق؛ مهما صادف

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 567.

2 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 137- 138، الزحيلي، التفسير الوسيط، ج1، ص 207.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص 38- 39.

من عقبات، ومهما كان المدعو، وعلى أي وجه كان. وجاء بين لفظ: (حَقِيقٌ) ولفظ (الْحَقّ) بديعية جناس الاشتقاق.

(2)- وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ ﴿ص: 84﴾.

التفسير: ذكر: "أنّ هذا قسم أقسم الله به؛ معناه الحق منّي، والحقَّ أقول، وقولنا الحق"[1] "وجاء لفظ الحق الأول قسم، والثاني مفعول مجاز قال: فالحق؛ وهو الله ﷺ أقسم بنفسه وَالْحَقَّ أَقُولُ"[2]، "وهو قسم من الله تعالى لإبليس أنه سيدخله وأتباعه النار حتى تمتلئ منهم"[3].

البعد البلاغي: جاءت الآية كلها جملة خبرية، والخبر فيها إنكاري؛ بسبب تأكيدها بأكثر من أسلوب؛ الأول فعلي: "قَالَ فَالْحَقُّ" وبآخر اسمي: "وَالْحَقَّ أَقُولُ"، وهي جملة فعلية ابتداءً، والخبر فيها لا يحتمل غير الصدق، وحقيقة القسم، وتنفيذ الوعد المتضمن فيها، وهو إدخال إبليس وأتباعه النار، والصدق فيها دلّ عليه الخبر، وهي نسبة كلامية. وَالْحَقَّ أَقُولُ أي ولا أقول إلا الحق، على حكاية لفظ المقسم به، ومعناه التوكيد والتسديد"[4]. ومن البلاغة البديعية في الألفاظ: أن جاء بين: "قَالَ" و "أَقُولُ" جناس الاشتقاق، وبين "فَالْحَقُّ" و "وَالْحَقَّ" جناس تام.

(3)- قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿غافر: 44﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّ الرجل الذي آمن من قوم فرعون يذكر قومه بأنه سيذكر بعضهم بعضا بصدق قوله بما يدعوهم إليه من التوحيد، والتذكير والنصح، حينما يعالجوا العذاب ويعاينوه، حيث لا ينفع الندم، معلنا تفويض أمره فيما كذبوه وتوعدوه إلى الله، فهو الذي يفصل

---

1 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 242، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 174.
2 الثعلبي، الكشف والبيان، ج 8، ص 217.
3 الزحيلي، التفسير المنير، ج 23، ص 233.
4 الزحيلي، التفسير المنير، ج 23، ص 233.

بينهم يوم الحساب"[1]، "وَيقول لهم أنّه سيَحِلُّ بِكمْ من الْعَذَابِ ما يُذَكِّرُكُم مَا أَقُولُه لكم، وجملته التي يقولها لهم هي: "إنَّهُ سَيَحِلُّ بِكُمْ العذاب"[2].

البعد البلاغي: جاءت جملة: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ جملة خبرية، فعلية والخبر فيها ابتدائي، وهي بمعنى:" إنَّهُ سَيَحِلُّ بِكُمْ العذاب"، وأن تذكير بعضكم بعضا واقع لا محالة يوم القيامة؛ لذا فإني أنصحكم بالتوحيد، وترك الشرك والعناد، قبل أن يقع ما أحذركم منه، وتندمون حين لا ينفع الندم. وَيقول لهم أنّه سيَحِلُّ بِكمْ من الْعَذَابِ ما يُذَكِّرُكُم مَا أَقُولُه لكم، وجملته التي يقولها لهم هي: "إنَّهُ سَيَحِلُّ بِكُمْ العذاب". وَجُمْلَةُ "وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ" عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ﴿غافر: 41﴾"[3].

تبين من الاستقراء أنّ زمن هذا الفعل هو الوقت الحاضر؛ دلالة على ثبوت هذا القول واستمراره.

*****

(14) – وبلفظ (تَقُلْ) المسند إلى ضمير المخاطب، المفرد، في الزمن الحاضر؛ ورد مرة واحدة)[4]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿الإسراء: 23﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية: "أنّ الله ﷻ كَلَّفَ الْإِنْسَانَ فِي حَقِّ الْوَالِدَيْنِ بأشياء عديدة؛ منها: أن لا يتأفف من شيء يراه من أحدهما، مما يتأفف منه الناس، أو يتأذون منه، ولكن عليه

1 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 170، الزحيلي، التفسير المنير، ج24، ص 131.
2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 156- 157.
3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 156- 157.
4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 567.

أن يصبر على ذلك، ويحتسب الأجر في الصبر عليهما عند الله ﷻ، كما صبرا عليه في الصغر، وأن لَا يتَقذَّرهُمَا كَمَا أَنَّهُمَا لَمْ يَتَقَذَّرَاه في صغره، وإِذَا وجدَ مِنهمَا رَائحَةَ تُؤذيه فلَا يقُلْ لَهمَا أُفٍّ، وهذا أدنى مراتب الأذى نبه به على ما سواه، والمعنى لا تؤذهما أقل أذى ممكن"[1].

البعد البلاغي: في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ جاءت الجملة بأسلوب النهي في "الخِطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصلُحُ لِسَمَاعِ الْكَلَامِ فَيَعُمُّ كُلَّ مُخَاطَبٍ وأُفٌّ اسْمُ فِعلٍ مضارع مَعْنَاهُ أتضجر. وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنَ النَّهْيِ عَنْ أَنْ يَقُولَ لَهُمَا أُفٍّ خَاصَّةً، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ النَّهْيُ عَنِ الْأَذَى الَّذِي أَقَلُّهُ الْأَذَى بِاللِّسَانِ بِأَوْجَزِ كَلِمَةٍ، وَبِأَنَّهَا غَيْرُ دَالَّةٍ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ حُصُولِ الضَّجَرِ لِقَائِلِهَا دُونَ شَتْمٍ أَوْ ذَمٍّ، فَيُفْهَمُ مِنْهُ النَّهْيُ مِمَّا هُوَ أَشَدُّ أَذًى بِطَرِيقِ فَحْوَى الْخِطَابِ بِالْأَوْلَى"[2]. وأفاد النهي في الجملة الإنشائية: ﴿فَلَا تَقُلْ﴾ المكونة من الفعل المضارع المقترن بـ (لا) الناهية، للنهي عن القيام بالعمل المقصود في الوقت الحاضر، واستمرارية النهي في المستقبل من الزمان؛ وهو التلفظ بأقل ما يمكن من قول فيه أذى للوالدين؛ ومن باب التمثيل لا التحديد ذكر لفظ "أُفٍّ"؛ كأقل ما يمكن من تركيب الحروف التي قد تخرج مع النفس دون قصد، مع التركيز على أن بداية النهي عن إتباع هذا السلوك هو عند بلوغ كبر أحدهما أو كلاهما تحديدا – وليس فقط- ذلك لأنهما أحوج ما يكونان فيه إلى اللطف في المعاملة، والشعور بمشاعرهما، لأنهما في مرحلة العجز، وعدم القدرة على الاستقلالية، وتوقع جني ثمار ما غرساه في شبابهما؛ فلا تخذلهما. "وجاءت جملة النهي: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ جواب فعل الشرط مقترنا بالفاء، وهو الفعل: "يبلغنّ" المجزوم بإن الشرطية، والتي حذفت منها النون لدخول (ما) الزائدة عليها؛ فأصلها (إن+ ما)

---

1 الطبري، جامع البيان، ج17، ص 415، الرازي، مفاتيح الغيب، ج20، ص 324- 325، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (المتوفى: 1376هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ت، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، 1420هـ -2000 م، ج1، ص456.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص 69- 70.

فأدغمت النون في الميم فأصبحت إمّا"[1]؛ "وَقَدْ تكون (إمّا) بمعنى الشرط، والأكثر فِي جوابها نون التوكيد"[2]، و"جاء في هذه الآية نَهْيُ الولد عن أن يقول لأحد والديه كلمة "أفٍّ" وهذه الكلمة كلمة خاصّة من عُمُوم الكَلِماتِ الّتي يكون فيها إيذاءٌ لهما، وهي أدناها، والكلام المؤذي أمرٌ خاصٌ من عموم ما يؤذيهما كالضرب، والمراد كلّ ما يؤذيهما، وهذا من إطلاق خصوص أذىً معين، وإرادةِ كلّ ما يؤذي على وجه العموم، فهو من إطلاق الخاص وإرادة العامّ. وفائدة هذا المجاز التنبيه بالأخفّ على الأشدّ، وتدريب المخاطبين على أن يُعْمِلوا عُقُولَهُمْ في فهم النصوص ليَقِيسوا الأشباه والنظائر بعضها على بعض، ولِيعلَمُوا أنّ النّهيَ عن الإضرار أو الإيذاء الأخف يَدُلُّ بداهة على ما هو أشدّ منه"[3]، "كما أنّ في الآية أمر ونهي"[4]؛ ففي قوله: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ نهي، وفي قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ أمر؛ وكلاهما من الجملة الإنشائية، ومن باب حروف المعاني؛ فإن (أو) قامت بمهمة التسوية بين (أَحَدُهُمَا) أَوْ (كِلَاهُمَا)؛ فقد أثبتت بلوغ حد الكبر عند أحدهما أو كلاهما"[5]، فأي منهما على حد سواء، الحي منهم! ومن البلاغة البديعية؛ فقد جاء بين: (فَلَا تَقُلْ) و (وَقُلْ) بديعية طباق السلب، وبين: (لَهُمَا) و (لَهُمَا) الثانية جناس تام، وبين لفظ: (تَقُلْ) ولفظ: (وَقُلْ) جناس اشتقاق.

---

1 إبراهيم، عبد العليم (المتوفى: بعد 1395هـ)، الإملاء والترقيم في الكتابة العربية، الناشر: مكتبة غريب، مصر، ص80، و هارون، عبد السلام محمد (المتوفى: 1408هـ)، قواعد الإملاء، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية -القاهرة-، 1993، ص 48.

2 ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، الناشر: محمد علي بيضون، 1418هـ-1997م، ص 103.

3 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 278.

4 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 1- البيان والبديع، كود المادة: LARB4093، المرحلة: بكالوريوس، الناشر: جامعة المدينة العالمية ج1، ص 349.

5 ابن السراج، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي (المتوفى: 316هـ)، الأصول في النحو، المحقق: عبد الحسين الفتلي، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، ج 2، ص 213.

*****

(15)- وبلفظ (تَقُولُ) الفعل المضارع، متعدد الإسناد، فقد جاء مسنداً للمخاطب المفرد المذكر، وجاء مسنداً للمؤنثة الغائبة، (ورد اثنتي عشرة مرة)[1]، فمما هو مسنداً للمؤنثة الغائبة:

(1)- قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ ﴿طه: 40﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّه لما وُضع موسى عليه السلام في التابوت جعلت أخته تراقبه من بعيد، بناء على طلب أمها التي قالت لها: "قصي أثر موسى فاطلبيه، حتى تسمعين له ذكراً أحي أم قد أكلته الدواب في البحر؟" فخرجت أخته تمشي على الشاطئ، تسير بسير التابوت، تتابعه بنظراتها لترى في أي مكان يستقر، فبصرت به عن جنب، تتبعه حتى وجدته، ووجدت فرعون وامرأته يطلبان له مرضعة: ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ ﴿القصص: 12﴾ أي: "هل أرشدكم على مَنْ يَكْفُلُهُ ويضمه ويحوطه ويرضعه. وحذف من الكلام ما بعد قوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ استغناء بدلالة الكلام عليه"[2].

البعد البلاغي: جاءت الجملة الفعلية (فَتَقُولُ) جملة خبرية استئنافية، تشير إلى ما كان من أخت موسى في ذلك الوقت، ومقولها: "هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ"، جملة استفهام إنشائية؛ تطلبها الظرف الذي وجدت أخت موسى نفسها فيه، وأن عليها التصرف بحذر وحكمة، فكان هذا السؤال المقدر من رب العالمين، دون تخطيط منها ولا من أمهما، في ذاك الزمن، فترتب عليه

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 567.

2 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 304.

رجوع موسى عليه السلام، بتدبير دقيق من المولى ﷻ، ليتحقق قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ﴿طه: 39﴾.

(2)- ومما هو مسنداً للمخاطب المفرد المذكر، قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ﴿هود: 91﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ قوم شعيب أجابوا دعوته لهم بالتكذيب والاستنكار، فقالوا: "إننا لا نعقل ما تَدْعُونَا إِلَيْهِ من التوحيد، ومن وفاء الكيل والوزن، وإنك تدعونا إلى شيء خلاف ما كنا عليه، وخلاف ما كان عليه آباؤنا"[1]، "ولأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له، تحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ﴿الأنعام: 25﴾ أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه، فكأنهم لم يفقهوه. وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، وجعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء. كما قال عنه رسول الله ﷺ"[2].

البعد البلاغي: جاءت الجملة الفعلية (قَالُوا) جملة خبرية؛ تفيد بأن قولهم قد وقع فعلا، وجملة مقول القول: "يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ" جملة نداء إنشائية، أوجدها موقف المعاندين من الدعوة في وقتهم الراهن، ربما لا يكون لها وجود في الواقع، مما يدل على كذبهم وافترائهم؛ وإشارتهم ضمن قولهم: "مما تَقُولُ" بصيغة المضارع دليلا على اعترافهم ضمنا باستمرارية شعيب في الدعوة، وعدم يأسه من استجابتهم، على عادة الأنبياء والمرسلين في رغبتهم الأكيدة في هداية أقوامهم؛ كما أنها تفيد بأنهم يفقهون جزءا مما يقول، ولكنهم لا يريدون

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 167.

2 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 423.

تصديقه لا بالقليل ولا بالكثير، و من البلاغة في الألفاظ فقد جاء بين لفظ (قَالُوا) و (تَقُولُ) جناس اشتقاق.

(3)- وجاء فيما هو مسنداً للمؤنثة الغائبة؛ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ﴿ق: 30﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ الله تبارك وتعالى قد سبقت كلمته: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فلمّا بُعث الناس وأُحضروا، وسيق أعداء الله إلى النار زمرا، جعلوا يقتحمون في جهنم فوجا فوجا، لا يلقى فيها شيء إلا ذهب فيها، ولا يملأها شيء، قالت: "ألستَ قد أقسمت لتملأني من الجنّة والناس أجمعين؟" فوضع قدمه، فقالت: "قدِ قدِ، فإني قد امتلأت"، فما فيها موضع إبرة، وقولها: "هل من مزيد": "هل بقي أحد؟". أو أن معنى قولها هو بمعنى الاستزادة: "هل من شيء ازداده؟"، ثم قال: "هَلِ امْتَلَأْتِ" يعني: "هل أوفيتك ما وعدتك"، ويقال بأنها تضيق بأهلها حتى لا يكون فيها مدخل لرجل واحد"[1]، "وفي قَوْلُهُ: "هَلْ مِنْ مزيدٍ" وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لِبَيَانِ اسْتِكْثَارِهَا الدَّاخِلِينَ، وَالثَّانِي: هوَ أَنَّهَا تَطَلَّب الزِّيَادَةَ، وَفِيهِ لطيفَةٌ، وَهِيَ أَنَّ جَهَنَّمَ تَتَغَيَّظ عَلَى الْكُفَّارِ فَتَطْلُبُهُمْ، ثُمَّ يَبْقَى فِيهَا مَوْضِعٌ لِعُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَطَلَّبُ جَهَنَّمُ امْتِلَاءَهَا لِظَنِّهَا بَقَاءَ أَحَدٍ مِنَ الْكُفَّارِ خَارِجًا، فَيَدْخُلُ الْعَاصِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَبْرُدُ إِيمَانُهُ حَرَارَتَهَا، وَيُسكِنُ إِيقَانُهُ غَيْظَهَا فَتَسْكُنُ"[2].

البعد البلاغي: جاء أنّ في: "قولها: "وَتَقُولُ": على التوسّع؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجيب لقالت ذلك. بل يحييها حتى تقول ذلك: "هَلْ مِنْ مَزِيدٍ": على جهة التغليظ، والاستزادة من الكفار، أوَ ليسَ فيّ زيادة"[3]، وتقول بنت الشاطئ في هذا أنّ: "البيان القرآني المعجز لا ينطق الجماد

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 337.

2 الرازي، مفاتيح الغيب، ج28، ص 143.

3 القشيري، لطائف الإشارات، ج 3، ص 453.

الأصم فحسب، بل يجرد منه كذلك شخصية حية، فاعلة ناطقة، مريدة مدركة"[1]؛ "فهو قد أنطق جهنم بحرها ولهيبها وجعل منها شخصية حية تجيب وتحاور، وفي هذا الأسلوب ضرب من التخييل والتصوير، ونقل الأسماء أو الصّفات من مواضعها الطبيعيّة وإضفاؤها على غيرها؛ لأن من عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام ما يستدعي هذا النقل في التخيّل ، وإن لم يكن في الواقع كذلك. فقد نقل صفة الحيّ وأضفاها على الذي لا حياة له، ونقل صفة الذي لا حياة له وأضفاها على الحيّ، والتخيُّل يضفي على المنقول إليه لمحات من صفة المنقول منه، ومنه استنطاق الجماد الذي لا ينطق، ومخاطبته كأنّه ناطق يتكلّم، وهذا ما فعل بجهنم، كما أن المستفاد من هذا السؤال والجواب لتصوير ملء النار بالناس والجن، وهي من السعة بحيث يدخلها من يدخلها، ويضاف إلى ذلك أن سؤال جهنم وجوابها يقصد به تقرير المعنى في النفس وتصويره وتثبيته"[2]؛ "واجتمع في هذه الآية الصدق والأدب الرفيع، وحلاوة فكرة السؤال والجواب الذكي الذي لم يكن مباشرة بصيغة: "لم أمتلئ" أو بصيغة "لا" مع كثرة الذين أُلقوا فيها. وإنّما جاء على صيغة سُؤال النّهِم الشّرِه طالب المزيد: "هَلْ مِن مَّزِيدٍ"؟!!."[3]، "ومن البلاغة فيها أنّ أسلوب الاستفهام الإنشائي في هذه الآية جاء ليفيد معنى التعجب والإنكار، والنفي، والجحود"[4]. ومن البلاغة في الألفاظ المفردة جاء بين: (نَقُولُ) و (وَتَقُولُ) جناس الاشتقاق.

*****

---

1 بنت الشاطئ، عائشة محمد علي عبد الرحمن (المتوفى: 1419هـ)، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف – القاهرة، ط 7ج1، ص 88.

2 حبنكة، البلاغة العربية، ج1، ص 80و ص 91، الزحيلي، التفسير المنير، ج26، ص 300و ص 306.

3 حبنكة، البلاغة العربية، ج1، ص 56.

4 الثعلبي، الكشف والبيان، ج9ـ ص 103، مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 – المعاني، ج1، ص 393.

(16)- وبلفظ (تقولَنَّ) المسند إلى المفرد المخاطب، في الزمن الحاضر؛ مضافا إليه نون التوكيد الثقيلة، (ورد مرة واحدة)[1]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ﴿الكهف: 23﴾.

التفسير: جاء في معنى هذه الآية: "أَنَّ الْمُشْرِكِينَ سَأَلُوا النبي ﷺ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ وعن الروح فوَعَدَهُمْ بِالْجَوَابِ عَنْ سُؤَالِهِمْ مِنَ الْغَدِ ونسي أن يقول: "إِنْ شَاءَ اللَّهُ"، فَلَمْ يَأْتِهِ جِبْرِيلُ ﷺ بالجواب إلّا بعد خمسة عشر يوما. وَقِيلَ: بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَكَانَ تَأْخِيرُ الْوَحْيِ إِلَيْهِ بِالْجَوَابِ عِتَابًا رَمْزِيًّا منَ اللَّهِ لرسُوله ﷺ، حتى شق عليه، وكذبته قريش، فنزلت الآية فكَانَ هَذَا عِتَابًا صَرِيحًا؛ فَأَعْلَمَه اللَّهُ بِقِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ، ثُمَّ نَهَاه عَنْ أَنْ يَعِد بِفِعْلِ شَيْءٍ دُون التَّقْيِيدِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ نهي تأديب. وَقَوْلُهُ: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ اسْتِثْنَاءٌ حَقِيقِيٌّ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهُ، أَنَّه مِنْ بَقِيَّةِ جُمْلَةِ النَّهْيِ"[2]، أي: "لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ: "إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً أو فيما يستقبل من الزمان إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ"[3].

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ...﴾ جملة نهي إنشائية، تطلبها الموقف الذي حصل من الرسول ﷺ في حينه، فاقتضى الرد من المولى ﷻ بما يلزم، وجاء الفعل مضارعا دليلاً على ضرورة التنبيه على الاستثناء، وعدم نسيانه كلما استجد أمر الآن، أو فيما يستقبل من الزمان، فيجب أن تكون مشيئة الله، أو الاستثناء متزامنا مع كل نية لكل عمل، والنون الثقيلة للتأكيد.

*****

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 567.

2 الطبري، جامع البيان، ج17، ص 645، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 343، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص 295- 296.

3 الزحيلي، التفسير المنير، ج15، ص 214.

(17)- وبلفظ (تَقُولُوا) الفعل المضارع المسند إلى ضمير الجمع المخاطب المذكر، من جنس العقلاء، ورد ست عشرة مرة[1]، اخترت منها فيما يدل على النهي؛ منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿البقرة: 104﴾.

التفسير: جاء في التفسير: " أنّ هذه الآية بدأت بنداء مدح للمؤمنين وذكرتهم بأن ينتهوا عن قولهم للرسول ﷺ كلمة "راعنا" وذلك أنهم كانوا يأتون رسول الله ﷺ ويقولون: "يا رسول الله راعنا"، وهي بلغة العرب: أرعني سمعك. وأصله في اللغة: راعيت الرجل إذا تأملته وتعرفت أحواله. وكان هذا اللفظ بلغة اليهود سباً بالرعونة، فلما سمعت اليهود ذلك من المسلمين، أعجبهم ذلك وقالوا فيما بينهم: "كنا نسب محمد سراً فالآن نسبه علانية"، فكانوا يأتونه ويقولون له: "راعنا يا محمّد"، ويضحكون فيما بينهم؛ ويريدون به السب. ومعناه في لغتهم اسمع لا سمعت، فسمعها سعد بن معاذ ﷺ ففطن لها، وكان يعرف لغتهم. فقال لليهود: "عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده يا معشر اليهود إن سمعنا من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لضربت عنقه"، فقالوا: "أولستم تقولونها؟" ، فنزلت الآية، و نهى المسلمين أن يقولوا بهذا اللفظ، وأمرهم أن يقولوا بلفظ أحسن منه؛ كي لا يجد اليهود بذلك سبيلا إلى شتم رسول الله ﷺ، واستبدلها الله لهم بقوله: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به. ثم ذكر الوعيد للكفار فقال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني اليهود"[2].

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 567- 568.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 81، الثعلبي، الكشف والبيان، ج1، ص 252، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 175، الرازي، مفاتيح الغيب، ج3، ص 634.

البعد البلاغي: جاء في هذه الآية أسلوبان إنشائيان؛ أولهما نهي في: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، وأسلوب أمر في: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾، وهذا ما اقتضاه الموقف من الرد على المشركين في حينه من المولى ﷻ، لردعهم، وكشف مكرهم، وإعلامهم بأن الله مطلع على خبث نواياهم لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا من غيره، وفي ذات الموقف وضع ﷺ البديل الدائم المتجدد لما نهى عنه؛ كي لا تكون حجة لمحتج لجج، وفيه تأديب للمسلمين في أدق تفاصيل تعاملهم مع الرسول ﷺ، ولدرء الشبهات في ألفاظ تحتمل أكثر من معنى، وهذا تأديب لكافة المسلمين في قابل حياتهم. أمّا من حيث البلاغة في الألفاظ المفردة؛ جاء بين لفظ: (لَا تَقُولُوا) و لفظ (وَقُولُوا) بديعية طباق السلب.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿البقرة: 154﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّ هذه الآية سبقت بنداء للمؤمنين وخطاب يحثهم على الِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ، وندبهم إِلَى عَمَلٍ عَظِيمٍ وَبَلْوَى شَدِيدَةٍ، وذَلِكَ تَهْيِئَتهم لجهادِ عدوهم، وترك المعاصي، وأداء سائر الفرائض التي كتبها الله عليهم، ونهاهم عن القول لمن يقتل في سبيل الله: "بأنه ميت"، لأن المولى ﷻ يقول إنّ الميت من خَلقي مَنْ سلبته حياتَه وأعدمتُه حواسَّه، فلا يلتذّ لذة ولا يُدرك نعيما، ولكن من قتلوا في سبيلي، فهم أحياء عندي، في حياة ونعيم، وعيش هَنِيّ، فَرحين بما هم فيه. وقيل أنها نزلت في المسلمين الذين قتلوا عند بئر معونة، أو في الذين قتلوا ببدر إذ قتل من المسلمين يومئذٍ أربعة عشر رجلاً"[1].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج3، ص214، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 105، الثعلبي، الكشف والبيان، ج2، ص 22، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص 114، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 52.

البعد البلاغي: صُدرت الآية بأسلوب النفي؛ وذلك من خلال الجملة الإنشائية: (وَلَا تَقُولُوا)؛ لأسباب اقتضتها ضرورة الحالة الراهنة؛ عندما كان الناس يطلقون صفة الميت على من يقتل في سبيل الله، فنهاهم ﷻ عن ذلك؛ لعلمه بأنهم أحياء يرزقون، وأراد أن يخبر المؤمنين بهذه الحقيقة، ونلاحظ هنا -مثل الآية السابقة- أنّ الله لما نهى المؤمنين عن أمر شائع بينهم، جعل لهم البديل الأمثل في الوقت نفسه، فلما نهاهم عن أن يخاطبوا الرسول بقول "راعنا" استبدله لهم بأمر وهو قول: "أنظرنا"، وها هو هنا يضع البديل الأمثل للأموات بأنهم أحياء، قولا وواقعا غيبيا أخبر به عباده في كتابه العزيز، وفي (أمواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ) إيجاز بالحذف، أي لا تقولوا: هم أموات، بل هم أحياء، ومن حيث البديع فقد جاء بين لفظي: (الأموات) و (الأحياء) طباق إيجاب"[1].

(3)- و قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿النساء: 94﴾.

التفسير: جاء في التفسير أن هذه الآية نزلت: "في رجل كانت معه غُنَيْمَاتٌ لقيته سريّة لرسول الله ﷺ فقال لهم: السلام عليكم لا إله إلا الله محمد رسول الله. فبدر إليه بعضهم فقتله. وقيل إنّه: أسامة بن زيد فلما أتى رسول الله ﷺ قال له: "أَقَتَلْتَ رَجُلاً يَقُولُ لا إله إلا الله؟" قال: "إنما قالها تعوذاً بلسانه دون قلبه"، قال له رسول الله ﷺ: "هَلاَّ شَقَقْتَ عَن قَلْبِهِ" فقال: "استغفر

1 الزحيلي، التفسير المنير، ج2، ص 37.

لي"، فقال له: "فَكَيْفَ لَكَ بلا إله إلا الله". ثلاث مرات. ثم استغفر له الرابعة، وأمره بأن يعتق رقبة ثم حمل رسول الله ﷺ ديته إلى أهله وردّ عليهم غنمه"[1].

البعد البلاغي: سبق الفعل المضارع (تَقُولُوا) بأداة النهي (لا)؛ فجاءت الجملة إنشائية طلبية، بأسلوب النهي؛ وذلك لمحاكاة الظرف الذي كان سببا في نزول هذه الآية، كما هو أسلوب القرآن الكريم في محاكاته الظروف، و متابعته لكل جديد في حياة المسلمين أثناء تنزله على قلب رسول الله ﷺ، فهو يهذب أخلاقهم، ويقوم سلوكهم، ليكونوا قدوة يقتدى بها، ومنارة يسترشد بنورها إذا ادلهمّ الظلام؛ وأخطأتهم الحكمة، وجانبهم الصواب، فهو يوجههم فيما لو حصل وأن تعرضتم لمثل هذا الموقف في المستقبل، وتكرر مثل ذلك وألقى إليكم أحدٌ من غير المسلمين السلام، فلا تقولوا له: "لَسْتَ مُؤْمِنًا"، وهذا الأمر ليس من باب الاستمرارية والثبات والدوام؛ بل إذا ما اقتضت الظروف ذلك؛ لذا جاء من باب الإنشاء. والأمر الذي تضمنته الجملة الإنشائية لم يكن حاصلا أثناء الطلب؛ لذا لزم الأمر على التنبيه عليه، والامتثال له وتطبيقه من باب الإلزام وليس الخيار، والنهي في تعريف البلغاء: "طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وليس له إلا صيغة واحدة، هي: المضارع، مع لا الناهية؛ مثل ما جاء في هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، ومدلوله طلب الكف عن الفعل فورا"[2]، وهذا ما ترجمه الصحابة رضوان الله عليهم، من امتثالهم للأمر، أو النهي فورا، وهذا هو الإعجاز العملي في القرآن الكريم. وما طلب الاستغفار، وحمل الدية إلا تجلي هذا الانصياع بأبهى صوره.

*****

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 328، الماوردي، النكت والعيون، ج1، ص 520، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 552.

2 المراغي، علوم البلاغة، ص 79.

(18)- وبلفظ (تَقُولُونَ) المسند إلى ضمير الجمع المخاطب، من جنس العقلاء من الذكور، في الزمن الحاضر، (ورد إحدى عشرة مرة)[1]، اخترت منها ما يكون في الاستفهام، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿البقرة: 80﴾.

التفسير: جاء بيان هذه الآية أن: "قالت اليهود: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً؛ ثمّ يزول عنّا العذاب وينقطع، واختلفوا في هذه الأيّام ما هي، قالوا: مدّة الدّنيا سبعة آلاف سنة وإنّما نعذّب بكل ألف سنة يوما واحدا ثمّ ينقطع العذاب بعد سبعة أيّام، وقالوا أربعين يوما التي عبد آباؤهم فيها العجل وهي مدّة غيبة موسى ﷺ عنهم. وقالوا: إنّ ربّنا عتب علينا في أمرنا، وأقسم ليعذّبنا أربعين ليلة ثمّ يدخلنا الجنّة فلن تمسّنا النار إلّا أربعين يوما تحلّة القسم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ تكذيبا لهم، وقال قل لهم يا محمّد أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً موثقا ألّا يعذّبكم إلّا هذه المدّة، إن كان لكم عهد؟ فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون؛ بمعنى بلى إنكم لتقولون"[2]، "وروي أنَّهُمْ إذا مضت عليهم في النار تلك المدة، قالت لهم الخزنة: يا أعداء الله ذهب الأجل وبقي الأبد، فأيقنوا بالخلود"[3].

البعد البلاغي: جاء في: "(أَتَّخَذْتُمْ) ألف الاستفهام دخلت على ألف الوصل"[4]، أي: "أاتخذتم؛ و(أَمْ تَقُولُونَ..) ذَكَر ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الْإِنْكَارِ"[5]؛ أي: "ينكر عليهم قولهم وادعاءهم،

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 568.

2 الثعلبي، الكشف والبيان، ج1، ص 226.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 68.

4 الثعلبي، الكشف والبيان، ج1، ص 226.

5 الرازي، مفاتيح الغيب، ج3، ص 568.

"وهذا يستدعي التوبيخ والتقريع"[1]، "و(أم) معادلة لهمزة الاستفهام بمعنى أي الأمرين كائن، على سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدهما، أو منقطعة بمعنى: بل أتقولون، على التقرير والتقريع"[2]، أو تفيد معنى التسوية. ومجيء (أَمْ تَقُولُونَ؟) بهذا المعنى يفيد الإضراب؛ أي: (بل تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ) من باب التأكيد من الجملة الخبرية؛ فهذا الأمر ليس جديدا على الكافرين. ومن البلاغة البديعية جاء بين لفظ: (وَقَالُوا) ولفظ: (قُلْ) ولفظ: (تَقُولُونَ) جناس الاشتقاق.

(2)- وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿البقرة: 140﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أن الله ﷻ يقول لسيدنا محمد ﷺ: قُلْ يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: أتحاجُّوننا في الله، وتزعمون أن دينكم أفضلُ من ديننا، وأنكم على هدى ونحنُ على ضَلالة، ببرهان من الله تعالى، فتدعوننا إلى دينكم؟ فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه، أم تقولون: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباط كانوا هودًا أو نَصَارَى على دينكم؟ فهاتُوا -على دعواكم ما ادّعيتم من ذلك- برهانًا فنصدِّقكم، فإن الله قد جَعلهم أئمة يقتدى بهم، ولكن يستدرك الله سبحانه عليهم قائلا: "وأيُّ امرئ أظلم منهم؟ وقد كتموا شهادةً عندهم من الله بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مسلمين؟ ونحلُوهم اليهوديةَ والنصرانية؛ فاليهود تزعم أن هؤلاء كانوا هوداً, والنصارى تزعم أنهم كانوا نصارى, فرد الله عليهم بأنه أعلم بهم منكم, فلم يكونوا هوداً ولا نصارى، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ -

1 القرطبي، للجامع لأحكام القرآن، ج2، ص 11.
2 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص9.

من كتمان الشهادة, وأخذ الرشوة عليها من أغنيائهم وسفهائهم"[1]، (وقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ معطوف على قوله ﴿أتحاجوننا﴾ - أم تدعون أن الأنبياء كانوا على دينكم تنبيها أنه من المحال أن يكون المتقدم مقتدياً بالمتأخر ومستنا بسنته"[2].

البعد البلاغي: في هذه الآية: (أم) في ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾: معادلة للهمزة في: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾؛ بمعنى أي الأمرين تأتون: المحاجة في حكمة الله أم ادّعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً، وأن تكون (أم) منقطعة بمعنى: بل تقولون، وَهِيَ إِضْرَابٌ لِلانْتِقَالِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى غَرَضٍ وَفِيهَا تَقْدِيرُ اسْتِفْهَامٍ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ لِلتَّوْبِيخِ وَالْإِنْكَارِ وَذَلِكَ لِمَبْلَغِهِمْ مِنَ الْجَهْلِ بِتَارِيخِ شَرَائِعِهِمْ زَعَمُوا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَأَبْنَاءَهُ كَانُوا عَلَى الْيَهُودِيَّةِ أَو عَلَى النَّصرانِيَّةِ كَمَا دَلَّ عليهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ وَمَعْنى: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ التَّقْدِيرُ: أنّ الله أعلم؛ وَقَدْ أَعْلَمَنا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصرانِيًّا، وتأكيد ذلك بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿آل عمران: 65﴾ والهمزة في: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ للإنكار أيضا"[3]. ومن البديع جاء بين لفظ: (تَقُولُونَ) ولفظ: (قُلْ) جناس اشتقاق.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿الأعراف: 28﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ المشركين إذا فعلو ما تبالغ في قبحه من الذنوب والفواحش اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم وبأنّ الله تعالى أمرهم بأن يفعلونها. وكلاهما باطل من العذر لأن أحدهما تقليد والتقليد ليس بطريق العلم. والثاني افتراء

---

1 الطبري، جامع البيان، ج3، ص 124، الماوردي، النكت والعيون، ج1، ص 196.

2 الراغب الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج1، ج 326.

3 الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 197. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 747.

على الله وإلحاد في صفاته، وكانوا يؤيدون فعلهم بقولهم: لو كره الله منا ما نفعله لنقلنا عنه؛ فأنزل الله فيهم قوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعلَمُونَ﴾ إنكارا لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط. والمراد بالفاحشة: طوافهم بالبيت عراة، والفحشاء عبارة عن كلِّ مَعْصيةٍ كَبِيرَةٍ فَيَدخُلُ فيها جَمِيعُ الْكَبَائِرِ، وَالغريب في الأمر أَنَّهُم لم يكونُوا يُسَلِّمُونَ بأن تِلْكَ الْأَفعَالِ فَوَاحِش ثُمَّ كَانُوا يَزْعُمون أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ بِهَا فَإِنَّ ذَلك لَا يَقُولُه عَاقل؛ بل الْمرَادُ أَنَّ تِلْك الْأَشْيَاءَ كَانَتْ فِي أَنْفُسهَا فَوَاحِشَ وَالْقَوْمُ كَانُوا يَعْتَقِدونَ أَنَّها طَاعَاتٌ وأَنَّ اللَّهَ أَمَرَهم بِهَا، وأي افتراء أعظم من هذا".[1]

البعد البلاغي: ابتدأت جملة: (أَتَقُولُونَ) الإنشائية بالهمزة، لتفيد معنى الاستفهام، أو التصور، لما يدعيه المشركون من أنّ الله أمرهم بفعل الفحشاء، وقد أنشئت هذه الجملة لطلب فهم شيء لم يتقدم به علم للسائل، وهو هنا كذلك؛ فالسؤال المطروح عليهم من الرسول ﷺ، وليس له سابق علم بما يدعون، لأنه كذب، وباطل ليس له وجود في الخارج يطابقه؛ وهذا الاستفهام يفيد التوبيخ والاستنكار لما يدعون. ومن البديع: جاء بين لفظ: (قَالُوا) ولفظ: (قُلْ) ولفظ: (أَتَقُولُونَ) جناس اشتقاق.

*****

(19)- وبلفظ (نَقُولُ) الفعل المضارع المسند إلى ضمير جمع المتكلم (نحن) (ورد إحدى عشرة مرة)[2] منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿النحل: 40﴾.

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 99، الرازي، مفاتيح الغيب، ج14، ص 225، السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص 286، الزحيلي، التفسير المنير، ج8، ص 175.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 568.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير أنّ الله ﷻ: "أعلَمَ المشركين المشككين في البعث بعد الموت سُهُولَةَ الْخلْقِ عَلَيْهِ، وأنه إِذَا أَرَادَ سبحانه أَنْ يبعث مَنْ يَمُوتُ فَلَا تَعَبَ عَلَيه وَلَا نَصَبَ فِي إِحْيَائِهِمْ، وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ ممَّا يحدثه، وإن بعثهم عليه يسيرٌ لِأَنَّه إِنَّمَا يقُولُ لَهُ "كُنْ فَيَكُونُ"، وهو بيان إمكانه وتقريره أن تكوين الله بمحض قدرته ومشيئته لا توقف له على سبق المواد والمدد، وإلاّ لزم التسلسل فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة ومثال؛ أمكن له تكوينها إعادة بعده، وإذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: "أحدث"، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل لأنّ مراداً لا يمتنع عليه، وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، وأنّ إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث، ولَا يَتَوَقَّفُ تَكْوِينُ شَيْءٍ إِذَا أَرَادَهُ اللَّهُ إِلَّا عَلَى أَنْ تَتَعَلَّقَ قُدْرَتُهُ بِتَكْوِينِهِ"[1]، "وَالْمعْنَى أَنَّهُ لَا يَتَوَقَّفُ تَكْوِينُ شَيْءٍ إِذَا أَرَادَهُ اللَّهُ إِلَّا عَلَى أَنْ تَتَعَلَّقَ قُدْرَتُهُ بِتَكْوِينِهِ، وَالشَّيْءُ: أُطْلِقَ هنا عَلَى الْمَعْدُومِ بِاعْتِبَارِ إِرَادَةِ وَجُودِهِ، فَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ مَا يؤول إِلَيْهِ، أَوِ الْمُرَادُ بِالشَّيْءِ مُطْلَقُ الْحَقِيقَةِ الْمَعْلُومَةِ وَإِنْ كَانَتْ مَعْدُومَةً، وَإِطْلَاقُ الشَّيْءِ عَلَى الْمَعْدُومِ مُسْتَعْمَلٌ. وأنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ خَبَرٌ عَنْ قَوْلُنا"[2]

البعد البلاغي: يعود الضمير في (نقول) على ذي الجلالة، وهو ضمير الجمع (نحن) للتعظيم، وجاءت صيغة الفعل بالمضارع؛ دليل استمرار إرادته جل وعلا، وأنها لا تتوقف، رهينة بقوله "كن"، واستمراره في إيجاد الأشياء، والجملة من (أنْ) والفعل (نَقُولَ) في محل رفع خبر (إنَّ)؛ أي إنّ: (نَقُولَ) جملة خبرية؛ تفيد حقيقة قول الله للأمر التكويني (كن) فيكون دون توقف. "وجاء تشبيه الشيء الممكن حصوله بشخص مأمور، وشبه انفعال الممكن لأمر التكوين بامتثال المأمور لأمر الآمر، من باب التقريب للناس بما يعقلون، ولَيْس خطَابًا لِلْمَعْدُوم ولَا أَنَّ

---

1 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 106، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 227، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 274، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 606.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص 156.

لِلْمَعْدُوم سَمْعًا يعقِلُ بهِ الْكَلَامَ فَيمتَثِلُ للْأمرِ"[1] ومن باب البديع؛ جاء بين لفظ: (قولَنا) (نَقُول) جناس اشتقاق.

(2)- وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿هود: 54﴾.

التفسير: إنّ قوم هود ردوا عليه بقولهم: "ما هذا الذي جئتنا به إلا جنون أصابك به بعض آلهتنا هذه التي تعيبها، وما اعتراك من بعض الأوثان الخبل والجنون، فاجتنبها سالما. ويقال: إنْ نقول لك إلا نصيحة كيلا يصيبك بعض آلهتنا بشدّة"[2].

البعد البلاغي: جاء جواب قوم هود بجملة خبرية، دليل إصرارهم على ما يقولون، وقناعتهم به، والتعبير بالفعل المضارع يفيد استمرارهم على موقفهم، وتجديدهم له؛ أي ما زلنا نقول: "ما نقول"وجاءت الجملة مؤكدة بإن المخففة، دليل على عدم قناعة المتلقي؛ وهو سيدنا هود عليه السلام بحججهم التي يتذرعون بها لرفض دعوته، كما تدل الجملة من أسلوب التأكيد على تعدد أساليب الدعوة، بالمقابل تعدد أساليب الرفض؛ وذلك حكاية عنهم:" إِنْ نَقُولُ" أي أرادوا التأكيد على ما يقولون، فاسمع أيها المتكلم لقولنا.

(3)- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿المجادلة: 8﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ اليهود كانوا إذا جاءوا إلى الرسول ﷺ يقولون: سام عليكم، وأن عائشة -رضي الله عنها- فطنت إلى قولهم، فقالت: وعليكم السامة واللعنة، فقال النبيّ ﷺ: "مهلا يا عائشة إنّ الله يحبُ الرّفْقَ في الأمرِ كلّه"، فقالت: يا نبيّ الله ألم

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص 156.

2 الطبري، جامع البيان، ج12، ص 508، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 156.

تسمع ما يقولون؟ قال: "أفلم تسمعي ما أردُ عليهم؟ أقول: عليكم". عن أنس بن مالك أنّ نبي الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه، إذ أتى عليهم يهوديّ، فسلم عليهم، فردوا عليه، فقال نبيّ الله ﷺ: "هَلْ تَدْرُونَ ما قَالَ؟ " قالوا: سلم يا رسول الله، قال: "بَلْ قَالَ: سأمٌ عليكُمْ، أي تسأمون دينكم، فقال النبيّ ﷺ: "أَقُلْتَ سَأمٌ عليكُم؟ قَالَ: نعم، فقال النبيّ ﷺ: "إذا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الْكِتابِ فَقُولُوا وَعَلَيْكَ": أي عليك ما قلت؛ فهذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أن الذين يحيونه بهذه التحية من اليهود يقولون: هلا يعاقبنا الله بما نقول لمحمد، فيعجل عقوبته لنا على ذلك، فيرد الله عليهم بقوله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ حَسْب قائلي ذلك يا محمد جهنم، وكفاهم بها يصلونها يوم القيامة، فبئس المصير جهنم"[1].

البعد البلاغي: جاءت جملة مقول القول: "لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ" جملة إنشائية اخترعها اليهود في الوقت الذي كانوا يتوجسون خيفة من نزول عذاب الله بهم، أو فضح نواياهم، وبيان مقصدهم من مقالتهم التي هي: "سام عليكم"، وتصدرت الجملة بلولا الدالة على التحضيض؛ أي: هل يعذبنا الله بما نقول؟ ومن البديع جاء بين لفظ: (وَيَقُولُونَ) ولفظ: (نَقُولُ) جناس اشتقاق.

*****

(20) وبلفظ (لنقولنّ) المسند إلى ضمير جماعة المتكلمين المؤكد بنون التوكيد الثقيلة، لما يستقبل من الزمان؛ دليل اللام، (ورد مرة واحدة)[2]، هي في:

---

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 240- 241.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 568.

(1)- قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿النمل: 49﴾.

التفسير: جاء في تفسير هذه الآية: "أنّه كان تسعة رهط يُفسدون في أرض حجر ثمود، ولا يصلحون تحالفوا بالله وتواثقوا على أن يبيتوا صالح وأهله، ثم قتلهم غيله، بعد أن عقروا الناقة، ثم أجمعوا أمرهم أن يقولون لوليه: ما شهدنا إهلاكهم، وَإِنَّا لَصادِقُونَ في قولنا ذلك، ولما قال ذلك أحدهم ، وَهُوَ يُرِيدُ شُمُولَ نَفْسِهِ إِذْ لَا يَأْمُرُهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ الْمُشَارَكَةَ مَعَهُمْ فِي الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: لَنُبَيِّتَنَّهُ. بَعْضُهُمْ تَوَافَقُوا عَلَيْهِ وَأَعَادُوهُ فَصَارَ جَمِيعُهُمْ قَائِلًا ذَلِكَ فَلِذَلِكَ أُسْنِدَ الْقَوْلُ إِلَى التِّسْعَةِ. وَالْقَسَمُ بِاللَّهِ يَدُلُّ على أنهم كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِاللَّهِ وَلَكِنَّهُمْ يُشْرِكُونَ بِهِ الْآلِهَةَ. ولَنُبَيِّتَنَّهُ جَوَابُ الْقَسَمِ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى صَالِحٍ. وَالتَّبْيِيتُ وَالْبَيَاتُ: مُبَاغَتَةُ الْعَدُوِّ لَيْلًا. فَالتَّبْيِيتُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِقَصْدِ غَدْرٍ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يُغِيرُونَ عَلَى بَيْتِهِ لَيْلًا فَيَقْتُلُونَهُ وَأَهْلَهُ غَدْرًا مِنْ حَيْثُ لَا يُعْرَفُ قَاتِلُهُ ثُمَّ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونُوا هُمْ قَتَلُوهُمْ وَلَا شَهِدُوا مَقْتَلَهُمْ"[1].

البعد البلاغي: جاءت الجملة الفعلية (لَنَقُولَنَّ) جملة خبرية مؤكدة بنون التوكيد المشددة، مسبوقة بلام الاستقبال؛ دليل على تبييتهم النية فيما يعزمون عليه من المكر والخديعة، في الوقت الذي يعزمون فيه على تحقيق مأربهم، وتأكيد قولهم بنون التوكيد الثقيلة لعزمهم على التأكيد لأهل المغدور أنهم ما شهدوا مهلكه، ولا يعلمون عنه شيئا، إذا رأوا من أهله ما يريبهم؛ وهذا الخبر المؤكد يعلم به المنكر للحكم، وجاء التأكيد على ضمير الجمع؛ دليل على تواطؤ الكل في التبييت، والتكذيب والإنكار. ومن حيث بلاغة الألفاظ المفردة أن جاء بين لفظ: (قَالُوا) ولفظ (لَنَقُولَنَّ) جناس اشتقاق.

*****

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 478، الثعلبي، الكشف والبيان، ج7، ص216.

(21)- وبلفظ (يقل) ورد مرة واحدة[1]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿الأنبياء: 29﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّه من يقل من الملائكة: إني إله من دون الله (فَذَلِك) الذي ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ ونثيبه على قيله ذلك العذاب، كذلك نجزي ذلك كل من ظلم نفسه، فكفر بالله وعبد غيره، وقيل: عنى بهذه الآية إبليس، وقال قائلو ذلك، لأنه لا أحد من الملائكة قال: إني إله من دون الله سواه وإنما كانت هذه الآية خاصة لعدو الله إبليس لما قال ما قال، لعنه الله وجعله رجيما"[2]، "وأن كان المقصود الملائكة فهو على سبيل الفرض؛ لأن الله تَعَالى أَخْبَر عَنْهُم بِأَنَّهُمْ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَبِأَنَّهُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَكُلُّ ذَلِكَ خَرَجَ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ وَالتَّقْدِيرِ، أي من كان منهم كإبليس حيث ادعى الألوهية، ودعا إلى عبادة نفسه، فجزاؤه جهنم على ما ادّعى. وأما الملائكة فلم يقل أحد منهم: إني إله من دون الله"[3]

البعد البلاغي: جاء الفعل (يَقُلْ) فعل الشرط في (الجملة الشرطية (وَمَنْ يَقُلْ) من باب الخبر، على سبيل الفرض للتعريض بمن يدعي الألوهية فتجب له نار جهنم، وجاءت (مَنْ) الشَّرْطِيَّة لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْعُمُومِ مَعَ الْإِيجَازِ. وَأُدْخِلَ اسْمُ الْإِشَارَةِ (فَذَلِك) للتأكيد على تحقيق جواب الشرط، لمن ثبت له القيام بفعل الشرط، وَفِي هَذَا إِبْطَالٌ لِدَعْوَى عَامَّةِ النَّصَارَى أُلُوهِيَّةَ عِيسَى

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 568.

2 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 430، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 424، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج7، ص 4747.

3 الرازي، مفاتيح الغيب، ج8، ص 275، الزحيلي، التفسير المنير، ج17، ص 38.

ﷺ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ. ثُمَّ صَرَّحَ بِمَا اقْتَضَاهُ التَّعْرِيضُ فَقَالَ تَعَالَى: "كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ" أَيْ مِثْلَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ وَهُوَ جَهَنَّمُ يَجْزِي الْمُثْبِتِينَ لِلَّهِ شَرِيكًا"[1].

*****

(22)- وبلفظ (يَقُولُ) الفعل الماضي المسند إلى ضمير المفرد المذكر من جنس العقلاء، (ورد ثمانياً وستين مرة)[2]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ﴿التوبة: 40﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ هذا القول صدر من رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر ﷺ حِينَ كَانَا مُخْتَفِيَيْنِ فِي غَارِ ثَوْرٍ؛ وذلك أنّ أبا بكر خافَ من أهل قريش أن يعلموا بمكانهما، فيصيبوا الرسول بمضرة، أو يعيدوه إلى مكة، فجزع من ذلك، فَلَمَّا اقتص المشركون الأثر وقَرُبُوا، بَكَى خَوْفًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فَلَمَّا سَمِعَ هَذَا سَكَنَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ اللَّهَ لَمَعَنَا، فَقَالَ الرَّسُولُ: "نَعَمْ" فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدُّمُوعَ عَنْ خَدِّهِ"[3]

البعد البلاغي: جاءت الجملة الخبرية: ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ مصدّرة بالظرف للأهمية، لبيان زمن القول، والتذكير فيه، فهو يقول في وقت أحوج ما يكون فيه إلى الصمت، وأكثر ما يكون فيه خوفا ورهبة، فكأن الله ﷻ يذكرنا ويقول لنا اذكروا وقت أن كان الرسول المطارد يقول...لصاحبه الخائف وجلاً عليه لا على نفسه؛ فجاءت جملة مقول القول: "لَا تَحْزَنْ" جملة إنشائية صنعها الموقف الرهيب! ينهى فيها الرسول ﷺ صاحبه عن الحزن الذي تولد عنده مما هما فيه، "ولما نهاه عن الحزن اشترفت نفس صاحبه إلى معرفة السبب في هذا النهي؛ لأن

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص 52.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 568- ص 569.

3 الطبري، جامع البيان، ج14، ص 258، وج 16، ص 50، الرازي، مفاتيح الغيب، ج9، ص 389، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص 203.

الحزن له سلطان على النفوس في مثل هذا الموقف لقوة داعية، فكان النهي عنه أمرا غريبا يحتاج إلى بيان علته، فأكمل ﷺ بيانه ودليله: "إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا"، فذكر ما يقتلع الخوف والقلق، ويبث الرضا واليقين"[1]، وجملة "إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا" جملة خبرية اسمية مؤكدة بإنّ الثقيلة لتقتلع الحزن الساكن قلب الخليفة؛ لأنه نهاه عن الحزن أولا، ثم أكد له معية الله ﷻ التي ما تركتهما في كل وقت، ليس في الغار وقت الهجرة فحسب؛ بل في الأوقات كلها، وجاء تكرار (إذ) الظرفية للتأكيد على الظرف المكاني، مكان القوارض والحشرات، والظرف الزماني؛ زمن المطاردة ووقت الهاجرة، وضيقهما الذي لم يكن لأحد أن يتخيل أن يكون فيهما أمان، أو أن يكون فيهما غير الحزن...!.

(2)- وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ ﴿الحاقة: 19﴾.

التفسير: جاء في تفسير هذه الآية: "أنّ المؤمن يقول يوم القيامة حين يأخذ كتابه بيمينه: أيقنت في الدنيا أني ملاق ما عملت إذا وردت يوم القيامة على ربي، وأيقنت، وظنّنت والظن من المؤمن يقين، فنفعه الله بظنه. ويُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ سَعَادَةِ مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَمِينِهِ، وَفَرَحِهِ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ يَقُولُ لِكُلِّ مَنْ لَقِيَهُ: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أَيْ: خُذُوا اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ وَحَسَنَاتٌ مَحْضَةٌ؛ لِأَنَّهُ مِمَّنْ بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ"[2].

---

1 أبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص86.

2 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 585. مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج12، ص 7680، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، ت، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999 م، ج8، ص 213.

البعد البلاغي: جاءت الجملة الخبرية الفعلية (فَيَقُولُ) (جملة جواب الشرط لـ (أمّا) المفتوحة) التي تفيد التفصيل"[1]، وهي هنا كذلك؛ فهي تفيد تفصيل حالة من أعطي كتابه بيمينه؛ فَيَقُولُ: "هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ"، وفعل الشرط في الجملة هو: (أُوتِيَ)، ومجيء قوله بصيغة المضارع دليل على لزومه هذه الحالة لكل من رأى ممن لقيه من المؤمنين، فرحا بما حل له من الرضا والسرور، أمّا جملة مقول القول: "هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ" فقد جاءت بصيغة النداء باسم فعل الأمر "ها" بمعنى: "خذ"[2]، معلنا بما جاء فيه لكل من أراد أن يقرأه، دون خوف أو وجل من أحد.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ ﴿الحاقة: 25﴾.

التفسير: وجاء هنا على النقيض من سابقه: "وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أي من أعطي يومئذ كتاب أعماله بشماله -وهذا في جميع الكفار- تلوى يده اليسرى خلف ظهره ثمّ يعطى كتابه. وقيل: تنزع من صدره إلى خلف ظهره فَيَقُولُ حُزْنًا وَكَرْبًا لما رأى فيه من سيئاته: ﴿يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ﴾ يعني: لم أعلم ما حسابي، وذلك لَمَّا رَأَى فِيهِ قَبَائِحَ أَفْعَالِهِ وَمَا يَصِيرُ أَمْرُهُ إِلَيْهِ، تَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يُعْطَهُ، وَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَدْرِ حِسَابَهُ، لِأَنَّ كُلَّهُ عَلَيْهِ"[3]، "وجاء أَنَّ الكافر لمّا نَظَرَ فِي كِتَابِهِ وَتَذَكَّرَ قَبَائِحَ أَفْعَالِهِ خَجِلَ مِنْهَا وَصَارَ الْعَذَابُ الْحَاصِلُ مِنْ هذا

---

1 المؤيد بالله، الطراز لأسرار البلاغة، ج3، ص 165.

2 حبنكة، البلاغة العربية، ص230.

3 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 587. السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 491، الثعلبي، الكشف والبيان، ج10، ص 31، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، ج10، ص 261، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط1- 1414 هـ، ج5، ص 340.

الخجل أكثر عليه مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: لَيْتَهُمْ عَذَّبُونِي بِالنَّارِ، وَمَا عَرَضُوا هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي ذَكَّرَنِي قَبَائِحَ أَفْعَالِي حَتَّى لَا أَقَعَ فِيما أنا فيه من الخجل"[1].

البعد البلاغي: جاءت الجملة الخبرية الفعلية (فَيَقُولُ) (جملة جواب الشرط لـ "(أمّا) المفتوحة التي تفيد التفصيل"[2]، وهي هنا كذلك؛ فهي تفيد تفصيل حالة من أعطي كتابه بشماله؛ فَيَقُولُ: "يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ" وفعل الشرط في الجملة هو: (أُوتِيَ)، ومجيء قوله بصيغة المضارع دليل على لزومه هذه الحالة النفسية التي أصبح يعاني منها ندما في كل وقته الذي خلد فيه بالنار، ويتمنى لو عذب ولم ير كتابه، أمّا جملة مقول القول: "يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ" فقد صدرها بحرف النداء "يا"، وهو هنا للتنبيه، وحرف التمني: "ليت" وكأنه ينادي حسرته، متمنيا لو لم يحصل له ما هو فيه من العذاب والهوان بأخذه كتابه؛ فهو يتمنى لو لم يأخذه، ولم يدر ما حسابه، والفرق بين ردة فعل المؤمن في الآية السابقة، وردة فعل الكافر في هذه الآية، أن المؤمن نادى بصوت مسموع منبها لكل من يصادفه بـ" هَاؤُمُ"، أمّا الكافر فلربما كان تمنيه أن لو لم يأخذ كتابه بينه وبين نفسه بقوله: "يَا لَيْتَنِي"، حين لا ينفع التمنّي.

*****

1 الرازي، مفاتيح الغيب، ج30، ص 630

2 المؤيد بالله، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة ، ج3، ص 165.

(23)- **وبلفظ (يَقُولَا)** الفعل المضارع المسند إلى ألف الاثنين الغائبين من جنس الذكور من البشر على الأصل، ولكنه هنا يشير إلى اثنين من الملائكة بعينهما، "وهو من الأفعال الخمسة"[1]، (ورد مرة واحدة)[2]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿البقرة: 102﴾.

التفسير: ذُكر: "إنّه إذا أتى هاروت وماروت إنسان يريد السحر، وعظاه وبذلا له النصيحة، وقالا له: "إنما نحن فتنة فلا تكفر" ويبينان له أن عمل السحر كفر، وينهيان عن التعلم ويبيّنان كيفية السحر فإن أبى، قالا له: "ائت هذا الرماد فبل عليه". فإذا بال عليه خرج منه نور يسطع حتى يدخل السماء - وذلك الإيمان - وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء منه، فذلك غضب الله. فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر، ولا يجترئ على السحر إلا كافر"[3]، "وقولهما: إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ أي اختبار وابتلاء. وأصل الفتنة الاختبار والْمِحْنَةُ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُ الْمُطِيعُ عَنِ الْعَاصِي؛ وهي من فَتَنْتُ الذَّهَبَ بِالنَّارِ إِذَا عُرِضَ عَلَى النَّارِ لِيَتَمَيَّزَ

---

1 علي الجارم ومصطفى أمين، النحو الواضح في قواعد اللغة العربية، الناشر: الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، ج1، ص 154.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 569.

3 الطبري، جامع البيان، ج2، ص 442- 443.

الْخَالِصُ عَنِ الْمَشُوبِ، أَيْ هَذَا الَّذِي نَصِفُهُ لَكَ وَإِنْ كَانَ الْغَرَضُ مِنْهُ أَنْ يَتَمَيَّزَ بِهِ الْفَرْقُ بَيْنَ السِّحْرِ وَبَيْنَ المعجزة، ولكنه يمكّن من الوصول إلى المفاسد والمعاصي، ولكن وجب التحذير من استعماله إلى شيء من الأغراض العاجلة، والتي فيها تصديق وشرك وكانا تحذيرهما حفاظا على حسن اعتقاد الناس فيهما"[1].

البعد البلاغي: جاءت جملة (يَقُولَا) جملة جواب الشرط؛ المجزوم بأداة الشرط (ما)، وهي هنا (ما) النافية، وعلامة جزمه حذف حرف النون من آخره، لأنه من الأفعال الخمسة، وقد يكون مجزوما بـ (أن) المضمرة وجوبا بعد حتى، وهي جملة خبرية فعلية، لا تحتمل غير الصدق نسبة كلامية، وفعل الشرط هو (يعلمان)، ومن البلاغة أيضا المطابقة التامة بين المسند والمسند إليه من حيث العدد وهما: الملكان هاروت وماروت، أما من حيث الجنس فهذا يشير إلى إمكانية التوسع في الإسناد، والتأكيد أنّ للملائكة قولاً كما هو عند البشر، ويأتي التعبير عنه بلفظ واحد وهو: (يَقُولَا) وجاء أنّ: "قَوْلَهُمَا لِمُتَعَلِّمِي السِّحْرِ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ قَوْلٌ مُقَارِنٌ لِوَقْتِ التَّعْلِيمِ لَا مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ، دل عليه الفعل في صيغة المضارعة المزامنة لوقت التعليم"، وَقَدْ أشار ذلك إلى أنهما معلمان، ولم يصرح بذلك؛ للاستغناء عنه، ويفهم من مضمون الجملة، فَهُوَ مِنْ إِيجَازِ الْحَذْفِ، وَقَوْلُهُم: "إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ" جملة مقول القول، تفيد الحصر.

*****

---

1 الطبري، جامع البيان، ج2، ص 442- 443، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 80، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج1، ص 372- 373، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 173، الرازي، مفاتيح الغيب، ج3، ص 632. الزحيلي، التفسير المنير، ج1، ص 244- 245.

(24)- وبلفظ (لَيَقُولُنَّ) الفعل المضارع المسند إلى ضمير الجمع من جنس الذكور من البشر، المتصل بنون التوكيد المشددة، مضافا إلى لام القسم، (ورد خمسة عشر مرة)[1]، ومن الاستقراء تبين أنّه مسندٌ إلى الكافرين في الآيات كلها، كما جاء جملة خبرية فعلية؛ واقعة جواب للقسم؛ للام القسم المتصلة بإن الشرطية (ولَئِنْ)؛ في المواطن التي وردت فيها كلها.

(1)- قوله تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿التوبة: 65﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين في أنّ: "رسول الله ﷺ حين رجع من تبوك، كان يسير بين يديه أربعة رجال، ويقولون إنّ محمّداً يقول إنّه نزل في إخواننا الذين تخلفوا بالمدينة كذا وكذا، وهم يضحكون ويستهزئون، وقيل بأنهم وقَفُوا عَلَى عَقَبَةٍ فِي الطَّرِيقِ يَنْظُرُونَ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا انْظُرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَتِحَ حُصُونَ الشَّامِ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فبعث إليهم النبي ﷺ عمار بن ياسر فقال له: "اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ واسألهم عمّا يَتَحَدَّثُونَ وَيَضْحَكُونَ؟" وأخبره أنهم يستهزئون بالقرآن، وأنه إذا أتاهم وسألهم يقولون: إنّما كنا نخوض ونلعب. فلما جاء إليهم عمار قال لهم: ما تقولون؟ قالوا: إنّا كنا نخوض ونلعب فيما يخوض فيه الركب إذا ساروا ونضحك بيننا، وَلَمْ نَكُنْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ وَلَا أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ، فقال عمار: صدق الله، وبلغ رسوله، هكذا أخبرني رسول الله ﷺ أنكم تقولون ذلك، غضب الله عليكم هلكتم هلكتم، فجاءوا واعتذروا"[2].

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، ص 569.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 70. الشوكاني، فتح القدير، ج2، ص 430. الزحيلي، التفسير المنير، ج10، ص 286.

البعد البلاغي: في الإعجاز الغيبي الذي تعين الإخبار به قبل حصوله من قبل الرسول ﷺ "لَيَقُولُنَّ"، فقد أخبر به عماراً ﷺ قبل أن يذهب إلى المشركين ويسألهم، ويجيبونه؛ وهذا ما تميز به الرسول ﷺ بإيحاء من الله ﷻ، وجاءت الجملة الخبرية جملة جواب القسم، جمع بين جملتيها رابط واحد لإثبات حكم مشترك، ويسمى هذا النوع من الجمل بالجمل الشرطية المتصلة، وهي "التي يكون الحكم في جملة جواب الشرط فيها مرتبطاً ارتباطاً شرطياً بالحكم في الجملة التي جُعل حُكْمُهَا شرطاً"[1]، فالحكم في جواب القسم أو الشرط "لَيَقُولُنَّ" مرتبطا بالفعل "سَأَلْتَهُمْ"، والخبر في الفعل والجواب لا يحتمل غير الصدق نسبة كلامية؛ وهذا ما تحقق وقوعه فعلا. ومن البلاغة النحوية "الْقَصْرُ في جملة مقول القول: "إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ..." لِلتَّعْيِينِ: أَيْ مَا تَحَدَّثْنَا إِلَّا فِي خَوْضٍ وَلَعِبٍ دُونَ مَا ظَنَنْتَهُ بِنَا مِنَ الطَّعْنِ وَالْأَذَى. وجاء فعل القول (قُلْ) فعل أمر إنشائياً، تعين إنشاؤه للرد على الحدث الراهن، أو للإجابة عن كل تساؤل يتعين الإجابة عليه، وَالِاسْتِفْهَامُ في جملة مقول القول: "أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ" إِنْكَارِيٌّ تَوْبِيخِيٌّ. وَتَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ وَهُوَ: "أَبِاللَّهِ" عَلَى فِعْلِهِ: "تَسْتَهْزِئُونَ" الْعَامِلِ فِيهِ لِقَصْدِ قَصْرِ التَّعْيِينِ لِأَنَّهُمْ لَمَّا أَتَوْا فِي اعْتِذَارِهِمْ بِصِيغَةِ قَصْرِ تَعْيِينٍ جِيءَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ بِصِيغَةِ قَصْرِ تَعْيِينٍ لِإِبْطَالِ مُغَالَطَتِهِمْ فِي الْجَوَابِ، فَأَعْلَمَهُمْ بِأَنَّ لَعِبَهُمُ الَّذِي اعْتَرَفُوا بِهِ مَا كَانَ إِلَّا اسْتِهْزَاءً بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ لَا بِغَيْرِ أُولَئِكَ"[2]، وفيها من البلاغة "مقابلة الشيء بمثله: وهو يتفرع إلى فرعين: أحدهما: مقابلة المفرد بالمفرد، والآخر مقابلة الجملة بالجملة. وفي الآية ذكر الاستهزاء الذي هو في معنى الخوض واللعب, وقابل به الخوض واللعب، ولو ذكره على حد المماثلة والمساواة، أو المشاكلة لقال: أفي الله وآياته ورسوله كنتم تخوضون وتلعبون، وهذا من مقابلة الفرد بالفرد، فلما أجابوا بقولهم: "إِنَّمَا كُنَّا

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ص 218- 219.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص 249- 250.

نَخُوضُ وَنَلْعَبُ"، رد عليهم بما يقابل قولهم، ويفيد معناه بقوله: "أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ"[1]، ومن البلاغة في الألفاظ المفردة فقد جاء بين اللفظ: "لَيَقُولُنَّ" ولفظ "قُلْ" بديعية جناس الاشتقاق.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿الأنبياء: 46﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ الله ﷻ يخاطب نبيه ﷺ أن أنذر قومك، وحذرهم مما سيحل بهم يوم القيامة عندما تحل بهم نفحة قليلة من عذاب الله، وبالندم الذي سيحل بهم عقوبة تكذيبهم وكفرهم، وليعلمن حينئذ عاقبة ذلك، وليعترفن على أنفسهم بنعمة الله وإحسانه إليهم وكفرانهم أياديه عندهم، متنادين بالويل؛ حينما لا ينفعهم ذلك، بقولهم: " يا ويلنا إنا كنا ظالمين" في عبادتنا الآلهة والأنداد، وتركنا عبادة الله الذي خلقنا وأنعم علينا، ووضعنا العبادة غير موضعها، والظُّلْمُ فِي هذِهِ الْآيةِ مرادٌ بِهِ الْإِشْرَاكُ لِأَنَّ إِشْرَاكَهُمْ معروفٌ لَدَيْهِمْ، وفي هذا إشارة إلى شدة عذاب الله"[2].

البعد البلاغي: جاءت الجملة الفعلية (لَيَقُولُنَّ) جملة جواب القسم لفعل القسم (مَسَّتْهُمْ)، جملة خبرية مؤكدة بلام القسم، ونون التوكيد الثقيلة الملحقة بها؛ لتؤكد أنّ ما بها من خبر كائن فعلا؛ والخبر فيها إنكاري، لتعدد المؤكدات. وهو جملة مقول القول: "يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ" كائن فعلا. وجملة مقول القول: "يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ"، جملة نداء إنشائية تفيد التنبيه والتحسر،

---

1 ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر، ج3، ص 159- 160، المؤيد بالله، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة، ج2، ص 202.

2 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 450- 451، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص428، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج9، ص 5646، الرازي، مفاتيح الغيب، ج22، ص 148، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص 79- 80، الزحيلي، التفسير المنير، ج17، ص 64- 65، الزحيلي، التفسير الوسيط، ج2، ص 1586.

والندم على ما سلف من أمرهم وظلمهم لأنفسهم، أنشأها موقف العذاب الذي يعاينونه الآن، والمس الذي يذوقونه؛ صنعتها قرائحهم في موقفهم الراهن، بعد الإنكار والتكذيب، فحملت معنى الحزن على أنفسهم، والشعور بالتوجع اللا منتهي. وجملة فعل القسم (مَسَّتْهُمْ)، وجملة الجواب (لَيَقُولُنَّ) جملتان متصلتان، جمع بينهما رابط حكم وحد مشترك؛ فالحكم في تحقق جملة الجواب: (لَيَقُولُنَّ) مرتبط وقوعه بتحقق وقوع جملة الفعل: (مَسَّتْهُمْ)، وهما كائنتان فعلا، فما أخبر به تعالى أنّه كائن؛ فهو كائن، ونذكر أصلا أنّ فعل القسم (مَسَّتْهُمْ)، مؤكد باللّام الموطئة للقَسَم، و إن الشرطية؛ للتأكيد على وقوع عملية المس ابتداءً.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿العنكبوت: 61﴾

التفسير: ذهب عدد من المفسرين حول الآية أن لو: "سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله، وكفار مكة مَن خلق السموات والأرض فسوّاهن، وسخّر الشمس والقمر لعباده، يجريان دائبين لمصالح خلق الله؟ ليقولنّ: "الله"، أي يقرون بأن الخالق هو الله؛ فأنى يُصرفون عمن صنع ذلك، فيعدلون عن إخلاص العبادة له، وتوحيده؟ فإن الاعتراف بأن الله هو الخالق يمنع المشركين من عبادة إله آخر سواه، أو اتخاذ شريك معه"[1].

البعد البلاغي: هذه الآية تشبه ما جاء في الآيتين السابقتين؛ لاشتمالها على جملة فعل الشرط، وجوابه، والجملتان فيها من نوع الجمل المتصلة؛ لأنه يجمع بينهما رابط حكم واحد مشترك، وتحقق جملة الجواب مرهونة بتحقق جملة الفعل، على النحو التالي: إنّ تحقق الجواب (لَيَقُولُنَّ) مرتبط ارتباطا حكميا بجملة الفعل: (سَأَلْتَهُمْ)، والجملتان كائنتان، ومتحققتا الوقوع نظرا

---

1 الطبري، جامع البيان، ج20، ص 58- 59، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 639، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 462، الزحيلي، التفسير المنير، ج21، ص 29- 30.

لوقوع خبرهما في القرآن الكريم، كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وجملة: (سَأَلْتَهُمْ) وجملة (لَيَقُولُنَّ) جملتان من حقل دلالي واحد، هو (القول) وما يفيد معناه، مع احتفاظ كل لفظ منهما بما يميزه عن الآخر. ومن حيث البلاغة المعنوية: "فقد جاء الاستفهام (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ) من باب سؤال الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع"[1].

*****

(25)– وبلفظ (يَقُولُوا) الفعل المضارع، المسند إلى واو الجمع من جنس الذكور من العقلاء،(وهو من الأفعال الخمسة)، (ورد سبع عشرة مرة)[2]، منها:

(1)– قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿النساء: 9﴾.

التفسير: جاء في بيان هذه الآية: "أنّ من حضر منكم مريضا عند الموت فلا يأمره أن ينفق ماله في العتق أو الصدقة أو في سبيل الله، ولكن يأمره أن يبيّن ماله وما عليه من دين، ويوصي في ماله لذوي قرابته الذين لا يرثون، ويوصي لهم بالخمس أو الربع. ويقول: أليس يكره أحدكم إذا مات وله ولد ضعاف يعني صغار أن يتركهم بغير مال، فيكونوا عالة على الناس؟ فلا ينبغي أن تأمروه بما لا ترضون به لأنفسكم ولا أولادكم ولكن قولوا الحق من ذلك، ويقال أنّ المرادُ بالآية: هم ولاة الأيتام"[3].

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، دار الكتاب الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن/ إربد، 1426هـ– 2005م معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، المعاني، الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع، ص 38.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 569.

3 الطبري، جامع البيان، ج7، ص 19– 20، وص 25.

البعد البلاغي: جاءت الجملة الفعلية (وَلْيَقُولُوا) جملة أمر إنشائية، معطوفة على الجملة الفعلية (فَلْيَتَّقُوا) جملة الأمر الإنشائية، وتفيدان أنّ من يخش على أولاده العيلة بعد مماته؛ أن يحسب حساب ذلك في حياته؛ ويتق الله في قوله إذا حضر وفاة من له ذرية؛ فيوجهه التوجيه الأمثل في توزيع ورثته، لا أن يستغل ظرفه، ويأمره بتوزيعها على قرابتهم، أو غيرهم ممن ليس له حق بها مثل أولاده وورثته، حتى يترك أولاده عالة على الناس؛ إن شاءوا أعطوه، وإن شاءوا منعوه!، وجاء الأمر من باب الإلزام، وعلى الوجه الحقيقي للأمر؛ لأنه من الأعلى إلى الأدنى، وقَوْلُهُ: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ فُرِّعَ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى عَلَى الْأَمْرِ بِالْخَشْيَةِ وَإِنْ كَانَا أَمْرَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ: لِأَنَّ الْأَمْرَ الْأَوَّلَ لَمَّا عُضِدَ بِالْحُجَّةِ اعْتُبِرَ كَالْحَاصِلِ فَصَحَّ التَّفْرِيعُ عَلَيْهِ، كما فرع الأمر بالقول السديد على الأمر بالتقوى، لأنه جزء منه، ومترتب عليه، ومتحصل منه، فإذا ما كانت التقوى يكن القول السديد مطلقا، والعكس بالعكس، فانعدام الأول يفضي إلى انعدام الثاني، وَالْمَعْنَى: فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ وَلْيُحْسِنُوا إِلَيْهِم الْقَولَ"[1]، وجاءت جملة فعل الشرط: (وَلْيَخْشَ)، وجوابه: (فَلْيَتَّقُوا و وَلْيَقُولُوا) جملتين متصلتين حكما، لأن تحقق الجملة الثانية متوقف على تحقق الجملة الأولى، جملة فعل الشرط. أمّا من حيث بلاغة المفردات، فقد جاء بين لفظ (وَلْيَقُولُوا) ولفظ (قَوْلًا) بديعية جناس الاشتقاق"[2]. وهي مفعول مطلق.

(2)- وقوله تعالى:﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿العنكبوت:2﴾.

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص 253.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، البديع، جناس الاشتقاق، ص 434.

التفسير: جاء في تفسير هذه الآية: "أظنَّ الذين خرجوا بالإيمان من أصحابك يا محمد ﷺ أن نتركهم بغير اختبار ولا ابتلاء أصدقوا أم كذبوا، أو بأن لا يؤمروا ولا ينهوا، أو أن لا يؤذوا ويقتلوا؛ هذا استفهام استنكاري معناه أنه لا بد وإن أن يحصل لهم كل هذا لنختبرهم، ولا بد من أن يبتلي الله عباده المؤمنين بمشاق التكاليف كالهجرة والجهاد في سبيله، ومقاومة الشهوات ووظائف الطاعات والفرائض المالية والبدنية من صلاة وصيام وحج وزكاة ونحوها، والتعرض للمصائب في الأنفس والأموال والثمرات، ليتبين الصادق منهم من الكاذب، والمؤمن من المنافق والراسخ في الدين من المضطرب فيه، والمتمكن من العابد على حرف ونجازي كل واحد بحسب عمله، بل يمتحنهم الله بضروب المحن، حتى يبلو صبرهم، وثبات أقدامهم، وصحة عقائدهم، ونصوع نياتهم"[1].

البعد البلاغي: جاء السؤال في: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ استفهام استنكاري، أريد به التقرير والتوبيخ، والإنكار أيْ إِنْكَارِ حُسْبَانِ ذَلِكَ"[2]، أي: "أنّ الناس يحسبون ذلك، ولكن الله سبحانه يوبخهم على هذا الظن وينكره عليهم؛ "لأنه لا بد من أن يبتلي عباده المؤمنين؛ بحسب ما عندهم من الإيمان من أجل التمحيص والثواب"[3]. والسؤال من باب الجملة الإنشائية، تولد في أذهانهم، وأنفسهم بعد إيمانهم، بسبب الظروف التي يعيشونها الآن، والابتلاءات التي عاملهم بها أهل

---

1 الطبري، جامع البيان ج19، ص7، الثعلبي، الكشف والبيان، ج7، ص 269، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 439.

2 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 439، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص 202- 203، الزحيلي، التفسير المنير، ج20، ص 185، صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية، المعاني، الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع، ص 38.

3 بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، ج2، ص 173، الزحيلي، التفسير المنير، ج20، ص 188، الزحيلي، التفسير الوسيط، ج3، ص 1947.

الكفر، فجعلهم يتساءلون، ويحسبون، فواقع الابتلاء والمحن هو الذي فرض عليهم هذا الظن؛ أمّا قبل الإيمان فلم يكن له وجود في واقعهم، ولا في أذهانهم؛ لعدم تعرضهم لما يتعرضون له الآن.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿المنافقون: 4﴾.

التفسير: جاء في تفسير الآية: "أن الله ﷻ يقول لنبيه محمد ﷺ: "وإذا رأيت هؤلاء المنافقين يا محمد تعجبك أجسامهم لاستواء خلقها وحسن صورها وجمالها يعني: عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق، كان رجلاً جسيماً فصيحاً صَحيحًا صَبِيحًا ذَلِقَ اللِّسَانِ، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ وإن يتكلموا تسمع كلامهم فيشبه منطقهم منطق الناس، فتظن من منطقهم أنهم على حق، ولكنهم في الحقيقة ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ بعضها على بعض، لا تسمع ولا تعقل، ولا خير عندهم ولا فقه لهم ولا علم، وإنما هم صور، وأشباح بلا أحلام، ولا يسمعون لمنادي الإيمان؛ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ من خُبثهمْ وسوء ظنهم، وجبنهم، وقلة يقينهم أنها عليهم، لأنهم على وجل أن يُنزل الله فيهم أمرا يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتل ذراريهم وسبي نساءهم، وأخذ أموالهم، فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل بهم من الله وحي على رسوله، ظنوا أنه كشف نفاقهم، ونزل بهلاكهم وإبادتهم. يقول الله ﷻ لنبيه ﷺ: هم العدوّ يا محمد فاحذرهم، ولا تأمن شرهم، فإن ألسنتهم إذا لَقُوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عين لأعدائكم عليكم، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يعني: لعنهم من أين يكذبون؟ ويقال: من أين

يصرفون عن الحق؟"[1]، و"الْخِطَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عام يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يَرَاهُمْ مِمَّنْ يَظُنُّ أَنْ تَغُرَّهُ صُوَرُهُمْ فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ النبي ﷺ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَأَوْقَفَهُ عَلَى تَعْيِينِهِمْ"[2].

البعد البلاغي: "جاءت البلاغة في نقل صفة الجامد الذي لا حياة له عن طريق التشبيه الصريح، وإضفائها على المنافقين الأحياء الجالسين المستندين إلى جدار في مجلس الرسول ﷺ بأجسامهم المَهيبَة، لأنّ حالتهم النّفسية المنصرفة كلّياً عمّا يجري حولهم تُوقِعُ في التخيّل أنّهم بمثابة الخُشُب المسنّدة، ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾"[3]. ومن بلاغة البيان: "أنّ في تصويرهم بقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ جاء تشبيه مرسل مجمل"[4]، "ومن حيث البلاغة البديعية، فقد جاء بين لفظ: "﴿يَقُولُوا﴾ و لفظ: ﴿لِقَوْلِهِمْ﴾ جناس اشتقاق"[5].

*****

(26)- وبلفظ (يَقُولُونَ) الفعل المضارع، المسند إلى ضمير الجمع الغائب من جنس الذكور العقلاء، (وهو من الأفعال الخمسة)، فقد ورد اثنتين وتسعين مرة)[6]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿البقرة: 26﴾ .

---

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 395، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 451، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص 125، الرازي، مفاتيح الغيب، ج30، ص 547، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص 239.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص 239.

3 حَبَنَّكَة، البلاغة العربية، ج1، ص 92.

4 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية، البيان، التشبيه، التشبيه المرسل المجمل، ص 235.

5 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية، البديع، ص 429.

6 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 569- ص 571.

التفسير: جاء في مناسبة نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾: "إنّه لما نزل قبلها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً﴾ ﴿الحج: 73﴾، وقال في آية أخرى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ ﴿العنكبوت: 41﴾، ضحكت اليهود والمشركون وقالوا: ما هذا الكلام وماذا أراد الله بذكر هذه الأشياء الخبيثة في كتابه وما يشبه هذا كلام الله، وقالوا: "إنّ رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت" فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَما فَوْقَها﴾، أي لا يمتنع من ضرب المثل وبيان الحق بذكر البعوضة وبما فوقها. ويقال: لا يمنعه الحياء أن يضرب المثل ويبيّن للحق شبهاً، ويصفه بقوله: ﴿ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها﴾، يعني بالذباب والعنكبوت ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي صدقوا وأقروا بتوحيد الله تعالى: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، يعني المثل بالذباب والعنكبوت، فيؤمنون به. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني اليهود والمشركين ﴿فَيَقُولُونَ ماذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا﴾ أي: بذكر البعوضة والذباب"[1]، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً﴾ من الكافرين ذلك أنهم ينكرونه ويكذّبونه ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ من المؤمنين يعرفونه ويصدقونه"[2].

البعد البلاغي: جاء في الجملة الخبرية الفعلية: (فَيَقُولُونَ) لتعبر عن حال الكافرين واعتراضاتهم التي لا تنتهي كلما سمعوا جديدا يتنزل من القرآن الكريم، وقد جاء التعبيرعن حالهم بصيغة المضارع التي تفيد استمرارهم فيما يقولون، وعدم ارعوائهم عما يعترضون؛ فهم على حالهم هذه يضارعونها كلما سمعوا خبرا، أو قولا. ولصدق الخبر يأتي الرد عليه مباشرة من السماء: "يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا..."، ليدحض ما يستنكرون، ومن البلاغة في سؤال

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 36- 37.

2 الثعلبي، الكشف والبيان، ج1، ص 172- 173.

الكافرين: "مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا" أنّه استفهام إِنْكَارِيٌّ أَيْ جُعِلَ الْكَلَامُ فِي صُورَةِ الِاسْتِفْهَامِ كِنَايَةً بِهِ عَنِ الْإِنْكَارِ لِأَنَّ الشَّيْءَ الْمُنْكَرَ يُسْتَفْهَمُ عَنْ حُصُولِهِ فَاسْتِعْمَالُ الِاسْتِفْهَامِ فِي الْإِنْكَارِ مِنْ قَبِيلِ الْكِنَايَةِ، وهو في غالب الأمر لَا يُجَابُ عليه بِشَيْءٍ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَقْصُودٍ بِهِ الِاسْتِعْلَامُ"[1].

(2)- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ﴿المجادلة: 2﴾.

التفسير: "لقد بين ﷻ في هذه الآية حكم الظهار: الذي كان يمينا شائعا عند العرب في الجاهلية، وعادة مستهجنة قبيحة تعودوها، دون سائر الأمم؛ فقد كان أحدهم يظاهر من زوجته بقصد تحريمها على نفسه بقوله لها: "أنت علي كظهر أمي" ؛ يُرِيدُ بِهِ تَأْبِيدَ تَحْرِيمِ نِكَاحِهَا وَبَتَّ عِصْمَتِهِ. كَمَا أَنَّ أُمَّهُ حَرَامٌ عَلَيْهِ، فهو يلحق زوجته بنفس حكم أمه، وقد بين سبحانه أن قوله هذا مُحَرَّمٌ بِإِجْمَاعٍ، لَا يَحِلُّ إِيقَاعُهُ، ومنكرا أنكره الشرع، وقبحه، وزورا في جعل الزوجات كالأمهات لأنهن لسن كأمهاتهم في الحرمة إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ فالأم التي ولدته، والأم التي أرضعته، وغيرهنّ ملحقات بهنّ لدخولهنّ في حكمهنّ، فالمرضعات أمّهات لأنّهنّ لما أرضعن دخلن بالرضاع في حكم الأمهات، وكذلك أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، لأن الله حرّم نكاحهن على الأمة فدخلن بذلك في حكم الأمهات. وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة لأنهنّ لسن بأمّهات على الحقيقة. وبين سبحانه أنه عفو غَفُورٌ، لمن تراجع ولم يعد لهذا العمل المنكر، وقد جعل الكفارة لرفع الحرمة، ولم يجعل فرقة بينهما وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يجب الالتزام بها وعدم تجاوزها"[2].

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 364- 365.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 412- 413، الثعلبي، الكشف والبيان، ج9، ص 254، الماوردي، النكت والعيون، ج5، ص 489، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 485- 487، ابن عاشور، التحريـر والتنـوير،

البعد البلاغي: دلت هذه الآية على: "معنى التَوْبِيخ للمظاهرين عَلَى صَنِيعِهِمْ في قولهم، ومع أن قولهم هذا لا يوجب تحريم المرأة؛ إلا أنّه قول منكر، وقبيح؛ لما فيه من تَعْرِيضِ حُرْمَةِ الْأُمِّ لِتَخَيُّلَاتٍ شَنِيعَةٍ تَخْطُرُ بمخيلة السَّامع عِنْدَ مَا يَسْمَعُ قَوْلَ الْمُظَاهِرِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي"[1]، ويحذر المولى من مغبة العودة إليه؛ ويؤكد استنكاره بأكثر من أسلوب؛ وذلك بأن جاءت جملة: (لَيَقُولُونَ) خبرا للجملة الاسمية: (وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ)، والثبات الذي يفيده الخبر يؤكد أنهم يقولون؛ والحقيقة التي في الخبر أنه منكر، وجاء هذا الخبر مؤكدا بأكثر من مؤكد؛ أولا بـ (إنّ) الثقيلة، و (اللام) المتصلة بالفعل للتأكيد عليه عند السامع إنّه: ﴿مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾، فهو خبر إنكاري لتعدد المؤكدات فيه.

ومن الناحية البديعية فقد جاء بين لفظ: (يَقولُونَ) ولفظ: (الْقَولِ) جناس الاشتقاق.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿الحشر: 10﴾

التفسير: جاء أنه: "عني بالذين جاءا من بعدهم المهاجرون أنهم يستغفرون لإخوانهم من الأنصار"[2] "أي والذين جاؤوا من بعد الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل المهاجرين الأولين، يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان من الأنصار وغيرهم. ﴿وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ﴾ أي: لا تجعل في قلوبنا عليهم حقدا ولا ضغنا، وأُمِروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ ولم يؤمروا بسبهم"[3]

ج28، ص 10، و ص 13- 14، الزحيلي، التفسير المنير، ج28، ص 9، الزحيلي، التفسير الوسيط، ج3، ص 2606.

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص 13- 14، الزحيلي، التفسير المنير، ج28، ص 9.

2 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 287

3 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج11، ص 7396.

البعد البلاغي: جاءت جملة الخبر الفعلية: (يَقُولُون)، تتحدث عن حال المؤمنين السابقين، ودعائهم لأنفسهم، ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان اعترافا بخيريتهم، وسابقتهم في الدين، وتحملهم مشاقّ الدّعوة في صدرها الأول. وهذه الجملة خبرية تحمل صدق الخبر، نظرا لمصدره، نسبة كلامية، كذلك هي إشارة دائمة بالدعاء لكل مؤمن يعترف بفضل من وصّل له الدين، وهذا مفهوم من الفعل المضارع (يَقُولُونَ)، الذي يفيد استمرارية الدعاء لمن سبق من الصالحين في كل عصر وتجديده، ومن البلاغة المعنوية في هذه الآية أسلوب الأمر الذي خرج عن الأصل المعروف به من الأمر إلى الدعاء من المؤمنين الذين: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، ذلك لصدوره من الأدنى إلى الأعلى.

*****

(27)- وبلفظ (قُلْ) فعل الأمر المسند إلى المخاطب المفرد من جنس الذكور العقلاء، (ورد ثلاث مائة واثنتين وثلاثين مرة)[1]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿البقرة: 189﴾.

التفسير: "ذكر أن رسول الله ﷺ سُئل عن زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف أحوالها، فأنزل الله تعالى هذه الآية، جوابا لَهُم فيما سألوا عنه. وسألوه ﷺ: لم جُعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها: بأنها مَواقيتُ للناس" فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم، ولمناسكهم وحجّهم، ولعدة نسائهم

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 571- ص 575.

وَمحلّ دَينهم في أشياء، والله أعلم بما يُصلح خلقه"[1]، "وأُخِذَ اسم الهلال من استهلال الناس برفع أصواتهم عند رؤيته, والمواقيت: مقادير الأوقات لديونهم وحجيم, ويريد بالأهلة وشهورها , وقد يعبّر عن الهلال بالشهر لحوله فيه"[2].

البُعد البلاغي: جاءت هذه الآية وما فيها من سؤال وجواب مثالا على ما يسمى بـ(أسلوب الحكيم)؛ وقد عرفه البلاغيون بقولهم: "هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه إلى خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله، أو المهم له". وهذا التعريف يبين لنا أن أسلوب الحكيم ضربان من ضروب التعبير. الأول: حمل كلام المخاطب على معنى غير المعنى الذي يقصده، وعبد القاهر يسمي هذا الأسلوب المغالطة، وهو جدير بهذه التسمية، وإن كانت مغالطة أدبية طريفة. النوع الثاني: أي جواب السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله، فقد سألوه عن الأهلة: وقالوا: ما بال الهلال يبدو في أول أيامه دقيقا مثل الخيط، ثم يتزايد قليلا قليلا؟ أي سألوه عن السبب الطبيعي والعلة العلمية لتغيير منازل القمر، فأجاب القرآن ببيان فائدة تغيير منازل القمر، فقال: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾؛ لأن مثل حالهم لا يعنيهم من تغيير منازل القمر إلا ما ينتفعون به، أما المعرفة العلمية، فإن القرآن الكريم لم يفسر مظاهر الكون تفسيرا علميا كاشفا، وإنما ترك هذه الجهود للبشر، ومعاناتهم العلمية بعد ما هداهم إلى التفكير، وأوجب عليهم النظر في ملكوت الله"[3]، كما وجاءت البلاغة في صيغة الفعل التي أمر الله ﷺ

---

1 الطبري، جامع البيان، ج3، ص 553.

2 الماوردي، النكت والعيون، ج1، ص 249. أ. د. بن ياسين، حكمت بن بشير، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية، 1420 هـ - 1999 م، ج1، ص 298.

3 أبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دارسة تحليلية، ج1، ص 270- 271.

رسوله ﷺ أن يجيب السائلين عن سؤالهم، وما يعنيهم منه؛ فقال له على وجه الأمر (قل) لهم وأخبرهم عما يسألون، بجملة إنشائية، اقتضاها الموقف الراهن آنذاك، فكانت الإجابة تبعا لذلك، وذلك لأن الحياة مستمرة، لا تثبت على حال، ففي كل يوم جديد، ولكل جديد استفسارات لتكشف عن غوامضه، فجاء الجواب أن (قل) لهم إنّ جواب هذه الحالة كذا!، وقد يكون جواب غيرها مختلفاً.

(2)- وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿الكهف: 103﴾.

التفسير: جاء في التفسير أن: "(قُلْ) يا محمد لهؤلاء الذين يبغون عنتك ويجادلونك بالباطل، ويحاورونك بالمسائل من أهل الكتابين: اليهود، والنصارى ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أيها القوم ﴿بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا﴾ الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبتغون به ربحا وفضلا فنالوا به خسارة وهلاكا ولم يدركوا طلبا، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلا وربحا، فخاب رجاؤه. وخسر بيعه، ووكس في الذي رجا فضله. وقيل أنّ المقصود هم الرهبان والقسوس"[1]، "أيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ إذا طلبوا منك معرفة الأخسرين أعمالا، فقل لهم -على وجه التحذير والإنذار- أُولئكَ هُمُ الرُّهْبَانُ"[2]، "إذن فهناك خاسر. وهناك من أخسر منه. والأخسر هو الذي كفر بالله ﷻ. وبيوم القيامة. واعتقد أن حياته في الدنيا فقط. ولم يكن الله في باله وهو يعمل أي عمل، بل كانت الدنيا هي التي تشغله. ثم فوجئ بالحق ﷻ يوم القيامة. ولم يحتسب له أية حسنة، لأنه كان يقصد بحسناته الحياة الدنيا. فلا يوجد له رصيد في الآخرة"[3].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 125.

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص 230، السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص 487.

3 الشعراوي، محمد متولي، (المتوفى: 1418هـ)، تفسير الشعراوي- الخواطر، مطابع أخبار اليوم، ج1، ص 222.

البعد البلاغي: "إنّ المقصود من الإخبار عن الأخسرين أعمالا هو من باب التحذير والإنذار، أي هل أخبركم بأخسر الناس أعمالا على الإطلاق؟"[1]، لأنكم قد تكونوا أنتم المقصودين بأخسر الناس، وجاء "افْتِتَاحُ الْجُمْلَةِ بِالْأَمْرِ بِالْقَوْلِ لِلِاهْتِمَامِ بِالْمَقُولِ بِإِصْغَاءِ السَّامِعِينَ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الِافْتِتَاحِ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ فِي غَرض مهمّ، وَكَذَلِكَ افْتِتَاحُهُ باستفهامهمْ عنْ إِنْبائِهِمْ استفهامًا مُسْتَعْمَلًا فِي الْعَرْضِ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى: أَتُحِبّونَ أَنْ نُنَبِّئَكمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، وَهُوَ عَرض تَهَكُّمٍ لِأَنَّهُ مُنَبِّئُهُمْ بِذَلِكَ دُونَ تَوَقُّفٍ عَلَى رِضَاهُمْ. وَفِي قَوْلِهِ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا إِلَى آخِرِهِ ... تَمْلِيحٌ، والتفات إِذْ عَدَلَ فِيهِ عَنْ طَرِيقَةِ الْخِطَابِ بِأَنْ يُقَالَ لَهُمْ: هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِأَنَّكُمُ الْأَخْسَرُونَ أَعْمَالًا، إِلَى طَرِيقَةِ الْغَيْبَةِ بِحَيْثُ يَسْتَشْرِفُونَ إِلَى مَعْرِفَةِ هَؤُلَاءِ الْأَخْسَرِينَ فَمَا يُرَوِّعُهُمْ إِلَّا أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْمُخْبَرَ عَنْهُمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ. وَالْمَقُولُ لَهُمْ: الْمُشْرِكُونَ، تَوْبِيخًا لَهُمْ وَتَنْبِيهًا عَلَى مَا غَفَلُوا عَنْهُ مِنْ خَيْبَةِ سَعْيِهِمْ. وَنُونُ الْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ فِي قَوْلِهِ نُنَبِّئُكُمْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ نُونُ الْعَظَمَةِ رَاجِعَةً إِلَى ذَاتِ اللَّهِ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ فِي الْحِكَايَةِ. وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: هَلْ يُنَبِّئُكُمُ اللَّهُ، أَيْ سَيُنَبِّئُكُمْ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ رَاجِعَةً إِلَى الرَّسُول ﷺ وَإِلَى اللَّهِ ﷺ لِأَنَّهُ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ رَاجِعَةً لِلرَّسُولِ وَلِلْمُسْلِمِينَ"[2].

(3)- وقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿طه: 114﴾.

التفسير: "ذُكر أنّ الخطاب جاء لسيدنا محمد ﷺ، أن يا محمد ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾، أطلب من الله الزيادة في العلم، والدعاء الزيادة في فهم القرآن ومعانيه"[3]، و "أن زدني أدباً في

1 السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص 487.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص 45- 46.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 414، للثعلبي، الكشف والبيان، ج6، ص 262.

دينك, لأن ما يحتاج إليه من علم دينه لنفسه أو لأمته لا يجوز أن يؤخره الله عنده حتى يلتمسه منه، وزدني صبراً على طاعتك وجهاد أعدائك, لأن الصبر يسهل بوجود العلم، وزدني علماً بقصص أنبيائك ومنازل أوليائك، وزدني علماً بحال أمتي وما تكون عليه من بعدي، وهذا الدعاء من سيد الخلق، وسيد البشر، ليتصف بنعت الدعاء؛ لأنه أشرف خصال العبد أن يقف في محلّ الافتقار"[1]، "وهو متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له عند ما علم من ترتيب التعلم، أي علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأدبا جميلا ما كان عندي، فزدني علما إلى علم، فإنّ لك في كل شيء حكمة وعلما. وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم"[2]، "كما أنها تشير إلى أن يسأل الله العلم بدل الاستعجال فإن ما أوحى إليك، ووعده بأن ينال ما يطلب، لا محالة"[3].

البعد البلاغي: البلاغة في هذه الآية أنها جاءت مثالا على الدعاء المستفاد من صيغة الأمر؛ وهو من الجملة الخبرية؛ وهو من الأدنى إلى الأعلى، "والمعنى المستفاد من الدعاء أنَّهُ ﷺأَمَرَ نبيه بِالْفَزَعِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي زِيَادَةِ الْعِلْمِ الَّتِي تَظْهَرُ بِتَمَامِ الْقُرْآنِ أَوْ بَيَانِ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ"[4]، "وَعَطْفُ جُمْلَةِ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ اسْتِعْجَالٌ مَخْصُوصٌ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، وَأَنَّ الْبَاعِثَ عَلَى الِاسْتِعْجَالِ مَحْمُودٌ. وَفِيهِ تَلَطُّفٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتْبَعَ نَهْيَهُ عَنِ التَّعَجُّلِ الَّذِي يَرْغَبُهُ بِالْإِذْنِ لَهُ بِسُؤَالِ الزِّيَادَةِ مِنَ الْعِلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَجْمَعُ كُلِّ زِيَادَةٍ سَوَاءٌ كَانَتْ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ أَمْ بِغَيْرِهِ مِنَ الْوَحْيِ وَالْإِلْهَامِ إِلَى الِاجْتِهَادِ تَشْرِيعًا وَفَهْمًا، إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ رَغْبَتَهُ فِي التَّعَجُّلِ رَغْبَةٌ صَالِحَةٌ"[5]

---

1 الماوردي، النكت والعيون، ج3، ص 429، القشيري، لطائف الإشارات، ج2، ص 480.

2 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 90.

3 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 40، الزحيلي، التفسير المنير، ج16، ص 289.

4 الرازي، مفاتيح الغيب، ج22، ص 105.

5 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص 317.

*****

(28)- وبلفظ (قُلْنَ) فعل الأمر، المسند إلى جماعة النساء المخاطبات، وهو مسندٌ هنا إلى زوجات الرسول ﷺ، (ورد مرة واحدة)[1]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿الأحزاب: 32﴾.

التفسير: جاء: "أنّ الله ﷻ نبه نساء الرسول ﷺ إلى أمور قد يغفل عنها من لا يدرك أبعادها، ومدى تأثيرها في النفوس الضعيفة؛ ألا وهي مسألة هيئة الكلام مع الأجانب، فقد نهاهن عن الخضوع بالقول؛ وهو الرقة فيه والتذلل، وأمرهن سبحانه بالقول الحسن، المعروف بالخير؛ فلا يكون لينا فيفتنّ، ولا بالخشن فتؤذين، وَالْقَوْلُ: الْكَلَامُ. وَالْمَعْرُوفُ: هُوَ الَّذِي يَأْلَفُهُ النَّاسُ بِحَسَبِ الْعُرْفِ الْعَامِّ، وَيَشْمَلُ هَيْئَةَ الْكَلَامِ وطريقتها، فإما أن يكون قولا حسنا مع كونه خشنا، أو أن يكون كلاما جزلًا، وجاء هذا التنبيه من باب تَرْفِيعِ قَدْرِهِنَّ وَإِرْشَادِهِنَّ إِلَى دَقَائِقَ مِنَ الْأَخْلَاقِ قَدْ تَقَعُ الْغَفْلَةُ عَنْ مُرَاعَاتِهَا لِخَفَاءِ الشُّعُورِ بِآثَارِهَا، وَالنَّهْيُ عَنِ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ إِشَارَةٌ إِلَى التَّحْذِيرِ مِمَّا هُوَ زَائِدٌ عَلَى الْمُعْتَادِ فِي كَلَامِ النِّسَاءِ مِنَ الرِّقَّةِ وَذَلِكَ تَرْخِيمُ الصَّوْتِ، ولا يعني هذا اللفت لنساء النبي ﷺ أنهن على حال من السوء يقتضي المنع والكف ولكن لتحقيق كمال الإيمان، والتقوى، وحملهن على أسمى الفضائل وملازمتها، ولدوام نيل رضى الله ﷻ ورسوله ﷺ ولأنهن قدوة لنساء المسلمين إلى قيام الساعة"[2].

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 575.

2 الطبري، جامع البيان، ج20، ص 257- 258، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 59، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 537، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج22، ص8-9، الزحيلي، التفسير المنير، ج22، ص 8- 9.

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿وقلن قولا معروفا﴾ جملة إنشائية من باب الأمر والإلزام، أي إذا ما تعرضتنّ للحديث مع الأجانب فعليكن بالكلام المعروف والمقبول بين الناس، ومن البلاغة في الألفاظ المفردة جاء بين الألفاظ: (بِالْقَوْلِ) و (وَقُلْنَ) و (قَوْلًا) بديعية من نوع جناس الاشتقاق.

*****

(29)- وبلفظ (قُولَا) فعل الأمر المسند إلى ألف الاثنين؛ (ورد ثلاث مرات)[1] ؛ وثلاثتها أمر من الله ﷻ إلى سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام في كيفية خطابهما فرعون، وتوجيههما في أسلوب دعوته، وهي:

(1)- قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿طه: 44﴾.

التفسير: جاء في بعض كتب التفسير: "أنّ الله ﷻ لما بعث سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام إلى فرعون وتكليفهما بدعوته، وجههما في كيفية الخطاب؛ وأسلوب القول الواجب عليهما اتباعه في الدعوة؛ حتى يتقبل منهما، أو يستمع لهما، لعله يستجيب لرسالتهما، فقال: "فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا" واللين في ذلك: (أن يقولا له قولا ليّنا؛ لوجوب حقه على موسى بما رباه، وإن كان كافراً، وأن يكنياه، أو يكلماه فيما فيه شفقة ورفق، أو يقولا له أيها الملك؛ لأن الرؤساء بكلام اللين أقرب إلى الانقياد من الكلام العنيف، ولأن نفس الحاكم مستعلية قاسية، لا تقبل القسر والقسوة، وتلين للمديح والاستعطاف، كما أن ذلك أدعى به وأحرى أن يفكر فيما يبلغه، ويخشى عقاب الله الموعود به على لسانهما)، وقد أمرهما الله بالملاينة معه في الخطاب لأنه كان أول من دعوه إلى الدّين، فإذا آمن تبعته الرعية، وهذا ما يجب أن يكون عليه الدعاة؛ من اللين

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 575.

والتمهل في الخطاب، فإنه وقت المهلة والتفكير، وكلمة «لعل» هنا لتوقع حصول ما بعدها، واحتمال تحققه؛ وهو الإيمان وإتباع المنهج، فجاء موسى وابتدأ به لأنه الحاكم وقال له: تُسلم وتؤمن بما جئت به وتعبد رب العالمين، على أن لك شباباً لا يهرم أبداء، وتكون ملكا لا ينتزع ملكك منك أبداً حتى تموت، ولا تنتزع منك لذة الطعام والشراب والجماع أبداً حتى تموت، فإذا مت دخلت الجنة... "[1]

البعد البلاغي: ابتدأت الآية بجملة الأمر الإنشائية (فَقُولَا)؛ على الوجه الحقيقي للأمر؛ لمجيئه من الأعلى إلى الأدنى، وهو توجيه من الله ﷻ إلى موسى وهارون في كيفية خطابهما فرعون والأسلوب الأمثل في دعوته؛ من اللين، واللطف في الخطاب القولي، مع إظهار التمني والتلهف النفسي، رجاء الاستجابة للرسالة ونجاح الدعوة؛ "لذلك جاءت عبارات التمني والترجي في النص لأن مقتضى الحال من البشر يلائمه الترجي والدعاء، فجاءت كلمة "لَعَلَّ" لغرض بلاغي، وهو إبرازُ المتَمَنَّى في صورة الممكن المطموع فيه، بغيةَ الإشعار بكمال العناية به، والتلهُّفِ على الحصول عليه، أو تحقيقه؛ فينبغي عليهما الذهاب إلى فرعون راجيَيْنِ في أن يتذكَّر أو يخشَى، طامِعَيْنِ في ذلك، إذ لو ذهبا إليه وهما يائسَانِ من استجابَتِه، لَمْ تَندفعْ أنفسهما للقيام بمهمَّةِ رسَالَتِهما على الْوَجْهِ الأمْثَلِ المطلوب منهما"[2]، ومن البلاغة في هذا النص أيضا "أنه يمثل أنموذجا من نماذج البديعة المعنوية: حُسْن المراجعة: وهي أن يحكي المتكلّم مراجعةً في القول بينه وبين محاورٍ له بعبارات موجزة، وسبك محكم، ولفظ عذب، ولا تتقيد هذه المراجعة بأن تكون بين المتكلم وبين مُحَاوِرٍ له، فلو جاءت مراجعةٌ بين شخصين أو بين

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 313، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 400، القشيري، لطائف الإشارات، ج2، ص 459، الزحيلي، التفسير المنير، ج14، ص 270، و ج16، ص 215- 216.

2 حبنكة، البلاغة العربية، ج1، ص 252.

خصمين على هذا الوجه فتكون عملاً بديعاً يمثل حُسْن المراجعة، وهذه الآيات القرآنية، تمثل هذه البلاغة، قال تعالى: ﴿اذهب أنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي* اذهباَ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى* فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى* قَالاَ رَبَّنَاَ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَاَ أَوْ أَن يطغى* قَالَ لاَ تَخَافَاَ إِنَّنِي مَعَكُمَاَ أَسْمَعُ وأرى* فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ والسلام على مَنِ اتبع الهدى﴾ ﴿طه: 42- 47﴾"[1]، ومن البلاغة البديعية في الألفاظ جاء بين لفظ: (فقُولَا) ولفظ: (قَوْلًا) جناس اشتقاق.

(2)- وقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ ﴿طه: 47﴾.

التفسير: في هذه الآية، متابعة للآية السابقة "أن رحل موسى وهارون إلى فرعون- امتثالا للأمر الإلهي الذي أمرا به سابقا أن: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾؛ وقَدِ اقتَرَبا منْ مكانِه لأنّهما في مدينته؛ فأُمرا بإتْيانه ودَعْوته، بأن يقولا له أن أرسلنا ربك إليك، ويأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل، ولا تعذبهم بما تكلفهم من الأعمال الصعبة، ولا تتعبهم في العمل، فقد كانت بنو إسرائيل عند آل فرعون في عذاب شديد يقتل أبناءهم ويستخدم نساءهم ويكلفهم من العمل في اللبن والطين وبناء المدائن ما لا يقدرون عليه"[2].

البعد البلاغي: جاءت الجملة الفعلية (فقُولَا) جملة أمر، إنشائية، بترتيب من رب العالمين في تسلسل أحداث الدعوة، ومجيئها في الوقت المناسب من مراحلها؛ فقد أمرهما بالمجيء إليه حضورا شخصيا (فَأْتِيَاهُ)، ثم يبدآن القول معه مواجهة (فَقُولَا)؛ ثم يعرفانه بنفسيهما بصفتهما الجديدة التي لم يعرفها؛ بـ (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ)؛ لأنه كان يعرفهم قبل ذلك، ويعرف موسى في

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 476- 477.

2 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج7، ص 4647، الثعلبي، الكشف والبيان، ج6، ص 246، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص 228.

صغره حينما رباه في قصره، وذكره بذلك بقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ﴿الشعراء: 18﴾، أمّا رسولا فهذا هو الجديد بالنسبة لفرعون، والجديد أيضا أنّ له ربّاً، وهو لا يعرف سوى أنّه ﴿رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ﴿النازعات: 24﴾. والرسول لا بد وأنه يحمل رسالة، بتأييد من الله ﷻ، ومعنا الدليل الرباني على ذلك، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ ﴿طه: 47﴾. وجاءت (قَدْ) لتؤكد ذلك وتحققه؛ بأنهما مرسلان من ربه الذي ينكر وجوده، ورسالتهما (الأمر) بأن: "فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" وأطلق سراحهم، وفك قيدهم من العبودية والظلم، و(النهي) عن تعذيب هذه الطائفة: "وَلَا تُعَذِّبْهُمْ" بطغيانك عليهم واستضعافك لهم، وإسرافك في إذلالهم، وهذان الأمران ضد ما جبلت عليه نفس فرعون من الظلم والاستعباد والتعذيب والتقتيل، ثم يختتمان الدعوة بجملة: "وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى"؛ أمرا مسلما به، وحقيقة ثابتة، وبالمقابل فالعذاب والجحيم لمن أعرض وتولى، وفي الجملة تعريض بما يعني أنك طاغ متجبر متكبر، لا سلام عليك ولا أمان، ولكنهم في مرحلة الدعوة الأولى اختصرا الكلام ولم يواجهاه بالعنف امتثالا لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿طه: 44﴾. ومن البلاغة في هذا النص القرآني "أنه يمثل أنموذجا من نماذج البديعة المعنوية: حُسْن المراجعة في القرآن الكريم: -مثل الآية السابقة- وهو أن تكون مراجعة في القول بين متكلم ومحاور له في القول بعبارات وجيزة، ومحبوكة بعناية، وألفاظ عذبة، تحمل معاني غزيرة، ولا يمنع أن تكون مراجعةً بين شخصين أو بين خصمين على وجه يحقق هذا الأسلوب في الحوار، فتكون عملاً بديعاً يدخل في حُسْن المراجعة. و قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون تمثل هذه البديعية"[1].

(3)- وقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الشعراء: 16﴾.

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 476- 477.

التفسير: الصفة الجديدة التي يجب على فرعون أن يعرفها عن موسى وأخيه هارون أنهما رسول من رب العالمين، وعليهما أن يخاطبانه بهذه الصفة، ولا بد لفرعون من أن يعرف أنّ الرسول يحمل رسالة بتأييد من الله تعالى.

البعد البلاغي: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جاءت الجملة الفعلية (فَقُولَا) جملة أمر إنشائية، ترتب مجيؤها على الأمر الأول (فَأْتِيَا) فرعون، وتطلبها موقف الدعوة، وجملة مقول القول: "إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ" جملة خبر اسمية مؤكدة بـــ (إنّ) المشددة، فهما في كل الأحوال يحملان صفة الرسالة، والمرسل هو الله ﷻ، "وقوله رسول ربّ العالمين، وهو يخاطب اثنين بقوله (فقولا) بألف الاثنين ووحد رسولاً لأنه أراد به المصدر بمعنى الرسالة. يقول: أرسلت رسالة ورسولاً. وتقدير قولهما: إنا ذوا رسالة. وقيل: رسول اسم للجمع كالعدو والصديق، فلذلك أتى موحداً، وفي الآية ثلاثة أوجه: أحدها: معناه أرسلنا رب العالمين. والثاني: معناه أن كل واحد منا رسول رب العالمين. والثالث: معناه إنا رسالة رب العالمين"[1].

*****

(30)- وبلفظ (قُولُوا) فعل الأمر المسند إلى المخاطبين من جماعة الذكور؛ (ورد اثنتي عشرة مرة)[2]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿البقرة: 58﴾.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 338، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلـــى بلـــوغ النهايـــة، ج8، ص 5283

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 575- ص 576.

التفسير: "ذُكر أنّ موسى أمر قومه أن يدخلوا قرية أريحا، ويقولوا: حطة. وطوِطئ لهم الباب ليخفضوا رءوسهم، فلم يسجدوا ودخلوا على أستاهم، قيل لهم: قولوا هذا القول، أي: "حِطّةٌ"، نحط عنكم خطاياكم، فبدلوا، وقالوا: حنطة. وقال بعضهم: حبة في شعيرة، فذلك التبديل الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم﴾ وقال بعضهم: معناه لا إله إلا الله. وقال بعضهم: بسم الله. وقيل أنهم أمروا بأن يقولوا بهذا اللفظ ولا يعرف معناه"[1]

البعد البلاغي: جاءت الجملة الفعلية: (وَقُولُوا) جملة أمر، معطوفة على جملة الأمر: (وَادخُلُوا) وكلتاهما جملتان إنشائيتان، لم تشتملا على خبرٍ ما، ولكن أنشأ النطق بهما حدثا جديدا؛ وهو دخول الباب، ثم التلفظ بقول (حطة) ولهذا الحدث زمن ارتبط به وقت إنشائه، وهو المشار إليه بـــ (إذْ) الظرفية، فإذا ما انتهى الزمن انتهى الحدث عنه، أو انتهى زمن التكليف به، أو في كثير منه، ولكن يبقى الحديث عنه دائماً. ومن البلاغة البديعية في الآية أنّ بين لفظ: (قُلْنَا) ولفظ: (وَقُولُوا) جناس اشتقاق.

(2)- وقوله تعالى: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ﴿يوسف: 81﴾.

التفسير: تتحدث هذه الآية عن: "قول (روبيل) أخ (يوسف ﷺ) لإخوته، حين أخذ يوسف أخاه بالصواع الذي استخرج من وعائه، فلقنهم ما يقولون لأبيهم، فقال: "ارجعوا، إخوتي، إلى أبيكم يعقوب فقولوا له يا أبانا إن ابنك بنيامين سرق، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِين" احتراسٌ منْ تَحَقُّقِ كَوْنِهِ سرقَ، وَهوَ إِمَّا لِقَصدِ التَّلَطُّفِ مَعَ أَبِيهِمْ فِي نِسْبَةِ ابْنِهِ إِلَى السَّرِقَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهمْ عَلِمُوا منْ أَمَانةِ أَخِيهِمْ مَا خَالَجهمْ بِهِ الشَّكُّ فِي وُقوعِ السَّرِقَةِ مِنْهُ"[2]

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 55.

2 الطبري، جامع البيان، ج16، ص 209، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص 40.

البعد البلاغي: جاءت الجملة الفعلية: "فَقُولُوا" جملة أمر إنشائية، أحدثها الموقف الذي تعرض له إخوة يوسف؛ عندما أُتّهم أخوهم بسرقة صواع الملك، معطوفة على جملة الأمر "ارْجِعُوا"، أي إذا ما رجعتم فقولوا، وهذا يعني أنّ حدث القول مرتبط بحدث الرجوع، فإذا لم ترجعوا فلا قول حاصل، ممّا يعني أنّ وجوده دون سبب يتسبب عنه في كل ظرف فذلك غير لازم للجملة الإنشائية، وكلتاهما من ضمن جملة مقول القول: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ ...﴾ ﴿يوسف: 80﴾. وجاءت جملة مقول القول: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ جملة نداء إنشائية، تمخضت عن عقل الأخ الأكبر، حينما كان لا بد من مسايرة الموقف العصيب الذي طرأ لهم.

(3)- وقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿الحجرات: 14﴾.

التفسير: قيل: "أنّ أعراب من بني أسد بن خزيمة ثمّ من بني الحلاف بن الحارث بن سعيد قدموا على رسول الله ﷺ في قحط أصابهم، فجاءوا بأهاليهم، وذراريهم، يطلبون الصدقة، وأظهروا الإسلام، وشهادة أن لا إله إلّا الله، ولم يكونوا مؤمنين في السرّ، وأفسدوا طرق المدينة بالعدوان، وأغلوا أسعارها، وكانوا يغدون، ويروحون على رسول الله ﷺ، ويقولون: يا رسول الله نحن أسلمنا طوعاً، وقدنا بأهالينا، وأتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال، والعيال والذراري، فأعطنا من الغنيمة أكثر مما تعطي غيرنا، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، وبنو فلان، يمنون على رسول الله ﷺ، ويريدون الصدقة، ويقولون: أعطنا، فأنزل الله ﷻ فيهم هذه الآية. وأمر النبيّ ﷺ بأن يقول لهم ذلك "[1].

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص 264- 265.

البعد البلاغي: جاءت الجملة الفعلية: "قُولُوا" جملة أمر إنشائية، تطلبها الموقف للرد على الأعراب في الموقف الذي ادعوا فيه الإيمان، فتحتم الظرف مواجهتهم؛ لكشف حقيقة أنفسهم، وبيان تمننهم، وفضح نفاقهم، فجاء اللفظ بصيغة الأمر (قُولُوا) وهو أمر من باب الإلزام لصدوره من الأعلى إلى الأدنى؛ من الرسول ﷺ، بأمر من الله ﷻ للكافرين ويفيد التوبيخ والتأنيب والتقريع"[1]، وأفادت (لَكِنْ) الاستدراك؛ أي استدرك عليهم قولهم: "آمَنَّا" بقول آخر مكانه أصدق منه: "أَسْلَمْنَا"، وكان مُقْتَضَى ظَاهِرِ نَظْمِ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُمْ، أَوْ أَنْ يُقَالَ: قُلْ لَا تَقُولُوا آمَنَّا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا، لِيَتَوَافَقَ الْمُسْتَدْرَكُ عَنْهُ وَالِاسْتِدْرَاكُ بِحَسَبِ النَّظْمِ الْمُتَعَارَفِ فِي الْمُجَادَلَاتِ"[2]، وجاء بين الألفاظ: (قَالَتِ) و (قُلْ) و (قُولُوا) بديعية جناس الاشتقاق.

وجاء بين لفظ: (آمَنَّا)، ولفظ (لَمْ تُؤْمِنُوا) "طباق السلب"[3].

*****

(31)- وبلفظ (قُولِي) فعل الأمر المسند إلى المفرد من الإناث، بأسلوب الخطاب، (ورد مرة واحدة) [4]،هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ ﴿مريم: 26﴾.

التفسير: "جاء إيحاء من الله ﷻ للسيدة مريم أن إذا رأيت أحدا من بني آدم يكلمك أو يسألك عن شيء من أمرك وأمر ولدك وسبب ولادتك له ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: إني أوجبت على نفسي لله صمتا ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ ألا أُكلّم أحدًا من بني آدم اليوم

1 حبنكة، البلاغة العربية، ص 236.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص 264- 265.

3 الزحيلي، التفسير المنير، ج26، ص 267.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 576.

وقولي ذلك بالإشارة لا بالقول. وكان المتقدمون يصومون من الكلام كما يصومون من الطعام؛ وكَانَ هذا الِانْقِطَاعُ عَنِ الْكَلَامِ مِنْ ضُرُوبِ الْعِبَادَةِ فِي بَعْضِ الشَّرَائِعِ السَّالِفَةِ، وَقَدِ اقْتَبَسَهُ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَنُسِخَ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ بالسنة"[1]، وقد "أَمَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ تَنْذُرَ الصَّوْمَ لِئَلَّا تَشْرَعَ مَعَ مَنِ اتَّهَمَهَا فِي الْكَلَامِ؛ لِمَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ كَلَامَ عِيسَى عليه السلام أَقْوَى فِي إِزَالَةِ التُّهْمَةِ مِنْ كَلَامِهَا. وَالثَّانِي: كَرَاهَةَ مُجَادَلَةِ السُّفَهَاءِ"[2]

البعد البلاغي: جاءت الجملة الفعلية "فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا" جملة أمر إنشائية، شرطية، لفعل الشرط (تَرَيِنَّ)، جواب لمن يسألها شاكا في شأن ولادتها عيسى عليه السلام، أي: إذا ما حصلت (الرؤيا) المقرونة بالسؤال ضمنا (فَقُولِي): "إِنِّي نَذَرْتُ..."، وإن لم تر أحدا يسألها فلا يحصل القول، وأداة الشرط هي: (فَإِمَّا)، وقد ارتبطت الجملتان بحكم واحد مشترك؛ ويسمى هذا النوع من الجمل بالجمل الشرطية المتصلة، وهي التي يكون الحكم في جملة جواب الشرط مرتبطا ارتباطاً شرطياً بالحكم في جملة فعل الشرط"[3]، والأمر في الجملة على الوجه الحقيقي للأمر؛ لصدوره من الأعلى إلى الأدنى؛ وهو من الله ﷻ، إلى السيدة مريم، ثم جاءت الجملة الإنشائية الثانية مفسرة للجملة الأولى، وتفصل نوع الصوم الذي نذرته: بأنه صوم عن الكلام وليس عن الطعام: "فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا" ونفت تكليم أحد مع التأكيد على ذلك بـ (لن) المشددة، وكل ذلك بأمر من الله ﷻ، وترجم وفاؤها بالنذر بقوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ﴿مريم: 29﴾.

*****

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 182. السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 373. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص 89- 90.

2 الرازي، مفاتيح الغيب، ج21، ص 529.

3 حبنكة، البلاغة العربية، ص 218- 219.

(32)- وبلفظ (قِيلَ) الفعل الماضي، المبني للمجهول، (ورد تسعاً وأربعين مرة)[1]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿البقرة:11﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين أنّ هذا: "خطاب للمنافقين الذين كانوا على عَهد رسول الله ﷺ، وإن كان معنيًا بها كُلُّ من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدَهم إلى يوم القيامة؛ وقد يَحتمِل قولُ سلمان عند تلاوة هذه الآية:"ما جاء هؤلاء بعدُ" فيجوز أن يكون معنى قوله: "أنه سيكون من بعد حاله من له في ذلك شبيهه بحال المنافقين. والفساد، هو الكفر والعملُ بالمعصية، فكان فسادُهم ذلك معصيةَ الله جل ثناؤه، لأن مَن عَصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته، فقد أفسدَ في الأرض، لأن إصلاحَ الأرض والسماء بالطاعة؛ لأن الفساد كان في الأرض قبل أن يبعث فيها النبي، وكان يُعمل فيها بالمعاصي، فلما بعث الله النبي ﷺ ارتفع الفساد وصلحت الأرض فإذا عملوا بالمعاصي فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ومن معنى الفساد أيضا المداهنة في التعامل بين الناس"[2].

البعد البلاغي: جاءت الجملة الظرفية (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ...) جملة شرط إنشائية تكشف عن رد المنافقين والمفسدين، والمداهنين في كل زمان إذا ما نهوا عن الفساد في الأرض؛ فيكون جوابهم على الدوام الدفاع عن النفس والادعاء بأنهم مصلحون، وجوابهم جاء في الآية جملة جواب الشرط؛ " لفعل الشرط غير الجازم (إذّا)"[3]، وجاءت جملة مقول القول جملة إنشائية تفيد نهيهم

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 576.

2 الطبري، جامع البيان، ج1، ص 288- 289، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 27- 28، الراغب الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج1، ص 100.

3 السّراج، محمد علي، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، مراجعة: خير الدين شمسي باشا، الناشر: دار الفكر - دمشق، 140، هـ - 1983 م، ص 141.

عن الإفساد في الأرض، بقوله:" لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ" . وجاء في الآية بديع من نوع جناس الاشتقاق بين لفظ: (قِيلَ) ولفظ: (قَالُوا). وجاء الفعل بصيغة المبني للمجهول، ولم يصرح باسم القائل، وذلك لأهمية مقول القول دون القائل؛ لأن من الممكن أن يتردد هذا القول على ألسنة عامة الدعاة في كل زمان دون تحديد، فكلما صدر القول جاءت الإجابة.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿هود: 44﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "لمّا تم أمر الله ﷻ في إهلاك قوم نوح؛ بما أهلكهم به من الغرق، نادى الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز وأقبل عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله يا أَرْضُ، وَيَا سَمَاءُ ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل وأهل العلم من قوله: "ابْلَعِي ماءكِ وأَقْلِعِي" من الدلالة على قدرته العظيمة، ، وأنّ السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وقدرته على كل مقدور، وتبينوا وجوب طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير تريث، فاستجابوا دون تأخير ولا إبطاء"[1].

البعد البلاغي: جاء في هذه الآية "حذف المسند إليه من الفعل: (وَقِيلَ) (وَغِيضَ) (وَقُضِيَ)؛ فأصبح الفعل فيها مبنيا للمفعول، باعتباره هو الآخر مسندًا إليه، ولهذا الحذف أسرار يقتضيها،

1 الطبري، جامع البيان، ج15، ص 334، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 397- 398، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 136.

منها: العلم بالفاعل الحقيقي وهو الله القادر، وسر آخر هو الإشـــارة إلـــى ســـرعة الاســـتجابة والامتثال للأمر، وأن هناك قوةً خارقةً قد اختطفت الماء، فانمحى وزال"[1].

(3)- وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَـــا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿النمل: 42﴾

التفسير: لما جاءت صاحبة سبإ سليمان، أخرج لها عرشها، وسألها هو، أو غيره بأمره: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ قالت وشبهته به: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾"[2]، "وجاء في قَوْلِهِ: أهكذا عَرْشك فَإِنَّ (هَكَذَا) ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ، حَرْفُ التَّنْبِيهِ وَكَافُ التَّشْبِيهِ وَاسْمُ الْإِشَارَةِ، ولَمْ يَقُلْ أَهَذَا عَرْشك، وَلَكِنْ أَمِثْلُ هَذَا عَرْشك لِئَلَّا يَكُونَ تَلْقِينًا فَقَالَتْ: كَأَنَّهُ هُوَ وَلَمْ تَقُلْ هوَ هو وَلَا لَيْس بِهِ وَذَلِكَ مِنْ كَمَالِ عَقْلِهَا، أَيْ مِثْلُ هَذَا الْعَرْشِ الَّذِي أَنْتِ رَأَيْتِيهِ عَرْشُكِ الَّذِي تَرَكْتِيهِ بِبِلَادِكِ؟ وَلَمَّا رَأَتْهُ عَلَى هَيْئَةٍ لَا تَعْرِفُهَا فِيهِ، وَتَمَيَّزَتْ فِيهِ أَشْيَاءَ مِنْ عَرْشِهَا، لَمْ تَجْزِمْ بِأَنَّهُ هُوَ، وَلَا نَفَتْهُ النَّفْيَ الْبَالِغَ، بَلْ أَبْرَزَتْ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ تَشْبِيهِيَّةٍ، وَقَابَلَتْ تَشْبِيهَهُمْ بِتَشْبِيهِهَا؛ وَلَوْ قِيلَ لَهَا: أَهَذَا عَرْشُكِ؟ لَقَالَتْ: نَعَمْ"[3].

البعد البلاغي: جاء الفعل (قِيلَ) جوابا لفعل الشرط (جَاءَتْ) في الجملة الشرطية: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ﴾، "وأداة الشرط هي (لمَّا)؛ وهي حرفُ وجود لوجود تتضمن معنى الظرفية من حيث اختصاصُها بالماضي"[4]،-وهذا ما جاء في فعل الشرط وجوابه- وجاء الفعل (قِيلَ) مبنيا للمجهول؛ لأنه لا يتعلق غرض بالقائل، ولكن الأهم هو السؤال، "وَالظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِي قَالَ ذَلِكَ هُوَ

1مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 – المعاني، كود المـــادة: LARB4103، المرحلـــة: بكـــالوريوس، جامعة المدينة العالمية، ص 161.

2 الطبري، جامع البيان، ج19ـــ ص 470.

3 الرازي، مفاتيح الغيب، ج24، ص 558، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج8، ص 242، الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص 163.

4 السّراج، اللباب في قواعد اللغة، ص 141.

سيدنا سُلَيْمَانُ عليه السلام[1]. ومن البلاغة البديعية جاء بين لفظ: (قِيلَ) ولفظ: (قَالَتْ) ما يسمى بجناس الاشتقاق.

*****

(33)- وبلفظ (يُقَالُ) الفعل المضارع، المبني للمجهول، (ورد ثلاث مرات)[2]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿ الأنبياء: 60﴾.

التفسير: ذُكر "أنّ قوم إبراهيم كَانُوا إِذَا رَجعوا منْ عيدِهمْ دخلُوا عَلَى الْأَصْنَامِ فَسجَدُوا لهَا ثمَّ عَادُوا إِلَى منَازِلِهِمْ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْوَقْتُ قَالَ آزَرُ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَوْ خَرَجْتَ مَعَنَا فَخرج مَعَهُمْ فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ أَلْقَى نَفْسَهُ وقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ أَشْتَكِي رِجْلِي فَلَمَّا مَضَوْا وَبَقِيَ ضُعَفَاءُ النَّاسِ نَادى وقَالَ: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصنامكُمْ﴾ وَسَمِعَ رَجُلٌ مِنْهُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَحَفِظَهُ عَلَيْهِ فاحتَجَّ هَذَا الْقَائِلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ﴾ ﴿الأنبياء: 60﴾، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ أَخْبَرَ غَيْرَهُ وَانْتَشَرَ ذَلِكَ فِي جَمَاعَةٍ"[3].

البعد البلاغي: جاء الفعل (يُقَالُ) مبنيا للمجهول؛ لأنه لا يوجد بالنسبة لقوم إبراهيم غرض يتعلق بمعرفة من الذي أطلق عليه اسم (إبراهيم) القائل، المهم أنهم عرفوا اسمه. وجـــاء لفــظ "يُقَالُ" ضمن جملة مقول القول للفعل: (قَالُوا). و جاء بين لفظ: (قَالُوا) ولفظ: (يُقَالُ) بديعية مـــن نوع جناس الاشتقاق.

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص 273.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 576.

3 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج7، ص 4767، و ص 4770. الرازي، مفـــاتيح الغيـــب، ج22، ص 153- 155.

(2)- وفي قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿فصلت: 43﴾.

التفسير: "ذُكر أنّ في هذه الآية تسلية للنبي ﷺ على ما قابله به المشركون من قولهم: كذاب وساحر ومجنون ونحو ذلك. فأعلمه الله ﷻ أن قُلوبُ الْمُكَذِّبِين متشابهة؛ فكانت مقالاتهم هذه متماثلة مع ما قاله من قبلهم من الأمم السابقة لأنبيائهم؛ فصبروا حتى جاء نصر الله فكذلك يجب عليك يا محمد أن تصبر، على ما نالك من الأذى، كما صبر أولو العزم من الرسل"[1]، "وهَذِهِ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أُمَمِهِمْ لَا يَعْدَمُونَ مُعَانِدِينَ جَاحِدِينَ يَكْفُرُونَ بِمَا جَاءُوا بِهِ"[2].

البعد البلاغي: في هذه الآية جاءت تَسْلِيَة للنبي ﷺ بِطَرِيقِ الْكِنَايَةِ وَأَمْرٌ لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ كَمَا صَبَرَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الرُّسُلِ بِطَرِيقِ التَّعْرِيضِ"[3].

"وفِي حذْفِ فَاعِلِ الْقَوْلَيْنِ فِي قَوْلِهِ: "مَا يُقَالُ"، وقَوْلِهِ: "مَا قَدْ قِيلَ" نَظْمٌ مَتِينٌ حَمَّلَ الْكَلَامَ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ، وفِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ. وَالْمَعْنَى: إِلَّا مِثْلَ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسلِ. والْمضارِعِ فِي ﴿مَا يُقالُ﴾ لِإِفَادَةِ تَجَدُّدِ. واقتران الْفِعْلِ بِـ(قَدْ) لِتَحْقِيقِ أَنَّهُ (قَدْ قِيلَ) لِلرُّسُلِ مثل مَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ للرسول ﷺ فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِلَازِمِ الْخَبَرِ وَهُوَ لُزُومُ الصَّبْرِ عَلَى قَوْلِهِمْ. وَهُوَ مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَى حَالِ الْمَرْدُودِ عَلَيْهِمْ إِذْ حَسِبُوا أَنَّهُمْ جَابَهُوا الرَّسُولَ بِمَا لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ غَيْرِهِمْ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ تَسْلِيَة للرسول ﷺ وَوَعْدٌ بِأَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ. وَوُقُوعُ هَذَا الْخَبَرِ عقِبَ قَوْلِهِ: مَا يُقالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ يومىء إِلَى أَنْ هَذَا الْوَعْدَ جَزَاءٌ عَلَى

---

1 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 481، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 230.

2 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج10، ص 6535، لماوردي، النكت والعيون، ج5، ص 186، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 202، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 309- 311.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 310.

مَا لَقِيَهُ مِنَ الْأَذَى فِي ذَاتِ اللَّهِ وَأَنَّ الْوَعِيدَ لِلَّذِينَ آذَوْهُ، فَالْخَبَرُ مُسْتَعْمَلٌ فِي لَازِمِهِ. وَحَرْفُ إِنَّ فِيهِ لِإِفَادَةِ التَّعْلِيلِ والتسبب لَا لِلتَّأْكِيدِ"[1]، وجاء بين لفظ: مَا (يُقَالُ) ولفظ: (قِيلَ) بديعية جناس الاشتقاق.

(3)- وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿المطففين: 17﴾.

التفسير: "جاء أنّ خزنة جهنّم يقولون لهؤلاء المكذّبين بيوم الدين: إنّ هذا العذاب الـذي أنتم فيه اليوم، هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تخبرون أنكم ذائقوه، فتكذّبون به رُسُلَ اللّـه فـي الدنيا ، وتنكرونه، وتجحدون حصوله، وقلتم إنه غير كائن، فذوقوه الآن، فقد صُلِيتُم به"[2].

البعد البلاغي: "أنّ في الآية معنى التَّقْرِيعُ مَعَ التَّأْيِيسِ مِنَ التَّخْفِيفِ، أَوْ أن يَكُونُ قَوْلُـهُ: ﴿ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ إِشَارَةً إِلَى جَوَابِ مَالِكٍ خَازِنِ جَهَنَّمَ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَوْا يَا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ لَقَدْ جِئْناكُمْ بِـالْحَقِّ وَلَكِـنَّ أَكْثَـرَكُمْ لِلْحَـقِّ كارِهُونَ﴾ ﴿الزخرف: 77، 78﴾ فَطُوِيَ سُؤَالُهُمْ وَاقْتُصِرَ عَلَى جَوَابِ مَالِكٍ خَازِنِ جَهَنَّمَ اعْتِمَادًا عَلَى قَرِينَةِ عَطْفِ جُمْلَةِ هَذَا الْمَقَالِ بِ ثُمَّ الدَّالَّةِ عَلَى التَّرَاخِي. وَبُنِيَ فِعْلُ (يُقالُ) لِلْمَجْهُولِ لِعَـدَمِ تَعَلُّقِ الْغَرَضِ بِمَعْرِفَةِ الْقَائِلِ وَالْمَقْصِدِ هُوَ الْقَوْلُ. وقَدَّرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أن في: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ رُسُلَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُونَ لَهُمْ: عَلَى وَجْهِ التَّوْبِيخِ"[3].

*****

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 309- 311.

2 الطبري، جامع البيان، ج24، ص 290، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 558، القرطبي، الجامع لأحكـام القرآن، ج19، ص 262، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص 295.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص 201- 203.

(34)- وبلفظ (تَقوَّل) ورد مرة واحدة[1]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿الحاقة: 44﴾.

التفسير: جاء أن: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ محمد ﷺ، وتكلف ببعض الأكاذيب الباطلة من ذات نفسه بما جاءكم، وتَخَرَّصَ علينا، وادعى بكذب مخصوص علينا بما لم يقل، وتكذب بـ ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ (وأقاويل: جمع الْجمع). ونسبها إلينا ولو كانت صغيرة وحقيرة لعاقبناه صبرا كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم بأن نأخذ بيده ونضرب رقبته معاجلة بالسخط والانتقام؛ فلا محاباة لأحد عند الله ﷺ إذا عصاه بالقرآن"[2]، و"التَّقَوُّلُ افْتِعَالُ الْقَوْلِ، لِأَنَّ فِيهِ تَكَلُّفًا من الْمُفْتَعِلِ وسمى الأقوال المتقولة أقاويل تصغيرا بها وتحقيرا، كأنها جمع أفعولة من القول، وصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول"[3]، "وَالتَّقَوُّلُ: نِسْبَةُ كَلَامٍ إِلَى شخص لَمْ يَقُلْهُ وَهُوَ تَفَعُّلٌ مِنَ الْقَولِ صِيغَتْ هَذِهِ الصِّيغَةَ الدَّالَّةَ عَلَى التَّكَلُّفِ لِأَنَّ الَّذِي يَنْسُبُ إِلَى غَيْرِهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ يَتَكَلَّفُ وَيَخْتَلِقُ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَلِكَوْنِهِ فِي مَعْنَى كَذَبٍ عُدِّيَ بِـ (عَلَى) وَلَوْ تَقَوَّلَ، وَالتَّقَوُّلُ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ عَنْ آخَرَ إِنَّهُ قال شيئا لم يَقُلْهُ"[4]، "وفي دلالة اللفظ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنًى لَطِيفٍ وَهُوَ أَنَّ التَّفَعُّلَ لِلتَّكَلُّفِ وَإِرَاءَةِ الشَّيْءِ وَهُوَ لَيْسَ عَلَى مَا يُرَى؛ مثل ما يُقَالُ تَمَرَّضَ فُلَانٌ أَيْ لَمْ يَكُنْ مَرِيضًا وَأَرَى مِنْ نَفْسِهِ

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 576.

2 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 592، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 492، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج12، ص 7690 الماوردي، النكت والعيون، ج6، ص 86، الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (المتوفى: 875هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المحقق، الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، 1418ه، ج5، ص 316.

3 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 607، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج9، ص 27.

4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، ص 65، وج 29، ص 145، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج10، ص 265.

الْمَرَضَ وَحِينَئِذٍ كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ كَذِبٌ وَلَيْسَ بِقَوْلٍ إِنَّمَا هُوَ تَقَوُّلٌ صُورَةَ الْقَوْلِ وَلَيْسَ فِي الْحَقِيقَةِ بِهِ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْمُكَذِّبَ هُوَ الصَّادِقُ"[1].

البعد البلاغي: جاءت جُمْلَةُ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿ الحاقة: 44﴾ معطوفة على جملة ﴿فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَما لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿الحاقة:38– 39﴾، فَهِيَ مَشْمُولَةٌ لِمَا أَفَادَتْهُ الْفَاءُ مِنَ التَّفْرِيعِ عَلَى مَا اقْتَضَاهُ تَكْذِيبُهُمْ بِالْبَعْثِ مِنْ تَكْذِيبِهِمُ الْقُرْآنَ وَمَنْ جَاءَ بِهِ وقال: إنّه وحي من الله تعالى. فتفيد هذه الجملة أنّ القرآن منزل من عند الله تعالى عَلَى طَرِيقَةِ الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ، بَعْدَ الِاسْتِدْلَالِ الْأَوَّلِ الْمُسْتَنِدِ إِلَى الْقَسَمِ وَالْمُؤَكِّدَاتِ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِدْلَالِ الْخِطَابِيِّ. وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي الْأَذْهَانِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الْقُدْرَةِ، وَأَنَّهُ عَلِيمٌ فَلَا يُقَرِّرُ أَحَدًا عَلَى أَنْ يَقُولَ عَنْهُ كَلَامًا لَمْ يَقُلْهُ، أَيْ لَوْ لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِنَا وَمُحَمَّدٌ ادَّعَى أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَّا، لَمَا أَقْرَرْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَعَجَّلْنَا بِإِهْلَاكِهِ. فَعَدَمُ هَلَاكِهِ ﷺ دَالٌّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَقَوَّلْهُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَوْ تَقْتَضِي انْتِفَاءَ مَضْمُونِ شَرْطِهَا لِانْتِفَاءِ مَضْمُونِ جَوَابِهَا. أي امتناع لامتناع، فَحَصَلَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ غَرَضَانِ مُهِمَّانِ:

أَحَدُهُمَا: يؤكد زيادة إِبْطَالٍ لِمَزَاعِمِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الْقُرْآنَ شِعْرٌ أَوْ كَهَانَةٌ إِبْطَالًا جَامِعًا لِإِبْطَالِ النَّوْعَيْنِ، أَيْ وَيُوَضِّحُ مُخَالَفَةَ الْقُرْآنِ لِهَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْكَلَامِ أَنَّ الْآتِيَ بِهِ يَنْسُبُهُ إِلَى وَحْيِ اللَّهِ وَمَا عَلِمْتُمْ شَاعِرًا وَلَا كَاهِنًا يَزْعُمُ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَثَانِيهِمَا: إِبْطَالُ زَعْمٍ لَهُمْ لَمْ يَسْبِقِ التَّصْرِيحُ بِإِبْطَالِهِ وَهُوَ قَوْلُ فَرِيقٍ مِنْهُم: ﴿افْتَرَاهُ﴾ ﴿يُونُس: 38﴾، أَيْ نَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ افْتِرَاءً وَتَقَوَّلَهُ عَلَى اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الطُّور: 33﴾، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَوِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ لَمَا أَقَرَّهُ عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْغَرَضَ يَسْتَتْبِعُ غَرَضًا آخَرَ وَهُوَ تَأْيِيسُهُمْ مِنْ أَنْ

---

1 الرازي، مفاتيح الغيب، ج28، ص 214، و ج30، ص 634، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص 275.

يَأْتِيَ بِقُرْآنٍ لَا يُخَالِفُ دِينَهُمْ وَلَا يُسَفِّهُ أَحْلَامَهُمْ وَأَصْنَامَهُمْ، وَالتَّقَوُّلُ: نِسْبَةُ قَوْلٍ لِمَنْ لَمْ يَقُلْهُ، وَهُــوَ تَفَعُّلٌ مِنَ الْقَوْلِ صِيغَتْ هَذِهِ الصِّيغَةَ الدَّالَّةَ عَلَى التَّكَلُّفِ لِأَنَّ الَّذِي يَنْسُبُ إِلَى غَيْرِهِ قَوْلًا لَــمْ يَقُلْــهُ يَتَكَلَّفُ وَيَخْتَلِقُ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَالْمَعْنَى: لَوْ كَذَبَ عَلَيْنَا فَأَخْبَرَ أَنَّا قُلْنَا قَوْلًا لَمْ نَقُلْهُ؛ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ولعاقبناه في الدنيا"[1]

*****

(35)- وبلفظ (تقَوَّلَهُ) فقد ورد مرة واحدة[2]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الطور: 33﴾.

التفسير: جاء في معنى: (تَقَوَّلَهُ) أي: "تَقَوَّلَ باطلاً وقال ما لم يكن"[3]، وجاء في التفسير: "أَمْ يَقُولُ هؤلاء المشركون: أنّ محمدا تقول هذا القرآن وتخلَّقه من ذات نفسه، وإذا كانوا يزعمون هذا فليأتوا بحديث مثله إن كانوا يستطيعون"[4].

البعد البلاغي: "جاء استخدام الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ للزجر والوعيد، وإنكارا لقولهم"[5]. "وهو انْتِقَالٌ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ ﴿الطور: 30﴾ وَهَذَا حِكَايَةٌ لِإِنْكَارِهِمْ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ وَحْيًا مِنَ اللَّهِ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ تَقَوَّلَهُ النبي ﷺ عَلَى اللَّهِ، فَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارٌ لِقَوْلِهِمْ، وَهُمْ قَدْ أَكْثَرُوا من الطعن فيه؛ وَلِذَلِكَ جِيءَ فِي حِكَايَتِهِ عَنْهُمْ بِصِيغَةِ يَقُولُونَ الْمُفِيدَةِ لِلتَّجَدُّدِ. وَالتَّقَوُّلُ: نِسْبَةُ كَلَامٍ إِلَى أَحَدٍ لَمْ يَقُلْهُ، وَضَمِيرُ النَّصْبِ فِي تَقَوَّلَهُ عَائِدٌ إِلَى الْقُرْآنِ الْمَفْهُومِ

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 144- 145.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 576.

3 الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتــوفى: 170هـــ)، كتاب العين، ت، د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج5، ص 213.

4 الطبري، جامع البيان، ج22، ص 481، القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 477، البيــضاوي، أنــوار التنزيل، ج5، ص 155.

5 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 354. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، ص 65.

مِنَ الْمَقَامِ"[1]، و"هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَطْفٌ على جملَة: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَما لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿الحاقة38- 39﴾ فَهِيَ مَشْمُولَةٌ لِمَا أَفَادَتْهُ الْفَاءُ مِنَ التَّفْرِيعِ عَلَى مَا اقْتَضَاهُ تَكْذِيبُهُمْ بِالْبَعْثِ مِنْ تَكْذِيبِهِمُ الْقُرْآنَ وَمَنْ جَاءَ بِهِ وَقَالَ: إِنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. فَمُفَادُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ اسْتِدْلَالٌ ثَانٍ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى طَرِيقَةِ الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ، بَعْدَ الِاسْتِدْلَالِ الْأَوَّلِ الْمُسْتَنِدِ إِلَى الْقَسَمِ وَالْمُؤَكِّدَاتِ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِدْلَالِ الْخِطَابِيِّ. وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي الْأَذْهَانِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الْقُدْرَةِ، وَأَنَّهُ عَلِيمٌ فَلَا يُقَرِّرُ أَحَدًا عَلَى أَنْ يَقُولَ عَنْهُ كَلَامًا لَمْ يَقُلْهُ، أَيْ لَوْ لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِنَا وَمُحَمَّدٌ ادَّعَى أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَّا، لَمَا أَقْرَرْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَعَجَّلْنَا بِإِهْلَاكِهِ. فَعَدَمُ هَلَاكِهِ ﷺ دَالٌّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَقَوَّلْهُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَوْ تَقْتَضِي انْتِفَاءَ مَضْمُونِ شَرْطِهَا لِانْتِفَاءِ مَضْمُونِ جَوَابِهَا. فَحَصَلَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ غَرَضَانِ مُهِمَّانِ: أَحَدُهُمَا: يَعُودُ إِلَى زِيَادَةِ إِبْطَالِ لِمَزَاعِمِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الْقُرْآنَ شِعْرٌ أَوْ كَهَانَةٌ إِبْطَالًا جَامِعًا لِإِبْطَالِ النَّوْعَيْنِ، أَيْ وَيُوَضِّحُ مُخَالَفَةَ الْقُرْآنِ لِهَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْكَلَامِ أَنَّ الْآتِيَ بِهِ يَنْسُبُهُ إِلَى وَحْيِ اللَّهِ وَمَا عَلِمْتُمْ شَاعِرًا وَلَا كَاهِنًا يَزْعُمُ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَثَانِيهِمَا: إِبْطَالُ زَعْمٍ لَهُمْ لَمْ يَسْبِقِ التَّصْرِيحُ بِإِبْطَالِهِ وَهُوَ قَوْلُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ: ﴿افْتَرَاهُ﴾ ﴿يُونُس: 38﴾ ، أَيْ نَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ افْتِرَاءً وَتَقَوَّلَهُ عَلَى اللَّهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الطُّور: 33﴾، فبيّن لهم أنّه لو افترى على الله لما أقرّه على ذلك، ثمّ إنّ هذا الغرض يتعلق به غرضا آخر وهو تأييسهم من أن يأتي بِقُرْآنٍ لَا يُخَالِفُ دِينَهُمْ وَلَا يُسَفِّهُ أَحْلَامَهُمْ وَأَصْنَامَهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ﴿يُونُس: 15﴾. وَالتَّقَوُّلُ: نِسْبَةُ قَوْلٍ لِمَنْ لَمْ يَقُلْهُ، وَهُوَ تَفَعُّلٌ مِنَ الْقَوْلِ صِيغَتْ هَذِهِ الصِّيغَةَ الدَّالَّةَ عَلَى التَّكَلُّفِ لِأَنَّ الَّذِي يَنْسُبُ إِلَى غَيْرِهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ يَتَكَلَّفُ وَيَخْتَلِقُ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَالْمَعْنَى: لَوْ كَذَبَ عَلَيْنَا فَأَخْبَرَ أَنَّا قُلْنَا قَوْلًا لَمْ نَقُلْهُ. وَالْأَقَاوِيلُ: جَمْعُ أَقْوَالٍ الَّذِي هُوَ جَمْعُ قَوْلٍ، أَيْ بَعْضًا مِنْ جِنْسِ

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، ص 65- 66.

الْأَقْوَالِ الَّتِي هِيَ كَثِيرَةٌ فَلِكَثْرَتِهَا جِيءَ لَهَا بِجَمْعِ الْجَمْعِ الدَّالِّ عَلَى الْكَثْرَةِ، أَيْ وَلَوْ نَسَبَ إِلَيْنَا قَلِيلًا مِنْ أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ صَادِقَةٍ يَعْنِي لَوْ نَسَبَ إِلَيْنَا شَيْئًا قَلِيلًا مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ نُنْزِلْهُ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ"[1]

*****

(36)- وبلفظ (القَوْلَ) فقد ورد اثنتين وخمسين مرة[2]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿آل عمران: 181﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ هذه الآية نزلت بعد قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض اللّه قرضاً حسناً﴾؛ فقد روي أن رسول اللّه ﷺ كتب مع أبي بكر‎ﷺ إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا اللّه قرضاً حسناً"[3]، "فقال أحدهم (وهو فنحاص بن عازوراء اليهودي من بني مرثد: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ فلقيه أبو بكر فكلمه فقال له: يا فنحاص، اتق الله وآمن وصدّق، وأقرض الله قرضًا حسنًا! فقال فنحاص: يا أبا بكر، تزعم أن ربنا فقير يستقرضنا أموالنا! وما يستقرض إلا الفقير من الغني! إن كان ما تقول حقًّا، فإن الله إذًا لفقير! فأنزل الله ﷻ هذه الآية، فقال أبو بكر: فلولا هُدنة كانت بين النبي ﷺ وبين بني مَرثد لقتلته، وقيل أن الذي قالها هو حيي بن أخطب حبر اليهود، وشاع قولها في اليهود"[4]. "وما قول اليهود لذلك إلا عن اعتقاد، أو عن استهزاء بالقرآن، وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر إلا عن متمردين في كفرهم. ومعنى سماع اللّه له: أنه لم يخف عليه، وأنه أعدّ

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 144- 145.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 576- ص 577.

3 الزمخشري، الكشاف، ج1، 446- 447.

4 الطبري، جامع البيان، ج7، ص 443، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 268- 270، الثعلبي، الكشف والبيان، ج3، ص 221- 222، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص 183- 184.

له ما يستحق من العقاب، وسَنَكْتُبُ ما قالُوا في صحائف الحفظة. أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب وقال: سنكتب على جهة الوعيد بمعنى لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء. وجعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيذانا بأنهما في العظم أخوان، وبأن هـذا ليس بأول ما ركبوه من العظائم، وأنهم قدماء في الكفر ولهم فيه سوابق، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول"[1].

البعد البلاغي: أنّ جملة: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ﴾ جملة خبرية فعلية مؤكدة تأكيدا إنكاريا؛ لتعدد المؤكدات، وهما: حرفا (اللام) و(قد) التي تفيد التحقيق، "لتؤكد سماع الله ﷻ الكلام الفاحش الذي تفوه به المشركون، وأنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنّ قولهم هذا جرأة عظيمة عليه ﷻ، كما تفيد معنى التهديد على كلامهم الفاحش الذي يقصدون منه التَّعْرِيضَ بِبُطْلَانِ كَلَامِ الْقُرْآنِ، لِأَنَّهُمْ أَتَوْا بِهذه الْعِبَارَةِ دون تردد، أو خجل، وأُرِيدَ مِنَ الْكِتَابَةِ عَدَمُ الصَّفْحِ عَنْهُ وَلَا الْعَفْوُ بَلْ سَيُثْبَتُ لَهُمْ وَيُجَازُونَ عَنْهُ فَتَكُونُ الْكِتَابَةُ كِنَايَةً عَنِ الْمُحَاسَبَةِ. فتحمل الجملة معنى الوعيد والتهديد"[2]، ومن البلاغة اللفظية أن جاء بين الألفاظ: (قَوْلَ) و(قَالُوا) و(قَالُوا) و(وَنَقُولُ) بديعية جناس الاشتقاق.

(2)- وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿إبراهيم: 27﴾.

التفسير: جاء أنّ: "القول الثابت هو: القول الحق، وهو قول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله"[3]، "فـ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا عند النزع وَفِي

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص 183- 184.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص 183- 184.

3 الطبري، جامع البيان، ج16، ص 590.

الْآخِرَةِ في القبر؛ وقيل أنها نزلت في عذاب القبر؛ فإذا وضع المؤمن في قبره وانصرف عنه الناس، دخل عليه ملكان، فيجلسانه ويسألانه: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ وما كتابك؟ وما قبلتك؟ فيثبّته الله في القبر، كما يثبته في الحياة الدنيا بالإقرار بالله تعالى وكتبه ورسله، فيحقق الله إيمانهم وأعمالهم بالقول والتثبيت، في الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ، وقيل: فِي الْحَياةِ في القبر عند الله تعالى وَفِي الْآخِرَةِ إذا بعث"[1]، والقول: "الثَّابِتِ الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه. وتثبيتهم به في الدنيا: أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد؛ وثبتوا، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم، لم يتلعثموا ولم يبهتوا، ولم تحيرهم أهوال الحشر"[2].

البعد البلاغي: في جملة: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿إبراهيم: 27﴾؛ "جاءت هذه الجملة خبرية فعلية تدل على حقيقة وقوع أمر الثبات في الدنيا والآخرة، وهي فعلية بالفعل المضارع (يُثَبِّتُ) لتدل على استمرار الثبات وتجديده؛ لأن الإيمان يزيد وينقص في قلوب المؤمنين؛ فهو كلما نقص زاده، وكلما زاد ثبته؛ لأنه معهم، ولأنهم يسيرون على خطى ثابته، وجاءت الجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةً اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا نَاشِئًا عَمَّا أَثَارَهُ تَمْثِيلُ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ بِالشَّجَرَةِ الثَّابِتَةِ الْأَصْلِ في الآية السابقة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿إبراهيم: الآية 24﴾ "والاستئناف البياني، هو أن تكون الجملة الأولى متضمّنة لسؤال تقع الجملة الثانية جوابًا له، أو تفسيراً لما جاء فيه،

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 242، الثعلبي، الكشف والبيان، ج5، ص 316، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج5، ص 3811- 3813.

2 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 554.

ولكون الجملة الثانية جوابًا لسؤالٍ تتضمنه الجملة الأولى وينبعث منها، تكون مرتبطةً به ارتباطًا وثيقًا كما يرتبط الجواب بالسؤال، فيترك العطف بينهما لأن الجواب لا يُعطف على السؤال، لما بينهما من ترابط وثيق وصلة قوية"[1]، "وفي هذه الآية جاء السؤال عَن الثَّبَات الْمُشَبَّه بِهِ: مَا هُوَ أَثَرُهُ فِي الْحَالَةِ الْمُشَبَّهَةِ فَيُجَابُ بأنّ ذلك الثبات ظهر في قلوب أصحاب الْحَالَةِ المشبهة وهم الذين آمنوا إِذا ثَبَتُوا عَلَى الدِّينِ وَلَمْ يَتَزَعْزَعُوا فيه لِأَنَّهُمْ اسْتَثْمَرُوا مِنْ شَجَرَةٍ أَصلُهَا ثَابِتٌ. وَالْقَوْلُ: الْكَلَامُ. والثبت الصادق الذي لا شك فيه، والمراد به أقوال القرآن؛ لأنها صادقةُ المعاني واضحة الدليل، فالتعريف في القول الاستغراق في الأقوال الثابتة؛ أي جميع الأقوال المنبعثة من الحق والثبات، وَالْبَاءُ فِي (بِالْقَوْلِ) لِلسَّبَبِيَّةِ. (وقول لا إله إلا الله محمد رسول الله) قول ولفظ ثابت في نفسه، ومثبت لغيره؛ فالذين يعتقدونه قولا وعملا يثبتون عليه في الدنيا والآخرة، وَمَعْنَى تَثْبِيتِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهَا أَنَّ اللَّهَ يسر لَهُم فيها الْأَقْوَال الْإِلَهِيَّة عَلَى وَجْهِهَا وَإِدْرَاكَ دَلَائِلِهَا حَتَّى اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهَا قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يُخَامِرْهُمْ فِيهَا شَكٌّ فَأَصْبَحُوا ثَابِتِينَ فِي إِيمَانِهِمْ غير مزعزعين وعاملين بِهَا غَيْرَ مُتَرَدِّدِينَ. وَذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ظَاهِرٌ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فمعاينتهم الْأَحْوَالَ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا عَلِمُوهُ فِي الدُّنْيَا، فَلَمْ تَعْتَرِهِمْ نَدَامَةٌ وَلَا لَهَفٌ. وَيَكُونُ ذَلِكَ بِمَظَاهِرَ كَثِيرَةٍ يَظْهَرُ فِيهَا ثَبَاتُهُمْ بِالْحَقِّ قَوْلًا وَانْسِيَاقًا، وَتَظْهَرُ فِيهَا فِتْنَةُ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا لِسَبَبِهِ"[2].

(3)- وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿مريم: 34﴾.

التفسير: جاء في معنى هذه الآية: "أنّ الله تعالى يقول: أنّ هذا الذي بيَّنت لكم صفته، وأخبرتكم خبره، من أمر الغلام الذي حملته مريم، هو عيسى ابن مريم، وهذه الصفة صفته، هو ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ يعني أنّ هذا الخبر الذي قصصته عليكم قول الحقّ، والكلام الذي تلوته عليكم قول

1 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2، ص 473.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص 226- 227.

الله وخبره، لا خبر غيره، الذي يقع فيه الوهم والشكّ، والزيادة والنقصان، على ما كان يقول الله ﷻ: فقولوا في عيسى أيها الناس، هذا القول الذي أخبركم الله به عنه، لا ما قالته اليهود، الذين زعموا أنه كان ساحرًا كذّابا، ولا ما قالته النصارى، من إنّه كان لله ولدا، وإنّ الله لم يتخذ ولدا، ولا ينبغي ذلك له، وهذا من باب المدح لعيسى ﷺ"[1]، و "قول الحق، أيْ مَقُولُ الْحَقّ، أيِ الْمُكَوَّنُ مِنْ قَوْلِ (كُنْ)"[2].

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ "جملة خبرية مؤكدة باسم الإشارة (ذَلِكَ) لتخصيصه والتأكيد على اسمه، ووقعت هذه الجملة اعتِرَاضية بَيْنَ الْجُمَلِ الْمَقُولَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ﴿مَرْيَم: 30﴾ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ ﴿مَرْيَم: 36﴾ ، أيْ ذلك المذكور هو عيسى ابن مريم، لا كما تزعم اليهود والنصارى، وَالْإِشَارَةُ لِتَمْيِيزِ الْمَذْكُورِ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ تَعْرِيضًا بِالرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى جَمِيعًا، إِذْ أَنْزَلَهُ الْيَهُودُ إِلَى حَضِيضِ الْجُنَاةِ، وَرَفَعَهُ النَّصَارَى إِلَى مَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ، وَكِلَاهُمَا مُخْطِئٌ مُبْطِلٌ، أَيْ ذَلِكَ هُوَ عِيسَى بِالْحَقِّ، وَأَمَّا مَنْ تَصِفُونَهُ فَلَيْسَ هُوَ عِيسَى لِأَنَّ اسْتِحْضَارَ الشَّخْصِ بِصِفَاتِ غَيْرِ صِفَاتِهِ تَبْدِيلٌ لِشَخْصِيَّتِهِ، فَلَمَّا وَصَفُوهُ بِغَيْرِ مَا هُوَ صِفَتُهُ جُعِلُوا بِمَنْزِلَةِ من لَا يعرفونه فَاجْتُلِبَ اسْمُ الْإِشَارَةِ لِيَتَمَيَّزَ الْمَوْصُوفُ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ عِنْدَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْرِفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ. وَالْمَقْصُودُ بِالتَّمْيِيزِ تَمْيِيزُ صِفَاتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ عَنِ الصِّفَاتِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي أَلْصَقُوهَا بِهِ لَا تَمْيِيزَ ذَاتِهِ عَنِ الذَّوَاتِ إِذْ لَيْسَتْ ذَاتُهُ بِحَاضِرَةٍ وَقْتَ نُزُولِ الْآيَةِ، أَيْ تِلْكَ حَقِيقَةُ عِيسَى ﷺ وَصِفَتُهُ"[3].

*****

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص193.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 374، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 16، الثعلبي، الكشف والبيان، ج6، ص 215.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص 101- 103.

(37)- وبلفظ (قَوْلًا) المفعول المطلق، (فقد ورد تسع عشرة مرة)[1]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿الأحزاب: 70﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّ الله ﷻ أرشد المؤمنين إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال؛ ووجههم إلى ذلك باستخدام الأنموذج الأمثل في خطابهم؛ فقد ابتدأ الْكَلَام بِنِدَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا لِلِاهْتِمَامِ بِهِ وَاسْتِجْلَابِ الْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ. وَنِدَاؤُهُمْ "بِالَّذِينِ آمَنُوا" لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِيمَاءِ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي مَا سَيُؤْمَرُونَ بِهِ؛ بأن يتصفوا بالتقوى، وسداد القول، وفِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ الَّذِينَ يَصْدُرُ مِنْهُمْ مَا يُؤْذِي النبي ﷺ قَصْدًا لَيْسُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ وَلَكِنَّهُمْ مُنَافِقُونَ، وتقديم الأمر بالتقوى مشعر بأن ما سيؤمرون به من سديد القول هُوَ مِنْ شُعَبِ التَّقْوَى كَمَا هُوَ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ. يقول يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله اتقوا الله أن تعصوه، فتستحقوا بذلك عقوبته. ومن القول السديد أن يقولوا في رسول الله والمؤمنين قولا قاصدًا سديدا إلى الحق، ليس فيه جور، ولا باطل، قولا عدلا صادقا، وقولوا: (لا إله إلا الله)، وَمَنْ قَالَ الصِّدْقَ قَالَ قَوْلًا سَدِيدًا"[2]، "وَالتَّقْوَى جِمَاعُ الْخَيْرِ فِي الْعَمَلِ وَالْقَوْلِ. وَالْقَوْلُ السَّدِيدُ أصل الْفَضَائِلِ ومنبتها. وَالْقَوْلُ: الْكَلَامُ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْ فَمِ الْإِنْسَانِ يُعَبِّرُ عَمَّا فِي نَفْسِهِ. وَالسَّدِيدُ: الَّذِي يُوَافِقُ السَّدَادَ. وَالسَّدَادُ: الصَّوَابُ وَالْحَقُّ فَشَمَلَ الْقَوْلُ السَّدِيدُ الْأَقْوَالَ الْوَاجِبَةَ وَالْأَقْوَالَ الصَّالِحَةَ النَّافِعَةَ"[3].

البعد البلاغي: جاءت الجملة بأسلوب إنشائي طلبي؛ وهو أسلوب النداء: لتنبيه المقصودين وطلب الإقبال منهم "بحرف ناب مناب كلمة (أدعو)؛ وهو حرف النداء (يا) والغاية منه أن

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 577.

2 الطبري، جامع البيان، ج20، 335- 336. الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 563، الرازي، مفاتيح الغيب، ج25، ص 186.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج22، ص 122- 123.

يصغي من تناديه إلى أمرٍ ذي بالٍ لذا تلا النداء أمر"[1]، وهو الأمر بتقوى الله، وما يترتب عليه من سلوك محبب؛ وترجمة عملية لنشر المودة بين الناس، وهو القول السديد، والصواب الذي ينبع من الاعتقاد السليم، وحسن الظن بالناس. وجاء الأمر مصاحبا للنداء في الجملة على النمط الشائع في جملة النداء، وقد مثل أسلوب النداء المستخدم في الآية نفسها الأنموذج الأمثل في ترجمة المراد من الأمر؛ بأن نادى المخاطبين بنعت المؤمنين؛ وهو جانب من القول السديد الذي هو جزء من تقوى الله؛ بأن تنادي الناس بأحب الأسماء إليهم لتدخل على قلوبهم المودة والمحبة اللتان هما من نتائج القول السديد، الذي يشيع الفضيلة بين الناس، ويفتح آفاقا رحبة للدعوة، ومجالا أوسع لقبولها ونجاحها، لأن الأمر بالقول السديد جاء في المطلق. ومن البلاغة في هذه الآية أنّ بين لفظ: (وقُولُوا) و (قَوْلًا) جناس اشتقاق. وجاء لفظ (قَوْلًا) مفعول مطلق لـ (قُولُوا)، مما يشير إلى ضرورة القول بالقول السديد على إطلاقه؛ في الظروف كلها؛ لأنه لا يأتي إلا بخير.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿فصلت: 33﴾.

التفسير: يقول ﷺ: "إنّه لا أحد أحسن قولا ممن قال ربنا الله ثم استقام على الإيمان به، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ودعا عباد الله إلى ما قال وعمل به"[2]، "وقيل إنّ هذه الآية نزلت في المؤذنين؛ لأن هذه الصفة تنطبق على قولهم وفعلهم؛ فهم يدعون الناس إلى الصلاة، ويصلون بين الأذان والإقامة، فليس هناك أفضل من قولهم ودعوتهم، كما أنّ هذه الدعوة تنطبق على

---

1 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2- المعاني، ص 393.

2 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 468.

الرسول ﷺ، وأصحابه، وجميع الأنبياء عليهم السلام. فقد دعوا إلى الإسلام وَعَمِلُوا صالحاً فيما بينهم وبين ربهم، وجعلوا الإسلام دينا لهم. وهو لفظ يَعُمُّ كلَّ مَنْ دعا قديماً وحديثاً إلى الله ﷻ، وكان موحدا معتقدا لدين الإسلام، عاملا بالخير داعيا إليه. ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله. ومن صفات الداعي إلى الله الاكتفاء بالله وترك طلب العوض منه ويكل أمره إليه، ويرضى منه بما قسم له، وليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده؛ فلا أحد جاء بأحسن مما جاء به وقاله باعتقاد، وإيمان"[1].

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ جملة إنشائية بصيغة الاستفهام التقريري "وفي الْكَلَامِ حَذْفُ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ: مِنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ"[2]؛ أي ليس هناك أحسن قولا من قول من دعا إلى الله، وفي الجملة أيضا بديعية جناس الاشتقاق بين الألفاظ: (قَوْلًا) و (وقَالَ).

(3)- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ﴿المزمل: 5﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية أنّ: "حَقِيقَةُ الْإِلْقَاءِ: رَمْيُ الشَّيْءِ مِنَ الْيَدِ إِلَى الْأَرْضِ وَطَرْحِهِ، واستُعِيرَ لِلْإِبْلَاغِ دُفْعَةً عَلَى غَيْرِ تَرَقُّبٍ. وَأَشْعَرَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أَنَّ ثِقَلَهُ مُتَعَلِّقٌ ابْتِدَاءً بِالرَّسُولِ ﷺ لِقَوْلِهِ قَبْلَهُ: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ وَهُوَ ثِقَلٌ مَجَازِيٌّ فِي جَمِيعِ اعْتِبَارَاتِهِ وَهُوَ ثَقِيلٌ صَعْبٌ تَلَقِّيهِ مِمَّنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ. وَيُسْتَعَارُ ثِقَلُ الْقَوْلِ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى مَعَانٍ غزيرة يَحْتَاجُ الْعِلْمُ بِهَا لِدِقَّةِ النَّظَرِ وَذَلِكَ بِكَمَالِ هَدْيِهِ وَوَفْرَةِ مَعَانِيهِ.ففيه من المعارف والعلوم ما لا يستطيع أحد

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 226، الثعلبي، الكشف والبيان، ج8، ص 296، القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 331، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 199، الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج5، ص 138، الزحيلي، التفسير المنير، ج24، ص 226.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 287- 289.

أن يلم بها جميعها"[1]، المعني بالقول الثقيل: "هو القرآن الكريم وما فيه من الأوامر والنواهي، وما جاء به من التكاليف الشاقة الثقيلة على المكلفين عامة، وعلى رسول الله ﷺ خاصة؛ لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته"[2]، و﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يَعْني كلاما عظيما؛ وذلك لمّا أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بصلاة الليل إنّما أراد أن يهيئه لتلقي القول الثقيل؛ لأنّ بها تستعد النفس لقبول القول الثقيل وتتهيأ له؛ لما فيها من ثقل على النفس ومشقة على النائمين، وثقل القول راجع إلى ثقل العمل به، وصلاة الليل ترويض النفس لتقبل هذا الثقل، لأنّ الليل للمنام؛ فمن أُمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل شديد على النفس، ومجاهدة الشيطان"[3].

البعد البلاغي: جاءت هذه الجملة خبرية اسمية مؤكدة؛ "لتَعْلِيلِ الْأَمْرِ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَمُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا لِحِكْمَةِ ذلك الأمر وندبه، وبِأَنَّهَا تَهْيِئَةُ نَفْسِ النبي ﷺ لِيَحْمِلَ شِدَّةَ الْوَحْيِ، وَفِي هَذَا إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ يَسَّرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ﴿الْقِيَامَة: 17﴾، فَتِلْكَ مُنَاسَبَةُ وُقُوعِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَقِبَ جُمْلَةِ: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿المزمل: 2﴾، وَتَأْكِيدُ هَذَا الْخَبَرِ بِحَرْفِ التَّأْكِيدِ (إِنَّ) لِلِاهْتِمَامِ بِهِ وإِشْعارِ الرَّسُولِ ﷺ بِتَأْكِيدِ قُرْبِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ، لِيَكُونَ وُرُودُهُ أَسْهَلَ عَلَيْهِ مِنْ وُرُودِ الْأَمر المفاجئ"[4]، وفي الجملة: "استطراد، واعتراض لأنّه وسّطها بين أوصاف الليل، وما ذكره من أحكامه بقونه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا* نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا*﴾ ﴿المزمل:1-4﴾ ثم رجع إلى حال الليل بعد ذكره بقوله: ﴿ إِنَّا

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 260- 262.

2 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 4.

3 الرازي، مفاتيح الغيب، ج30، ص 683- 684، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص 38.

4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 260- 262.

سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ﴿المزمل: 6﴾ وهذه هي فائدة الاستطراد ومعناه"[1].

*****

(38)- وبلفظ (قَوْلِكَ) ورد مرة واحدة[2]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿هود: 53﴾.

التفسير: ذهب عدد من علماء التفسير بقولهم: "أنّه قد وصل حد التكذيب بقوم هود والكفر، والإنكار بما جاءهم به نبيهم أن قالوا له وما نحن بتاركي آلهتنا من أجل قولك، أو عن قولك بما تدعي من النّبوة والرسالة من الله إلينا، وما نحن لك بمصدّقين، وما نرى أي برهان على قولك، فنترك آلهتنا بسببه، وجاءت "عَنْ" لِلتَّعْلِيلِ والسبب، أَيْ لَا يَكونُ قَوْلُكَ سببًا لتَرَكنا، إِذْ هُوَ مُجَرَّدٌ عَنْ آيَةٍ، وَالْجُمْلَةُ بَعْدَهَا تَأْكِيدٌ وَتَقْنِيطٌ لَهُ مِنْ دُخُولِهِمْ فِي دِينِهِ"[3]، "وكان اعتقادهم بكونه ﷺ كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدمَ الاعتدادِ بقوله، وعدّه من قبيل الخُرافاتِ فضلاً عن التصديق والعملِ بمقتضاه يعنون إنا لا نعُدّ كلاَمك إلا من قبيلِ ما لا يحتمل الصّدقَ والكذبَ من الهذَيانات الصادرةِ عن المجانين فكيف نصدّقه ونؤمن به ونعمل بموجبه، وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامِه ﷺ مما يقبل التصديقَ"[4].

---

1 المؤيد بالله، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة، ج3، ص 9، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص4، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 260- 262.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 577.

3 الطبري، جامع البيان، ج15، ص 360، الثعلبي، الكشف والبيان، ج5، ص 174، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج5، ص 3411، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص 167.

4 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص 217.

البعد البلاغي: "جاءت هذه الآية بأسلوب المُحَاوَرَةِ مِنْ قوم هود لــه ﷺ بِجَــوَابِ عَــنْ دَعْوَتِهِ، ولِذَلِكَ جُرِّدَتِ الْجُمْلَةُ عَنِ الْعَاطِفِ. وأسلوب النداء الإنشائي الذي افتتحوا به كَلَامَهمْ يشيرُ إِلَى الِاهْتِمَامِ بِمَا سَيَقُولُونَهُ، وَأَنَّهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ لِأَنَّهُمْ نَزَّلُوهُ مَنْزِلَةَ الْبَعِيدِ لِغَفْلَتِهِ فَنَادَوْهُ، فَهُــوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَاهُ الْكِنَائِيِّ أَيْضًا. وَقَدْ يَكونُ مُرَادًا منْهُ معَ ذلكَ تَوْبِيخُهُ ولَوْمُهُ فَيَكُونُ كِنَايَةً ثَانِيَةً، أَوِ اسْتِعْمَالُ النِّدَاءِ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ. وَقَوْلُهُمْ: مَا جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ بُهتَانٌ لِأَنَّهُ أَتَاهُمْ بِمُعْجِزَاتٍ لِقَوْلِــهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿هود: 59﴾ وَإِنْ كَانَ الْقُرْآنُ لَمْ يَــذْكُرْ آيَــةً مُعَيَّنَــةً لِهُودٍﷺ وَإِنَّمَا أَرَادُوا أَنَّ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي جَاءَهُمْ بِهَا هُودٌﷺ لَمْ تَكُنْ طِبْقًا لِمُقْتَرَحَاتِهِمْ. وَجَعَلُوا ذَلِكَ عِلَّةً لِتَصْمِيمِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ فَقَالُوا: ﴿وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ﴾ ﴿هود: 53﴾. ولَمْ يَجْعَلُوا (وَما نَحْنُ بِتارِكِي) مُفَرَّعًا عَلَى قَوْلِهِمْ: مَا جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ. وعَنْ فِي ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ لِلْمُجَاوَزَةِ، أَيْ لَا نَتْرُكُهَا تَرْكًا صَادِرًا عَنْ قَوْلِكَ، وَالْقَوْلُ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْمَقُولِ اللِّسَانِيِّ، وَهُوَ يَقْتَضِي اعْتِقَادَهُمْ مَا يَقُولُونَهُ"[1].

ومن البلاغة البديعية جاء بين لفظ: (قَالُوا) ولفظ: (قَوْلِكَ) جناس اشتقاق.

*****

(39)- وبلفظ (قَوْلُكُمْ) ورد مرتين [2]، هما في:

(1)- قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿الأحزاب: 4﴾.

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 97- 99.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 577.

التفسير: جاء في معنى: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ "أنّ قول الرجل لامرأته: "أنت عليّ كظهر أمي"، ودعاؤه من ليس بابنه أنّه ابنه، إنما هو قول بالأفواه لا حقيقة له، ولا يثبت هذه الادعاءات؛ فتلك كلها لا تتجاوز الأفواه، فلا يصبح من ادعيت بنوّتَه ابنا، ولا تصير الزوجة أمًّا مهما كانت الكلمات والألفاظ التي يبتغى بها ذلك"[1]؛ "وذلك في معرض تحريم الزوجات، وتحريم زواج الرسول ﷺ من زينب رضي الله عنها؛ على إنها كانت زوجة لمدّعاه زيد ﷺ؛ فذلك قول لا أساس له من الصحة ولا من المشروعية، فذلك قولكم بألسنتكم أنتم ليس له علاقة بالاعتقاد السليم من القلب"[2]؛ "أمّا القول الحق فهو قَوْلُ اللَّه ﷻ الذي يقول عمّا كان أو يكون، أو ما هو كائن، "وقَوله الحق بهذا الشأن هو بِأَنَّ يتزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ بِزَيْنَبَ، وتبطل بعدها عادة التبني، وتحرم في الإسلام"[3].

البعد البلاغي: "جاء في الآية ما يسمى بالإطناب الوارد في الجملة الواحدة على وجه الحقيقة: وذلك مثل قول رأيته بعيني، وقبضته بيدي، ووطئته بقدمي وذقته بلساني إلى غير ذلك من تعليق هذه الأفعال بالأدوات؛ ولم يكن هذا التعليق من باب اللغو الذي لا حاجة إليه؛ على أنّ تلك الأفعال لا تتم إلا بتلك الأدوات؛ ولكن يقال هذا في كل شيء يعظم مناله ويعز الوصول إليه، فيؤتى بذكر هذه الأدوات على جهة الإطناب دلالة على نيله، وأن حصوله غير متعذر، وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ ﴿الأحزاب: 4﴾ لأنّ هذه الآية إنما وردت في شأن الإفك وفي جعل الزوجات أمهات، وفي جعل الأدعياء أبناء، فأعظم الله الرد والإنكار في ذلك، وبقوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ ﴿النور: 15﴾، على أهل الإفك في الرمي بفاحشة الزنى

---

1 الطبري، جامع البيان، ج20، ص 206، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج9، ص 5783، الماوردي، النكت والعيون، ج4، ص 372، القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 151.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 44، الثعلبي، الكشف والبيان، ج8، ص 7.

3 الرازي، مفاتيح الغيب، ج25، ص 156.

لمن هم أهل العفاف والستر؛ فبالغ في الرّد بهذه المقالة، والنكير لمصدرها"[1]، وهذا أيضا من أحوال متعلقات الفعل ما يسمى (أغراض تقييد الفعل). ويعني بالمتعلقات ما يتصل بالفعل ويتعلق به من فاعل، ومفعول به، ولأجله، ومصدر، وزمان، ومكان، وسبب، وحال، وتمييز، وغير ذلك، وتكون أغراض تقييد الفعل بمفعول أو نحوه لتربية الفائدة أي تكثيرها، وتقرير المعنى في النفس وتأكيده، كما هو في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بأفْوَاهِكُمْ﴾ الجملة الخبرية الاسمية المؤكدة باسم الإشارة للتأكيد على ما فيها من خبر لا يحتمل الكذب، فذكر بأفواهكم قيدا للفعل، ولو حذف لفهم معناه؛ لأن القول لا يكون إلا بالفم، ولكن لمّا كان هذا القول فيه افتراء على الله تعالى شدد على قائله لتقرير الوعيد في النفس، وبثه في أنحائها حتى تنزجر عن هذا القول الزور. ومثله في قضية الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ﴿النور: 15﴾؛ ففي هذا القيد إشعار بتعظيم الأمر المقول، وأنه مقول بالأفواه من غير أن يتصل بالقلوب التي تعلم كذبه واختلاقه، ويأتي مثل هذا الأسلوب في القرآن الكريم في مواقف التشديد، والإنكار؛ لتربية المعاني وتقريرها في النفوس؛ والمراد: إنكار أن يقول الرجل لزوجته: "أنت علي كظهر أمي"، وللتشديد والمبالغة في هذا الإنكار صور الجمع بين الزوجية، والأمومة ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ في صورة جمع القلبين لرجل واحد، وذكر القيد وهو قوله: ﴿فِي جَوْفِهِ﴾، والقلب لا يكون إلا في الجوف، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ والقول لا يكون إلا بالفم، ليقوي التصوير على التأثير بوضع جوف يشتمل على قلبين، وتصوير هذه الصورة الغريبة الشاذة أمام الحس والشعور، فيكون ذلك أدعى إلى أن تنكر النفس جعل الزوجة أما"[2]. أي: "فالقلب الواحد

---

1 المؤيد باللّه، يحيى بن حمزة، ج2، ص 125.

2 أبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دارسة تحليلية، ج1، ص 317- 319.

لا يقبل فكْرتَيْنِ مُتَنَاقِضتَيْنِ، والزوجات لا تكون أمُّهات، والأدعياء لا يكونون أبناء"[1]، "وقد ذكر هذين القيدين في (جوفه) و (بأفواهكم)؛ تأكيدًا للإنكار، ومبالغةً في الردع والزجر"[2].

كما أنّ هذه الآية مثال على: "(المذهب الكلامي): وهو أن يأتي الأديب البليغ على صحّة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجّة عقليّة برهانيّة أو دُونَها. وقيل أنّ هذه التسمية تُنْسَبُ إلى الجاحظ، والسبَبُ في إطلاق هذه التسميّة أنّ عِلْمَ الكلام يَستَنِد في حُجَجِه إلى الحجج العقلية، فإذا استخدم الأديبُ الحججَ العقليّةَ في كلامه، فقد ذهب مذْهَبَ عُلَماءِ الكلام؛ أي إذا ثبتت الحجة العقلية الأولى: ﴿من قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِه﴾ فإن الحجة العقلية الثانية تثبت: ﴿جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ﴿الأحزاب: 4﴾، وتثبت الثالثة المقترنة بها بجعل: ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، وإن لم تثبت الحجة العقلية الأولى فالكل باطل لأنّ: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾، وليس بعد قوله: ﴿والله يَقُولُ الحق وَهُوَ يَهْدِي السبيل﴾ من قول!.

وجاء في الآية بلاغة بديعية بين لفظ: (قَوْلُكُمْ) ولفظ: (يَقُولُ) من نوع جناس الاشتقاق.

وجاء في الآية من توافق الفواصل في نهايات الجمل على هذا النحو: وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ، اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ، أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ؛ مما يجعل للآيات جرسا موسيقيا متناغما عند وقوعها على الأسماع؛ فيزيد من التفاعل بين الحواس وانسجامها.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿الملك: 13﴾.

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 446- 448.

2 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 - المعاني، ص 311- 314، أبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دارسة تحليلية، ص 317- 318.

التفسير: جاء في هذه الآية: "أنّ جماعة من الكفار كانوا يتشاورون فيما بينهم، في أمـــر رَسُولِ اللَّهِ ﷺ للنَّيْلِ مِنْه فقال بعضهم لبعض: لا تجهروا بأصواتكم، فـــإن رب محمـــد يـــسمع فيخبره؛ أي: أخفوا قولكم وكلامكم عنه، فقال الله ﷻ للنبي ﷺ: قل لهم يا محمد: ﴿أَسِرُّوا قَـــوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ فأخفوا كلامكم إن شئتم أو أعلنوه؛ فإنه لا يخفى على الله منه شيء فإنه يعلم به، ثم أخبر بما هو أخفى من هاتين الحالتين، فقال: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فكيف لا يعلم قـــول السر؛ وقد علله بأنه ذو علم بضمائر الصدور التي لم يُتَكَلَّم بها قبل أن تترجم الألـــسنة عنهـــا، فكيف لا يعلم بما نطق به وتكلم، أخفي ذلك أو أعلن؟" [1]، "وبهذا الرد يكون سبحانه قد "أنكـــر عليهم أن لا يحيط علمه بكل أحوال النفس مما أضمر فيها، أو أسرته بداخلها، أو مما أجهرت به وهو الخالق الذي لا يخفى عليه شيء منها، وهو بهذا خوف المنكـــرين بعلمـــه، ونـــدبهم إلـــى مراقبته، لأنه يعلم السرّ وأخفى، ويسمع الجهر والنجوى"[2].

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ جملة أمر إنشائية تفيد التسوية؛ أي: أنهما سواء في علم الله بهما، وَهَذَا غَالِبُ أَحْوَالِ صِيغَةِ افْعَلْ إِذَا جَاءَتْ مَعَهَـــا أَوِ عَاطِفَةٌ نَقِيضِ أَحَدِ الْفِعْلَيْنِ على نقيضه. فَقَوله: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ تَعْلِيلٌ لِلتَّسْوِيَةِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ صِيغَةِ الْأَمْرِ بِقَرِينَةِ الْمَقَامِ وَسَبَبِ النُّزُولِ، أَيْ فَسَوَاءٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ الْإِسْرَارُ وَالْإِجْهَارُ لِأَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِمَا يَخْتَلِجُ فِي صُدُورِ النَّاسِ بَلْهَ مَا يُسِرُّونَ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ، وَلِذَلِكَ جِيءَ بِوَصْفِ عَلِـــيمٍ؛ إِذِ الْعَلِيمُ مِنْ أَمْثِلَةِ الْمُبَالَغَةِ وَهُوَ الْقَوِيُّ عِلْمُهُ. وَضَمِيرُ إِنَّهُ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْمَعْلُومُ مِنَ الْمَقَـــامِ،

---

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 511، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 476، مكي بـــن أبـــي طالـــب القيسي، الهداية، ج12، ص 7597.

2 القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 613، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 579.

وَ(ذَاتِ الصُّدُورِ) مَا يَتَرَدَّدُ فِي النَّفْسِ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالتَّقَادِيرِ وَالنَّوَايَا عَلَى الْأَعْمَالِ"[1]. ومن البلاغة البديعية أن جاء بين لفظ: (وَأَسِرُّوا) ولفظ: (اجْهَرُوا) طباق.

*****

(40)- وبلفظ (قَوْلُنَا) فقد ورد مرة واحدة[2]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿النحل: 40﴾.

التفسير: جاء في تفسير الآية: "أنّ الله ﷻ يخبر عن ذاته بأنه إذا أردنا الخلق والإنشاء فليس إلا أن نقول له كن فيكون، لا معاناة فيه، ولا كُلفة علينا، فأَعلَم سُهُولَةَ الْخَلْقِ عَلَيْهِ، وإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَبْعَثَ مَنْ يَمُوتُ فَلَا تَعَبَ عَلَيْنَا وَلَا نَصَبَ فِي إِحْيَائِهِمْ، وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نُحْدِثُهُ، لِأَنَّا إِنَّمَا نَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"[3]، "فبقوله تكون الأشياء، وبأمره"[4]، و "قَوْلُنا مبتدأ، وأَنْ نَقُولَ خبره، كُنْ فَيَكُونُ من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: أحدث، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل لأنّ مراداً لا يمتنع عليه، وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، والمعنى: أنّ إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه

---

1 القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 613، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 30، الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (المتوفى: 1362هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ص 73، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 30.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 577.

3 الطبري، جامع البيان، ج17، ص 204- 205، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 106.

4 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج3، ص 2123- 2124.

السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات"[1]، "وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ إِنَّمَا هُوَ التَّكْوِينُ وَالتَّخْلِيقُ وَالْإِيجَادُ، لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى"[2].

البعد البلاغي: "أُطْلِقَ الشَّيْءُ هُنَا عَلَى الْمَعْدُومِ بِاعْتِبَارِ إِرَادَةِ وَجُودِهِ، فَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ مَا يؤول إِلَيْهِ، أَوِ الْمُرَادُ بِالشَّيْءِ مُطْلَقُ الْحَقِيقَةِ الْمَعْلُومَةِ وَإِنْ كَانَتْ مَعْدُومَةً، و﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ خَبَرٌ عَنْ ﴿قَوْلُنَا﴾. وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ كُنْ توجه قدرة الله إلى إِيجَادِ الْمَقْدُورِ. عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ التَّوَجُّهِ بِالْقَوْلِ بِالْكَلَامِ كَمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِالْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿يس: 82﴾ وَشُبِّهَ الشَّيْءُ الْمُمْكِنُ حُصُولُهُ بِشَخْصٍ مَأْمُورٍ، وَشُبِّهَ انْفِعَالُ الْمُمْكِنِ لِأَمْرِ التَّكْوِينِ بِامْتِثَالِ الْمَأْمُورِ لِأَمْرِ الْآمِرِ. وَكُلُّ ذَلِكَ تَقْرِيبٌ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْقِلُونَ، وَلَيْسَ هُوَ خِطَابًا لِلْمَعْدُومِ وَلَا أَنَّ لِلْمَعْدُومِ سَمْعًا يَعْقِلُ بِهِ الْكَلَامَ فَيَمْتَثِلُ لِلْآمِرِ وَ (كَانَ) تَامَّةٌ"[3]، والعلاقة بين لفظ ﴿قَوْلُنَا﴾ ولفظ ﴿نَقُولَ﴾ جناس اشتقاق.

*****

(41)- وبلفظ (قَوْلُهُ) فقد ورد مرتين[4]، هما في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ ﴿البقرة: 204﴾.

التفسير: جاء في هذه الآية: "أنّ الله سبحانه وتعالى يبين للرسول ﷺ نعت المنافقين وصفاتهم، بأن ما يسمع من كلامهم وحديثهم وظاهر علانيتهم وقولهم أنهم يحبونه ويريدون

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 606.

2 الرازي، مفاتيح الغيب، ج9، ص 378، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص 156، ابن ياسين، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، ج3، ص 184.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص 156.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 577.

الإسلام فما هو إلا نفاق؛ فلا يعجبك وتؤخذ به، ولو أشهد الله على ما في قلبه وضميره؛ وكشف أمره، لتجده في حقيقته شديد الخصومة، جَدِلٌ بالباطل"[1]، "وبيّن ﷺ صنف من الناس مَنْ يُغَـرُّ بِحُسْنِ ظَاهِرِهِ وَهُوَ مُنْطَوٍ عَلَى بَاطِنِ سُوءٍ وَيُعْطِي مِنْ لِسَانِهِ حَلَاوَةَ تَعْبِيرٍ وَهُـوَ يُـضْمِرُ الـشَّرَّ وَالْكَيْدَ"[2].

البعد البلاغي: "جاءت هذه الآية مثالا على كون المسند إليه اسماً موصولاً وهو: (مَنْ)؛ ومجيء المسند إليه في الجملة اسماً موصولاً له أسرار يقصدها المتكلم – والمتكلم هنا الله ﷻ– ومن هذه الأسرار عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة، والمراد باختصاص الأحوال بالمسند إليه عدم عمومها لغالب الناس لا عدم وجودها في غيره. هذا؛ ومعلوم أنّ الموصول اسم يعين مسماه بواسطة جملة تأتي بعده تسمى بجملة الصلة، وقد يكون المخاطب لا يعلم شيئًا عن ذات المسند إليه سوى مضمون هذه الجملة؛ لذا يعمد المتكلم في هذا المقام إلى التعبير عن ذات المسند إليه باسم الموصول فيتعين بواسطة الصلة لدى المخاطب، ويتسنى بتعريفه بالموصولية للمتكلم والإخبار عنه والحكم عليه؛ وقد عبر عن المسند إليه باسم الموصول بقصد إخفاء اسم المتحدث عنه؛ رغبةً في هدايته واستمالة له، نحو: الحق والهدى؛ كما جاء في هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ ﴿البقرة: 204﴾."[3].

وجاء الحكم على المسند والمسند إليه (الاسم الموصول) في جملة خبرية تقريرية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لا تقبل التكذيب أو الإنكار.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج4، ص 229. السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 135- 136.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 274.

3 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 – المعاني، ص 199، و ص 203.

(2)- وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿الأنعام: 73﴾.

التفسير: جاء حول قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾: أي: "حين يقول ﷻ لشيء من الأشياء "كُن" فيكون ذلك الشيء؛ فقوله الحقُّ والحكمة، فلا يكون شيئا من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب، وأنه الخالق للسموات والأرضين، وقوله الحق نافذ في الكائنات؛ والمراد به حين يكوّن الأشياء ويحدثها أو حين تقوم القيامة فيكون التكوين حشر الأموات وإحياءها، وَأَنَّهُ أنشأ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلْقَ الَّذِي بَدَأَهُ بِقَوْلِ حَقٍّ، فَلَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْ تَكْوِينِهِ الْأَوَّلِ وَلَا مِنْ تَكْوِينِهِ الثَّانِي عَنِ الْحَقِّ والحكمة والصواب، وَالْمُرَادُ بِالْقَوْلِ كلُّ مَا يدُلُّ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَضَائِهِ فِي يَوْمِ الْحَشْرِ، وَهُوَ يَوْمُ يَقُولُ كن، مِنْ أَمْرِ تَكْوِينٍ، أَوْ أَمْرِ ثَوَابٍ، أَوْ عِقَابٍ، أَوْ خَبَرٍ بِمَا اكْتَسَبَهُ النَّاسُ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ وَأَضْدَادِهَا، فَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ حَقٌّ"[1].

البعد البلاغي: جاء في حَذْفُ الْمَقُولِ لَهُ كُنْ لِظُهُورِهِ مِنَ الْمَقَامِ، أَيْ يَقُولُ لِغَيْرِ الْمَوْجودِ الْكَائِنِ: كُنْ. أَيْ يَقُولُ لِمَا أَرَادَ تَكْوِينَهُ (كُنْ) فَيُوجَدُ الْمَقولُ لَهُ كُنْ عَقِبَ أَمْرِ التَّكْوِينِ؛ دلالة على سرعة الاستجابة. وَفِي قَوْلِهِ: قَوْلُهُ الْحَقُّ صِيغَةُ قَصْرٍ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ هُوَ الْحَقُّ الْكَامِلُ لِأَنَّ أَقْوَالَ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْحَقِّ فَهِيَ مُعَرَّضَةٌ لِلْخَطَأِ وَمَا كَانَ فِيهَا غَيْرَ مُعَرَّضٍ لِلْخَطَأِ فَهُوَ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ أَوْ مِنْ نِعْمَتِهِ بِالْعَقْلِ وَالْإِصَابَةِ، فَذَلِكَ اعْتِدَادٌ بِأَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى فَضْلِ اللَّهِ"[2].

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 459، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 38، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص 168، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص 307- 308.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص 307- 308.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ جملة خبرية ظرفية تقريرية؛ وفي: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ إيجاز قصر، بمعنى ليس قوله إلا الحقّ المطلق غير مقيد بظرف. وجاء بين لفظ: (يَقُولُ) ولفظ: (قَوْلُهُ) بلاغة بديعية من نوع جناس الاشتقاق.

*****

(42)- وبلفظ (قَوْلِهَا) المسند إلى الغائبة من جنس الإناث؛ وهي هنا (النملة) (ورد مرة واحدة)[1]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿النمل: 19﴾.

التفسير: "ذُكر أنّ سليمان عليه السلام تبسم ضاحكا من قول النملة، متعجبا بما دلّ قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى، وذلك قولها ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ تعني أنّهم لو شعروا لم يفعلوا، ولم يحطموكم، وضحك من ثنائها عليه بعدله في ملكه، وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدا: من إدراكه بسمعه ما همس به بعض النمل الذي هو مثل في الصغر والقلة، ومن إحاطته بمعناه، ويقال: تبسم فرحاً بما أنعم الله تعالى عليه، وتَعجُّب منْ أَنّها عَرَفَتِ اسْمَهُ ووَسمَتْهُ وَجُنْدَهُ بِالصلَاحِ وَالرَّأْفَةِ وَأَنَّهمْ لَا يَقْتُلُونَ ما فِيهِ رُوحٌ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ، وَهَذَا تَنْوِيهٌ بِرَأْفَتِهِ وعدله الشَّامِلِ لكل مَخْلُوقٍ لَا فَسَادَ مِنْهُ أَجْرَاهُ اللَّهُ عَلَى نَمْلَةٍ لِيَعْلَمَ شَرَفَ الْعَدْلِ وَلَا يَحْتَقِرَ مَوَاضِعَهُ. وقد كان تبسمه عليه السلام كما يكون ضحك الأنبياء عليهم السلام، فشرع في الضحك آخذا فيه، يعنى أنه قد تجاوز حدّ التبسم إلى الضحك، وَالتَّبَسُّمُ أَضْعَفُ حَالَاتِ الضَّحِكِ فَقَوْلُهُ: ﴿ضاحِكاً﴾ حَالٌ مؤكدة ل ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ وَضَحِكُ الْأَنْبِيَاءِ التَّبَسُّمُ، كَمَا وَرَدَ فِي صِفَةِ

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 577.

ضَحِكِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنَ التَّبَسُّمِ مِثْلَ بُدُوِّ النَّوَاجِذِ كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ صِفَاتِ ضَحِكِهِ. وَأَمَّا الْقَهْقَهَةُ فَلَا تَكُونُ لِلْأَنْبِيَاءِ"[1].

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ جملة خبرية، مستأنفة لما قبلهـا، والجملة الظرفية: ﴿مِنْ قَوْلِهَا﴾ جملة تعليلية؛ أي ضحك بسبب قولها، ومن البلاغة البديعية فـي هذه الآية: أنّ بين لفظ ﴿قَوْلِهَا﴾ ولفظ ﴿قَالَ﴾ جناس اشتقاق.

*****

(43)- وبلفظ (قَوْلَهُمْ) فقد ورد اثنتي عشرة مرة[2]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَـا﴾ ﴿آل عمران: 147﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ هذه الآية نزلت تأديبا من الله ﷻ، وتـأديبا للمسلمين الذين فرُّوا عن العدو يوم أحد وتركوا قتالهم، وتعريضا بهم حينما تركوا مكانهم وغيروا ترتيبهم حينما سمعوا بموت الرسول ﷺ، وتذكيرهم بما فعل أسلافهم من الربيين حينما قتل أنبياؤهم فقد صبروا أمام عدوهم ولم يضعفوا ولم يستكينوا له، والتجئوا إلى الله ﷻ بالدعاء وطلب المغفرة والنصر؛ فما: ﴿قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ ﴿آل عمران: 147﴾. والإسراف: هو الإفراط في الشيء. ومعناه اغفر لنا ذنوبنا: الصغائر منها والكبائر"[3].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 440، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 576، مكي بـن أبـي طالـب القيسي، الهداية، ج8، ص، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص356- 357، ابن عاشور، التحريـر والتنـوير، ج19، ص 243.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 578.

3 الطبري، جامع البيان، ج7، ص 271- 273، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 255.

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ جملة خبرية مؤكدة بما يشبه النفي في أداة النفي: (وما) وهذا النفي يؤكد نوع قولهم ويخصصه بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾، وكأنه استثناء من عموم قولهم، أما جملة مقول القول فهي: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ جملة أمر إنشائية، خرجت من دلالتها إلى معنى الدعاء، ومن البلاغة البديعية في هذه الآية أن بين لفظ: (قَوْلَهُمْ) ولفظ: (قَالُوا) جناس اشتقاق.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ ﴿النساء: 156﴾.

التفسير: جاء أنّ: "اليهود كفروا بما جاءهم من الحق، وأنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون أب؛ ومنكر قدرة الله على ذلك كافر منكر وجود الصانع، وافتروا علـى مـريم ورموها بالزنا، بغير دليل ولا برهان، وهذا هو البهتان العظيم والباطل من القول؛ لأنها بريئـة من ذلك"[1]؛ "ذلك أن مريم كانت متعبدة لله ﷺ ناسكة له، اصطفاها تعالى بولد بغير أب، فعيّرها اليهود واتهموها وقذفوها بيوسف بن ماثان، وكان يوسف خادم بيت المقدس ويقال: كـان ابـن عمها، فأنزل الله تعالى تكذيبا لقولهم وبيّن بهتانهم فقال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَـرْيَمَ بُهْتَانـاً عَظِيماً﴾ يعني لعنهم الله وخذلهم، وجعل على قلوبهم غشاوة"[2]، "وَالْبُهْتَانُ مَصْدَرُ بَهَتَهُ إِذَا أَتَـاهُ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ لَا يَتَرَقَّبُهُ وَلَا يَجِدُ لَهُ جَوَابًا، وَالَّذِي يَتَعَمَّدُ ذَلِكَ بَهُوتٌ"[3]؛ وهذا ما كان من اليهـود تجاه مريم عليها السلام، فلم يكن عندها ما تجيبهم به؛ فألهمها الله الصوم.

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ جملة خبرية تقريرية تعليلية؛ (معطوفة بمجموع ما فيها من (وَبِكُفْرِهِمْ) المعطوف على (قَوْلِهِمْ) علـى

1 الطبري، جامع البيان، ج9، ص 366، الرازي، مفاتيح الغيب، ج11، ص 259.
2 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 354.
3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص 19.

الآية السابقة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿النساء: 155﴾ أي: أنّ هذا المجموعُ معطوفٌ على مجموع وكله سبب وتعليل لأن طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قلوبهم"[1].

(3)- وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿يس: 76﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني: "لا يحزنك يا محمد تكذيبهم لك إنك شاعر، وما جئتنا به شعر، ولا تكذيبهم بآيات الله وجحودهم نبوتك"[2]، "فإِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ من التكذيب والنفاق وَمَا يُعْلِنُونَ لك من الشرك والعداوة، أو بما يسرون من العلم بك، وما يعلنون من الكفر"[3]، "وفيه تهديد للمنافقين ولا يهمنك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم، فإنّا عالمون بذلك؛ وسيجازون عليه، وفي هذا تسلية لقلب الرسول ﷺ، ودفع ما به من هم وحزن، فالجدير بمن هو مثلك يا محمد أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهمّ ولا يرهقه الحزن"[4].

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ جملة أمر إنشائية تفيد معنى النهي، وهي جملة مستأنفة استئنافا بيانيا، و"حُذِفَ الْمَقُول، للعلم به، أي لَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحْزِنَكَ وقوله: ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ فَرْعٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ ﴿يس: 74﴾ وَقَدَّمَ الْإِسْرَارَ لِلِاهْتِمَامِ بِهِ لِأَنَّهُ أَشَدُّ دَلَالَةً عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِ اللَّهِ وَالْوَقْفُ عِنْدَ قَوْلِهِ: "وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ" مَعَ الِابْتِدَاءِ بِقَوْلِهِ: "إِنَّا نَعْلَمُ" أَحْسَنُ مِنَ الْوَصْلِ لِأَنَّهُ أَوْضَحُ لِلْمَعْنَى، وتَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ

---

1 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج2، ص 251.

2 الطبري، جامع البيان، ج20، ص 553.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 132، الرازي، مفاتيح الغيب، ج26، ص 307.

4 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 29.

عَنِ الْحُزْنِ لِقَوْلِهِمْ؛ فنهى أَنْ تُحْزِنَ أَقْوَالُهُمُ النبي ﷺ، أَيْ تَحْذِيرُهُ مِنْ أَنْ يَحْزَنَ لِأَقْوَالِهِمْ فِيهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا فِي شَأْنِ اللَّهِ مَا هُوَ أَفْظَعُ، وَالْخَبَرُ كِنَايَةٌ عَنْ مُؤَاخَذَتِهِمْ بِمَا يَقُولُونَ [1].

*****

(44)- وبلفظ (قَوْلِي) فقد ورد مرتين [2]، هما في:

(1)- قوله تعالى: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ ﴿ طه: 28﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ موسى ﵇ طلب من ربه ﷻ أن يفقه بني إسرائيل عنه ما يخاطبهم به ويراجعهم من الكلام ويفهموه؛ بسبب الرتة التي في لسانه؛ وذلك أن موسى ﵇ في حال صغره رفعه فرعون في حجره، فلطمه موسى لطمة، ويقال: أخذ بلحيته ومدها إلى الأرض، فقال فرعون: هذا من أعدائي الذين كنت أتخوف به، فقالت امرأته آسية بنت مزاحم: صبيّ جاهل لا عقل له، ضع له طستا من حليّ وطستاً من نار حتى نعلم ما يصنع. فوضعوا له ذلك، فجاء جبريل ﵇ فأخذ يده فأهوى بها إلى النار، فأخذ جمرة فوضعها في فيه فكانت الرثونة من ذلك، فذلك قوله عز وجل: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي يفهموا عني ما أقول لهم، وأبلغهم عنك. ففعل الله به ما سأل" [3]، "كما ويحتمل وجهين: أحدهما: ببيان كلامه. الثاني: بتصديقه على قوله" [4].

البعد البلاغي: "جاءت هذه الآية بأسلوب إنشائي، ضمن آيات ظاهرها الأمر، ولكنها في الحقيقة تفيد معنى التوسل، والدعاء؛ لأنها جاءت بطلب على سبيل التضرع والخضوع من

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج23، ص 72-73.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 578.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 393- 394، الثعلبي، الكشف والبيان، ج6، ص 243، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج7، ص 4631.

4 الماوردي، النكت والعيون، ج3، ص 401.

الأدنى إلى الأعلى منزلة، من موسى عليه السلام إلى رب العزة ﷻ، وهذه الآيات هي، قوله تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ ﴿طه: 25- 28﴾[1].

(2)- وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ﴿ طه: 94﴾.

التفسير: جاءت الجملة القرآنية: "﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ مِنْ جُمْلَةِ حِكَايَةِ قَوْلِ مُوسَى الَّذِي قَدَّرَهُ هَارُونُ فِي ظَنِّهِ؛ حينما اتخذ السامريّ العجل لبني إسرائيل ليعبدوه أثناء غياب موسى عنهم، ولم ينكر عليهم هارون هذا العمل كي لا يفرقهم، منتظرا عودة موسى، وَرَأَى فِي سُلُوكِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ تَحْقِيقًا لِقَوْلِ مُوسَى لَهُ قبل ذلك: ﴿﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿الْأَعْرَافِ: 142﴾ فلما عاد موسى ورأى ما رأى من ضلال القوم، وجه اللوم والعتاب لأخيه هارون، لأنه كان يرى أن من واجبه أن يتركهم وضلالهم ويلتحق بموسى، لحفظ أصول الشريعة، وعدم التساهل فيها، فأجابه هارون بجملة هذا القول: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، أَيْ: لم تحفظ قولي[2]، وَلَمْ تَعْمَلْ بِوَصِيَّتِي وَتَمْتَثِلْ أَمْرِي، ولم تلاحظ قولي وإنه بلا ريب لو تفرقوا وكنت سببا في هذا التفرق لكنت من المفسدين، فالتفرق في ذاته فساد وضلال" [3]. قال ذلك اعتذارا

---

1 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 – المعاني، ص 360.

2 للطبري، جامع البيان، ج18، ص 360، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج7، ص 4689.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص 293- 294، الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (المتوفى : 1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، 1415 هـ – 1995 م، ج4، ص 91، أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج9، ص 4777.

البعد البلاغي: جاءت جملة: "وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي"، جملة خبرية جوابية، تعليلية، ضمن جملة مقول القول، اعتذارية؛ يعتذر فيها هارون لموسى عليهما السلام، من عدم إتباعه له؛ خشية من أن يقول موسى لهارون: "فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ".

ومن البلاغة البديعية جاء بين لفظ: ﴿تَقُولَ﴾ ولفظ: ﴿قَوْلِي﴾ جناس اشتقاق.

*****

(45)- وبلفظ (الْأَقَاوِيلِ) (فقد ورد مرة واحدة)[1]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿الحاقة: 44﴾

التفسير: أي: "﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ محمد، ﴿بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴾ الباطلة، وتخرص بما لم نقله، وتكذب علينا، ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ لعاجلناه بالعقوبة، ولأخذنا منه بالقوة منا والقدرة"[2]، "وتكون عقوبته عاجلة ولو زاد حرفاً واحداً على ما أوحيته إليه أو نقص، وهو أكرم الناس عليَّ. وفي الآية تنبيه لغيره، وتعريض كيلا يغير أحد شيئاً من كتاب الله تعالى، ولا يتقول فيه شيئا من ذات نفسه"[3]، "وسمي الافتراء تقولاً لأنه قول متكلف والأقوال المفتراة أقاويل تحقيراً لها كأنه جمع أفعولة من القول كالأضاحيك"[4]، "وَالْأَقَاوِيلُ جَمْعُ الْجَمْعِ، وَهُوَ أَقْوَالٌ. وَسَمَّى الْأَقْوَالَ الْمَنْقُولَةَ أَقَاوِيلَ تَصْغِيرًا لَهَا وَتَحْقِيرًا"[5]، "وَالْمَعْنَى: لَوْ كَذَبَ عَلَيْنَا فَأَخْبَرَ أَنَّا قُلْنَا قَوْلًا لَمْ نَقُلْهُ إِلَخْ. وبَعْضَ اسْمٌ يَدُلُّ عَلَى مِقْدَارٍ مِنْ نَوْعِ مَا يُضَافُ هُوَ إِلَيْهِ، وَهُوَ هُنَا مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ لِ تَقَوَّلَ. والْأَقَاوِيلِ: جَمْعُ أَقْوَالٍ الَّذِي هُوَ جَمْعُ قَوْلٍ، أَيْ بَعْضًا مِنْ جِنْسِ الْأَقْوَالِ الَّتِي هِيَ كَثِيرَةٌ

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 578.

2 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 592.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 493، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج12، ص 7690.

4 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص 243.

5 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج10، ص 266.

فَلِكَثْرَتِهَا جِيءَ لَهَا بِجَمْعِ الْجَمْعِ الدَّالِّ عَلَى الْكَثْرَةِ، أَيْ وَلَوْ نَسَبَ إِلَيْنَا قَلِيلًا مِنْ أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ صَادِقَةٍ يَعْنِي لَوْ نَسَبَ إِلَيْنَا شَيْئًا قَلِيلًا مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ نُنْزِلْهُ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ"[1].

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ جملة خبر شرطية تفيد امتناع لامتناع؛ لوجود حرف (لو) فيها؛ أيْ "أَنَّ (لو) حَرْفُ شَرْطٍ يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ وُقُوعِ جَوَابِهِ لِأَجْلِ امْتِنَاعِ وُقُوعِ شَرْطِهِ؛ وَشَرْطُ لَوْ يقع فعلا ماضيا"[2]، فامتنع وقوع جوابه الواقع في الجملة القرآنية في الآية التالية: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ﴿الحاقة: 45﴾، لامتناع وقوع شرطه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿الحاقة: 44﴾، فنحن لم نأخذه دليلاً على أنّه لم يتقوّل، (هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿الحاقة: 38-39﴾ فَهِيَ مَشْمُولَةٌ لِمَا أَفَادَتْهُ الْفَاءُ مِنَ التَّفْرِيعِ عَلَى مَا اقْتَضَاهُ تَكْذِيبُهُمْ بِالْبَعْثِ مِنْ تَكْذِيبِهِمُ الْقُرْآنَ وَمَنْ جَاءَ بِهِ وَقَالَ: إِنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. فَمُفَادُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ اسْتِدْلَالٌ ثَانٍ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى طَرِيقَةِ الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ، بَعْدَ الِاسْتِدْلَالِ الْأَوَّلِ الْمُسْتَنِدِ إِلَى الْقَسَمِ وَالْمُؤَكِّدَاتِ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِدْلَالِ الْخِطَابِيِّ. وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي الْأَذْهَانِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الْقُدْرَةِ، وَأَنَّهُ عَلِيمٌ فَلَا يُقَرِّرُ أَحَدًا عَلَى أَنْ يَقُولَ عَنْهُ كَلَامًا لَمْ يَقُلْهُ، أَيْ لَوْ لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِنَا وَمُحَمَّدٌ ادَّعَى أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَّا، لَمَا أَقْرَرْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَعَجَّلْنَا بِإِهْلَاكِهِ. فَعَدَمُ هَلَاكِهِ ﷺ دَالٌّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَقَوَّلْهُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَوْ تَقْتَضِي انْتِفَاءَ مَضْمُونِ شَرْطِهَا لِانْتِفَاءِ مَضْمُونِ جَوَابِهَا. فَحَصَلَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ غَرَضَانِ مُهِمَّانِ: أَحَدُهُمَا: يَعُودُ إِلَى زِيَادَةِ إِبْطَالِ لِمَزَاعِمِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الْقُرْآنَ شِعْرٌ أَوْ كَهَانَةٌ إِبْطَالًا جَامِعًا لِإِبْطَالِ النَّوْعَيْنِ، أَيْ وَيُوَضِّحُ مُخَالَفَةَ الْقُرْآنِ لِهَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْكَلَامِ أَنَّ الْآتِيَ بِهِ يَنْسُبُهُ إِلَى وَحْيِ اللَّهِ وَمَا عَلِمْتُمْ شَاعِرًا وَلَا كَاهِنًا يَزْعُمُ أَنَّ

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 29، ص 145.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص 188.

كَلَامَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَثَانِيهِمَا: إِبْطَالُ زَعْمٍ لَهُمْ لَمْ يَسْبِقِ التَّصْرِيحُ بِإِبْطَالِهِ وَهُوَ قَوْلُ فَرِيقٍ مِنْهُم ﴿افْتَرَاهُ﴾ ﴿يُونُس: 38﴾ ، أَيْ نَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ افْتِرَاءً وَتَقَوَّلَهُ عَلَى اللَّهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾﴿ الطُّور: 33﴾ فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَوِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ لَمَا أَقَرَّهُ عَلَى ذَلِكَ.

*****

(46)- وبلفظ (قِيلًا) (فقد ورد ثلاث مرات)[1]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿النساء:122﴾.

التفسير: يقول الله تعالى: "من أصدق منه أيها الناس قيلا حتى تتبعو غيره؟ والجواب متضمن في السؤال أنّ لا أحد أصدق من الله قيلا؛ في وعده إياكم بأن يدخل المؤمنين منكم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبدا، فكيف تكفرون به، وتخالفون أمره، وأنتم تعلمون صدق وعده لكم، وتتبعون الشيطان، وتعملون بمواعيده الكاذبة؟ و"القيل" و"القول" واحدٌ؛ أي قولاً ووعداً"[2].

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ جملة إنشائية، استفهامية، والاستفهام فيها إنكاري، والجواب متضمن في السؤال؛ أي: أنّ لا أحد أصدق من الله قيلا؛ والجواب خبري تقريري. "وَجُمْلَةُ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ تَذْيِيلٌ لِلْوَعْدِ وَتَحْقِيقٌ لَهُ: أَيْ هَذَا مِنْ وَعْدِ اللَّهِ، وَوُعُودُ اللَّهِ وُعُودُ صِدْقٍ، إِذْ لَا أَصْدَقَ مِنَ اللَّهِ قِيلًا. فَالْوَاوُ اعْتِرَاضِيَّةٌ لِأَنَّ التَّذْيِيلَ مِنْ

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 578.

2 الطبري، جامع البيان، ج9، ص 227- 228، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 341.

أصنَافِ الِاعتِرَاضِ وَهُوَ اعتِرَاضٌ فِي آخِرِ الْكَلَامِ، وَانْتَصَبَ قِيلًا عَلَى تَمْيِيزِ نِسْبَةٍ مِنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ"[1]، "والقيلُ مصدرٌ كالقول والقال، يَجِيءُ فِي الشرِّ وَالْخَيْرِ"[2].

(2)-وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ ﴿الواقعة: 26﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله تعالى: ﴿إلا قِيلا سَلامًا سَلامًا﴾ أي: "لا يسمعون في الجنّة من القول إلّا قيلا سلاما، والدعاء لهم بالسلامة مما يكرهون، والتّكرير للدّلالة على فشو السلام بينهم، فيسلم بعضهم على بعض، والملائكة تسلم عليهم، ولأنّ هذا القول لم يخصص بقائل دون قائل فيسمع من الملائكة والناس"[3]، "وَهُوَ استِثْنَاءٌ مِنْ لَغْواً- وتَأْثِيماً بِطَرِيقَةِ تَأْكِيدِ الشَّيْءِ بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ الْمُشْتَهِرَ فِي الْبَدِيعِ بِاسْمِ تَأْكِيدِ الْمَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ، وَلَهُ مَوْقِعٌ عَظِيم من البلاغة فَالِاستِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ ادِّعَاءً وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالِاستِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ بِحَسَبِ حَاصِلِ الْمَعْنَى، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ انْتِصَابَ قِيلًا عَلَى الِاستِثْنَاءِ لَا عَلَى الْبَدَلِيَّةِ مِنْ لَغْواً. وسَلاماً الْأَوَّلُ مَقُولُ قِيلًا أَيْ هَذَا اللَّفْظِ الَّذِي تَقْدِيرُهُ: سَلَّمْنَا سَلَامًا، فَهُوَ جُمْلَةٌ مَحْكِيَّةٌ بِالْقَوْلِ. وسَلاماً الثَّانِي تَكْرِيرٌ لِ سلاماً الْأَوَّلِ تَكْرِيرًا لَيْسَ لِلتَّأْكِيدِ بلْ لِإِفَادَةِ التَّعَاقُبِ، أَيْ سَلَامًا إِثْرَ سَلَامٍ"[4].

البعد البلاغي: جاءت هذه الآية: ﴿إلا قِيلا سَلامًا سَلامًا﴾ "ضمن مجموعة آيات تتحدث عن النّعيم المسموع الذي يُعام به أهل الجنّة؛ فجاء الوصف في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ فجاءت مثالا على ما يسمى ذكر المدح في معرض الذم، أو

---

1 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج2، ص 235.

2 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج2، ص 235، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج5، ص 207.

3 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 108، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 393، الثعلبي، الكشف والبيان، ج8، ص 132، القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 520، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 341، الرازي، مفاتيح الغيب، ج29، ص 403.

4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، ص 297.

تأكيد المدح بما يشبه الذمّ: وهو أن ينفي صفة ذمّ ثمّ يستثني صفة مدح؛ وهذه الجملة من أبلغ الأمثلة على هذه البديعية؛ حيث استثنى من صفة ذمّ منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها، فيأتي المتكلّم بكلام يتضمَّنُ مَدْحاً، أو ذمّاً، أو إثباتَ صفةٍ أو حَدَثٍ، أو نَفْيَ صِفَةٍ، أو حدث، ويُتْبِعَهُ بكلامٍ يَبْدُوه بما يُشْعِرُ باستثناءٍ أو استدراكٍ على كلامه السابق فإذا به يأتي بما يتضمَّنُ تأكيد كلامه السابق؛ وذلك هو الغاية القصوى في المدح وَهَذَا القِيلُ يَتَلَقَّوْنَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِالْجَنَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ﴾ ﴿الرَّعد: 23، 24﴾ وَيَتَلَقَّاهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾ ﴿يُونُس: 10﴾، وَجِيءَ بِلَفْظِ: سَلاماً مَنْصُوبًا دُونَ الرَّفْعِ مَعَ كَوْنِ الرَّفْعِ أَدَلَّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ كَمَا جاء فِي قَوْلِهِ: ﴿قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ﴾ ﴿هُود: 69﴾ وَ﴿الذَّارِيَات: 25﴾ لِأَنَّهُ أُرِيدَ جَعْلُهُ بَدَلًا من (قِيلًا)، فإنّ الاستثناء بعبارة ﴿إِلاَّ قِيلاً﴾ يُشْعِرُ بأنّ نفي اللّغو والتأثيم السابق سيأتي إثباتُ بعضِ ما هو ضدّه، فإذا بالمستثنى يؤكّد الفكرة السابقة، وهي أنّهم ﴿لا يَسمَعُونَ فيها لَغواً ولاَ تأثِيماً﴾، لأنَّ عبارات السلام التي يسْمَعُها أهْلُ الجنّة ليست من اللّغو ولا من التأثيم، الّذي هو الشتيمة بارتكاب الإثم، بل هي تكريم ودعاء وتحيّة، ثم أثنى عليهم بإفشاء السلام"[1].

(3)– وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ﴿المزمل: 6﴾.

---

1 الحموي، ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الأزراري (المتوفى: 837هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، ت، عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة 2004م، ج2، ص 399، المراغي،، علوم البلاغة، ص 343، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، ص 297، حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 392، الزحيلي، التفسير المنير، ج27، ص 246.

التفسير: جاء أنّ: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلا﴾ أي: "هي أبين للقول، وأثبت للقراءة وأصوب، وأقرب للقلب، وأبعد عن الرياء؛ لهدوء الأصوات فيها"[1]، "وَكُلُّ مَنْ قَامَ لَيْلًا فَإِنَّ قَوْلَهُ: قَوِيمٌ، وَنَهْجَهُ مُسْتَقِيمٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "أَحْسَنُ لَفْظًا"، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: "لِأَنَّ اللَّيْلَ تَهْدَأُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ وَتَنْقَطِعُ فِيهِ الْحَرَكَاتُ وَيَخْلُصُ الْقَوْلُ، وَلَا يَكُونُ دُونَ تَسَمُّعِهِ وَتَفَهُّمِهِ حَائِلٌ"[2]، وجاء أيضا أنّ في: "قِيَامِ اللَّيْلِ تَزْكِيَةٌ للسر وَتَصفيَةٌ للنفس من شواغل الدنيا، والارتقاء بها إلى مناجاة ربانية، وناشئةَ وَصفٌ مِنَ النَّشْءِ وَهُوَ الْحُدُوثُ، وَجُعِلَ مِنْ أَقْوَمِ الْقِيلِ، فَعُلِمَ أَنَّ فِيهِ قَوْلًا وَقَدْ سَبَقَهُ الْأَمْرُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ وَتَرْتِيلِ الْقُرْآنِ، فيفيد أنّ الموصوف المحذوف هو صلاة، أي الصَّلَاةُ النَّاشِئَةُ فِي اللَّيْلِ، فإن الصلاةَ تشتمل على أَفْعَالٍ وَأَقْوَالٍ وَهِيَ قِيَامٌ تَعْلِيلٌ لِتَخْصِيصِ زَمَنِ اللَّيْلِ بِالْقِيَامِ فِيهِ فَهِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِجُمْلَةِ قُمِ اللَّيْلَ ﴿المزمل: 2﴾، أَيْ قُمِ اللَّيْلَ، وقِيلًا: الْقَوْلُ، وَأُرِيدَ بِهِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ فَالْمَعْنَى: أَنَّ صَلَاةَ اللَّيْلِ أَعْوَنُ عَلَى تَذَكُّرِ الْقُرْآنِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ نِسْيَانِ بَعْضِ الْآيَاتِ، وَأَعْوَنُ عَلَى الْمَزِيدِ مِنَ التَّدَبُّرِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَقْوَمُ قِيلًا: أَدْنَى مِنْ أَنْ يَفْقَهُوا الْقُرْآنَ. وقيل أَحْفَظُ لِلْقِرَاءَةِ، أو أَقْوَمُ قِرَاءَةً لِفَرَاغِهِ مِنَ الدُّنْيَا"[3].

البعد البلاغي: جاءت الجملة القرآنية: (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) جملة خبرية اسمية مؤكدة بـــ (إنّ) الثقيلة، و(نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) خبر إنّ، وجملة: (هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا) جملة خبر إنّ اسمية مؤكد باسم الإشارة (هي)، و (وَأَقْوَمُ قِيلًا) جملة خبر اسمية معطوفة على جملة الخبر السابقة.

*****

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 685، القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 643، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 639.

2 الرازي، مفاتيح الغيب، ج29، ص 403، و ج30، ص 685.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 262- 263.

(47)- وبلفظ (قِيلِهِ) (فقد ورد مرة واحدة)[1]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الزخرف: 88﴾.

التفسير: جاء في معنى "وَقِيلِهِ يعني: وقوله، والقيل هو القول"[2]، "والضمير يعود على سيدنا محمد ﷺ؛ أي أنّ سيدنا محمد ﷺ يشكو إلى الله ﷻ قومه الذين أمره بإنذارهم، ودعوتهم إلى الإيمان؛ بأنهم قد كذبوه"[3]، "ويكون قوله إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ جواب القسم، كأنه قيل: وأقسم بقيله يا رب، أو وقيله يا رب قسمي إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون، وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه"[4].

البعد البلاغي: "الْقِيلُ مَصْدَرُ قَالَ. وَالْمَعْنَى: وَمَقُولِهِ. وَالضَّمِيرُ الْمُضَافُ إِلَيْهِ: (قِيلَ) ضمير الرَّسُول ﷺ وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ ضَمِيرَ الْغَائِبِ الْتِفَاتًا عَنِ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ ﴿الزخرف: 87﴾، فَإِنَّهُ بَعْدَ مَا مَضَى مِنَ الْمُحَاجَّةِ وَمِنْ حِكَايَةِ إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَتَزَحْزَحُوا عَنِ الْكُفْرِ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ، حَصَلَ الْيَأْسُ لِلرَّسُولِ مِنْ إِيمَانِهِمْ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ الْتِجَاءً إِلَى اللَّهِ فِيهِمْ وَتَفْوِيضًا إِلَيْهِ لِيَجْرِيَ حُكْمُهُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا مِنِ اسْتِعْمَالِ الْخَبَرِ فِي التَّحَسُّرِ أَوِ الشِّكَايَةِ وَهُوَ خَبَرٌ بِمَعْنَى الْإِنْشَاءِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا تَفْرِيعُ ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ ﴿الزخرف: 89﴾، فَفِي ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ الْتِفَاتٌ لِأَنَّ الْكَلَامَ كَانَ جَارِيًا عَلَى أُسْلُوبِ الْخِطَابِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ ﴿الزخرف: 87﴾ فَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ: وَقَوْلُكَ: "يَا رَبِّ" إِلَخْ. وَيُحَسِّنُ هَذَا الِالْتِفَاتَ أَنَّهُ حِكَايَةٌ لِشَيْءٍ فِي نَفْسِ الرَّسُولِ فَجَعَلَ الرَّسُولَ بِمَنْزِلَةِ الْغَائِبِ لِإِظْهَارِ أَنَّ اللَّهَ لَا يُهْمِلُ نِدَاءَهُ وَشَكْوَاهُ وَإِضَافَةُ الْقِيلِ إِلَى ضَمِيرِ الرَّسُولِ مُشْعِرَةٌ بِأَنَّهُ تَكَرَّرَ مِنْهُ وَعُرِفَ بِهِ

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 578.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 266، الماوردي، النكت والعيون، ج5، ص 242.

3 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 656.

4 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 268، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص 271.

عِنْدَ رَبِّهِ، أَيْ عُرِفَ بِهَذَا وَبِمَا فِي مَعْنَاهُ مِنْ نَحْوِ ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ ﴿الْبَقَرَة: 214﴾، وَالتَّقْدِيرُ: وَقَالَ الرَّسُولُ قِيلَهُ، أَيْ وَعِلْمُ قِيلِ الرَّسُولِ: يَا رَبِّ، وَهُوَ عَلَى هَذَا وَعْدٌ لِلرَّسُولِ بِالنَّصْرِ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ بِالِانْتِقَامِ. وَثَانِيهِمَا: أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ لِلْقَسَمِ وَيَكُونَ جَوَابُ الْقَسَمِ جُمْلَةَ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِقَوْلِ الرَّسُولِ: "يَا رَبِّ"، تَعْظِيمًا لِلرَّسُولِ وَلِقِيلِهِ الَّذِي هُوَ تَفْوِيضٌ لِلرَّبِّ وَثِقَةٌ بِهِ. وَمَقُولُ قِيلِهِ هُوَ يَا رَبِّ فَقَطْ، أَيْ أَقْسَمَ بِنِدَاءِ الرَّسُولِ رَبَّهُ نِدَاءَ مُضْطَرٍّ. وَقَدْ حُذِفَ بَعْدَ النِّدَاءِ مَا نُودِيَ لِأَجْلِهِ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ مَقَامُ مَنْ أَعْيَتْهُ الْحِيلَةُ فِيهِمْ فَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى رَبِّهِ فَأَقْسَمَ اللَّهُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿الزخرف: 89﴾، وَالْإِشَارَةُ بِـ هؤُلاءِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ"[1].

*****

(48)- وبلفظ (قَائِلٌ) ورد ثلاث مرات [2]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿يوسف: 10﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية: "أنّه عندما أخذ أبناء يعقوب أخاهم يوسف بعيدا عن أبـيهم للمكر به، وقتله؛ فـ﴿قَالَ قَائِلٌ﴾ منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ لأن قتله عظيم، وعرض عليهم ما هو بديل للقتل وأخف، وأهون على أبيهم حينما يعرف بهذا الأمر، فقال: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾، ومن عَادَةِ الْقُرْآنِ الكريم أَنْ لَا يَذْكُرَ إِلَّا اسْمَ الْمَقْصُودِ مِنَ الْقِصَّةِ دُونَ أَسْمَاءِ الَّذِينَ شَـمَلَتْهُمْ؛ إن

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص 271- 273.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 578.

كان في ذلك جدوى؛ ولذلك لم يذكر اسم القائل، وَإِنَّمَا الْمُهِمُّ أَنَّهُ مِن جَمَاعَتِهِمْ، وكذلك لم تجمع كتب التفسير على شخص القائل بعينه لنفس السبب"[1].

البعد البلاغي: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿يوسف: 10﴾. جاءت الجملة: (قَالَ قَائِلٌ) جملة القول، خبرية فعلية، وجاءت جملة مقول القول جملة إنشائية؛ تشتمل على نهي: "لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ" وهي على طريقة المقاولات والمحاورات، أي ردا على الحوار الجاري الذي اقترحوا فيه الأخوة قتل يوسف، طارحا لهم البديل الأمثل مما طرحوه من قتل يوسف، فجاءت جملة الأمر: "وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ" تترجم البديل، وتم إنشاء هذه الجملة مزامنة للظرف الراهن، الذي أشكل الحل فيه على إخوة يوسف، ثم عقب بالمبرر: "يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ " وَالْمَقْصُودُ مِنَ التَّسَبُّبِ الَّذِي يُفِيدُهُ جَوَابُ الْأَمْرِ إِظْهَارُ أَنَّ مَا أَشَارَ بِهِ الْقَائِلُ مِنْ إِلْقَاءِ يُوسُفَ عليه السلام فِي غَيَابَةِ جُبٍّ هُوَ أَمْثَلُ مِمَّا أَشَارَ بِهِ الْآخَرُونَ مِنْ قَتْلِهِ أَوْ تَرْكِهِ بِفَيْفَاءَ مُهْلِكَةٍ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ إِبْعَادُ يُوسُفَ عليه السلام عَنْ أَبِيهِ إِبْعَادًا لَا يُرْجَى بَعْدَهُ تَلَاقِيهِمَا دُونَ إِلْحَاقِ ضُرِّ الْإِعْدَامِ بِيُوسُفَ عليه السلام فَإِنَّ الْتِقَاطَ السَّيَّارَةِ إِيَّاهُ أَبْقَى لَهُ وَأَدْخَلُ فِي الْغَرَضِ مِنَ الْمَقْصُودِ لَهُمْ وَهُوَ إِبْعَادُهُ، لِأَنَّهُ إِذَا الْتَقَطَهُ السَّيَّارَةُ أَخَذُوهُ عِنْدَهُمْ أَوْ بَاعُوهُ فَزَادَ بُعْدًا عَلَى بُعْدٍ. فَكَانَ هَذَا الْقَائِلُ أَمْثَلَ الْإِخْوَةِ رَأْيًا وَأَقْرَبَهُمْ إِلَى التَّقْوَى"[2].

وجاء بين لفظ: (قَالَ) و (قَائِلٌ) بديعية جناس الاشتقاق.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج15، ص 564، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 182، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص 132، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص 256، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 225.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 224- 226.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ﴿الكهف: 19﴾.

التفسير: "ذُكر إنّه لما أفاق أصحاب الكهف من رقدتهم التي لم يعرفوا طولها تساءلوا بينهم عن ذلك مستنكرين؛ فقال أحدهم لأصحابه: "كَمْ لَبِثْتُم؟"، قالوا: "لبثنا يوما أو بعض يوم"، ظنا منهم أنه كان كذلك -لأنها أطول مدة معهودة للنوم- فلما رأى الشمس لم تغرب قال: "أو بعض يوم"، جواب مبني على غالب الظن؛ لأنهم أنيموا أول النهار ونبهوا آخره وقال الآخرون: "رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ"، فسلّموا العلم إلى الله"[1].

البعد البلاغي: جاءت جُمْلَةُ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ جملة خبرية، بَيَانية لجملة (ليتساءلوا). "وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْمُحَاوَرَةُ تَسَاؤُلًا لِأَنَّهَا تَحَاوُرٌ عَنْ تَطَلُّبِ كُلٍّ رَأْيَ الْآخَرِ لِلْوُصُولِ إِلَى تَحْقِيقِ مُدَّةِ النوم"[2]، وجملة مقول القول: " كَمْ لَبِثْتُم" جملة إنشاء استفهامية، صنعها الموقف الغامض الذي هم فيه الآن، تحتاج جوابا، أو تفسيرا مع تحديد المدة الزمنية، لأنه سؤال بكم، و"(كَمْ) اسْمُ اسْتِفْهَامٍ عَنِ الْعَدَدِ"[3]، وجاء فيها من بلاغة البديع أنّ بين الألفاظ: ﴿قَالَ﴾ و﴿قَائِلٌ﴾ و ﴿قَالُوا﴾ جناس اشتقاق.

(3)- وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ﴿الصافات: 51﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين: "أنّ هذه الآية نزلت في شأن أخوين شريكين، بيّن الله ﷺ أمرهما؛ فقال قائل منهما وهو من أهل الجنة: "إنّي كان لي قرين، وَالْقَرِينُ: هو الْمُصَاحِبُ

---

1 الطبري، جامع البيان، ج17، ص 627، الماوردي، النكت والعيون، ج3، ص 293، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 710 .

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص 284.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 18، ص 131.

الْمُلَازِمُ شُبِّهَتِ الْمُلَازِمَةُ الْغَالِبَةُ بِالْقَرْنِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَنْفَصِلَانِ، وهذا القرين صاحب في الدنيا ينكر البعث بعد الموت ويقول لي: أَتُصَدِّقُ بأنك تبعث بعد أن تكون عظاماً ورفاتاً، وتجزى بعملك؟، أَيْ كَانَ يُوَبِّخُنِي عَلَى التَّصْدِيقِ بالبعث والقيامة ويقول تعجبا: أإذا مِتْنا وكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ أَيْ لَمُحَاسَبُونَ وَمُجَازُونَ، وَالْمَعْنَى أَنَّ ذَلِكَ الْقَرِينَ كَانَ يَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِنْكَارِ"[1]، "وكان يقول له صاحبه هذا القول لَمَّا أَسْلَمَ وَبَقِيَ صَاحِبُهُ عَلَى الْكُفْرِ يُجَادِلُهُ فِي الْإِسْلَامِ وَيُحَاوِلُ تَشْكِيكَهُ فِي صِحَّتِهِ رَجَاءَ أَنْ يَرْجِعَ بِهِ إِلَى الْكُفْرِ"[2].

البعد البلاغي: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ جملة خبرية فعلية، وهي جملة القول، و ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ جملة خبرية، اسمية مؤكدة بـــ(إنّ) الثقيلة، وهي جملة مقول القول، وفيها من البلاغة البديعية أنّ بين لفظ: ﴿قَالَ﴾ ولفظ: ﴿قَائِلٌ﴾ ما يسمى بجناس الاشتقاق.

*****

(49)- وبلفظ (قَائِلُهَا) (فقد ورد مرة واحدة)[3]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 100﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّ: ﴿كَلَا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ رد من الله ﷻ للمشرك يـــوم تقبض روحه، وينقطع عن الدنيا ويعاين الآخرة قبل أن يذوق المـــوت فيقـــول لملـــك المـــوت وأعوانه: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿المؤمنون: 99﴾ أي: يا سيدي ردني، أو يدعو الله تعالى، ويقـــول: يا رب ارجعون، أو يا رب مرهم ليرجعوني إلى الدنيا. ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَـــالِحًا فِيمَـــا تَرَكْـــتُ﴾

---

1 الطبري، جامع البيان، ج3، ص 141، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج9، ص 6105.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج23، ص 116.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 578.

﴿المؤمنون: 100﴾ أي أعمل عملا صالحا وخالصاً فيما تَرَكْتُ في الدنيا. فيأتي الجواب ﴿كَلَّا﴾ وهو رد عليهم، يعني: لا يرد إلى الدنيا. ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي أنّ قوله ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ هذه كلمة هو قائلها ولكنها لا تنفعه، ولا ينالها"[1]، ولا يرجع؛ وإن رجع لا يعمل صالحا، "وهذه الكلمة يقولها كل مشرك"[2].

البعد البلاغي: جاء لفظ: "كَلَّا: بمعنى ردع عن طلب الرجعة، وإنكار واستبعاد. والمراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض، وهي قوله: لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ. هُوَ قائِلُها لا محالة، لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم. أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه"[3]، "وتستخدم كلا لِلْأَمْرِ الْمُسْتَبْعَدِ هَيْهَاتَ"[4]، وقَوْلُهُ: إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها تَرْكِيبٌ يَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ وَهُوَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ الْقُرْآنِ. وَحَاصِلُ مَعْنَاهُ: أَنَّ قَوْلَ الْمُشْرِكِ رَبِّ ارْجِعُونِ إِلَخْ لَا يَتَجَاوَزُ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا صَدَرَ مِنْ لِسَانِهِ لَا جَدْوَى لَهُ فِيهِ، فَجُمْلَةُ (هُوَ قائِلُها) وَصْفٌ لِ كَلِمَةٌ، أَيْ هِيَ كَلِمَةٌ هَذَا وَصْفُهَا. وَالْكَلِمَةُ هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْكَلَامِ"[5]

*****

(50)- وبلفظ (الْقَائِلِينَ) (ورد مرة واحدة)[6]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿الأحزاب: 18﴾.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 70. السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 489- 490. الثعلبي، الكشف والبيان، ج7، ص 55- 56.

2 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج7، ص 5001.

3 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 203، الرازي، مفاتيح الغيب، ج23، ص 294.

4 الرازي، مفاتيح الغيب، ج23، ص 294.

5 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج18، ص 123- 124.

6 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 578.

التفسير: أي: "أنّ الله ﷻ يعلم المثبطين منكم، والمانعين غيرهم من القتال، وهم المنافقون ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ يعني: لأوليائهم وأصدقائهم من ساكني المدينة: "هَلُمَّ إِلَيْنَا" أي: "ارجعوا إلينا إلى المدينة"[1]، "أي الَّذِينَ يُثَبِّطُونَ الْمُسْلِمِينَ وَيَقُولُونَ تَعَالَوْا إِلَيْنَا وَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَفِيهِ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ لِلْأَنْصَارِ لَا تُقَاتِلُوا وَأَسْلِمُوا مُحَمَّدًا إِلَى قُرَيْشٍ وَثَانِيهِمَا: الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ لأهل المدينة تعالوا إلينا وكونوا معنا وهلم بِمَعْنَى تَعَالَ أَوِ احْضُرْ"[2]، "وَقِيلَ هُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ وَأَصْحَابُهُ المنافقون"[3].

البعد البلاغي: "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ: "هَلُمَّ إِلَيْنَا"، الجملة خبرية، تقريرية، وقد: هنا للتحقيق، والمعنى: إنّ الله ليعلم علما محيطا شاملا الذين يثبطون المسلمين عن شهود الحرب، تخذيلا ونفاقا، ويعلم القائلين لأصحابهم وخلطائهم من أهل المدينة: تعالوا إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، وقرّبوا أنفسكم إلينا، واتركوا محمدا والحرب معه"[4].

*****

وبهذا أكون قد انتهيت من البحث في ألفاظ القول المشتقة من الأصل (قول) في القرآن الكريم، ودراسته دراسة تفسيرية وبلاغية ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وسأتناول تاليا الفصل الثاني، وهو الألفاظ "الدالة على معنى القول" في القرآن الكريم، ودراسة ألفاظه دراسة تفسيرية وبلاغية- مثل سابقه- وقد تم تقسيم تلك الألفاظ في عشرة مباحث، في كل مبحث عدد غير قليل من الألفاظ المتقاربة في الدلالات والمعاني، يجمعها عنوان واحد مشترك.

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 52، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 529- 530.

2 الرازي، مفاتيح الغيب، ج25، ص 162.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص 151.

4 الزحيلي، التفسير المنير، ج21، ص 270، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص 293- 294.

الفصل الثاني

الألفاظ "الدالة على معنى القول" في القرآن الكريم

بعد الفراغ- بحمد الله- من الفصل الأول؛ ودراسة ما فيه من ألفاظ مادة (قول) واشتقاقاتها في القرآن الكريم، كان لا بد من دراسة ما يمت لتلك الألفاظ بصلة؛ ذلك لأنه من خلال قراءة سور القرآن العظيم وآياته البينة قراءة متأنية، تبين لدى الباحثة أنها تحتوي على أساليب بلاغية غزيرة، وصور فنية متعددة في استخدام ألفاظ القول وما يلتقي معها في المعنى بألوان مختلفة من التعبيرات؛ فجاء هذا الفصل لرصد تلك الألوان، وبيان الأساليب البلاغية التي استخدمت في التعبير عنها تلك الألفاظ .

فكانت الدراسة في هذا الفصل - الفصل الثاني- متمثلة في استقراء الألفاظ الدالة على معنى القول من القران الكريم، واستقصائها، وما يمت لها بصلة، ورصدها، وذلك بالاستعانة- بعد الله ﷻ- بالجهد الذاتي، ثم بالمعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم، والاستعانة بمعاجم اللغة، وكتب التفسير، فتم تبويبها وتصنيفها حسب الفن الذي تندرج تحته بيان دلالاتها، فكانت حصيلة هذا التبويب عشرة مباحث، في كل مبحث عدد غير قليل من الألفاظ، والتي بلغ عددها مجتمعة حوالي ستة وثمانين لفظا، والتي تلتقي في جانب أو أكثر من جوانب دلالاتها في معنى واحد مشترك يحمل في ثناياه - بالإضافة إلى معنى القول- معنى آخر يمت إليه من جانب آخر بصلة، وهذا ما ستكشف عنه الدراسة في صفحاتها القادمة -إن شاء الله-.

المبحث الأول

ألفاظ القول "الدالة على القول والتعبير" وبيان معانيها وأساليبها البلاغية

سأتناول في هذا المبحث ستة ألفاظ تم تصنيفها على أنها أكثر الألفاظ دلالة على (القول والتعبير)، حيث تدل عليه دلالة صريحة أكثر وضوحا من غيرها، وهذه الألفاظ هي: (حدث، خطب، عبر، نطق، كلم، لفظ)

ولمعرفة مدى توافق معاني هذه الألفاظ تحت عنوان هذا المبحث لا بد من البحث في دلالاتها المعجمية، لمعرفة معانيها اللغوية، ثم البحث عن مواطنها في القرآن الكريم، والوقوف على معانيها حسب ما يقتضيه سياقها.

*****

1- (حدث) في معاجم اللغة العربية:

جاء في عدد من المعاجم العربية حول مادة حدث ما يلي: "يقال: صارَ فلان أُحدوثة أي كثَّروا فيه الأحاديث وشابٌ حَدَثٌ، وشابّة حَدَثَة: (فتيّة) في السِّنّ. والحَدَث من أحداث الدهر شِبْه النازلة، والأُحدوثة: الحديث نفسه. والحديث: الجديد من الأشياء. ورجل حِدث: كثير الحديث. والحَدَث: الإبداء"[1]، وانفرد الراغب الأصفهاني ببعض الإشارات، عما سبق تعريفه فقال:

---

1 الفراهيدي، كتاب العين، حرف الحاء، باب الثلاثي الصحيح، باب الحاء والدال والثاء معهما، الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، أبو منصور، (المتوفى370هـ)، تهذيب اللغة، ت محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، أبواب الحاء والدال، الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، باب الثاء، فصل الحاء، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسن، (المتوفى395ه)، مجمل اللغة، دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2-1406ه-1986م، ج1، ص 223 ، كتاب الحاء، باب الحاء والدال وما يثلثهما، ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج2، ص 36، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، المتوفى 538ه، أساس البلاغة، ت محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1-1419ه- 1998م، ج1، ص172-173، ابن منظور، محمد بن

"والحدوث: كون شيء لم يكن. وأحدثه الله فحدث. وحَدَثَ أمرٌ، أي وقع وإحداث الجواهر ليس إلا لله تعالى، والمحدث: ما أوجد بعد أن لم يكن، وذلك إما في ذاته، أو إحداثه عند من حصل عنده، نحو: أحدثت ملكا، ويقال لكل ما قرب عهده محدث، فعلا كان أو مقالا. وكل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له: حديث، أي: ما يحدث به الإنسان في نومه، وسمى تعالى كتابه حديثا"[1]، فقال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ ﴿الطور:34﴾، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿النساء:87﴾.

(حدث) في القرآن الكريم:

ورد لفظ: (حدث) واشتقاقاته في القرآن الكريم (في ستة وثلاثين موقعا)[2]، أربعة منها تدل على الجديد من الأشياء، أو وقوع أمر وحدوثه، والباقي تدل على معنى القول والكلام؛ جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ﴿الضحى:11﴾

التفسير: ذهب عدد من المفسرين: "إنّه على المسلمين أن يشكروا الله بالنعم التي أنعم بها عليهم، وإن أعظم هذه النعم هي نعمة القرآن الكريم وإنزاله على نبيهم ﷺ، فكان عليهم أن يقرءوه، ويجهروا بقراءته، ويحدثوا به غيرهم، ويعلموهم إياه. ومن المفسرين من قال: "إن النعمة التي على الرسول ﷺ أن يحدث بها هي النبوة، لأنها أعظم نعمة أنعمها الله عليه، وان

مكرم بن علي ، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي، المتوفي711ه، لسان العرب، دار صادر-بيروت، ط3-1414ه ، حرف الثاء، فصل الحاء المهملة، الجرجاني، التعريفات، باب الحاء، الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، (المتوفى1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، ت مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج5، ص 105- 106، أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص452.

1 الأصفهاني، الراغب، المتوفى425ه، مفردات ألفاظ القران، ت صفوان عدنان داوودي، دار القلم- دمشق، الدار الشامية- بيروت، ط 2-1418ه-1997م، ص222-223.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص194-195، مادة ح د ث .

الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا فَيُخْبِرُ بِهِ أَهْلَ بَيْتِهِ، فكيف بنعمة النبوة؟ وقال بعضهم: إِذَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَحَدِّثْ إِخْوَانَكَ، ويقال: معناه فحدث الناس بما آتاك الله من الكرامة، ويقال: معنى (فحدث) أي: اجهر بالقرآن في الصلاة. وروى أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَمِيلٌ، يُحِبُّ الجَمَالَ، وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ النِّعْمَةِ عَلَى عَبْدِهِ»، يعني: يشكر الله بما أنعم عليه، ويحدث به، فيظهر على نفسه أثر النعمة، والتحديث بنعمة الله: شكرها وإشاعتها"[1].

البعد البلاغي للفظ: تبين مما سبق أن اللفظ (حدث) يحمل دلالة صريحة على القول والكلام، بل هو حث على قول مخصوص وإشاعته بطريقة مخصوصة، تحمل في طياتها الشكر والثناء على الله، أيا كانت النعمة، ومهما كان مصدرها، كما أن هذا الحديث يحمل في طياته خبرا جديدا، لم يكن قد أخبر به أحد من قبل؛ كما أشارت التعريفات اللغوية، وهو الحديث عن الرسالة المحمدية- إلى حاملها ومبلغها أفضل الصلاة والسلام- ثم الحديث عن القران العظيم، فهو يحمل أكثر من جانب من جوانب التعريف اللغوي، حيث هو كلام بُلغ به الرسول ﷺ، عن طريق السمع يقظة ونوما، وهو في مجمله كتاب، وهو بالنسبة لأهل مكة حديث جديد لم يألفوه، شكل في عقولهم نازلة لم يحتملوا لها تصديقا، جعلتهم من هول ما سمعوا يتحدثون بها في مجالسهم، لا يشغلهم عنها شيء لغرابتها عليهم، وحداثتها، وقرب عهدهم بها.

إذن نرى مدى التوافق اللغوي مع البيان التفسيري لهذه اللفظة، مع المقصد البحثي؛ حيث هي لفظ من ألفاظ (القول) استخدمت للقول والتعبير وجاءت في هذا السياق للتعبير عن الشكر

---

1 الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، المتوفى 207هـ، معاني القران، ت، أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة-مصر، ج3، ص275، الطبري، جامع البيان،ج24، ص489، ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي، الرازي، المتوفى 327هـ، تفسير القران العظيم، ت أسعد محمد الخطيب، ط3-1419هـ، ج10، ص3444، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص592، الزمخشري، الكشاف ج4، ص769 .

والحمد والثناء على المنعم، فهل يمكن للفظ آخر من ألفاظ فنون القول المتعددة أن يسد مكانهـا في هذا السياق أو في أي سياق آخر وردت فيه، ويُبقي على المعنى المقصود ذاته، بنفس البلاغة والحيثيات المصاحبة دون طول شرح وبيان؟ بالطبع فإن الجواب: (لا)؛ لأنه لا يمكن للفظ أن يسد مكان آخر جاء به المولى في كتابه العزيز دون إحداث تغييـر أو خلخلـة فـي المعنـى والمقصد؛ وتعالى كتاب الله عن ذلك.

وجاء لفظ (فَحَدِّثْ) في الآية الكريمة بأسلوب الأمر من الجملة الإنشائية؛ وهـو الأمـر بمعناه الحقيقي، إذ هو من الأعلى إلى الأدنى، ذلك أنّ الله ﷻ يأمر رسوله ﷺ بالحديث عما لاقى من النعم: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿الكهف:70﴾.

التفسير: ذكر المفسرون: أن "قال الخضر لسيدنا موسى عليه السلام: فإن اتبعتني الآن فلا تسألني عن شيء أعمله مما تستنكره، فإني قد أعلمتك أني أعمل العمل على الغيب الذي لا تحيط به علما حتى أحدث أنا لك مما ترى من الأفعال التي أفعلها، أذكرها لك وأبين لك شأنها، وأبتدئك الخبر عنها. يعني: إن أنكرته فلا تعجل عليّ بالمسألة، حتى أبين لك وجهه وشأنه وأكون أنا الذي أفسِّره ولا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه، حتى أكون أنا الفاتح عليك. وهذا من أدب المتعلم مع العالم، والمتبوع مع التابع وهَذَا مِنْ الْخَضِرِ تَأْدِيبٌ وبيان وَإِرْشَادٌ للطريقة التي تبقي على دَوَامَ الصُّحْبَةِ، وأدب تلقي العلم والصبر عليه، على الدوامِ فَلَوْ صَبَرَ وَدَأَبَ لَرَأَى الْعَجَبَ،

وتعرف على كل أمر من الأمور على حدة، لكِنَّهُ أَكْثَرَ مِنْ الِاعْتِرَاضِ فَتَعَيَّنَ الْفِرَاقُ وَالْإِعْرَاض"[1].

البعد البلاغي في استخدام اللفظ: من هنا جاء التعبير باللفظ (أُحْدِثَ) والذي يحمل في طياته القول والإخبار، ولكن بطريقة الابتداء والمبادرة بإلقاء الخبر، شأن المعلمين مع المتعلمين، وإن كان السائل نبيا، وهذا جانب قرآني بلاغي في استخدام اللفظ مع ما يحيط به من زيادات وهي الحداثة في الخبر والجدة في الأسباب، والمبادرة بنشره، مع احتفاظه بأصل المعنى الذي هو القول والتعبير عن قول ما، وهذا انسجام واضح بيّن بين المعنى اللغوي والبيان التفسيري، مع مقصد الدراسة في هذه الجزئية، و لفظ (أحدث) فن من فنون القول المتعددة، ولكن هل من الممكن استبدال لفظ آخر به من ألفاظ الفن نفسه في هذا السياق مع المحافظة على نفس المعنى؟ بالطبع فإن الجواب إنه لا يمكن لأي لفظ أن يحل مكان آخر في القرآن الكريم، ولو حاولنا هاهنا- جدلا- استبدال (قال) بلفظ (حدث)، لاختلف المعنى، واختلطت المقاصد، وتعالى كتاب الله عن ذلك. وجاءت الآية القرآنية من باب المعاني: "المساواة والإيجاز والإطناب؛ من قسم (نِسَبُ الكثافة بين الألفاظ والمعاني وملاءمتها لمقتضيات الأحوال)[2]. نلاحظ في هذا النص أنّ الخضر قال لموسى عليهما السلام في بدء الأمر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ هذا كلام مؤكّد مُسَاوٍ للمعنى المقصود بيانه، لا إطناب فيه ولا إيجاز. وحين اعترض موسى عليه السلام الاعتراض

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص71، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص355، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج6، ص4427، الواحدي، أبو الحسن علي بن محمد بن علي، النيسابوري، الشافعي، (المتوفى 468هـ)، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت، صفوان عدنان داوودي، دار القلم الشامية- دمشق، بيروت، ط1 1415هـ، ج1، ص668، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص735، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص18، الشعراوي، محمد متولي، المتوفى1418هـ، تفسير الشعراوي، الخواطر، مطابع أخبار اليوم، رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام 1997م، ج14، ص8959 .

2 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 10.

الأول على الخضر بشأن خرقه السفينة، قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾، هذا أيضاً كلامٌ مُؤَكَّدٌ ومُسَاوٍ للمعنى المقصود بيانه، لا إطناب فيه ولا إيجاز وحين اعترض موسى ﷺ الاعتراض الثاني على الخضر بشأن قتله الغلام، قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾. فأَطْنَبَ إِذْ أضاف عبارةَ (لَكَ) مع أنَّ هذه الزّيادة لا لزوم لها في الكلام المساوي، فعبارة ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ بأسلوب الخطاب تَدُلُّ على أنّ الخطاب قَدْ وَجَّهَهُ الخضرُ له، فما الداعي لأنْ يقول لَهُ: "أَلَمْ أَقُلْ لَكَ؟"، إنّ الداعي البلاغي لهذا الإطناب هو أنَّ مُوسَى ﷺ تصرَّفَ تَصَرُّفَ من لم يُدْرِكْ أنّ الخِطَابَ قَدْ كان مُوَجَّهاً له فيما سبق، فاعترض، فاقتضى حالُهُ أنْ يقولَ لَهُ الخضر: "إنّي كُنْتُ وجَّهْتُ الخطابَ لَكَ بأنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً". وحين اعترض موسى ﷺ الاعتراض الثالث على الخضر بشأن إقَامَتِهِ الجدار المائل في قريَةٍ أَبَى أهلُها أنْ يُضَيِّفوهُما، قال له الخضر: ﴿هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، فأوجز في كلامِهِ، إذْ طوى من اللّفظ عبارة: ﴿إنَّكَ لن تَسْتَطيعَ معِيَ صبراً﴾، وقد انتهت مُدَّةُ الاتفاق على مصاحبتي: فبعد أن أبان الخضر لموسى عليهما السلام التأويل الحكيم للأحداثِ التي أجراها بأمْرِ الله أو إذْنه قال له: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ ﴿الكهف: 82﴾"[1].

(3)– ومنها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿الذاريات:24﴾.

التفسير: ذكر عدد من المفسرين في هذه الآية: "قصة سيدنا إبراهيم ﷺ مع الضيوف المكرمين الذين زاروه في بيته، وهم سيدنا جبريل ﷺ ومعه عدد من الملائكة الكرام، الذين بعثهم الله، فبشروه بإسحاق، ويحملون معهم وعيدا بعذاب لقوم لوط، وهذا الحديث أنزله الله ﷻ على قلب سيدنا محمد ﷺ تأنيسا عما يلاقي من عنت قومه وعنادهم، وترويحا له بإخباره عن قصص من سبقه من الأنبياء، وأقوامهم وأنه مُحلٌ بالمعاندين ما أحل بالأمم السابقة، ومنزلٌ

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص10- 12.

عليهم من العذاب ما أنزل على من سبقهم إن لم يرتدعوا عن معاندتهم وغيهم"[1]، والشاهد في ذلك استخدام لفظ (حَدِيثُ) في هذا السياق، فقد جاء: "إنّه لم يكن قد أتى سيدنا محمد ﷺ خبر هؤلاء الضيوف قبل نزول هذه الآية: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ والمراد بالاستفهام في مثل هذا الموقف هو التفخيم والتهويل للحديث وللتنبيه على مَا أنه ليس من علمه ﷺ وإنما عرفه بالوحي"[2]، وقيل: ﴿حديث ضيف إبراهيم﴾: "إِنّه لَم يَكُنْ عِنْدَ سيدنا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام خَبَرٌ مِنْ ضيافتهم ولا من إِنْزَالِ الْعَذَابِ مَعَ ارْتِفَاعِ مَكَانَتِهِ"[3]. "ولأنّه أَنْكَرَ عليه السلام أَمْرَ دَخولهم عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، وأَنْكَرَ سَلَامَهُمْ في ذلك الزَّمَان وفي تلك الأرض؛ لأنها لم تكن تحيتهم، ولأنهم لم يكونوا يسلمون في ذلك الوقت"[4].

البعد البلاغي: إضافة على ما سبق بيانه في سؤاله عليه السلام "مالكم لا تأكلون؟" دليل حصول أمر غير مألوف ﴿أوجس في نفسه خيفة﴾ من ضيوف لم يمدوا أيديهم حينما ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ﴿هود: 69﴾، قدم إكراما لهم، ثم بشروه وزوجته: ﴿بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿هود: 71﴾ أعلى درجات الغرابة والحداثة مما حدا بزوجته أن: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿هود: 72﴾ ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ ﴿الذاريات: 29﴾، حياء، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ﴿الذاريات: 29﴾ دهشة واستغرابا، والوحي يكلمهم مباشرة وجها لوجه جهارا نهارا على مسمع ومرأى بمشاهدة عيانية منه ومن زوجته

---

1 الطبري، جامع البيان، ج22، ص424.

2 القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص466، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص401، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص148، النسفي، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ،ج3، ص375.

3 الرازي، مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، ج28، ص174.

4 البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي، (المتوفى 510هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن= تفسير البغوي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1- 1420هـ، ج7، ص376.

التي تَعجبت لمّا سمعت البشرى أن ينجبا في مثل هذه السن فأكد الملائكة لها البشرى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ ﴿هود: 73﴾، وهذه الأمور كلها مجتمعة هي حديث من الله ﷻ حدث بها الأمم عن طريق رسوله محمد ﷺ في كتابه العزيز، الذي وسمه ﷻ بالحديث، كما حدث عن ذاته بذاته بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ ﴿الأعراف:185﴾، وهذه الآية جزء من هذا الحديث. وبها قول تعبيري صدح به سيدنا محمد ﷺ، وحدث به قومه ناقلا لهم من خلاله قصة أبي الأنبياء ﷺ، بقول لم يألفوه...!

ومن البلاغة في هذه الآية: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾، والآية التي تليها: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ مثالا على شبه كمال الاتصال، من باب الفصل بين الجمل، و "شبه كمال الاتصال أو ما يسمى بالاستئناف البياني، وهو أن تكون الجملة الأولى متضمّنة لسؤال، أو منشأ لسؤال، تقع الجملة الثانية جوابًا له"[1]، "فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال، ويسمى الفصل لذلك استئنافا، فقد جاء على ما يقع في أنفس المخاطبين إذا قيل: دخل قوم على فلان فقالوا كذا أن يقولوا فما قال هو ويقول المجيب قال كذا، فأخرج الكلام ذلك المخرج"[2]. وجاءت الجملة بأسلوب إنشائي، استفهامي، استنكاري.

وبعد؛ فإن المتأمل في تفسيرات العلماء وأقوالهم مجتمعة، أو منفردة، يرى فيها ضالته، بما يخدم الدراسة ويقدم الجديد تلو الجديد، فلفظ (حديث) هو أدق تعبير يتوافق مع تفاصيل هذه الزيارة وأسرارها، والحديث لفظ يدل على الحدث، أو الحادثة، وما جرى من قول أو حديث، ومعجزات دخول هؤلاء الضيوف وغوامض هذه النازلة؛ التي كشف عنها هذا اللفظ، والذي لم يكن ليقوم به غيره من نظرائه من فنون القول حتى لو كان لفظ (قال)، ذلك أن السياق القرآني

---

1 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 – ص473.

2 المراغي، أحمد بن مصطفى، علوم البلاغة، ج1، ص 171.

يتطلب لفظة بعينها تحدد المطلوب وتعينه حسب ما يقتضيه القصد والمعنى، فالمدلول الذي يعطيه لفظ (حديث) في هذا السياق غير الذي يعطيه أي لفظ من نفس العائلة، أو الحقل الدلالي، وإذا أردنا أن نتأكد من ذلك فما علينا إلا أن نفترض وجود أي لفظ آخر مكانه في السياق ونحدد هل حقق المقصود من الآية، بنفس البلاغة المرجوة أو حتى جزء منها؟

*****

2- (خطب) في المعاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "خطب: (خَطَبَ) "الْخَاءُ وَالطَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: أَحَدُهُمَا الْكَلَامُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، يُقَالُ خَاطَبَهُ يُخَاطِبُهُ خِطَابًا، وَالْخُطْبَةُ خَاطَبَهُ يُخَاطِبُهُ خِطَابًا، وَالْخُطْبَةُ مِنْ ذَلِكَ". وَفِي النِّكَاحِ الطَّلَبُ أَنْ يُزَوَّجَ"، وَالْخَطْبُ: "الشأن أو الْأَمْرُ صغر أو عظم، فَتَقُولُ: هَذَا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسير". وتقول ما خطبك؟ وما أمرك؟ وقيل هو سبب الأمر، والذي يكثر فيه التخاطب والخطاب، وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ التَّخَاطُبِ وَمُرَاجَعَة الكلام والمواجهة به، والخطبة في الغالب كلام يلقى على الناس في الموعظة، لفظي أو نفسي، والمقصود بِهِ الإفهام لمن هُوَ متهيئ لفهمه؛ فالكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع لا يسمى خطابا، كالحديث للنائم؛ لأنه غير متهيئ للفهم؛ فلفظ (خطب) يعني إنه قولا تعبيريا جهريا، يقصد منه الإفهام لجماعة معنية، أو لفرد بعينه، بطريقة مخصوصة، وقد يكون في مكان معين، على غرار الخطب الدينية"[1].

---

1 الفراهيدي، العين، حرف الخاء، باب الخاء والطاء والباء معهما، الأزهري، تهذيب اللغة، أبواب الخاء والطاء، الجوهري، الصحاح تاج اللغة، باب الباء، فصل الخاء، ابن فارس، مجمل اللغة، كتاب الخاء، باب الخاء والطاء وما يثلثهما، ابن فارس، مقاييس اللغة، باب الخاء والطاء وما يثلثهما، ابن منظور، اللسان، حرف الباء، فصل الخاء المعجمة، الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، ص255، الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص286، الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، أبو البقاء الحنفي، (المتوفي 1094ه)، الكليات،

(خطب) في القران الكريم :

(ورد لفظ: (خطب) واشتقاقاته في القران الكريم في اثني عشر موقعا)[1]، خمسة منها بمعنى الأمر أو الشأن، ومرة واحدة بمعنى طلب الزواج، والستة الباقية بمعنى القول أو الكلام، جانب من مقاصد الدراسة؛ منها:

1- قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿هود:37﴾.

التفسير: اتفق عدد من المفسرين حول المخاطبة في هذه الآية: "أنّ الله ﷻ نهى سيدنا نوح ﷺ من المراجعة والخطاب في شأن الَّذِينَ ظَلَمُوا من قومه، وعن الدعاء لأجل دفع العذاب عنهم بشفاعته لهم، (إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) ومحكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك وقضى به القضاء وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه، ونهاه عن الحديث في أمر المغفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر "[2].

البعد البلاغي: يتبين أن الخطاب لفظ من ألفاظ القول والتعبير، لكنه جاء هنا بطلب من سيدنا نوح ﷺ الكف عنه والتحذير من أن يقوم به، فيراجع رب العزة فيما حكم وكتب القلم في شأن قومه الذين طغوا وكذبوا بالرسالة السماوية؛ فالتوافق بين أقوال المفسرين وأدلة اللغويين منسجم في أن الخطاب يكون بين اثنين لبحث أمر عظيم، أو سببه، وهكذا الحال مع أكبر خطب كان حينها، قضية الطوفان والإغراق، بل هو خطب جلل ما زالت الأجيال تتحدث عنه، وستبقى.

معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ت عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة- بيروت، ج1، ص419، فصل الخاء، احمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص659.

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص235.

2 الطبري، جامع البيان، ج15، ص309، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص392، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص30، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص134، الشعراوي، الخواطر، ج11، ص6466.

مما سبق يتبين أنّ كلمة (خطاب) فن من فنون االقول، استخدمت للتعبير عن (قول) وكلام، وليس بالإمكان استخدام غيرها في السياق الذي وردت فيه للتعبير عما جرى؛ حتى لو كان لفظ (قال)، كونها أم الأقوال، لأنه لا يمكن لها أن تخط المعاني التي عبر عنها لفظ (خطب) في سياقه؛ لأن المولى ﷻ نهاه عن التوجه إليه ومخاطبته في شأن الإغراق تحديدا، والحديث في الشأن العظيم، وهو رفع البلاء عن القوم الظالمين، أما أن يقول له كلاما آخر في أمر غير هذا فلم يحصل النهي عنه، لأنه قيد النهي هنا بـــ "وَلَا تُخَاطِبْنِي".

جاءت جملة: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى النهي، من (لا) الناهية، والفعل المضارع: (تُخَاطِبْنِي) اقتضاها موقف سيدنا نوح ﷺ من قومه، وتوقع حلول العذاب بهم.

2- وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿الفرقان:63﴾.

التفسير: جاء في التفسير أنّه: "إذا خاطب الجاهلون بالله عباد الرحمن المؤمنين بما يكرهون من القول، أو كلموهم بالجهل، أو خاطبوهم بالقدح فيردون عليهم بالمدح، وإذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم، الطاعنون فيهم، العائبون عليهم قابلوا ذلك بالرّفق، وحسن الخلق، وإذا أوذوا صفحوا، وإِذَا سَفِه عَلَيْهِمُ الْجُهَّالُ أو كلمهم الكفار والفساق بِالسَّيِّئ لَمْ يُقَابِلُوهُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِه، بَلْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ"[1].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص295، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص544، الثعلبي، الكشف والبيان، ج7، ص145، القشيري، لطائف الإشارات، ج2، ص649، السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي، التميمي الحنفي ثم الشافعي، (المتوفى489ه)، تفسير السمعاني= تفسير القران، ت ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض- السعودية، ط1-1418ه - 1997م، ج4، ص29، ابن كثير، تفسير القران العظيم، ج6، ص122، ابن عباس، (ينسب لعبد الله بن

البعد البلاغي: إنّ هذا اللفظ يوضح أن الخطاب قول كلامي موجه من طرف إلى آخر في أمر عظيم، والخطاب في هذه الآية موجه من الكفرة الجهلة، مواجهةً إلى عباد الرحمن، ليس للموعظة كما هو مقصد الخطاب، ولكنه جاء هنا للطعن والإساءة والقدح والذم، في أمرهم العظيم؛ وهو الإسلام متمثلا بالأشخاص القدوة المثل الذين يحملونه، ليطعنوهم فيه، ويثنوهم عنه، بأسلوب قولي كلامي تهجمي، أو بأسلوب الغمز واللمز ونحو ذلك، الموجه بالإشارة، من باب الإساءة النفسية، ليعبر عن أنفسهم الحاقدة، وذلك في كل زمان ومكان، ليس سرا، بل جهارا نهارا، على رؤوس الأشهاد، شأنهم شأن الخطباء الوعاظ الذين يتكلمون في أمر عظيم، وشتان ما بين المقصدين؛ إذن فالتوافق بين المعنيين حاصل بدليل المراجعة والمرادّة في القول من الطرف الآخر ألا وهم عباد الرحمن ولكن التعريف لم يقيد نوع المراجعة، فكانت: سلاما...

يتبين أنّ لفظ (خطب)، هو الأمر العظيم، الحديث، وهو من فنون القول ويحمل معناه، ولكن لم يأت في السياق لفظ (قال)؛ لأنه لن يعطي المعنى المقصود من التخصيص بلفظ: (خَاطَبَهُمْ)، وترك موضوع القول على إطلاقه؛ فقد يكون (قولا) عن بعد، ولو كان كذلك لما حصل عباد الرحمن على هذه الصفة، لأنهم يمشون هونا وسلاما، ولا يسرعون برد الفعل الحديث عليهم من الجاهلين، ومن المحتمل أن يكون كلام الجهلة بعيدا عن مسامعنا فلا يعنينا بقدر المواجهة، أو قد يكون في السر لا نسمعه فلا يؤذينا بقدر الإعلان أمام الأشهاد، وقد يكون مجرد قول غير موجه ولا مقصود، أما أن يكون خطابا جهريا موجها فهذا موضع الاختبار والتفاضل والتمايز.

عباس رضي الله عنهما)، (المتوفى 68هـ)، تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، جمعه مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، (المتوفى 817هـ)، دار الكتب العلمية- لبنان، ج1، ص305.

والبلاغة في الجملة القرآنية أنّها خبرية، تقريرية لا تحتمل غير الصدق،، وهي جملة شرطية من أداة الشرط غير الجازمة (إِذَا) واسمها الجملة الفعلية: (خَاطَبَهُمُ)، وجوابها الجملة الفعلية: (قَالُوا سَلَامًا) ومن باب البلاغة البديعية فقد جاءت الآية مثالا على " توافق الفواصل في رؤوس الآي"[1]، مع ما سبقها من آيات ومع ما تبعها.

3- وقال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ ﴿ص:20﴾.

التفسير: ذكر المفسرون في بيانها وتفسيرها أكثر من قول، سنورد أهمها فيما يلي: قال بعضُ المفسرين: "فصل الخطاب هو قول: "أمّا بعد"[2]، وأن هذه العبارة أول من قالها هو سيدنا داوود ﷺ. وَرُوِيَ عَنِ الشَّعْبِيِّ: "أَنَّ فَصْلَ الْخِطَابِ هُوَ قَوْلُ الْإِنْسَانِ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ "أَمَّا بَعْدُ"؛ إِذَا أَرَادَ الشُّرُوعَ فِي كَلَامٍ آخَرَ، وَأَوَّلُ مَنْ قَالَهُ داود ﷺ"[3]. ومنهم من فسرها: "بالشهود والإيمان والفهم والبصر في علم القضاء وأعطي فصل ما يتخاطب الناس به بين يديه في الخصومات، والحكم بالحق. وقيل: البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر، أو هو القضاء بين الخصوم، والفصل بين الحق والباطل وهو قولٌ محتمل لأن الخُصومة إنما تفصل بهذا"[4]، ومنهم من فسرها: "بأنها البيان الكافي في كل غرض مقصود يعطيه، وأنه كان إذا

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 457.

2 الفراء، معاني القران، ج2، ص401، التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع، (المتوفى 283ه)، تفسير التستري، جمعها أبو بكر محمد البلدي، ت محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1-1423ه، ج1، ص132، الطبري، جامع البيان، ج 21، ص173، ابن أبي حاتم، تفسير القران العظيم، ج10، ص3238، الثعلبي، الكشف والبيان، ج8، ص185، الماوردي، تفسير الماوردي للنكت والعيون، ج5، ص84.

3 البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص 180.

4 الفراء، معاني القرآن، ج2، ص401، الماوردي، النكت، ج5، ص84، القشيري، لطائف الاشارات، ج3، ص249، ابن أبي زمنين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري، المالكي، (المتوفى 399ه)، تفسير القرآن العزيز، ت أبو عبد الله حسين بن عكاشة- محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة- مصر/ القاهرة، ط1-1423ه-2002م، ج4، ص85، مكي بن ابي طالب، الهداية، ج10،

خاطب في نازلة فصل المعنى وأوضحه وبينه، لا يأخذه في ذلك حصر ولا ضعف، والْإِيجَازُ أن تجعل الْمَعْنَى الْكَثِيرِ فِي اللَّفْظِ الْقَلِيلِ، وهو الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لايلتبس عليه، وهذه صفة قليل من يدركها، فكان كلامه ﷺ فصلا، بِحَيْثُ لَا يَخْتَلِطُ شَيْءٌ بِشَيْءٍ، وَبِحَيْثُ يَنْفَصِلُ كُلُّ مَقَامٍ عَنْ مَقَامٍ، والفاصل من الخطاب الذي يفصل بين والحق والباطل، والصواب والخطأ، وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشاورات وَهَذَا مَعْنًى عَامٌّ يتناول جميع الأقسام"[1].

في هذا المقام والذي اختصرت فيه الكثير من التفصيلات التي أوردها العلماء- في تفسير الآية السابقة، وتنافسوا في بيان مدلول (فَصْلَ الْخِطَابِ)، يتبين إنها اتفقت جميعها على أن هذا الخطاب هو قول نطقي، كلامي، وإنه ميزة في القول والكلام أعطي بصفة متميزة فريدة لسيدنا داوود ﷺ، للتعبير عن ذاته وفصاحته، وبيان قدراته التي تناسب مقامه ومكانته، وحاجته إليها بين قومه لتعزيز ملكه وللذود عن حياضه، فقد كان ملكا نبيا حاكما، قاضيا؛ بحاجة إلى البيان والحجة القوية سواء قدرته على الإتيان بجديد مثل تفسيرهم لقوله: "أما بعد" وتفرده بالابتداء بها، ثم سنها سنةً لمن بعده، أو تلك القدرة الجماعية، المجتمعية التي يتطلبها الفصل بين المتخاصمين،

ص6217، الواحدي، الوجيز، ج1، ص921، الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (المتوفى 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، ت عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط1- 1422هـ، ج3، ص564 .

1 الماوردي، النكت، ج5، ص84، الزمخشري، الكشاف، ج5، ص80، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت- 1422 هـ، ج4، ص497، الرازي، مفاتيح الغيب، ص376، ج26، العز بن عبد السلام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، (المتوفى660ه)، تفسير القران (وهو اختصار لتفسير الماوردي) ت الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم- بيروت، ط1-1416ه-1996م، ص75ج3، القرطبي، الجامع لأحكام القران، ص162، ج15، البيضاوي، أنوار التنزيل، ص26، ج5.

وإقناعهم بالحجة المنطقية بالعدل وإصابة عين الحق، لتثبيت قواعد ملكه وحكمه؛ لأن العدل أساس الملك، وهذا ما وهبه الله إياه، إحدى معجزات النبوة، التي لم تؤتَ لأحد من بعده، إلا لسيدنا محمد ﷺ، ببلاغة أعظم وفصاحة أشمل وبيان أوسع، لأنها معجزته الخالدة على مدى التاريخ.

البعد البلاغي في استخدام اللفظ: إنّ ما سبق في هذا القول يتناسب تماما مع ما جاء في أصل مدلول الكلمة اللغوي؛ فهي مراجعة الكلام في الموعظة، أو في أمر عظيم، بين اثنين، وهذا ما يحققه قول المفسرين، وفصل الخصومة بين المدعي والمدعى عليه والجملة هذه: (الخطاب وفصله) فن من فنون القول وألفاظه. والحكمة من عدم استخدام لفظ (القول) أو أي لفظ آخر من ألفاظ الفن المتعددة في السياق الذي وردت فيه؛ ذلك لأنه لو كان كذلك لما حصلت الميزة المزدوجة التي أعطيها سيدنا داود عليه السلام من قدرته على الخطاب والإقناع أولا، وما يحتاج إليه من حصيلة ثقافية وقدرة بلاغية وحضور شخصية ومنطق، ليتمكن من أداء الخطاب المطلوب على الوجه الأكمل، لإقناع المخاطبين؛ لأنّهم حضور وجماهير من ثقافات متعددة، لكل منهم آراء وقناعات متباينة، بالإضافة لذلك أوتي القدرة على الفصل بين المتخاصمين وهم من هم في بيان حججهم والإدلاء بمنطقهم؟! ليغلب كل واحد منهم الطرف الآخر، وعلى ضوء ذلك لا بد من أن يكون القاضي بينهم عالما بمواطن الضعف والقوة، وبمكامن الحق من الباطل، ليفصل بين الطرفين وحل النزاع برضا كل منهم، وهذا ما دل عليه السياق من تحديد اللفظة وتخصيصها دون سواها من ألفاظ الفن الذي لا يمكن أن يقوم مقامها سواها في السياق نفسه. ومن حيث البلاغة المعنوية: جاءت الآية مثالا من أمثلة "الإيجاز بالحذف"[1]، فالأصل في أمثالها

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية، ص 194.

من الجمل أن تكون (وآتيناه) الحكمة، (وآتيناه) فصل الخطاب؛ ولكن لبلاغة التعبير القرآني تم حذف (آتيناه) الثانية لوجود مفهوم الدليل عليها.

أما من حيث التمثيل البلاغي للآية فقد أجمع عدد من العلماء: "أنها هي الدليل على اتباع منهج الاقتضاب؛ والاقتضاب هو أن يقطع المتكلم كلامه الذي هو بصدده ثم يستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك من أفانين الكلام، لا يكون بين الأول والثاني ملاءمة ولا مناسبة، وهذا هو مذهب الشعراء المتقدمين من العرب، ومن محاسن الاقتضاب قول القائل: "أما بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسوله" فإنها تأتي لقطع الكلام الأول عن الثاني، وهذه اللفظة قد أجمع أهل التحقيق من علماء البيان على أنها هي فصل الخطاب الذي أراد الله في قوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾"[1]. كما جاءت جملة: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ جملة خبرية، والخبر فيها ابتدائي.

ومن هنا نشير إلى أن الألفاظ التي استخدمت للتعبير في هذه الجزئية ما كان يغني عنها غيرها، سواء كانت في الإيجاب أو في السلب، وقد تبين فيها بلاغة القران العظيم الذي تجلى عن شبهة الترادف.

*****

3- (عبر) في المعاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم العربية حول مادة: "عَبَرَ:الْعَيْنُ وَالْبَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى النُّفُوذِ وَالْمُضِيِّ فِي الشَّيْءِ. يُقَالُ: عَبَرْتُ النَّهْرَ عُبُورًا. وَعَبْرُ النَّهْرِ: شَطُّهُ. وَمِنَ الْبَابِ: عَبَرَ الرُّؤْيَا يَعْبُرُهَا عَبْرًا وَعِبَارَةً، وَيُعَبِّرُهَا تَعْبِيرًا، وعَبَرَها يَعْبُرُها عَبْراً وعبارة إِذَا فَسَّرَهَا وَأَخْبر بآخر مَا يؤول إِلَيْهِ أمرهَا واستَعْبَرَه إيَّاها: سَأَلَهُ تَعْبِيرَها، وَوَجْهُ الْقِيَاسِ فِي هَذَا

1 المؤيد بالله، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة ، ج2، ص 182.

عُبُورُ النَّهْرِ؛ لِأَنَّهُ يَصِيرُ مِنْ عِبْرٍ إِلَى عِبْرٍ؛ كَذَلِكَ مُفَسِّرُ الرُّؤْيَا يَأْخُذُ بِهَا مِنْ وَجْهٍ إِلَى وَجْهٍ، كَأَنْ يُسْأَلَ عَنِ الْمَاءِ، فَيَقُولُ: حَيَاةٌ. فهو قد عبر في هذا من شيء إلى شيء، وعَبَّرتُ عنه تعبيراً إذا عيّ من حُجّته فتكلّمتُ بها عنه، لِأَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النُّفُوذِ فِي كَلَامِهِ فَنَفَذَ الْآخَرُ بِهَا عَنْهُ، وهذا قياس على التعريف والعبرة: اسم مصدر للاعتبار، وهو التوصل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب، والعِبْرَةُ: الاعتبار لما مضى. وعَبَّر عَن مَا فِي نَفسه: أعْرَبَ وبيَّن. وعبرت الكتاب، تدبرته في نفسي غير رافع به صوتي. وَالِاسْم العِبْرَةُ والعِبارَةُ والعَبارَةُ. وَالْعِبْرَةُ أَصلُهَا تَمثِيلُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ لِيُعْرَفَ حقيقته بطريق المشاكلة، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ للرؤيا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿يوسف: 43﴾. وَالْعَابِرُ: الَّذِي يَنْظُرُ فِي الْكِتَابِ فيَعْبُره أي يَعْتَبِرُ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ حَتَّى يَقَعَ فهمُه عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: عبَر الرؤيا واعتَبَر فُلَانٌ كَذَا، وَقِيلَ: أُخذ هَذَا كُلُّهُ مِنَ العِبْرِ الْمَعْنَى فِيهِ أنه يُعَبِّر الرُّؤْيَا عَلَى الْحَدِيثِ ويَعْتَبِرُ بِهِ كَمَا يَعتبرها بِالْقُرْآنِ فِي تأْويلها، وعَبّرت الرؤيا عبارة أثبتُ من عبّرتها تعبيراً، وَاللِّسَانُ يُعَبِّر عَمَّا فِي الضَّمِيرِ"[1].

(عبر) في القران الكريم:

(ورد لفظ: (عبر) ومشتقاته في القرآن الكريم في تسعة مواطن)[2]، واحد منها يدل على العبور والتجاوز من مكان إلى آخر، والثمانية الباقية تدل على الاعتبار بعضه ببعض حتى يقع الفهم لأخذ العبرة والموعظة، واحد منها فقط ورد بمعنى القول والكلام؛ جانب من مقاصد من الدراسة، هو:

---

1 الفراهيدي، العين، باب العين والراء والباء، ابن فارس، مجمل اللغة، باب العين والباء وما يثلثهما، ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص208-209، ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج2، ص130، ابن منظور، اللسان، باب الراء المهملة، فصل العين المهملة، الشوكاني، فتح القدير، ج3، ص208، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص71.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص445 .

1- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿يوسف:43﴾.

التفسير: قال بعض المفسرين: "إنّه إذا كنتم تعلمون عبارة الرؤيا وتأويلها والانتقال من الصور والإشارات والرموز الخيالية المشاهدة في المنام إلى ما هي صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو المعاني النفسانية الواقعة في الخارج، وتأويلها، وذكر مآلها والجمع بين الماضي والمستقبل للدّلالة على الاستمرار والمعنى الذي تدل عليه"[1]، وهذا ما يريده الملك وهو العبور به من الحالة التي هو عليها الآن إلى الحالة التي تؤول إليها في المستقبل، ممتطين الإشارات والرموز والصور الخيالية. وذلك لا يتم إلا بالأقوال والكلمات، وهذا أمر بدهي لا خلاف عليه، ولكن ليس هذا ما نشده الملك، ولكنه حدد طلبه بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ من الحالة الخيالية التي هو عليها إلى حالة أكثر فهما ووضوحا في الواقع، فهو لا يريد أقوالا وكلمات مألوفة، بل يريد نمطا آخر يحقق له الأمل المنشود والضالة المفقودة، ويتجاوز به حالة الجهل إلى حالة العلم.

البعد البلاغي: حدد الملك طلبه بلفظة تَبَيَّنَ أنها من فنون القول ولو مجازا، فهل كان بإمكانه أن يحدد طلبه نفسه في هذا السياق ويقيده لو استخدم لفظا آخر من فنون القول المتعددة؟ ويفهم منها أنه يريد قولا موضحا ومبينا لما في حالات النوم، وليس مما هو مألوف في حالات اليقظة؟ وجاءت الجملة القرآنية: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ جملة خبرية اسمية، شرطية؛ وهذا

---

1 الطبري، جامع البيان، ت محمد شاكر، ج16، ص116، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص446، أبو السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج4، ص281.

بدوره يشير إلى أنّ حاجته لمن هو ضليع في تأويل الرؤيا، متأصل فيه التعبير، متمكن من هذه المهارة، وليس ممن يدعي التأويل إرضاء للملك، أو ادعاء التأويل مجاراة مع الظرف الراهن!

*****

4- (كلم) في المعاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم العربية حول مادة: "كلم: الكاف واللام والميم أصلان أحدهما يدل على جراح، وهو: الكَلْم: أي الجرح، والجميع: الكلُوم، والكلام: الجراحات، كلمته أكلِمه كَلماً، وأنا كالمٌ، وهو مكلومٌ، أي: جرحته. والتَّكْلِيمُ: التَّجْرِيحُ. والآخر يدل على نطق مفهم، فكَلِيمُكَ: الذي يُكَلِّمك وتُكَلِّمه. تَقُولُ: كَلَّمْتُهُ أُكَلِّمُهُ تَكْلِيمًا وهو كليمي إِذَا كَلَّمَكَ أَوْ كَلَّمْتَهُ. والجميع: الكَلِمُ والكِلَمُ، والكَلامُ: معروف، وهو اسم جنسٍ يقع على القليل والكثير، ورجل كليم: منطيق، والكَلِمُ لا يكون أقلّ من ثلاث كلمات، لأنَّه جمع كَلِمَةٍ، وَفِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ: كَلِمَةٌ وَكِلْمَةٌ وَكَلْمَةٌ. ثم يتسعون فيسمون اللفظة الواحدة كلمة، والقصة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة، ويجمعون الكلمة كلمات وكلما، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ﴿النساء:46﴾ وعرفوا الكَلام: بالقَوْل. وَقيل: الْكَلَام: مَا كَانَ مكتفيا بِنَفسِهِ، وَهُوَ الجملة. والقول: مَا لم يكن مكتفيا بِنَفسِهِ، وَهُوَ الْجُزْء من الْجُمْلَة، وهو فرق ما بين الكلام والقول، وثمة فرق آخر بين الكلام والقول وهو: إِجْمَاع النَّاس على أن يَقُولُوا: الْقُرْآن كَلَام الله، وَلم يَقُولُوا: الْقُرْآن قَول الله. ويقال موسى عليه السلام كليم الله. وَعِيسَى عليه السلام كَلِمَةُ اللَّهِ لِأَنَّهُ لَمَّا انْتَفَعَ بِهِ فِي الدِّينِ كَمَا انْتُفِعَ بِكَلَامِهِ سُمِّيَ بِهِ، ويقال جاء بمراهم الكلام، ومن أطايب الكلام"[1]. وفي كتاب الكليات جاء في تعريف الكلم: "الْكَلِمَة: كل

---

1 الفراهيدي، العين، ج5، ص378، الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج5، ص2023، ابن فارس، مجمل اللغة، باب الكاف واللام وما يثلثهما، ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، حرف الكاف، باب الكاف واللام والميم، ابن منظور، لسان العرب، حرف الميم، فصل الكاف، الزمخشري، أساس البلاغة، ج2، ص145، الرازي، زين الدين أبو عبد الله

لَفْظَة دلّت على معنى مُفْرد بِالْوَضْع فَهِيَ كلمة، وَبِعبَارَة أُخْرَى: كل مَنْطُوق أَفَادَ شَيْئا بِالْوَضْع فَهُوَ كلمة، وَجَمعهَا كَلِمَات وكلم"[1]، وفي مفردات ألفاظ القران الكريم: "الكلم: التأثير المدرك بإحدى الحاستين، فالكلام: مدرك بحاسة السمع، والكلم: بحاسة البصر، وكلمته: جرحته جراحة بان تأثيرها"[2]. وفي معاجم اللغة المعاصرة جمعت بين ما يدل على القول وما يدل على الجرح: "كلَم فلانًا: جرَحه كَلْمُ اللِّسان أشدُّ من كَلْم السِّنان _هذا ممَّا يكلِم العِرضَ والدينَ"[3].

مما سبق من التعريفات اللغوية حول لفظة (كلم) يتضح أنها تعبر عن معنيين:

– أولهما: القول الكلامي المنطوق المفهوم .

– وثانيهما: الجرح المؤثر في الجسم عن طريق حاستين: حاسة البصر بالرؤيا وحاسة الشعور بالتألم، وكأن المراد من المعنيين واحد وهو بيان قوة تأثير كل منهما في العقل والجسم. وهذا ما يدفعنا إلى معرفة المزيد حول هذا المعنى، والبحث عن مواطنه في القرآن الكريم.

(كلم) في القران الكريم:

ورد لفظ: (كلم) واشتقاقاته في القران الكريم في (سبعة وسبعين موضعا)[4]، كلها بمعنى القول والكلام جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)– قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ﴿النساء:164﴾.

محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط الخامسة، 1420هـ / 1999م ج1، ص272.

1 الكفوي، الكليات، ج1، ص742، فصل الكاف.

2 الراغب الأصفهاني، المفردات، ص 722- 725.

3 عمر، د. أحمد مختار عبد الحميد، عمر (المتوفى: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، معجم اللغة العربية المعاصرة، ص 1953، ج3.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص620-621.

التفسير: ذكر بعض المفسرين أن: "﴿كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ﴾ على الحقيقة، وأنّ الكلام صدر من الذات الإلهية لمخلوق اجتباه ﷻ، بالكيفية التي أرادها لإيصال رسالة معينة، لأداء مهمة مخصوصة، فميزه بالكلام، واصطفاه دون أنبيائه، وذلك بدليل الآيات القرآنية، وبإجماع كتب التفسير"[1].

إذن؛ فالأدلة تشير أن الله ﷻ اجتبى موسى عليه السلام بالكلام المباشر شفاها من غير وسيط أيا كان؛ ليعبر له عن تفضيله إياه، وفي الوقت ذاته ليلقي إليه مهمة النبوة قولا لا إلهاما؛ ليعبر له عن شرف المهمة، وعظم الأمانة.

البعد البلاغي في استخدام اللفظ: لو ألفنا بين الدلالات اللغوية للفظ وما جاء في كتب التفسير حولها لتبين لنا العلاقة فيما بينهما؛ حيث إنّه ﷻ لم يكن ليكلم موسى عليه السلام بأقل من كلمات ثلاث، فهم منها أنه نبي أوحى الله إليه، واجتباه لأداء المهمة، وذلك تحقيقا لمعنى الكلمة، فالكلم ما كان مفهما بذاته، مستغنيا عن غيره، ولا يمكن أن يكون حديث نفس، بل مكالمة بين أكثر من واحد، وهذا ما دل عليه قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ ﴿الأعراف:143﴾، دليل على أن المحادثة كانت بين اثنين؛ الخالق وأحد خلقه، ولم تشر الدلالات اللغوية أن وجود حاجز بينهما مثل الجبل يثلم من معناها اللغوي، لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ ﴿الأعراف:143﴾. ودليل المكالمة، أنّ سيدنا موسى عليه السلام كان يرد القول بالقول: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

---

1 مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، (المتوفى 104هـ)، تفسير مجاهد، ت محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، ط1، 1410هـ -1989م، ج1، ص 242، الطبري، جامع البيان، ج5، ص378، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص166، الواحدي، الوجيز، ج1، ص182، ابن عباس، تنوير المقباس، ج1، ص36، الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، (المتوفى864ه)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (المتوفى 911ه)، تفسير الجلالين، دار الحديث- القاهرة، ج1، ص55.

﴿الأعراف: 143﴾، فقوله ﷺ: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ دليل توجيه الخطاب إلى من هو قريب منه يكلمه؛ بدليل كاف الخطاب، وتعريف الراغب الأصفهاني من أن الكلم يتحقق بحاسة السمع، والمدرك بحاسة البصر هو ما استمده من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ تحقيق الكلام بحاسة السمع، "وكلمه ربه بلا واسطة كلاما سمعه من كل جهة استشرفت نفسه للجمع بين فضيلة الكلام والرؤية -الجانب الآخر المحقق لكمال الكلام_ فقال: رب أرني ذاتك المقدسة، واجعلني متمكنا منها بأن تتجلى لي فأنظر إليك. قال الله: لن تراني الآن ولا في المستقبل، إذ ليس لبشر ما أن يطيق النظر إليّ في الدنيا، ثم أراد المولى أن يخفف عليه الأمر، فقال مستدركا: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الذي يرجف بك، ويضطرب كيف أفعل به؟ وكيف أجعله مدكوكا...، فإن استقر مكانه وثبت عند التجلي الأعظم عليه فسوف تراني، إذ هو مشارك لك في الوجود: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ وهو إشارة إلى الرؤية من بعد، بوجود حجاب لأنه لا يمكن لبشر أن يحتمل رؤيا أنوار الله عيانا، وأنه لا يطيقها، وهذا الجبل في قوته وثباته لم يقو على الثبات فكيف بك يا موسى؟ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ فلما تجلى ربه للجبل، وانكشفت بعض آياته له جعله دكا مدكوكا، وخر موسى من هول ما رأى مصعوقا، فلما أفاق من غفوته، قال: سبحانك يا رب وتنزيها لك وتقديسا، إني تبت إليك من سؤالي، وقيل: تبت إليك من الجرأة والإقدام على السؤال بلا إذن، وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك قال: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الأعراف: 143﴾، ثم أراد المولى أن يطيب خاطره ويبين له مكانته فقال يا موسى إني اصطفيتك على الناس الموجودين معك برسالتي ونبوتي، وخصصتك بكلامي فكن من القانعين لقوله: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

﴿الأعراف:144﴾، ولا تطلب ما ليس لك"[1]، فهذا الاصطفاء، وهذه المناجاة، وهذا الحوار والرجاء امتيازات لا تدع مجالا للشك أو الشبهة بان الله تعالى قال لموسى ﷺ قولا على الحقيقة، وخاطبه بكلام كلفه به بمهمة جليلة شريفة، عرف موسى حينها أن الله اصطفاه بهذا التكليم.

وجاءت جملة: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ جملة خبرية، لا تحتمل غير الصدق فيما جاءت به من خبر، وقد تأكد الفعل (كَلَّمَ) بالمفعول المطلق (تَكْلِيمًا). ومن البلاغة البديعية فقد جاء بين لفظ (كَلَّمَ) و (تَكْلِيمًا) "جناس الإشتقاق؛ حيث التكليم من مشتقات الأصل كلم"[2]، "وجناس الإشتقاق من أنواع الجناس اللفظي"[3]

أما أكثر اشتقاقات هذا الأصل ورودا في القرآن الكريم فهي لفظة (كلمة) مثال ذلك :

(2)– قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿الأنعام:115﴾.

التفسير: جاء في تفسير(الكلمة) "إنها تعني القرآن الكريم؛ أي أنّ الله ﷻ سمى القرآن (كلمة)، كما تقول العرب للقصيدة: كلمة، وللقصة كلمة، والكلمات هي القرآن"[4]، وفي بحر العلوم[5]: "روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ قال:

---

1 الحجازي، محمد محمود، التفسير الواضح، الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت، ط العاشرة – 1413 هـ ج1، ص761–762.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية، ص 395.

3 الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، (المتوفى: 1362هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ص 326.

4 الطبري، جامع البيان، ج2، ص62، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص71، مكي ابن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج3، ص161.

5 السمرقندي، ج1، ص477 .

هُوَ قَوْلُ لاَ إله إلاَّ الله". ويقول جمع من المفسرين إنها: "تَرْجِعُ إِلَى الْعِبَارَاتِ أَوْ إِلَى الْمُتَعَلَّقَاتِ مِنَ أمره وَنَهْيِه، ووعده ووعيده، وَالْأَحكَام والآيات، واستكمال سوره أو تمام كلامه"[1].

البعد البلاغي في استخدام اللفظ: (الكلمة) هذه فن من فنون القول، ولكن لحكمة ما أرادها المولى ﷻ لم يستخدم لفظ (قال) في هذا السياق، أو أي لفظ آخر من ألفاظ الفن المتعددة؛ ذلك لأن المراد من هذا السياق تحديد المعنى بألفاظ قليلة دالة وليس تركه على إطلاقه في كل أنواع القول، وليس هناك أكبر من كلمة (لا إله إلا الله) ذات الألفاظ المعدودة والمعاني التي لا حد لها، فهي تدل بذاتها على ذاتها بأنها تمت، وهذا ما يؤديه هذا اللفظ في هذا السياق ما لم يؤده غيره.

وجاء اللفظ في الآية الكريمة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ من جناس الاشتقاق؛ بين (كَلِمَة) و (كَلِمَاتِهِ)؛ من باب البلاغة البديعية.

أما بالتصريف:(نَتَكَلَّم) فقد ورد في موضع واحد هو:

(3)- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿النور:16﴾.

التفسير: اتفق بعض علماء التفسير حول هذا الكلام فقالوا: "أيها الخائضون في الإفك الذي جاءت به عصبة منكم، لولا إذ سَمِعْتُمُوهُ ممن جاء به قُلْتُمْ ما يحلّ لنا أن نتكلم بهذا، وما ينبغي لنا أن نتفوّه به، ومن يقول هذا القول فهو بهتان عظيم وينبغي أن لا نذكره لأحد، بل علينا أن ننكره أصلا، ونصن ألسنتنا عن الخوض فيه؛ فهو: عِتَابٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ من الله ﷻ وتحذير: أيْ كَانَ يَنْبَغِي عَلَيْكُمْ أَنْ تُنْكِرُوهُ وَلَا يَتَعَاطَاهُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ الْحِكَايَةِ وَالنَّقْلِ"[2].

---

1 السمعاني، تفسير القران، ج2، ص138، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص160، : عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، تفسير القرآن، ج1، ص477، القرطبي، الجامع لأحكام القران، ج7، ص71.

2 الطبري، جامع البيان، ج19، ص123، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص503، مكي بن أبي طالب، الهداية، ج8، ص5047، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص220، الواحدي، الوجيز، ج1، ص759، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص205، ابن كثير، تفسير القران العظيم، ج6، ص29، المولى أبي الفداء، إسماعيل

البعد البلاغي: إذا أمعنّا النظر فيما اجتمعت عايه أقوال المفسرين حول لفظة: (تَتَكَلَّمَ) لتبين إنّها تتحدث عن النّهي والتحذير من الخوض في أمر أختلق اختلاقا على إحدى زوجات الرسول ﷺ ومنْعُ الحديث به ولو من باب النقل، واستخدم لفظ (كلم) وهو فن من فنون القول، وقد ورد في هذا السياق ليخصص المفهوم، ويحدده؛ باستخدام اللفظة المعبرة عن مدى التأثير الذي يتركه القليل من هذا الكلام في المجتمع ومفعوله العظيم في الأنفس، ومدى الجرح الذي يسببه، والألم الذي يتركه هذا الكلم فهو يجمع بين الألم النفسي والألم المادي بما سببه ليس للصديقة حسب؛ بل للمجتمع الإسلامي بأكمله، إضافة على ذلك إنه كلام ولفظ، ولكنه في هذه الآية ليس للتعاطي والنشر! بل للتنبيه من مغبة إطلاق الأعنة للألسن فيه، والتحذير من الخوض في الأعراض، والتحذير من العودة لما بدر منها؛ بحيث لا يمكن لأي لفظ أن يسد مكانه في القرآن الكريم.

وجاءت جملة: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ جملة خبرية، شرطية من حرف الشرط غير الجازم(لَوْلَا)، وجملة: (إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) اسمها، أما جوابها فهو الجملة الفعلية: (قُلْتُمْ)، وجملة مقول القول: لـــ(قُلْتُمْ) فهي جملة النفي: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾.

*****

5 – (لفظ) في المعاجم العربية:

جاء تعريف مادة: (لفظ) في المعاجم العربية على النحو التالي: "(لَفَظَ) اللَّامُ وَالْفَاءُ وَالظَّاءُ كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى طَرْحِ الشَّيْءِ، وَغَالِبُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْفَمِ. وهو للكلام مستعار، والفعلُ لَفَظَ يَلْفِظُ لَفْظا تَقُولُ: لَفَظَ بِالْكَلَامِ يَلْفِظُ لَفْظًا: نطق، وهو ما يتلفظ به الإنسان أو من في

حقي بن مصطفى الاستانبولي الحنفي الخلوتي، (المتوفى 1127هـــ)، روح البيان، دار الفكر- بيروت، ج6، ص128.

حكمه، مهملًا كان أو مستعملاً، وَلَفَظْتُ الشَّيْءَ مِنْ فَمِي أَلفظه لفظا: أي رميته، وذلك الشيء لفاظة، ولفيظة: ما لفظ منه. ولفظ اللقمة من فيهه: أي رمى بها، ومن المجاز: لفظ القول ولفظ به، ويجمع على ألفاظ وملافظ، ويقال: ما يلفظ بشيء إلا حفظ عليه أي تَكَلَّمَ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رقيب عتيد﴾ ﴿ق:18﴾"[1]، وذكره الكفوي في الكليات: "اللَّفْظ: هُوَ فِي أصل اللُّغَة مصدر بِمَعْنى الرَّمْي، وَهُوَ بِمَعْنى الْمَفْعُول، فَيتَنَاوَل مَا لم يكن صَوتا وحرفا، وَمَا هُوَ حرف وَاحِد وَأكْثر، مهملا أَو مُسْتَعْملا، صَادر من الْفَم أَولا، لَكِن خص فِي عرف اللُّغَة بِمَا صدر من الْفَم من الصَّوْت الْمُعْتَمد على الْمخْرج حرفا وَاحِدًا أَو أَكثر مهملا ، أَو مُسْتَعْملا، لَا يُقَال لفظ الله، بل يُقَال كلمة الله"[2].

(لفظ) في القران الكريم:

ورد لفظ: (لفظ) في القران الكريم مرة واحدة بالتصريف (يَلْفِظُ) في سورة (ق))[3]، بالمعنى المقصود من الدراسة، وهو:

(1)_ قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿ق:18﴾.

التفسير: ذهب عدد من علماء التفسير إلى أنّ "(يَلْفِظُ)، أو (لفظ) تعني القول و الكلام، أو كل ما يتكلم به ابن آدم من حروف وكلمات، وكل ما يخرج من فمه من قول؛ خير أو شر،

1 الفراهيدي، العين، حرف الظاء، باب الثلاثي الصحيح من الظاء، باب الظاء واللام والفاء معهما، الجوهري، الصحاح ، باب الظاء، فصل اللام، ابن فارس، مجمل اللغة، كتاب اللام، باب اللام والفاء وما يثلثهما، ابن فارس، مقاييس اللغة، كتاب اللام، باب اللام والفاء وما يثلثهما، الزمخشري، أساس البلاغة، كتاب اللام، ابن منظور، اللسان، حرف الظاء المعجمة، فصل اللام، الجرجاني، كتاب التعريفات، ص192، الأصفهاني، مفردات ألفاظ القران الكريم، ص743 -744، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، باب اللام، فصل الظاء.

2 أحمد، مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، حرف اللام، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، الناشر: دار الدعوة، باب اللام.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 650.

حتى أنينه في مرضه؛ فإنه يعد من اللفظ ويكتب عليه"[1]، وهو للكلام على سبيل الاستعارة وليس على الحقيقة؛ لأنه من الكلم أي: الجرح.

البعد البلاغي: لقد تجاوز اللفظ حد المجاز وأصبح فناً من فنون القول، ولكن ما الحكمة التي أرادها ﷻ من استخدام هذا اللفظ بدلا من لفظ (قال) في سياقه الذي ورد فيه؟ ذلك؛ لأن (لفظ) ليس كأي (قول)، علما بأنه يحمل في جانب من جوانبه معنى القول، ولو استخدم لفظ (قال) في هذا السياق لما عبر عن المعنى المقصود من الآية الكريمة بأن أقل ما يمكن من التلفظ محسوب على صاحبه، ولبقي الأمر مفتوحا على مصراعيه بأن مطلق القول لديه رقيب عتيد، وهذا أمر بدهي لم يحقق المراقبة الذاتية للنفس بأن تحسب حساب أقل ما تتلفظ به.وجاءت جملة: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ جملة خبرية، بخبر لازم الفائدة، لا تحتمل غير الصدق في الخبر.

*****

(6)- (نطق) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة نطق: "نطق: النون والطاء والقاف أصلان صحيحان: أحدهما كلام أو ما أشبهه، والآخر جنس من اللباس، وسأتناول في هذا المقام الأصل الأول، وهو المعني بالكلام، نطَقَ: الناطقُ ينطقُ نطقاً، وهو مِنطيقٌ بليغ. والكتاب النّاطِقُ: البين. وكلام كل شيء: منطقه قال تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ ﴿النمل:16﴾، وقد نَطَقَ نُطقاً وأنطَقَهُ

---

1 الطبري، جامع البيان، ج22، ص344، ابن أبي حاتم، الرازي، تفسير القرآن العظيم، ج10، ص3308، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص335، الثعالبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج9، ص100، مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج11، ص7039، الواحدي، الوجيز، ج1، ص1023، الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج4، ص187، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج9، ص534، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، ص398، ابن عباس، المقباس، ج1، ص439 .

غيره وناطَقَهُ واستَنْطَقَهُ، أي: كلَّمه، وتَكَلَّمَ بصَوْتٍ وحُروفٍ تُعْرَفُ بها المَعاني وانطق الله الألسن، واستنطقته"[1]. وأضاف الراغب الأصفهاني: "إنّ النطق هو الأصوات المقطعة التي يظهرها اللسان وتعيها الآذان ولا يكاد يقال إلا للإنسان"[2].

يتضح مما سبق أنّ لفظ (نطق) يشير إلى صريح القول، الواضح البيِّن، بصوت مسموع، الدّال على معان معروفة؛ من الحرف إلى الجملة، وذلك في الإنسان- أصلاً- وفي غيره من المخلوقات فيما بينها، كما أكد على ذلك كثير من العلماء؛ وتمثيلهم لذلك بالأسماك والطيور، واستشهد بعضهم بقوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ ﴿النمل:16﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿فصلت:21﴾، وسنعرض لعدد من الآيات القرآنية التي تشتمل على لفظ (نطق) لمعرفة تفسيرها ومدى توافقها مع المدلول اللغوي.

(نطق) في القران الكريم:

(ورد لفظ: (نطق) واشتقاقاته في القران الكريم في اثني عشر موضعا)[3]، جاءت كلها بمعنى (القول) المراد من الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ ﴿الصافات:92﴾.

التفسير: ذكر: "أن إبراهيم عليه السلام خاطب الأصنام على أنها تعقل لما رأى من قومه أنهم عاملوها معاملة من يعقل، فخاطبها بقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ على سبيل الاستهزاء والاستخفاف، وهو يدرك أنها لن تجيبه. ولكنه أراد أن يظهر الحق أمام قومه، وأنهم يتوجهون

---

1 الفراهيدي، كتاب العين، حرف القاف، باب الثلاثي الصحيح، الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، باب القاف، فصل النون، ابن فارس، مجمل اللغة، كتاب النون، باب النون والطاء وما يثلثهما، ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحكم، حرف القاف، ابن منظور، لسان العرب، حرف القاف، فصل النون، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وآخرين، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج 2، ص931.

2 الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ص811.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص705.

في عباداتهم إلى مالا يعقل. وفي ذلك دليل على أن النطق من صفات العقلاء، وهي غير كذلك"[1].

البعد البلاغي: لم تتفوه الأصنام بأي لفظ، ولم يصدر منها أي رد على من يسألها، وذلك لأنها ليست عاقله، لأن النطق مادة للحوار تحتاج الأخذ والرد في القول الصريح للتعبير عن أنفس العقلاء، وبيان حجج وأقوال صادقة وهي غير قادرة على ذلك، وهذا دليل على أن لفظ (نطق) فن من فنون القول، ولكن ما الحكمة من عدم استخدام (قال) في السياق نفسه أو إحدى مشتقاته مثل أن يقل مالكم لا (تقولون)؟، الإجابة أنّ (قال) كلمة عامة تشمل أنواع القول كلها في المطلق، وسيدنا إبراهيم ﷺ لا يريد منها أن تتكلم بشكل عام، ولا أن تقول أي قول، ولكنه أراد منها أن تعبر وتشكو على من حطمها وتدافع عن نفسها وتبين حجتها بأي لفظ من جنس الكلام، فلو نطقت بكلمة واحدة تكون تلك الكلمة حجة عليه بأنها من جنس العقلاء، ودليل بيِّن على فهمها وإدراكها، وبالتالي فهي جديرة بأن تعبد! ولكنه خاطبها ﷺ متحديا ليظهر الحق فان كانت آلهة فما عليها إلا أن تتكلم بأي طريقة مفهومة كانت، وبأي نوع من أنواع التعبير أو الإشارة أو البراهين المنطقية العقلية الدالة، لأن الموقف الآن يتطلب ذلك، فسيدنا إبراهيم ﷺ في موقف المتهم بنظرهم، ونطقها يقيم الحد بينهم وبينه، وينتهي الجدل حول من المستحق للعبادة بحق؛ فالأمر عنده سيان، المهم أن تتفوه ولو ببنت شفة، فقد قال في موضع آخر: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ ﴿الأنبياء:36﴾، لأنهم لو أجابوا لاختلفت النتيجة، وتركهم وشأنهم. ولكن...

---

1 مكي بن أبي طالب، الهداية، ج9، ص612، ابن عباس، عبد الله، تنوير المقباس، ج1، ص377، الجلالين، تفسير الجلالين، ج 1، ص593، البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الاسلامي القاهرة، ج16، ص256، النخجواني، نعمة الله بن محمود، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، دار ركابي للنشر-الغورية، مصر، 11419هـ-1999م، ج2، ص218، نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف-السعودية، ط14302هـ-2009م، ج1، ص449.

أما من حيث البيان البلاغي للآية فقد جاءت في قسم المعاني؛ "بأسلوب:الاستفهامٌ التَهكُميُّ الساخِر خارجا عن أصل دلالته من إرادة طلب الإفهام والإعلام، ويستعملُ هذا الاستفهام عند إرادة التهكُم أو السخرية، وهو من أقسام الجملة الإنشائية"[1].

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿المؤمنون:62﴾.

التفسير: جاء أنّ لفظ: (ينطق) يشير إلى معنى القول أو الكلام أو الإظهار ونحو من ذلك؛ مثل قول بعضهم: "يُبَيِّنُ الصدقَ"[2]، أي يبين الحق ويظهره وليس بالضرورة أن يكون البيان كلاما ولكن بيانا مقنعا يسد مسد الكلام، ويقوم مقامه، وفسرها آخرون بالشهادة بقولهم: "يشهد عليهم بالصدق"[3]. وإن هذا الشاهد (الناطق) له مواصفات خاصة، وقوله يختلف عن بقية الأقوال. وفسرها السمعاني باللوح المحفوظ بقوله: "أي: عندنا كتاب ينطق بِالْحَقِّ وَهُوَ اللَّوْح الْمَحْفُوظ، وأضاف: "إنّ بَعضهم استدل بِهَذِهِ الْآيَة أن من كتب إِلَى إِنْسَان كتابا فقد كَلمه. وَقَوله: (ينْطق بِالْحَقِّ) أي: يخبر بِالصّدقِ"[4]، وكأن الكتابة عنده نطق وكلام، لأنها تنطق عما في داخل صاحبها. وأن من قرأ كتابا فهو قد نطق بما فيه، وقيل إن: "أَظْهَرُ مَا قِيلَ فِيهِ: أَنَّهُ كِتَابُ إِحْصَاءِ الْأَعْمَالِ الَّذِي تَرْفَعُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَأَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَتَبَتْ فِيهِ أَعْمَالَ الْعِبَادِ بِأَمْرِهِ فَهُوَ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ. وَلَفْظُ النُّطْقِ يَجُوزُ فِي الْكِتَابِ، وَالْمُرَادُ أَنَّ النَّبِيِّينَ تَنْطِقُ بِمَا فِيهِ"[5].

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ج1، ص 300- 301، صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية، ص 29.

2 الطبري، جامع البيان، ج19، ص48، الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القران، ج2، ص5.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص484 .

4 أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن احمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت 489هـ)، تفسير القران، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم دار الوطن، الرياض-السعودية، 1418، 1997م، ج3، ص481.

5 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت: أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش دار الكتب المصرية - القاهرة ط2، 1384هـ، 1964م، ج12، ص134.

البعد البلاغي: من التفسيرات للفظ (ينطق) تبين أنه فن من فنون القول، ولكن ما الحكمة من عدم استخدام الحق ﷻ كلمة (قال) في هذا السياق أو في أي سياق آخر وردت فيه، أو أي كلمة أخرى من أبواب الفن المتعددة؟ لأن الموقف يتطلب البيان والشهادة الصادقة، ولأنه سبحانه يلجم الأفواه يوم القيامة ويختم عليها؛ دليل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ ﴿يس: 65﴾ فيأتي دور الشهود الذين لا بد من استجوابهم؛ لأنهم يحملون الدليل الصادق وعليهم أن يدلوا به بأي طريقة منطقية مقنعة، فقد تكون: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿يس: 65﴾، أو: ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿يس: 65﴾، أو ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 62﴾، الذي كتبت فيه الملائكة أعمال العباد كلها، فيكون ناطقاً بحق سواء أنطقه الله عمّا فيه، أو أن تقرأ الملائكة أعمال العبد، أو أن يقرأ العبد أعمال نفسه، كلها خيارات واردة على ضوء (ينطق)، لذا لم يقيد هذا الكتاب باللفظ (قال) لأنه محتمل فيه أي قول على إطلاقه، ولكنه استعاض عنه بلفظ من فنون القول لتقوم بالغرض المحدد، وتخصص المنطق المطلوب، فنحن في واقعنا الحياتي وفي لغة المحاكم نتداول لفظ (نطق) القاضي، أو (نطق) الحاكم بالحكم، أو (نطق) الشاهد، علما أنّ ما ينطقون به قد يكون كلاما مصرحا به؛ أو شهادات مكتوبة، أو إشارات مفهومة، ولكن لهذا النطق طابع خاص، وميزة في مجالس القضاء لأنها تخضع لمقاييس ثابتة، لا يختلف عليها اثنان، لهذا ميزت بلفظة لها مقاييسها المعتمدة من بين ألفاظ القول عامة، وهكذا حال الكتاب الشاهد على أعمالنا يوم القيامة، لا يمكن أن تتبدل أقواله وأحكامه، ولو كان الشخص هو القاضي نفسه وهذا الكتاب شاهد عدل، لا يمكن أن ينطق بغير الحق، وإن كنا نستبعد ذلك في الدنيا، إلا أن الله ﷻ أكده لنا في كتابه الكريم في عدد غير قليل من الآيات، وقربه إلى أذهاننا بالنطق المعاين المسموع وقوله تعالى: ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿فصلت: 21﴾، يعني أن كل شيء من مخلوقات الله ينطق ويتواصل فيما بينه بلغة وطرق

حوارية منطقية مخصوصة بدليل الآية السابقة. واستخدامه ﷺ لهذا اللفظ في هذا السياق دليل الإعجاز البياني للألفاظ التي لا يمكن أن يغني عنها غيرها في السياق نفسه، وهذا يبين لنا العلاقة القائمة بين الأصلين: الكلام واللباس، كما أشار إليها الأصفهاني في تعريفاته، حيث عقد علاقة تجمع بينهما بقوله: "إنّ حقيقة النطق اللفظ الذي هو كالنطاق للمعنى في ضمه وحصره"[1]، وذلك من انتطق ووضع نطاقا على وسطه بضم أجزائه بعضها إلى بعض، وهذا الكتاب كذلك. "ومن باب المعاني البلاغية؛ جاء اللفظ من صيغ المبالغة"[2].

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ ﴿النجم:3﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية: "ما يقول محمد هذا القرآن برأيه إنّما هُوَ وَحيٌ"[3]، "وإنَّ الْقُرآن الَّذِي ينْطق بِهِ لا ينطق بالباطل، ولا هو من هوى نفسه؛ بل حجة من حجج الله تعالى، فليس للهوى ولا للشيطان عليهما اعتراض قط"[4].

البعد البلاغي: جاء تفسير النطق بالكلام ولكن ليس بالمطلق، فالمقصود هنا هو القران الكريم، وهو كلام من جنس آخر، يخضع للعقل والمنطق، ليس فيه من هوى النفس شيء، ولا يختلف على صحته اثنان، وهذا يذكرنا بالآية السابقة التي فيها النطق كالحكم: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾﴿المؤمنون: 62﴾، يحترز من الظلم وهوى النفس، لأنه شاهد مؤتمن، وهذا يتوافق مع الدلالة للآية هنا؛ مما أجبر معانديه بأن يشهدوا له بالبلاغة التي أعجزتهم، فهو ينطق

---

1 الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص811_812.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 163.

3 الفراء، معاني القرآن، ج3، ص95.

4 ابن أبي الزمنين، تفسير القرآن العزيز، ج4، ص305، التستري، تفسير التستري، ج1، ص156، الواحدي، الوجيز، ج1، ص103، البغوي، تفسير البغوي، ج7، ص400، ابن عباس، تنوير المقباس، ج1،ص445

بحروف ومعان مفهومة ببلاغة ما عهدوا لها مثيلا؛ لأن الله سبحانه قد استنطقه، لأن الأقوال التي كتبت فيه أو نطقت عنه ثابتة لا تتغير تبعا لهوى أو أشخاص .

ويبقى الدليل واضحاً على أنّ لفظ (نطق) يشير إلى معنى القول، أو هو فن من فنونه، تستخدم في مجال التعبير عن الذات، وفي مجال التواصل الكلامي القولي. والواضح من الأمثلة القرآنية– والآيات الأخرى التي ورد فيها لفظ (نطق) كما سنرى– تبين لدى الباحثة أن اللفظ جاء في حسم أمر بين طرفين مختلفين، أو بينهما مشادّة كما اتضح من السياقات، فسيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه (خصومه) طلب (ناطقا) لحسم الخلاف، وهذا الكتاب (الناطق) يوم القيامة يحسم الخلاف بين المكذبين والشواهد الدالة عليهم. ووصول أهل مكة إلى قناعة أنه لا ينطق عن الهوى حسم الخلاف، وفصل بينهم وبين ما يدّعون أنه ساحر وكاهن، رغم تمنع الكثير منهم عن إتباعه، لكنهم خرجوا بقناعة أعجزتهم وقهرت قدراتهم البلاغية، وقطعوا الشك باليقين بأنهم ﴿لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾! وأنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ ﴿النجم:3﴾!، ثم إن جل عدائهم كان منصبا على القرآن الكريم على وجه الخصوص وليس على كل ما يتكلم به في الحياة العادية. فهل نستطيع بعد ذلك أن نفترض وجود أي لفظ من ألفاظ القول المتعددة يسد مكانه، أو يقوم مقامه؟ "ولقد جاءت الآية مع ما قبلها وما بعدها في السورة ذاتها مثالا على توافق الفواصل في القرآن الكريم"[1]، وجاءت الآيتان مثالا على الوصل، وذلك أنّ: "بين قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى*﴾ ﴿النجم: 3-4﴾ كمال الاتصال لأن الثانية توكيد معنوي لأن تقرير كونه وحيا نفي لأن يكون عن هوى"[2]، و"فصل الله تعالى بين الجملتين

---

1 المؤيد بالله، يحي بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج3، ص 197.

2 الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبديع، ج1، ص 191، انظر الحاشية السفلية، المراغي، البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، ج1، ص 179.

في الآية الكريمة؛ لأن بينهما كمال الاتصال فإن الجملة الثانية بيان للأولى"[1]، "والفصل هو: ترك واو العطف بين الجمل المترادفة، والتي من حقها أن تربط بالواو إذا ترادفت ووقع بعضها إثر بعض لتكون على نسق واحد – ولكن قد يعرض لها ما يُوجب ترك الواو فيها: فيسمى هذا فصلا"[2].

وجاءت جملة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى النفي، أي نفي عن الرسول الكريم نطق غير الحق.

وبعد؛ فهذه ألفاظ المبحث الأول التي يجمعها عن سواها أنها اختصت بـ"القول والتعبير"، وهذا ما تمت عنونته سابقا، وأكدته الدراسة المستقصية ثانيا، حسب المعطيات اللغوية والدلالية وفق المعاجم العربية، ووفق كتب التفسير المعتمدة عند أهله، بالإضافة إلى أبعادها البلاغية والبيانية بحسب المراجع المعتمدة، ثم بحسب السياقات التي وردت فيها، ثم هي رؤية الباحثة بناء على ما تم ذكره.

تمّ المبحث الأول -بحمد الله-

---

1 علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، جمع وترتيب وتعليق علي بن نايف الشحود، ج1، ص 259.
2 الهاشمي، أحمد بن إبراهيم، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ج1، ص 183.

المبحث الثاني

ألفاظ القول "الدالة على القراءة" وبيان معانيها، وأساليبها البلاغية

سأتناول في هذا المبحث ثلاثة ألفاظ، تم تصنيفها على أنها أكثر الألفاظ تعبيرا على ما يدل على (القراءة) وأكثر وضوحا من غيرها، وهي: (تلى، رتل، قرأ)، ولمعرفة مدى توافقها تحت عنوان هذا المبحث لا بد من البحث في دلالاتها المعجمية، لمعرفة معانيها اللغوية، ثم البحث عن مواطنها في القرآن الكريم، والوقوف على معانيها حسب ما يقتضيه سياقها، ثم دراستها بلاغيا بحسب المراجع والكتب المختصة.

*****

1- (تلو، تلا) في المعاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "تِلْو كل شيء: ما يتلوه تُلُوّاً ويتبعه متابعة ليس بينهم ما ليس منها، ويكون تارة بالجسم، وتارة بالاقتداء في الحكم، وغالبًا ما تدل على الإضافة والتكرار ومصدره تُلُوٌّ وتِلْوٌ، وتارة بالقراءة وتدبر المعنى ومصدره تلاوة وتَلاَ الشيءَ، وتَلَوْتُ القُرْآنَ تِلاوَةً: قَرَأْتُه. وعَمَّ به بعضُهم كُلَّ كَلامٍ، وقولُهُ تَعالَى: ﴿فالتاليات ذكرا﴾ ﴿الصافات:3﴾، قِيلَ: هم المَلائِكَةُ، أو هم المَلائِكَةُ وغيرُهم ممن يَتْلُو ذِكْرَ اللهِ. والتلاوة تختص بإتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب، أو ما يتوهم فيه ذلك، وهو أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة. وقيلَ: كُلُّ كَلامٍ تَتَكَلَّمُ

بِهِ. أي مَا تُحَدِّثُ تِلاوَةً، كَكِتَابَةٍ: قَرَأْتُهُ. أو تلو: تَلاَ فلانٌ يتلُو تِلاوةً. هُوَ الَّذِي يُراسِلُ المُغَنِي بصَوْتٍ رَفِيعٍ"[1].

(تلو، تلا) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (تلو) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاثاً وستين مرة)[2]، جاءت في موضع واحد بمعنى التلو والمتابعة، في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا* وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*﴾ ﴿الشمس: 1-2﴾، أما بقية الألفاظ فقد جاءت بمعنى القول والقراءة؛ جانب من مقاصد الدراسة، منها :

(1)- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ ﴿البقرة:121﴾.

التفسير: تعددت آراء المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ فَقِيلَ: "يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ، بِاتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَيُحِلُّونَ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا تَضَمَّنَهُ يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه"[3]، "من دلالات اللفظ الذي جاء في التعريف اللغوي: "عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ: هُمُ الَّذِينَ إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلُوهَا مِنَ اللَّهِ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةِ عَذَابٍ اسْتَعَاذُوا مِنْهَا. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْمَعْنَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ تَعَوَّذَ"[4]. وهذا متضمن لمعنى (القول)، فمن سأل الله الرحمة فقد قال قولا، ومن تعوذ من العذاب فقد قال قولا، أيضا. "وَقِيلَ: يَقْرَءُونَهُ حَقَّ قِرَاءَتِهِ كما أنزل لا يغيرونه ولا يحرفونه ويتكلمون به كما أنزل ولا يكتمونه، ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله

---

1 الفراهيدي، العين، باب التاء واللام و(وءي) معهما ت ل، الأصفهاني، المفردات، ص176، ابن سيده، المحكم، باب التاء واللام والواو، الزبيدي، تاج العروس، باب تلو، أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، باب ت ل و.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص155- 156.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص95-96.

4 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص95-96، البخاري، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني القِنَّوجي (المتوفى: 1307هـ)، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري،1412 هـ - 1992 م، ج1، ص268.

ﷺ ويُرَتِّلُونَ أَلْفَاظَهُ، وَيَفْهَمُونَ مَعَانِيَهُ، فَإِنَّ بِفَهْمِ الْمَعَانِي يَكُونُ الاتباع لمن وفق"[1]، "والقراءة الحقة أيضا هي (التلاوة الحق)، وهي ضِدُّ الْبَاطِلِ، أَيْ تِلَاوَةٌ مُسْتَوْفِيَةٌ قِوَامَ نَوْعِهَا لَا يَنْقُصُهَا شَيْءٌ مِمَّا يُعْتَبَرُ فِي التِّلَاوَةِ، وَتِلْكَ هِيَ التِّلَاوَةُ بِفَهْمِ مَقَاصِدِ الْكَلَامِ الْمَتْلُوِّ، فَإِنَّ الْكَلَامَ يُرَادُ مِنْهُ إِفْهَامُ السَّامِعِ، فَإِذَا تَلَاهُ الْقَارِئُ وَلَمْ يَفْهَمْ جَمِيعَ مَاأَرَادَهُ قَائِلُهُ كَانَتْ تِلَاوَتُهُ غَامِضَةً، فَحَقُّ التِّلَاوَةِ هُوَ الْعِلْمُ بِمَا فِي الْمَتْلُوِّ"[2].

البعد البلاغي: بناء على ما فهم من سياق الآية؛ نستطيع أن نقول إنّ لفظ (التلاوة) فن من فنون القول؛ بدليل ملازمتها للسمع؛ فهي (قول)، ينطق به على طريقة مخصوصة متضمناً لشروط وأحكام لا يمكن لأي لفظ آخر أن يحملها أو يعبر عنها، لذا كان سر اختياره المعجز من بين ألفاظ القول عامة، ليعبر عن التلاوة الحقة لكتاب الله، وشروط قبولها، وتميزه عن اللفظ (قال) الذي لا يمكن أن يسد مكانه في هذا السياق؛ علما أن اللفظين من ألفاظ القول. وقد جمع جناس الاشتقاق في الآية بين: لفظ (يَتْلُونَهُ) ولفظ (تِلَاوَتِهِ)، وهو من البلاغة البديعية.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ ﴿يونس:16﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين في بيان هذه الآية أن: "يخاطب سيدنا محمد ﷺ قومه قائلا لهم: لم أكن قد تلوت عليكم هذا القرآن، أيها الناس، من قبل لأنه لم يكن ينزل عليّ وأكلف بتلاوته عليكم، فقد مكثت فيكم أربعين سنة من قبل أن يوحيه إليّ ربي ﴿أفلا تعقلون﴾، أني لو كنت منتحلا ما ليس لي من القول، كنت قد انتحلته في أيّام شبابي وحداثتي، وقبل الوقت الذي تلوته عليكم؟ ولو حصل ذلك لكنتم محقين في معاداتي، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ فَتَلَوْتُ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ، وَلَا أَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَلَا أَخْبَرَكُمْ بِهِ على لساني، لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْلَمَكُمْ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ

---

1 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص96.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص696.

أَتْلُوَهُ عَلَيْكُمْ، ومِنْ قَبْلِ القُرْآنِ تَعْرِفُونَنِي بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ، لَا أَقْرَأُ ولَا أَكْتُبُ، ثُمَّ جِئْتُكُمْ بالمعجزة أعلمكم إياها، من غير سابق عهد بقول الخطب والأشعار، أو مجالسة العلماء ثم قرأت عليكم هذا الكتاب المعجز وتلوته عليكم بأمر من الله"[1]، "وَتِلَاوَتُهُ هِيَ دَلِيلُ الرِّسَالَةِ لِأَنَّ تِلَاوَتَهُ تَتَضَمَّنُ إعجازه علميا، إِذْ جَاءَ بِهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَبَلَاغِيًّا إِذْ جَاءَ كَلَامًا أَعْجَزَ أَهْلَ اللُّغَةِ كُلَّهُمْ مَعَ تَضَافُرِهِمْ فِي بَلَاغَتِهِمْ وَتَفَاوُتِ مَرَاتِبِهِم، فَمَا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ دَلِيلًا عَلَى ا لْمُشْركين وإبطالا لادِّعَائِهِمْ إِلَّا لِمَا بُنِيَ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَلِكَلِمَةِ تَلَوْتُهُ هُنَا مِنَ الْوَقْعِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهَا لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ تَالِيًا كَلَامًا، وَمَتْلُوًّا، وَبَاعِثًا بِذَلِكَ الْمَتْلُو"[2].

البعد البلاغي: إذن فان لفظ (تلا) فن من فنون القول، أفاد مفهوما خاصا تضمن النقاط التي أشير إليها سابقا، بحيث لا يمكن لأي لفظ آخر أن يقوم مقامه في هذا السياق؛ فلو جيء بلفظ (قال) فانه لا يقطع يقينا بأن القول من أحد غير القائل، ولا يتضمن معنى الإتباع والارتسام لخطى سابقين له، ولا يحمل في طياته دليل الكيفية التي على القائل أن يتقنها، وكذلك لفظ (قرأ) فان له دلالات خاصة به، مذكورة في بابه، لا تستقيم في هذا السياق.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿العنكبوت: 48﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أن لو كنت يا محمد (تَتْلُو) أي: تقرأ الكتب من قبل أن يُوحَى إليك هذا الكتاب الذي أنزله إليك أو كنت تكتب بيدك لشكَّ أهل مكة في أمرك، وبما جئتهم به من عند الله من هذا الكتاب الذي تتلوه عليهم، ويقولون إنه قرأ الكتب من قبل أن يتلوه عليهم وأخذ

---

1 الطبري، جامع البيان، ج15، ص41-42، القرطبي، الجامع لأحكام القــرآن، ج8، ص320، البيــضاوي، أنوار التنزيل،ج3، ص107، ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج11، ص119-121.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص120-121.

منها، وقد كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن النبيّ ﷺ لا يخطّ بيمينه، ولا يقرأ كتابا، فنزلت الآية، وهَذَا دليل على صفة الأمية الْمَعْرُوف بِهَا الرَّسُولُ ﷺ وَدَلَالَتُهَا عَلَى أَنَّهُ مُوحًى؛ فَالْمَقْصُودُ نَفْيُ حَالَتَيِ التَّعَلُّمِ، وَهُمَا التَّعَلُّمُ بِالْقِرَاءَةِ وَالتَّعَلُّمُ بِالْكِتَابَةِ اسْتِقْصَاءً فِي تَحْقِيقِ وَصْفِ الْأُمِّيَّةِ"[1] .

البعد البلاغي: إذن تبين أن (التلاوة) المنفي تحققها عند رسول الله ﷺ هي (القراءة) وكذلك نظيرتها الكتابة، مما يثبت له صفة النبوة، ولفظ (التلاوة) تعني نوعا مخصوصا من أنواع القراءة وبالتالي؛ فإن القراءة حالة من حالات (القول)؛ لأننا نتلفظ به، ولكن لو جيء بلفظ (القول) أو أحد مشتقاته في هذا السياق فإنه لا يعطي المدلول المراد إيصاله للسامع نفسه؛ ولا يدلنا لفظ (القول) على نوع التهمة الموجهة لرسول الله ﷺ أنه يترسم خطى السابقين ويردد أقوالهم التي قرأها في كتبهم السابقة، ولن يكون هناك أي لفظ آخر يوضح لنا أن مفهوم التلاوة محصور- في الغالب- على الكتب السماوية؛ بدليل ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ ﴿العنكبوت: 48﴾ فالهاء هنا عائدة على القرآن الكريم الذي أنت بصدد تلاوته الآن، كما كنت تتلو قبل ذلك من كتب سماوية مشابهة، وهي التهمة التي رمي بها رسول الله ﷺ حاشاه ذلك- ذلك لأن اللفظ (تلو) كما تبين مختص -على الغالب- في (إتباع) الكتب المنزلة دون غيرها، تارة بالقراءة وتارة بالارتسام"[2]، والتلاوة أخص من القول ومن القراءة أيضاً، فكل تلاوة قراءة وقول، ولكن ليس كل قول تلاوة ولا كل قراءة كذلك، بدليل أننا نقول: "قال الله تعالى"، ونقول: "قرأت كتابك" ولا نقول: "تلوت كتابك"، وخلاف المبطلين كان حول القرآن الكريم، وتلاوته، وأمية الرسول ﷺ وليس لعامة أقواله. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ

---

1 السمرقندي، بحر العلوم،ج2، ص637، الطبري، جامع البيان، ت شاكر،ج20، ص50-51، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص10-11.

2 الأصفهاني، المفردات، ص176.

كِتَاب﴾ جملة إنشائية، تفيد النفي، أنشئت للرد على مزاعم المشككين في نزول القرآن الكريم، وصدق رسالته ﷺ، "ومن البلاغة البديعية فإن في رؤوس الآي مع ما يليها من آيات ما يسمى بتوافق الفواصل"[1].

*****

2- (رتل) في المعاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم العربية حول مادة: "رتل ورَتَلٌ: الترتيب وحُسْنُ التنسيق في كل شيءٍ. ومنه ثَغْرٌ رتل أبيض كثير الماء حَسَنُ التَّنْضِيدِ، ومُرَتَّلٌ: مُفَلَّجٌ بينَ أسنانِه فُرُوجٌ، فتباعدت فلا يَرْكَبُ بعضُها بعضاً. ومِنْه كَلَام رَتِلٌ ورَتَل: إِذا كَانَ مُرَتَّلاً وهي من المجاز. ومنه التَّرتِيل فِي القِرَاءة وهُوَ تباعُدُ مَا بَين الأحْرُف، والتَّمهل، وحسن التأليف، والإبانة والترسل، بِفَصلِ بعضه عن بعض بغير بغيٍ ولا إفراط، وترتيلُ القرآن منه: إذا ترسَّل في تلاوته وأحسن تأليف حروفه بترتيل بعضها على إثر بعض بالتبيين والتمكين والتحسين على تُؤدَة، والتبيين لا يتم بأن يَعْجَل في القراءة وإنما يتم التبيين بأن يُبَيِّن جميع الحروف ويُوفِّيها حقها من الإشباع ونبذ الحروف حرفاً حرفاً، وفي صفة قراءة النبي ﷺ كان يُرَتِّل آيةً آية. وتبيين الحروف والحركات تشبيهاً بالثغر المُرَتَّلِ وهو المُشَبَّه بنَوْر الأُقْحُوان يقال رَتَّلَ القراءة وتَرَتَّل فيها، وقوله عز وجل: ﴿ورَتَّلْناه ترتيلاً﴾ ﴿الفرقان:32﴾ أي: أنزلناه على الترتيل وهو ضد العجلة والتمكُّث فيه"[2]،

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 468.

2 الفراهيدي، العين، باب التاء والراء والنون معهما ر ت ن، ابن فارس، مجمل اللغة، باب الراء والتاء وما يثلثهما، ابن سيده، المحكم، التاء والراء واللام، ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: 458هـ)

المخصص، المحقق: خليل إبراهيم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، 1417هـ 1996م، باب أعراض الأسنان من قبل نبتتها، الزمخشري، أساس البلاغة، (ر ت و)، الرازي، مختار الصحاح، باب الراء، ابن منظور، اللسان، ط دار المعارف ، باب اللام فصل الراء المهملة، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج1،

وقَالَ الرَّاغِبُ: "التَّرْتِيلُ: إرْسَالُ الكلمةِ من الفَمِ بِسُهُولَةٍ واستِقامَةٍ"[1]، وهو المَعنى اللُّغَوِيُّ، "وعُرْفاً: رِعايَةُ مَخارِجِ الحُرُوفِ، وحِفْظُ الوُقوفِ، وَهُوَ خَفْضُ الصَّوْتِ والتَّحَزُّنُ بالقراءَةِ، رتَّل القارئُ القُرآنَ: جوَّد تلاوتَه وتأنَّق فيها ولم يعجل"[2]، "والمُصحف المُرتَّل: القُرآن المجوَّد بدون تغنٍّ أو تلحين"[3]، "والرَّتَلُ: الطَّيِّبُ من كُلِّ شيءٍ"[4].

(رتل) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ: (رتل) مع اشتقاقاته في القرآن الكريم في آيتين مع تكرار الاشتقاق فيهما)[5]، ولم يخرجا في معانيهما عن معنى (القراءة) المقصود من الدراسة، وهما:

(1)- قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿الفرقان:32﴾.

التفسير: جاء: "أنّ القرآن كان ينزل على سيدنا محمد ﷺ آية وآيتين وآيات جوابا من الله لمن يسأل عن شيء وردّا عنه فيما يتكلمون به، فإذا عَلِمَها وعَلَّمَها نزلت آية أخرى ليعلمه الكتاب عن ظهر قلب، ويثبت به فؤاده، وشيئا بعد شيء حتى يحفظه، فكان هذا الترتيل في التنزيل شيئا بعد شيء، أي: بعضه على أثر بعض. والقراءة شيئ بعد شيء، وهو الترسل والتثبت، والتبيين والتفسير على تؤدة وتمهل في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين"[6].

ص1003، الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، ج29، ص32-33.

1 الراغب الأصفهاني، المفردات، ص341.

2 الزبيدي، تاج العروس، ج29، ص33.

3 أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ر ت ل.

4 الزبيدي، تاج العروس، ج29، ص33.

5 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص300.

6 الطبري، جامع البيان،ج19، ص265-266، الباب 32، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص537، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص28-29، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص123 .

البعد البلاغي: إذن فالترتيل كما تبين فن من فنون (القول)؛ استخدم مجازا ليدل على مزايا أعطيها القرآن الكريم دون سواه من الكتب هي: ميزة التنجيم في التنزيل خلافا للكتب السماوية التي كانت تنزل مرة واحدة على أصحابها، وميزة القراءة بالترتيل الصفة المتممة لصحة القراءة، وهذا ما دل عليه اللفظ في السياق القرآني ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، حتى أصبحت هذه المزايا صفات ملازمة له كأنها على الحقيقة، والقرآن الكريم هو قول الله ﷻ، ونحن بتعبدنا نقرأ هذا القول ونردده، ولكن هل لفظ (قال) أو(قرأ) أو أحد مشتقاتهما المتعددة تسد مسد لفظ (رتل) في السياق نفسه؟ وهل تُبين لنا الكيفية التي أنزل بها القرآن الكريم ؟ فقد أكد ﷻ في الآية نفسها أنه أنزل القرآن مرتلا بقوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي نزلناه على مكث آية اثر آية _فهل جملة : (قلناه قولا)_مثلا _ لها علاقة بالمفهوم المراد إيصاله للمتلقي؟ وهل لفظ (قال) يبين الكيفية التي علينا أن نقرأ بها؟ والشروط التي على القارئ بحق أن يتمتع بها؟.

الإجابات على مثل هذه الأسئلة واضحة، لأنّ الذي أنزل القرآن هو أعلم بمراده، وأعلم بالمعاني التي يريد أن يُتعبدُ بها ﷻ، فقد أخبر باللفظ الذي يحمل المعنى ولا يختلط بمعنى غيره. مترفعا عن شبهتي التكرار والترادف. وقد مثّل حسن حبنكة في كتابه (البلاغة العربية) هذه الآية مثالا من أربعة أمثلة على ظاهرة التنويع في أساليب الأداء البيانيّ في القرآن؛ من منهج البيان القرآني في التنويع والتكامل) على النحو التالي[1]: "اعتَرَضَ الْمُشْرِكُونَ عَلى إِنْزَالِ القرآن مُنَجَّماً، وطَالَبُوا بِتَحْضِيضٍ أَنْ يُنَزَّلَ جُمْلَةً واحِدَة. أي: ما الداعي إلى تنزيله مُفَرّقاً مُنَجّماً؟ إنَّ هذا الأسْلُوبَ التَّنْجيميَّ يَدْعُو إِلَى الشَّكِّ في أنّه كلامُ الله، أَلَيْسَ اللَّهُ عليماً بكلّ شيء، قديراً على أَنْ يُنَزِّلَ القُرآن كلَّه في وقْتٍ وَاحِدٍ؟! فجاء الرّدّ القرآنيُّ مُبَيِّناً ثَلاثَ حِكَمٍ لتَنْزِيلِه مُفرقاً مُنَجّماً، ولكِنَّ بيان هذهِ الْحِكَم جاءَ مُنَوَّعاً بأساليبَ مُخْتَلِفة، قَدْ لاَ يَلْتَقِطُ منها التّالي للنصِّ إلاَّ الْحِكْمَةَ

---

1 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص 322.

الأولى، لأنّ الحكمتَيْنِ الأخْرَيَيْنِ جاءتا بأسلوبٍ آخر. فالحكمة الأُولى: نُدْرِكُها في قول الله عزّ وجلّ خطاباً للرّسول ﷺ: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وتثبيتُ الفُؤادِ يكون بما يُورِثُهُ السُّكُونَ والطُّمأنينَةَ تُجاهَ مَا يُمكنُ أن يَهُزَّهُ ويُقْلِقَهُ ويُزْعِجَهُ مِنْ أحداثٍ يوميَّةٍ غيرِ سارّة. وقد كان الرسولُ ﷺ يتَعَرَّضُ منْ قِبَلِ كُفّارِ قَوْمِه لأحْداثٍ كثيرةٍ غير سارّةٍ تُقْلِقُ وتُزْعِجُ أفْئِدَةَ عظماءِ الرجال. فإذا وجَدَ نفسَه على صلةٍ بالْوَحْيِ من آنٍ لآخر بصُورةٍ متكرِّرة، لمْ تُزْعِجْهُ ولمْ تُقْلِقْه الأحداثُ، إذْ يشْعُرُ حِسّيّاً بأنّ الرّبّ الجليلَ الذي أرسلَهُ وأنزل عليه جبْريلَ بالْوَحي، لم يَتْرُكْهُ لِنَفْسِه يُؤدّي وظائفَ رِسَالته، بل هو على صِلَةٍ به، يُنَزِّلُ عليه الآيَاتِ القرآنيّة تِباعاً، ويُعالِجُ الأحداثَ التي يتعرَّضُ لها تِبَاعاً، ويُقَدِّمُ لَهُ الوصايَا والتعليمات الهاديات له في مسيرته، وهو يقوم بوظائف رسالته، ويَشْعُر أيضاً بأنّه مدعومٌ بقُوَّةٍ عظيمةٍ من الغيب، تتابعُهُ في كُلِّ صغيرةٍ وكبيرة. فلهذا الأمر شأنٌ عظيمٌ جدّاً في تثبيتِ فؤاده، ليقوم بجلائل الأمُور، ضِمْنَ قَوْمٍ يَخْشَى أنْ يتألّبُوا عليْه، ويَمْنَعُوهُ منْ مُتَابعةِ وَظائِفِ رِسَالَتِه بالقُوَّة"[1].

"والْحِكْمَةُ الثّانية: نُدْرِكُها في قول الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿الفرقان: 32﴾، هذه الحكمةُ جاءتْ بأسلوبٍ مخالفٍ لأسلوبِ عَرْضِ الحكْمَةِ الأولى، الأمْر الذي قد يجعل تاليَ النص لا يُدْرِك أنّ النصّ يُتابعُ بيانيَ الْحِكَمِ منْ تنزيل القرآن مُنَجّماً. التَّرْتيل: هُو التَّمَهُّلُ والتَّأنّي في الكلام، والتَّبْيينُ له، للتَّمكينِ والتحقيق، وبناءِ الْمَعْرِفَةِ في المتَلَقّين بناءً تَكَامُليّاً، وذلك لا يحصُل بإنزاله جملةً واحدةً، بل يحصلُ بإنْزاله في دروسٍ تعليميّة قِسْماً بَعْد قِسْم، مع الاستفادة من الأحداث والمناسبات والحكمة الثالثة: نُدْرِكُهَا من قول الله ﷻ في النصّ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿الفرقان: 33﴾، الخطاب هنا مُوجّه للرسول لِيَسْمَعَ أصحابُ الاعتراض

1 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص 328-329.

على تنزيله مُفرّقاً، والمعنى أنّ من حكَمِ تنزيل القرآن مُنجّماً مُتابَعةَ جَدَليّاتِ الذين كَفرُوا فيما يُقدّمونَه من أمثِلَةٍ يصطَنِعُونها بآرائهم، ويقترحونها، ويَرَوْنَ أنّها هيَ الصُوَرَ الأفضَل الّتي ينبَغِي أنْ يكون عليها حالُ الرسُولِ، أو حالُ القرآن، أو حالُ أحكام الشريعةِ والمنهاج"[1]، وجاءت جملة ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ جملة خبرية مؤكدة بالمفعول المطلق (تَرْتِيلًا)، ومن حيث البلاغة البديعية فقد جاء اللفظ من باب: "جناس الاشتقاق مع اللفظ التالي له، ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾"[2].

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ ﴿المزمل:4﴾.

التفسير: قال عدد من المفسرين في هذه الآية: "أنْ ترسل في قراءة القرآن واقْرأه حرفاً حرفاً وارتع بسرك في فهمه، وتأنّ بلسانك في قراءته ولَا تَعْجَلْ بَلِ اقْرَأْهُ فِي مَهَلٍ وَبَيَانٍ مَعَ تَدَبُّرِ الْمَعَانِي، تَدَبَّرْ فِي لَطَائِفِ خِطَابِهِ، وَطَالِبْ نَفْسَكَ بِالْقِيَامِ بِأَحكَامِهِ، وَقَلْبَكَ بِفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَسِرَّكَ بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ اقرأه على تؤدة وتبيين حروفه بحيث يتمكن السامع من عدها وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "يُؤْتَى بِقَارِئِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ فِي أَوَّلِ دَرَجِ الْجَنَّةِ وَيُقَالُ لَهُ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا" خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ. وَرَوَى أَنَسٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمُدُّ صوته بالقراءة مدا"[3]

البعد البلاغي: إذن فنحن مأمورون بقراءة القرآن العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وأن أتلو القرآن﴾ ﴿النمل: 92﴾، وهذه القراءة لفظ و(قول)؛ ولكنها تتماز عن غيرها من القراءة بقدر ما يحمل اللفظ (رتل) من شروط وأحكام؛ علما بأنه من ألفاظ (القول) ولكن لو استبدل بلفظ (قال)

---

1 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص 329- 331.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 413.

3 السمرقندي، بحر العلوم،ج3، ص509، القشيري، لطائف الإشارات، ج4، ص642، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص31، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص255.

أو أي لفظ من ألفاظ (القول) في هذا السياق فهل يشير إلى نفس الدلالات والشروط والأحكام التي أشاعها اللفظ (رتل)؟!، في تقدير الباحثة أن الإجابة متضمنة في طي السؤال.

وجاءت جملة: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى الأمر على وجهه الحقيقي؛ لصدوره من الأعلى إلى الأدنى.

"ومن حيث البلاغة البديعية فقد جاء بين لفظ: (وَرَتِّلِ) و (تَرْتِيلًا) جناس الاشتقاق"[1].

*****

3- (قرأ) في المعاجم العربية :

جاء في عدد من المعاجم العربية حول مادة (قرأ) ما يلي: "الْقَاف وَالرَّاء والهمزة (قرء) من قرأ وهو الجمع بين زمن الطهر وزمن الحيض، ثم أصبح يطلق على كل حال منهما منفردة، فأصبح من الأضداد، والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، ولا يقال لكل جمع، لكنه مختص بالقُرآن: أي: التَّنْزِيل، وقَرَأْتُ القرآن عن ظهر قلْبٍ أو نظرت فيه، وقَرَأَ فلان قِراءةً حسنة، وقرأت الكتاب قراءة وقرآنا، ومنه سمّي القرآن لأنه يجمع السُّوَرَ فيضمها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾﴿القيامة: 17﴾ أي جمعه وقراءته، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿القيامة: 18﴾، أي قراءته. وفلان قرأ عليك السلام وأقراك السلامَ، بمعنًى. (وأقرأه القرآن فهو مُقْرِئٌ، المهموز) قرأ القرآن: هو أن يخرج القارئ من آية إلى آية. وقَرَأَ ﷺ يَقْرَؤُهُ عَلَيْهِ، وأقرأه إيّاه: أبلغه"[2].

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 431.

2 الفراهيدي، العين، باب القاف والراء و(و ا ي ء) معهما (ق ر)، الرازي، الصحاح، (قرأ)، ابن فارس، مجمل اللغة، باب القاف والراء وما يثلثهما، ابن سيده، المحكم، القاف والراء والهمزة، الأصفهاني، المفردات، ص668، ابن منظور، اللسان، فصل الهمزة، حرف القاف .

(قرأ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ: (قرأ) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثمانياً وثمانين مرة)[1]، مرة واحدة تدل على الحيض والطهر، وثمانياً وستين تدل على القرآن الكريم واشتقاقاته بمجموع سوره، والباقي جاء بمعنى القول والقراءة، وهو ما يعنينا في الدراسة، مثل:

(1)- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿النحل: 98﴾، حيث ورد اللفظ باشتقاقين هما: (قرأت)، و (القرآن)، ذكر العلماء إنّه: "يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: إذا كنت يا محمد قارئًا القرآن، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. من جمله الأعمال الصالحة المندوبة التي يجزل الله عليها الثواب. وقراءة القرآن هي التلفظ والترديد لأقوال الله تعالى المحفوظة بين دفتي القرآن والمضمومة بعضها إلى بعض، قراءة عن ظهر قلب أو عن طريق النظر"[2].

البعد البلاغي: القراءة هذه نطق وقول، وجيء بلفظ (قرأت) ليدل على وجود قول مكتوب محفوظ ونحن بقراءتنا له نردد هذا المكتوب أو المحفوظ سواء القرآن الكريم، أو غيره من الكتب، لبيان أننا نعيد ما حفظ وجمع من أقوال غيرنا، ولفظ (قرأت) بهذا المفهوم أصبح فنا من فنون (القول)، ولكن هل لفظ (قال) يسد مكانه في هذا السياق ويعطينا نفس المفهوم للفظ (قرأ)؟ وفي (قَرَأْتَ) مجاز مرسل علاقته "المسببية"؛ إذ إن المراد: "إذا أردت القراءة" فالقراءة مسببة عن الإرادة, والقرينة قوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فإن الاستعاذة إنما تكون قبل القراءة، لا

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص539-540.

2 الطبري، جامع البيان، ج17، ص293-294، الزمخشري، الكشاف،ج2، ص633-634، البيضاوي، أنوار التنزيل ج3، ص240، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط،ج6، ص593، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5، ص139، الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، 1415 هـ، ج7، ص464، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص275 .

بعدها"[1] "والمجاز المرسل هو: الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وعلاقات المجاز المرسل على أنواع شتى؛ منها: السببية، والمسببية، والمحلية، والكلية، والجزئية، واللازمية، والملزومية، والحالية، والمحلية، والآلية، واعتبار ما كان، واعتبار ما يكون، وغيرها"[2]، وجاء لفظ (قَرَأْتَ) في الجملة: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ جملة فعل الشرط في سياق الجملة الخبرية الشرطية من أداة الشرط غير الجازمة (إذا)، وجاءت جملة (فَاسْتَعِذْ) جملة جواب الشرط، "كما أن في الآية من البلاغة البديعية ما يمثل جناس الاشتقاق حيث اللفظين: (قَرَأْتَ) و (الْقُرْآنَ)" [3].

(2)- وقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿طه:114﴾.

التفسير: جاء في هذه الآية: "أنّ الله ﷻ يقول لنبيه محمد ﷺ معاتبا: لا تعجل يا محمد بالقرآن، فتقرئه أصحابك، أو تقرأه عليهم، من قبل أن يوحى إليك بيان معانيه، وقيل: لا تتله على أحد، ولا تمله عليه حتى نبينه لك. وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن، فتأنّ عليه ريثما يسمعك ويفهمك ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته"[4].

البعد البلاغي: من كل ما تقدم من استخدام العلماء لألفاظ مثل: قراءة، بيان، توضيح، إملاء، تشير إلى وجود نص تنطبق عليه هذه الدلالات والإشارات، وهذا النص هو القرآن الكريم، وهو بالطبع يحتاج للقراءة، وهذه القراءة هي تلفظ به، وبالتالي فان هذا التلفظ التعبدي

---

1 عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، ج3، ص 308- 309.

2 عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، ج3، ص 294.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 406.

4 الطبري، جامع البيان ،ج18، ص382، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص90، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص250، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص40، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص387.

هو ترديد لأقوال الله ﷻ، فنستدل بذلك أن لفظ القرآن الكريم هو من فنون ألفاظ (القول)؛ ولكن هل لفظ (القول) تحديدا يسد مسد لفظ (القرآن) في هذا السياق، أو في كل سياق استخدم فيه اللفظ؟ وهل تعطي هذه المساحة من التقديس والمهابة والتعظيم والخصوصية، وهذه الطاقة من المعاني مع الإيجاز؟ بالطبع فإنّ هذه المعاني لا تتحقق إلا مع ذكر القرآن الكريم، وتوظيف لفظه في السياق الدّال. وجاءت جملة: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى النهي عن القيام بهذا العمل لحين تحقق المقصود؛ وهو تمام فهمه وحفظه، وكانت هذه الجملة إنشائية تعليمية للرسول ﷺ بما يجب أن يكون عليه حين تلقي القرآن الكريم من جبريل عليه السلام.

(3)- وقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿العلق:1﴾.

التفسير: جاء في تفسير هذه الآية: "أن اقرأ يا محمد بذكر ربك ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أي اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ القرآن مفتتحاً باسمه ﷻ، أو مستعيناً به و(اقرأ) مَا يوحَى إليكَ فإنّ الأمرَ بالقراءةِ يقتَضي المقروءَ قطعاً وحيثُ لَمْ يُعينَ وجبَ أنْ يكونَ ذلكَ ما يتصلُ بالأمرِ حتماً سواءً كانتِ السورةُ أولَ ما نزلَ أولاً أو غير ذلك، والأقربُ اقرَأْ ما يوحى إليك من القرآن، فالمفعول مقدّر بقرينة المقام، المعنى اقْرَأْ مبتدئا أو مفتتحا بِاسْمِ رَبِّكَ أي: قل: باسم الله ثم اقرأ، "والمقصود تَلْقِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ الْكَلَامَ الْقُرْآنِيَّ وَتِلَاوَتَهُ إِذْ كَانَ لَا يَعْرِفُ التِّلَاوَةَ مِنْ قَبْلُ. وَالْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّ عِلْمَهُ بِذَلِكَ مُيَسَّرٌ لِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي أَلْهَمَ الْبَشَرَ الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ قَادِرٌ عَلَى تَعْلِيمِ مَنْ يَشَاءُ ابْتِدَاءً.وَإِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَصِيرُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْعِلْمِ. وَافْتِتَاحُ السُّورَةِ بِكَلِمَةِ اقْرَأْ إِيذَانٌ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيَكُونُ قَارِئًا، أَيْ تَالِيًا كِتَابًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَلَا كِتَابًا دليل ما مر سابقا قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ ﴿العنكبوت:48﴾، أَيْ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِي ﷺ لِجِبْرِيلَ حِينَ قَالَ لَهُ

اقْرَأْ: "مَا أَنَا بِقَارِئٍ" وَفِي هَذَا الِافْتِتَاحِ بَرَاعَةُ اسْتِهْلَالٍ لِلْقُرْآنِ"[1]، "وَقَوْلُهُ تَعَالَى:(اقْرَأْ) أَمْرٌ بِالْقِرَاءَةِ، وَالْقِرَاءَةُ نُطْقٌ بِكَلَامٍ مُعَيَّنٍ مَكْتُوبٍ أَوْ مَحْفُوظٍ عَلَى ظَهْرِ قَلْبٍ"[2]، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿النَّحْلِ :98﴾، "وَالْأَمْرُ بِالْقِرَاءَةِ مُسْتَعْمَلٌ فِي حَقِيقَتِهِ مِنَ الطَّلَبِ لِتَحْصِيلِ فِعْلٍ فِي الْحَالِ أَوِ الِاسْتِقْبَالِ، فَالْمَطْلُوبُ بِقَوْلِهِ: اقْرَأْ أَنْ يَفْعَلَ الْقِرَاءَةَ فِي الْحَالِ أَوِ الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ مِنَ الْحَالِ، أَيْ أَنْ يَقُولَ مَا سَيُمْلَى عَلَيْهِ، وَالْقَرِينَةُ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ بِقِرَاءَةٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ إِمْلَاءُ كَلَامٍ عَلَيْهِ مَحْفُوظٍ فَتُطْلَبَ مِنْهُ قِرَاءَتُهُ، وَلَا سُلِّمَتْ إِلَيْهِ صَحِيفَةٌ فَتُطْلَبَ مِنْهُ قِرَاءَتُهَا"[3].

البعد البلاغي: فالقراءة إذن إعادة لأقوال قد قيلت سابقا، أو تملى علينا الآن، وبالتالي فهي نموذج آخر من فنون ألفاظ (القول) ولكن هل بإمكاننا أن نستبدل بها في هذا النص بلفظ (قل)؟ أو أي لفظ آخر نظن به القيام بالمعنى المطلوب؟. وما هي المعاني الجديدة التي سيضفيها البديل الجديد على النص؟ أو ما هي المعاني العظيمة التي سوف يغيبها البديل المطروح عن النص القرآني؟ ومن حيث البلاغة في المعاني فقد جاءت الآية ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ مثالا على الأمر على وجهه الحقيقي بصدوره من الأعلى إلى الأدنى، من الجملة الإنشائية.

مما تقدم تبين أنّه لكل لفظ من "ألفاظ القول الدالة على القراءة" في القرآن الكريم معنى وخصوصية في النص الذي وردت فيه لا يمكن استبداله بغيره من ألفاظ الحقل الدلالي، وذلك

---

1 الطبري، جامع البيان، ج24، ص519، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص325، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج9، ص177، الألوسي، روح المعاني، ج15، ص400، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص434-435 .

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص434.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص434.

للمعنى الذي يحمله كل لفظ بما يناسب السياق الذي ورد فيه، والدلالات التي يشير إليها، وان كان في الظاهر العام أنه بديل مقبول.

ثمّ إنّ الألفاظ التي استشهدت بها الدراسة من خلال الآيات القرآنية بينت أنّ: (تلا) غير (رتل) وهذا غير (قرأ) وهذا الأخير لا يمكن أن يحل بديلا عن الأول، وجاءت هذه الخلاصة بتأييد من المعاجم العربية لكل لفظ استخدم في الدراسة، فـ(الترتيل) أخص الثلاثة، حيث كل (ترتيل) (قراءة) وليس العكس، وكل (ترتيل) (تلاوة) وليس العكس أيضا، وأصبح (الترتيل) مجازا سمة ملازمة للقراءة المحققة لشروط الصحة والسلامة والتنضيد والتحسين للنصوص السماوية المنزلة، واختص بالقرآن الكريم تحديدا، أمّا (القراءة) فلفظ يطلق على عموم القراءة للنصوص كلها؛ سواء منها المكتوبة أو المحفوظة عن ظهر قلب، إلا إذا كانت تقيد بمخصص، أو أضيف إلى ما يعرفه، بحسب السياق الذي يرد فيه، كالآية الأخيرة مثلا في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿العلق: 1﴾، فليس في (القراءة) دليل على كيفيتها أو مدى التزام القارئ بشروط لتصح، المهم – في الظاهر– حصول مهارة القراءة ابتداء؛ بهدف إعلام الرسول ﷺ بقيمة القراءة، وأهميتها، ومنها تتفرع العلوم الأخرى، أما (التلاوة) فهي بين البينين، حيث هي أخص من (القراءة)، وأعم من (الترتيل) فقد نعيد تلاوة النص القرآني، أو نتلو نصا أدبيا ما، وقد يكون التالي على إلمام بسيط بشروط صحة النطق والتحسين والترتيب، وكثيرا ما يكون متحللا منها لكنه لا يمنع أن يكون تاليا لنص ما، على غير المرجو من (المرتل) .

وبهذا يكون المبحث الثاني من مباحث (ألفاظ القول) "الألفاظ الدالة على القراءة" قد تم بحثه دلاليا وبلاغيا، بحمد الله ,,,

المبحث الثالث

ألفاظ القول الدالة على "نقل المعلومة بالعلن بقصد النشر" وبيان معانيها وأساليبها البلاغية

سأتناول في هذا المبحث ألفاظ القول الدالة على "نقل المعلومة بالعلن بقصد النشر"، وأبين معانيها اللغوية، ثمّ البحث عن مواطنها في القرآن الكريم ودلالاتها في السياقات التي وردت فيها، لمعرفة مقاصدها ومدى توافقها تحت هذا المبحث، ثمّ معرفة صورها البلاغية، والأساليب التي وردت فيها من بعض المراجع والكتب ذات الاختصاص. وعدد ورودها في القرآن الكريم؛ بالمعنى المقصود من الدراسة. وعدد هذه الألفاظ اثنا عشر لفظا، هي: (أذن، بدا، بلغ، خبر، خوض، ذاع، شيع، عرف، علن، علم، نبأ، نشر).

*****

(1)- (أذن) في المعاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم العربية حول مادة: (أَذَنَ): الْهَمْزَةُ وَالذَّالُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى، مُتَبَاعِدَانِ فِي اللَّفْظِ، أَحَدُهُمَا أُذُنُ كُلِّ ذِي أُذُنٍ، فَالْأُذُنُ مَعْرُوفَةٌ الجارحة وهي مؤنثة، ويستعار لمن كثر استماعه وقبوله لما يسمع، وَالأصل الْآخَرُ الْعِلْمُ والإعلام، وَعَنْهُمَا يَتَفَرَّعُ الْبَابُ كُلُّهُ. فَأَمَّا التَّقَارُبُ فَبِالْأُذُنِ يَقَعُ عِلْمُ كُلِّ مَسْمُوعٍ. تَقُولُ الْعَرَبُ قَدْ أَذِنْتُ بِهَذَا الْأَمْرِ، أَيْ: عَلِمْتُ. وآذَنَنِي فُلَانٌ أَعْلَمَنِي وحدثني. وَفَعَلَهُ بِإِذْنِي، أَيْ: بِعِلْمِي، وَيَجُوزُ بِأَمْرِي، إلا أنّ بين العلم والإذن فرقاً، فان الإذن أخص، ولا يكاد يستعمل إلا فيما فيه مشيئة ما، وَمِنَ الْبَابِ الْأَذَانُ، والأَذانُ: اسمٌ يَقُومُ مقامَ الإِيذانِ، وهو الإعْلام. وأَذانُ الصلاة معروف. وَهُوَ اسْمُ التَّأْذِينِ، وَهُوَ الْمَصْدَرُ الْحَقِيقِيُّ. والمؤذن: كل من يعلم بشيءٍ نداءً، وَيُقَالُ: أَذَّنْتُ: أَكْثَرْتُ الإعْلامَ بِالشَّيْءِ. وتأذن بالشر

إذا تقدم فيه وحذره وأنذر به. وإذا نادى منادي السلطان بشيء. أذن له، أَذِنَ بِالشَّيْءِ إِذْناً إِيذَاناً وإِذْناً إِذَا أَعْلَمْتَه، وأَذِنَ بِهِ إِذْناً: عَلِمَ بِهِ، وآذَنه بِهِ: أَعْلَمَه"[1].

(أذن) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (أذن) واشتقاقاته في القرآن الكريم مائة وثلاث مرات)[2]، ثماني عشرة مرة منها تدل على الجارحة المعروفة، والباقي يدل على القول والعلم والإعلام، وهو جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿براءة:3﴾.

التفسير: ذكر عدد من المفسرين في معنى الـ "أَذَانٌ" – في هذه الآية– بأنه: "إعلامٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر. (والأذان): بمعنى الإيذان وهو الإعلام لغة من غير خلاف، وَجُمْلَةُ ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إِخْبَارٌ بِوُجُوبِ الْإِعْلَامِ بِمَا ثَبَتَ، فإن كان قد عقد البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس، لأنّ البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأمّا الأذان فعام لجميع الناس كافة غيرُ مختصٍ بقوم دون آخرين، وَالْأَذَانُ اسْمُ مَصْدَرِ آذَنَهُ، إِذَا أَعْلَمَهُ فَهُوَ بِمَعْنَى الْإِيذَانِ، وَإِضَافَةُ الْأَذَانِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ دُونَ الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّهُ

---

1 الفراهيدي، العين، باب الذال والنون و (و ا ي ء) معهما (ذ ن)، الجوهري، الصحاح، (ذ ن)، ابـن فـارس، مقاييس اللغة، باب الهمزة والذال وما معهما في الثلاثي، الأصفهاني، المفردات، ص70-71، الزمخشري، أساس البلاغة ،ج1، ص23، ابن منظور، اللسان ، حرف النون، فصل الألف.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص25-26.

تَشْرِيعٌ وَحُكْمٌ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ ﷻعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ وَهَذَا أَمْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يَأْذَنُوا الْمُشْرِكِينَ بِهَذِهِ الْبَرَاءَةِ، لِئَلَّا يَكُونُوا غَادِرِينَ"[1].

البعد البلاغي: يتبين مما سبق أنّ (الأذان) هو التصريح بقول قد يكون محدد الألفاظ مثل أذان الصلاة المعروف، أو إعلام بكلمات معروفة واضحة المعاني والمقاصد وإظهارها في أماكن عامة بقصد إسماع أكبر عدد ممكن من الناس؛ لنشر خبر ما وتعميمه، وهذا الإجراء هو في حقيقته إعلام وإفصاح بكلمات و(أقوال) يتلفظ بها (المؤذن) أو من هو في حكمه ليعلم الناس بالخبر نداء ليحقق الغاية، وما يمتاز به هذا الإجراء عن عامة الأقوال هو طريقة الأداء؛ حيث على (المؤذن) أن يمتلك صوتا جهوريا عاليا مميزا ليعلم الناس بالخبر نداء ليحقق الغاية من هذا الإعلام، وإيصال الخبر إلى أكبر عدد من الناس بقصد نشره، وهذا ما فعله علي ﷺ حين نادى في الناس يوم الحج الأكبر لتبليغهم (الأذان) "وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ مَعَ عَلِيٍّ ﷺ، فَإِذَا صَحِلَ صَوْتُ عَلِيٍّ نَادَى أَبُو هُرَيْرَةَ"[2]، بل فعل علي أكثر من ذلك؛ فأخذ يبحث على من لم يصله الخبر حسب تقديره ويخبره به "وَالَّذِي تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ أَنَّ عَلِيًّا أَذَّنَ بِتِلْكَ الْآيَاتِ يَوْمَ عَرَفَةَ إِثْرَ خُطْبَةِ أَبِي بَكْرٍﷺ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَعُمَّ النَّاسَ بِالْإِسْمَاعِ فَتَتَبَّعَهُمْ بِالْأَذَانِ بِهَا يَوْمَ النَّحْرِ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَعَثَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ مَنْ يُعِينُهُ بِهَا كَأَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِ، وَرُوِيَ: أَنَّ عَلِيًّا بَعَثَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَطُوفُ فِي مَنَازِلِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ مِنْ مِنًى، يَصِيحُ بِآيَاتِ بَرَاءَةٌ حَتَّى صَحِلَ صَوْتُهُ"[3]. وَيَتَّبِعُو بِهَا أَيْضًا أَسْوَاقَ الْعَرَبِ كَذِي الْمَجَازِ وَغَيْرِهِمَا، وذكر عن علي بن أبي طالب ﷺ عندما كلفه رسول الله ﷺ بالإعلام بهذه

---

1 الطبري، جامع البيان، ج14، ص112، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص244، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص69، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص71، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص367، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص41، ابن عاشور، التحرير والتنوير ج10، ص107-110 .

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط ،ج5، ص369.

3 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص368، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص110.

الآية على الناس يوم الحج الأكبر، قال أحد الصحابة: سألت علياً بن أبي طالب ﷺ عن "يوم الحج الأكبر" فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة ﷺ يقيم للناس الحج، وبعثني معه بأربعين آية من براءة، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إليّ، فقال: قم يا علي وأدّ رسالة رسول الله ﷺ! فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من "براءة"، ثم صدرنا، حتى أتينا مِنًى، فرميت الجمرة ونحرتُ البدنة، ثم حلقت رأسي، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفقت أتتبع بها الفساطيط أقرؤها عليهم"[1]. الشاهد من تلك الحادثة هو بيان اهتمام الصحابة بتحقيق المفهوم اللغوي الفعلي للأذان وترجمته فعليا. وجاء لفظ (وَأَذَانٌ) في الآية الكريمة: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ ﴿براءة:3﴾، في جملة خبرية، لا تحتمل غير الصدق فيما تحمل من خبر.

وبعد؛ هل كلمة (قال) أو (أقوال) تغني عن (أذان) في هذا السياق؟ علما أن كلا منهما لفظ و(قول)! هل في هذا ترادف، أو تكرار؟ ترى الباحثة أن الإجابة في طي السؤالين واضحة؛ بأنه لا يغني لفظ عن آخر ورد في القرآن الكريم، بحيث إن كل لفظ يؤدي رسالة منوطة به عليه أن يوصلها للمتلقي، ولا يستعيض عنها بغيرها مهما ظن منه التقارب، مما يؤكد دحض دعوى الترادف والتكرار في القرآن لمن يدعي ذلك ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿محمد: 24﴾.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ﴿يوسف:70﴾.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج14، ص113.

التفسير: جاء في التفسير أن: "أعلم معلم. أي نادى مناد؛ فسمى النداء أذاناً لأنه إعلام كالأذان ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ. أي أعلم، يقال: آذنه أعلمه. وأذن: أكثر الإعلام. ومنه المؤذن، لكثرة ذلك منه. و"أَذَّنَ" لِلتَّكْثِيرِ، فَكَأَنَّهُ نَادَى أو أذن رجل معين للأذان مرارًا" أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ"وَالتَّأْذِينُ: النِّدَاءُ الْمُكَرَّرُ، ورَفْعُ الصَّوْتِ بِالْكَلَامِ رَفْعًا يُسْمِعُ الْبَعِيدَ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأُذُنِ- بِضَمِّ الْهَمْزَةِ- جَارِحَةِ السَّمْعِ الْمَعْرُوفَةِ، وَهَذَا التَّأْذِينُ إِخْبَارٌ"[1].

البعد البلاغي: الأذان في حقيقته كلام وقول؛ ولكنه يختلف عن عامة الأقوال بأكثر من واحدة؛ منها طريقة الأداء، والشخص الموكل بالأداء، وفي المكان المخصص للقيام به، ثم بعدد الأشخاص المؤذن فيهم؛ فطريقة الأداء- وهي أهم عنصر من عناصر الاختلاف عن عامة الأقوال- أن يكون بأعلى صوت ممكن للشخص المؤذن الذي تلقى على عاتقه هذه المهمة، أو أن يكون أصلا صاحب صوت يوصل المهمة إلى أكبر عدد من الناس؛ على اختلاف مواصفاتهم، من حيث الجنس والعمر والعرق والدين؛ وأوسع مساحة ممكنة من الأرض، فها هو أذان الصلاة يصدح في أصقاع المعمورة كلها، لا ينقطع عن وجه الأرض في أي وقت من الأوقات، ويصل إلى أسماع من آمن ومن لم يؤمن من كل الجنسيات والأعراق.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ جملة خبرية، لا تحتمل غير الصدق فيما جاءت به، وقد تأكد الفعل (أَذَّنَ) بالفاعل (مُؤَذِّنٌ) من نفس المصدر، وهذا بدوره يقودنا إلى بديعية جناس الاشتقاق بين اللفظين.

---

1 الطبري، جامع البيان،ت شاكر، ج16، ص173، الماوردي، النكت، ج3، ص61، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص490، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص230، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط ،ج6، ص303، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص294، الألوسي، روح المعاني، ج7، ص23، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج8 ب، ص137، تفسير سورة الأعراف، الآية (44)، و ج13، ص28 .

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿الحج:27﴾.

التفسير: ذكر المفسرون في (أذّن) أقوالا منها: "أعلم وناد في الناس أن حجوا أيها الناس بيت الله الحرام. وذُكر أن إبراهيم عليه السلام لما أمره الله بالتأذين بالحجّ، قام على مقامه فنادى: "يا أيها الناس أن الله كتب عليكم الحج فحجوا بيته العتيق". وقد اختُلف في صفة تأذين إبراهيم عليه السلام بذلك؛ فقال بعضهم: نادى بذلك لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، قيل له: ﴿أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ﴾ قال: "ربّ وما يبلغ صوتي؟" قال: "أذّن وعليّ البلاغ" فنادى إبراهيم: "أيها الناس كُتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فحجوا"- قال: فسمعه ما بين السماء والأرض، لذا فالناس يجيئون من أقصى الأرض"[1].

البعد البلاغي: وهنا أيضا يتبين أن لفظ (أذّن) لفظ يدل على (قول) قصد به الإعلام والإخبار على مسامع أكبر عدد من الناس بقصد (النشر والإعلام) لأداء رسالة ذات هدف، على مساحة واسعة من الأرض؛ بحيث لا يمكننا استبدال غيره به من ألفاظ فنون القول في سياقه الذي ورد فيه مع الحفاظ على نفس الشروط والدلالات؛ حتى لو كان اللفظ البديل هو: (قال)، لأنها- وإن كانت تدل دلالة واضحة على القول- ولكنها لا تعطي المعاني الغزيرة التي يعطيها اللفظ الفعلي (أذّن) من دلالات لغوية ودينية، فمن الواضح أنّ لفظ (أذّن) يشير فيما يشير إليه إلى دلالات دينيه مقدسة تحمل أكبر إعلام خمسي في اليوم والليلة. ومن بلاغة المعاني جاءت الجملة

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص605-606، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص456، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص152، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص38، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص70، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص501، أبو السعود، إرشاد العقل السليم ،ج6، ص103.

القرآنية: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى الامر على وجهه الحقيقي لصدور من الأعلى إلى الأدنى؛ فهي أمر من الله تعالى لنبيه إبراهيم الخليل عليه السلام.

ومن حيث البديع المعنوي فقد جاءت الآية "من اللّف المجمل؛ حيث جاء لفُّ المتعدّد مجملاً والنشر بعده مجرّد بيانٍ تفصيليّ للمجمل؛ فجاء اللّفّ المجمل في عبارة: ﴿وَأَذِّن فِي الناس﴾ خطاباً لإبراهيم عليه السلام، وجاء النشر المفصل في عبارة: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: يأتيكَ فَرِيقٌ من الْمُلَبِّين رجالاً مشاةً على أقدامهم، ويأتيكَ فريق آخر من الْمُلَبِّين على كُلِّ ضَامِرٍ من الدّواب لطولِ السّير في السّفر إلى البلد الحرام"[1]. "واللّفُّ والنّشر: هما فَنٌّ في المتعدّدات التي يتعلّق بكلّ واحدٍ منها أمْرٌ لاحق، فاللّف يُشار به إلى المتعدّد الذي يؤتى به أوّلاً، والنشر يُشار به إلى المتعدّد اللاّحق الذي يتعلّق كلُّ واحد منه بواحد من السابق دون تعيين"[2].

*****

(2)- (بدا) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة أنّ: "بَدَا لِي فِي هَذَا الْأَمْرِ بَدَاءٌ، أَيْ: تَغَيَّرَ رَأْيِي عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ. بادِئُ الرأْيِ: أَوَّلُهُ وابْتِداؤُهُ. وَعِنْدَ أَهلِ التحقيقِ مِنَ الأَوائِلِ مَا أُدْرِكَ قبلَ إِنْعامِ النَّظرِ؛ يُقال فَعلَه فِي بادِئِ الرأْيِ، أي: أَوّلِ الرَّأْيِ، ومعناهُ فِيمَا بَدا مِنَ الرأْيِ وظَهَرَ، وأَبْدَيْتُه.وبَداوَةُ الشيء: أَوّلُ ما يَبْدُو منه.وبادِي الرَّأْيِ: ظاهِرُهُ. بدأ في الأمر وعاد: تكلّم فيه مرّة بعد أخرى"[3].

---

1 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص 407- 408.

2 المرجع السابق، ج2، ص 403.

3 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص212، ابن منظور، اللسان، فصل الهمزة، حرف الباء الموحدة، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج1، ص1261، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، (ب أ)

(بدا) في القرآن الكريم:

ورد لفظ: ((بدا) واشتقاقاته في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة)[1]، منها ست مرات بمعنى الإظهار والإفصاح، وثلاث مرات بمعنى الأعراب سكان البادية؛ أو القادمون من غير مكان سكنهم، واثنتين وعشرين مرة ما يدل على الظاهر من الكلام، ومبتدأ الرأي، منها :

(1)- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿آل عمران:118﴾.

التفسير: ذكر عدد من المفسرين: "أنّ الله ﷻ نهى المؤمنين أن يتخذوا من الكفار أخلاء وأصفياء، لما ينطوون عليه من الغش والخيانة والخداع للمسلمين فحذرهم منهم وقال: "إنّ هذه الطائفة تتمنى لكم الفساد والشر في دينكم؛ ويودون لكم العنت والسوء"، وذُكر أنّ هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين كانوا يخالطون حلفاءهم من اليهود وأهل النفاق، ويصافونهم المودّة بالأسباب التي كانت بينهم في جاهليتهم قبل الإسلام، وكانوا يستنصحونهم في شيء من أمورهم في المنافقين من أهل المدينة، وكانوا بين أظهُر المؤمنين من أهل الكتاب أيامَ رسول الله ﷺ ممن كان له من رسول الله ﷺ عهد وعقدٌ من يهود بني إسرائيل فنهاهم الله عن ذلك"[2]، لأنّه أعلمُ ﷻ بحقيقتهم، وذلك لأنهم أبدوا العداوة للإسلام والمسلمين، وظهر منهم الخداع والتكذيب، وحاربوا رسول الله ﷺ في بداية الدعوة قبل أن يمعنوا رأيهم فيها، وأصروا على ذلك، فلا يغرنكم منهم الآن إظهار المودة والمداهنة، فما سلف من المعاداة يشير إلى ما هو أعظم في الصدور، وما بدا من البغضاء بالألسنة يشير إلى الحقد والكراهية، وعبر سبحانه عن الإبداء بالماضي ليبين أنّ

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص 116.
2 الطبري، جامع البيان، ج7، ص140.

الذي (بدا) كان في أول الأمر، دون إمعان نظر في حقيقة الإسلام وأهله، وهم الآن يحاولون – جاهدين– أن يكونوا على غير ذلك؛ ليوقعوا المسلمين في مكائدهم (لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين، وَخَصَّ تَعَالَى الْأَفْوَاهَ بِالذِّكْرِ دُونَ الْأَلْسِنَةِ إِشَارَةً إِلَى تَشَدُّقِهِمْ وَثَرْثَرَتِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ هَذِهِ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِم، ولَا يَكْتَفُونَ بِبُغْضِكُمْ بِقُلُوبِهِمْ حَتَّى يُصَرِّحُوا بِذَلِكَ بِأَفْوَاهِهِمْ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿محمد: 30﴾، فَعَبَّرَ بِالْبَغْضَاءِ عَنْ دَلَائِلِهَا. وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا انْطَوَوْا عَلَيْهِ مِنْ وِدَادِهِمْ عَنَتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ إِخْبَارٌ عَنْ فِعْلٍ قَلْبِيٍّ، ذَكَرَ مَا أَنْتَجَهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ الْقَلْبِيُّ مِنَ الْفِعْلِ الْبَدَنِيِّ، وَهُوَ: ظُهُورُ الْبُغْضِ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي أَقْوَالِهِمْ، فَجَمَعُوا بَيْنَ كَرَاهَةِ الْقُلُوبِ وَبَذَاذَةِ الْأَلْسُنِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ مَا أَبْطَنُوهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْإِيذَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِبُغْضٍ لَهُمْ أَعْظَمُ مِمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ")[1].

البعد البلاغي: يتبين لنا أنّ (بدا) أحد رأيين يتصارعان داخل الشخص حينما يعرض له أمر مفاجئ، فيبدي ما (بدا) له متسرعا دون روية أو تفكير، فيقول رأيه متسرعا، ويحكم على الموقف دون أن يحكم عقله، فيجد أنّ إبداءه حينها لم يكن محمود العواقب، كما هو واضح مما أبدته أفواه الكافرين المتشدقة، ما لا يمكن أن تخفيه من فرط الكراهية للمسلمين، لذا لا يمكن أن نستبدله بأي لفظ من ألفاظ القول الأخرى، أو بلفظ (قال) على وجه التحديد لأن ما في (القول) ما ليس في (الإبداء) من التعبير عن السرعة في إبداء الرأي والمبادرة به دون روية أو حسن تفكير. وتأكيدا لذلك فقد جاءت الجملة القرآنية: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

---

1 الطبري، جامع البيان، ج7، ص138– 148، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص406، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص180، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص35، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج3، ص317– 318، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص63– 64 .

صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ جملة خبرية تقريرية، مؤكدة بحرف التحقيق قد. ومن حيث البعد البلاغي البديعي؛ فجاء بين: الفعل: (بَدَتِ) والفعل: (تُخْفِي) طباق إيجاب"[1].

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿يوسف:77﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّها يوسُفُ فِيْ نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ﴾ ﴿يوسف:77﴾ هي القول: "﴿أنتم شر مكانًا والله أعلم بما تصفون﴾: أيْ أَسَرَّ فِي نَفْسِهِ الرد عليهم عندما قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَسَرَّ فِي نَفْسِهِ قَوْلَهُ: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ ثُمَّ جَهَرَ فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾؛ فمعنى الكلام إذن: أنّ يوسف أسر في نفسه قولا؛ أو ردا، أو جملة ولم يبدها لهم، وأكنّها ولم يظهرها، كأنه قيل: فأسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله (أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً)، وَقِيلَ: أَسَرَّ الْمُجَازَاةَ، وَقِيلَ: الْحُجَّةُ. وَإِنَّمَا أُنِّثَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: "أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا" جُمْلَةٌ أَوْ كَلِمَةٌ عَلَى تَسْمِيَتِهِمُ الطَّائِفَةَ مِنَ الْكَلَامِ كَلِمَةً"[2].

البعد البلاغي: واضح من تفسير الآية أنّ (الإبداء) لفظ من فنون القول و الكلام، يهم به الشخص المعني ليعبر به عن رأيه في موقف مفاجئ يعرض له، ولكن بحروف أخر تحمل أصل المعنى؛ مصاحبا لصفة جديدة، هي أول الرأي أو أول ما يظهر منه، وقد يُتدارك عند الروية والتفكر فيتراجع صاحبه عن القول به؛ لما يترتب عليه من نتائج لا تحمد عقباها، فظاهر من الآية أن يوسف عليه السلام قد هم بقول ما، أجبره الموقف على التفكير به وإبدائه- وهو الرد الطبيعي لو كان شخص آخر مكانه- ولكنه الصديق الذي سرعان ما عاد وأسرّ قوله في نفسه عندما

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 288.

2 الطبري، جامع البيان، ج16، ص195، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص492، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص239، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص308 .

تروى وفكر فيما يمكن أن يجلب عليه من نتائج لا يريد استعجالها؛ وذلك ليفتح مجالا للحوار، ذلك لو أنه أبدى ما بدا له بادئ الرأي لأغلق أبواب الحوار والوصول إلى الحقيقة التي أخفيت زمنا طويلا، وبالتالي مشاهدة أبيه. فلو افترضنا وجود كلمة أخرى غير (الإبداء) في النص لما توقعنا وجود قول يحتمل خياري الإظهار وعدمه، وكل منهما متوقع التصريح به مناصفة مع قبيلة، فالمواقف تتطلب ذلك، ولو افترضنا لفظ (قال) في هذا السياق فليس من الممكن أن نفهم حلم يوسف الصديق وتجاوزه المرة تلو المرة عن إخوته، وما يجب أن يقابلهم به، ولو كان غيره من ألفاظ الفن نفسه ولا نعرف ونعي قدرة الرسل والذين أوحي إليهم على الصبر والتحمل وكظم الغيظ، والروية وحسن التفكير والتجاوز عما للنفس من حظ، وهذا برعاية الله سبحانه وتأييده لهم. وهذا ما سوف نتأكد منه - فيما يأتي- في كظم أم موسى حيث تداركتها رحمة الله فربط على قلبها. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ جملة استئنافية "وَجُمْلَةُ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ هِيَ تَوْكِيدٌ لِجُمْلَةِ فَأَسَرَّها يُوسُفُ. وَشَأْنُ التَّوْكِيدِ أَنْ لَا يُعْطَفَ وَوَجْهُ عَطْفِهَا مَا فِيهَا مِنَ الْمُغَايَرَةِ لِلَّتِي قَبْلَهَا بِزِيَادَةِ قَيْدِ لَهُمْ الْمُشْعِرِ بِأَنَّهُ أَبْدَى لِأَخِيهِ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ"[1].

وجملة: ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ القرآنية، جملة إنشائية، تفيد معنى النفي، وواقع إنشائها ينسجم تماما مع تقسيمها بأنها جملة إنشائية.

ومن حيث البديع؛ فإن بين الفعل: (أَسَرَّهَا) والفعل: (يُبْدِهَا) "طباق الإيجاب"[2].

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿القصص:10﴾.

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص 35.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 306.

التفسير: ذكر عدد من المفسرين في قوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي: "تظهره وتخبر به، وَقيل كَادَتْ تَصِيحُ عِنْدَ إِلْقَائِهِ فِي الْبَحْرِ وأن تقول وَا ابْنَاهُ؛ من شدّة وجدها. ولما جاءت المراضع لأخذه منها، فكادت أن تقول: هو ابني، وكذلك فإنّ صدرها قد ضاق إذ نُسب إلى فرعون، وقيل: ابن فرعون. فعصمها الله"[1]، "ولكن الله ثبتها ليقضي أمرا كان مفعولا، فقال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ فلم تبد، فقد تداركها الله برحمته؛ "وألهمها الصبر فعصمها وثبتها من ذلك فربط على قلبها كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن ووفقها للسكوت عنه لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ المصدقين بوعد الله"[2].

البعد البلاغي: يتبين أنّ (بدا) لفظ من ألفاظ القول يشير إلى اتخاذ قرار سريع أمام موقف مفاجئ، وما على صاحبه إلا أن يتفوه به ويبديه، فتكون عواقبه وخيمة عليه جراء تسرعه وتهوره، ولكن إذا تروى وفكر وأعاد تفكيره وقلب رأيه في الموقف؛ ولم يتسرع كانت نتائجه عليه عظيمة. وقد جاءت الآية ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ بأسلوب الجملة الخبرية الشرطية، والتي تفيد معنى امتناع لوجود؛ بوجود حرف (لَوْلَا)؛ حيث امتنع إبداؤها بولدها وإخبارها عنه؛ لأن الله ﷻ قد ربط على قلبها.

وتمثل الآية الكريمة غرضا من الأغراض البلاغيّة لاستخدام الكناية؛ وذلك: "أنّ الجزء الأول من الآية يمثل السبب الذي منع أمّ موسى من أن تبدي أن هذا الطفل هو ولدها؛ ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً﴾ لقد كان فُؤادُها وهو عُمْقُ قَلْبِها الشامل لأفكارها وعواطفها مشحوناً بالقلق والاضطراب والخوف عليه، فلمّا ألقته في اليمّ وعلمت بما جرى له، أزيحت عن فؤادها الغمّة،

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص529-530، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص396، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص256، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج8، ص289 .

2 الطبري، جامع البيان، ج19، ص530، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص395.

وأصبحَ فارغاً من القلق والاضطراب والخوف عليه فجاءت عبارة: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً﴾ كنايةً عن طُمَأنينتها على وَلَدِها، وسكينتها، واستمتاعها بمشاعر السعادة، لأنّ من شأن فراغ الفؤاد من الأفكار والعواطف المثيرة للقلق والاضطراب والخوف أن تُصَاحِبَهُ الطُّمَأنينة والسكينة ومشاعر السّعادة. هذه الكناية خفيّةٌ نوعاً ما، وجاء خفاؤها بسبب احتمال الفراغ لأمرين متناقضين؛ الأول: الفراغ من الْهَمّ والخوف والقلق، وهو المعنى الذي يتلاءم مع الحدث وسياق القصة. أمّا قول الله ﷻ بعد هذه الكناية: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَهُو رُجُوعٌ بالبيان إلى حال أُمّ موسَى قبل أن تضعه في الصندوق وتُلْقِيَه في اليمّ، إذْ صعُبَ عليها أن تباشر بنفسها إلقاء ولدها في اليمّ، ورأتْ أنّ احتمال هلاكه في اليمّ قريب من احتمال ذبحه بأيدي جنود فرعون، فجاء الرّبط على قلبها مانعاً لها من أن تظهر أمرها، وممدّاً لها بالثبات لتنفيذ ما أوحى الله لها به. وهذا الرجوع بالبيان هو من التفصيل بعد الإجمال، وهو من أساليب القرآن في عرض القصص"[1].

من خلال الآيات الثلاث الشاهد التي ورد فيها لفظ (بدا) ترى الدراسة أن هذا اللفظ يشير إلى وجود رأيين لموضوع واحد، أو حلين لموقف واحد، تتصارع النفس بين إخفائه وإبدائه؛ والواضح أنّ عدم الإبداء أفضل وأسلم، كما ويتبادر للذهن عنده مباشرة استحضار اللفظ المضاد (أخفى)، كما أنّ من الواضح أنّ الهمّ (بالإبداء) بادئ ذي بدئ أمر غير محمود العواقب؛ لذا ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، كذلك ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي... لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا﴾على قلب أم موسى أن تبدي به؛ لتداركه ﷺ، فلم تبد للأعداء أنه ولدها، كيف لا وقد صنع على عين الله؟ فهل يتركه لمفاجآت المشهد، أو لعواطف الأمومة؟ بالطبع فالجواب (لا)، ليكون بذلك دليلا على

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ج2، ص 145- 146.

إيحائه لهما، وترك المنافقين على ما هم عليه من إيدائهم البغضاء للرسول وللمسلمين، ليتجرعوا عاقبة أمرهم ولو بعد حين.

*****

(3)- (بلغ) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من المعاجم العربية حول مادة "(بَلَغَ): الْبَاءُ وَاللَّامُ وَالْغَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ وَهُوَ الْوُصُولُ إِلَى الشَّيْءِ. تَقُولُ بَلَغْتُ الْمَكَانَ، إِذَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ، وبَلَغَ الشيءُ يبلُغُ بُلُوغاً، وأبْلَغْتُه إبلاغاً. وبلَّغْتُه تبليغاً في الرسالةِ ونحوها. وفي كذا بَلاغٌ وتَبْليغٌ أي كفاية. والبَلْغُ ما يبلُغُكَ من الخَبَر الذي لا يعجبك، والإبْلاغُ: الإيصالُ، وكذلك التَبْليغُ، والاسمُ منه البَلاغُ. والبلاغة: الفصاحةُ. وبَلُغَ الرجلُ بالضم، أي صار بليغا. والبلاغات، كالوشايات. وَكَذَلِكَ الْبَلَاغَةُ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا الْفَصِيحُ اللِّسَانِ، لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بِهَا مَا يُرِيدُهُ، والبلاغ بفتح الباء لها وجهان: أحدهما أنّ البلاغ ما بلغ من القرآن الكريم والسنن، والوجه الآخر من ذوي البلاغ أي الذين بلغونا يعني ذوي التبليغ"[1].

(بلغ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (بلغ) واشتقاقاته في القرآن الكريم سبعاً وسبعين مرة)[2]، منها ما يدل على بلوغ الغاية، والوصول إلى الشيء والمكان، ومنها بمعنى الكفاية والنهاية من الحد، أما ما يعنينا من الدراسة هو ما جاء بمعنى الخبر الذي يبلغ من القول و الكلام، وقد بلغ عدد تكرارها سبعاً وعشرين مرة؛ منها:

---

1 الفراهيدي، العين، باب الغين واللام معهما (غ ل ب)، الجوهري، الصحاح، (بلغ)، ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص301، الأصفهاني، المفردات، ص144، ابن منظور، اللسان، باب الغين المعجمة، فصل الباء الموحدة .

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص134 -135.

(1)- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿آل عمران:20﴾.

التفسير: ذكر عدد من المفسرين حول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي: "وإن أدبروا مُعرضين عما تدعوهم إليه من الإسلام وإخلاص التوحيد لله رب العالمين، فإنما أنت رسولٌ منبه عليك أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى إلى من أرسلتك إليه من خلقي، وما عليك إِلَّا تُبَلِّغُهُم مِنْ طَلَبِ إِسْلَامِهِمْ وَانْتِظَامِهِمْ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وأداء ما كلَّفتك، وَإِنْ تَوَلَّوْا لم يضروك، إذْ ما عَلَيْك إلاَّ البلاغ وقد فعلت على أبلغ وجه"[1].

البعد البلاغي: يتبين من تفسير الآية أنّ (البلاغ) هو تعبير لفظي من فنون القول يختص بإبلاغ رسالة ما وتوصيلها إلى منتهاها، ولا يمكن أن يكون حامل هذا البلاغ أبكم لا يتكلم، بل عليه أن يسمع الآخرين رسالته متحملا ما يواجهه من متاعب ومشقات؛ لما في البلاغ -أحيانا- ما لا يروق للمبلغين ليكون قد بلغ بحق، ومن مهام البلاغ حمل الشرائع السماوية، والسنن النبوية؛ وعلى المبلغ أن يوصلها إلى المقصودين بالتبليغ؛ وذلك ما يميزه عن بقية الأقوال العادية مما يجعل استبداله بلفظ آخر من ألفاظ فنون القول أمر غير ممكن، ولا منصف لأداء المعاني الثلاثة- مصدر البلاغ، وحامله، والمبلغين- المقصودة حتى لو افترضنا وجود اللفظ (قال) بديلا له.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج6، ص283، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص346، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص46، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص10، أبو حيان الأندلسي، ج3، ص74، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج2، ص19، الألوسي، روح البيان، ج2، 105 .

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ جملة خبرية، مؤكـدة بـــ(إنّ) المـشددة، واقترانها بـ(ما) يفيد الحصر لمهمتك التي هي التبليغ، وليس هدايـة مـن تـولى، والخطـاب للرسول ﷺ.

(2)_ ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿المائدة:67﴾.

التفسير: المقصود من هذه الآية كما جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ الرسول ﷺ قد بلغ ما أنزل إليه من ربه كله؛ بدليل قول السيدة عائشة -رضي الله عنها-: من قال إنّ محمدًا ﷺ كتم شيئًا من الوحي فقد كذبَ وأعظم الفرية على الله! وبَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ جميعه وأظهره، ولا تخف شيئًا منه، ولا تراقب أحدا ولا تخشَ أحدا، لأن الله يعصمك ويحميك من الناس، فلن تصاب بأي مكروه، وإن لم تبلغه جميعه كما أمرتك فما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ، لأنك مكلف بأداء الرسالة كاملة، وَدَلَّتْ الآيَة عَلَى أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُسِرّ إِلَى أَحَدٍ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى بَلِّغْ جَمِيعَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ظَاهِرًا، وَهَذَا تَأْدِيبٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَأْدِيبٌ لِحَمَلَةِ الْعِلْمِ مِنْ أُمَّتِه أَلَّا يَكْتُمُوا شَيْئًا مِنْ أَمْرِ شَرِيعَتِه"[1].

البعد البلاغي: إذن فـ(البلاغ) (قول) يحمل رسالة؛ قد تكون من المبلغ نفسه، وقد يكون مؤتمنا عليها من جهة أخرى، وفي كل الأحوال على حاملها أن يبلغها إلى أصحابها كاملـة، لا ينقص منها شيئا، ولا يخشى في ذلك لومة لائم، وهذه المهمة والمـسؤولية فـي الأداء جعـل (البلاغ) يتميز بهذا اللفظ دون إخوته من ألفاظ فنون القول، الذي لا يمكن لأحد منها أن يحمـل أمانته، ويقوم بمهمته بأداء الرسالة، فيتزامن القول مع المهمة والعزيمة.

1 الطبري، جامع البيان، ج10، ص471-472، الزمخشري، الكـشاف، ج1، ص658، القرطبـي، الجـامع لأحكام القرآن، ج6، ص242.

والبلاغة في الجملة القرآنية: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أنها جملة إنشائية، جاءت "بصيغة الأمر، حيث جاء الفعل (بلّغ) بصيغة الأمر، وجاء هنا في معناه الحقيقي بطلب الفعل من الأعلى إلى الأدنى على وجه الإيجاب والإلزام"[1]. ومن البلاغة البديعية جاءت العلاقة بين اللفظين "(بلِّغْ) و (بلَّغتَ) مثالا على جناس الاشتقاق، (وبين (بلّغْ) و (مَا بلَّغتَ) طباق سلب"[2].

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ ﴿الأحزاب:39﴾.

التفسير: ذكر عدد من المفسرين: "أنّ سنة الله في الذين خلوا من قبل محمد ﷺ من الرسل، أن يبلغوا رسالات الله وأحكامه وأوامره ونواهيه ويصدعون بها إلى من أرسلوا إليهم، ولا يخافون أحدا إلا الله، ولا يرهبون سواه إن هم تركوا المهمة، أو أداء رسالتهم إلى من أرسلوا إليه، ويقول لنبيه محمد ﷺ: "فمن أولئك الرسل الذين هذه صفتهم فكن، ولا تخش أحدًا إلا الله، فإنّ الله يمنعك من جميع خلقه، ولا يمنعك أحد من خلقه منه، إن أراد بك سوءًا، في كلّ ما يأتون ويذرُون لا سيّما في أمرِ تبليغِ الرّسالةِ، وكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً" أي: حافظا لأعمال خلقه. وشهيداً: بأن النبيّ ﷺ بلّغ الرسالة عن الله ﷻ"[3].

البعد البلاغي: يتضح أنّ (تبليغ) رسالات الله تحتاج قوة وعزيمة، أكثر من (القول) المعتاد؛ قد لا يستطيعها إلا الرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه؛ لأن فيها بياناً لكثير من الشرائع والأحكام تحتاج قوة في الأداء، وحجة في البيان، وجلدا على تحمل عنت المبلّغين

---

1 علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص 204.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 357.

3 الطبري، جامع البيان، ج20، ص277-278، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص63، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج7، ص106، القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، (المتوفى1332هـ)، محاسن التأويل، ت محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت-1418هـ، ج8، ص80 .

وعنادهم، وفي (التّبليغ) رسالة ومسؤولية؛ لذا تميزت بهذا الفن من التعبير دون ألفاظ القول عامة.

وجاءت الجملة: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ صلة الموصول، خبرية بيانية تفسيرية لصفة ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ في الآية السابقة.

*****

(4)- (خبر) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة خبر: "(خَبَرَ) الْخَاءُ وَالْبَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ: فَالْأَوَّلُ الْعِلْمُ، وَالثَّانِي يَدُلُّ عَلَى لِينٍ وَرَخَاوَةٍ وَغُزْرٍ. فَالْأَوَّلُ الْخُبْرُ: الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ. تَقُولُ: لِي بِفُلَانٍ خِبْرَةٌ وَخُبْرٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى الْخَبِيرُ، أَيِ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ بما كان وما يكون، والخَبَرُ: النَّبَأُ، ويجْمَعُ على أخبار. خبر: الخبْرُ: خبرتُ الشيء أخبره خبراً وخُبرة، والخِبْرُ، والخُبْرُ، والخِبْرَةُ، والخُبْرة، والمَخْبَرة، المعلومة من جهة الخبر، وخَبَرتُهُ خُبْراً وخِبْرَةً، وأخْبَرتُ: أعلَمْتُ بما حصل لي من الخَبَر، وخَبُرْتُ بالأمر أي علِمتُهُ. وخَبَرْتُ الأمرَ أَخْبُرُهُ إذا عَرَفْتَهُ عَلَى حقيقتِهِ. والخَبَرُ: مَا أتاك مِنْ نَبإٍ عَمَّنْ تَستَخبِرُ. وخَبَّرَه بِكَذَا وأَخْبَرَه: نَبَّأَهُ. وتَخَبَّرَ الخَبَرَ واستَخْبَر إِذا سأَل عَنِ الأَخبَارِ. وَرَجُلٌ خَابِرٌ وخَبِير: عَالِمٌ بِالخَبَرِ. والخَبِير المُخْبِرُ؛ بالشَّيْء بعِلمه. وَالْأَصْلُ الثَّانِي: الْخَبْرَاءُ، وَهِيَ الْأَرْضُ اللَّيِّنَةُ"[1].

1 الفراهيدي، باب الخاء والراء والباء معهما (خ ر ب)، ابن فارس، مجمل اللغة، باب الخاء والباء وما يثلثهما، ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص239، ابن سيده، المحكم، مقلوبة (خ ب ر)، الأصفهاني، المفردات، ص273، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج1، ص382، ابن منظور، اللسان، حرف الراء فصل الخاء المعجمة، أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص606 .

(خبر) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (خبر) واشتقاقاته في القرآن الكريم اثنتين وخمسين مرة)[1]؛ منها خمسة وأربعون من أسماء الله الخبير، والسبع الباقية بمعنى النبأ والخبر الحاصل من القول، المقصود من الدراسة، أو ما يشير إليه، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿التوبة:94﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: "أن قد أخبرنا الله من أخباركم، وأعلمنا من أمركم وأسراركم؛ ما قد علمنا به كذبكم لأن الله ﷻ إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم؛ لأنه الخبير الذي لا يخفى عليه شيء"[2].

البعد البلاغي: في هذه الآية ورد لفظ (خبر) ليدل على وجود (قول) يحمل نبأ، وصل للمؤمنين وعلموا به، من مصدر موثوق الصحة؛ لأنه من الخبير العالم بما خفي عن البشر، وهو فن من فنون القول، فيه من الأهمية ومعرفة الأخبار والأنباء على حقيقتها، وما يترتب عليه جعله يتميز عن باقي ألفاظ الفن بما يدل على مضمونه، وجاءت الجملة القرآنية: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ جملة خبرية فعلية، مؤكدة بحرف التحقيق (قد). وجاء استخدام (نبأ) دلالة على

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص226- 227.

2 الطبري، جامع البيان، ج14، ص424، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص302، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص230، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص94، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص489، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص93، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص8 .

عظم الفعل وخطورته؛ لذلك جاء مؤكد، من حرف التحقيق (قد) والمتحدث رب العزة، ولم يقل خبرنا؛ لأن دلالة النبأ أعمق من الخبر في مثل هذا السياق.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ﴿فاطر:14﴾.

التفسير: ذكر عدد من المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: "ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير عالم به على حقيقته؛ يخبرك به دون سائر المخبرين هو الله ﷻ، وقد نبأك به، فَلَا شَكَّ فِي وُقُوعِهِ. وَعَبَّرَ بِفِعْلِ الْإِنْبَاءِ لِأَنَّ النَّبَأَ هُوَ الْخَبَرُ عَنْ حَدَثٍ خَطِيرٍ مُهِم وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: يُنَبِّئُكَ لِكُلِّ مَنْ يَصِحُّ مِنْهُ سَمَاعُ هَذَا الْكَلَامِ لِأَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ أُرْسِلَتْ مُرْسَلَ الْأَمْثَالِ فَلَا يَنْبَغِي تَخْصِيصُ مَضْمُونِهَا بِمُخَاطَبٍ مُعَيَّنٍ"[1].

البعد البلاغي: لفظ (خبير) من مشتقات الأصل (خبر) وهو فن من فنون القول، ورد في الآية ليدل بصيغة المبالغة للتعبير عن سعة علم هذا الخبير، وكثرة الأخبار عنده، وهو المولى ﷻ، ووجود نبأ، أنبأ به هذا الخبير، ومتلقٍ لهذا النبأ أو الخبر، وتشير الدراسة إلى أن ما يحمله اللفظ من دلائل ثلاثية الأبعاد بين المخبر والخبر والمتلقي لهذا الخبر؛ لا يمكن استبدال أي لفظ به من ألفاظ القول عامة، ولو كان اللفظ البديل (قال)، لأن فيه من عموم الأقوال ما لا يتخصص باللفظ (خبر) ومتعلقاته.

"وقد جاءت العبارة القرآنية: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ جملة إنشائية تفيد معنى النفي المقيد؛ أي: لا يصدر النبأ الحقيقي مثل ما يصدر من عالم به، مطلع عليه. "أي ولا يخبرك بالأمور أحد

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص606، البيضاوي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص256، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج9، ص22، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج22، ص284 .

على حقائقها كالعارف بها العالم بكنهها"[1]، "وهي أنموذج مما يجري مجرى الأمثال في ألفاظ القرآن الكريم"[2]،"وجاء فيها الإطلاق وعدم الحصر بالتنكير، إذ التعريف فيه تقْييدٌ وحصر، أي: لا ينبئُكَ بحقيقة أمْرٍ ما مِثْلُ من مارسه وخَبَرَ دَقائِقَهُ، وعرفه عن تجربةٍ وممارسَةٍ عمليّة"[3].

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ﴿محمد:31﴾.

التفسير: جاء في عدد من التفاسير أن ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾، أي: "نعرف الصادق منكم من الكاذب، وما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم، نَخْتَبِرُهَا وَنُظْهِرُهَا، ليعلم حسنها من قبيحها، أو نعلم عن إيمانكم وموالاتكم المؤمنين في صدقها وكذبها؛ لأن الخبر على حسب المخبر عنه: إن حسنا فحسن، وإن قبيحا فقبيح"[4].

البعد البلاغي: تكشف الآية عن وجود (أقوال) لا بد من (إعلامها، ونشرها) على رؤوس الأشهاد بعد بيان الصالح منها من الفاسد، وللصدق الذي تحمله تلك (الأقوال) تم تمييزها بلفظ (أخبار)، وذلك لأن المخبر عنها هو الله ﷻ، بحيث لا يمكن أن يستقيم المعنى لو استبدل به لفظ (قال)، أو أي لفظ آخر من ألفاظ الفن نفسه؛ ولأنه كما سبق أن الخبر على حسب المخبر؛ فإن هذه الأخبار تميزت بصدقها؛ فتميز لفظها؛ ويؤكد هذا أنّ جملة: ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ جملة خبرية فعلية، لا تحتمل غير الصدق فيما جاءت به من وعود.

---

1 عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد أبو حامد، (المتوفى: 656هـ) شرح نهج البلاغة، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج9، ص 160.

2 الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل بن منصور، (المتوفى: 429هـ)، التمثيل والمحاضرة، ت عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط2، 1401هـ - 1981م، ج1، ص 19.

3 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج1، ص 408-409.

4 الطبري، جامع البيان، ج22، ص186، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص328، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص124.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿الزلزلة:4﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّ الأرض تتكلم يوم القيامة، فتقول: إنّ الله أمرني بهذا، وأوحى إليّ به، وأذن لي فيه. وأنّ الأرض تحدث أخبار من كان على ظهرها من أهل الطاعة والمعاصي، وما عملوا عليها من خير أو شرّ. وقيل: يُنطقها الله على الحقيقة. وروُى عن رسول الله ﷺ تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها، وتحدّث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها، وأمره إياها بالتحدث. وقيل ينطقها الله ﷻ فتخبر بما عمل عليها، وقيل: تُحَدِّثُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ إِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا، فَتُخْبِرُ أَنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا قَدِ انْقَضَى، وَأَمْرَ الْآخِرَةِ قَدْ أَتَى، أَيْ تُحَدِّثُ الْإِنْسَانَ لِأَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الْكَلَامِ هُوَ إِخْبَارُهَا لِمَا فِيهِ مِنَ التَّهْوِيلِ. وَضَمِيرُ تُحَدِّثُ عَائِدٌ إِلَى الْأَرْضُ وَالتَّحْدِيثُ حَقِيقَتُهُ: أَنْ يَصْدُرَ كَلَامٌ بِخَبَرٍ عَنْ حَدَثٍ"[1].

البعد البلاغي: ورد لفظ (أخبار) في الآية، ليدل على أن الأرض ستتكلم، وتحدث عن أخبار الأقوام الذين مروا عليها وعاشوا فوقها، لكل متسائل مسه الذهول لما يشاهد يوم القيامة، ولن تخفي شيئا مما حدث، (بصدق) وأمانة؛ لأن المولى ﷻ هو الذي أمرها بذلك، وألهمها إياه، وسيكون (معلنا) على رؤوس الأشهاد غير مخفي، لذا تميز هذا التحديث بلفظ (أخبار) لما يحمل من دلالات تشير إلى وجود خبر، ومخبر، ومتلق لهذا الخبر، سائل عن حقيقة ما يعاين؛ لا يمكن للفظ (قال) أن يشير إلى كامل هذه الدلالات مجتمعة، لو استبدل به لفظ آخر في السياق، أو في أي سياق ورد فيه في القرآن الكريم؛ علما أنّ كل (خبر) (قول) وليس العكس، وهذا ما يؤكد بطلان دعوى الترادف في القرآن الكريم.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج24، ص548-549، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص784، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص148، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص330، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج10، ص523، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص492.

وجاءت الآية القرآنية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ جملة خبرية، لا تحتمل غير الصدق؛ لأن ما فيها من وعد مرتبط بالظرف الزمني: (يَوْمَئِذٍ) مؤكد الحدوث، أخبر به الله ﷻ، ومن البديع فقد شكل لفظ (أخبارها) مع ما سبقه ومع ما يليه من رؤوس الآي ما يسمى: "بتوافق الفواصل"[1].

من خلال ما تم اختياره من الآيات عينة الشاهد- وجميع الآيات- للفظ (خبر) كشفت الدراسة أنّ هذا اللفظ في القرآن الكريم يتميز بالأقوال التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ لأنها تلازمت مع اسم من أسماء الله الحسنى، مصرح به أو مضمر، وبعلمه، مثل قوله: (عليم خبير)، أو (لطيف خبير). مخصصة (للإعلان والنشر).

أمّا "الفرق بين النبأ والخبر: فإنّ النبأ لا يكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبَر ويجوز أن يكون المخبر بما يعلمه وبما لا يعلمه ولهذا يقال تخبرني عن نفسي ولا يقال تنبئني عن نفسي، وكذلك تقول تخبرني عما عندي ولا تقول تنبئني عما عندي، وفي القرآن "﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿الشعراء: 6﴾ وإنما استهزؤوا به لأنهم لم يعلموا حقيقته ولو علموا ذلك لتوقوه يعني العذاب وقال تعالى " ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ ﴿هود: 100﴾، وكذلك أخذ منه صفة النبي ﷺ، ولهذا يقال سيكون لفلان نبأ ولا يقال خبر بهذا المعنى، وقال الزجاج في قوله تعالى " ﴿فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون﴾ ﴿الشعراء: 6﴾ أنباؤه تأويله والمعنى سيعلمون ما يؤول إليه إالاستهزاؤهم. وإنما يطلق عليه هذا لما فيه من عظم الشأن. والإنباء عن

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 535.

الشيء أيضا قد يكون بغير حمل النبأ عنه تقول: هذا الأمر ينبئ بكذا ولا تقول يخبر بكذا لأن الإخبار لا يكون إلا بحمل الخبر"[1].

كما أنّ الفرق بين النبأ والخبر: "أنّ النبأ: الخبر الذي له شأن عظيم، ومنه اشتقاق النبوة، لأن النبي مخبر عن الله تعالى ويدل عليه قوله تعالى: ﴿نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون﴾ ﴿القصص: 3﴾ وقوله: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ ﴿ص: 21﴾. وقوله تعالى: ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ ﴿النبأ:1،2﴾، فوصفه بالعظمة. وصف كاشف عن حقيقته. وقال الراغب: النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن. ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء، وحق الخبر الذي قال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب كالمتواتر. وخبر الله ﷻ وخبر النبي ﷺ"[2].

*****

(5)- (خوض) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم العربية حول: "(خَوَضَ) الْخَاءُ وَالْوَاوُ وَالضَّادُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَوَسُّطِ شَيْءٍ وَدُخُولٍ. يُقَالُ خُضْتُ الْمَاءَ وَغَيْرَهُ أي المشي فيه وتحريكه، وَتَخَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْأَمْرِ، أَيْ تَفَاوَضُوا وَتَدَاخَلَ كَلَامُهُمْ"[3]. "والْخَوْضُ أَصْلُهُ فِي الْمَاءِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ بَعْدُ فِي غَمَرَاتِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ مَجَاهِلُ، تَشْبِيهًا بِغَمَرَاتِ الْمَاءِ فَاسْتُعِيرَ مِنَ الْمَحْسُوسِ لِلْمَعْقُولِ. وَقِيلَ: هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الخلط، وكل شي خُضْتَهُ فَقَدْ خَلَطْتَهُ، وَمِنْهُ خَاضَ الْمَاءَ بِالْعَسَلِ"[4]، ثم استعمل في

---

1 أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (المتوفى: نحو 395هـ)، معجم الفروق اللغوية ت، الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، 1412هـ، ج1، ص 528- 530.

2 أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللغوية، ج1، ص 528- 530.

3 ابن فارس، مقاييس اللغة، باب الخاء والواو وما يثلثهما .

4 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص12.

التلبس بالأمر والتصرف فيه وَالتَخَاوُضُ فِي الْحَدِيثِ وَالْأَمْرِ، التَفَاوُضُ في الكلام: مَا فِيهِ الكَذِب"[1]، "وأكثر ما ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم فيما يذم الشروع فيه"[2].

(خوض) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (خوض) واشتقاقاته في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة)[3]، جاءت كلها بمعنى التداخل في الكلام، والخلط فيما يذم قوله، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ ﴿النساء:140﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: "يتحدثوا حديثًا غير الذي يتحدثون به حال جلوسكم معهم؛ فأنتم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، فأنتم مثلُهم في فعلهم، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم؛ وأنتم تسمعون المشركين يخوضون في آيات الله، ويستهزئون بها؛ فنهى سبحانه المسلمين عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه. وأمرهم بالاستنكار والقيام من المجلس ليستشعر المنافقون غضبكم لدينكم، وأوقَعَ السماع دليل وجود أحاديث وأقوال تصل إلى حاسة السمع"[4].

البعد البلاغي: ظاهر أنّ لفظ (خوض) في هذا السياق يعبر عن وجود أقوال معلنة للنشر، غير مكتومة، وتحمل ما يشير إلى كذب ما يتناقلون، وما لا يشرع الحديث فيه؛ فعُبر عنها-

---

1 ابن فارس، مجمل اللغة، باب الخاء والواو وما يثلثهما، ابن سيده، المحكم، ج5، ص278، ابن منظور، اللسان، حرف الضاد المعجمة، فصل الخاء المعجمة.

2 الأصفهاني، المفردات، ص302 .

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص246.

4 الطبري، جامع البيان، ج9، ص320، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص578، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص417.

مجازا- بـ(الخوض) تشبيها لها بالخائض في الماء، لا يدرك مدى خطورة عمله، جاهلا بالنتائج المترتبة على التمادي في ما ليس له به علم، لذا تميز هذا اللفظ في هذا المقام عن بقية ألفاظ القول الأخرى؛ ليناسب نوعية (الأقوال) المتداولة بين الخائضين في مجالسهم، وبيان عاقبتها.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ جملة خبرية شرطية من أداة الشرط (إذا) وجملة (سَمِعْتُمْ) اسمها، وخبرها جملة النهي: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿الأنعام:68﴾.

التفسير: يقول الله ﷻ لنبيه محمدﷺ: "أن إذا رأيت، يا محمد، المشركين الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليك، ووحينا الذي أوحيناه إليك، وسبِّهم من أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها وقولهم في القرآن غير الحق فصد عنهم بوجهك، وقم عنهم، ولا تجلس معهم حتى يأخذوا في حديث غيره وَالْخِطَابُ مُجَرَّدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وحده، لِأَنَّ قِيَامَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ كَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَكُنِ الْمُؤْمِنُونَ عِنْدَهُمْ كَذَلِكَ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ دَاخِلُونَ فِي الْخِطَابِ مَعَهُ. لأنَّ الْعِلَّةَ سَمَاعُ الْخَوْضِ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَذَلِكَ يَشْمَلُهُمْ وَإِيَّاهُ. فَأُمِرَ أَنْ يُنَابِذَهُمْ بِالْقِيَامِ عَنْهُمْ لِيَتَأَدَّبُوا بِذَلِكَ وَيَدَعُوا الْخَوْضَ وَالِاسْتِهْزَاءَ. فَأَدَّبَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ بِهَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَقْعُدُ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَعِظُهُمْ

وَيَدْعُوهُمْ فيستهزئون بِالْقُرآنِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ إِعْرَاضَ مُنْكِرٍ، إِلَّا أَنْ يَنْسَى فَإِذَا ذَكَرَ قَامَ. والخِطَاب لكل من سمع مثل هذا الخوض"[1].

البعد البلاغي: يتبين من الآية أنّ المولى ﷻ أمر نبيه ﷺ بالإعراض عمن يخوض في آياته، ومفارقتهم؛ ونهاه حتى عن سماع أقوالهم، ولما فيها من قبح وإساءة وكذب فقد خصها- سبحانه- بلفظ يحمل تلك الدلالات وهو لفظ (الخوض) كمن هو خائض في غمرات المياه، لا يعرف عاقبة عمله بغير علم. ولو استبدل به لفظ آخر مثل: (قال) لما أعطى الدلالات والمعاني المقصودة من الآية؛ لأن في الأقوال ما هو بيّن الصدق والثبات، وفيها الكثير مما يدعو إلى الخير، ولكن الخوض في الجملة غير ذلك!

ومن بلاغة المعاني جاءت: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ جملة خبرية شرطية، من أداة الشرط (إِذَا)، واسمها الجملة الفعلية: (رَأَيْتَ)، وجوابها في جملة: (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) مع تمام الجملة... حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ.

وجاء في هذه الآية من البلاغة ما يسمى بـ: "المساواة بين اللفظ والمعنى المراد"، والمساواة: هي أن يؤدى المعنى المراد بعبارة مساوية له، لا تنقص عنه، ولا تزيد، ويعرف ذلك: بأن تكون العبارة على الحد الذي جرى به عرف أوساط الناس في محاوراتهم، وهم الذين لم يرتقوا إلى درجة البلاغة، ولم ينحطوا إلى درجة الفهامة، فهؤلاء هم الذين يؤدون المعنى بعبارة، يدل كل جزء منها على معناه بالمطابقة، قد أدي بما يستحقه من التركيب، من غير نقص

---

1 الطبري، جامع البيان، ج11، ص 436، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص34، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص12، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص167، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج4، ص545.

أو زيادة. والمساواة: هي الحد الفاصل بين الإيجاز والإطناب، فما نقص عن هذا الحد – بدون إخلال– فإيجاز، وإن زاد عنه –لفائدة– فإطناب"[1].

(3)– وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ ﴿المدثر:45﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين إلى: "أنّ الْمَلَائِكَةَ تسأل الْمُشْرِكِينَ يوم القيامة، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: "مَا سَلَكَكُمْ فِي سقر؟". يقولون: "كلما غوى غاو غوينا معه وشرعنا في الباطل وما لا ينبغي. وكُنَّا نُخَالِطُ أَهْلَ الْبَاطِلِ فِي بَاطِلِهِمْ فِي أَمْرِ محمد" وَهُوَ قَوْلُهُمْ– لَعَنَهُمُ اللَّهُ– كَاهِنٌ، مَجْنُونٌ، شَاعِرٌ، سَاحِرٌ أَيْ وَكُنَّا نُكَذِّبُ مَعَ الْمُكَذِّبِينَ"[2].

البعد البلاغي: لو كان اعتذار المشركين للملائكة بأنهم كانوا يقولون (قولا) ما، مع من قال لما كان قولهم حجة عليهم بالكامل؛ لأن في عامة الأقوال ما هو محمود، وفيها ما دون ذلك، أما وقد عبر الذكر الحكيم عن نوع أقوالهم وميزها دون سائر الأقوال بلفظ من فنون القول وهو (الخوض) وقد أقروا به على أنفسهم، واعترفوا به، فهذا بيّن الحجة عليهم بما لا يقبل اعتذارهم؛ لما فيه إساءة للرسول ﷺ وتكذيبه، واعتدائهم على الدين، ومصدره بما لا يقبل الشك في استحقاقهم لنتيجته، ودخولهم (سقر).

وجاءت جملة: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ جملة خبرية فعلية مؤكدة بالضمير، "ومن البديع البلاغي جاءت العلاقة بين لفظ: (نَخُوضُ) ولفظ: (الْخَائِضِينَ) من جناس الاشتقاق"[3].

*****

---

1 عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، ج2، ص 130.

2 الطبري، جامع البيان، ج24، ص37، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص655، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص87-88.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 431.

(6)- (ذيع) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: "ذاع: (ذَيَعَ) الذَّالُ وَالْيَاءُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِظْهَارِ الشَّيْءِ وَظُهُورِهِ وَانْتِشَارِهِ. والذيع أن يشيع الأمر، يُقَالُ ذَاعَ الْخَبَرُ وَغَيْرُهُ يَذِيعُ ذيعا وذُيُوعًا وذَيْعوعَةً وذَيَعاناً أي انتشر، وفشا. وَرَجُلٌ مِذْيَاعٌ: لَا يَكْتُمُ سِرًّا؛ وَالْجَمْعُ الْمَذَايِيعُ. ذاعَ الشَّيْءِ. وأذاعه وأَذَاعَ بِهِ: ذهب"[1]، وأذاعتِ الْإِبِلِ بِمَا فِي الْحَوْضِ: شربته، وكَذَلِكَ النَّاس، وَهُوَ من ذَلِك.

(ذيع) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (ذاع) في القرآن الكريم مرة واحدة؛ هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿النساء:83﴾.

التفسير: "جاء أنّ جماعة من ضعفة المسلمين لم تكن لهم خبرة بالأحوال ولا استبطان للأمور؛ كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول اللّه ﷺ من أمن وسلامة أو خوف وخلل أو أخبرهم الرسول ﷺ بما أوحى إليه من وعد بالظفر أذاعُوا بِهِ وأفشوه ونشروه وبثّوه في الناس، وكانت إذاعتهم مفسدة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول اللّه ﷺ وإلى أولى الأمر منهم- وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور، أو الذين كانوا يؤمرون منهم- لعلم تدبير ما أخبروا به الذين يستخرجون تدبيره بفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها"[2].

---

1 الفراهيدي، العين، ج2، ص230، ابن فارس، مقاييس اللغة، باب الذال والياء وما يثلثهما، ابن منظور، اللسان، حرف العين المهملة، فصل الذال المعجمة .

2 الطبري، جامع البيان، ج8، ص568-570 ، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص450، القرطبي، جامع البيان، ج5، 291، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص87.

البعد البلاغي: يتبين من الآية الكريمة أنّه جيء بلفظ (أَذَاعُوا) للتعبير عن خبر شاع وانتشر بين الناس علنا بكيفية معينة، وظهر بينهم بطريقة مقصودة، والأصل فيه ألا يذاع، وهو في الحقيقة (قول) من الأقوال ولكن عبر عنه الذكر الحكيم بلفظ جديد من فنون القول وهو لفظ (ذيع) تمييزا لما يحمله من دلالات أُشير إليها آنفا، بالإضافة إلى ما يحمله من أصل المعنى وهو (القول)، ولكنها أنسب في التعبير من (قال)؛ فلفظ (ذيع) بَيَّن- وبدقة- المعاني التي أرادها القرآن من انتشار (الأقوال) والأخبار بطريقة علنية (غير مبررة ولا مرغوبة). وجاءت جملة (أَذَاعُوا) ضمن الجملة القرآنية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ الخبرية، التي لا يحتمل فيها الصدق ولا الكذب؛ لأنها تؤكد وقوع الخبر فيها؛ لأن الله ﷻ يتحدث عن حدث وقع فعلا. وقد جاءت الجملة خبرية شرطية من أداة الشرط (إذا) وجملة (جَاءَهُمْ) جملة فعل الشرط، أمّا جملة جواب الشرط فهي (أَذَاعُوا).

*****

(7)- (شيع) في المعاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "(شَيَعَ) الشِّينُ وَالْيَاءُ وَالْعَيْنُ أَصْلَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى مُعَاضَدَةٍ وَمُسَاعَفَةٍ، ومتابعة الإنسان على أمر، وَالْآخَرُ عَلَى بَثٍّ وَإِشَادَةٍ. فَالْأَوَّلُ: قَوْلُهُمْ شَيَّعَ فُلَانٌ فُلَانًا عِنْدَ شُخُوصِهِ. وَيُقَالُ آتِيكَ غَدًا أَوْ شَيْعَهُ، أَيِ الْيَوْمَ الَّذِي بَعْدَهُ، كَأَنَّ الثَّانِيَ مُشَيِّعٌ لِلْأَوَّلِ فِي الْمُضِيِّ. وَأَمَّا الْآخَرُ فَقَوْلُهُمْ: شَاعَ الْحَدِيثُ والسر: إِذَا ذَاعَ وَانْتَشَرَ. وشاعَ الخَبَرُ فِي النَّاسِ يَشِيعُ شَيْعاً وشَيَعاناً ومَشَاعاً وشَيْعُوعةً، فَهُوَ شائِعٌ: وافترَقَ وذاعَ وظهَر واتَّصلَ بِكُلِّ

أحد فَاستَوَى عِلْمُ النَّاسِ بِهِ ولَمْ يَكُنْ عِلْمُهُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ. وأَشاعَه هُوَ وأَشاعَ ذِكرَ الشيءِ: أَطارَه وأَظهره. ورجلٌ مِشْياعٌ مِذْياعٌ، وهو الذي لا يكْتُمُ شيئاً. والأَشْياعُ: الأَمثَال"[1].

(شيع) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (شيع) واشتقاقاته في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة، جاءت كلها بمعنى التبع والمعاضدة والمساعفة؛ إلا في موقع واحد جاءت بالمعنى المقصود من الدراسة وهو البث والإشادة والقول الذي يحمل معنىً منكرا، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿النور: 19﴾.

التفسير: جاء: إنّ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة وتنتشر عن قصد إلى الإشاعة والنشر، وإرادة ومحبة لهذا الأمر في الذين صدّقوا بالله ورسوله ويظهر ذلك فيهم، لهم عذاب مؤلم في الدنيا، بالحدّ الذي جعله الله حدّا لرامي المحصَنَاتِ والمحصنين إذا رموهم بذلك، وفي الآخرة عذاب جهنم إن مات مصرّا على ذلك غير تائب"[2].

البعد البلاغي: الإشاعة إذن هي (أقوال) وأحاديث وأخبار تبث بين الناس وتنتشر علنا عن قصد؛ تحمل الحديث عن حدثٍ منكرٍ-في الغالب يكون فيه من الكذب والإساءة لأبرياء- لتصل إلى أكبر عدد من المتربصين. وعبّر الذّكر الحكيم عن محبة شيوع (الفاحشة) نتيجة لمحبة سماع أخبار الفاحشة ابتداء، فمن سمع أخبار الفاحشة، وأحب تناقل الحديث عنها، بما فيها من الكذب والزور وقذف المحصنات؛ فكأنما شجع على شيوع الفاحشة وأحب وقوعها أصلا، لأنّ القصد

---

1 الفراهيدي، العين، باب العين والشين و (و ا ي) معهما ع ش و، ابن فارس، مجمل اللغة، باب الشين والياء وما يثلثهما، ابن فارس، مقاييس اللغة، باب شيع، ابن سيده، المحكم، ج، مقلوبة: (ش ي ع) الزمخشري، أساس البلاغة، ش ي ع، ابن منظور، اللسان، حرف العين المهملة، فصل الشين المعجمة .

2 الطبري، جامع البيان، ج19، ص133-134، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص221، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص206، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص102 .

من إشاعتها إلف الناس لسماع تلك الأخبار وترويجها، ليصبح الأمر فيما بعد ممهدا لتعاطيها، والاستخفاف ببشاعتها وحرمتها. وتمييزا لها، ولما تحمل من دلالات عبّر عنها الذّكر الحكيم بلفظ جديد من ألفاظ فنون القول وهو لفظ (شيع)، بحيث لو تمّ استبداله بلفظ (قال)- مع إنه قول- لَمَا تَميز المعنى في السياق، ولَما بانت الدلالات المقصودة من مغبة محبة (شيوع) أحاديث الفاحشة وانتشار السوء، وسوء عاقبة المشارك فيها حتى لو بالمحبة القلبية والمودة -وهي أضعف الإيمان- بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وجاءت الآية القرآنية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بأسلوب الجملة الخبرية المؤكدة من أداة التوكيد (إنّ) المشددة.

*****

(8)- (عرف) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: (عرف) ما يلي: "عَرَفَ: الْعَيْنُ وَالرَّاءُ وَالْفَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى تَتَابُعِ الشَّيْءِ مُتَّصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَالْآخَرُ عَلَى السُّكُونِ وَالطُّمَأْنِينَةِ. فَالْأَوَّلُ الْعُرْفُ: عُرْفُ الْفَرَسِ. وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِتَتَابُعِ الشَّعْرِ عَلَيْهِ. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ الْمَعْرِفَةُ وَالْعِرْفَانُ. تَقُولُ: عَرَفَ فُلَانٌ فُلَانًا عِرْفَانًا وَمَعْرِفَةً وعارف. وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سُكُونِهِ إِلَيْهِ. والعَرِيفُ: القيّم بأمرِ قومٍ عرّفَ عليهم، سُمّي به لأنّه عُرِفَ بذلك الاسم. والتعريف: إنشاد الضالة بأن تصيب شيئاً فتعرفه إذا ناديت من يعرف هذا. والاعترافُ: الإقرار بالذّنب، والذلُّ، والمهانة، والرضَى به. والعَرْفُ: ريحٌ طيّبٌ، تقول: ما أطيب عَرْفَهُ، قال الله

ﷺ: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ ﴿محمد:6﴾؛ أي: طيّبها، والمعرف أيضا: الاسم من الاعتراف، والتعريف: الإعلام. واعتَرَفْتُ القومَ، إذا سألتَهم عن خبر لتَعرِفَه"[1].

(عرف) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (عرف) واشتقاقاته في القرآن الكريم إحدى وسبعين مرة)[2]؛ منها بمعنى المعرفة والعرفان، ضد الجهل بالشيء، كما وردت بمعنى الريح الطيب في موقع واحد، في قوله تعالى: ﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ ﴿محمد: 6﴾، ووردت في مواقع كثيرة بما يدل على القول والإعلام، أو ما يدل على الاعتراف بالذنب وما شابه ذلك، جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ﴿البقرة :263﴾.

التفسير: ذكر العلماء في: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أقوال؛ منها: "أن أُمِرتُمْ بِقَوْلٌ مَعْرُوفٌ، وقولٌ جميل، ودعاءُ الرجل لأخيه المسلم وَمَغْفِرَةٌ وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسئول أو نيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل، أو عفو من جهة السائل لأنه إذا ردّه ردّا جميلا عذره خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً. وَقِيلَ: هُوَ الدُّعَاءُ وَالتَّأَسِّي وَالتَّرْجِيَةُ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ، وَقِيلَ: الدُّعَاءُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، وَقِيلَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ خَيْرٌ ثَوَابًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى. وَقِيلَ: التَّسْبِيحَاتُ وَالدُّعَاءُ وَالثَّنَاءُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْمَغْفِرَةُ، أي: السَّتْرُ عَلَى نَفْسِهِ وَالْكَفُّ عَنْ إِظْهَارِ مَا ارْتَكَبَ، وَتَنْكِيرُ

---

1 الفراهيدي، العين، باب العين والراء والفاء معهما ع ر ف، الجوهري، الصحاح، (عرف)، ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص661، ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص281.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 458- 459.

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ لِلتَّقْلِيلِ، أَيْ أَقَلُّ قَوْلِ مَعْرُوفٍ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى. وَالْمَعْرُوفُ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ، أَيْ لَا يُنْكِرُونَهُ. "[1].

البعد البلاغي: لقد جاء لفظ (معروف)، وهو أحد مشتقات الأصل (عرف) في الآية الكريمة، لتعريف القول وبيان الخيرية فيه، وتخصيصه بما فيه جدوى في التعامل بين الناس والتواصل، وإشاعة الخير والتسامح والمودة بما يؤلف قلوب البشر، ويشعرهم بالأمان فيما بينهم، وسكونهم إلى ما يعرفون ويألفون، ويحمل هذا اللفظ دلالات الإعلام والإعلان ليصبح فيما بين الناس أمرا معروفا متداولا مشهورا، ولو اقتصرت الآية على لفظ (قول) دون إضافة المعروف إليها لما تميز المعنى، وما اكتملت الخيرية. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ﴾ جملة خبرية اسمية تقريرية.

(2)- وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿غافر:11﴾.

التفسير: أي "إِنَّ الْمَقْصُودُ هُوَ اعْتِرَافُهُمْ بِالْحَيَاةِ الثَّانِيَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَهَا، فاعترفوا بذنوبهم السابقة التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه، وأقروا بشركهم،، وظهر لهم أن البعث حق، واعترفوا اعتراف ذل ومهانة، بـــ(القول) الذي يعبر عن مراجعتهم لأنفسهم، وما سلف منهم من التكذيب، والإنكار للبعث، فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ النار من سَبِيلٍ "[2]، "

البعد البلاغي: لقد جاء تعبير الذكر الحكيم عن قول الكافرين بلفظ مختلف من ألفاظ القول ليتميز بدلالاته عن باقي (الأقوال) بما يناسب حال الكافرين من (الاعتراف)، بطريقة الإعلام

---

1 الطبري، جامع البيان، ج5، ص520، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص312، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص309، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص158، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج2، ص660، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص47 .

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 199، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 97.

والإعلان على رؤوس الأشهاد بذل ومهانة ظاهرين من عويلهم وصراخهم، رجاء الخلاص، والخروج مما هم فيه من العذاب؛ وهو لفظ (قول) جاء التعبير به لأنه الأنسب في المعنى من لفظ (قال)، وجاءت جملة "فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا" جملة خبرية فعلية، من ضمن جملة مقول القول، تفيد معنى التقرير والإقرار على النفس، والاعتراف على الذات بما كان ينكره الكفرة من يوم البعث.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿التحريم: 3﴾.

التفسير: جاء "أنّ النبي ﷺ (عَرَّفَ) حفصة بَعْضَ ما أطلعه الله عليه وأخبرها ببعض الحديث الذي أفشته وأعلمها به. والحديثُ يحتوي على أشياء: منها تحريمِ ماريةَ، أو العسلِ، أو أمرِ الخلافةِ. وقد أخبرتْ حفصةُ عائشةَ بالحديثِ وأفشته إليهَا فأطلعَ الله تعالَى النبيَّ ﷺ على إفشاءِ حفصةَ ورُوِي أنَّه ﷺ قالَ لها: "ألم أقل لكِ اكتمِي عليّ"، قالت: "والذي بعثكَ بالحقِّ ما ملكت"، وَأَعْرَضَ عَنْ تَعْرِيفِهَا بِبَعْضِهِ ولم يخبرها به كاملا، وَإِنَّمَا عرّفها النبي ﷺ بِذَلِكَ لِيُوقِفَهَا عَلَى مُخَالَفَتِهَا وَاجِبَ الْأَدَبِ مِنْ حَفْظِ سِرِّ زَوْجِهَا"[1].

البعد البلاغي: ورد لفظ (عرّف) في الآية الكريمة ليدل دلالة واضحة على مناسبة اللفظ للمعنى المقصود في النص القرآني بحيث أنّ تعريف الرسول ﷺ حفصة بالقول الذي هي قالته، وتعرف ماذا قالت، وهو بالنسبة لها معروف غير منكر، ولم يتقوله الرسول عليها، ثمّ إنّ حفصة أعلمت به عائشة-رضي الله عنهما- (للإعلام والإعلان)، جهرا ولم تستطع كتمانه، كما قالت، وقد (عرّفها) بعضه، وكأنه سحب منها الاعتراف بما قالت عنوة، دليل ردها: "من أنبأك هذا؟"

---

1 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص266، الألوسي، روح المعاني، ج14، ص345، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص353 .

فلو تستطع الإنكار؛ فأقرت معترفة بذنبها، في إفشاء سر زوجها- والذي قد نبهها على كتمانه- ولم تنكره. وهذا ما يتوافق فعلا مع دلالات اللفظ اللغوية، وقد جاء لفظ (عرف) في السياق ليشير إلى فن من فنون (القول)؛ بحيث لا يمكن للفظ (قال) أن يشير إلى كامل ما أشار إليه اللفظ من الاعترافات المتوالية، والتي وضحها تفسير الآية. وجاءت الجملة: (عَرَّفَ بَعْضَهُ) جملة خبر (لَمَّا) فعلية، في حين أنّ (نَبَّأَتْ) اسمها، في الجملة: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾.

*****

(9)- (علن) في المعاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم العربية حول مادة: "عَلَنَ: الْعَيْنُ وَاللَّامُ وَالنُّونُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِظْهَارِ الشَّيْءِ وَالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ وَظُهُورِهِ. يُقَالُ عَلَنَ الْأَمْرُ يَعْلُنُ عُلُوناً وعَلانِيَةً. ويَعْلَنُ وعَلِنَ يَعْلَنُ عَلَناً وعَلانية وأَعْلَنْتُهُ إعلاناً إذا شاع وظهر. وَالْعِلَانُ: الْمُعَالَنَةُ، علن الأمر يعلن علن بمعنى: جهر وانكشف. والإعلانُ في الأصل: إظهار الشَّيْءِ. ولا يقال: أعلن إلاّ للأمر والكلام"[1].

(علن) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (علن) واشتقاقاته في القرآن الكريم ست عشرة مرة)[2]، كلها بمعنى إعلان الأمر أو الكلام؛ الجانب المقصود من الدراسة: منها:

---

1 الفراهيدي، العين، باب العين واللام والنون معهما (ع ل ن)، ابن فارس، مجمل اللغة، باب العين واللام ومـــا يثلثهما، ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص111، ابن منظور، اللسان، حرف النون، فصل العين المهملـــة، أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ص1545.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص481، ع ل م.

(1)- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿إبراهيم:38﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنت يا ربنا تعلم سرنا كما تعلم علننا، وأنت أعلم بأحوالنا ومصالحنا وأرحم بنا منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب لكنا ندعوك إظهاراً لعبوديتك وافتقاراً إلى رحمتك واستعجالاً لنيل ما عندك. أو في عموم ما نخفي وما نعلن. وقِيلَ: هي من دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام لما ودّع هاجر عليها السلام في أرض مكة، فحزن من ألم الوداع والفرقة، فدعا بهذا الدعاء، فقصد به مَا نُخْفِي مِنَ الْوَجْدِ لِمَا وَقَعَ بَيْنَنَا مِنَ الْفُرْقَةِ، وَمَا نُعْلِنُ مِنَ الْبُكَاءِ وَالدُّعَاءِ والتضرع إليك والتوكل عليك، أي أنت تعلم ما تخفى قلوبنا حين سؤالك ما نسأل، وما نعلن من دعائنا فنجهر به"[1].

البعد البلاغي: جاء لفظ (علن) ليعبر عن فن جديد من فنون القول، فيها بيان علم الله والإقرار بسعته مما لا يخفى عليه شيء من الإعلان والإظهار، والتوسل والتضرع بالدعاء والكلام والقول الظاهر، بالإضافة إلى ما خفي، تمييزا لها عن باقي ألفاظ (القول)؛ لأن في (القول) ما هو مخفي وما هو معلن، لذا لن يستقم المعنى لو كان للتعبير به بدلا من (علن) الذي جاء ليؤكد الجانب المعلن من الدعاء.

وجاءت جملة: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى النداء المقصود منه الدعاء؛ أي: المنادى هو ربنا، يا ربنا...ثم جاءت جملة الدعاء جملة خبرية اسمية، تقريرية، مؤكدة بـــ(إِنَّ) المضافة إلى كاف الخطاب (إِنَّكَ). وجاء بين لفظي: (نُخْفِي) (نُعْلِنُ) طباق إيجاب.

---

1 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص201، ابن حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص449، المراغي، أحمد بن مصطفى، المتوفى1371هـ، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة بـابي المصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ط1365هـ - 1946م، ج29، ص80 .

(2)- و قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ﴿النحل:19﴾.

التفسير: جاء في هذه الآية: "إنّ الله الذي هو إلهكم أيها الناس، يعلم ما تسرّون في أنفسكم في ضمائركم فتخفونه عن غيركم، ويعلم ما تبدون وتعلنون بألسنتكم من أقوال ومن جوارحكم من أفعال، أي ما تُبْطِنُونَهُ وَمَا تظهرونه. يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ"[1].

البعد البلاغي: جاء التعبير القرآني باللفظ (علن) وهي فن من فنون القول، مختص بالظاهر منها؛ ليبين شمول علم الله ﷻ مفصلا، ولو كان التعبير بلفظ (قال) لما تبين من السياق الجانب (المخفي) من علم الله ﷻ بمقابل نظيره (المعلن) لذا تميز هذا المقال واستقام في هذا المقام، دون غيره من الألفاظ. وجاءت الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ من الجملة الخبرية، وجاء بين لفظ (تُسِرُّونَ) ولفظ (تُعْلِنُونَ) بديعية طباق الإيجاب.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ﴿نوح:9﴾.

التفسير: جاء في معاني هذه الآية على لسان سيدنا نوح ﷺ أن: "صرخت لهم، وصحت بالذي أمرتني به من الإنذار، ولَمْ أُبْقِ مَجْهُودًا، وخلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر، فالحاصل أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السر، ثم دعاهم جهاراً، ثم دعاهم في السر والعلن، فافتتح بالمناصحة في السر فلما لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة فلما لم تؤثر ثلث الجمع بين الإسرار والإعلان. والجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد احدهما، يَنْصَحُ فِي السِّرِّ فَإِنَّهُ جَدِيرٌ أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، فَلَمَّا لَمْ يُجْدِ الْإِسْرَارَ، انْتَقَلَ إِلَى ما هو أَشَدُّ مِنْهُ وَهُوَ دُعَاؤُهُمْ جِهَارًا صَلْتًا بِالدُّعَاءِ إِلَى

---

1 الطبري، جامع البيان، ج17، ص187، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص93، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص564 .

اللَّهِ لَا يخشى أَحَدًا، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عَادَ إِلَى الْإِعْلَانِ وَإِلَى الْإِسْرَارِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ دَعَاهُمْ جِهَارًا، أَيْ عَلَنًا"[1].

البعد البلاغي: جاء التعبير القرآني عن اعتذار سيدنا نوح عليه السلام لله ﷻ بأنه لم يأل جهدا في تبليغ قومه، في كل حالات الدعوة المعروفة، وأوقاتها، وقد أفردها ابتداء، ثم جمع بينها في كافة أقواله الدعوية؛ السر والعلن، وقد تبين ذلك من استخدام الذكر الحكيم للفظ (علن) للتعبير عن الفن الدعوي (القولي) بالجهر، مقابل استنفاذه للوجه الآخر من الدعوة السرية، ولو جاء التعبير بـ (قلت) لهم، أو (قال) لما تبين لمتلقي النص القرآني تعدد حالات الدعوة والمعاناة التي بذلها سيدنا نوح عليه السلام مع قومه، وبيان استنفاذ كل حالات الوعظ الممكنة. وقد جاءت الجملة القرآنية: "ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ" جملة خبرية اسمية، مؤكدة بـ(إنّ) المشددة، وهي من ضمن جملة مقول القول الذي قدمه نوح عليه السلام إلى ربه ﷻ معتذرا عن جحود قومه، ورفضهم الدعوة السماوية، ومن البلاغة البديعية جاء بين لفظ (أَعْلَنْتُ) و(أَسْرَرْتُ) طباق، وجاء بين (أَسْرَرْتُ) و (إِسْرَارًا) جناس اشتقاق.

*****

(10)- (فاض، فيض) في معاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة (فاض): "فَيَضَ: الْفَاءُ وَالْيَاءُ وَالضَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَرَيَانِ الشَّيْءِ بِسُهُولَةٍ، ثُمَّ يُقَاسُ عَلَيْهِ. مِنْ ذَلِكَ فَاضَ الْمَاءُ يَفِيضُ. وَمِنْهُ: أَفَاضَ

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص632، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص301، النسفي، مـدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج3، ص543.

الْقَوْمُ مِنْ عَرَفَةَ، إِذَا دَفَعُوا، وَذَلِكَ كَجَرَيَانِ السَّيْلِ. وَأَفَاضَ الْقَوْمُ فِي الْحَدِيثِ، إِذَا أَخذوا فيه أو انْدَفَعُوا فِيهِ، فاضَ صدرُ فلانٍ بِسرِّه اذا امتَلأ فأظهَرَه"[1].

(فاض، فيض) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (فاض) ومشتقاته في القرآن الكريم تسع مرات)[2]، ستة منها بمعنى الجريان بسهولة، والثلاثة الباقية بمعنى الإفاضة بالقول أو الحديث، جانب من مقاصد البحث، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿يونس:61﴾.

التفسير: ذكر بعض المفسرين في معنى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، أي: "إذ تشيعون في القرآن الكذبَ وتَتَكَلَّمُونَ وتَخُوضُونَ فيه وتَنْشُرُون الْقَوْلَ، وتَنْدَفِعُونَ به بكثرة، وتَأْخُذُونَ بنقله بين الناس، وتسعون بذلك لتعم الإساءة لعظمة القرآن الكريم"[3]. وجاء أيضا: "وَمَا كُنْتَ فِي شَأْنٍ وَمَا تَلَوْتَ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا عَمِلْتُمْ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ أَفَضْتُمْ فِيهِ وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾، فِيهِ تَحْذِيرٌ وَتَنْبِيهٌ عَدَلَ عَنْ خِطَابِهِ ﷺ إِلَى خِطَابِ أُمَّتِهِ بِقَوْلِهِ: وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلَى أَعْمَالِ الخلق كلهم. وتفيضون: تَخُوضُونَ، أَوْ تَنْشُرُونَ، أَوْ تَنْدَفِعُونَ، أَوْ تَنْهَضُونَ، أَوْ تَأْخُذُونَ، أَوْ تَنْقُلُونَ، أَوْ تَتَكَلَّمُونَ، أَوْ تَسْعَوْنَ، أَقْوَالٌ"[4] ثم يقول الحق سبحانه: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة

---

1 الفراهيدي، العين، باب الضاد والفاء و(و أ ي ء) معهما، ابن فارس، مجمل اللغة، باب الفاء والياء وما يثلثهما، ابن فارس، مقاييس اللغة، ، (فيض)، ابن سيده، المحكم، مقلوبة (ف ي ض) .

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 528.

3 الطبري، جامع البيان، ج15، ص115، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص356، ابو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص79، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص213 .

4 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص 79.

للمنهج فور أن يبلّغه الرسول ﷺ. والإقبال على العمل التكليفي بهذا الشوق، وتلك اللهفة، وحسن الاستقبال، وإخلاص الأداء، كل هذه المعاني يؤول إليها قول الحق سبحانه: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل. أي: أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب"[1].

البعد البلاغي: تسفر هذه المعاني عن الحديث عن القرآن الكريم، منها ما يفسر تفيضون بالتدبير والتشكيك فيه، والإساءة إليه، وهو نوع من أنواع القول، يقصد منه البث والنشر علنا بين أكبر عدد من الناس، وبأقصى سرعة-كجريان الماء مندفعاً-وقد جاء التعبير القرآني باستخدام لفظ (فيض) للتعبير عن هذا القول متزامنا مع الكيفية والكم والمقصد، ومنها ما يفسر الإفاضة بسرعة الاستجابة، وتقبل المنهج، والعمل فيما جاء به بهمة ونشاط، بحيث لو تم استبداله بلفظ (قال) لا يمكن أن تتضح تفاصيل الدلالة، ولا تتبين منه السرعة في النشر، والرغبة في التلقي والسرعة في التداول والإعلان؛ لأنه لفظ عام لكل ما يمكن أن يقال، بصرف النظر عن الكم والكيفية. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ جملة خبرية فعلية، تعليلية.

(2)- و قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿النور:14﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير أنّ: "هذا عتاب من الله تعالى بليغ للخائضين في أمر عائشة، المُشِيعُون لحديث الإفك، ذكر أن حالتهم التي وقع فيها جميعهم من اندفاعهم في تعاطي الحديث، والإفاضة والأخذ فيه، والتلقي من لسان إلى لسان هو الذي وقع العتاب فيه، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَمَسَّكُمْ﴾ بِسَبَبِ مَا قُلْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَلَكِنَّهُ

---

1 الشعراوي، الخواطر، ج10، ص 6015.

بِرَحْمَتِهِ سَتَرَ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وأمهلكم للتوبة ليتوب عليكم في الآخرة، والإبهام فيما أفضتم لتهويل أمره والاستهجان بذكره يقال أفاضَ في الحديثِ وخاضَ واندفعَ"[1].

البعد البلاغي: استعير لفظ (أفاض) من إفاضة الماء في الإناء للكثرة وسرعة الجريان وذلك للدلالة على الصورة التي كان عليها الخائضين في أمر عائشة- رضي الله عنها- واستعجالهم وارتفاع همتهم للسرعة في النشر على أكبر مساحة مع أكثر عدد من المتناقلين لهذا القول. وقد بيَّنَ ﷺ صورتهم وطريقة تعاطيهم الخبر ورغبتهم في سرعة نشره بلفظ واحد من ألفاظ فنون القول؛ ألا وهو (أَفَضْتُمْ)، بحيث لا يمكن للفظ (قال)، أو أي لفظ آخر أن يقوم مقامه في هذا السياق، ويعطي صورة أهل المدينة بكامل ألسنتهم وآذانهم بين مصدق محوقل، ومكذب مستاء، من غير أن يرافقه كثير من الشرح وبيان المقصد. وجاءت الجملة: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جملة جواب أداة الشرط غير الجازمة (لولا) وهي أداة امتناع لوجود؛ حيث امتنع مسهم بالعذاب فيما أفاضوا فيه من الحديث في عرض عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- لوجود رحمة الله ﷺ؛ فالجملة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ هي جملة فعل الشرط؛ التي بسببها امتنع وقوع جملة جواب الشرط.

(3)- و قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿الأحقاف:8﴾.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص130، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص219، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت- 1422 ه، ج4، ص170-171، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص203، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج8، ص22، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج6، ص162، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج18، ص177 .

التفسير: ذكر بعض المفسرين في قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾أي: "إنّ ربي أعلم من كل شيء سواه بما تقولون بينكم في هذا القرآن من القدح والخوض والتكذيب وكَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يشهد لي بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والإنكار، وهو وعيد بجزاء إفاضتهم، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن، وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم جرمهم"[1].

البعد البلاغي: عبر ﷻ بأحوال المكذبين وتقولهم على القرآن الكريم والتكذيب بآياته، والخوض فيه، وافترائهم على نبيه ﷺ بلفظ واحد هو (تُفِيضُونَ)، وقد أشار هذا اللفظ إلى فن من فنون (القول) يحمل دلالات الرغبة في الإساءة، والعمل على سرعة النشر وبث الإساءة للقرآن علنا بين الناس، بحيث لا يمكن أن نجد كامل دلالاته بلفظ آخر من ألفاظ القول مثل لفظ (قال)، وذلك لعمومية دلالاته ومعانيه، بحيث لن يعبر عن الكيفية التي كانوا فيها من الحركة والسرعة والنشاط في نشر أكبر قدر من الأقاويل المكذوبة على القرآن الكريم، وتوزيعها على أكبر مساحة من المرجفين، لتجري بينهم كجريان الماء المتدفق لا يحده خوف ولا وجل. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ جملة خبرية اسمية مؤكدة، لا تحتمل غير الصدق، لأن المخبر هو الله ﷻ، وهو يتكلم عن ذاته بدليل اسم الإشارة (هو) الذي يعود على ذات الله ﷻ.

*****

---

1 الطبري، جامع البيان، ج22، ص96-97، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص296-297، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص184، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص112.

(11)- (نبأ) في معاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "(نَبَأ): مهموز، النُّونُ وَالْبَاءُ وَالْهَمْزَةُ قِيَاسُهُ الْإِتْيَانُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ؛ يُقَالُ لِلَّذِي يَنْبَأُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ نَابِئٌ. وَسَيْلٌ نَابِئٌ: أَتَى مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَرَجُلٌ نَابِئٌ مِثْلُهُ. وَمِنْ هَذَا الْقِيَاسِ النَّبَأُ: الْخَبَرُ، لِأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. وَالْمُنْبِئُ: الْمُخْبِرُ. وَأَنْبَأْتُهُ وَنَبَّأْتُهُ واستنبأته: الخَبَرُ، وإنّ لفُلانٍ نبأً، أي: خَبَراً، وقَدْ أَنْبَأَه إِيّاه وَبِهِ، وكَذلِكَ نَبَّأَه. والجميع: الأنباء. والنَّبْأة: النَّغْيةُ، وهو صوت يُشكُّ فيه ولا يُتَيَقَّنُ. النبأة: الصوت الخفي"[1].

(نبأ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (نبأ) ومشتقاته في القرآن الكريم إحدى وثمانين مرة)[2]، كلها بمعنى الخبر الصادر من القول والكلام، جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿آل عمران: 15﴾.

التفسير: ذكر عدد من المفسرين في معنى (أَؤُنَبِّئُكُمْ) أي: "أؤخبركم وأعلمكم، والمراد من الإنباء الإخبار، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْعَرْضِ تَشْوِيقًا لِنُفُوسِ الْمُخَاطَبِينَ إِلَى تَلَقِّي مَا سَيُقَصُّ عَلَيْهِمْ"[3]. والمقصود هو أؤنبئكم بما هو خير لكم مما ذكر من زينة الحياة الدنيا مما ورد تعداده في الآية السابقة.

---

1 الفراهيدي، العين، باب النون والباء، و(و ا ي ء) معهما (ن ب)، ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص385 باب نبأ، الأصفهاني، المفردات، ص788- 789، ابن منظور، اللسان، حرف الألف، فصل النون، الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج1، ص74.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص685- 686.

3 الطبري، جامع البيان، ج6، ص259، الألوسي، روح المعاني، ج2، ص98، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص184.

البعد البلاغي: بالطبع فإن تشويق النفوس لا يتم بما تعاينه في اللحظة الراهنة، بل بما توعد به وتمنّى بنواله في المستقبل القادم، والمستقبل هذا لا يعلم علمه إلا من عنده خبره، وأن تخبر الخبر لا بد من قول يقال؛ فجاء الوعد من الله ﷻ للمتقين بلفظ يحمل لهم القول والخبر (أَؤُنَبِّئُكُمْ) والتشويق الصادق، بإعجازه البياني الذي لن يتحقق بلفظ آخر مثل (أقل لكم) ذلك لأن القول لايعبر للمتلقي بلفظه المنفرد هذا عن محتوى القول والنبأ، وما يحمل القول مما يجهلون ويرغبون من الخيرية التي يوعدون بها. وجاءت جملة (أَؤُنَبِّئُكُمْ) جملة مقول القول لفعل الأمر: (قُلْ)، وهي جملة إنشائية استفهامية، تشويقية.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿يونس:53﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾، أي: "ويستخبرونك يا محمد، فيقولون أَحَقٌّ هُوَ؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء عن الْعَذَابِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ، أحق ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة؟ تقوله بجد أم باطل تهزل به؟، وهَذَا حِكَايَةُ فَنٍّ مِنْ أَفَانِينِ تَكْذِيبِهِمْ، فَمَرَّةً يَتَظَاهَرُونَ بِاسْتِبْطَاءِ الْوَعْدِ اسْتِخْفَافًا بِهِ، وَمَرَّةً يُقْبِلُونَ عَلَى الرَّسُولِ فِي صُورَةِ الْمُسْتَفْهِمِ الطَّالِبِ فَيَسْأَلُونَهُ: أَهَذَا الْعَذَابُ الْخَالِدُ، أَيْ عَذَابُ الْآخِرَةِ، حَقٌّ"[1].

البعد البلاغي: جاء التعبير القرآني في هذه الآية بلفظ ﴿يَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ ليستفهم عن وقوع خبر، أو حدث لم يقع بعد، وهذا (الاستنباء) فن من فنون (القول)، لأنه لا يتم سؤال واستفهام بغير تواصل ونطق وكلام، وهو لفظ يشير إلى (قول)؛ ولكنه أنسب من لفظ (قال) في هذا السياق؛ لأن (قال) لفظ عام لا يعبر عن سؤال، ولا يفهم منه التعبير عن نبأ أو خبر بعيد؛ كما هو الحال مع لفظ (نبأ) الذي يختص بالدلالة عن سؤال و استفهام عن خبر بعيد – وهو وإن كان

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص 195.

يحمل زيادة في المبنى أنما ليدل على زيادة في المعنى، وهي افتعالهم السؤال، والتظاهر في انتظار الإجابة. ثم ما كان هذا (الاستنباء) سرا؛ وإنما كان علنا ليستجلبوا أصابع الاتهام إلى حقيقة الوعد الحق. وجملة: (﴿يَسْتَنْبِئُونَكَ﴾، جملة خبرية تتحدث عن افتعالهم السؤال، والاستنباء عن العذاب وقيام الساعة.

(3)- وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿يوسف:37﴾.

التفسير: ذكر: "أنّ يوسف عليه السلام ينبئ صاحبي السجن بقدرته على معرفته بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما، يَعْنِي لَا يَجِيئُكُمَا غَدًا طَعَامٌ مِنْ مَنْزِلِكُمَا ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ لِتَعْلَمَا أَنِّي أَعْلَمُ تَأْوِيلَ رُؤْيَاكُمَا، فَقَالَا: افْعَلْ! فَقَالَ لَهُمَا: يَجِيئُكُمَا كَذَا وكذا، فكان على ما قال، وَكَانَ هَذَا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ خُصَّ بِهِ يُوسُفَ من عند الله ﷻ، أي لبيان ماهيته وكيفيته لما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترض ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وَهُوَ الْإِخْبَارُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّهُ يُنَبِّئُهُمَا بِمَا يُحْمَلُ إِلَيْهِمَا مِنَ الطَّعَامِ فِي السِّجْنِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمَا، وَيَصِفُهُ لَهُمَا"[1].

البعد البلاغي: يتضح من الآية الكريمة أنّ يوسف عليه السلام سيخبر سائليه عما يستفهمان عن أمور بعيدة الوقوع، ويؤكد لها أنه سيعلمهما مما يعلم -بفضل الله- ما أشكل عليهما، أو عما سبب لهما الاستهجان والاستغراب، ولن يكون إعلامه هذا من غير كلام وقول معروف لدى الطرفين، وجاء التعبير القرآني عن هذا الإجراء بفن من فنون القول، ليميزه عن باقي الأقوال المعتادة، بحيث يحمل معنى القول ومعنى الإخبار عن الغيب في آن، فكان لفظ (نبأ)، الذي أكد

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص470، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص191، النسفي، مدارك التنزيل، ج2، ص110، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص276.

على المفهوم اللغوي، الذي يشير إلى الأخبار البعيدة، لنبوها عن الواقع، وغرابتها عنه، والمعنى التفسيري الذي يؤكد على تميز يوسف عليه السلام بعلمه بالأنباء الغيبية التي خصه الله ﷻ بمعرفتها، وحصول ما يُخبر عنه صاحبي السجن حقيقة، ويرزقان من الطعام ما يخبرهما به، وجاء التعبير بهذا اللفظ؛ لأنه الأنسب في هذا السياق، ولأنه يحمل معنى القول، والخبر القادم من بعد في آن. وجاءت الجملة ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ جملة مقول القول للفعل (قال)

*****

(12)- (نشر) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة (نشر) ما يلي: "نَشَرْتُ الخبر أَنْشُرُهُ وأَنْشِرُهُ، إذا أذعته، ونشر الثناء الحسن. ونشر الخبر: أذاعه. وانتشر الخبر في الناس انْذاع"[1].

(نشر) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (نشر) واشتقاقاته في القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة)[2]؛ ولم يأتِ أي منها بالمعنى المقصود من الدراسة، ولكن لا يعني ذلك أي تعارض مع استخدامه في اللغة بمعنى شيوع الخبر وانتشاره.

وبهذا يكون انتهى البحث في المبحث الثالث -بفضل من الله,,,

*****

---

1 الجوهري، الصحاح، ج2، ص828، ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص706، ابن سيده، المحكم، ج8، ص42، الزمخشري، أساس البلاغة، ج2، ص270، ابن منظور، اللسان، حرف الراء فصل النون .

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، ص701.

المبحث الرابع

ألفاظ القول الدالة على "نقل المعلومة بالخفاء" وبيان معانيها، وصورها البلاغية

سأتناول في هذا المبحث أحد عشر لفظا، تم تصنيفها على أنها أكثر ما تعبر على نقل المعلومة بـ(الخفاء) أكثر من غيرها من الألفاظ، وهي: (بيَّت، خفت، خفا، سرَّ، كتم، كنَّ، لمز، همز، همس، وحي، وسوس)، ولمعرفة مدى توافق معانيها تحت عنوان هذا المبحث، لا بد من البحث في دلالاتها المعجمية، لمعرفة معانيها اللغوية، ثم البحث عن مواطنها في القرآن الكريم، وعدد ورودها في القرآن الكريم؛ بالمعنى المقصود من الدراسة، والوقوف على معانيها حسب ما يقتضيه سياقها، ثم بيان أساليبها البلاغية.

*****

(1)- (بيَّت) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة العربية حول مادة (بيَّت) ما يلي: "بَيَّتَ الْأَمْرَ إِذَا دَبَّرَهُ لَيْلًا، وأتاهُم الأمرُ بَياتاً، أي أتاهم في جَوْفِ الليلِ، وباتَ يفعل كذا، إذا فعله ليلاً"[1].

(بيَّت) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (بيَّت) واشتقاقاته في القرآن الكريم أربع مرات)[2]، واحدة منها بمعنى التبييت الظرفي، والزمني، وثلاثة بمعنى تبييت القول مع المكر والخديعة، وهما في آيتين؛ هما:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿النساء: 81﴾.

---

1 الفراهيدي، العين، ج8، ص139، الجوهري، الصحاح، (بيت)، ابن فارس، مقاييس اللغة، (بيت).

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص140.

التفسير: "ذُكر أنّه لما كتب القتال على المسلمين، جاء فريق من المنافقين فقالوا لرسول الله ﷺ: أمرك طاعة، ولك منا طاعة فيما تأمرنا به وتنهانا عنه، فإذا خرجوا من عندك، زورت جماعة منهم وسوّت وحرفت بالقول وموهت ليلا غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وخلاف وما أمرت به وخلاف ما عهدت إليهم به. ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ﴾ وما يحرفون ويثبته في صحائف أعمالهم"[1].

البعد البلاغي: يشير تفسير الآية أنّ لفظ (بيَّت) ينضم إلى ألفاظ (القول)، ليضيف إليها معاني ودلالات جديدة لا يمكن للفظ (قال) أن يحملها أو يشير إليها من غير كثير من التوضيح بجمل أو كلمات لو جاء في سياقها الذي وردت فيه؛ وهو تزوير(القول) وتحريفه، ونقض العهد وتبديله إلى غير ما اتفق عليه، مشفوعا بـــأهم دلالة في لفظ (بيّت) هو (الزمن) محصورا بـــ(الليل) بقصد الخفاء السلبي، والسرية التامة، لأن العبرة بتزامنهما، بالإضافة إلى ما يحمله اللفظ من إشارات تدل على نفسية المُبَيِّت، وعزمه على اتخاذ القرار منفردا بقصد الإساءة للمقابل، والغدر به، والمباغتة والمفاجئة والمكر، ونقض للعهود والمواثيق؛ ولكن ذلك كله لا يخفى على الله ﷻ فيكتب ما يبيتون ويحصيه عليهم. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ جملة خبرية فعلية. شرطية من أداة الشرط (إذا)، وجملة (بَرَزُوا) جملة فعل الشرط، وجملة (بَيَّتَ) جملة جواب الشرط.

(2)- وقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ ﴿النساء:108﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية: "إنّ الذين يرتكبون المعاصي ويختانون أنفسهم ويخفون ما أتوْا من الخيانة، وركبوا من العار والمعصية من الناس ويدبرون أمورهم ضد المسلمين ليلا،

---

1 الطبري، جامع البيان، ج8، ص562، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص539، القرطبـــي، الجـــامع لأحكـــام القرآن، ج5، ص288-289، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص86.

خوفا من أن تفضح أمورهم وتنكشف أسرارهم، ويكرهون أن يراهم أحد حين يسيئون ويدبرون ما لا يرضى من القول، فيغيّرونه عن وجهه، ويكذبون فيه، لا يمكنهم أن يستخفون من الله؛ لأنه مطلع على أعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، وأنّ الخونة أبدًا يسترون على أنفسهم خيانتهم، لكون قبحها مركوزًا في نفوسهم، وإنهم إن ستروها على الناس فليست تستتر على الله. وكان الله بما يعمل هؤلاء محصيًا لأعمالهم، لا يخفى عليه شيء منها، حافظًا لذلك حتى يجازيهم عليه جزاءهم"[1]. "ومن هذا التبييت والتدبير الحلف الكاذب وتزوير الحقائق، وهو تدبير طعمه اليهودي بأن يحلف كذبا ويشهد زورا ويرمي بالدرع في دار زيد، ويرميه بتهمه السرقة–وهو سبب نزول الآية"[2]. "وقد سمي التدبير قولا– مجازا– وهو في الحقيقة معنى في النفس؛ وذلك لمّا حدّث بذلك نفسه سمي قولا على المجاز"[3]، "يُبَيِّتُون يقولون مَا لَا يَرْضَى أيْ: مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ مِنَ الْقَوْلِ أيْ مِنَ الرأي والاعتقاد، وقِيلَ: (الْقَوْلِ) بِمَعْنَى الْمَقُولِ، لِأَنَّ نَفْسَ الْقَوْلِ لَا يُبَيَّتُ"[4]، "إِذْ يُبَيِّتُونَ يدبرون ويزورون، مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور، وهو دليل على أنّ الكلام هو المعنى القائم بالنفس حيث سمي التدبير قولاً"[5].

البعد البلاغي: تفاوت توضيح العلماء في بيان معنى (بيَّت) تحديدا، ولكن أكثرها يشير إلى ما يدل على (القول) بدليل: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ إشارة إلى وجود (قول) ما،

---

1 الطبري، جامع البيان، ج9، ص191-192، الراغب الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، جـزء 2، 3: من أول سورة آل عمران – وحتى الآية 113 من سورة النساء، تحقيق ودراسة: د. عادل بن علي الـشِّدي، دار النشر: دار الوطن – الرياض، 1424 هـ – 2003 م ج 3، ص 1428.

2 الزمخشري، الكشاف، ج1، ص563.

3 الزمخشري، الكشاف، ج1، ص563.

4 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص379.

5 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص95، النسفي، مدارك التنزيل، ج1، ص394.

لا يرضي؛ لما فيه من حياكة المؤامرات وتدبيرها، وافتعال أقوال وأفعال، وتغيير حقائق مسيئة للغير، والعزم على ذلك بمهارة وخفاء، مع سبق الإصرار والترصد لقدوم (الليل) ليتم فيه ذلك؛ بسرية تامة، وانفراد مطلق في اتخاذ القرار، والتخطيط لتبييته، ليكون قد نضج تماما في الصباح، بقصد مداهمة الند لتضييق الحجة عليه، وسلبه القدرة على الرد والمجابهة –ولكن كل ذلك لا يخفى على الله ﷻ. ولا يمكن لهذه المعاني كاملة أن يحتملها لفظ (قال) أو يشير إليها لو استبدل بلفظ (بيّت) في سياقه الذي ورد فيه؛ علما أن كليهما من ألفاظ القول. ذلك لأنّ الاحتمالات في لفظ (قال) أو أي من مشتقاته واردة كلها؛ بما في ذلك التبييت وعدمه، فهي لا تخصص في هذا السياق المقصود منه تحديدا؛ وإن كانت تعبر عن القول؛ لذا جاء التعبير القرآني بلفظ بياني بليغ يحمل المعنى مصاحبا للمقصد، متزامنا مع وقته الذي تميز به، وبالسرية المرجوة. وجاءت الجملة: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ جملة خبرية تعليلية، تفسيرية، أو هي جملة تفصيلية لما ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾

*****

(2)- (خفت) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة (خفت) ما يلي: "(خَفَتَ) الْخَاءُ وَالْفَاءُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِسْرَارٌ وَكِتْمَانٌ. والْخَفْتُ والمخافتة: إِسْرَارُ النُّطْقِ. خفت: صَوْتٌ خَفِيت، وخَفَتَ خُفُوتاً أي خفض خفوضاً. ويقال للرجل إذا مات: قد خَفَتَ أي انقطع كلامه، خَافَتَ بِالْكَلَامِ أَسَرَّهُ

بِحَيْثُ لَا يَكَادُ يَسْمَعُهُ الْمُتَكَلِّمُ، والرجل تخافَتَ بقولته إذا لم يبينها برفع الصوت، وهم يَتَخافَتُونَ إذا تشاوروا سرا. خَفَتَ الصوتُ خُفوتاً: سكن، ومنطقه خفات. وخافت بقراءته"[1].

(خفت) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (خفت) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاث مرات)[2]، هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿الإسراء:110﴾.

التفسير: ذكر: "أنّه عنى بالصلاة في هذا الموضع: الدعاء. وقيل الدعاء والمسألة، وقيل: أن لا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك ودعائك فيها ربك ومسألتك إياه، وذكرك فيها، فيؤذيك بجهرك بذلك المشركون، ولا تخافت بها فلا يسمعها أصحابك، وابتغ بين ذلك سبيلا: بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار. وقيل أنها نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: " وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ" فَيَسْمَعَ الْمُشْرِكُونَ قِرَاءَتَكَ. "وَلَا تُخَافِتْ بِهَا" عَنْ أَصْحَابِكَ. أَسْمِعْهُمُ الْقُرْآنَ وَلَا تَجْهَرْ ذَلِكَ الْجَهْرَ. "وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا" أي: بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمُخَافَتَةِ، لِأَنَّهُ

---

1 الفراهيدي، العين، باب الخاء والتاء والفاء معهما(خ ف ت)، الجوهري، مختار الصحاح، (خفت)، ابن فارس، مجمل اللغة ، باب الخاء والفاء وما يثلثهما، ابن فارس، مقاييس اللغة، (خفت)، الزمخشري، أساس البلاغة، (خ ف ت)، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص96.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص235.

مَعْلُومٌ أَنَّ الْجَهْرَ وَالْمُخَافَتَةَ يتعاقبان عَلَى الصَّوْتِ لَا غَيْرُ. وَالْمُخَافَتَةُ: خَفْضُ الصَّوْتِ وَالسُّكُونُ"[1].

البعد البلاغي: يظهر من التفاسير أنّ لفظ (خفت) يشير إلى (القول) ويحمل معناه، ولكن باكتساب صفات جديدة، منها الكيفية في الأداء، متزامنا مع الدرجة في مستوى (الصوت)، لأداء مقاصد عدة من هذا (الخفوت)، منها -في هذه الآية- الترغيب في الإخلاص، بحيث لا يخفى على الله شيء، من قول أو عمل مهما كان سريا، و خفيا غير معلن، ومنها تعليم شرائع للرسول ﷺ، وللمسلمين، ومنها ضمان الأمان من المتربصين والمسيئين، بحيث لا يمكن للفظ (قال) أن يشير إلى هذه الدلالات مجتمعة في هذا السياق لو استبدل بـ(خفت) ويبقي على المقصود نفسه، من غير طول شرح وبيان. وجاءت الجملة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى النهي، والعلاقة بين لفظ: (وَلَا تَجْهَرْ) و(وَلَا تُخَافِتْ) طباق إيجاب.

(2)- وقوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ﴿طه:103﴾.

التفسير: أي: "يتهامس الكافرون ويتسَارُّون يوم القيامة فيما بينهم ويقول بعضهم لبعض: إن لبثتم في الدنيا إلا عشرا، ويقولون لبَعْضُهُمْ هذا القول في الْمَوْقِفِ سِرًّا ويَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ويخفضون أصواتهم، ويخفونها لما يملأ صدورهم من الرعب والهول؛ لئلا يسمعهم أحد على تحسرهم على ما فات منهم، وأصلُ (الْخَفْتِ) فِي اللُّغَةِ السُّكُونُ، ثُمَّ قِيلَ لِمَنْ خَفَضَ صوته خفت"[2].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج17، ص583-588، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص701، للقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص343-344، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص127-128.

2 الطبري، جامع البيان، ج18، ص369-370، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص244-245، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص38، النسفي، مدارك التنزيل، ج2، ص383.

البعد البلاغي: جاء لفظ (خفت) في الآية ليشير إلى دلالات جديدة متزامنة مع (القول) يوضحها السياق من الخفاء والسرية المقصودين من الكافرين، خوفا من تشفي المؤمنين بهم إذا سمعوا تحسرهم وندمهم على ما فات من تفريطهم، وتحسرهم. والتخاف هو في الأصل (قول)؛ ولكنه غير الأقوال المعهودة؛ بدليل التعبير القرآني البليغ الذي جاء بفن جديد من فنون القول ليعبر تعبيرا تاما عن توجسهم وندمهم على ما فات منهم، يتخافت بحيث لا يُسمعون أحدا بما أصابهم يوم القيامة، بحيث لا يمكن للفظ (قال) منفردا أن يشير إلى هذه المعاني والدلالات مجتمعة في هذا السياق لو استبدل به، فجاء التعبير القرآني بلفظ (خفت) ليعبر عن المقصود. وجاءت جملة: (يَتَخَافَتُونَ) جملة خبرية فعلية.

(3)- وقوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ ﴿القلم:23﴾.

التفسير: جاء في تفسير هذه الآية: "أن مضَى الفتية إلى حرثهم، وذهبوا وهم يتسارّون ويتشاورون فيما بينهم ويُخْفُونَ كَلَامَهُمْ وَيُسِرُّونَهُ لِئَلَّا يَعْلَمَ بِهِمْ أَحَدٌ. ويقول بعضهم لبعض: لا يدخلنّ جنتكم اليوم عليكم مسكين. وخفي، وخفت، في خفاء وكتمان"[1]. و "يَتَخَافَتُونَ هُوَ مِنْ خَفَتَ يَخْفِتُ إِذَا سَكَنَ وَلَمْ يُبَيِّنْ أو لم ينبس"[2]. "وقيل: الخفت الإسرار والكلام الخفي، وجاء في المعنى أيضا أنهم كانوا يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد"[3].

البعد البلاغي: توضح الآية أن الفتية كانوا يتبادلون فيما بينهم حديثا قاصدين إخفاءه عن فئة معينة من الناس، لئلا يطمعون بهم، فيضطرون إلى إعطائهم من الثمار، فجاء هذا التعبير

---

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص546-547، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص483، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص590، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص242، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص235.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص 242.

3 القِنّوجي، أبو الطيب، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، ج14، ص 266.

القرآني ليشير إلى مشهدهم وكأن القارئ يرى صورتهم وهم يمشون ويتجاذبون أطراف الحديث بسرية تامة ويخفضون أصواتهم و(يتخافتون) بقولهم، ويضع كل منهم فمه قرب أذن أخيه، بحيث لا يسمعهم أحد من هؤلاء المساكين الفقراء المنتظرين على جانبي الطريق. فهم في حديثهم هذا يقولون (قولا)، لكنه مقيد بالكيفية وبدرجة الصوت، فجاء التعبير القرآني يصور هذه الكيفية بلفظ (خفت) ليصور المشهد تصويرا فنيا دقيقا، بحيث لا يمكن للفظ (قال) أن يعبر عنه أو يشير إليه، لو جاء مكانه في السياق؛ ذلك أن لفظ (قال) يعبر عن عموم ما يقولون؛ لكنه لا يبين خصوصية ما يقولون. وجاءت الجملة: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ جملة خبرية فعلية.

*****

(3)- (خفا) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة (خفا) ما يلي: "خَفِيَ: الْخَاءُ وَالْفَاءُ وَالْيَاءُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ مُتَضَادَّانِ. فَالْأَوَّلُ السَّتْرُ، وَالثَّانِي الْإِظْهَارُ. فَالْأَوَّلُ خَفِيَ الشَّيْءُ يَخْفَى؛ وَأَخْفَيْتُهُ، وَهُوَ فِي خِفْيَةٍ وَخَفَاءٍ، إِذَا سَتَرْتَهُ، وتخفى: استتر: وهو يخفي صوته. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: خَفَا الْبَرْقُ خَفْوًا إِذَا لَمَعَ، وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي أَدْنَى ضَعْفٍ"[1]، "وَيُقَالُ خَفَيْتُ الشَّيْءَ بِغَيْرِ أَلِفٍ، إِذَا أَظْهَرْتَهُ، وَيَقُولُونَ: بَرِحَ الْخَفَاءُ، أَيْ وَضَحَ السِّرُّ وَبَدَا"[2].

(خفا) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (خفا) ومشتقاته في القرآن الكريم أربعاً وثلاثين مرة)[3]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿الأنعام:63﴾.

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، (خفت)، الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، ص260.

2 ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص297.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص236.

التفسير: جاء: "أنّ جهرًا وخفية: إعلانًا وإظهاراً للدعاء أحيانا، وإخفاء أحيانا أخرى، أو معلنين ومسرين في أنفسكم خفية، أو إعلانا وإسرارا، أي: تخفون أصواتكم في دعائكم وتسرونها رجاء الإجابة وتقولون: "لئن أنجيتنا يا رب من هذه الظلمات التي نحن فيها لنكونن من الشاكرين"[1].

البعد البلاغي: يتبين من تفسير الآية أنّ (الخفاء) خفض الصوت، يلتمسه المرء في دعائه؛ حينما يطلب قضاء حوائجه من مالكها، أو القادر عليها، يقوله بينه وبين نفسه، لا يسمعه إلا المولى ﷻ؛ لشعوره أنه أقرب للإجابة. والدعاء (قول) مخصوص، جاء التعبير عنه في بلاغة القرآن بما يدل عليه مع مستواه الصوتي، أو بما هي صفته بلفظ (خفية)، بحيث لا يمكن للفظ (قال) أن يشير إلى كامل المقصود من المعنى دون توضيح مصاحب، أو بيان لما يراد متزامنا مع الجانب غير المعلن منه، كما أشار إلى ذلك لفظ (خفية). وجاءت الجملة: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ جملة حال خبرية؛ أي حالكم حين الدعاء: تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً.

(2)- وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ ﴿مريم:3﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّ زكريا عليه السلام حين رغب في الولد فقام فصلى، ثم دعا ربه سرًا، وسأله بنداء خفي، وهو مستترّ بدعائه ومسألته إياه ما سأل، كراهة منه للرياء، وأقرب للإخلاص، مراعيا سُنّة الله في إخفاء دعوته، لأنّ الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى، أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبر والشيخوخة، أو أسرّه من مواليه وقومه

---

1 الطبري، جامع البيان، ج11، ص414، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص8، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص166، النسفي، مدارك التنزيل، ج1، ص511.

الذين خافهم. أو خفت صوته لضعفه وهرمه، لأنَّ الْمُسْتَحَبُّ مِنَ الدُّعَاءِ الْإِخْفَاءُ؛ لأنّه أشد إخباتاً وأكثر إخلاصاً، وَقِيلَ: فِي جَوْفِ اللَّيْلِ"[1].

البعد البلاغي: جاء لفظ (خَفِيًّا) في الآية ليعبر عن صفة النداء التي نادى بها سيدنا زكريا عليه السلام ربه، والنداء (قول) من الأقوال، مختص بطلب قضاء حاجات أو تقريب المنادى، وجاء في الآية ليعبر عن الحالة الأولى، ولبيان حالة التضرع التي كان عليها سيدنا زكريا عليه السلام، ورغبته في عدم تفشي أمره، والإخلاص لله في دعائه، أو لوهنه وعدم قدرته على الجهر بصوته؛ فالنتيجة واحدة، أنه دعا ربه وناداه نداء (خفيا) لا يسمعه إلا المقصود به للأسباب السابقة، و(الخفا) لفظ يحمل معنى (القول) بالإضافة إلى ما يحمل من معاني السرية والخصوصية، والمناجاة بين اثنين، والنداء فيه صوت، وحدد بالخفاء، وفيه إلحاح من خلال تأكيده بالمفعول المطلق: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾؛ لقرب المنادى، وجاءت الآية القرآنية في سياق الجملة الخبرية.

(3)- وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ﴿طه:7﴾.

التفسير: ذكر المفسرون: "إنّه لا يخفى على الله ما استسررته في نفسك، ولم تبده بجوارحك ولم تتكلم به بلسانك، ولم تنطق به وأخفى، وقيل إنّ أخفى تعني ما هو أخفى من السر، وهو ما حدثت به نفسك وأسررته ولم تعمله، وقيل إنّ السّر ما عمله المرء، وأخفى من السر ما قذفه الله بقلب الإنسان مما لم يعمله، وهو عامله، وقيل إنّ أخفى تعني الوسوسة، وقيل أخفى حديث نفسك، وأخفى: ما لا يعلم الإنسان مما هو كائن. وقيل السرّ: ما يكون في نفسك اليوم، وأخفى: ما يكون في غد وبعد غد، لا يعلمه إلا الله. و قيل: معناه: "يعلم السرّ وأخفى من السرّ، أي: يعلم

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص142-143، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص3، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص76، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص5، النسفي، مدارك التنزيل، ج2، ص325.

ما أسررته في نفسك وَأُخْفِي منه وهو ما ستسره فيها والسِّرُّ مَا حَدَّثَ بِهِ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ فِي خَفَاءٍ، وَأَخْفَى مِنْهُ مَا أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ مِمَّا لَمْ يُحَدِّثْ بِهِ غَيْرَهُ. وَأَخْفَى مِنَ السِّرِّ مَا سَتُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ مِمَّا لَمْ يَكُنْ وَهُوَ كَائِنٌ أَنْتَ تَعْلَمُ مَا تُسِرُّ بِهِ نَفْسُكَ الْيَوْمَ وَلَا تَعْلَمُ مَا تُسِرُّ بِهِ غَدًا"[1].

البعد البلاغي: مما سبق يتبين أنّ لفظ (خفا) مختص بالحالة السرية من (القول) أو الجانب غير المرغوب بإعلانه؛ وجاءت بلاغة التعبير القرآني بهذا اللفظ لبيان سعة علمه ﷻ، وأنه لا تخفى عليه خافية حين بيان الحالات مع أضدادها، وجاء تفصيل تلك الحالات وبيانها بأوجز تعبير (السِّرَّ وَأَخْفَى)، ولو جاء التعبير بلفظ (قال) أو أحد مشتقاتها لما استقام المعنى، وما تبين وجود القول متزامنا مع مستواه الصوتي، وسريته بلفظ واحد بليغ موجز. وجاء قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ في سياق الجملة الخبرية، المؤكدة بـ(إنّ) الثقيلة، وجاء بين لفظ: (تَجْهَرْ) ولفظ: (السِّرّ) بديعية الطباق.

*****

(4)- (سرَّ) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة (سرّ) ما يلي: "سَرَّ السِّينُ وَالرَّاءُ يَجْمَعُ فُرُوعَهُ إِخْفَاءُ الشَّيْءِ. وَمَا كَانَ مِنْ خَالِصِهِ وَمُسْتَقَرِّهِ. لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْهُ عَنْ هَذَا. فَالسِّرُّ: خِلَافُ الْإِعْلَانِ"[2]. "وَالسِّرُّ: ما أَسْرَرْتَ، والسَّرِيرة: عمل السِّرّ من خير أو شر، ويقال: سَرِيرته خيرٌ من عَلانيته، وأسررت الشيء أخفيته، وأسرَرْتُه: كَتَمْتُه، ويقال: أسررتُ الشيء إسرارا، وهو

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص272-274، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص52، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص170، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص23، النسفي، مدارك التنزيل، ج2، ص357.

2 ابن فارس، مقاييس اللغة، (سر).

من الأضداد؛ فيقال: أسرَرْتُ الشيءَ: أظهَرْتُه وأسر الشيء كتمه وأظهره، وسررته أعلنته، وأسرّ إليه حديثاً أي: أفضى، وسرارا وتساروا: أي تناجوا"[1].

(سرّ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (سرّ) ومشتقاته في القرآن الكريم اثنتين وثلاثين مرة)[2]، منها بمعنى الفرح، ومنها بمعنى المخفي من الأمر، أو القول؛ مثل:

(1)- قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ﴿الرعد:10﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين: "أنّ الله ﷻ لا يخفى عليه شيء من أقوال البشر، وهو أعلم بهم، سواء من أسرّ القول منهم في نفسه؛ من خير أو شر، أو من جهر به لغيره؛ من خير أو شر، فالسرّ والجهر عنده سواء؛ السر عنده علانية. وإِسْرَارُ الْقَوْلِ هو: مَا حَدَّثَ بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ، وَالْجَهْرُ مَا حَدَّثَ بِهِ غَيْرَهُ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ لغيره. وتقديم السرّ على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر، والمبالغة في شمول علمه ﷻ، المحيط بجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية، أو لأن مرتبة السرّ متقدمة على مرتبة الجهر؛ إذ ما من شيء يجهر به إلّا وهو أو مبادئه مضمر في القلب غالبا؛ فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية"[3].

---

1 الفراهيدي العين، باب السين والراء، (س ر)، ابن فارس، مجمل اللغة، باب السين وما بعدها في المضاعف والمطابق، ابن منظور، لسان العرب، حرف الراء، فصل السين المهملة.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص348- 349.

3 الطبري، جامع البيان، ج16، ص368، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص289-290، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص182، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص358، الألوسي، روح المعاني، ج15، ص15، في تفسير سورة الملك من: 1-14.

البعد البلاغي: يتضح من الآية الكريمة أنّ لفظ (أسرّ) فن من فنون (القول) مختص بما هو مخفي ومكتوم من الكلام، مقارنة بالمعلوم منه، وكلاهما عند الله ﷻ سيان غير خفيين، وجاءت البلاغة في التعبير القرآني بلفظ (أسرّ) لتفصيل حالات القول المختلفة، ولتمييزه عن نظيره (جهر)، ولبيان شمول علمه ﷻ واطلاعه على حالات الأقوال كاملة؛ ولو كان التعبير بلفظ (قال) مجردا في ذاته فإنه لا يحمل المعاني التي أشير إليها مع الحالة المخفية منه في آن، كما عبر عنها لفظ (أسرّ). وجاء لفظ: (أَسَرَّ) من الجملة القرآنية: ﴿سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ في سياق الجملة الخبرية، ويفيد لفظ: (سَوَاءٌ) التسوية بين السر والعلن في علمه ﷻ، كما يرتبط لفظ: (أَسَرَّ) و (جَهَرَ) ببديعية طباق الإيجاب.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ﴿محمد:26﴾.

التفسير: جاء في التفاسير: "أنّ الله تعالى يعلم إسرار هذين الحزبين المتظاهرين من أهل النفاق، على مخالفة أمر الله وأمر رسوله، إذ يتسارّون فيما بينهم بالكفر بالله ومعصية الرسول، وَالْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ مَعَهُ وَتَوْهِينِ أَمْرِهِ فِيما بينهم، فأفشاه الله عليهم وأَخْبَرَ به نَبِيَّهُﷺ. ولا يخفى على الله ذلك ولا غيره من الأمور كلها"[1].

البعد البلاغي: ورد لفظ (إسرار) في الآية ليدل على أن الله كاشف طريقة أهل النفاق في إصرارهم على إخفاء (أسرار) كثيرة عن الرسول ﷺ وقد كشف هذا المخفي، بالتعبير القرآني ﴿واللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ وأقوالهم التي لم يظهرونها، مكرا وخديعة بالمسلمين، علما أن الآية تشير

---

1 الطبري، جامع البيان، ج22، ص182، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص327، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص250، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج9، ص474، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص117.

إلى الظاهر والباطن من (القول) بدليل أنهم أظهروا الطاعة بالمقابل في قولهم المعلن، وأخفوا في أنفسهم (قولا) غيره، إلا أن التعبير القرآني جاء بفن من فنون (القول) يعبر عن معناه، بالإضافة إلى السرية والكتمان المقصودين في (إسرارهم الأسرار)، بحيث لا يمكن للفظ (قال) أن يشير إلى تلك البلاغة في الإشارة إلى المعاني المخفية، وبيان شمول علمه، ولبقي القول في المطلق؛ لو جاء في هذا السياق، ولكن التعبير بـــ(السر) كشفهم. وجاءت جملة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ جملة خبرية.

ومن حيث البلاغة البديعية فقد جاءت الآية متمثلة بآخر كلمة فيها (إِسْرَارَهُمْ) نموذجا على توافق الفواصل مع ما يماثلها من رؤوس الآي في السورة الكريمة: وذلك على النحو التالي: "سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ، إِسْرَارَهُمْ، وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ، أَضْغَانَهُمْ "(1).

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ﴿نوح:9﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّ سيدنا نوح عليه السلام ذكر حالات الدعوة التي دعا بها قومه، حيث "بدأ بالمناصحة والدعوة جهارا في الليل والنهار، ولمْ يبقَ مَجْهُودًا من أساليب الجهر، ثم أسرَّ لَهُمْ إِسْرَاراً بِالدُّعَاءِ، مُبَالَغَةً فِي الدُّعَاءِ. وقيل إنه أتاهم في منازلهم، مبالغة في الدعاء لَهُمْ، وَتَلَطُّفٌ فِي الِاسْتِدْعَاءِ لعلهم يقبلون منه كحال من ينصح بالسر فإنه جدير أن يقبل منه، ولَمَّا ذَكَرَ دُعَاءَهُ عُمُومَ الْأَوْقَاتِ، ذَكَرَ عُمُومَ حَالَاتِ الدُّعَاءِ. فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عَادَ إِلَى الْإِعْلَانِ وَإِلَى الْإِسْرَارِ. ثُمَّ ذكر ذلك قائلا: "إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً" على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة"(2).

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية، ص 494.

2 الطبري، جامع البيان، ج23، ص632، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص616، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص301، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص248، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج10، ص282، الألوسي، روح المعاني، ج15، ص80.

البعد البلاغي: إنّ فنّ الدّعوة إلى الله يتخذ أشكالا كثيرة، منها الدّعوة بالجهر، وأخرى بالسرّ، وكلاهما يتطلب قولا وكلاما، وهذا ما لفت إليه التعبير القرآني حينما أكد على استخدام سيدنا نوح لكلتا الحالتين، فقال: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، مركزا على الجانب غير المعلن من القول، لأنه أقرب إلى النفوس، وأجدر بالإجابة، وقد جاء التعبير بلفظ (أَسْرَرْتُ) لأنه الأنسب من غيره في هذا المقام، وجاءت جملة (وَأَسْرَرْتُ) في الآية القرآنية: جملة فعلية معطوفة على جملة خبر (إنّ) الفعلية (أَعْلَنْتُ) في سياق الجملة الخبرية الاسمية المؤكدة بـــ (أنّ) الثقيلة.

ومثلت الآية زخما بلاغيا في غير جانب؛ فمن حيث معاني الحروف؛ فقد أفاد حرف العطف (ثم) طول المدة التي قضاها سيدنا نوح ﷺ في دعوة قومه، والصبر عليهم، وبأساليب مختلفة؛ فمن حيث المعاني: "فقد أفاد تكرار لفظ (أسرّ) في الجملة القرآنية: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ إلى التأكيد على البعد السري في الدعوة"[1]، وتركيزه ﷺ على هذا الجانب؛ لما فيه من الأثر النفسي الإيجابي على المقصودين بها، "كما أنّ تفصيل مجريات الدعوة، والتنويع فيها، والمراوحة بين السرّ والعلن التي قدمها ﷺ لقومه لعلهم يستجيبون؛ وذكره لذلك ما يمثل أسلوب الإطناب"[2]، "وجاء في الآية طباق الإيجاب؛ بين اللفظين: (أعلنت) و (أسررت)"[3]، ويفيد هذا الطباق المراوحة بين الأسلوبين؛ لعل ذلك أجدر بالإجابة، أو أن أحدهما يناسب فئة منهم، والأسلوب الآخر يناسب فئة غيرها، وجاء بين لفظ (أسررت) ولفظ (إسرارا) "جناس

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 93.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، الإطناب، ص 181.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، طباق الإيجاب، ص 350.

الاشتقاق"[1]. ويفيد هذا الجناس على تأكيد القيام بالفعل على إطلاقه، دون الالتفات إلى أي من المعيقات التي كانت تواجهه؛ "فقيل إنه سيدنا نوح عليه السلام أتاهم في منازلهم"؛ كما جاء في التفسير.

*****

(5)- (كتم) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة (كتم) ما يلي: "كَتَمَ: الْكَافُ وَالتَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءٍ وَسَتْرٍ مِنْ ذَلِكَ كَتَمْتُ الْحَدِيثَ كَتْمًا وكِتْمَانًا"[2] "والكتمان: نقيض الإعلان، والكتمان ستر الحديث، وكتمت الشئ وكتّمته كتما وكتمانا، واكْتَتَمْتُهُ، ورجل كتمة، إذا كان يكتم سرّه"[3].

(كتم) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (كتم) واشتقاقاته في القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة)[4]، جاءت في الإخفاء والستر، وكتمان الحديث كلها، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ﴿البقرة:283﴾.

التفسير: جاء في: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾: "أنّ هذا خطابٌ من الله ﷻ للشهود الذين أمر المستدينَ وربَّ المال بإشهادهم، فقال لهم: ولا تكتموا، أيها الشهود، بعد ما شهدتم شهادَتكم عند الحكام، كما شهدتم على ما شهدتم عليه، ولكن أجيبوا من شهدتم له إذا

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم،باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 430.

2 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص157.

3 الفراهيدي، العين، باب الكاف والتاء والميم ك ت م، الجوهري، الصحاح، ج5، ص2018، الأصفهاني، المفردات، ص702، ابن منظور، اللسان، حرف الميم، فصل الكاف.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 595- 596.

دعاكم لإقامة شهادتكم على خصمه على حقه عند الحاكم الذي يأخذُ له بحقه. ومن يكتم شهادته فإنه فاجرٌ قلبه، مكتسبٌ بكتمانه إياها معصية الله، ولا يحق له أن يضمرها ويخفيها ويمتنع من أدائها ولا يتكلم بها، لِأَنَّ الشَّهَادَةَ عِلْمٌ قَامَ بِالْقَلْبِ، وَالْكَتْمُ مِنْ مَعَاصِي الْقَلْبِ فلما كان إثما مقترفا بالقلب أسند إليه، لأنّ إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ وأكد؛ إذ هو متعلق الإثم، ومكان اقترافه، وعنه يترجم اللسان، ولئلا يظن أنّ كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط"[1].

البعد البلاغي: يتضح من تفسير الآية أنّ لفظ (كتم) فن من فنون القول؛ تكشفه الدراسة، مختص بستر ما يمكن أن يعلم من (الأقوال) وحجب علمها عن الغير، وذلك لأسباب متعددة، ورغم أنّ الكتم من الآثام المتعلقة بالقلب، إلا أنّ إفشائها متعلق باللسان، والغالب فيما يصدر عن اللسان هي (أقوال)، ولكن لم يأت التعبير القرآني بلفظ (قال) في هذا السياق؛ لأنّ لفظ (القول) لفظ عام، ولن يفصح عن حالة القول متزامنا مع حالة الستر المتعلقة به، والحجب المختص بها، المقصودة في هذه الآية، لذا كان التعبير القرآني بما يناسب السياق، فكان لفظ (كتم) الشهادة أبلغ في التعبير والدلالة من (قولها).

وجاء التعبير عن التحذير من الكتم بأسلوب النهي من الجملة الإنشائية؛ وذلك لارتباطه بمواقف تصنعها الحاجات والظروف، فالمراد النهي عن كتم الشهادة حينما يتطلب الموقف الإعلان: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، وجاء بين: (وَلَا تَكْتُمُوا) وبين: (وَمَنْ يَكْتُمْهَا) بديعية طباق السلب، وبين (تَكْتُمُوا) و(يَكْتُمْهَا) بديعية أخرى من نوع جناس الاشتقاق.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج6، ص99، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص329-330، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج2، ص745-746.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿آل عمران:187﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ أنّ: "هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئًا فليعلّمه، قائلا لهم إياكم وكتمانَ العلم، فإن كتمانَ العلم هَلَكة، ولا يتكلّفن رجلٌ ما لا علم له به، فيخرج من دين الله فيكون من المتكلّفين، وقيل: لتتكلمن بالحق، ولتصدّقنه بالعمل"[1]. وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ "هَذَا مُتَّصِلٌ بِذِكْرِ الْيَهُودِ، فَإِنَّهُمْ أُمِرُوا بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَبَيَانِ أَمْرِهِ، فَكَتَمُوا نَعْتَهُ، فَالْآيَةُ تَوْبِيخٌ لَهُمْ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ هُوَ خَبَرٌ عَامٌّ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ. وقيل هِيَ فِي كل من أوتي علم شي مِنَ الْكِتَابِ. وقيل لَا يَحِلُّ لِعَالِمٍ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ، وَلَا لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِه"[2]."عن النبي ﷺ: "من كتم علمه عن أهله ألجم بلجام من نار"[3]

البعد البلاغي: إنّ الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم هو: نشر علمهم وبيانه، وعدم (كتمانه)، وهاتان الحالتان متعلقتان بالــ(قول)، فلا يستقيم علم من غير بيان ونشر لتعم فائدته بين الناس، وهذا يحتاج لــ(قول) يوضحه وينشره، ولأن لفظ الــ(قول) وحده لا يعبر تعبيرا دقيقا عن المعنى المراد، ولا يفي بالغرض المقصود من النص القرآني؛ فلا بد من بديل يؤدي الدلالات والمعاني مصاحبا لمعنى القول، فجاء التعبير القرآني بفن من فنون القول، وهو لفظ (كتم) للكشف عن وجود قول، متزامنا مع الخفاء المقصود، والنية المتعلقة في القلب، والسكوت على نشر العلم وعدم التكلم فيه بين الناس وبيانه لهم، بحيث لو جاء التعبير القرآني بلفظ (قال)

---

1 الطبري، جامع البيان، ج7، ص461-462.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص304، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج3، ص464.

3 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص53.

لما عبر عنه مع النهي عنه – في هذه الآية– في آن. وجاءت جملة: (وَلَا تَكْتُمُونَهُ) جملة إنشائية، تفيد النفي عن الوقوع في هذا العمل، ومن حيث البديع؛ فقد جاء بين لفظ: (لَتُبَيِّنُنَّهُ) ولفظ (تَكْتُمُونَهُ) طباق إيجاب

(3)– وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿النساء:42﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين: "أنّ المشركين وَدُّوا لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا كَتَمُوا أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا نَعْتَهُ. وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا لِأَنَّ مَا عَمِلُوا لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى كِتْمَانِهِ لِأَنَّ جَوَارِحَهُمْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ. وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ قَالُوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿الأنعام:23﴾ فيقول الله تعالى كذبتم، فَخَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ فَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثا، وقيل إِنَّ الْكَتْمَ لَا يَنْفَعُ وَإِنْ كَتَمُوا لَعَلِمَ اللَّهُ جَمِيعَ أَسْرَارِهِمْ، فَالْمَعْنَى: لَيْسَ ذَلِكَ الْمَقَامُ الْهَائِلُ مَقَامًا يَنْفَعُ فِيهِ الْكَتْمُ، وقيل يَوَدُّونَ تَسْوِيَةَ الْأَرْضِ بِهِمْ وَانْتِفَاءَ الْكِتْمَانِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ انْتِفَاءُ الْكِتْمَانِ فِي الدُّنْيَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي الْآخِرَةِ"[1].

البعد البلاغي: ما تمناه الذين كفروا وعصوا الرسول أن لو آمنوا، وتكلموا بما يعرفون من صفات الرسول ﷺ، لأنهم مهما أخفوا من صفاته؛ فإنّ جوارحهم تشهد على رسالته، بعدما يختم الله ﷻ على أفواههم. والكتم المقصود الذي تمنوا أن لو جانبوه هو ضد الحديث والكلام، فكانت أمنيتهم أن لو تحدثوا بما يعرفون عن رسالة الإسلام، وعن صدق الرسول ﷺ، وصفاته، فمحور الأماني والندم على فواتها يدور حول إخفائهم لما يعلمون، من معلومات وأقوال، فجاء التعبير

1 البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، طيبة، ج2، ص218، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص512، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص199، أبو حيان الأندلسي، ج3، ص646-647.

عن هذا الإجراء بلفظ (يَكْتُمُونَ) والذي يفهم منه ما هو مغاير للقول، ويفهم منه أنهم يعلمون شيئا ما؛ وجاء إخفاؤهم له عن قصد. وجاء لفظ (وَلَا يَكْتُمُونَ) بصيغة النهي، ضمن الجملة الخبرية. أو هو مفعول ثاني للفعل (وَدَّ).

*****

(6)- (كنَّ) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة (كنّ): "كَنَّ: الْكَافُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى سَتْرٍ أَوْ صَوْنٍ. يُقَالُ كَنَنْتُ الشَّيْءَ فِي كِنِّهِ، إِذَا جَعَلْتَهُ فِيهِ وَصُنْتَهُ. وَأَكْنَنْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ"[1].

"كن: الكِنُّ: كل شيء وقى شيئاً فهو كنه وكنانه. كننته أكنه كناً: جعلته في كِنٍ"[2].

(كنّ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (كنّ) ومشتقاته في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة)[3]، تسع منها بمعنى الوقاية والحجز المانع، والثلاثة الباقية بمعنى الستر والخفاء في القول؛ جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾﴿البقرة:235﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: "أخفيتم، أو أضمرتم و أكننتم الأمر في أنفسكم، أو سترتموه في قلوبكم، فأسررتموه، فلم تذكروه بألسنتكم لا معرضين ولا مصرحين من خطبتهن، وعزم نكاحهن وهن في عددهن، فلا جناح عليكم في ذلك، ولا حرج فيه"[1].

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص123.

2 الفراهيدي، العين، باب الكاف والنون، ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص766.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص621.

البعد البلاغي: يتبين أنّ لفظ (كنّ)- في الآية السابقة- مختص بما هو مخفي ومضمر داخل النفس من القول، وعبّر عن وجود قول يُبتغى إخفاؤه وصونه عن الأسماع، فجاء التعبير القرآني عنه بهذا اللفظ ليميزه عن بقية ألفاظ القول المتعددة، وليبين ما فيه من دلالات، بدليل ما يقابله من قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾، فـــ(الكنّ) عكس الذكر والتصريح. وهذا هو اللفظ المناسب في هذا السياق أكثر من غيره من الألفاظ، وجاءت جملة (أَكْنَنتُمْ) جملة خبرية، ومن حيث البديع فقد جاء بين اللفظين: (أَكْنَنتُمْ) (سَتَذْكُرُونَهُنَّ) طباق الإيجاب. كما أنّ بين لفظ (عَرَّضْتُمْ) و (أَكْنَنتُمْ) أيضا طباق إيجاب، وقد أفاد هذا الطباق اشتراك الحالتين في الحكم الشرعي في هذا الجانب، كما أنّ التعريض ليس فيه من الإساءة، أو المس، بما يشابه الكن والستر النفسي، والتحفظ من أجل الحفاظ على شعور المرأة المقصودة؛ سواء المطلقة، أو المتوفي عنها زوجها؛ وهي في عدتها

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿النمل:74﴾.

التفسير: أي: "وإنّ ربك ليعلم ضمائر صدور خلقه، وما تخفيه ويعلم مكنون أنفسهم، وخفيّ أسرارهم، وعلانية أمورهم الظاهرة، لا يخفى عليه شيء من ذلك، يعنى: أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ، ومكايدهم، وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه، ومَا تُكِنُّ مِنْ كَنَنتُ الشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتَهُ هُنا، وكَأَنَّ الضَّمِيرَ الذي في الصدور كالجسم الساتر. و يُقَالُ: أَكْنَنتُ الشَّيْءَ إِذَا أَخْفَيْتَهُ فِي نَفْسِكَ.

البعد البلاغي: فـــ(كنّ) هنا توضح المستور من القول، والمخفي من الأسرار على العكس من الإعلان والإظهار منه، فجاء التعبير القرآني باستخدام هذا اللفظ ليميز المقصود عن غيره

1 الطبري، جامع البيان، ج5، ص 102، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلـــى بلـــوغ النهايـــة، ج 1، ص 788.

من بين ألفاظ القول المتعددة، وليحمله المراد من المعنى غير ملتبس بمعنى غيره، ولو جاء التعبير بلفظ (قال) بدلا منه في السياق لما تبين المقصود من القول متزامنا مع السرية والإخفاء منه. وجاء لفظ (تُكِنُّ) في جملة خبرية اسمية، مؤكدة بأكثر من مؤكد؛ وهي حرف التوكيد (إنّ) الثقيلة، وحرف اللام في (لَيَعْلَمُ)، وجاء بين اللفظين: (تُكِنُّ) و (يُعْلِنُونَ) بديعية طباق الإيجاب.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿القصص:69﴾.

التفسير: أي: "إنّ الله يعلم ما تخفيه صدورهم من الأسرار التي من جملتها عداوتك وَمَا يُعْلِنُونَ أي وما يظهرونه من الأقوال وما يكنون ويخفون في صدورهم من الاعتقادات الباطلة ومن عداوتهم لرسول الله ﷺ، وحقدهم عليه، وبغضهم له"[1].

البعد البلاغي: إذن فهذا لفظ (كنّ) مرة أخرى يعرب عن الخفاء والستر من القول، ويعبر عما هو داخل النفس مما لا يحبذ إظهاره للغير لما يحمل -في الغالب- من عداوة وحقد، وما لا يحمد إعلانه، ولو جاء التعبير القرآني بلفظ (قال) في هذا السياق بدلا من (كنّ) لما تبيّن المعنى الدقيق للسياق؛ لأن (قال) تعبير عام لكل ما يمكن أن يقال، لا يخصص السرية من الإعلان مجردا. وجاءت جملة (تُكِنُّ) جملة فعلية، ضمن الجملة الخبرية في الآية كاملة: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، ومن حيث البلاغة البديعية؛ فقد جاء بين اللفظين: (تُكِنُّ) و(يُعْلِنُونَ) طباق الإيجاب.

*****

(7)- (لمز) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة (لمز) ما يلي: "لَمَزَ: اللَّامُ وَالْمِيمُ والزاي كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ اللَّمْزُ، وَهُوَ الْعَيْبُ"[1]. "يُقَالُ لَمَزَ يَلْمِزُ لَمْزًا. اللَّمْزُ، كالغمز في الوجه تَلْمِزُه بفيك

---

1 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 184؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 20، ص 166.

بكلام خفّي، أي: تحرّك شفتيك بالطّلب ورجل لُمَزة: يعيبك في وَجْهك لا من خَلْفك، وأصله الإشارة بِالْعَيْنِ والرأس وَالشّفَةِ مَعَ كَلَامٍ خَفِيٍّ، وقِيلَ: هُوَ الِاغْتِيَابُ"[2]. "وَاللّمْزُ فِي اللُّغَةِ الْعَيْبُ فِي السِّرِّ"[3].

(لمز) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (لمز) واشتقاقاته في القرآن الكريم أربع مرات)[4]، بمعنى القول المسيء، أو الجارح، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ ﴿التوبة:58﴾.

التفسير: جاء: "أنّ من المنافقين الذين لم يعطوا من الغنائم يوم حنين طعنوا في رسول الله ﷺ، وعابوه في أمرها"[5]، "وشككوا في تقسيمها "فقد قال بعضهم للرسول ﷺ: "اعدل يا رسول الله"، فقال ﷺ: "ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟" فكلامهم لمزا وطعنا في وجه الرسول ﷺ، وقيل هم المؤلفة قلوبهم. وقيل إنّ القائل هو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج"[6]، "ووصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله لأنه ﷺ استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص209.

2 الفراهيدي، العين، باب الزاي واللام والميم معهما (ز ل م)، ابن منظور، اللسان، حرف الزاي المعجمة، فصل اللام.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص166.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص653.

5 الطبري، جامع البيان، ج14، ص300، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص281، النسفي، مدارك التنزيل، ج1، ص687.

6 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص281، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص188.

الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه"[1]، "وَأَنَّ لَمْزَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِشَرَهِهِمْ فِي تَحْصِيلِ الدُّنْيَا وَمَحَبَّةِ الْمَالِ"[2].

البعد البلاغي: هذا لفظ (لمز) لفظ من ألفاظ القول الدالة على السرية والخفاء، يظهر ذلك من سياق الآية، كما ويدل على الإساءة والطعن في السر، مضافا إليه الحركات والإشارة بالرأس والعين إمعانا في الإساءة والتجريح، وكل ذلك يعبر عما في داخل اللمّاز، وهذا فعلا ما كان من المنافقين تجاه رسول الله ﷺ في موضوع الصدقات، بحيث لا يمكن لأي لفظ آخر أن يوضح المقصود من السياق، ويشير إلى الدلالات التي أشار إليها لفظ (لمز) مصاحبا للتصوير الحي للمّاز وهو يغمز بعينه، ويتشدق بشفتيه، مستجلبا لأكبر عدد من أمثاله المتربصين الطاعنين؛ فكان هذا هو اللفظ المناسب في هذا السياق أكثر من غيره من الألفاظ، وجاءت جملة (يَلْمِزُكَ) جملة فعلية في سياق الجملة الخبرية، والتي تخبر عن فعل المنافقين، وبصيغة المضارع، لتدل على استمرار هذا العمل منهم وديمومته، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾.

(2)- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿التوبة:79﴾.

التفسير: جاء أنّ هذه الآية نَزَلَتْ "فِيمَنْ عَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ المطوّعين المتبرعين في الصدقة على أهل المسكنة والحاجة، بما لم يوجبه الله عليهم في أموالهم، فأخذوا يلمزونهم ويطعنون فيها عليهم"[3]، بقولهم: "إنّما تصدقوا به رياءً وسُمْعة، ولم يريدوا وجه الله"، ويلمزون الذين لا يجدون

1 النسفي، مدارك التنزيل، ج1، ص687.

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص439.

3 الطبري، جامع البيان، ج14، ص381، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص215.

ما يتصدقون به إلا جهدهم، وذلك طاقتهم، فينتقصونهم ويقولون: "لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنيًّا! فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: مَا تَصَدَّقَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رِيَاءً وَسُمْعَةً، وكانوا ويَلْمِزُونَ الأغنياء ويَعِيبُونَهم"[1].

البعد البلاغي: تشير التفاسير أنّ كل ما صدر من المنافقين من إشارات وإساءات كانت مصاحبة لأقوال تلفظوا بها طعنا للمؤمنين، وإساءة لهم، وإنقاصا من حقهم وتقليلا من قيمة أعمالهم، وقد قالها المنافقون في وجوه المؤمنين دون خجل ولا ريبة، فعبر عنها المولى ﷻ بلفظ (لمز) ليشير إلى القول متلازما مع الحركة والإشارة بالعين والرأس، معبرا عن المقصد وما ينم عن مرض في قلوبهم، وهذا اللفظ من ألفاظ فنون (القول) المتعددة، بحيث لا يمكن لأي لفظ آخر أن يعبر عمّا عبر عنه لفظ (لمز)؛ لأنه اللفظ المناسب دون غيره من الألفاظ في هذا السياق؛ لأنه يكشف عن المعنى المقصود، ودقائق دلالاته من القول وما يصاحبه من إشارات وغمزات، وهمزات، بلفظ واحد، في سياق الجملة الخبرية.

(3)- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿الحجرات:11﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: "أن لا يطعن بعضكم على بعض، وَلَا يَعِبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَلْعَنْ بَعْضُكُمْ بعضا، والمعنى: في قَوْلِهِ: "أَنْفُسَكُمْ" تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَعِيبُ نَفْسَهُ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَعِيبَ غَيْرَهُ لِأَنَّهُ كَنَفْسِهِ، ولا تطعنوا أهل دينكم، وخصوا أيها المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها، والمؤمنون كنفس

---

1 الطبري، جامع البيان، ج14، ص381، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص215، النسفي، مدارك التنزيل، ج1، ص697، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص468.

واحدة فإذا عاب المؤمنُ المؤمنَ فكأنما عاب نفسه"[1]، "وقيل معناه لا تفعلوا ما تلمزون به لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة"[2]، "واللَّمْزُ بِالْيَدِ وَالْعَيْنِ وَاللِّسَانِ وَالْإِشَارَةِ ونحوِه، مِمَّا يَفْهَمُهُ آخَرُ"[3].

البعد البلاغي: بما أنّ اللسان من أدوات اللمز، فإن ذلك يشير إلى أنّ اللّمز قول؛ ولكن بلفظ جديد؛ لأنه يحمل في دلالاته غير المعهود من الأقوال؛ ففيه السرية، والخفاء، وعلى رأس ذلك الإساءة للغير وجها لوجه، وطعنا للذات قبل ذلك- بحسب السياق القرآني- ويحمل (اللّمز) معان لا يحملها لفظ آخر من ألفاظ القول، لذا كان التعبير به؛ لأنه لا يمكن لغيره من الألفاظ أن يؤدي المعنى المطلوب كما يؤديه لفظ مختص بالقول مصاحبا للإشارة والحركة؛ والذي عبر به فعلا، وما يحمله من أسرار الإساءة والتجريح في الحركات بالرأس، والتشدق بالشفتين، والغمزات بالعينين، متلازما مع القول في آن، مما يؤدي رسالة مؤلمة للمعني فيها.

"وقد اشتملت هذه الآية على أدب التكامل البياني البديع؛ ففيه ينْهَى الله ﷻ الّذين آمَنُوا عن ستٍّ قبائح اجتماعيّة، من شأنها بَذْرُ بُزور الفرقة والعداوة والبغضاء بين المسلمين، وهي قبائح تورِثَ العداوة والبغضاء، وتوقع الفرقة بين الجماعة الواحدة، وهذه القبائح السّت هي: "السُّخرية، اللّمز، التنابز بالألقاب، اتّهامُ المؤمنين بالظّنون الضعيفة التي لا تقوى على الاتّهام، التجسُّس على المؤمنين، غِيبَة المؤمنين المتقين"[4]، "ومن الملاحظ في هذا النصّ أنَّ كلّ نَهْيٍ فيه قد انْفَرد

---

1 الطبري، جامع البيان، ج22، ص299، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص369؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص327، النسفي، مدارك التنزيل، ج3، ص354، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج9، ص517.

2 النسفي، مدارك التنزيل، ج3، ص354.

3 القرطبي، جامع البيان، ج16، ص327، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج9، ص517.

4 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص 335- 336.

بلَوْنٍ تَعْبيريٍ ذي دلالة خاصّة قابلةٍ لأن تكون شاملةً لسائر القبائح الّتي جاء في النصّ النّهْيُ عنْهَا:

(1) ففي السخرية جاء التعبير بأسلُوب: ﴿لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ... ولا نِسَاءٌ من نسَاء﴾

(2) وفي اللّمز جاء التعبير بأسلوب: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُم﴾

(3) وفي النبر بالألقاب القبيحة جاء التعبير بأسلوب: ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بالأَلْقَاب﴾ .

(4) وفي الظّن المنهيّ عنه جاء التعبير بأسلوب: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظّنّ﴾[1].

(5) وفي التّجسّس جاء التعبير بأسلوب:﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾

(6) وفي الغيبة جاء التعبير بأسلوب: ﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ .

ويُلاحَظُ أنّه يَصِحُ في كلٌ منْها استعمالُ التعبيراتِ الأُخرى لتؤَدّيَ فيه دَلاَلاتِها.

"فَيُقَالُ مثلاً في السُّخْرِية، مع ما جاء من تعبيرٍ حَوْلَها في النصّ: "لاَ تَسْخَرُوا من أنفسكم – لا تَتَساخَروا – اجْتَنِبُوا السُّخْرِية – لاَ تَسخرُوا – لاَ يَسْخَرْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْض".

"ويُقَالُ في اللّمْز، مع ما جاء من تعبيرٍ حولَهُ في النّصّ: "لاَ يَلْمِزْ قَوْمٌ قوماً، وَلاَ نِسَاءٌ نِسَاءَ، لاَ تَتَلاَمَزُوا، اجْتَنِبُوا اللّمْزَ، لاَ تَلْمِزُوا، لاَ يَلْمِزْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً".

"وَيُقَالُ في النَّبْزِ بالألْقَابِ القبيحة، مع ما جاء من تعبير حولَهُ في النّصّ: "لاَ يَنْبِزْ بالأَلْقَابِ قَوْمٌ قَوْماً، وَلاَ نِسَاءٌ نِسَاءً، ".

وهكذا يُقَالُ في سائرها، فأغْنَى أسلوبُ التعبير الذي جاء في واحدةٍ مِنْها عن إعادتــه فــي سائرها، فَتَكامَلَتِ التّعبيراتُ في أداء المقصود من دَلاَلاَتِها المختلفات.

1 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص 336.

ومع هذا الأسلوب البديع الدّالّ على التكامل في الصّيَغ المختارة لكل صنف من هذه القبائح السّت، فقد اختِيرَ لكلّ قبيحةٍ منها صيغةُ التعبير التي تدلُّ على أبرَزِ صُورَةٍ من صُورِها، وهذا من الدّقّة الفكريّة، والبراعةِ والإبْدَاعِ الفنّي:

(1) فالسخريةُ تغلبُ فيها المشاركة الجماعيّة، إذ السّاخرُ يضحكُ بسُخْريتِه آخرون، فيكونون مشاركين له في عمله، فجاء التعبير فيها بأسلوب: ﴿لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قوم ... وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾"[1]، "وجاء في هذا التعبير إفراد النساء عن الذكور، لأنّ الغالبَ أنْ لا يسْخَرَ الرّجالُ من النساء، ولا يسْخَرَ النساءُ من الرجال، وللإشارة ضِمناً إلى أنّ المجتمعات الإسلاميّة هي مجتمعاتٌ غيرُ مختلطة في الغالب من الأحوال، فتقِلُّ فيها السُّخْرِيَةُ بيْنَ الصّنفين، والخطابُ في النّصّ قد بدأ بنداءِ الّذين آمَنُوا. وأسلوبُ هذا التعبير يَصلُحُ تَعْميمُهُ على القبائح السّت...

(2) واللّمْزُ يَغْلِبُ فيه العَمَلُ الفرديّ الخفيُّ، الّذي يُدرِكُهُ أهلُ الفطانة، فجاء بأسلوب:﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وللدّلالَة على أنّ مَنْ لَمَزَ أخاهُ المؤمِنَ فكأنّما لَمَزَ نَفْسَه، لأن المؤمنين هم بمثابة الجسَدِ الواحد. وهذا المعنى مع الأسلوب يصلُحُ تعميمُهُ على سائِرِ القبائح السّت...

(3) والنّبْزُ باللّقَب، وهوَ الشّتْمُ بالألْقَابِ القبيحَة، عَمَلٌ تَغْلِبُ فيه المشاركَةُ بيْنَ فَرِيقَيْن، فَمَنْ نَبَزَ غَيْرَهُ رَدّ عَلَيْهِ المنْبُوزُ غالباً بِمِثْلِ قَوْلِه، أوْ بأقْبَحَ منْه، انتقاماً لنفسه، فالتنابُزُ كالتّقَاتُل، من أجل ذلك جاء التعبير بأسلوب: ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بالألقاب﴾ . وهذا المعنى مع أسلوب التعبير يصلُحُ تعميمه على سائر القبائح السّت...

(4) وأفضل وسيلة لترك الظنّ الذي يأثم به صاحبُه، هو اجتنابُ كثيرٍ من الظّنّ، لأنّ من جرى مع ظُنونه أوصلَتْهُ إلى ما يأثَمُ به حتماً، لمَا لاتّباع الظنّ من مزالق، وتسلُّطٍ على النفوس، فجاء التعبير فيه بأسْلُوب الأمر بالاجتناب، أي: بالابْتِعادِ عنْ كثيرٍ مِنَ الظّنّ: ﴿يا أيها الذين

---

1 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص 337.

آمَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ﴾ وأسلوبُ الأمر بالاجتناب يَصلُحُ تعميمه على سائر القبائح الستّ..."[1].

(5) والتجسُّس يغلبُ فيه العملُ الفرديّ الذي يستخفي به فاعله فجاء التعبيرُ فيه بأسلوب: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ فالنهيّ للجماعة عمّا يمكنُ أن يقوم به كلّ فردٍ منهُم هو نهيٌ موجّه لكل فرد، وأسلوبُ هذا التعبير يصلُح تعميمُه على سائر القبائح الستّ..."

(6) والغيبة ظاهرة من ظواهر القبائح الاجتماعية، التي يؤذي أو يَضُرُّ بهَا النّاسُ بعضُهم بعضاً، إذْ فيها مُغْتَابٌ وسامع مشاركٌ لَهُ أو أكثر، فجاء التعبيرُ في النهي عنها بأسلوب: ﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ وهذا الأسلوبُ من التعبيرِ يَصلُحُ تعميمُه على سائر القبائح الستّ...".

بعد هذا الشرح المفصّل يقول الكاتب: "إنّ المتدبّر الفَطِن يكشفُ أنّ جميع هذه التعبيرات ذوات الأداء المختلف، في نصٍّ واحد قد جمع عدّة رذائل اجتماعيّة، هي أشباهٌ ونظائر فيما بينها ويُمكن أن يوضع لها عنوان واحد، بغيَة النهي عنْها والتحذيرِ منْها، يُشْعِر بأنّ كلّ تعبير منها يَصلُح تعميمُهُ واستعماله في سائرها، وهذا من روائع الإيجاز والإعجاز البيانيّ الّذي اشتمل عليه القرآن المجيد". "وهي من دلالات التكامُل في أساليب البيان القرآن بين الأشباه والنظائر، والمقصود بالأشباه والنظائر: من روائع الإبداع في البيان القرآني ما يُمكِنُ أن نُطلق عليه اسم "التكامل في الدلالات بين الأشباه والنظائر" وهو تخصيص كلٍّ صِنْفٍ من الأشباه والنظائر في النّصّ بتعبيرٍ يُفيدُ معنىً خاصّاً، وهذا التعبير يصلُح اطّرادُه في سائر الأشباه والنظائر"[2]

*****

---

1 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص 338.

2 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص339-341.

(8)- (همز) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: "همز:الْهَاءُ وَالْمِيمُ وَالزَّاءُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى ضَغْطٍ وَعَصْرٍ"[1]، "وَأَصلُ الْهَمْزِ في اللغة: الطَّعْنُ بِعُودٍ أَوْ يَدٍ أو نحو ذلك، وَهَمَزْتُ الشَّيْءَ فِي كَفِّي، وَمِنْهُ الْهَمْزُ فِي الْكَلَامِ، كَأَنَّهُ يَضْغَطُ الْحَرْفَ"[2]، "وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَذَى بِالْقَوْلِ باللسان فِي الْغَيْبَةِ عَلَى وَجْهِ الْاستِعَارَةِ وَشَاعَ ذَلِكَ حَتَّى صَارَ كَالْحَقِيقَةِ"[3]، "والهمزة: من يهمز أخاه في قفاه من خلفه بعَيْب"[4]، "ويقال رجل هُمَزَةٌ وامرأة هُمَزَةٌ أيضا وهَمَزَاتُ الشيطان خطراته التي يخطرها بقلب الإنسان، والشيطان يهمز الإنسان: يهمس في قلبه وسواساً، وكان ﷺ يتعوذ من همز الشياطين ولَمْزِهِ وَهَمْسِهِ، أيْ نَزَغَاتِ الشَّيَاطِينِ الشَّاغِلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى"[5].

(همز) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (همز) ومشتقاته في القرآن الكريم ثلاث مرات)[6]؛ ثلاثتها تحمل إشارات القول؛ جانب من مقاصد الدراسة، هي:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿المؤمنون:97﴾.

التفسير: جاء في هذه الآية: "أنّ الله ﷻ يقول لسيدنا محمد ﷺ: أن أستجير بالله وأعتصم به من خنق الشياطين، ونخساتها، ونزغاتها، وهمزاتها، وضرباتها، ووساوسها؛ والهَمْزُ: هو الغمز والنخس وحث الناس على المعاصي؛ كما تهمز الدواب لحثها على المشي، ومنه مهماز

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج6، ص65.

2 ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص909.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص72.

4 الفراهيدي، العين، باب الهاء والزاي والميم معهما.

5 الفراهيدي، العين، ج4، ص17، ابن فارس، مجمل اللغة، باب الهاء والنون وما يثلثهما، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص65، و ج12، ص148، الزمخشري، أساس البلاغة، ج2، ص379، الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص705.

6 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 738.

الرائض، ومن ذلك قيل للهمز في الكلام: هَمْزة، والهَمَزَاتُ جمع همزة، أو لتنوع الوساوس، أمر بالتعوّذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه، والمعنى أنّ الشياطين يحثّون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها، فأمَرَهُ الله تَعَالَى بالإستعاذة منها، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ حُضُورِ الشَّيَاطِينِ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وقيل عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ"(1).

البعد البلاغي: إذن هذا لفظ (همز) يكشف عن فن من فنون القول، فهو-كما تشير الآية- يدل على قول سري، خفي يقصد به الإساءة والإغراء على عمل السوء والحث عليه من قبل الشيطان الرجيم، وحاله مع البشر، وهو وإن لم يكن مسموعا في الواقع على وجه الحقيقة؛ إلا أنّ القرآن الكريم عبر عنه وكأنه واقع فعلا بسبب تأثيره الفعلي الخفي على الإنسان، لذا أمر المولى ﷺ بالتعوذ منه، ويطلق أيضا على كل من يطعن بالناس من خلفهم ويسيء إليهم، ملازما لذلك بالحركة والضغط على بعض الحروف مع المثابرة على ذلك للإمعان في الإساءة، بحيث لا يمكن لأي لفظ أن يعبر كامل التعبير الذي عبر به لفظ (همز) ولا أن يشير إلى كامل معانيه. وقد جاءت الجملة في سياق جملة الأمر الإنشائية، التي تتطلب الاستعاذة من همزات الشيطان الرجيم كلما استجد أمر، أو شرع في قراءة القرآن الكريم.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ *هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ ﴿القلم:10- 11﴾.

التفسير: جاء في التفاسير أنّ: "الهمّاز: هو المغتاب للناس يأكل لحومهم، طعّان، لعّان، عياب، مغتاب، ومَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ: يمشي بين الناس بالنميمة، يلوى شدقيه في أقفية الناس، وقيل: الْهَمَّازُ الَّذِي يَهْمِزُ النَّاسَ بِيَدِهِ وَيَضْرِبُهُمْ. والهمّاز كثير الْهمزَة. وَأَصْلُ الْهَمْزِ: الطَّعْنُ بِعُودٍ أَوْ يَدٍ أو نحو ذلك، وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَذَى بِالْقَوْلِ باللسان فِي الْغَيْبَةِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِعَارَةِ وَشَاعَ ذَلِكَ حَتَّى

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص68، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص489، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص202، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص95، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص583.

صَارَ كَالْحَقِيقَةِ، وصِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى قُوَّةِ الصِّفَةِ. وقيل أن المقصود هو: الوليد بن المغيرة"[1].

البعد البلاغي: في الوقت الذي كشفت فيه الآية عن فن من فنون القول؛ فقد نهت عن الاتصاف به، أو إتباع فاعله أو طاعته؛ لأنّ هذا القول ليس كباقي الأقوال؛ ويدل على ذلك تمييزه بلفظ (همز) فهو قول ولفظ مع حركة، يشير إلى الإساءة والطعن في أقفية الناس، والحط منهم والنيل من أعراضهم؛ وهذا هو اللفظ المناسب أكثر من غيره في هذا السياق؛ للتعبير عن المعاني المرادة؛ بحيث لا يمكن لأي لفظ أن يعبر عنها، أو يحملها أو يشير إليها لو جاء في هذا السياق.

وجاءت الآية مثالا على: التقديم والتأخير، وذلك التقديم فى الرتبة في قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ فإن الهمّاز هو المغتاب، وهو لا يفتقر إلى مشي، بخلاف النميمة فإنها تفتقر إلى نقل الحديث من شخص إلى شخص، وما كان مجردا فهو سابق فى الرتبة على ما كان له تعلقات بغيره"[2]، "كما أنّ لفظ همّاز، ولفظ مشّاء جاءا بصيغة المبالغة"[3]، للدلالة على قوة المعنى والصفة التي كانت متمثلة في المعنّي بها، وجاء اللفظ في الآية بأسلوب النهي، من الجملة الإنشائية؛ لما فيه من الأذى، والإساءة للناس.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ ﴿الهمزة:1﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّ الويل وهو الوادي يسيل من صديد أهل النار وقيحهم، ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾: والهمزة: هو كل مغتاب للناس، ويبغضهم، ويكسر من أعراضهم والغض منهم،

---

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص534، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص481، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص234، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص72، الألوسي، روح المعاني، ج15، ص31.

2 المؤيد بالله، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج2، ص 35.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 158.

والطعن فيهم، وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك فيضحك منه ويشتم، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَيْبَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِنَّ الْهُمَزَةَ: الذي يغتاب بالغيبة. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَهْمِزُ بِلِسَانِهِ، وَيَلْمِزُ بِعَيْنَيْهِ. وَهُوَ الْقَتَّاتُ الطَّعَّانُ لِلْمَرْءِ إِذَا غَابَ. وقيلَ نزلتْ في الأخنسِ بنِ شُرَيقٍ فإنَّهُ كانَ ضارياً بالغِيْبةِ والوقيعةِ، وقيلَ: في أميةَ بنِ خلَفٍ، وقيلَ: في الوليدِ بن المغيرة واغتيابه لرسول الله ﷺ، وغضه مِنْ جنابِه الرفيعِ. واختصاصُ السببِ لا يستدعي خصوصَ الوعيدِ بهم بلْ كلُّ منْ اتصفَ بوصفهم القبيحِ فلَهُ ذنوبٌ منْهُ مثلُ ذنوبِهم"[1].

البعد البلاغي: هذا لفظ (همز) مرة أخرى يشير إلى فن مرفوض من فنون القول، ويحذر من تداوله والمشي فيه بين الناس؛ لما فيه من الإساءة والتجريح والطعن في الأعراض من خلفهم وفي أقفيتهم، علما أنّه لفظ يدل على قول من الأقوال ولكن دلالات لفظه أشارت إلى معان قبيحة، وهو اللفظ الأمثل في هذا السياق للتعبير عن المعنى المراد؛ ولأنه يخصص المعنى تحديدا، وجاء اللفظ في سياق الجملة الخبرية، "وجاءت العلاقة بين لفظي (هُمَزَةٍ) و (لُمَزَةٍ) جناس ويسمى- هنا- لاحق لأن الاختلاف حاصل بين حرفين غير متقاربي المخرج وهو من المحسنات اللفظية"[2]، "وهو أيضا جناس ناقص"[3]، "والجناس: لغة مصدر جانس الشيء شاكله واتحد معه في الجنس، واصطلاحا تشابه الكلمتين في اللفظ مع اختلاف في المعنى"[4].

*****

---

1 الطبري، جامع البيان، ج24، ص595، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص794-795، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص181-182، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص337، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج9، ص198.

2 المراغي، علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، ص 356.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 390.

4 المراغي، علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، 354.

(9)- (همس) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة (همس) ما يلي: "هَمَسَ الْهَاءُ وَالْمِيمُ وَالسِّينُ يَدُلُّ عَلَى خَفَاءِ صَوْتٍ وَحِسٍّ. مِنْهُ الْهَمْسُ: الصَّوْتُ الْخَفِيُّ"[1]. "هـ م س أَصْلُهُ الْخَفَاءُ كَيْفَمَا تَصَرَّفَ، وَمِنْهُ الْحُرُوفُ الْمَهْمُوسَةُ، وَهِيَ عَشَرَةٌ يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ: حَثَّهُ شَخْصٌ فَسَكَتَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْحَرْفُ مَهْمُوسًا لِأَنَّهُ ضَعُفَ الِاعْتِمَادُ مِنْ مَوْضِعِهِ حَتَّى جَرَى مَعَهُ النَّفَسُ"[2]. "همس: الهَمْسُ: حسّ الصّوت في الفم ممّا لا إشرابَ له من صَوْتِ الصَّدْر، ولا جَهارة في المنطق، ولكنّه كلامٌ مَهْموسٌ في الفم كالسِّرّ. همس الكلام: أخفاه همساً، وكلام مهموس. وحروف مهموسة: غير مجهورة، وهمس إليّ بحديثه: إِذَا أَسَرَّ الْكَلَامَ وَأَخْفَاهُ فَذَلِكَ الْهَمْسُ مِنَ الْكَلَامِ"[3].

(همس) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (همس) في القرآن الكريم مرة واحدة هي في:

(1)- قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ﴿طه:108﴾.

التفسير: جاء في تفسير هذه الآية: "يومئذ يتبع الناس صوت داعي الله الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، فيحشرهم إليه فيؤمونه ويأتونه، وسراعا إليه ينحشرون، (لا عِوَجَ لَهُ) من غير عوج عنه ولا انحراف، وسكنت أصوات الخلائق للرحمن فوصف الأصوات بالخشوع، والمعنى لأهلها إنهم خضع جميعهم لربهم، فلا تسمع لناطق منهم منطقا إلا من أذن له الرحمن"[4]، وفي

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج6، ص66.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص247.

3 الفراهيدي، العين، باب الهاء والسين والميم معهما (ه س م)، الزمخشري، أساس البلاغة، ه م ز، الجوهري، مختار الصحاح، باب الهاء، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص148.

4 الطبري، جامع البيان، ج18، ص374.

قوله: ﴿فَلا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا﴾ تفاوت تحديد العلماء للمعنى، فمنهم قائل: "فلا تسمع إلا همس الأقدام، ووطئها"[1]، وقيل: ﴿فَلا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا﴾ أي: "الصوت الخفي"[2]. وعن مجاهد: "فلا تسمع إلا تخافت الكلام وقيل خفض الصوت. وقيل كلام الإنسان لا تسمع تحرك شفتيه ولسانه من الذل"[3]. "خفضت الأصوات من شدة الفزع وخفتت فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً وهو الركز الخفي. ومنه الحروف المهموسة. وقيل: هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر"[4].

البعد البلاغي: رغم التفاوت في تحديد العلماء لمعنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ إلّا أنّ الْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ، أيْ لَا يُسْمَعُ لَهُمْ نُطْقٌ وَلَا كَلَامٌ وَلَا صَوْتُ أَقْدَامٍ إِلَى الْمَحْشَرِ؛ خوفا ووجلا من الله ﷻ؛ وإن ذلك يكشف عن صفات مختلفة لهذا القول عن بقية الأقوال؛ لذا كان التعبير القرآني عنه بحسب السياق ليدل على ذلك الاختلاف وهو (الهمس) وما فيه من الخفاء، والتهامس، والسرية، والخوف والوجل، والرهبة من الموقف، كل هذه المعاني هيئت لهذا اللفظ الجديد الذي أشار إليه السياق، والتعبير بهذا اللفظ هو الأنسب للإشارة إلى سلوك البشر في هذا الموقف الرهيب، موقف يوم القيامة، الذي أعطى الصورة الحية عن سلوكهم، ووجلهم، وتهامسهم. وجاء اللفظ في بأسلوب الحصر؛ لأنه ليس إلا الهمس هو المسموع في ذلك الموقف.

*****

---

1 المرجع السابق نفسه، ص375.

2 السابق نفسه، ص375.

3 السابق نفسه، ص357.

4 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص89.

(10)- (وحي) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة (وحي) ما يلي: "(وَحَى) الْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِلْقَاءِ عِلْمٍ فِي إِخْفَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ من الموحِي إلى الموحَى إليه؛ فَالْوَحْيُ: الْإِشَارَةُ. وَالْوَحْيُ: الْكِتَابُ وَالرِّسَالَةُ، وَالْوَحِيُّ: السَّرِيعُ، والوحي: الإلهام، والوحي: بالإيماء، وَالْوَحَى: الصَّوْتُ وَكُلُّ مَا أَلْقَيْتَهُ إِلَى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ فَهُوَ وَحْيٌ كَيْفَ كَانَ. وَكُلُّ مَا فِي بَابِ الْوَحْيِ فَرَاجِعٌ إِلَى هَذَا الْأَصْلِ"[1]. "وأوحَى الله إليه، أي: بعثه. وأوحى إليه: أَلْهَمَهُ. وقوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ﴿النحل: 68﴾، أي: أَلْهَمَهَا، وأوحى لها معناه: وأوحَى إليها في معنى الأمر. وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى وَوَحَى، وَحَى إِلَيْهِ، وأوْحى: كلمة بِكَلَام يخفيه من غيره"[2]. "الْوَحْيُ: إِلْقَاءُ الْمَعْنَى فِي النَّفْسِ، أو إلى الغير فِي خَفَاءٍ، فَقَدْ يَكُونُ بِالْمَلَكِ لِلرُّسُلِ وَبِالْإِلْهَامِ، وَبِالْإِشَارَةِ وَبِالْكِتَابَةِ: وَالْوَحْيُ: الْكِتَابُ"[3].

(وحي) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (وحي) ومشتقاته في القرآن الكريم ثمانياً وسبعين مرة)[4]، منها بمعنى الإيحاء بالإلهام أو الأمر، أو إلقاء المعنى في النفس، ومنها الإيحاء القولي المقصود من الدراسة، مثل:

(1)- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿آل عمران:44﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ "أي: أنّ هذه الأنباء والأخبار التي نطلعك عليها من أنباء الغيب ومن خفيّ أخبار القوم التي لم تطّلع أنت، يا محمد،

---

1 الطبري، جامع البيان، ج6، ص405، ابن فارس، مقاييس اللغة، ج6، ص93.

2 الفراهيدي، العين، باب اللفيف من الحاء، ابن سيده، المحكم، ج4، ص36.

3 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج3، ص144، الألوسي، روح المعاني، ج2، ص152.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص746-745.

عليها ولا قومك، ولم يعلمها إلا قليلٌ من أحبار أهل الكتابين ورهبانهم. وأن ما أخبرناك به هو من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي، وقد يكون هذا الإيحاء بكتاب وإشارة وإيماء، وبإلهام، وبرسالة. و﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فيهِ دَلَالَةٌ عَلَى نُبُوَّةِ سيدنا مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ أُخْبِرَ عَنْ القصص الماضية مثل قِصَّةِ زَكَرِيَّا وَمَرْيَمَ عليهما السلام وَلَمْ يَكُنْ قَرَأَ الْكُتُبَ، وَأَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ وَصَدَّقَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾"[1].

البعد البلاغي: "بما أنّ أَصْلُ الإيحاء فِي اللُّغَةِ: إِعْلَامٌ فِي خَفَاءٍ"[2]، أو "أنّ كل ما تلقيه إلى غيرك حتى يعلمه وحي كيف كان"[3]؛ فمن المؤكد أنّ أحد هذه الوسائل هي أن تلقي إلى الموحى إليه قولا بطريق مخصوص، وبسبب هذه الخصوصية استحق لفظ (وحي) تمييزا له عن سائر الأقوال وطرق إلقائها، ليس هذا حسب، بل إنّ الشرف الذي يشتمل عليه لفظ (وحي) لم يعط لغيره من ألفاظ فنون القول عامة، فهو بالإضافة إلى إنّه أحدها، فهو يعبر على أنّ هناك (موحٍ) عظيم، وشرف (للموحى إليه)، وقدسية (الإيحاء)، أو الخبر المحمول، وذلك لأنّ من معاني الوحي أيضا "المَلَك المرسل للأنبياء والرسل، وبمعنى الإلهام"[4]. هذه المعاني كلها يستوعبها لفظ (وحي)؛ بحيث لا يمكن للفظ آخر أن يُفهِم هذه المعاني كلها وبكلمة واحدة لو استبدل به في هذا السياق، أو في أي سياق آخر ورد فيه؛ لأنه لا يمكن أن يأتي لفظ في القرآن الكريم إلا ليعبر عن معنى/معان مقصودة لذاتها، لا يمكن أن يعبر عنها لفظ بديل آخر،

---

1 الطبري، جامع البيان، ج6، ص405، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص362، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص85-86، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج3، ص144، الألوسي، روح المعاني، ج2، ص152.

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج3، ص144.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص85-86.

4 الألوسي، روح المعاني، ج2، ص152.

"وقد جاءت الآية وما فيها من تفصيلات المشهد؛ واختصام القوم في كفالة مريم مثالا على الإطناب"[1]؛ وذلك لتوضيح معان بلاغية لا بد من تفصيلها لمن غاب عنها، وغابت عنه. وجاء اللفظ في جملة خبرية فعلية: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾؛ كما حمل هذا الإيحاء (النبأ) الذي لا يشك في صحته؛ لما فيه من قوة الخبر الذي يحمله.

(2)- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ ﴿النساء:163﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين: أنّ الله ﷻ يقول: "إنّا أرسلنا إليك، يا محمد، بالنبوة كما أرسلنا إلى نوح، وإلى سائر الأنبياء الذين سَمَّيتهم لك من بعده، والذين لم أسمّهم لك، -وقد ذكر تعالى في هذه الآية اثني عشر نبيا بأسمائهم وأجمل ذكر باقيهم-، وقيل إنّه جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول اللّه ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء، واحتجاج عليهم بأنّ شأنه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا، وأوحينا إليك أي: أرسلنا، ونبأنا، أو قصصناهم وما أشبه ذلك. وقيل إنها نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ- مِنْهُمْ سُكَيْنٌ وَعَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ قالوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَعْدِ مُوسَى فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ، وأنزل الآية"[2].

البعد البلاغي: يتبين من معنى الآية أنّ فيها جوابا على سؤال، واحتجاج على تهم باطلة، ودحضها، وكل هذا يستدعي قولا وكلاما، ولكن المولى ﷻ عبر عن ذلك بمقال يناسب المقام؛ حيث جاء بلفظ (أوحينا) ليرد على المحتجين بأنه أرسل سيدنا محمد ﷺ، وأيده بوحي منه

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم.

2 الطبري، جامع البيان، ج9، ص399، أبو محمد مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج2، ص1531، الراغب الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج4، ص230، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص590، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص15، النسفي، مدارك التنزيل، ج1، ص416.

واصطفاه بالوسيط وبالرسالة وبالمهمة، بطريقة مخصوصة ليس لهم أن يسمعوها، ولا يمكن لهم ذلك؛ لأنها تمت بسرية وخفاء لا يطلع عليه إلا المقصود بها، كما أنّه وحي شريف من لدن عليم حكيم، إلى شخص بعينه اختاره الله سبحانه لمهمة التبليغ، ورد عليهم بأنه اصطفاه كما اصطفى من سبقه من أولي العزم من الرسل وغيرهم، إذ لا يمكن لهذه الرسالة ولا لهذه المهمة أن تتم بغير (قول)، وقد عبر عنه المولى باللفظ الذي أشرنا (أوحينا) وهو فن من فنون القول، يحمل معناه، وشرفه وشرف المهمة، وخصوصيتها، وثلاثيتها، إذ لا يمكن لأي لفظ من ألفاظ فنون القول أن يؤديها، وجاءت الجملة خبرية اسمية مؤكدة بـــ(إن) الثقيلة: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، "وقد أفادت الآية معان جديدة على النص، منها التخصيص"[1]، ومن البعد البلاغي البياني الذي جاء في النص القرآني "التشبيه المرسل المجمل"[2]؛ "والتشبيه المرسل: هو ما ذكرت فيه الأداة"[3]، "التشبيه المجمل: هو التشبيه الذي لم يُذْكر فيه وَجْه الشبه"[4]. وجاء في الجملة مثالا على الجناس التام بين: (أَوْحَيْنَا) الأولى، و(أَوْحَيْنَا) الثانية.

(3)- و قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ ﴿النجم:10﴾.

التفسير: جاء في التفسير أنّ: "جبريل عليه السلام أوحى إلى محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، يُوحى إِلَيْهِ. (فأوحى) (مَا أوحى) أيْ من الأمورِ العظيمةِ التي لا تَفِي بها

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 224.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 234.

3 الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص 238.

4 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص 173.

العبارةُ"[1]، أي: إنّ الله ﷻ اختار جبريل لمهمة الإيحاء إلى سيدنا محمد ﷺ "قيلَ أوْحى إليهِ :أنَّ الجنةَ محرمةٌ على الأنبياءِ حتى تدخلَها وعلى الأممِ حتى تدخلَها أمتك"[2].

البعد البلاغي: جاء التعبير بلفظ (أوحى) في سياق الآية ليدل على تفرد الموحي، وقوته، وتأييده للموحى إليه بوسيط مؤتمن على سرية هذا الإيحاء، كما يشير اللفظ إلى نباهة المتلقي، حيث يفهم الإيحاء على أي طريقة مختارة؛ هي الإشارة، أو الإيهام، أو الإلهام، أو الكلمة الصريحة المباشرة، كل ذلك وأكثر محتمل ووارد في هذا اللفظ؛ علما إنه فن من فنون (القول)، بحيث لا يمكن لأي لفظ آخر من بابها أن يقوم مقامها، أو يشير في هذا العدد المحدد من الحروف إلى ما أشارت إليه، لأن أي لفظ ورد في سياق الآيات الكريمة في القرآن الكريم إلا وفيه من الإعجاز والبلاغة ما لا يمكن أن يحمله آخر في نفس السياق.

"وجاء اللفظ ضمن الجملة الخبرية، يفيد معنى الإبهام والتكثير؛ وهذا الإبهام يفيده بلاغة، ويكسبه إعجابا وفخامة، وذلك لأنه إذا قرع السمع، فإن السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب؛ لأن الإبهام يفيد تفخيما للأمر وتعظيما لشأنه، وأن الإبهام أولا يوقع السامع في حيرة وتفكّر واستعظام، لما قرع سمعه فلا تزال نفسه تنزع إليه وتشتاق إلى معرفته والاطلاع على كنه حقيقته، وكل ذلك يؤكد عظم البلاغة في الكلام؛ ففي الآية المقصودة ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ أبهم الأمر فيما شرح الله به صدره من العلوم الموحاة، كما أبهم الأمر في الآيات التي تلي الآية المذكورة: ﴿ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأى* أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى*﴾ ﴿النجم: 11-12﴾ فأبهم الأمر في هذه الأمور الثلاثة فيما شرح الله به صدره من العلوم الموحاة، وأن الفؤاد ما

---

1 الطبري، جامع البيان، ج22، ص505-506، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص157، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج10، ص10.

2 النسفي، مدارك التنزيل، ج3، ص390، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص156.

أنكر ما رأى من تلك العجائب الإلهية، ثم عقبه بالإنكار عليهم في المماراة له في الذي رآه، وما ذاك إلا لأنه قصد تعظيم حالها، وأنها بلغت في الفخامة مبلغا لا تدركه العقول، كأنه قال: أوحى إلى عبده أمرا أي أمر"[1]. وجاء بين اللفظين: (فَأَوْحَى) و (أَوْحَى) بديعية الجناس.

*****

(11)- (وسوس) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة (وسوس) ما يلي: "وسوس: الوسوسة: حديث النّفس، والوَسواس: الصوت الخفي من ريحٍ تهزّ قصباً ونحوه، وبه يُشَبّه صوتُ الحلي، وتقول: وسوس إليّ، ووسوس في صدري، والوَسواس بالفتح: اسم الشّيطان، في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾"[2]، وتفرد الأصفهاني بتعريفه: "والوسوسة: الخطرة الرديئة، والهمس الخفي"[3]، "وَسْوَسَة الشيطان هُوَ الدُّعَاءُ لِطَاعَتِهِ بِكَلَامٍ خَفِيٍّ، يَصِلُ مَفْهُومُهُ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ غير سماع صوت"[4]، "ويقال: وَسْوَسَتْ إليه نفسه وَسْوَسَةً ووِسْواساً بكسر الواو، والوَسْوَسَةُ والوِسْوَاسُ ووَسْوَسَ إليه أراد ذي الوَسْواس ووَسْوَسَ الرَّجُلَ كَلَّمَه كَلَاماً خَفِيّا"[5].

---

1 المؤيد بالله، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج2، ص 44- 45.

2 الفراهيدي، العين، ج7، ص335، الجوهري، الصحاح، ج3، ص988.

3 الأصفهاني، المفردات، ص869.

4 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص263.

5 ابن سيده، المحكم، ابن منظور، اللسان، حرف السين المهملة، فصل الواو.

(وسوس) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (وسوس) ومشتقاته في القرآن الكريم خمس مرات)[1]، كلها فيما يخص القول؛ جانب من المعاني المقصودة من الدراسة، مثل:

(1)- قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ ﴿طه:120﴾.

التفسير: جاء في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: "فألقى إلى آدم وحدثه، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ وأَنْهَى إِلَيْهِ الْوَسْوَسَةَ كَقَوْلِهِ حَدَّثَ لَهُ وَأَسَرَّ إِلَيْهِ"[2]، "فَوَسْوَسَ لَهُ مَعْنَاهُ لِأَجْلِهِ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ تِلْكَ الْوَسْوَسَةَ كَانَتْ بِتَطْمِيعِهِ فِي أمرين: أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ أَضَافَ الشَّجَرَةَ إِلَى الْخُلْدِ وَهُوَ الْخُلُودُ لِأَنَّ مَنْ أَكَلَ مِنْهَا صَارَ مُخَلَّدًا بِزَعْمِهِ. الثَّانِي: قَوْلُهُ: وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى أَيْ مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ دَامَ مُلْكُهُ"[3]؛ وبذلك: "فقد خطر له بخاطر رديء، وهمس إليه في خفاء"[4].

البعد البلاغي: من الواضح أنّ الشيطان قد حدث بحديث، وتكلم بطريقته الرديئة بكلام بثه في خفاء في روع آدم ﷺ، كأنه ناصح أمين، وصديق حميم، مما جعل آدم يصدقه. والمختلف في هذا القول عن بقية الأقوال هو مضمونه وملقيه، أما طريقته فهي السرية والخفاء؛ كما أشارت الدراسة في عنونة هذا الباب؛ فجاء تعبير اللطيف الخبير بلفظ (الوسوسة) ليدل على هذا الفرق، وعلى رداءة ذلك الملقي-علما أنّه فن من فنون القول- ولكن لا يمكن لأي لفظ آخر من ألفاظ القول أن يقوم مقامه في سياقه، حاملا المعاني المراد إفهامها للسامع كلها، وتبليغها للمتلقي؛ لأن

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 751.

2 الطبري، جامع البيان، ج18، ص387، فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج22، ص108.

3 فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج22، ص107-108.

4 الراغب الأصفهاني، المفردات، ص869.

اللطيف الخبير عليم بما يناسب كل مقام من مقال، وبما تتذوقه الأفهام من معاني، وجاءت جملة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ جملة خبرية فعلية.

"ومن حيث البعد البياني فقد جاءت الآية مثالا على (كمال الاتصال)؛ وذلك لصلة القرب بين جملتيها؛ بحيث تبدوان وكأنهما اتصلا اتصالا تاما، وامتزجتا امتزاجا معنويا، وكأن الثانية بمنزلة الأولى، فقد جاءت الجملة الثانية: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ بيانا لإبهام الجملة الأولى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾، وهذا من مواقع الفصل بين الجمل حيث يوجب ترك الواو"[1]؛ "فأتى بقوله: قَالَ يَا آدَمُ مجردا عن الواو، تنبيها على إيضاح الوسوسة وكشف غطاءها وشرح تفاصيلها، ولو أتى بالواو لم يعط هذا المعنى لما فيها من إيهام التغاير المؤذن بعدم الكشف والإعراض، وجاءت موضحة لها، بمثابة عطف البيان منها لخفاءها إذ لم تتبين تلك الوسوسة والمقام يقتضي إزالة هذا الخفاء"[2].

(2)- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ﴿ق:16﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تحدث به نفسه، فلا يخفى علينا ما يختلج في سرائره وضمائر قلبه، والأصوات الخفية التي في دواخله، وما يخطر بباله، ويهجس في ضميره"[3]، "وَفِي هَذَا زَجْرٌ عَنِ الْمَعَاصِي الَّتِي يَسْتَخْفِي بِهَا. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَانِ آدَمُ، فَالَّذِي وَسْوَسَتْ بِهِ نَفْسُهُ هُوَ

---

1 الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ج1، ص 168- 169.

2 المؤيد بالله، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة، ج3، ص 170، عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، ج2، ص 120.

3 الطبري، جامع البيان، ج22، ص341، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص383، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص8، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص140، النسفي، مدارك التنزيل، ج3، ص364، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص128.

الْأَكْلُ مِنَ الشَّجَرَةِ، ثُمَّ هُوَ عَامٌّ لِوَلَدِهِ"[1]. "وَفَائِدَةُ الْإِخْبَارِ بِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُ كُلِّ إِنْسَانٍ التَّنْبِيهُ عَلَى سِعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَحْوَالِهِمْ كُلِّهَا فَإِذَا كَانَ يَعْلَمُ حَدِيثَ النَّفْسِ فَلَا عَجَبَ أَنْ يَعْلَمَ مَادون ذلك، وأكثر منه. والْإِخْبَارُ عَنْ عِلْمِ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ النَّفْسُ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ فَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنْ تَعَلُّقَ عِلْمِهِ تَعَالَى بِالْوَسْوَسَةِ مُتَجَدِّدٌ غَيْرُ مُنْقَضٍ وَلَا مَحْدُودٍ لِإِثْبَاتِ عُمُومِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْكِنَايَةُ عَنِ التَّحْذِيرِ مِنْ إِضْمَارِ مَا لَا يُرْضِي اللَّهَ"[2].

البعد البلاغي: من بيان العلماء نفهم أن هناك حديث واقع من النفس إليها، تتحدث به فيما بينها خفية عن الآخرين، لأمر ما، وهو في الغالب حديث و (خواطر رديئة)، والله سبحانه هو الأعلم بذلك، عبر باللفظ الذي يفهم المعنى؛ علما أن المعبر عنه نوع من أنواع الحديث وجانب من جوانب القول، ولأن مقولته في النفس لا يعلم فحواها إلا اللطيف الخبير عبر عنها بـــ(الوسوسة) ليفهم غير العالم بها ولا المطلع عليها جزءا من أسباب سريتها وإخفائها، واختير اللفظ المميز لها من بين ألفاظ القول قاطبة، وعلم الله بها يحذرنا من التمادي بها؛ لأنها تبقى (وسوسة) لا تحمل خيرا للنفس ولا للغير. ولقد أعجز المولى سبحان الخلق في اختيار ألفاظ كتابه ونظمها، لأنه لا يمكن للفظ أن يقوم مقام آخر ويبقي على المعنى نفسه في نفس السياق، وهذا الشأن أيضا مع ألفاظ القول وفنونها؛ فلا يمكن للفظ آخر أن يأتي بالقول وحيثياته متزامنا مع تحذيراته في السياق نفسه دون طول شرح وبيان.

"جاءت هذه الآية البيانية بأسلوب الإثباتِ التقريريِّ المؤكَّد، لِدَفْعِ شُبْهَةِ أنَّ أعمَالَ الإنسانِ الباطِنَةَ وبَعْضَ أعمَالِهِ الظَّاهِرَةِ لا يُحيطُ بها الْعِلْمُ الرَّبَّانيّ، وهو تقريرٌ مسبُوقٌ بالدّليل عليه، وهو كونُ الرَّبِّ هو الخالق للإنسان، والخالِقُ له لا بدَّ أن يكون عالماً بكلِّ خصائصه النفسيّةِ

---

1 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص8.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص299.

وعناصره الَّتي ركَّبَهُ منْهَا، ومن لازم ذلك أنْ يَعْلَمَ مَا تُوَسْوِسُ به نفسُه، وأنْ يعلَمَ كُلَّ أعْمَالِهِ الظاهرةِ والباطِنة ويُحَاسِبَهُ عليها"[1]، "وهذا المثال أورده حبنكة في كتابة البلاغة العربية ضمن طائفة من الأمثلة على ظاهرة التنويع في أساليب الأداء البيانيّ في القرآن: حول منهج البيان القرآنيّ في التنويع والتكامل. رأى الكاتب أن يضيفها إلى علم البيان ويجعلها فصلاً يتعلّق بما اكتشَفَه في القرآن المجيد من ظاهرات بيانيّة يُفِيدُ منها متدبّر كتاب اللّهِ ﷻ، الباحثُ في معانيه ومراميه، والمتذوّقُ لآدابه وفنونه البلاغيّة العجيبة الرائعة، ويهتدي بهديها البلغاء وأهل الأدب"[2].

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ جملة خبرية مؤكدة بحرف التحقيق (قد)، وجاءت الجملة الفعلية (تُوَسْوِسُ) في الزمن المضارع لتشير ديمومة الوسوسة، وبالمقابل استمرارية علم الله بها.

(3)- وقال تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ﴿الناس:4﴾.

التفسير: يَعْنِي: "مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ ذِي الْوَسْوَاسِ، أيِ الْمُوَسْوِسِ، وَالْوَسْوَسَةُ: حَدِيثُ النَّفْسِ؛ يُقَالُ: وَسْوَسَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَسْوَسَةً وَوِسْوَسَةً، "وَوَسْوَسَتُهُ: هُوَ الدُّعَاءُ لِطَاعَتِهِ بِكَلَامٍ خَفِيٍّ، يَصِلُ مَفْهُومُهُ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ غير سماع صوت"[3]، "وَقِيلَ: مَعْنَى مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ أي الْوَسْوَسَةِ الَّتِي تَكُونُ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ، والْخَنَّاسِ الذي عادته أن يخنس ويتأخر إذا ذكر الإنسان ربه، منسوب إلى الخنوس وهو التأخر"[4]، و"الْخَنَّاسِ: صيغة مبالغة"[1]، "وَقَالُوا: إنّ الوسواس اسمٌ مِنْ أسْمَاءِ

---

1 حبنكة، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج2، ص 328.

2 المرجع السابق، ج2، ص 321.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص263.

4 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص824، النسفي، مدارك التنزيل، ج3، ص700، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج9، ص217، الألوسي، روح البيان، ج15، ص525.

الشَّيْطَانِ، وَالْوَسْوَاسُ مَا يُوَسْوِسُ بِهِ شَهَوَاتُ النَّفْسِ، وَهُوَ الْهَوَى الْمَنْهِيُّ عَنْهُ. وَالْخَنَّاسُ: الرَّاجِعُ عَلَى عَقِبِهِ، الْمُسْتَتِرُ أَحْيَانًا، وَذَلِكَ فِي الشَّيْطَانِ مُتَمَكِّنٌ إِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ اللَّهَ تَعَالَى تَأَخَّرَ. وَأَمَّا الشَّهَوَاتُ فَتَخْنِسُ بِالْإِيمَانِ وَبِلَمَّةِ الْمَلَكِ وَبِالْحَيَاءِ، فَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي الْوَسْوَاسِ"[2]، "الْوَسْوَاسِ اسْمٌ بِمَعْنَى الْوَسْوَسَةِ، وَأَمَّا الْمَصْدَرُ فَوِسْوَاسٌ بِالْكَسْرِ وسُمِّيَ الشيطان بِالْمَصْدَرِ كَأَنَّهُ وَسْوَسَةٌ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّهَا صَنْعَتُهُ وَشُغْلُهُ الَّذِي هُوَ عَاكِفٌ عَلَيْهِ أَوْ أُرِيدَ ذُو الْوَسْوَاسِ"[3].

البعد البلاغي: من المعاني الواردة في تفسير العلماء لمعاني (الوسواس) الذي (يوسوس في صدور الناس) أنها تعبر عن فعل هذا المخلوق الخفي الموسوم بها؛ لأنها شغله الشاغل وحديثه الخفي الدائم الوسواس الخناس، غير فاقد لأمثال له من بني البشر، يعملون عمله ويحدثون حديثه في سرية وخفاء طامعين بالإجابة من أكبر عدد من المخدوعين بحديثهم ووساوسهم، ولأن أعمالهم خفية، وأحاديثهم غير مرضية، وخواطرهم رديئة؛ فقد عبر عنها بلفظ تمجه الأنفس حين سماعه، وتستعيذ بالله أن يلم بها، علما أن ما يقوم به هؤلاء المستعاذ منهم إن هي إلا أقوال خفية وهواجس سرية، إلا إنه لا يمكن استخدام لفظ (قال) أو (يقول) لبيان نوع أقوالهم وخطر حديثهم بالنفس عوضا عن (وسوس)؛ علما أن كليهما من ألفاظ القول وفنونه. وفي مثل هذا تظهر بلاغة القرآن وإعجازه في استخدام اللفظ الدال على المعاني المقصودة من السياق بحيث لا يغني عنها غيرها. وجاءت الآية ضمن جمل مقول القول التي ابتدأت بفعل الأمر: (قل)، وتحمل معنى الدعاء، أو الالتجاء: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾. "ومن حيث البديع

---

1 الألوسي، روح المعاني، ج15، ص525.

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج10، ص579.

3 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص823، أبي حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج10، ص579، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص350، الألوسي، روح البيان، ج15، ص525.

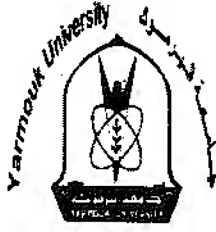
فقد وردت الآية مثالا على توافق الفواصل مع ما قبلها وما بعدها من الآيات"[1]. وهذا التوافق في رؤوس الآي يعطي انسجاما صوتيا، وجرسا موسيقيا بين الحواس؛ فتصبح أكثر استجابة للمراد من النص القرآني؛ سواء بالتعبد أو الدعاء.

انتهى المبحث الرابع بحمد الله...؛؛؛

*****

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ص 538.

جـــــــــامعة اليرموك
كليـــــــــــــــــة الآداب
قسم اللغة العربية



ألفــاظ القول في القــرآن الكريــم

دراســة بلاغيــة

Phrases of (Saying) In The Holy Quran

"A Rhetorical Study"

إعداد الطالبة

أميمة سليمان العوض البشايرة

إشراف

الأستاذ الدكتور مخيمر صالح

2014

المبحث الخامس

ألفاظ القول الدالة على "النداء" وبيان معانيها ودلالاتها وأساليبها البلاغية

سأتناول في هذا المبحث ألفاظ القول الدالة على (النداء)؛ وأجعلها في جزأين؛ الأول منها يدل على المعنى المعهود من النداء الطبيعي للإنسان، والآخر يدل على النداء مصحوبا بمعاني التحسر والندم- وهذا ما تبين بالاستقراء للألفاظ من القرآن الكريم، والمعاجم، والتفاسير للآيات- ثم أبين المعاني اللغوية لكل منهما، ودلالاتها، في السياقات التي وردت فيها، لمعرفة مقاصدها ومدى توافقها تحت جزئي هذا المبحث، ومواطنها، ثم الكشف عن الأساليب البلاغية التي وردت فيها، وسأتناول أولا ألفاظ الجزء الأول.

أ- ألفاظ القول الدالة على "معنى النداء الطبيعي المعهود من الإنسان" وبيان معانيها ودلالاتها، وأساليبها البلاغية:

سأتناول في هذا الجزء الألفاظ الدالة على معنى النداء الطبيعي من الإنسان؛ "والنداء في أصل البلاغة العربية هو من جملة المعاني الإنشائية الطلبية، ولهذا فإنه إذا قيل: يا زيد، لم يقل فيه: صدقت أو كذبت لما كان إنشاء، ومعنى النداء هو التصويت بالمنادى لإقباله عليك، هذا هو الأصل في النداء، وقد تخرج صيغة النداء إلى أن يكون المراد منها غير الإقبال وحروفه يا، وأخواتها، فمنها ما يستعمل للقريب كالهمزة، ومنها ما يستعمل للبعيد كأيا، ومنها ما يستعمل فيهما جميعا، وهو (يا) كما هو مقرر في علم الإعراب"[1]، كما أنّ هناك سبعة ألفاظ تشير في معناها- حسب الاستقراء- على النداء في القرآن الكريم غير تلك الحروف وهي: (جهر، دعى، ضرع، عان (استعان) منّ، منى (تمنى)، نادى).

*****

---

1 المؤيد بالله، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة، ج3، ص 161.

(1)- (جهر) في معاجم اللغة :

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة (جهر) ما يلي: "(جَهَرَ) الْجِيمُ وَالْهَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِعْلَانُ الشَّيْءِ وَكَشْفُهُ وَعُلُوُّهُ. يُقَالُ جَهَرْتُ بِالْكَلَامِ أَعْلَنْتُ بِهِ والجهور الصوت العالي، وَرَجُلٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ، عَالِيهِ"[1]، "وجَهَرَ وأجهر: بكلامِه وصَلاتِه وقِراءَتِه يَجْهَر جِهاراً، وجَهَرَ بالقول: رفَعَ به صوتَه، ورجل مِجْهَرٌ بكسر الميم، إذا كان من عادته أن يَجْهَرَ بكلامه، ورأيتــه جَهْرَةً، وكلمته جهرة"[2].

(جهر) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (جهر) واشتقاقاته في القرآن الكريم ست عشرة مرة)[3]، أربعة منها تدل علــى البدو والظهور، مثل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ ﴿النساء:153﴾ والباقي بمعنى الجهر من (القول) الجانــب المقــصود مــن الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّــهُ سَــمِيعًا عَلِيمًا﴾ ﴿النساء: 148﴾.

التفسير: ذكر عدد من المفسرين أنّ المقصود من هذه الآية: "هُوَ الرَّجُلُ يَسْتَضِيفُ الرَّجُلَ فَلَا يُضِيفُهُ، فَقَدْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَذْكُرَ مِنْهُ مَا صَنَعَ بِهِ لأنه قد ظلمه، بقوله: لَمْ يَقْرِنِي وَلَمْ يُضَيِّفْنِي، فإن الله قد رخّص لَهُ أن يذكره بما فعل لأنه منعه حقّه، أما غير ذلك فإن الله لا يحب أن يجهر أحدنا

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص487.

2 الفراهيدي، العين، الجوهري، الصحاح، ج2، ص617- 618، ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص 200.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص183.

بالقول والإساءة والدعاء على أحد؛ لأن ذلك هو الجهر بالسوء المنهي عنه، ولعل المـــراد هنـــا الإظهار وإن لم يكن برفع صوت"[1].

البعد البلاغي: مما سبق من المدلول اللغوي والتفسير القرآني يظهر أنّ لفظ (جهر) يحمل إشارة صريحة (للقول)، وإشاعته وإعلامه والتنادي به بين الناس؛ وقد جاء هذا الإعلام مقيدا بشروط لغاية يريدها المولى ﷻ؛ فقد أباحه عندما يشعر الفرد بالظلم في المجتمع، وعمم جهره على الأسماع كي يتعظ من يسلك مسلك الظلمة، أو المجحفين بحق إخوانهم البشر، لأن في هذه الآية دلالة واضحة على أن حق الإنسان على أخيه الإنسان وكرامته حق مكتسب ينبغي عدم الاستهانة به أو إنقاصه؛ للإبقاء على التواصل والتزاور، ومن ثم تراص المجتمع والإسلامي خاصة، والإنساني عامة، وإن لم يتحقق هذا الشرط أباح المولى للمظلوم أن يعلم بما جرى له، وفي كلا الأمرين الجهر وشروطه هما للحفاظ على لحمة المجتمع الإنساني بأكمله.

إذن يتبين أنّ لفظ (جهر) فن من فنون (القول)، ولحكمة أرادها المولى ﷻ عبر به هنـــا في هذا السياق، لأنه يشير إلى دلالات ومعان لا يحملها لفظ (قال) بعينه، ولاختـصاص كـل منهما بدلالات ومعان لا يمكن أن يقوم بها أحدهما مكان الآخر؛ فليس ما يعطيه لفظ (قال) مـــن معان يعطيها لفظ (جهر) من دلالة (القول) الصريح – أصلا– مع المناداة والجهـــر، مـــصاحبا للقوة والجرأة، علما أنّ (قال) هي أم الألفاظ، ولكنها لا تستقيم في كل سياق. وجـــاءت الجملـــة القرآنية: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ جملة إنشائية تفيد معنى النهي، من (لا) الناهية والفعل المضارع (يحب).

---

1 مجاهد، تفسير مجاهد، ج1، ص295، الفراء، معاني القرآن، ج1، ص 293، الطبري، جامع البيـــان، ج9، ص 343، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج2، ص 248، الألوسي، روح المعاني، ج3، ص 177.

(2)- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿الحجرات: 2﴾.

التفسير: جاء في التفاسير أن: "لَا تُنَادُوا الرسول ﷺ بِاسْمِهِ نِدَاءً، وَلَكِنْ قُولُوا قَوْلًا لَيِّنًا: وخاطبوه بالنبوة وقولوا يا نبي الله، ويَا رَسُولَ اللَّهِ وعظموه ووقروه، ولا ترفعوا أصواتكم عليه؛ كما يرفع بعضكم صوته على بعض، وإذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ الذي يبلغه بصوته، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين المقرّب من الهمس الذي يضادّ (الجهر)، ولم يتناول النهي رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك"[1].

البعد البلاغي: جاءت الآية بأسلوب النداء للمؤمنين متبوعا بصيغة النهي عن مناداة الرسول الكريم ﷺ بأسلوب الجهر، والتحذير من مغبة استخدام هذا الأسلوب معه ﷺ ذلك لما فيه من الأذى، ولما فيه من دلالات تشير إلى التمادي وعدم المهابة والاحترام من حضرته الكريمة، حيث يساوونه بأنفسهم حينما ينادونه بالمعهود من أسلوبهم، ورفع أصواتهم فوق صوته كما هي عادتهم بين بعضهم البعض، وهذا لا يكون مع ما يتميز به ﷺ، فجاء النهي والتحذير من استخدام هذا الأسلوب لما فيه دلالات لا يمكن أن يشير إليها لفظ (قال) لو كان في سياقه؛ علما أن كليهما من ألفاظ (القول).

---

1 مجاهد، تفسير مجاهد، ج1، ص610، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ)، غريب القرآن، المحقق: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية (لعلها مصورة عن الطبعة المصرية) السنة: 1398 هـ - 1978 م، ج1، ص 358، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 323، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 353، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص 306- 307، الألوسي، روح المعاني، ج13، ص 287- 288.

وجاءت الآية بصيغة الجملة الإنشائية، والتي تفيد معنى النداء مصحوباً بالنهي عن القيام بهذا العمل من باب الإلزام، وليس الخيار. "وهذا الأسلوب الأكثر ورودا في جملة النداء؛ بأن يصحبه أمر أو نهي"[1].

"ومن حيث البيان البلاغي جاءت الجملة القرآنية: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ...﴾ من باب التشبيه المرسل المفصل"[2]. ومن حيث البديع: جاء بين اللفظين: (تَجْهَرُوا) و (كَجَهْرِ) جناس اشتقاق، وبين (وَلَا تَجْهَرُوا) و(كَجَهْرِ) طباق سلب.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿الملك: 13﴾.

التفسير: جاء في التفاسير أن: "أخفوا قولكم وكلامكم أيها الناس أو أعلنوه وأظهروه إنه ذو علم بضمائر الصدور التي لم يُتَكَلَّم بها، فكيف بما تترجمه الألسنة وتنطق به، أخفي ذلك أو أعلن، لأن السر والجهر سيان في علم الله وإن أخفيتم كلامكم في أمر محمد ﷺ أو جهرتم به. إِنَّهُ عَلِيمٌ بما في القلوب من الخير والشر؛ قال ابن عباس ﵁ نزلت في المشركينَ كانُوا ينالُونَ من النبيﷺ فيُوحَى إليهِ ﷺ فقَال بعضُهُم لبعضٍ اسروا قولكم كيلاً يسمعَ ربُّ محمدٍ فنزلت"[3].

البعد البلاغي: جاء لفظ (جهر) نظيرا للفظ (أسر)، ليؤكد ﷺ أنهما سيان في علمه، وليؤكد أنه مطلع على كل ما يتحدث به المرء، و لم يأت التعبير بلفظ (قال) على سبيل المثال؛ علما أنّ اللفظين في الآية يشيران إلى جوانب مخصوصة من (القول)؛ ذلك ليعطي مفهوما أعمق من مجرد (القول)، فلو كان التعبير به لما تبين النقيض الآخر (أسر)، ولما اتسعت دلالات

---

1 المراغي، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، ص 83.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البيان، التشبيه، 233.

3 الطبري، جامع البيان، ج23، ص،السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 476، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 579، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج9، ص6، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص30.

الآية وما يحيط بها من معان، فبأي حال من الأحوال تحدثنا أو نادينا فإن الله يعلمه، فلا يمكن للمتلقي فهم هذه الدلالات، وأبعادها لو كان لفظ (قال) في هذا السياق. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ جملة أمر تفيد معنى التسوية، في سياق الجملة الإنشائية.

"وجاء في الآية الكريمة طباق الإيجاب بين اللفظين: (وَأَسِرُّوا) و (اجْهَرُوا) "[1].

*****

(2)- (دعو) في معاجم ا للغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة (دعى) ما يلي: "(دَعَوَ) الدَّالُ وَالْعَيْنُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَنْ تُمِيلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وَكَلَامٍ يَكُونُ مِنْكَ. تَقُولُ: دَعَوْتُ أَدْعُو دُعَاءً. وَالدَّعْوَةُ إِلَى الطَّعَامِ بِالْفَتْحِ، وَالدِّعْوَةُ فِي النَّسَبِ بِالْكَسْرِ"[2]، "الادعاء في الحرب أنْ تقولَ يال فلان، والتّداعي: أن يدعوَ القومُ بعضُهم بعضاً. وتقول: دعا دُعاءً، وفلانٌ داعي قومٍ وداعية قومٍ: يدعو إلى بيعتهم دعوة. والجميعُ: دُعاةٌ"[3].

(دعو، دعا) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (دعو) واشتقاقاته في القرآن الكريم مائتين وأربع عشرة مرة)[4]، جاءت في موقع واحد بمعنى الدعوة إلى الطعام، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ ﴿الأحزاب:53﴾، وفي ثلاثة مواقع بمعنى الدعوة في النسب، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، طباق الإيجاب، ص 349.

2 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص279، باب الدال والعين وما يثلثهما.

3 الفراهيدي، العين، ج2، ص221.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص257- 260.

﴿الأحزاب:4﴾ وقوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ﴿الأحزاب:5﴾ وقوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ ﴿الأحزاب:37﴾ ، والباقي بمعنى النداء، أو الدعاء من (القول)، جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿البقرة: 186﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أنّ الله ﷻ يقول: وإذا سألك عبادي عَني يا محمد: أين أنا؟ فقل لهم إنّي قريبٌ منهم أسمع دُعاءهم، وأجيب دعوة الداعي منهم بما نَدب الله إليه وأمر به بثوابي له. فيكون معنى الدعاء: مسألة العبد ربَّه وما وعد أولياءه على طاعتهم بعملهم بطاعته، حيث بيّن ﷻ أنّ الذين تذكرونه وتشكرونه قريب منكم ومجيب لكم إذا دعوتموه، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم، روي: أنّ أعرابياً قال لرسول الله ﷺ أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت"[1].

البعد البلاغي: (الدعاء) فن من فنون (القول)، له شروطه الخاصة ليستجاب، لأننا ما ندعوا إلا لذلك. فتغير المضمون الدلالي تغير الظاهر اللفظي تبعا له في الآية السابقه؛ فـ(الدعاء) الذي أمر به ﷻ يستوجب المحبة والثقة به فتستميله إليك من الداخل والخارج؛ فمن الداخل ما يكون بالرغبة الأكيدة في ذلك، ومن الخارج ما يكون بندائه بصوت يعبر عن تلك الرغبة في الاستجابة، فتكون بذلك قد ناديته، فيتأكد بذلك حقيقة (الدعاء) بأنه (قول) لا بد فيه

---

1 الطبري، جامع البيان، ج3، ص 480، و ج3، ص 485، الراغب الأصفهاني، تفسير الأصفهاني، ج1، المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق ودراسة محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب – جامعة طنطا، ط1- 1420هـ - 1999م، ص 395، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 228، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص 308، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص 125.

من (النداء)، وطلب الحاجة ممن تدعوا وتنادي، بحيث أنّ هذه الشروط لا تدرك بلفظ (القــول) المجرد لو استبدل به في هذا النص.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ جملة خبرية اســمية، تقريرية مؤكدة بحرف التوكيد: (إنّ) الثقيلة، وهي جملة جواب حرف الشرط غير الجازم (إذَا)، في حين أنّ جملة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ هي جملة فعل الشرط، وفي جملة: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ لف ونشر؛ فاللف في لفظ (قريب) والنشر في جملة: "أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ"، وفي شبه الجملة: "إِذَا دَعَانِ"، إطناب؛ لأنه من المعروف أنّ الــداعي يــدعو، ولكن جاء بلفظ "إذا دعان" ليؤكد على الجانب الفعلي من الدعاء ويحث عليه، ويرغب فيه. وأنّ الإستجابة مشروطة بـــ "إِذَا دَعَانِ" وأن لا يدعو إلا الله ﷻ، وأن لا يتوجه إلّا إليه. وجـــاء فـــي الآية "جناس الاشتقاق"[1]؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وفي هذه الآية لطيفة بلاغية؛ حيث اختلف جواب السؤال الذي جاء فيها عن مثيلاتها من الآيات، على النحو التالي: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، فجاء الجواب مباشرة: ﴿فَــإِنِّي قَرِيــبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؛ دليل على قربه ﷻ من عبده، واستجابته للدعاء دون واسطة من أحد بينه وبين عباده، بينما كان الجواب على مثيلاتها من الآيات التي فيها "يَسْأَلُونَكَ" على النحو التالي: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ ﴿البقرة: 189﴾، فجاء الجواب بـــ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيــتُ لِلنَّـــاسِ وَالْحَجِّ﴾ ﴿البقرة: 189﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ ﴿الكهف: 83﴾، فجـــاء الجواب بـــ: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾﴿الكهف: 83﴾، و قوله تعـــالى: ﴿وَيَــسْأَلُونَكَ عَـــنِ

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 392- 434.

﴿الْجِبَالِ﴾ ﴿طه: 105﴾، فجاء الجواب بـ: ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿طه: 105﴾، وكذلك في باقي الآيات التي جاء فيها السؤال بـ(يسألونك) تصدرت الإجابة بفعل الأمر "قل"[1].

(2)- وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ﴿الفرقان: 77﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿دُعَاؤُكُمْ﴾: "أن لولا دعاؤكم إياه لتعبدوه وتطيعوه، ولولا ورغبتكم بالإيمان، لما كان به حاجة إليكم، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين؛ ذلك بسبب دعوته لكم لطاعته؛ لتؤمنوا به ولتعبدوه"[2].

البعد البلاغي: باتفاق المعاجم اللغوية والتفاسير أن لـ (الدّعاء) صبغة مختلفة من الكلام، وأسلوب مغاير لأساليبه؛ ففيه النداء الملازم للرغبة في استمالة من تدعو، بصوت يعبر عن هذه الرغبة، وثقة أكيدة بمن (تنادي) بأنه سيستجيب لك، ولما تتحقق هذه الشروط يتحقق الوعد بالاستجابة. فجاء التعبير القرآني بلفظ (الدعاء) بأن لولا دعوة الله لغير المؤمنين بأن يؤمنوا، فليس له بهم حاجة، والمقصود بالدعاء هو الإيمان. فهذا اللفظ مختلف عن عموم (الأقوال)؛ علما بأنه أحد فنونه، ولكن لا يستقيم أحدهما مكان الآخر في السياق الذي ورد فيه.

وجاءت الآية إنشائية بصيغة الأمر من فعل الأمر(قل)، وجاءت جملة (دُعَاؤُكُمْ) في جملة مقول القول، وجملة مقول القول: "مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ" جملة تفيد امتناع لوجود؛ أي

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 336- 337.

2 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 322، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 548، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج8، ص 5270.

امتنع عبء ربي بكم؛ لتكذيبكم، كما مثلت جمل الآية الكريمة أنموذجا على "توافق الفواصل"[1] على النحو التالي: (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ- رَبِّي-، لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ)

(3)- وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الزمر: 49﴾.

التفسير: ذكر المفسرون في بيان قوله تعالى: (دَعَانَا) أي: "فإذا أصاب الإنسان بؤس وشدّة دعا الله مستغيثا به من جهة ما أصابه من الضرّ، وأخلص في الدعاء"[2].

البعد البلاغي: إنّ الإنسان بطبيعته الفطرية يبحث - راغبا- عن إله يعبده ويلجأ إليه، ويدعوه في السراء والضراء، ويشعر بضعفه أمامه، وها هو- هنا- يعترف بوجود الله فيدعوه؛ ليكشف عنه الضر الذي مسه. ومن السياق تتبين طريقة الدعاء وكيفيتها؛ لأنها تفصح عن الحالة التي يكون عليها الداعي؛ فهو ينادي ويطلب من قوي غني، فيظهر ضعفه وفقره ليستجلب الرحمة والاستجابة من مالكها، ويستميله بصوت الفقير الضعيف؛ ليستدر عطفه ولطفه؛ فجاء التعبير القرآني ليكشف عن هذه الحاجات بلفظ بليغ معبر هو(دَعَانَا)، علما أن (دعاءه) هذا لا يخرج عن نطاق (القول)، ولكن معانيه ودلالاته أبعد وأشمل من مجرد (القول) فكان التعبير به، ليس بسواه.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ جملة خبرية تقريرية. شرطية من أداة الشرط (إذا)، و (مسّ) فعلها، وجملة (دَعَانَا) جوابها.

*****

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع ، السجع، توافق الفواصل، ص 458.

2 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 303، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 190، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج10، ص 9352، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص 45.

(3)- (ضرع) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "ضَرَعَ: الضَّادُ وَالرَّاءُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى لِينٍ فِي الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ ضَرَعَ الرَّجُلُ َضْرَعُ ضَرَاعَةً وضَرَعا فَهُوَ ضَـــارِعٌ، إِذَا ذَلَّ، وضعف، والضَّرَعُ والتَّضَرُّعُ: التّذلل والخضوع للمسألة. وكذلك التضرّع إلـــى الله: التخـــشُّع، والابتهال. وَمِنَ الْبَابِ ضَرْعُ الشَّاةِ وَغَيْرِهِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ لِينٍ، وقوم ضَرَعَة وضُرُوع. وجاء فلان يَتَضَرَّعُ ويَتَعَرَّضُ بمعنًى، إذا أضرعته الحاجة وجاء يطلبها إليك"[1].

(ضرع) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (ضرع) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثماني مرات)[2]، جاءت في موقع واحد بمعنى "يبس الشبرق"[3]، في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِـــنْ ضَـــرِيعٍ﴾ ﴿الغاشـــية:6﴾، والباقي بمعنى الدعاء من (القول) جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿الأنعام: 43﴾.

التفسير: جاء في تفسير (تضرعوا)، أي: "فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته، فيتخشعون ويتوبون؛ ليتوب ربهم عنهم ويصرف عنهم بأسه، وعذابه، ليكونوا على رجاء من التـــضرع، وهو التفعل من الضراعة، وهو الذل والاستكانة"[4]، "والتضرع هو أن يَدْعُو ربهم رَغَباً وَرَهَباً

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، خ3، ص396، الفراهيدي، العين، ج1، ص 269، الجوهري، الصحاح، ج3، ص 1249، ابن سيده، المحكم، ج1، ص 304.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص420.

3 الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج3، ص 1249.

4 الطبري، جامع البيان، ج11، ص 356، مكي بن أبو طالب القيسي، الهداية، ج3، ص 2021، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 23.

ويَتَضَرَّعُو إِلَيْهِ فِي حَالِ الرَّخَاءِ وَحَالِ الشِّدَّةِ"[1]، وأرى أنّ التضرع أخذ من ضرع الشاة مجازا حيث لا بد من التذلل وخفض الرأس تحت ضرعها للحصول على رضاها ثمّ الحصول على لبنها.

البعد البلاغي: (التضرع) هو فن آخر من فنون (القول) موجه في الدعاء، لأن فيه من دلالات الذل والخشوع ما ليس في غيره من الألفاظ السابقة من الباب نفسه، فهو في حقيقته (قول)، ولكنه يحمل أبعادا أوسع من مجرد (القول)؛ حيث يشير إليه ابتداء، ثم إلى هيئة القائل مصورا نفسيته وانكساره وذله الواضحين، ثم يشف عما في داخله من الرجاء والأمل والرغبة طمعا في الاستجابة، مصاحبا للرهبة مع اللين والانكسار لمن تدعو وتنادي، بحيث لو التزم الكفار به وتابوا إلى الله ودعوه متضرعين لنظر إلى حالهم، ولكن لولا أفادت امتناع توبتهم لقسوة قلوبهم فحالت بينهم وبين الدعاء؛ ثم المغفرة، وذلك يشير إلى أنّ الله ﷻ وجههم إلى طريقة مخصوصة من القول ينادونه بها ليستجيب لهم، وحدد لهم كيفية مناداته ومناجاته بلفظ (التضرع) بحيث لم يدع مجالا للشك بأن لفظ (قال) لا يمكن أن يحل مكانه في السياق على أساس أن كلاهما لفظ (قول)؛ ذلك أنه لا يمكن له أن يحمل كل ما احتمل لفظ (ضرع) في السياق من صور نفسية ودلالات معنوية، وبالتالي لا يمكن أن يقوم مقامه؛ ذلك من بلاغة التعبير القرآني.

وقد دل السياق على المعنى البلاغي للفظ على الأمر، الذي خرج عن أصل معناه إلى التحضيض؛ وذلك بدليل اقترانه بالقرينة القولية الدالة (لولا))[2]؛ "والتحضيض ضرب من

---

1 الشوكاني، فتح القدير، ج3، ص 502.

2 المؤيد بالله، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة، ج3، ص 161، صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، التحضيض، ص 203.

الاستفهام الذي خرج عن حقيقته لمعان أخرى؛ وذلك عندما يريد المتكلم حَضَّ مَنْ يخاطبه على فعل أمرٍ أو ترك أمْرٍ، وقد يجد استعمال أسلوب الاستفهام أوقع في نفسه"، "وهو أيضا الحث على القيام بالفعل ليفعله في المستقبل وذلك باستخدام (لولا) مع الفعل المضارع"[1]. كما أفاد حرف (فَلَوْلَا) على امتناع لوجود، حيث امتنعوا التضرع لقسوة قلوبهم.

(2)- وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿الأعراف: 55﴾.

التفسير: جاء أن: "ادْعُوا أَيُّهَا النَّاسُ رَبَّكُمْ وَحْدَهُ، فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ دُونَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَصْنَامِ تَذَلُّلًا وَاسْتِكَانَةً لِطَاعَتِهِ؛ بِخُشُوعِ قُلُوبِكُمْ وَصِحَّةِ الْيَقِينِ مِنْكُمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، وليس جِهَارًا، ولا مُرَاءَاةً، واعتقدوا عبادته في أنفسكم لأن الدعاء معناه العبادة، وادعوه أيها الناس، مستكينين له، مخلصين متخشعين سراً في أنفسكم، وهذا أدب الدعاء أن يدعوا بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطرار. والتضرع تفعل من الضراعة، وهو الذل، والتذلل"[2].

البعد البلاغي: بتوافق بين المعنى اللغوي والتفسير القرآني يتبين أن التضرع لفظ من ألفاظ (النداء)، لأن فيه التماس ممن تتضرع إليه أن يسمعك، ليجيبك، والنداء بطبيعة الحال جانب مخصوص من جوانب (القول)؛ يشف عن صورة المتضرع الخارجية والداخلية، ويفصح عن انكساره الجسدي، وخضوعه، متزامنا بذله الداخلي مشفوعا باعترافه بالهوان وقلة الحيلة، وكأننا نراه شكلا ومضمونا، وهذا ما يوجهنا ﷺ لتمثله حينما نتوجه إليه بالنداء والدعاء، علما بأنه مطلع على كل أحوالنا، ولكنه يوجهنا لأفضل الهيئات التي يحب أن يرانا عليها، معترفين

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ج1، ص 269-270، عوني، حامد، المنهاج الواضح في البلاغة، ج2، ص 110.

2 الطبري، جامع البيان، ج10، ص 237، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 522، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج4، ص 2405، القشيري، لطائف الإشارات الكشاف، ج2، ص 110.

بالعبودية التي خلقنا من أجلها لنجني الثمار التي نرجوها؛ وهي القرب والإجابة، إنّ هذا الجزء اليسير من المعاني هو ما عبر عنه لفظ (التضرع)؛ اللفظ المناسب في هذا السياق أكثر من غيره من ألفاظ القول.

وقد جاء في الآية الكريمة ما يمثل "الإيجاز بالحذف"[1]، مقابلة بأمثالها من الجمل أن تكون: "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا، وادعوا ربكم خُفْيَةً" والإيجاز: هو البلاغة، وتأدية المقصود من الكلام بأقل عبارة متعارف عليها"[2]. وجاءت بصيغة الأمر، من الجملة الإنشائية.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 76﴾.

التفسير: جاء في التفسير أنّ: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: "وما يتذللون له، ولا يرغبون إلى الله في الدعاء والطاعة، والمراد بهذا: العذاب وما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر، وعذاب الجوع الذي تضرعت فيه قريشا إلى رسول الله ﷺ حيث دعا بكشفه فكشف الله عنهم ذلك"[3].

البعد البلاغي: لو التزم المشركون التوجيهات الربانية كما بينها النص القرآني، وتوجهوا إليه سبحانه بذل وانكسار وتضرعوا إليه طالبين حاجتهم بكل جوارحهم لما وصلوا إلى ما هم عليه من الذل والهوان، فتبين من جملة: ﴿﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ﴾ أنّ الله ﷻ يعيب عليهم

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، الإيجاز بالحذف، ص 189.
2 المؤيد بالله، يحيى بن حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة، ج3، ص 177.
3 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 60، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 487، الألوسي، روح المعاني، ج9، ص 249.

عدم انكسارهم له، وعزوفهم عن طلب حاجتهم منه بحال الذليل الخاشع؛ ليرفع عنهم العـذاب. وفهم تفصيل حالتهم، وتصويرها من لفظ (ضرع) متزامنا مع طلبهم لحاجتهم، بحيث لا يمكـن أن يشير إليه ولا أن يصوره لفظ آخر من ألفاظ القول؛ فالتضرع حالة مـن حـالات (القـول) مختصة بـ (الدعاء) مشروطة بهيئة جسدية ظاهرة، ليصدق فيها ذل صاحب الحاجة إلى مالكها ومعطيها، ويتميز أخيرا بصدقة ثم نوال مطلبه، ليتحقق فيه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُـضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ﴿النمل: 62﴾. ولكنهم تمردوا وطغوا، وأبوا ذلك، فجنوا ما يستحقون.

*****

(4)- (منّى) في المعاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة (منى): "المُنَى: جمع المُنية، وهي ما يتمناه الرّجل"[1]، "إذا تَمَنَّى أحدُكم فَلْيَستَكثِرْ فإنّما يسأل رَبَّه، وَفِي رِوَايَة: (فَلْيُكثِرْ)، وَالْمَعْنَى إذا سأل اللهَ حَوائجَـه وفَضلَه فلْيُكثِرْ فإن فَضْلَ اللَّهِ كَثِيرٌ وَخَزَائِنَهُ وَاسِعَةٌ. والتَّمَنِّي هو تَشَهِّي حُصُولِ الأمر المَرْغوب فِيهِ وحديثُ النَّفْس بِمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ، وتصويره في النفس، وذلك قد يكـون عـن تخمـين وظن، ويكون عن روية وبناء على أصل، لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك، فأكثر التمني تصور لا حقيقة له. فصح أن يعبر عن الكذب بالتمني، كما أن تَمَنَّيْتُ الـشيءَ أي قَدَّرته وأَحْبَبْتُ أن يَصِيرَ إليَّ مِن المَنَى وَهُوَ الْقَدَرُ، وَهِيَ المِنْيَةُ والمُنْيَةُ والأُمْنِيَّةُ. وتَمَنَّى الكتابَ: قرأه وكَتَبَه"[2].

---

1 الفراهيدي، العين، ج8، ص390.

2 الأصفهاني، المفردات، ص779- 780، ابن منظور، اللسان، فصل الميم.

(منّى) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (منّى) المقصود من الدراسة، واشتقاقاته في القـرآن الكـريم سـبع عـشرة مرة)[1]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ ﴿النساء:119﴾.

التفسير: جاء أنّ: "﴿لَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ هي قول الله تعالى على لسان الشيطان؛ أنه يتوعد ويقـول عن أتباعه: لأزيغنّهم – بما أجعل في نفوسهم من الأماني- عن طاعتك وتوحيدك، إلى طاعتي والشرك بك، وَ﴿لَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ طول الحياة، وتـأخير التوبـة مـع الإصـرار علـى المعاصـي، وَ﴿لَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأماني الباطلة وبلوغ الآمال، وإيهامهم برحمة اللّه للمجرمين بغير توبة والمعرفة مع الإصرار، والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة ونحو ذلـك، وأن لا بعـث ولا عقـاب ﴿وَلَأَسُوَنَّ﴾ لَهُمْ، مِنَ التَّمَنِّي، وَهَذَا لَا يَنْحَصِرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْأُمْنِيَّةِ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ إِنَّمَا يُمَنِّيهِ بِقَدْرِ رَغْبَتِهِ وَقَرَائِنِ حَالِهِ"[2]؛ بمعنى أنّ الأماني كثيرة ومتنوعة.

البعد البلاغي: إنّ في بلاغة ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ ما لا ينحصر من المعاني والدلالات والأمـاني التي لا عد لها، وفتح النفس وتشهيها بحصول ما يمكن وما لا يمكن، وكل ما يخطر على البال من آمال وأحلام سيان قريبة أم بعيدة المنال، وتصوير المحال في حال الواقع الممكن، وتهيئـة الخيالات الكاذبة إلى ظنية ممكنة الحصول، وبديهية الشفاعة مع سقوط ركن التوبة، هـذا مـا توعده الشيطان لأتباعه ومحبيه، لذا كان التعبير القرآني باللفظ المناسب الـذي يحقـق هـذه

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 677.

2 الطبري، جامع البيان، ج9، ص213، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج2، ص 1470، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 566، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص 385، البيضاوي، أنـوار التنزيل، ج2، ص 98.

المعاني بكلمة واحدة ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ بدلا من أي لفظ آخر، مثل (قال)على سبيل الخصوص؛ ذلك لأنه الأصل في الألفاظ بحيث لا يمكن للمتلقي أن يدرك مكر الشيطان وتسويفه، لكل شخص بعينه لو كان التعبير بأي لفظ غير هذا الموجود.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿الحج:52﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير أنّ سبب نزول هذه الآية على رسول الله ﷺ : "أنّه كان يتلو بعض ما أنزل عليه من القرآن، فألقى الشيطان على لسانه في تلاوته مما ليس منها، فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام ، فعرض عليه السورة; فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه: "أنّها الغرانيق العلى، وأن شفاعتهنّ ترتضى" قال: ما جئتك بهاتين، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ فقال: افْتَرَيْتُ عَلى الله، وَقُلْتُ عَلى الله ما لَمْ يَقُلْ، فأنزل الله الآية وأذهب عن نبيه الحزن، وأمّنه مما يخاف، ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم، وقال بعضهم: "إلا أماني" إلا أباطيل، وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: "منذ أسلمت ما تغنيت ولا تمنيت"، أي ما تكلمت بالباطل. و قوله ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى﴾، أي: حدثت نفسه، ﴿أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، أي: في حديثه. ويقال: تمنى أي قرأ، أي إذا تلا ألقى في تلاوته. فهم لا يعلمون منه إلا التلاوة ولا يفهمونه ولا يعملون به. إلاّ أَمَانِيَّ: إلاّ كذباً أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ التي تمناها، أي: وسوس إليه بما شيعها به"[1].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 663- 664، وص 666، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 67، وص 93، تفسير سورة البقرة، الآية80، السمرقندي، ج2، ص 464، سورة الحج، الآية 52، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج1، ص 320، وج7، ص 4913، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 164.

البعد البلاغي: من المعاني الاصطلاحية للفظ (منّى) هو القراءة، والتلاوة، والوسوسة، والكلام كما جاء في بيان قول عثمان ﷺ فالتلاوة في حقيقتها (قول) والقراءة (قول) والوسوسة (قول)، والكلام هو أيضا (قول)، وكل قول منها يشير إلى دلالات ومعان لا يشير إليها القول الآخر؛ مما توافق فعلا مع المعنى البياني والتفسيري للآية الكريمة، فكانت أمنية الرسول ﷺ هي (تلاوته)، كما أن للرسول (أمنية) خفية أخرى، هي رغبته في إيمان أكبر عدد من رؤساء قريش ورجالاتهم، فلذلك ألقى الشيطان (أمنيته) و(وساوسه) و (كلماته) ومكره في (أمنية) الرسول ﷺ، وفي أمنية الشيطان لا يفوتني أن أذكر أن من معاني (المنى) الكذب، وهذا ما ينطبق فعلا على أمنيته التي قد نسخها الله ﷻ مما يؤكد لنا بلاغة التعبير القرآني وإعجازه، بحيث لا يختلط لفظ بلفظ، ولا يمكن استبدال لفظ فيه بآخر، فهنا – مثلا – ليس لنا أن نفترض وجود لفظ (قال) على إنه بديل (منّى) ليعطي هذه المساحة الواسعة من الدلالات والمعاني، على أنهما لفظي (قول).

وجاء بين اللفظين: "(تَمَنّى) و (أُمْنِيَّتِهِ) ما يسمى بجناس الاشتقاق"[1].

(3)– وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿القصص:82﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿تَمَنَّوْا﴾، أي: " إنّ الذين شاهدوا قارون من قومه تمنّوا، أو طلبوا أن يكون لهم مثل ما له، وكان قولهم: "يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون"، ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 392– 434.

اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ﴾، ويَبْسُطُ ويَقْدِرُ بمقتضى مشيئته لا لكرامة تقتضي البسط ولا لهوان يوجب القبض"[1].

البعد البلاغي: إنّ الذين تمنّوا مثيلا من النّعم التي أنعم الله بها على قارون قد قالوا أمــانيّهم (قولا) وصرحوا بها نطقا، بقولهم: "يا ليت لنا" فهم نادوا بحرف النداء (يا) وطلبوا حاجتهم من مالكها، وكأنهم يدعون بعيدا، أو غائبا، وعندما ظهر لهم سوء عاقبة من تمنوا مثل ما له تداركوا حالهم وتراجعوا عن مطلبهم خوفا من مصير مشابه، ويذكر أنّ الله كان قد أنعم علــى قــارون الشيء الكثير، وهو ما توافق مع مطلبهم وتمنّيهم والبعد المعجمــي للفــظ: "إذا تَمَنَّــى أحــدُكم فَلْيَستَكثِرْ فإنَّما يسأل ربَّه" ولم يكن حينها أكثر من ملك قارون الذي تنوء بحمل مفاتيح خزائنــه العصبة من أولي العزم؟ وبما أن: "التَّمَنِّي هو تَشَهِّي حُصُولِ الأمر المَرْغوب فيه وحديثُ النَّفْس بِمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ"[2]، فجاء التعبير عن رغبتهم بما يكون بــ (التمنّي) وســألوا حــوائجهم فقالوا قولهم، وأكثروا لأنهم يعلمون أن خزائن اللَّه وَاسِعَةٌ، فقد أحبوا هذا الخير وتمنّوا أن يصير إليهم. إنّ هذه الاستدلالات كشف عنها البعد الدلالي للفظ (تمنّوا) متوافقا مع الواقــع التفــسيري للآية، فهو يجمع ما بين (القول) الظاهر والنداء الحاصل والرغبة الداخلية، والطمع الإنــساني، بحيث لا يمكن لأي لفظ آخر أن يشير إلى ما أشار إليه النص ولو كان البديل لفظ (قال) أو أحد مشتقاته بصفته أصل الأبواب. وجاءت الجملة: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ...﴾ جملة خبرية، ومن حيث البديع فقد جاء بين اللفظين: (تَمَنَّوْا) و (مَنَّ) جناس اشتقاق.

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 621، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلــوغ النهايــة، ج8، ص 5581، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 186.

2 انظر إلى ما سبق من تعريفات المصطلح (منّى).

ومن حيث المعاني فقد دل السياق القرآني "على الكناية"[1]، "والمُراد بالكناية هاهُنا أن يريدَ المتكلمُ إثباتَ معنىً من المَعاني فلا يذكُره باللّفظِ الموضوعِ له في اللُّغة ولكن يجيءُ إلى معنىً هو تاليه وردفُه في الوجودِ فيومىءُ به إليه ويجعلهُ دليلاً عليه، فقوم قارون لم يصرحوا بغناه قولا، ولم يذكروه لفظا؛ ولكنهم عبروا بما يومىء إليه، بقولهم: "وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ"، وقد أجمعَ العلماء على أنّ الكنايةَ أبلغُ منَ الإفصاح والتعريض أوقعُ من التَّصريح"[2].

*****

(5)- (منّ) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "(مَنَّ) الْمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ. أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى قَطْعٍ وَانْقِطَاعٍ، وَالْآخَرُ عَلَى اصْطِنَاعِ خَيْرٍ، الْأَوَّلُ الْمَنُّ: الْقَطْعُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: مَنَنْتُ الْحَبْلَ: قَطَعْتُهُ. وَالْمَنُونُ: الْمَنِيَّةُ، لِأَنَّهَا تَنْقُصُ الْعَدَدَ وَتَقْطَعُ الْمَدَدَ. وَالْمَنُّ: الْإِعْيَاءُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْيِيَ يَنْقَطِعُ عَنِ السَّيْرِ، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ الْمَنُّ، تَقُولُ: مَنَّ يَمُنُّ مَنًّا، إِذَا صَنَعَ صُنْعًا جَمِيلًا. وَمِنَ الْبَابِ الْمُنَّةُ، وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي بِهَا قِوَامُ الْإِنْسَانِ، وَرُبَّمَا قَالُوا: مَنَّ بِيَدٍ أَسْدَاهَا، إِذَا قَرَّعَ بِهَا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَطَعَ الْإِحْسَانَ، فَهُوَ مِنَ الْأَوَّلِ"[3]، و"الْمَنُّ: ذِكْرُ النِّعْمَةِ عَلَى مَعْنَى التَّعْدِيدِ لَهَا وَالتَّقْرِيعِ بِهَا، والتَّحَدُّثُ بِمَا أَعْطَى مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وَنَعَشْتُكَ، حَتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ الْمُعْطَى فَيُؤْذِيَهُ"[4]، و"المنُّ والمنّة النّعمة الثقيلة؛ وهما نوعان؛ الأول: لا يكون بالفعل وعلى الحقيقة إلا لله تعالى، والثاني:

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، الكناية، ص 17.

2 الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي- بيروت، ط1، 1995، ت محمد التنجي، ص 66، و ص 69.

3 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص267.

4 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص 307، تفسير الآية:262، سورة البقرة.

أن يكون ذلك بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس إلا عند كفران النعمة"[1]، و"المنّ: الإحسان الذي تمنّ على من لا يستثيبه. والمنّة: الاسم، والله المنّانّ علينا بالإيمان والإحسان في الأمور كلها ولا يطلب الجزاء عليه، وهو المعطي ابتداء، ولله المنّة على عباده، ولا منّة لأحد منهم عليه، تعالى الله علوا كبيرا"[2]، و"يحتمل المنّ تأويلين: أحدهما إحسان المحسن غير معتد بالإحسان، إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه يقال لحقت فلانا من فلان منّة إذا لحقته نعمة باستنقاذ من قتل أو ما أشبهه، والثاني منّ فلان على فلان إذا عظم الإحسان وفخر به وأبدأ فيه وأعاد حتى يفسده ويبغضه، فالأول حسن، والثاني قبيح"[3]، "ومن معاني المنّ في العربية: ما يوزن به. والمنون الموزون، ومنه جاءت المنّة بمعنى النعمة ذات القيمة والوزن"[4].

(المنُّ) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (منّ) في القرآن الكريم ستاً وعشرين مرة)[5]، منها المنُّ على وجه (الحقيقة) من الله تعالى على عباده وعددها إحدى عشرة مرة؛ "إذ يأتي مسنداً إليه تعالى، في سياق التفضل والتذكير بنعمه على خلقه"[6]؛ مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿آل عمران: 164﴾، "أما حين يأتي مسنداً إلى المخلوقين، فالسياق يكون (بالقول) المستقبح بين الناس على وجه النهي أو النفي"[7]، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾

---

1 الأصفهاني، المفردات، ص777.

2 الفراهيدي، العين، ج8، ص374.

3 ابن منظور، اللسان، حرف النون، فصل الميم.

4 بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن، ج2، ص 48.

5 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 676- 677.

6 بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن، ج2، ص48- 49.

7 بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن، ج2، ص48- 49.

﴿المدثر: 6﴾، وقد ورد خمس مرات؛ "إلا أن يكون في نص السياق قرينة صارفة لمنّ البشر عن وجهه المذموم، مثل قوله تعالى في قتال الذين كفروا: ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ﴿محمد:4﴾. والمنّ فيها بمعنى: إطلاق بغير فدية"[1]، ومرة في سورة: ﴿ص:39﴾ قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وأربع مرات بمعنى القطع، أو الوزن مثل قوله تعالى: ﴿وإنّ لك لأجرا غير ممنون﴾ ﴿القلم: 3﴾، وثلاث مرات بمعنى نوع من الحلوى، منها قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ﴿البقرة:57﴾.

وعودا على الجانب المقصود من الدراسة فقد جاء في:

(1)- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿البقرة: 262﴾.

التفسير: جاء أنّ: "إنّ الذين يعينون المجاهدين في سبيل الله بالإنفاق عليهم وفي حَمُولاتهم، وفي مؤنهم، ثم لم يتبعوا ذلك بالمنّ عليهم، والأذى لهم؛ ويعيرونهم بأن يظهر لهم أنّه قد اصطنع إليهم معروفا، ويبدي ذلك إما بلسان أو فعل فهو المنفق في سبيل الله حقيقة، وأوجبَ له الأجر لأنه غير مانٍّ ولا مؤذٍ لمَن تصدق عليه، لأنّ النفقة التي في سبيل الله: ما ابتغي به وجه الله وطلب به ما عنده، وليس بها أذى ولا تعيير، إذا ما وقع بين المنفق والفقير خصومة فيعيره، ويذكره بما أعطاه ويمنّ عليه به، ويعدده عليه. وهذا هو الْمَنّ القولي الممقوت من البشر، والمنّ: الإدلال بالإحسان على من أحسن إليه؛ وقيل: (المنّة تهدم الصنيعة)؛ لأنها تقطع الشكر وتنقص النعمة. وقيل إنّ الآية نزلت في عثمان بن عفّانَ ﷺ؛ حينما جَاءَ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخذ الرسول يُدْخِلُ يَدَهُ فِيهَا وَيُقَلِّبُهَا وَيَقُولُ:"مَا ضَرَّ ابْنَ

1 بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن، ج2، ص48- 49.

عفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ اللَّهُمَّ لَا تَنْسَ هَذَا الْيَوْمَ لِعُثْمَانَ" ورفع يَدَيْهِ يَدْعُو لِعُثْمَانَ ويَقُولُ:" يَا رَبِّ عُثْمَانَ إِنِّي رَضِيتُ عَنْ عُثْمَانَ فَارْضَ عَنْهُ" فَمَا زَالَ يَدْعُو حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَنَزَلَتْ"[1].

البعد البلاغي: (المنّ) فن من فنون (القول) كشفت عنه الدراسة، منه الحسن، ومنه القبيح؛ وهذا الأخير هو ما تشير إليه الآية الكريمة؛ لأنّه مسند إلى البشر؛ والذي يثني فيه تعالى على الذين لا يتصفون به؛ لأنّ فيه أذى وإساءة وتشهير بين الناس على من يتصدق عليه؛ وكأن المتصدق (ينادي) بين الناس قائلا: هذا المحتاج الذي أعطيته من مالي؛ فتنتكس المنّة والصدقة بذلك عن الحكمة التي شرعت من أجلها، وتصبح أمرا ممقوتا فيرفضها الشخص انتقاما لكرامته وإنسانيته، فتنقطع بذلك العلاقات الاجتماعية، والتكافل الاقتصادي، علما بأنّها (قول)... ولكن دلالات هذا (القول) ومعانيه جعلها محظورة، ولو وردت في النص بلفظ (قال) لما أفادت هذه المعاني كلها، ولكنّها وردت في السياق، فأغنت المعنى بلفظها عن ألفاظ كثيرة قد تأتي لتفسرها.

(2)- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿البقرة:264﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية: "أن يمسك الإنسان ماله خير من أن ينفقه ثم يتبعه منّاً وأذى؛ يمنّ بصدقته ويؤذي فيها حتى يبطلها، فإذا أتاه سائل سأله، ولم يكن عنده شيء يعطيه، فيدعو له

---

1 الطبري، جامع البيان، ج5، ص 517، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 175، السمعاني، تفسير القرآن، ج1، ص 268، الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج1، ص 551، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 311، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص 306، الخطيب، عبد الكريم يونس، (المتوفى بعد 1390هـ)، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي – القاهرة، ج3، ص 459، الشعراوي، الخواطر، ج2، ص 1148.

بالجنة والمغفرة؛ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يعطيها له، ويَتْبَعُها أذىً. ويقال: وعد المعطي خير من صدقة يتبعها أذى، ووعد الكريم خير من نقد اللئيم. ويقال: دعاء الفقير إذا دعا لصاحب الصدقة، ومغفرة الله خير من صدقة يتبعها أذى، والمشرك إذا تصدق، فيبطل الشرك صدقته، كما أبطل المن والأذى صدقة المؤمن"[1]. "والْمَنُّ: ذِكْرُ النِّعْمَةِ عَلَى مَعْنَى التَّعْدِيدِ لَهَا وَالتَّقْرِيعِ بِهَا، والتَّحَدُّثُ بِمَا أَعْطَى مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وَنَعَشْتُكَ، حَتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ الْمُعْطَى فَيُؤْذِيَهُ"[2].

البعد البلاغي: أبدأ من حيث انتهى التفسير؛ بأنّ "المنّ أن تذكر النّعمة وتعددها وتحدث بها بين النّاس بأسلوب التّقريع والتّعالي، حَتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ الْمُعْطَى فَيُؤْذِيَهُ"[3]، فقد جمع لفظ (المنّ) أكثر من معنى في آن؛ ففيه الحديث بين الناس من أجل (النداء) والإشهار، وفيه التعديد لما أعطيت وتصدقت على وجه الاستكثار والتقريع، ثمّ وصول الخبر إلى الطرف الثالث من هذه المعادلة، فيثور رافضا هذا الأسلوب من العطاء لأنّه أصبح مطية للمنّان ليرائي به بين الناس متعاليا، كل هذه المعطيات أشار إليها لفظ واحد من ألفاظ (القول) ولكن التعبير القرآني جاء بلفظ آخر يحمل كل هذه المعاني؛ فبمجرد أن نقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ ﴿البقرة:264﴾، تتوارد إلى أذهاننا المعاني المقصودة وأكثر، مما يجعل للبلاغة القرآنية مكانا للتأمل وفهم جزء من مغزى الحكمة الإلهية من عدم استخدام لفظ (قال) في كل ما من شأنه أن يكون (قولا)؛ لأن لكل لفظ مدلول يفيده، ليس بالضرورة أن يفيده غيره.

وجاءت الجملة بصيغة النداء للمؤمنين، مصحوباً بأسلوب النهي: ﴿يَا أَيُّهَا آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾.

---

1 الطبري، جامع البيان،ج5، ص 521 وص 528؛ا السمرقندي، بحر العلــوم، ج1، ص 178، الزمخــشري، الكشاف، ج1، ص 312.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص 307، تفسير الآية:262، سورة البقرة.

3 المرجع السابق، الجزء نفسه، والصفحة نفسها.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿الحجرات: 17﴾.

التفسير: جاء أنّ هذه الآية: "نزلت في حي من أحياء العرب امتنّوا بإسلامهم على رسول الله ﷺ، فقالوا: آمنّا من غير قتال، وجئناك بأهالينا وأولادنا. و قيل أنّ من أسباب نزولها أنّ النبي ﷺ كان يفضل المهاجرين بالعطاء ليستألفهم على الإسلام فكرهت الأنصار ذلك وتكلمت فيه، وبيّن بذلك أن إسلامهم لم يكن خالصاً، ولو كان كذلك لعرفوا أنّ المنّة لله ﷻ عليهم الذي أرشدهم وأمدهم بتوفيقه حيث هداهم للإيمان على ما زعموا وادعوا، ويعدّونَ إسلامَهم منّةً على الرسول ﷺ وهيَ النعمةُ التّي لا يطلبُ مُوليها ثواباً ممنْ أنعمَ بَها عليه"[1].

البعد البلاغي: لقد جاء الوصف القرآني على من يقول (آمنّا من غير قتال، ولم نقاتلك كما قاتلك غيرنا، وجئناك بأهالينا وأولادنا) بالمنّانين، وألحقهم بمن يمتنّ بماله وصدقته على النّاس، وليس وجه الشبه بينهما- حسب الظاهر- إلا (القول) ليس إلا، فعبر عن قولهم الباطل بأنه (منّ) ليؤكد أنّ (المنّ) فن قولي، ويكون ممقوتا حينما يسند إلى البشر، ورد عليهم بأنّ المنّ الحقيقي هو منّه ﷻ علينا حينما هدانا -بفضله وكرمه -إلى الإسلام. وهذا ما يؤكد لنا استحالة استبدال لفظ بآخر في النص القرآني. وهذا يتوافق مع معنى (المنّ) المعجمي والتفسير القرآني للفظ. ولا يمكن للفظ (قال) أو أحد مشتقاته أن يفصح عن هذه المعاني، ويميز المنّ الصادق من غيره .

---

1 الطبري، جامع البيان، ج22، ص320، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص314، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج11، ص 7016، وص 7020- 7021، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص 350، الخازن، علاء الدين، لباب التأويل، ج4، ص185، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص 124.

وجاءت جملة: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ جملة خبرية، فعلية، تتحدث عن إجراء حدث من المنافقين. ومن حيث البديع البلاغي فقد جاء بين: (يَمُنُّونَ) وقوله: (لَا تَمُنُّوا): "مثالا على طباق السلب"[1]. وجاء بين الألفاظ: (يَمُنُّونَ) و (تَمُنُّوا) و (يَمُنُّ) بديعية الجناس.

*****

(6)- (نادى) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: "ن د ا: (النِّدَاءُ) الصَّوْتُ وَقَدْ يُضَمُّ وَ (نَادَاهُ مُنَادَاةً) وَ (نِدَاءً) صَاحَ بِهِ. وَ (نَادَاهُ) أَيْضًا جَالَسَهُ فِي النَّادِي. النّداء الدُّعاء بأرفع صوت وظهوره، ومثله الرُّغاء، وَ (تَنَادَوْا) نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا. (النَّدَا) أَيْضًا بُعْدُ ذَهَابِ الصَّوْتِ"[2]. و "أصل النداء من النّدى. أي: الرطوبة، يقال صوت ندي رفيع، واستعارة النّداء للصوت من حيث إنّ من يكثر رطوبة فمه حسن كلامه، وصوته، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق. والنّداء: الأذان"[3].

(نادى) في القرآن الكريم: (ورد لفظ (نادى) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاثاً وخمسين مرة)[4]، جاءت في موقع واحد بمعنى النّدى والرّطوبة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وأحسن نَدِيًّا﴾ ﴿مريم: 73﴾، وفي موقعين بمعنى المجلس، أو مكان الأخلاء؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ﴿العلق: 17﴾، والباقي بمعنى الدّعاء من (القول)؛ جانب من مقاصد الدراسة، منها:

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، طباق السلب، ص 364.

2 الجوهري، مختار الصحاح، ج1، ص307.

3 الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص796-797، ابن منظور، اللسان، باب الواو والياء من المعتل، فصل النون.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، لألفاظ القرآن الكريم، ص 691.

(1)– قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿الأعراف: 44﴾.

التفسير: جاء: "أنّ أهل الجنّة نادوا أهل النّار بعد الدخول: يا أهل النّار، قد وجدنا ما وعدنا ربنا في الدّنيا على ألسنة الرّسل حقاً، من الثّواب، والنّعيم والكرامة، فهل وجدتّم ما وعدكم في الدّنيا على ألسنة الرسل من العقاب والثواب حقاً؟ وهذا النّداء فيه تقريع وتوبيخ وتوقيف على مآل الفريقين وزيادة في كرب أهل النّار بأن شرفوا عليهم، وهو قول ينبئ عن بهجة أهل النّعيم عمّا هم فيه، ثمّ ينادون أهل النّار حينما يشاهدونه ليؤكدوا لهم بما لقوا من الجزاء"[1].

البعد البلاغي: لقد وجه أصحاب الجنّة لأصحاب النّار (سؤالا) يستفسرون به عن مصيرهم– وهم يعلمون الجواب– ليغيظونهم ويخبرونهم بدورهم بما لاقوا من صدق الوعد – وهو نوع من أنواع العذاب النّفسي– وللمسافة الفاصلة بينهما استوجب هذا السؤال أسلوبا مختلفا من القول، عبر عنه المولى بـ (النداء)، وتصديره الآية بالجملة الخبرية: (وَنَادَى) بالفعل الماضي تأكيدا على وقوع الحدث، والتعبير بلفظ (نادى) لما يحمل من دلالات ومعان لا يحملها لفظ آخر لو جاء مكانه مثل لفظ (قال) على سبيل المثال، فإن التعبير به لا يُفهم بالضرورة بعد الفريقين، كما إنه لا يستوجب علو الصوت؛ كما يفهم من (نادى)؛ فجاء المقال بالتعبير القرآني (نادى) مطابقا للمقام، علما أن (قال) و (نادى) من ألفاظ القول.

(2)– وقوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ ﴿مريم: 24﴾.

---

1 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج4، ص 2375، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج4، ص 302، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج8، ص 135.

التفسير: جاء في تفسير (فناداها) أي: "فخاطبها، ويجوز أن يكون الضمير لجبريل عليه السلام ويكون التقدير: فناداها جبريل من دونها أي: من أسفل من موضعها، وقرأ زر وعلقمة: فخاطبها"[1].

البعد البلاغي: قد يكون عدم ظهور جبريل للسيدة مريم -عليهما السلام- ظهورا عينيا استوجب أن (يناديها) ليلفت نظرها وسمعها بصوت يحمل دلالات شتى؛ منها القوة، ومنها اللّين- وهما جزء من دلالات لفظ (النّداء) اللغوية- فبالقوة، والجرأة، وعلو الصوت الواصل إليها تتحقق مما هي فيه وتفيق من هول الصدمة... وعليها أن تهز الشجرة لتقف على رجليها، وتواجه مجتمعها. وباللين والفصاحة وحسن المنطق تطمئن لما هي فيه وتعرف مغزى ذلك، وتعرف أنّ معها من تثق به وتطمئن إليه، وهذا ما حصل مع السيدة العذراء، فهي لم تر جبريل عليه السلام ولكنها أحست بوجوده، وسمعت نداءه عن بعد وهو يواسي بها ويطمئن قلبها بأن لا تحزن لما حصل لها، لذا جاء التّعبير القرآني بلفظ (نادى) بدلاً من لفظ (قال)؛ لأنه لا يمكن للفظ (قال) – لحكمة إلهية – أن يكشف لنا أسرار الواقعة. وجاءت جملة: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾ جملة خبرية فعلية.

(3)- وقوله تعالى:﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿الأنبياء: 89﴾.

---

1 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص 173، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري، المتوفى 1414هـ، الموسوعة القرآنية، مؤسسة سجل العرب، ط 1405هـ ، ج4، ص 273، وج 6، ص 7.

التفسير: جاء في تفسير: (نَادَى) أن "اذكر يا محمد زكريا حين سأل ربه وناداه: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً﴾ وحيداً، منفردا لا ولد لي ولا عصبة، فارزقني وارثاً من آل يعقوب، يرثني ولا يدعني بلا وارث بعدي، فاستجبنا له دعاءه، ووهبنا له يحيى"[1].

البعد البلاغي: معلوم للأنبياء بالضرورة قرب المولى ﷻ منهم وقربهم منه؛ لذا فإن زكريا لم (يناديِ) ربه ظانا بعده، ولكن ناداه مستشعرا قربه، معتقدا ذلك، محققا المعاني المعنوية التي تصاحب النّداء، وبكل إمكانيات صوته، من اللّين والنّداوة والطّراوة، والجمال، والحسن والفصاحة، والحزن، يستجلب فيها رحمته ويستدر عطاءه (فناداه) محققا على أرض الواقع ما في النّداء من معاني جميلة، وهو يعلم أنّ المنادى قريب؛ قائلا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فاستجاب له ﷻ. وجاءت الآية القرآنية في سياق الجملة الخبرية الاسمية، معطوفة على ما قبلها.

من خلال الآيات الثلاث المتضمنة للفظ (النّداء)– عيّنةُ الدّراسة– تبين للباحثة أنّ لكل لفظ منها دلالة خاصة بحسب ورودها في السياق، وليس من الضروري أن تكون كلها في نداء لبعيد، فكان كل لفظ منها يحمل جانباً من جوانب المعنى المعجمي، بالإضافة للمعنى التفسيري للآية.

وبهذا يكون قد تم البحث في ألفاظ القسم الأول من ألفاظ القول الدالة على معنى النداء الطبيعي في الإنسان، وسأتم بالقسم الثاني، ألفاظ القول الدالة على النداء مع إظهار والتحسر والندم.

---

1 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج7، ص 4809، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 133، الشوكاني، فتح القدير، ج3، ص 501.

ب- ألفاظ القول الدالة على "النّداء مع إظهار التّحسر والنّدم" وبيـان معانيها، ودلالاتها، وأساليبها البلاغية:

سأتناول في هذا الجزء ألفاظ القول (الدالة على النّداء مع إظهار التّحسر والنّدم)، وأبـيّن معانيها اللّغوية، ثم البحث عن مواطنها في القرآن الكريم، وعدد ورودها، ودلالاتها في السياقات التي وردت فيها، لمعرفة مقاصدها ومدى توافقها تحت هذا المبحث. ثم دراستها بلاغيا، وعـدد هذه الألفاظ عشرة، هي: (أوه، جأر، جار، حسر، صاح، صرخ، عذر، غوث، لوم، ندم).

*****

(1)- (أوه) في معاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم العربية حول مادة (أَوَهَ): "الْهَمْزَةُ وَالْوَاوُ وَالْهَاءُ كَلِمَـةٌ لَيْـسَتْ أَصْلًا يُقَاسُ عَلَيْهَا. يُقَالُ: تَأَوَّهَ: إِذَا قَالَ أَوَّهْ وَأَوْهِ وَالْعَرَبُ تَقُولُ ذَلِكَ"[1]، "أوه: آهِ: حكاية المُتَـأَوِّهِ في صوته، وأَوَّهَ فلانٌ وأَهَّهَ، إذا توجَّع. أوقال: هاهِ فأَخْرَجَ نَفَسَهُ بهذا الصَّوت ليتفرَّجَ عَنْهُ ما بِهِ. والأوّاهُ: الدّعّاء للخير، وآوّة في موضع مشقة وهم وحزن"[2]، "أوه ساكنة الـواو قـولُهم عنـد الشكاية، والأوّاهُ: الدّعاء، أو: هو الفقيه والمؤمن والرّحيم والمتأوِّهُ شفقاً وفرقاً والمتضرع يقينـاً ولزوماً للطّاعة"[3].

(أوه) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (أوه) في القرآن الكريم مرتين)[4]، بمعنى التأوه والمتأوهُ شفقاً وفرقاً في دعاءه، جانب من مقاصد الدّراسة، وهما من صفات سيدنا إبراهيم ﷺ فقط، وهما:

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص162.

2 الفراهيدي، العين، باب الثلاثي اللفيف من الهاء،وص 439.

3 الجوهري، الصحاح، ج6، ص2225، ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص 107.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص103.

(1)- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿التوبة: 114﴾.

التفسير: اختلف أهل التأويل في "الأوّاه" فقال بعضهم: "هو الدعّاء، الأوّاه، قال رسول الله ﷺ: (الأوّاه: الخاشعُ المتضرّع)، وهو الذي يذكر الله في أرض القفر الوحشة، وقيل هو الرّحيم بعباد الله، وقيل الموقن، وقيل هو الدّاعي الذي يكثر من الدعاء إلى الله تعالى من غير تقييد ويلح فيه، المقبل إليه بطاعته وقيل هو المؤمن بلغة الحبشة، وهو معلم الخير، وهو: الذي إذا ذكر الله قال أوّاه من النّار حزنا وخوفا، وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يُكْثِرُ التِّلَاوَةَ، وَقِيلَ: إِنَّهُ الْفَقِيهُ، وَقِيلَ: الْخَاضِعُ، وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي إِذَا ذَكَرَ خَطَايَاهُ اسْتَغْفَرَ لَهَا، وَقِيلَ: هُوَ الشَّفِيقُ. وَقِيلَ: إِنَّهُ الرَّاجِعُ عَنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ. وَالْمُطَابِقُ لِمَعْنَى الْأَوَّاهِ لُغَةً، أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ الَّذِي يُكْثِرُ التَّأَوُّهَ مِنْ ذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ مَثَلًا: آهِ مِنْ ذُنُوبِي، آهِ مِمَّا أُعَاقَبُ بِهِ بِسَبَبِهَا، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَمَعْنَى التَّأَوُّهِ: هُوَ أَنْ يُسْمَعَ لِلصَّدْرِ صَوْتٌ مِنْ تَنَفُّسِ الصُّعَدَاءِ"[1]، و "الدّعاء -بتشديد العين- : الكثير الدّعاء"[2].

البعد البلاغي: تشير المعاني السابقة إلى أنّ: (التأوّه) لفظ من ألفاظ (القول)، أضيفت إليه حالة (النّداء) الموسوم (بالحسرة والحزن) والخوف والرّجاء من الخالق، بالإضافة لمعان أخرى غزيرة، وُصِف بها أبو الأنبياء عليه السلام في هذه الآية، دلت على ما يمتاز به دون سائر الأنبياء والخلق جميعا من صفات مجتمعة، ليس من الممكن للفظ (قال) منفردا أن يشير إليها في هذا السياق دون طول شرح وبيان، كما أنه لا يمكن للفظ (قال) أن يبين ميزات القرب والاصطفاء التي جعلت من النبي الأب خليلا لخالقه، كما بينها لفظ (أوّاه). وجاءت جملة: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ" جملة خبرية اسمية، والخبر فيها إنكاريا؛ لأنها مؤكدة بأكثر من أداة؛ فصدرت بأداة

---

1 الطبري، جامع البيان، ج14، ص 523، وص 532، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 92، الشوكاني، فتح القدير، ج2، ص 467- 468.

2 الطبري، جامع البيان، ج14، ص 523، الحاشية.

التوكيد (إنّ) الثقيلة، ثم بلام التوكيد، "وجاء لفظ (أوّاه) بصيغة المبالغة للتأكيد على وجود الصفة عند سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكثرتها"[1].

(2)- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ ﴿هود: 75﴾.

التفسير: جاء في معنى (أوّاهٌ) إنّه: "القانت: الرّجاع، الذي إذا ذكر الله تعالى تـأوه كثيـرا وهو قول: أوّه. وأوّه: اسم فعل نائب مناب أتوجع، وهو هنا كناية عن شـدة اهتمامـه بهمـوم النّاس"[2].

(للمزيد من معرفة معاني (أوّاه) انظر تفسير الآية السابقة).

البعد البلاغي: يتبين مما سبق أنّ لفظ (أوّاه) من ألفاظ (القول)، يعبر عن: كثرة الدّعاء، والنّداء الدائمين، الممزوجين بالحسرة والحزن، والتوجع مع التّضرع إلى الله ﷻ، مضافا إليـه دلالات أخرى مليئة بمعاني الإيمان، والخشوع، والخشية، والرّجاء، والرّجـوع إلـى الله ﷻ، والخوف على النّاس والشعور بآلامهم وهمومهم، مما جعلها صفة لصيقة بسيدنا إبـراهيم عليه السلام مميزة له دون سائر الخلق؛ استحقها خليل الرّحمن، جعلته بحق (أبو الأنبياء) – عليهم جميعـا صلوات الله وسلامه-. وجاءت الآية في سياق الجملة الخبرية الاسمية، مؤكدة بأكثر من مؤكد، فقد صدرت بأداة التوكيد (إنّ) المشددة، ثم بلام التوكيد الداخلة على لفظ حليم، وفي الآية السابقة دخلت لام التوكيد على (أوّاه) مع التبادل بـين الموضـعين. "وجاء لفظ (أوّاهٌ) بصيغة المبالغة"[3].

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، صيغ المبالغة، ص 132.

2 الطبري، جامع البيان، ج15، ص 406، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 162، القنـوجي، أبـو الطيـب محمد صديق خان، ، فتح البيان في مقاصد القرآن، ج6، ص 217، ابن عاشور، التحرير والتنـوير، ج12، ص 123.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، صيغ المبالغة، ص 133.

إن كان لفظ (أوه) من ألفاظ (القول) فإن ذلك لا يعني أنّ من الممكن أن يستبدل به لفـظ (قال) أو بأي لفظ من ألفاظ القول، ليصبح بديلا عنه في السياق القرآني، مع ضمان المحافظـة على المعاني المقصودة نفسها، وذلك مما يؤكد بطلان دعوى التّرادف في القرآن الكـريم عنـد المروجين لها.

*****

(2)- (جأر) في معاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "جأر يَجْأَرُ جَأْراً وجُؤَاراً: جأر القومُ إلى الله جؤاراً وهو: أن يرفعوا أصواتهم في الدّعاء إلى الله متضرّعين، أو يصيحون مستغيثين"[1]، "وكأنهم يُصوِّتُون إذَا أصابوا"، و"(الْجُؤَارُ) كَالْخُوَارِ يُقَالُ: جَأَرَ (الثَّوْرُ) يَجْأَرُ جُؤَارًا أَيْ صَاحَ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (عِجْلًا جَسَدًا لَهُ جُؤَار) (بِالْجِيمِ). وَفِي الْحَدِيثِ: "كأني أنظر إلى مُوسَى لَهُ جُؤَارُ إلى رَبِّهِ بِالتَّلْبِيَةِ"؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الْآخَرُ: لَخَرَجْتُمْ إلى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُون إلى اللَّهِ. وقيل: إذا هُمْ يَجأَرُون: إذا هُمْ يَجْزَعُون"[2].

(جأر) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (جأر) في القرآن الكريم ثلاث مرات)[3]، كلها في الأصوات، وهي:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ ﴿النحل: 53﴾.

---

1 الفراهيدي، العين، ج6، ص173، باب الجيم والراء و(واي ء) معهما ج ر ء.

2 ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص205، ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص 493، الرازي، مختار الصحاح، ص 52، ابن منظور، اللسان، حرف الراء المهملة، فصل الجيم.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص163.

التفسير: جاء أنّ: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي: "فإلى الله تصرخون بالدّعاء وتستغيثون به، وتتضرعون إليه بصوت عال ليكشف الضر عنكم، وأصله: من جؤار الثور، أو خوار البقر، يجأر جؤارا، وذلك إذا رفع صوتا شديدا من جوع أو غيره، لا يُسرّه أحد ولا يستحي منه أنْ يُفتضح أمره أمام مَنْ تكبّر عليهم، لإفادة أنهم يهرعون إلى الله في أقل ضرّ وينسون شكره على عظيم النعم"[1].

البعد البلاغي: (جأر) فن من فنون (القول) يحمل معاني، ودلالات أوسع من مجرد (القول)؛ فهو نداء ودعاء مصحوب بهالات من الخوف والفزع والاستغاثة، تشوبه علامات الحسرة والنّدم على ما فات، بصوت عال يشبه خوار الثّور؛ يصيح به من أصابته مصيبة يريد دفعها، أو له حاجة ملحة يطلبها من القادر عليها. وهذا واضح من (جؤار) المستغيثين بالله في الآية الكريمة. فهلّا لو قمنا بإجراء المقارنة بينه وبين لفظ (قال) في السياق نفسه هل يستويان في الدلالات والمعاني؟ بالطبع فإن الإجابة على هذا السؤال واضحة من سياق الآية؛ بأن مدلول (قال) لا يفيد ما يفيده لفظ (جأر) في السياق ذاته.

وجاءت جملة: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ جملة خبرية، شرطية من (إِذَا) الشرطية التي تفيد الاستقبال؛ واسمها الجملة الفعلية: (مَسَّكُمُ الضُّرُّ) ، وجوابها الجملة الفعلية (تَجْأَرُونَ)

(2)- وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 64﴾.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج17، ص224، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 277، ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج17، ص 127، الشعراوي، الخواطر، ج 13، ص 8003.

التفسير: جاء في: ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ "من: جَأَرَ، يَجْأَرُ، جُؤاراً، وجَأْراً: ضجُّوا واستغاثوا مما حلّ بهم من عذاب، رافعين أصواتهم يجأرون كما يجأر الثّور، يدعون ويصيحون ويتضرعون إلى الله تعالى"[1].

البعد البلاغي: وهنا أيضا (الجؤار) فن من فنون (القول) التي تشير إلى (النّداء) المحموم، المصحوب بالحزن والألم والنّدم، مع الضجيج والتّضرع والاستغاثة رجاء الاستجابة، يناشدون من يستطيع تخليصهم مما هم فيه، بحيث لا يمكن لأي لفظ آخر من ألفاظ (القول) أو (النداء) أن يعبر عن حال المستغيثين عمّا هم فيه من الهوان، وسوء الحال، كما عبر(الجؤار) عن حالهم في هذا السياق القرآني. وجاءت الجملة القرآنية في سياق الجملة الخبرية الشرطية، من أداة الشرط (إِذَا) التي تفيد معنى الاستقبال، واسمها الجملة الفعلية: (أَخَذْنَا)، وجوابها الجملة الفعلية (يَجْأَرُونَ).

(3)- وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 65﴾.

التفسير: جاء في: ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾، "أي: لا تضجوا وتستغيثوا اليوم، ولا تتضرعوا وقد نزل بكم العذاب الذي لا يدفع عنكم لأنكم ظلمتم أنفسكم، فإن ضجيجكم غير نافع ولا دافع عنكم شيئا مما قد نزل بكم من سخط الله، وتجْأَرُونَ وتصْرُخُونَ بِالتَّوْبَةِ فَلَا يُقْبَلُ مِنْكُمْ. وقِيلَ أَنّ: تَجْأَرُونَ يعني: تَجْزَعُونَ، عَبَّرَ بِالصُّرَاخِ بِالْجَزَعِ إِذِ الْجَزَعُ سَبَبُهُ"[2].

البعد البلاغي: (جأر) فن (قولي) مصحوب بأصوات (نداء) وحزن واستغاثة تعبر عمّا فيه المستغيث من هوان وسوء حال، مع إظهار النّدم والتّوبة، وهو على ما هو فيه من ألم وصراخ،

---

1 الأخفش، معاني القرآن، ج2، ص 454، الطبري، جامع البيان، ج19، ص 50، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 485.

2 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 51، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 485، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص 572.

وصياح يضج بهما؛ مما يلاقي من سخط الله؛ فهو يعبر عن ذلك بألفاظ و (أقوال) إلا إنّــه لا يمكننا أن نستبدل (جؤاره) هذا وضجيجه، ونعبر عنه بأنه (يقول) في السياق القرآني المحكــم؛ لحكمة إلهية لا يُسأل عنها ﷻ. وجاءت الجملة القرآنية بأسلوب الجملة الإنشائية تفيــد معنـــى النهي.

*****

(3)- (جار) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "(جار) استَجَارَهُ مِنْ فُلَانٍ فَأَجَارَهُ مِنْهُ. وأَجَارَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْقَذَهُ"[1]، "واستَجَارَهُ: سأله أن يُجيرَهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيــزِ: ﴿وَإِنْ أَحَــدٌ مِــنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ ﴿التوبة: 6﴾، الْمَعْنَى: إِن طَلَبَ مِنْكَ أَحد مِنْ أَهل الْحَرْبِ أَن تُجِيرَهُ مِنَ الْقَتْلِ إِلى أَن يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ فأَجره أَي: أَمّنه، وَعَرِّفْهُ ما يجِبُ عَلَيْهِ أَن يَعْرِفَهُ مِنْ أَمر اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَتَبَيَّنُ بِهِ الإِسلام، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ لِئَلَّا يُصَابَ بِسُوءٍ قَبْــلَ انْتِهَائِــهِ إِليه. ويُقَالُ لِلَّذِي يَستَجِيرُ بِكَ: جارٌ، ولِلَّذِي يُجِيرُ: جَارٌ. وَالْجَارُ: الَّذِي أَجرته مِنْ أَن يَظْلِمَهُ ظَالِمٌ؛ وجارُك: المستجيرُ بِكَ. وَهم جارَةٌ مِنْ ذلك الأَمر"[2]، و "استجارَ بـــ يستجير، استَجِرْ، اســتجار فلانًا: سأله أن يؤمّنه ويحفظه، أو أن يوفِّر له الأمنَ والحماية، واستجار بالله: استغاث به والتجأ إليه"[3].

---

1 الرازي، مختار الصحاح، ص64.

2 ابن منظور، اللسان، ج4،ص154، حرف الراء المهملة، فصل الجيم.

3 عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص418.

(جار) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (جار) واشتقاقاته في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة)[1]، بمعان مختلفة؛ مثل معنى القرب والمجاورة المادية، حيث وردت أربع مرات منها قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ﴿النساء: 36﴾، ووردت ثماني مرات بمعنى طلب اللّجوء والحماية و (الاستغاثة)، وهي جانب من مقاصد الدراسة؛ منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿الأنفال: 48﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿وإنّي جار لكم﴾؛ "أي: معين لكم، وقد يكون هذا القول لَيْسَ مِمَّا يُلْقَى بِالْوَسْوَسَةِ، وَيُمكِنُ أَنْ يَكُونَ صُدُورُ هَذَا الْقَوْلِ عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الْغُوَاةِ مِنَ النَّاسِ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ بِإِغْوَاءِ إِبْلِيسَ لَهُ وَنُسِبَ ذَلِكَ إِلَيه لِأَنَّهُ هُوَ الْمُتَسَبِّبُ فِي ذَلِكَ الْقَوْلِ فَيَكُونُ الْقَوْلُ وَالنُّكُوصُ صَادِرَيْنِ مِنْ إِنْسَانٍ حَقِيقَةً، وَهي مقالة نفسانية والمعنى: أنه ألقى في روعهم وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم، وأوهمهم أن إتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم"[2] .

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص186.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 25، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص 334، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 62.

البعد البلاغي: من المعلوم أنّ للشيطان سلطاناً على أتباعه؛ فإذا ما وعدهم أو وسوس إليهم فهم يثقون بوعوده الكاذبة، ويركنون إليه من حيث لا يشعرون، لذا خيل إليهم، وألقى في روعهم- إما عن طريق الوسوسة، أو على لسان أحد غواتهم- أنّهم لن يغلبوا إذا ما صدقوه وطلبوا أمانه وجواره، وتركوا جوار الله وأمانه، وطلب الحماية منه، فكان هذا ما حصل، وكأنهم قالوا في حال فزع وشدة: (وا غوثاه)، أو (أجرنا)، وهذه الكلمة تحمل معان جديدة لا يحملها لفظ آخر تفيد مفهوم (نداء) واستغاثة في وقت شدة وضيق وخوف، يصرخ فيها أتباع إبليس اللعين – في هذه الآية- طالبين منه حمايتهم وإجارته، فكان رده أن قال لهم "وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ" بمعنى أني قبلت جواركم وحمايتكم، ولكن عندما غلبوا وهزموا، خذلهم وتبرأ من وعوده الكاذبة بالإجارة والحماية. ولو كان قولهم لفظا آخر لما ألزم الوفاء بالوعد، وأجبر أن يتحلل منه قائلا: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾.

وجاءت جملة: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ جملة مقول القول، خبرية اسمية، مؤكدة بأداة التوكيد: (إنّ) المضافة إلى ياء المتكلم؛ والكلام على لسان إبليس اللعين ليؤكد لأتباعه صدقه.

(2)- وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿التوبة: 6﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "وإن جاءك يا محمد أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم – بعد انقضاء الأشهر الحرم ولا عهد بينك وبينه ولا ميثاق- فاستأمنك وسأل جوارك وأمانك وجوارك، ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، ويتبين ما بعثت له فأمّنه حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ

اللّهِ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ويفهمه، ثُمَّ أبْلِغْهُ بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يُسلم، ويعرف ماله من الثواب إن آمن، وما عليه من العقاب إن أصر على الكفر"[1].

البعد البلاغي: أن يطلب أحد (الاستجارة) من غيره فهو في الأصل قد تكلم، و (قال) قولا ما، وحقيقة هذا القول و فحواه هو الذي ميزه بلفظ جديد من ألفاظ (القول) كي لا يختلط مفهومه بمفهوم لفظ آخر، وهذا ما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾، بمعنى يناديك في حال فزع وشدة، وخوف، مستعينا بك، طالبا حمايتك، وكأنه يقول: (احمني)، فوجبت عليك حمايته ولو كان مشركا، وعليك أن تبين ما له وما عليه من الحقوق والواجبات...، وهو بهذا اللفظ الذي عبر به القرآن الكريم ميز مطلبه وحاجته (بقول) لا يختلط (بقول) آخر.

وجاءت الجملة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ جملة خبرية، شرطية؛ لأداة الشرط غير الجازمة (إن)، واسمها الجملة الفعلية (اسْتَجَارَكَ)، وخبرها الجملة الفعلية (فَأَجِرْهُ).

وجاء بين اللفظين: (اسْتَجَارَكَ) و(فَأَجِرْهُ) جناس اشتقاق.

(3)- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ﴿الجن:22﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية أنه: "لا ينصرني من الله ناصر وليس لي من دونه شفيع، ولن ينقذني منه أحد، ولا يصح ذلك إن عصيته أو خالفت أمره، ولن أجد ملاذا آوي إليه إن أخفيت شيئا من الرسالة كما تأمرونني، ولن يمنعني من عذابه أحد إن عصيته، أو تركت تبليغها

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 248، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص 75، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 72، الخازن، لباب التأويل، ج3، ص 62.

إلى قوم، أو كتمت شيئا أمرت بإظهاره، محاباة لأحد، ولا أجد لنفسي ملجأ إن فعلت ذلك، فليس لي إلا أن أبلغ رسالات ربي؛ فيجيرني من عذابه؛ ويكون لي عنده ملجأ"[1].

البعد البلاغي: إذا ما جاء يوم الحساب؛ وناديت فزعا خائفا، طالبا النصرة، والجوار من الله، وأمانه من العذاب، فمن الذي يسمع ندائي وينقذني من دون الله إن كنت قد عصيته؟ هـذا جزء مما دل عليه لفظ (يجيرني) في هذه الآية، وكأنه رد على مفهوم نداء محـذوف تقـديره: (أجيروني)، علما إنّه (قول)، ولكنّه (نداء) يطلب فيه النّصرة والإنقاذ في وقت ليس فيه ذلك إلا لله ﷻ ولكن جاء بلفظ مختلف ليشير إلى دلالات ومعان لا يبينها لفظ (قال) لو استبدل به فـي هذا السياق.

وجاءت الجملة: "قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ" جملة قول، إنشائية، تفيد معنى الأمـر من الفعل: (قل)، أمّا جملة مقول القول: "إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ" فهي جملة خبرية اسـمية مؤكدة بأداة التوكيد المشددة: (إنّ) المضافة إلى ياء المتكلم.

*****

(4)- (حسر) في معاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "(حَسَرَ) الْحَاءُ وَالسِّينُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ مِنْ كَشْفِ الشَّيْءِ. يُقَالُ حسرت كمي عن ذراعي أيْ كَشَفْتَهُ. وَالْحَاسِرُ: الَّذِي لَا دِرْعَ عَلَيْهِ وَلَا مِغْفَرَ. وَيُقَالُ حَسَرْتُ وَمِنَ الْبَابِ الْحَسْرَةُ: التَّلَهُّفُ عَلَى الشَّيْءِ الْفَائِتِ. وَيُقَالُ حَـسِرْتُ عَلَيْـهِ حَـسَرًا

---

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 669، الماتريدي، (تأويلات أهل الـسنة)، ج10، ص 261، الـسمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 5007، السمعاني، تفسير القرآن، ج6، ص 72، الزمخـشري، الكـشاف، ج4، ص 631، السعدي، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص 891.

وَحَسْرَةً، وَذَلِكَ انْكِشَافُ أَمْرِهِ فِي جَزَعِهِ وَقِلَّةِ صَبْرِهِ. وَالْمُحَسَّرُ، الْمُحَقَّرُ، كَأَنَّهُ حُسِرَ، أيْ جُعِلَ ذَا حَسْرَةٍ"[1].

(حسر) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (حسر) واشتقاقاته في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة)[2]، واحدة منها بمعنى الانقطاع أو الفتور، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿الأنبياء: 19﴾، أما الباقي فكلها بمعنى (التّلهف، والنّداء) على الأمر الفائت، مع الجزع وقلة الصبر؛ جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿الأنعام:31﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾، أي: "يا ندامتنا وخزينا على ما فات منّا في الحياة الدنيا؛ وهذا القول يصدر من أهل النار حينما يروا منازلهم في الجنّة، وقد خسروها. والعرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أمر عظيم تقع فيه جعلته نداء كقوله "يا حسرتنا" و"يا ويلتنا" فوقع النداء على الحسرة وليست بمنادى في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التّحسر، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: "يرى أهل النار منازلهم

---

1 الجوهري، الصحاح تاج اللغة، ج2، ص 629- 630، ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص61. ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص234.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 201- 202.

في الجنة فيقولون: "يَا حَسْرَتَنَا": أي تعالي فهذا أوانك. عَلَى مَا فَرَّطْنَا وقصرنا فِيها –في الحياة الدنيا– أضمرت وإن لم يجر ذكرها للعلم بها"[1].

البعد البلاغي: توافق المعنى المعجمي مع ما بينه علماء التفسير أنّ لفظ (حسر) يدل على النّدامة والشّعور بالخزي والعار، التّلهف على ما فات، ولعظم لهفتهم على ما فاتهم في الحياة الدنيا جعلوا هذا التلهف كـ(النّداء) فقالوا يا حسرتنا، فجمع هذا اللفظ (القول) والأسلوب؛ حيث جاء بصيغة (النّداء) الممزوج (بالحسرة والنّدامة) والتلهف على ما خسروا... بحيث لا يمكن للفظ آخر أن يعطي هذه المفاهيم كلها مجتمعة في كلمة واحدة، وتشير إلى ما أشار إليه السياق القرآني.

وجاءت الجملة القرآنية: "قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا" جملة مقول القول بأسلوب النداء من الجملة الإنشائية، وقد خرج النداء فيها من معناه الأصلي إلى معنى التحسر و التوجع.

(2)– ومنها قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿يس: 30﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله: ﴿يا حسرة على العباد﴾، "يعني نداء للحسرة، والنّدامة والكآبة على العباد في الآخرة، وكأنهم يقولون يا حسرتنا على ما فعلنا بالأنبياء، وتكذيبهم وقتلهم، وكأنهم ينادون الحسرة ويقولون: تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها، والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون، ويتلهف على حالهم المتلهفون، وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من النّدم ما يصير به حسيرا. وَذَلِكَ أَنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا رَأَوُا

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 464، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص 411، وص 413، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص 159.

الْعَذَابَ قَالُوا:" يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ﴾ وندموا على ما أصابهم، وتَمَنَّوُا الْإِيمَانَ حِينَ لَـم يـنفعهم ذلك"[1].

البعد البلاغي: تتفق المعاني المعجمية مع التفاسير أنّ: التّحسر هو فرط الأسى والحـزن والنّدم على ما فات من تفريط وتهاون في حق من ليس حقه كذلك، أما وقد أضـيفت لحـرف النداء (يا) فقد أصبحت منادى أكثر حزنا وتلهفا عليه؛ ذلك لأنّ النّداء يدل على بعد من تناديـه وفوات وقته وحاله، وهذا النّداء ليس كأي نداء عادي؛ "فقد خرج من معناه الأصلي إلى معنـى الحزن والتوجع"[2]، لأنه مصحوب بطول حزن وندامة لأنه لن يعود ولن يُتدارك، فكأنهم يُنادون حسرتهم وخيبتهم عندما عاينوا عذاب جهنم،وهو في المحصلة لفظ (قول) و (نـداء)، أضـاف معاني جديدة لم يكن للفظ (قال) أن يضيفها أو أن يشير إليها منفردا في هذا النّص القرآني.

(3)- وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ ﴿الزمر: 56﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿يَا حَسْرَتَا﴾ أي: "ينادي الحسرة بحرف النداء؛ لأن النداء يقتضي بعد المنادى، وكأنه يقول لها احضري فهذا أوانك، لأن المُتمنّى صار بعيدا عنهم، ومناداتهم لـه غير مجدية، وحرف النداء مستعمل في التلهف، وهذا ندم على الإشراك فيما مضى وهو يؤذن بأنه آمن بالله وحده حينئذٍ"[3].

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 115، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 13، القرطبي، الجـامع لأحكـام القرآن، ج15، ص 22، وص 23، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 267، الخازن، لباب التأويل، ج6، ص 7.

2 المراغي، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، 82.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص 185، سورة الأنعام، و ج15، ص 27، سورة الكهف.

البعد البلاغي: تنادي النفس حزنا وألما وندما على ما فرطت في حق نفسها؛ عندما دعيت بداع من الله إلى الحق والإيمان، فسخرت من ذلك، ويظهر النّدم على الشرك ببصيغة الجملة الدالة على النداء الذي معنى الحسرة، والتوجع، مضافا إلى حرف النداء الدّال على البعد، وفوات الأوان بفن من فنون (القول) يحمل تلك الدلالات الظاهرة وغيرها مما لا ندركه، من بلاغة النّص؛ بحيث لا يمكن لأي لفظ آخر من ألفاظ الفن نفسه أن يؤدي الدور الدلالي الذي يؤديه لفظ (الحسرة)، والدور البلاغي، مع ما يحمل من إشارات (للنّداء) مشحونة بالحزن والندم؛ والتلهف على ما فات، وذلك مما تبين من كتب اللغة والتفسير.

*****

(5)- (صرخ) في معاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "(صَرَخَ) الصَّادُ وَالرَّاءُ وَالْخَاءُ أُصَيْلٌ يَدُلُّ عَلَى صَوْتٍ رَفِيعٍ. مِنْ ذَلِكَ الصُّرَاخُ، بالضم يُقَالُ: صَرَخَ يَصْرُخُ، إِذَا صَوَّتَ. وَيُقَالُ: (الصَّارِخُ): الْمُسْتَغِيثُ، والْمُغِيثُ، وهو من الأضداد، وَيُقَالُ: بَلِ الْمُغِيثُ (مُصْرِخٌ) (صَرْخَةٌ) وَ (اصْطَرَخَ) مِثْلُهُ. وَ (التَّصَرُّخُ) تَكَلُّفُ الصُّرَاخِ، وَتَقُولُ: (استَصْرَخَهُ) (فَأَصْرَخَهُ) وَ(الصَّرِيخُ) صَوتُ الْمُسْتَصْرِخِ، وصرَخ الشّخصُ: صاح صياحًا شديدًا استصرخ يعني: صرخ، ونادى على مَنْ يُخلّصه، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من مأزق"[1].

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص348، ومجمل اللغة، ج1، ص557، الرازي، مختار الصحاح، ص ر خ، عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ص 1286، الشعراوي، الخواطر، ج17، ص 1090.

(صرخ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (صرخ) واشتقاقاته في القرآن الكريم خمس مرات)[1]، كلهــا بمعنــى النــداء والاستغاثة، جانب من مقاصد الدراسة؛ منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَـقِّ وَوَعَـدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُـسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿إبراهيم: 22﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله تعالى: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾، "أخبـر ﷻ عن الشيطان أنه يقول لأوليائه: ما أنا بمُغيثكم، فأخرجكم من النار، ولا أنتم بمُغيثيَّ من عـذاب الله فتخرجونني من النار، وتنجوني منها. إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، فليس لكم عنـدي صراخ، ولا إجابة. لا ينجي بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه. والإصراخ: الإغاثة يقـال: استصرخ يعني: صرخ، ونادى على مَنْ يُخلّصه، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من مأزق"[2].

البعد البلاغي: مما سبق يتبين أنّ (صرخ) فن من فنون القول، يشير إلى معنـى (قـول) يقصد به (النّداء) مصحوبا بالخوف، والألم، وطلب الاستغاثة للاستنجاد للخلاص مـن مـأزق، بحيث لا يستقيم في سياقه أن نضع بدلا منه لفظ (قال) على سبيل المثال؛ ذلك لأن لكل منهمـا معنى لا يؤديه الآخر في السياق، علما أنّ كلا اللفظين من ألفاظ القول، إلا أن بلاغـة القـرآن العظيم، لا تخلط الألفاظ بعضها ببعض، فلو افترضنا وجود لفظ (قال) مكان لفظ (صرخ) لمـا

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 407.

2 الطبري، جامع البيان، ج16، ص 560- 561، السمرقندي، بحـر العلـوم، ج2، ص 240، الزمخـشري، الكشاف، ج2، ص 550، الشعراوي، الخواطر، ج17، ص 10900.

اتضح المعنى أبدا، ولما تبيّن أن المراد من هذا النّص هو بيان تخلي الشيطان عن الإغاثة والنصرة حينما طلبت منه، ولا هو يطلبها.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ جملة إنشائية تفيد معنى النفي. ومن حيث البديع جاء بين لفظ: (بِمُصْرِخِكُمْ) ولفظ: (بِمُصْرِخِيَّ) جناس.

(2)- و منها قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿القصص: 18﴾.

التفسير: ذكر المفسرون في معنى: ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ "أنّ الإسرائيلي رأى موسى فاستصرخه واستغاثه على الفرعونيّ. أي: صاح به مستغيثاً طالبا الغوث والمساعدة من قبطيّ آخر"[1].

البعد البلاغي: هذا لفظ (صرخ) مرة أخرى، يتأكد لنا من خلال التفاسير والمعاني أنّه فن من فنون (القول)، ورد في التعبير القرآني، ليبين حالة النّداء التي استنقذ بها الفرعوني حينما صاح مناديا موسى عليه السلام بأعلى صوته طالبا الغوث والمساعدة والخلاص من خطر يداهمه. فهي تبين بكل وضوح أنّها (قول)؛ ولكن لا يجدي في سياقها أن يستبدل بها أي لفظ من ألفاظ (القول) المتعددة، مع الحفاظ على المعنى بأوجز الألفاظ، فلو افترضنا جدلا لفظ (قال) مكانها وأعدنا قراءة النّص، لاحتجنا إلى كلمات وجمل إضافية لتشرح ما قال هذا الذي من شيعة موسى، وماذا أراد...، و صفات صوته.

وجاءت الجملة: ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ جملة خبرية شرطية، لأداة الشرط غير الجازمة (إذَا)، واسمها جملة (اسْتَنْصَرَهُ)، وجوابها جملة يَسْتَصْرِخُهُ).

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 542، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 602، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص 106.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ﴿فاطر: 37﴾.

التفسير: جاء في معنى ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾، أي: "إنّ هؤلاء الكفار يستغيثون ويضجون في النّار، يقولون: "يا ربنا ﴿أخرجنا نعمل صالحًا﴾"، أي: نعمل بطاعتك ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ قبلُ من معاصيك. ويفتعلون من الصراخ؛ وَيَسْتَغِيثُونَ فِي النَّارِ بِالصَّوْتِ الْعَالِي، صرخ يصرخ إذا أغاث واستغاث وهو من الأضداد ويستعمل للإغاثة والاستغاثة لأن كل واحد منهما يصلح لأن يستغيث ويغاث، وهو افتعال من الصراخ، وهو الصياح بجهد وشدّة، لجَهد المستغيث صوته"[1]، "والمُصْرِخ من مادة الصّراخ من صرخ، وهو رَفْع الصوت بغرض أن يسمعه غيره؛ ولا يطلب مَنْ يصرخ شيئاً آخر غير المعونة فلو أنّ أحداً عثر على كنز تحت قدميه فلن يصرخ؛ بل يلتفت حوله ليرى: هل هناك مَنْ رآه أم لا؟ أما إنْ هاجمه أسد فلا بُدَّ أن يصرخ طالباً النجاة، وهكذا يكون الصراخ له مَأْرب طَلَبِ المعونة؛ وهذا لا يتأتّى إلا ممّنْ يخاف من مفْزِع"[2].

البعد البلاغي: ينضم لفظ (صرخ) إلى سابِقَيه، ليؤكد لنا أنه من فنون (القول)، مختص بحالة (النداء)، عندما تصيح طالبا الغوث والنجاة إذا ما داهمك خطر ما، وأنت في حالة حزن وخوف، وهذا ما تبين من النّص القرآني؛ فلماذا يضج هؤلاء الكفرة في النّار ويصيحون بجهد إلا من أجل طلب الغوث والإنقاذ، بحيث لو استبدل لفظ (يَصْطَرِخُونَ) في النص بلفظ (يقولون)

---

1 الطبري، جامع البيان، ج20، ص 475- 476، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 104، الزمخشري، ج3، ص 615، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص 352.

2 الشعراوي، الخواطر، ج12، ص 7488.

لما استقام المعنى، واحتاج لكثير من التأويل والتفسير والتخمين لما يقولون، علما أن كلا اللفظين من نفس الفن، إلا أنّ لكل منهما الدور في سياقه الذي يرد فيه، لا تختلط معانيه بغيره، وكل منهما يخدم النص بطريقة بليغة لا تحتاج استبدال، لحكمة إلهية، وبلاغة قرآنية. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ جملة خبرية اسمية، تحمل خبر ما سيكون من أهل النار يوم القيامة .

*****

(6)- (صاح) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة "(صَيَحَ): الصَّادُ وَالْيَاءُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ الصَّوْتُ الْعَالِي. ومِنْهُ الصِّيَاحُ، بكسر الصاد وضمها، وَالْوَاحِدَةُ مِنْهُ صَيْحَةٌ. يُقَالُ: لَقِيتُ فُلَانًا قَبْلَ كُلِّ صَيْحٍ وَنَفْرٍ. فَالصَّيْحُ: الصِّيَاحُ"[1]، و"صاح: صيح الصياحُ: صوتُ كُلِّ شَيْءٍ إِذا اشْتَدَّ تقول: صاحَ يَصيحُ صَيْحاً وصيحانا بالتحريك. والمصايحة والتصايح صَيَحَانًا بِفَتْحِ الْيَاءِ: أن يـصيح القوم بعضهم ببعض، وصَيَّحَ: صَوَّتَ بِأَقْصى طَاقَتِهِ، يَكُونُ ذَلِكَ فِي النَّاسِ وَغَيْرِهِمْ، والـصَّيْحَةُ الْعَذَابُ"[2].

(صاح) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (صيح) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة[3]، كلها بمعنى الـصوت الشديد، أو صيحة العذاب، أو ما يشبه ذلك، جانب من مقاصد الدراسة؛ منها:

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص335.

2 الجوهري: الصحاح تاج العربية، ج1، ص384، الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط: 5، 1420هـ / 1999م ، ص181، ابـن منظـور، اللسان، حرف الحاء المهملة، فصل الصاد المهملة.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 417.

(1)– قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ﴿يس: 29﴾.

التفسير: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ "فيها قولان: أحدهما: "أنّ الصيحة هي العذاب"[1]، "الثاني: إنّ الصيحة من جبْرِيل عليه السلام، فجَاءَ ووقف على بَاب الْمَدِينَة وَ(صَاح) بهم (صَيْحَةً) فَخَروا ميتين كَأَن لم يَكُونُوا، وصاروا كرماد خامدين هامدين. أي: فما كانت إلا صيحة جبريل عليه السلام . وفي مصحف عبد الله رضي الله عنه: (إن كانت إلّا زقية واحدة)، وهي الصيحة أيضا وأصلها من الزقا"[2].

البعد البلاغي: واضح أن صوت جبريل عليه السلام عندما (صاح) هو فن من فنون (القول)؛ ولكن الجديد أنه أضاف معاني أخرى إلى النص القرآني بهذا (الصياح)، فالدلالات تشير إلى أنّ هذا (الصياح) صوت نداء شديد عال، يصوت به بأعلى الطاقة ليس لتسمع حسب، بل لتفزع، مشعرا بوجود عذاب، وهذا ما حصل، كما أخبر المولى سبحانه في كتابه العزيز، حيث ما كانت إلا صيحة جبريل عليه السلام حتى فزع أهل المدينة وماتوا، ومن المؤكد أن لو كان التعبير القرآني بـ (قولَة) بدلا من (صيحة) لما كانت تشير لهذه العاقبة لأهل هذه القرية. وجاء اللفظ في سياق الجملة الخبرية، مع إفادة الحصر.

(2)– وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ ﴿ق: 42﴾.

التفسير: "يقول ﷻ: يوم يسمع الخلائق صيحة البعث بالحق، بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب؛ وخروجهم من قبورهم. تلك نفخة إسرافيل وصيحته، حينما يقول المنادي: يا أيتها

---

1 الماوردي، النكت والعيون، ج 5، ص 15.

2 الطبري، جامع البيان، ج20، ص 533، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 115، الثعلبي، الكشف والبيان، ج8، ص 127، السمعاني، تفسير القرآن، ج4، ص 374.

العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، إنّ الله يأمركن، أن تجتمعن لفصل القضاء"[1].

البعد البلاغي: وهنا أيضا (صياح) الحق، عندما ينفخ إسرافيل ويصيح، أليس هو (يقول) (قولا) مأمور بتلفظه؟؛ ولكن بطريقة مختلفة عن باقي (الأقوال) والألفاظ لأنّ له دورا آخر يخدم فيه نصا جديدا، فالنّاس يوم القيامة لا يحتاجون (قولا) لينا هينا، فإن ذلك قطعا لن يخرجهم من القبور بعد قرون من الموت، ولكنهم يحتاجون (صياحا) شديدا، قويا مفزعا، يعلمهم بحلول اليوم الحق، تلك هي (الصّيحة) التي تؤدي المعنى المطلوب يوم القيامة، والصيحة صوت وتلفظ بأقصى الطاقة وهذا ما ناسب النص القرآني في هذه الآية؛ فعبر عنه القرآن الكريم باللفظ المناسب.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ جملة خبرية، تشير إلى حقيقة يوم يسمعون صيحة أسرافيل، فتلك صيحة تؤذن بيوم القيامة حقيقة.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿المنافقون: 4﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾: "أنّ هؤلاء المنافقين من خُبثهمْ وسوء ظنهم، وسوء نواياهم، وقلة يقينهم يحسبون أن كلّ صيحة يسمعونها تكون عليهم، وكلما صاح صائح، ظنوا أن ذلك لأمر عليهم؛ لأنهم على وجل أن يُنزل الله فيهم أمرا يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين دماؤهم وأموالهم فوصفهم بالجبن؛ وقيل: إنهم كانوا يخافون من كل من خاطب النبيّ ﷺ، ويظنون أنه يخاطبه في أمرهم، وكشف نفاقهم، كما أنهم كلما

---

1 الطبري، جامع البيان، ج22، ص383، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص323، الواحدي، الوجيز في تفسير القرآن المجيد، ج4، ص 172.

سمعوا بنشدان ضالة أو صياحاً بأي وجه كان، أو أخبروا بنزول وحي، طارت عقولهم حتـــى يسكن ذلك الصائح ويكون في غير شأنهم"[1].

البعد البلاغي: زمن (الصّياح) هذه المرة مختلف، فهو هنا في الحياة الدنيا، وليس يـــوم القيامة كما ورد في الآية السابقة، ولكنه ما زال مفزعا مرعبا؛ يحمل نفس الصفات والميزات، التي تجعل من العسير استبداله – جدلا- بأي لفظ من ألفاظ (القول) في السياق القرآني الذي يرد فيه؛ علما بأنه فن من فنون (القول)، ولكنه فن يمتاز بقوة الصوت وحدّته، خالقا فـــي ســـامعيه حالات الرعب والفزع الملازمتين له؛ فهاهم المنافقون يفزعون ويخافون، ويرتعبـــون إذا مـــا سمعوا (صائحا) ينادي بصوت عال، يبحث عن حاجة، أو ينشد ضـــالة، أو ينـــادي مـــستغيثا؛ لجبنهم وخبثهم وقلة يقينهم ظناً منهم أنّه (يصيح) طالبا دمهم، أو هاتك لأسرارهم، علما بأنّ هذه (الصيحة) هي فن (قول) لكنها تحمل معان أخر. وجاءت الجملة القرآنية فـــي ســـياق الجملـــة الخبرية الفعلية.

*****

(7)- (عذر) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة "عَذَرَ: "الْعَيْنُ وَالذَّالُ وَالرَّاءُ بِنَاءٌ صَحِيحٌ لَـــهُ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ، كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَلَى نَحْوِهَا وَجِهَتِهَا مُفْرَدَةٌ. فَالْعُذْرُ مَعْرُوفٌ، وَهُـــوَ رَوْمُ الْإِنْـــسَانِ إِصْلَاحَ مَا أُنْكِرَ عَلَيْهِ (بِكَلَامٍ). يُقَالُ مِنْهُ: عَذَرْتُهُ فَأَنَا أَعْذِرُهُ عَذْرًا، وَالِاسْمُ الْعُذْرُ. وَتَقُولُ: عَذَرْتُـــهُ مِنْ فُلَانٍ، أَيْ لُمْتُهُ، وَتَقُولُ: اعْتَذَرَ يَعْتَذِرُ اعْتِذَارًا وَعِذْرَةً مِنْ ذَنْبِهِ فَعَذَرْتُـــهُ. وَالْمَعْـــذِرَةُ الِاسْـــمُ. وَأَعْذَرَ فُلَانٌ إِذَا أَبْلَى عُذْرًا فَلَمْ يُلَمْ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ: عَذَّرَ الرَّجُلُ تَعْذِيرًا، إِذَا لَمْ يُبَالِغْ فِـــي

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 395، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 451، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج8، ص 268.

الْأَمْرِ وَهُوَ يُرِيكَ أَنَّهُ مُبَالِغٌ فِيهِ. وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ ﴿التوبة: 90﴾، وَيُقْرَأُ: "الْمُعْذِرُونَ" قَالَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ: الْمُعْذِرُونَ بِالتَّخْفِيفِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْعُذْرُ، وَالْمُعَذِّرُونَ: الَّذِينَ لَا عُذْرَ لَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ يَتَكَلَّفُونَ عُذْرًا"[1]، "عذر الاعتذارُ من الذنب، وتَعَذَّرَ بمعنى اعتَذَرَ واحتجَّ لنفسه، وَاعتَذَرَ بِمَعْنَى (أَعذَرَ) أيْ صَارَ ذَا (عُذْرٍ) وعذر جَادَلَ عَنْ نَفْسِهِ، ويقال أن العذر كل ما من شأنه أن يستر العيب"[2].

(عذر) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (عذر) واشتقاقاته في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة)[3]، جاءت بمعنى رَوْمُ الْإِنْسَانِ إِصْلَاحَ مَا أُنْكِرَ عَلَيْهِ (بِكَلَامٍ) كلها، وهي جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)– قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿التوبة: 66﴾.

التفسير: "﴿لا تعتذروا﴾ بالباطل، فتقولوا: ﴿كنا نخوض ونلعب﴾ لن نصدّقكم على ما تقولون، إنّما تثابون اليوم، وذلك يوم القيامة، وتعطون جزاء أعمالكم التي كنتم في الدنيا تعملون، فلا تطلبوا المعاذير منها، ولا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم"[4].

البعد البلاغي: أن تقدم عذرا، فأنت تحتج لنفسك، وتجادل عنها لإصلاح خطأ ما. أما أن تكون حجتك حقيقية واعتذارك صادق أو غير ذلك هذا شأنك مع من قدمت له عذرك، فقد تُعذر

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص253– 254.

2 الجوهري، الصحاح تاج العربية، ج2، ص737، وص740 ، الرازي، مختار الصحاح، ص203.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 455– 456.

4 الطبري، جامع البيان، ج14، ص 336، وص 424، وج24، ص 492، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 82، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 286.

أو لا، ولكن إقدامك وتلفظك هو (العذر)؛ لأنك قدمت فنا جديدا من فنون (القول) في حلة اختلفت عن كل ما سلف من فنون، فهو بالفعل قول، ولكن هدفه، والظروف والأبعاد النفسية التي يقال فيها تختلف عما يحيط بأي قول آخر، بحيث لا يمكن للفظ (قال) أو أي لفظ آخر من فنون القول أن يحل مكانه في السياق الذي ورد فيه، محافظا على نفس الدلالات والمعاني المقصودة؛ فجاءت جملة: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى النهي؛ لأن المولى ﷻ لا يريد منهم أعذارا؛ لأنه مطلع على أحوالهم وأعمالهم الباطلة، فلن تكون أعذارهم إلّا باطلة لا تغني ولا تسمن من جوع.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿الروم: 57﴾.

التفسير: ذكر المفسرون في معنى ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾: "أنّ المكذّبين بالبعث في الدنيا يعتذرون يوم القيامة عن ذنوبهم حين يرون العذاب؛ فتكون (معذرتهم) هو قولهم: (ما علمنا أنّه يكون)، (ولا أنّا نُبعث). ولكنها حجة باطلة، لذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم؛ لأنهم إن اعتذروا لا يعتذرون إلا بباطل، ولا يفيدهم علمهم بالقيامة، وقد أنبأ عن تسمية كلامهم هذا (معذرة) وهذه فتنة أصيبوا بها حين البعث جعلها الله لهم ليكونوا هُزأة لأهل النشور"[1].

البعد البلاغي: (عُذر) أقبح من ذنب أن (يقول) الكافرون في معرض كلامهم ودفاعهم عن أنفسهم: (ما علمنا أنّه يكون)، (ولا أنا نُبعث). ولكنّها حجة باطلة يقولونها ظنّا منهم أنها تنجيهم

---

1 الطبري، جامع البيان، ج20، ص 119، و ج21، ص 403، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 200، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 172، أبو الطيب، محمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن، ج4، ص 120، و ج10، ص 268، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص 129.

من عذاب النّار، وهم يعلمون إنّها كاذبة واهية، ولكــنّهم أرادوا أن يطرحــوا قــولهم ويــدلوا (بعذرهم)، فهو في نظرهم ليس أكثر من (قول)، ولكن يتبيّن أنّ لكل لفظ معنى؛ وإن كان الباب واحدا. فــ(معذرتهم) (قول)، ولكن المقام مختلف، والمضمون مختلف أيضا، فهــم يعتــذرون وقلوبهم وجلة، وأنفسهم قلقة أن يقبل (عذرهم) أو لا يقبل؟ فلا يستقيم معه أن يستبدل بــه لفــظ (قولهم) في السياق الذي وردت فيه، أو بأي لفظ آخر، وتوقع المعاني والدلالات نفــسها. لــذا جاءت الآية الكريمة تؤكد أن لا فائدة من اعتذارهم بجملة خبرية، مؤكدة بــالظرف (فَيَوْمَئِــذٍ)، بقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ ﴿القيامة: 15﴾.

التفسير: اختلف أهل التفسير في معنى: ﴿مَعَاذِيرَهُ﴾؛ "فقال بعضهم معناه: أنّ للإنــسان على نفسه شهود من نفسه، ولو اعتذر بالقول مما قد أتى من المآثم، وركب مــن المعاصــي، وجادل بالباطل. ولو تكلم بعذر لم يقبل منه، ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجــادل عنها. وَقِيلَ: وَلَوِ اعْتَذَرَ فَقَالَ لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا، لَكَانَ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ مِــنْ جَوَارِحِــهِ، يكذب عذره، أيْ: لا ينفعه عذره؛ ذلك إِنَّ الْمَعَاذِيرَ يَشُوبُهَا الْكَذِبُ. وَقِيلَ: لَوْ تَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ. وقد اتفق أَنَّهُ الْإِدْلَاءُ بِالْحُجَّةِ وَالِاعْتِذَارُ مِنَ الذَّنْبِ، أي: أنّ الكافر يعلم يومئذٍ أعماله التي استحق عليها العقاب، ويحاول أن يعتذر وهو يعلم أن لا عذر له؛ ولو أفصح عن جميع معــاذيره. والإلقــاء: مراد به الإخبار الصّريح على وجهة الاستعارة"[1].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج24، ص 63، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 500، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 661، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص 100- 101، ابن عاشــور، التحريــر والتنــوير، ج29، 348.

البعد البلاغي: (المعاذير) جمع عذر، وهو الحجّة التي يدلي بها من اقترف ذنبا، أو ارتكب إثما، يدلي بها ليدافع عن نفسه، و (يقول) ما عنده من حجج وأعذار، وقد تقبل أو لا تقبل؛ لأن المعاذير يشوبها الكذب، وهو في الواقع يقول (قولا) مدعما بالحجة والبرهان، ليدافع عن نفسه أمام من يلومه، لينجو من ملامة أو عقاب، فسمي بـ (الاعتذار)؛ لأن مقامه وهدفه اختلف، مما ميز لفظه من بين ألفاظ (القول) عامة؛ لأنه يهدف إلى جني عذر أو تبرئة مما وجه إليه. واستعير لفظ (المعاذير لكل ما من شأنه أن يستر العيب الخلقي، أو الخلقي).

*****

(8)- (غوث) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "(غَوَثَ) الْغَيْنُ وَالْوَاوُ وَالثَّاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ الْغَوْثُ مِنَ الْإِغَاثَةِ، وَهِيَ الْإِغَاثَةُ وَالنُّصْرَةُ عِنْدَ الشِّدَّةِ"[1]، و"يقال: ضرب فلان فغَوَّثَ تغويثا، أي: قال: وا غوثاه، أي: من يُغِيثُني"[2]، "والاسم الغَوْثُ والغُواثُ والغَواثُ. ويقال أجاب الله دعاءه وغواثه، ولم يأت في الأصوات شيء بالفتح غيره، وإنما يأتي بالضم مثل البُكاء والدُّعاء، أو بالكسر مثل النِّداء والصِّياح"[3].

(غَوث) في القرآن الكريم:

لم يرد الأصل (غَوث) في القرآن الكريم، ولكن وردت اشتقاقاته خمس مرات)[4]، جميعها في الأصوات؛ منها:

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص400، غوث .

2 الفراهيدي، العين، باب الغين والثاء و(وايء) معهما غ ث.

3 الجوهري، الصحاح تاج العربية، ج1، ص289، وانظر ابن منظور اللسان، حرف الثاء، فصل الغين المعجمة.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص506.

(1)- قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ﴿الأنفال:9﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، أي: "تستجيرون به من عدوكم، وتدعونه للنصر عليهم بدعاء النبي ﷺ وبدعائكم، وتسألونه بالنصرة عليهم يوم بدر حين نظرتم إلى كثرة عدوكم وقلة عددكم، وتقولون: أي ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا. غوث الرجل قال: وا غوثاه. وَالِاسْمُ الْغَوْثُ وَالْغُوَاثُ وَالْغَوَاثُ. وَاسْتَغَاثَنِي فُلَانٌ فَأَغَثْتُهُ، وَالِاسْمُ الْغِيَاثُ، وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: "اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي. اللَّهُمَّ ائْتِنِي مَا وَعَدْتَنِي. اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ" (فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ. فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَةَ"[1].

البعد البلاغي: يتبين أنّ لفظ (استغاث) أنه (قول) من الأقوال، ولكن الذي اختلف هو مقامه ومضمونه، فهذا الرسول ﷺ وصحابته قد شعروا بحلول خطر يداهمهم، فلجئوا إلى سميع يسمع صوتهم، وعليم يعلم بحالهم، وقوي يغيثهم؛ فاستغاثوه بـــ (دعاء) فيه الخوف والرجاء، علما أنّ دعائهم هذا هو(قول) تلفظوا به، ولكن ما صاحبه من حالات نفسية، وهيئات جسدية، ودرجات صوت هو ما ميز لفظه بـــ (الاستغاثة)، بحيث لا يمكن لأي لفظ آخر من فنون

1 الطبري، جامع البيان، ج13، ص 408، وص 411، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 10، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 200، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 370.

(القول) المتعددة أن يشير إلى الدلالات والظروف التي لازمت تلك (الاستغاثة). كما أنّ الاستغاثة تُطلب من القوي؛ أما القول فقد يحصل بين القوي والضعيف والعكس.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ جملة خبرية مؤكدة بالظرف (إذ) للأهمية، تشير إلى واقعة الاستغاثة حقيقة، فجاء الجواب: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿الكهف: 29﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ "أنّ الاستغاثة: هي صَرْخة ألم من متألم لمن يدفع عنه ذلك الألم، فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب فـ﴿يُغَاثُوا﴾، فيتبادر إلى الذِّهْن أنهم يُغَاثُون بشيء من رحمة الله، أي: فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد لإطفاء عطشهم، بسبب حرّ جهنم، ويخفف عنهم ألم النار، فإذا بهم بماء كالمهل، غليظ يشوي جلود الوجوه من شدة حره"[1].

البعد البلاغي: الكافرون ينادون ويصيحون طالبين الإنقاذ والخلاص مما هم فيه بصرخة ألم، وقد عبر القرآن الكريم عن صوتهم هذا ونداءهم وصراخهم بلفظ واحد يجمع المعاني لدلالات المقصودة كلها، وهو لفظ (تستغيثون)؛ فيه أكثر من مجرد (القول)، بحيث لا يغني عنه أي لفظ مكانه حتى لو كان لفظ (قال) أو أحد مشتقاته، كما أن هذه الاستغاثة يوجهها الضعيف إلى القوي، طالبا منه العون والإنقاذ.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 12، الشعراوي، خواطر، ج14، ص 8885- 8886، الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر- دمشق، ط2- 1412هـ ،

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ جملة خبرية شرطية، من أداة الشرط غير الجازمة (إنْ) تؤكد وقوع الحدث المشروط في المستقبل، بفعل الشرط: (يَستَغِيثُوا)، وجوابه: (يُغَاثُوا)؛ فالجواب مشروط بالفعل ومرهون به.

ومن حيث البديع فقد ارتبط اللفظان: (يَستَغِيثُوا) و (يُغَاثُوا) بجناس الاشتقاق؛ وهذا يشير إلى سرعة استجابته سبحانه لما يريدون من جنس طلبهم، بأسلوب المستهزئ بهم؛ لما يتبادر إلى الذهن من إغاثة حقيقية؛ وإذا بها ماء حميما.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿القصص: 15﴾.

التفسير: جاء في بيان قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ﴾؛ "أنّ هذا الذي من شيعة موسى استغاث بموسى، قائلا: 'يا موسى يا موسى'، (أي طلب نصره وغوثه إياه على عدوه الفرعوني)، فقال موسى: خل سبيله"[1].

البعد البلاغي: يتبين من سياق الآية أنّ الذي من شيعة موسى عليه السلام كان في مأزق ألمّ به، وخطر داهمة، فأراد الخروج منه، ولمّا رأى موسى قادما، وجد فيه ضالته، فاستفزه مناديا مستغيثا، لأنّه في حالة ضعف؛ فصاح بصوت يعبر عما هو فيه من الخطر، وتجمع هذه الاستغاثة القوة في الصوت، والإصرار على استجداء الإنقاذ، واستجلابه؛ فعبر عنها القرآن الكريم أبلغ تعبير، فقال: (فَاسْتَغَاثَهُ)، فأوجز وأبلغ في لفظه هذا، وجمع فيه الدلالات والمعاني

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 601، مكي بن أبا طالب القيسي، الهداية، ج8، ص 5504، القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 57، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 398، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص 260، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 173، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج7، ص 6، الألوسي، روح المعاني، ج10، ص 263، الزحيلي، التفسير الوسيط، ج3، ص 1907.

النّفسية والجسدية، التي حاولت أن أبيّن أنّها ضمن ما قصد ذاك المستغيث... فأغاثــه موســى ولبى نداءه.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ﴾ جملة خبرية فعلية، استئنافية بيانيــة، تبين الإجراء الذي سلكه هذا المستغيث، وتؤكده.

*****

(9)- (لوم) في معاجم العربية:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "(لَوَمَ) اللَّامُ وَالْوَاوُ وَالْمِيمُ كَلِمَتَانِ تَدُلُّ إِحْدَاهُمَا عَلَــى الْعَتْبِ وَالْعَذْلِ، وَالْأُخْرَى عَلَى الْإِبْطَاءِ، فَالْأَوَّلُ اللَّوْمُ؛ وَهُوَ الْعَذْلُ. تَقُولُ: لُمْتُهُ لَوْمًــا، وَالرَّجُــلُ مَلُومٌ. وَالْمُلِيمُ: الَّذِي يَسْتَحِقُّ اللَّوْمَ. وَاللَّوْمَاءُ: الْمَلَامَةُ، وَرَجُلٌ لُوَمَةٌ: يَلُومُ النَّــاسَ. ولُومَــةٌ يُلَــامُ والفعلُ: لامَ يَلومُ"[1]، "لوم: اللَوْمُ: العَذْلُ. ولامَهُ على كذا لَوْماً ولَوْمَةً، فهو مَلــومٌ"[2]، " لومــه: عذَله، وبّخه"[3].

(لوم) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (لوم) واشتقاقاته في القرآن الكريم أربع عشرة مرة)[4]، كلها تدل علــى العتــب والعذل، جانب من مقاصد الدراسة؛ منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ﴿يوسف: 32﴾.

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص222، الفراهيدي، العين، باب اللام والميم و (واىء) معهما ل و م.
2 الجوهري، الصحاح تاج العربية، ج5، ص2034.
3 عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص2050.
4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 654.

التفسير: ذكر المفسرون في معنى ﴿لُمْتُنَّنِي﴾: أي: "ذلك هُوَ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِي حِبِّــي إِيَّــاهُ، وعذلتنني في شَغَفُ فُؤَادِي بِهِ، وعبتنني فيه، واللوم: الوصف بالقبيح. فَقُلْتُنَّ: "قَدْ شَغَفَ امْــرَأَةُ الْعَزِيزِ فَتَاهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" فلما سمعت زليخة امرأة الملك باغتيــاب النــساء، وسوء مقالتهن وطعنهن بها، دعتهن إلى ضيافتها في جلسة كريمة هادئة"[1] وكان جوابها فيمــا بينها وبين نفسها أن تقول: " فهلا عذرتنني وقلتن لي أنت معذورة؟

البعد البلاغي: إنّ التعبير القرآني في معرض الحديث عن ردة فعل امرأة العزيــز إزاء تلقيها حديث النّسوة في شأنها وشأن فتاها يشير إلى تدبيرها لمكيدة أخرى لترد الصّاع صاعين لمن يعذلها ويلومها، بأقل درجات من الانفعال، وذلك حفاظا على العلاقة القائمة بينها وبيــنهن، ولئلا تجلب إلى نفسها المزيد من العذل وحديث العامة، وعلى الرغم من سوء صنيعها، و سوء حديث النساء ومقالتهن؛ إلا أنها دعتهن إلى جلسة ومتكأ وفاكهة؛ وقالت: "ذلك الذي لمتنني فيه"؛ لتبين لهنّ أنّ لها عذرا فيما فعلت، ولو التمسن لها ذلك العذر لكان أفضل من الملامة.

ودلالات اللفظ تبين أنّ الملامة قول توجهه إلى من تحب، أو إلى من بينك وبينه علاقــة ومودة، لأنّ هذا الفعل الذي يُلام عليه جر الحسرة والندم عل مرتكبه، والمحب لا يريــد ذلــك لحبيبه أو صديقه، فهو لوم محب مع العتب عليه لِمَ فعلت؟! أو: لو لم تفعل لكان أفضل، وبمــا أنهن من النساء المقربات من القصر والقائمات على شؤونه، وخَدَمَة امرأة العزيز فصدر منهنّ هذا العتب والعذل، وأرادت إمرأة العزيز أن توجههن إلى الوجه الآخر من الملامة، وترد عليهن فعلا لا قولا: "أليس الأفضل لكن أن تلتمسن لي عذرا من أن تلمنني؛ لأنكن لو رأيتن ما رأيــت لوقعتن فيما وقعت". هذا جزء يسير مما التمست – حسب المعطيات– من بلاغة قوله تعــالى:

---

1 الطبري، جامع البيان، ج13، ص141، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 191، القرطبي، الجامع لأحكــام القرآن، ج9، ص 183، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 162، الزحيلي، الوسيط، ج2، ص 1104.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فيه﴾، وحتى لا نخرج عن إطار البحث: أليست الملامة بهذا (قولا)؟ و لأنه قول غير عادي؛ يحمل التوبيخ والاغتياب، تغير لفظه لتغير معناه.

وجاءت الجملة القرآنية: "فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ" جملة مقول القول، خبرية مؤكدة باسم الإشارة ونون التوكيد المشددة، وبالاسم الموصول، لتؤكد لهن خطأ ملامتهن، وفي الوقت ذاته لتؤكد لهنّ عذرها فيما فعلت.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿إبراهيم: 22﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ "أنّ المولى ﷻ يخبر عن الشيطان إذ يقول لأوليائه يوم القيامة: "إذَا جِئْتُمُونِي مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ. فَلَا تَلُومُونِي بوسوستي فإنّ من صرّح العداوة لا يلام بأمثال ذلك. وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ حيث أطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم، وهذا تصريح خطير بضعف كيد الشيطان ووساوسه، وبكذبه وخيانته في الدنيا، واعترافه بتحمّل أتباعه مسئولية ذنبهم وخطيئتهم، فإنّهم هم الذين استجابوا لدعوة الشيطان من غير وجود سلطان له عليهم، فيقوم إبليس خطيب السوء، والمقصود كما تبيّن: تنبيه النّاس إلى تبرؤ الشيطان من وساوسه في الدنيا"[1].

---

1 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص 357، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 197، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص 408، الزحيلي، الوسيط، ج2، ص 1191 وص 1193.

البعد البلاغي: وهنا أيضا يوجه إبليس اللعين خطابه إلى أتباعه في الدنيا ومحبيه، وينهاهم عن توجيه اللوم له ويحذرهم قبل فوات الأوان؛ بأن لا يلقوا عليه باللائمة عندما يعاينون الهوان والعذاب، ويقولون: (أنت الذي سببت لنا هذا، أنت الذي غررت بنا)، وينبههم بأن عليهم بتوجيه اللائمة على أنفسهم، فهو أيضا له عتاب عليهم ومن حقه أن يلومهم قائلا: (كيف تطيعونني وليس معي حجة ولا برهان لأقنعكم، فليس إلا أن دعوتكم فأطعتموني)

فلفظ (لوم) يتضمن (قولا) و (نداء) متبادل بين طرفين، أقل ما يمكن أن نقول فيهما أنّهما متفقان، أو صديقان سائران على خط واحد- في وقت ما- فهذا يلقي باللّوم والعتب على هذا، وذاك يرد القول بحجة أخرى، ممّا يوضح أنّه ليس من الممكن استبدال (قال) بـ (لوم) في هذا السياق على أساس أنّهما لفظي (قول)؛ لأن دلالات (القول) لا تف بدلالات (اللوم).

وجاءت الجملة القرآنية: "فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ" جملة نهي إنشائية، تفيد معنى التوبيخ، قد قالها إبليس لأتباعه لمّا قضي أمر الحساب، واستوجب الموقف أن يدافع عن نفسه، ويبرئ ساحته من الملامة، وفي الجملة أيضا نهي: "فَلَا تَلُومُونِي" وأمر: " وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ".

ومن حيث البديع فقد مثلت الجملة أكثر من جانب بلاغي؛ ففيها جناس اشتقاق بين: (تَلُومُونِي) و (وَلُومُوا)، وفيها طباق سلب بين: (فَلَا تَلُومُونِي) و (وَلُومُوا).

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ ﴿القلم:30﴾.

التفسير: جاء أن: "أقبل بعضهم على بعض يتلاومون على تفريطهم فيما فرّطوا فيه من الاستثناء، وعزمهم على ما كانوا عليه من ترك إطعام المساكين من جنتهم، فيلوم هذا ذاك في القسم ومنع المساكين؛ وكل منهم يلقي باللائمة على غيره ويقول: بل أنت أشرت علينا بهذا. فإنّ منهم من أشار بذلك ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت راضياً، ومنهم من أنكره. والتلاوم:

من صيغ المفاعلة، والمشاركة؛ وذلك بأن كان بين الطرفين؛ يتلاومون ندماً بما كانوا أصـــرّوا عليه من منع المساكين من حقّ الجذاذ، أي القطاف، ولم يجدوا أمامهم إلا الاعتــراف بالخطـــأ والذنب. قالوا: "يا هلاكنا أقبل، فإننا كنّا معتدين متجاوزين الحدّ، حتى أصابنا ما أصابنا"[1].

البعد البلاغي: يتأكد هنا – من خلال النصوص القرآنية عينة الدراسة– أنّ (اللّوم) فـــن من فنون القول يستدعي طرفين؛ أقل ما يمكن أن يقال فيهما أنّهما من حزب واحد– كما بينــتُ في الآيتين السابقتين– فها هم الأخوة يواجهون مصير ما جنت اتفاقياتهم السرية وندواتهم الليلية بشأن منع المساكين حقهم من المحصول، فأخذ هذا بإلقاء (اللّوم) على ذاك، وذاك يلقي (باللّوم) على أخيه، وهم في الحقيقة يتلفظون بـــ (أقوال) وكلمات تحمل معنى توجيه الذنب على الطرف المقابل، بأسلوب عتاب لطيف؛ استشعارا من كل طرف في قرارة نفسه أنّه ليس بريئا من ذاك الذنب، ومعرفته الباطنية أنّه يتحمل جزءا من مسئولية ما جرى، وهو مع عتابـــه لا يريـــد أن يخسر علاقته مع الطرف الآخر، ومع ذلك فإنّ هذا (اللّوم) لا يخلو من علو صوت، ومنـــاداة، وحزن، وندم على ما حصل، وهذا ما نلمسه إذا ما استحضرنا الآيتين السابقتين، عينة الدراسة؛ فهذه زليخة وصويحباتها نسوة المدينة، وهذا إبليس اللعين وحزبه، وهـــا هـــم الأخـــوة، كلهـــم يتعاتبون وليس فيهم أحد بريء، وكلهم يتمسكون بزمام الصحبة مهما كانت النتائج.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ جملة خبريـــة اســـتئنافية، تعليلية، تفيد معنى المشاركة بين طرفين، وهما طرفي الملاومة والمعاتبة من الأخوة، والمعايبة.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 551، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 462، مكي بـــن أبـــي طالـــب القيسي، الهداية، ج12، ص 7640، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص 245، البيضاوي، أنـــوار التنزيل، ج5، ص 236، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج9، ص 16، الألوســـي، روح المعـــاني، ج15، ص 37، بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، ج2، ص 63، الزحيلي، الوسيط، ج3، ص 2712.

*****

(10)- (ندم) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "(نَدَمَ) النُّونُ وَالدَّالُ وَالْمِيمُ كَلِمَةٌ تَـدُلُّ عَلَـى (تَفَكُّنٍ)[1] لِشَيْءٍ قَدْ كَانَ. يُقَالُ: نَدِمَ على ما فعل نَدَمًا وَنَدَامَةً وتَنَدَّمَ مثله: أسف. وَرَجُـلٌ نـادِمٌ سادِمٌ ونَدْمانُ سَدْمانُ، مهتم، وندمَ: تحسَّر، وفي الحديث: النَّدَمُ توبةٌ"[2].

(ندم) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (ندم) واشتقاقاته في القرآن الكريم سبع مرات)[3]، كلها بمعنى الأسف والتنـدم على ما فات، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْـرُ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿سبأ: 33﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾، أي: "أسرّ رؤساؤهم الندامة مـن سفلتهم الذين أضلوهم، حياء منهم وخوفا من توبيخهم. وقيل: أسـروها أخلـصوها، إمـا لأن إخفاءها إخلاصها، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة. وقيـل: أسـرّوا النّدامـة: أظهروها، من قولهم: أسرّ الشيء إذا أظهره. وأسرّوا الكلام بذلك بينهم وهـو مـن الأضـداد. وَقِيلَ: أَسَرُّوا النَّدَامَةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلَمْ يَجْهَرُوا القول بها، من حيث إنها تخفى ويضن بها. وقد صح

1التفكن: التندم على ما فات، انظر ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص704.

2 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص411، والجوهري، الصحاح تاج العربية، ج5، ص2040، ابن منظـور، اللسان، حرف الميم، فصل النون، عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص 2187.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 691.

أنّ النّدم توبة، وَالنَّدَامَةُ: النَّدَمُ، وَهُوَ أَسَفٌ يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ عَلَى تَفْوِيتِ شَيْءٍ مُمْكِنٍ عَمَلُهُ فِي الْمَاضِي، وَالنَّدَمُ مِنْ هَوَاجِسِ النَّفْسِ، فَهُوَ أَمْرٌ غَيْرُ ظَاهِرٍ وَلَكِنَّهُ كَثِيرٌ، وَيَصْدُرُ عَنْ صَاحِبِهِ قَوْلٌ أَوْ فِعْلٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَإِذَا تَجَلَّدَ صَاحِبُ النَّدَمِ فَلَمْ يُظْهِرْ قَوْلًا وَلَا فِعْلًا فَقَدْ أَسَرَّ النَّدَامَةَ، أَيْ قَصَرَهَا عَلَى سِرِّهِ فَلَمْ يُظْهِرْهَا بِإِظْهَارِ بَعْضِ آثَارِهَا، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ لِأَنَّهُمْ دُهِشُوا لِرُؤْيَةِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ فَلَمْ يُطِيقُوا صُرَاخًا وَلَا عَوِيلًا، فَحِينَئِذٍ أَيْقَنُوا بِالْخَيْبَةِ وَنَدِمُوا عَلَى مَا فَاتَ مِنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ أَسَرُّوا النَّدَامَةَ اسْتِبْقَاءً لِلطَّمَعِ فِي صَرْفِ ذَلِكَ عَنْهُمْ أَوِ اتِّقَاءً لِلْفَضِيحَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ"[1].

البعد البلاغي: قد يصعب تحليل لفظ (ندم) على أنه لفظ (قول) في الظاهر؛ لأنّه حديث نفس وتفكير داخلي، وتقريع للذات، ولكن يمكن ذلك إذا ما فهمناه على إنّه (قول) من الأقوال وإن كان الأصل فيه الخفاء، يبطنه النّادم في نفسه (محدثا) به ذاته، لأنه من الممكن أن يظهر الندم أحيانا، وذلك عندما يظهر بعض الأشخاص توبتهم، ورجوعهم عما اقترفوا، فهذا الرسول ﷺ يعلن أن الندم توبة، والتوبة تستلزم لفظا، وقولا، كما أنّه من الممكن لمن اقترف ذنبا وتراجع عنه نادما أن يعترف به، ويتوب إلى الله تعالى، ويدعوه المغفرة، أو يعترف به لأقرب الناس إليه، فأصبح الندم على هذا الأساس فن من فنون (القول). وها هم رؤساء الكفرة يخفون ندمهم وحسرتهم يوم القيامة عن أتباعهم الذين أضلوهم، ويريدون أن يظهروا تجلدهم أمامهم لكي لا يشمتوا فيهم، ولا أن يفتضح أمرهم، فقد أخفوا (قولهم) وبكاءهم وصراخهم وعويلهم، داخل أنفسهم؛ فأسرّوه. وبما أنّ (أسرّ) من الأضداد فقد يكون أنّ الكفرة أظهروا صراخهم وعويلهم

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 352، و ج3، ص 585، و ج4، ص 448، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص 304، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 116، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص 198، و ج22، ص 209.

وبكائهم ندما وتوبة عندما عاينوا العذاب. على كلا الحالتين فليس من الممكن استبدال لفظ (قال) بـــ (ندم) في هذا السياق على أساس أنّه لفظ بديل من ألفاظ القول، حيث أنّ لكل منهمـــا دلالات ومعاني تفهم من السياق لا يمكن للآخر أن يؤديها، فسبحان الله اللطيف الخبير بمراده.

وجاءت جملة: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ جملة خبرية، فعلية، تتحدث عمّا يجري لأصحاب النار يوم القيامة، حينما يقفون على مشهد العذاب عيانا.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿يونس: 54﴾.

التفسير: انظر تفسير الآية السابقة، في: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾.

البعد البلاغي: سواء أخفى الكفرة ندمهم أو أظهروه، ففي الحالين ما يشير إلـــى أنّ فـــي ندمهم (قولا) ما، فبالإخفاء يشير إلى أنهم قد أخفوا الحسرة والبكاء والعويل والصياح عن سفلتهم لكي لا يشمتوا بما حل بهم من العذاب يوم القيامة؛ وهذه ألفاظ (قول) لا يمكن أن يعبر بها لفظ (القول) نفسه في هذا السياق مع المحافظة على نفس المعاني، أما على تفسير(أسرّ) بمعنى أظهر فهناك أيضا ما يشير إلى أنّ في ندمهم (قولا) ما أظهروه، ذلك حينما ظهرت علـــى وجـــوههم علامات الحسرة والنّدامة والحزن معلنين توبتهم، حينما لا ينفع الندم، أو بأنهم أخذوا يتراجعون في القول، كل يوجه اللوم على من أغواه، أو بإظهار الألم الشديد والصراخ والبكاء والعويـــل، كل هذه الألفاظ متضمنة لمعنى (القول)، أو تشير إليه، ليس من الممكن استبدالها بلفظ (قال) بحد ذاته، أو بأحد مشتقاته ووضعها في السياق نفسه على إنها ألفاظ قول بديلة، فهي حتما لن تؤدي المعاني التي أداها النص القرآني بالتعبير الإلهي بـــ ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾، لما يشير إلى قول خفي متضمنا الحزن والأسى والحسرة والندم على ما فات، لا يمكن للفظ (قال) أن يستوعبها ليؤديها.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ جملة خبرية، فعلية، حقيقية تتحدث عن الإجراء النفسي الذي يسلكه رؤساء المشركين وقادتهم من ضعفائهم وسفلتهم مخافة فضيحتهم وتعييرهم حينما أبصرُوا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم.

وبهذا يكون المبحث الخامس؛ ألفاظ القول الدالة على (النداء) بجزئيه قد انتهى - بفضل الله وتوفيقه...؛؛؛

•••••

المبحث السادس

ألفاظ القول "الدالة على ما يتعلق بالحكم، والقضاء" وبيان معانيها وأساليبها البلاغية

سأتناول في هذا المبحث ألفاظ القول (الدالة على ما يتعلق بالحكم، والقضاء) وأبيّن معانيها اللغوية، ثمّ البحث عن مواطنها في القرآن الكريم ودلالاتها في السياقات التي وردت فيها، لمعرفة مقاصدها ومدى توافقها تحت هذا المبحث، ثم الكشف عن أساليبها البلاغية من المصادر المختصة، وعدد ورود كل لفظ في القرآن الكريم. وعدد هذه الألفاظ سبعة، هي: (حكم، شهد، فتي، فرض، فصل، قضي، كتب).

*****

(1)- (حكم) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: "(حَكَمَ) الْحَاءُ وَالْكَافُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْمَنْعُ. وَأَوَّلُ ذَلِكَ الْحُكْمُ، وَهُوَ الْمَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ. حَكَمْتُ السَّفِيهَ وَأَحْكَمْتُهُ، إِذَا أَخَذْتَ عَلَى يَدَيْهِ، وأحكم الشيء فاستحكم"[1]، وجاء في اللسان أنّ: "الحُكْمُ القَضاء بالعدل، وَجَمْعُهُ أَحْكامٌ، وَقَدْ حَكَمَ عَلَيْهِ بالأَمر يَحكُمُ حُكْماً وحُكومةً وَحَكَمَ بَيْنَهُمْ. والحُكْمُ: مَصْدَرُ حَكَمَ بَيْنَهُمْ يَحكُمُ أَيْ قَضَى، وحَكَمَ لَهُ وَحَكَمَ عَلَيْهِ"[2].

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص91، ومجمل اللغة، ج1، ص246، الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، ص 206.

2 ابن منظور، اللسان، حرف الميم فصل الحاء المهملة.

(حكم) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (حكم) واشتقاقاته في القرآن الكريم مائتين واثنتي عشرة مرة)[1]، كلها بمعنى المنع والإحكام، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿البقرة: 113﴾.

ذكر المفسرون في معنى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: "يبيّن لهم الصواب فيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، وينصف المظلوم من الظالم، ويعرف المكذب من المكذَّب، فيقضي الله بين هؤلاء المختلفين، ويريهم من يدخل الجنة عياناً ومن يدخل النار عياناً" [2].

البعد البلاغي: الحكم بين الفرقاء يتطلب أسلوب قضاء عادل وقوي في الوقت نفسه؛ فكيف إذا كان ذلك يوم القيامة؟ والفرقاء هم من هم آنذاك؟ فإن هذا الحكم يتطلب لفظا ونطقا جامعا مانعا؛ كي يسمعه المعني به؛ فجاء لفظ (يحكم) ليدل على ذلك (قولا) وفعلا، حيث يحمل في حروفه ذاتها (القول) متضمنا نوعية القضاء، والفصل الذي لا يدع مجالا للشك في الحاكم؛ ولا في الحكم الذي دل عليه اللفظ، لذا جاء التعبير القرآني باللفظ الأكثر مناسبة للسياق على الإطلاق، في حين لا يستقيم النص لو حاولنا استبداله بلفظ آخر مثل لفظ (قال) لنسمع هذا الجزم والقطع في الحكم والبت فيه، فجاء لفظ (حكم) شافيا كافيا في هذا النص.

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 212- 215.

2 الطبري، جامع البيان، ج2، ص 518، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 85، الأصفهاني، تفسير الراغب، ج1، ص 296، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج2، ص 566.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ جملة خبرية اسمية، اســتئنافية بيانية.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيــهِ غَــنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿الأنبياء: 78﴾.

جاء في تفسير: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أي: "كنا لما حكما شاهدين، لم يغب عنَّا حكمهمَا جَمِيعًا، وَكَانَ بعلمنا ومرامنا. وقد كان حكمهما ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ رأيا وقولا في القضية التي عرضت عليهما في شأن الغنم والحرث، وقد اجتهدا في الفصل في هذه القضية، وأن الاجتهــاد يعني تعدد الصواب في القضية. فالصواب الذي فــي علــم الله واحــد لا يختلــف بــاختلاف الاجتهاد"[1]، يقول تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أي: "كنا لما حكما شاهدين، وذلك أن رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحــرث: إنّ هــذا أرسل غنمه في حرثي، فلم يُبق من حرثي شيئا، فقال له داود: اذهب فإن الغنم كلها لك، فقضى بذلك داود. ومرّ صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان علــى داود فقال يا نبيّ الله إنّ القضاء سوى الذي قضيت، فقال: كيف؟ قال سليمان: إنّ الحرث لا يخفــى على صاحبه ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادهــا وأصــوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نسل في كلّ عام، فقال داود: قــد أصــبت، القضاء كما قضيت، فذلك قوله ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي: ففهّمها الله سليمان"[2].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 476، السمعاني، تفسير القرآن، ج3، ص 394، عــزت، محمــد دروزة، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، 1383هـ، ج5، ص 279.

2 الطبري، جامع البيان،ج 18، ص 474- 476.

البعد البلاغي: يتبين من مجريات الحكم في كتب التفسير أنّ كلا من سيدنا داوود وسيدنا سليمان – عليهما السلام– قد اجتهدا في حكميهما بين صاحب الغنم وصاحب الـزرع؛ فلـولا نطقهما بالحكم ما عرفنا ما اجتهدا فيه من قضاء، ولولا نطقهما ما عرفنا الفرق بين حكميهمـا، ولولا ذلك أيضا ما عرفنا من الذي كان حكمه الأكثر صوابا – بإلهام المولى ﷻ– كل ذلك أشار إليه لفظ (حكمهما) الذي عبر عن (القول) متضمنا القضاء، بحيث لا يمكن بحال من الأحوال أن يعبر لفظ (قال) أو أحد مشتقاته عن المراد؛ كونه أصل الأبواب في الأقوال؛ علما أنّ حكمها هذا لم يتعد (القول) – أما التنفيذ فعلى طرفي النزاع– ومن حيث البلاغة المعنوية: (فقد جاءت الآية أنموذجا من نماذج البدائع المعنوية المتجانسة، وهو ما يسمى الجمع مع التفريق، ويكـون ذلـك على النحو التالي: أن تكون وحدات المعنى الكُلّي الذي دلّ عليه المتكلم بعبارة ما، تجتمـع فـي حكم وتفترق في حكم آخر، ثم يُلمح هذا الحكم فيستخدم في التعبير الأدبي البليغ، فيأتي التعبيـر الأدبي البديع دالاً به على حُصُول الاجتماع من جهة الحكم الجامع، وحصول الافتراق من جهة الحكم المختلف. ففي هذا النّص تسويةٌ بين داود وسُليمان بأنّ الله آتاهما حُكْماً وعلماً، وتفـضيلٌ لسليمان في تفهيمه الحكم الأكثر تحقيقاً للعدل في القضيّة الّتي جاء بيانها في النّصّ وقضى فيها داود بقضاء استدرك عليه فيه ابنُه سليمان وكان صغير السّنّ"[1]، و "الجمع مع التفريق، وهـو: أن يجمع المتكلم بين شيئين في حكم واحد، ثم يفرقُ بين جهتي إدخالهما، أو يفـرق فـي وجـه الشبه"[2].

وجاءت الجملة: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ جملة خبرية اسـمية، مؤكـدة بالظرف (إذْ) الذي يؤكد زمن وقوعها، وجاء بين اللفظين: (يَحكُمَانِ) (لِحُكْمِهِمْ) جناس اشتقاق.

---

1 حبنكة، حسن، البلاغة العربية،ج2، ص 420.

2 المؤيد بالله، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطراز لأسرار البلاغة، ج3، ص 78.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ ﴿غافر: 48﴾.

التفسير: ذكر المفسرون في معنى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، أي: "فصل بقضائه، فقضى بين العباد، وفصل بينهم بأن أدخل أهل الجنّة الجنة وأهل النّار النار"[1]، وقضاءه يكون بحكمه وأمره وقوله.

البعد البلاغي: المقصود أنّ الله ﷻ قد حكم (بقول) وقضاء بين العباد يوم القيامة كل حسب ما قدم من عمل؛ ولولا أن بين ﷻ الحكم والفصل بينهم (بقول) قاطع، يحمل معنى القضاء لما كان هناك ضرورة بتمييزه بهذا اللفظ الدال، الذي تميز لفظه ليتميز معناه، علما أن حكم الله ﷻ إذا أراد شيئا ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿البقرة: 117﴾ وبناء عليه فإن حكم الله الذي حكم به بين العباد هو (قول) متضمنا قرارا لا خلاف فيه ولا حيف، ولا يمكن استبداله بأي لفظ آخر على نية الحصول على المعنى نفسه؛ حتى لو افترضنا لفظ (قال) في هذا السياق القرآني على أساس أنّ (قال) أصل الأبواب.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ جملة خبرية اسمية، والخبر فيها إنكاري لوجود أكثر من أداة من أدوات التوكيد؛ مثل (إنّ) المشددة، وحرف التحقيق: (قد)، لتفيد البت في الحكم، والإنتهاء منه.

*****

---

1 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 399، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 209، السمعاني، تفسير القرآن، ج5، ص 25، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 171.

(2)- (شهد) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "(شَهَدَ): الشِّينُ وَالْهَاءُ وَالدَّالُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ، لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ فُرُوعِهِ. مِنْ ذَلِكَ الشَّهَادَةُ، يَجْمَعُ الْأُصُولَ السابقة مِنَ الْحُضُورِ، وَالْعِلْمِ، وَالْإِعْلَامِ"[1]، "فالشَهادة: خبَرٌ قاطع. تقول منه: شَهِد الرجل على كذا، وأشْهَد بكذا، أي أحلف"[2]، وجاء في مجمل اللغة: "الشهادة: الإخبار بما قد شوهد"[3]، كما جاء في اللّسان أنّ: "شهد: مِنْ أَسماء اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: والشَّهِيدُ من أَسماء اللَّهِ الأَمين فِي شَهَادَتِه. وَقِيلَ الشهيدُ الَّذِي لَا يَغيب عَنْ عِلْمه شَيْءٌ، وَقَدْ يُعْتَبَرُ مَعَ هَذَا أَن يَشْهَدَ عَلَى الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. والشَّاهِدُ العالم الذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَهُ، شَهِدَ شَهَادَةً؛ وَرَجُلٌ شاهِد واستَشْهَدَه: سأَله الشَّهادَةَ، والتَّشَهُّد فِي الصَّلَاةِ: مَعْرُوفٌ"[4].

(شهد) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (شَهد) ومشتقاته في القرآن الكريم مائة وخمساً وستين مرة)[5]، كلها تدلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿النساء: 41﴾.

التفسير: ذكر المفسرون في معنى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾: أي: "فكيف يكون حالهم إذا جئنا من كل أمة بشهيد يشهد على أعمالهم، ويشهد على صدقهم من عدمه؛ إذْ يُؤتَى

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص221.

2 الجوهري، الصحاح تاج العربية، ج2، ص494، الرازي، مختار الصحاح، ص169.

3 ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص514، باب الشين والهاء وما يثلثهما.

4 ابن منظور، اللسان، حرف الدال المهملة، فصل الشين المعجمة، ج3، ص238.

5 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 388- 390.

بِالْأَنْبِيَاءِ شُهَدَاءَ عَلَى أُمَمِهِمْ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَيُؤْتَى بِهِ ﷺ يوم القيامة شهيدا. فَكَيْفَ يَكُـونُ حَالُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1]. و يقول الزمخشري: "وروي أنّ الأمم يوم القيامـة يجحـدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبيّنة على أنهم قد بلغوا -وهو أعلم- فيؤتى بأمة محمـد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق علـى لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم، وذلك قولـه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿النساء: 41﴾. وقيل: المعنى: لتكونوا شهداءَ على الناس في الدنيا بما لا يصلح إلا بشهادة العدول الأخيار: ﴿وَيَكُـونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يزكيكم ويعلم بعدالتكم"[2].

البعد البلاغي: يختار الله ﷻ أنبياء الأمم ليكونوا شهداء على أقوامهم يوم القيامة؛ لأنهم حاضرين على أعمالهم، معاينون لما يقوم به أفراد تلك الأمة، وشهادته تلك لا بد من أن تكـون نطقا ملفوظا، و (قولا) مسموعا لمواجهة من يحاول إنكار الشائن منها، وشهادتهم تلك تدل على الْحُضُورِ، وَالْعِلْمِ لما يُستشهد عليه، ثم الْإِعْلَامِ والإخبار بما قد شاهد بخبر قاطع (صادق) حينما يطلب لذلك، وليس هناك أصدق من شهادة الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، ثم تلك التي تليها شهادة سيدنا محمد ﷺ تصدقُ عليها.

فالشهادة إذن– بحسب التفاسير– كلام؛ يحمل معاني أخرى غير التي نعهدها من أي كـلام؛ مما استدعى وجود لفظ يحمل تلك المعاني والدلالات ويشير إليها كلها؛ فكان لفظ (الشّهيد) الذي يؤكد على معنى (القول)، مصاحبا لنزاهة القائل، مؤكدا على قطعية الشهادة وصـدقها. وهـذا

---

1 الطبري، جامع البيان، ج8، ص 368–369، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج2، ص 1330،القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص 198، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص 75.

2 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة2، المعاني، كود المادة: 4103 Iarb المرحلة: بكالوريوس، جامعـة المدينة العالمية، ج1.

بدوره يؤكد على دحض دعوى الترادف في القرآن الكريم عند المروجين لها، حيث أنّ كل لفظ جديد يحمل معنى جديدا؛ وليس هناك تكرار ممجوج في القرآن الكريم. وفي الآية أسلوب بلاغي هو: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿البقرة: 143﴾. إنّ: الجار والمجرور قد أُخّر على شبه الفعل في قوله: ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وقدم عليه في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؛ وذلك، لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم دون إفادة اختصاصهم بتلك الشهادة، وفي الثاني المراد إفادة اختصاصهم بكون الرسول ﷺ شهيدًا عليهم وليس مجرد إثبات شهادتهم."[1]، وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ جملة إنشائية استفهامية، تستفهم عن حال المكذبين وموقفهم يوم القيامة كيف سيكون عندما تدحض أكاذيبهم، وأباطيلهم، والسؤال فيها استنكاري، والجواب عن السؤال الاستنكاري معروف! "وجاءت العلاقة بين لفظ (بِشَهِيدٍ) ولفظ (شَهِيدًا) من نوع: "جناس الاشتقاق"[2].

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿يوسف: 26﴾.

التفسير: جاء في معنى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾، أي: "تكلم شاهد يوسف في المهد، وقيل: هو صبي في المهد"[3]، "وقد سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة لما أدّى مؤدّي الشهادة فثبت به قول يوسف عليه السلام وبطل قول امرأة العزيز سمي شهادة لأنها قول من القول، أو

---

1 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة2،ج1.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 394.

3 الطبري، جامع البيان، ج16، ص 54.

على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهد فقال إن كان قميصه"[1]، وقد أضاف الجوزي: "وأنه لما تعارض قولاهما، احتاجا إلى شاهد يُعلَم به قول الصادق"[2].

البعد البلاغي: أبدأ من حيث انتهى الجوزي؛ حيث وضح في جملته التفسيرية دور الشاهد وصفته؛ فالدور أن يقول (قولا) بناء على ما رأى، ثم يؤكد أنّ صفة هذا الشاهد هي الصدق؛ ولولا ذلك ما احتيج إليه، فكانت شهادته فاصلة، عندما اختلطت الحجج، وتضاربت الأقوال! ولهذه المرتكزات أطلق عليه شاهدا، علما أنّ دوره هو الإدلاء (بقول)، فجاء التعبير باللفظ الذي لا يستقيم غيره في هذا السياق.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ جملة خبرية فعلية تشير إلى حصول هذا الموقف، وتؤكد عليه بأسلوب الاشتقاق. وأصبحت هذه الجملة تجري مجرى المثل. ومن البديع؛ "فقد جاءت العلاقة بين لفظ (شهد) ولفظ (شاهد) من نوع جناس الاشتقاق"[3]. وأفاد هذا الجناس صدق الشاهد، وصدق ما جاء به، وقد تكون العلاقة بينهما أنّ لفظ (شهد) يشير إلى الشهادة القولية المقصودة، ويشير لفظ (شاهد) إلى الرؤيا البصرية، التي عاينها هذا الشاهد، ووقف عليها حقيقة مادية، عيانية.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿النور: 24﴾.

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 460.

2 الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت- 1422 هـ، ج2، ص 432.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 403.

التفسير: جاء في تفسير هذه الآية: "يَوْمَ تَشْهَدُ أَلْسِنَةُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الْقَذْفِ وَالْبُهْتَانِ، وتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وتَتَكَلَّمُ الْجَوَارِحُ بما عملوا في الدنيا، ويعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهور آثاره عليها وفي ذلك مزيد تهويل للعذاب"[1].

البعد البلاغي: يتبين من التفسير أنّ الجوارح كلها – وليس اللسان حسب– سوف تتكلم يوم القيامة وتشهد على أصحابها، وما الهدف من إنطاقها إلا إقامة الحجة عليهم؛ لأنهم لا يستطيعون تكذيبها ساعتئذ؛ ذلك أنّ تخويلها للشهادة دون اختيارهم ما هو إلا دليل على صدقها، ومجال صدقها الذي رشحت له هي: (الأقوال)؟ ومع هذا لم يأت التعبير القرآني بلفظ (تقول) – مثلا على أنه لفظ قول– في النّص للتعبير عن دورها؛ لأنّ المقصود ليس هو القول حسب؛ فمن الممكن أن يقول أي شخص أي قول...، و لكن المقصود هو القول مقترنا بالحجة، وصدق القائل، وصدق المقول؛ فجاء لفظ (تشهد).

وجاءت الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأسلوب الجملة الخبرية، المؤكدة بالظرف (يَوْمَ) للأهمية بتحديد زمن وقوعها.

*****

(3)– (فتي) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: "فَتَى: الْفَاءُ وَالتَّاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى طَرَاوَةٍ وَجِدَّةٍ، وَالْآخَرُ عَلَى تَبْيِينِ حُكْمٍ، الْفَتِيُّ: الطَّرِيُّ مِنَ الْإِبِلِ، وَالْفَتَى مِنَ النَّاسِ: وَاحِدُ الْفِتْيَانِ. وَالْفَتَاءُ: الشَّبَابُ، يُقَالُ فَتًى بَيِّنُ الْفَتَاءِ. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ الْفُتْيَا. يُقَالُ: أَفْتَى

1 الجوزي، زاد المسير، ج3، ص 287، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص 210، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 103.

الْفَقِيهُ فِي الْمَسْأَلَةِ، إِذَا بَيَّنَ حُكْمَهَا. وَاسْتَفْتَيْتُ، إِذَا سَأَلْتَ عَنِ الْحُكْمِ، وَيُقَالُ مِنْهُ فَتْوَى وَفُتْيَا"[1]، وجاء في الصحاح: "تَفَاتَوْا إِلَيْهِ ارْتَفَعُوا إِلَيْهِ فِي الْفُتْيَا"[2]، وأضاف ابن منظور: "أفتاه في الأمر: أبانه له. وأفتى الرجل في المسألة واستفتيته فيها فأفتاني إفتاء، وأفتيته في مسألته إذا أجبته عنها. والاسم الفتوى؛ أي التحاكم، الفتيا تبيين المشكل من الأحكام وقوله عز وجل: يستفتونك قل الله يفتيكم: أي يسألونك سؤال تعلم"[3]، والعلاقة الرابطة بين الأصل الأول والأصل الثاني أنّ: "الفتي وهو الشاب الحدث الذي شب وقوي، فكأنما المستفتي يقوي ما أشكل ببيانه فيشب ويصير فتيا قويا"[4].

(فتي) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (فتي) واشتقاقاته في القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة)[5]، عشرة منها ما يَدُلُّ عَلَى طَرَاوَةٍ وَجِدَّةٍ، وَالْأُخَرُ عَلَى تَبْيِينِ حُكْمٍ، مثل:

(1)– قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ ﴿النساء: 127﴾.

جاء في معنى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾، أي: "يطلبون منك الفتيا، فيما أشكل في شأنهن، وبيان ما غمض من الأحكام الخاصة بهن من جهة حقوقهن المالية والزوجية، كالعدل

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص473.

2 الرازي، مختار الصحاح، ص234.

3 ابن منظور، اللسان، حرف الألف، فصل الفاء.

4 ابن منظور، اللسان، حرف الألف، فصل الفاء.

5 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 512.

في المعاملة حين العشرة، وحين الفرقة والنشوز، والاستفتاء: طلب السائل من المسئول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسئول عنه. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ أي: يبين لكم ما أشكل عليكم. فتولى الله هذه الفتوى بنفسه؛ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع الشئون، والقيام بحقوقهن وترك ظلمهن"[1].

البعد البلاغي: لم يكن الاستفتاء، وطلب المعرفة والحكم لأي أمر من الأمور ليتم دون (قول) وكلام لتمام بيانه وتوضيحه؛ ولبلاغة التعبير القرآني، واستخدام اللفظ الدال الموجز المعبر جاء لفظ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾، لأكثر من دلالة؛ حيث يشير إلى وجود أمر مبهم، ومستفهم عنه مستفسر، وعالم بما أشكل من هذا الأمر، دالًا على الخروج منه، أو التعامل مع هذه المشكلة، ثم وجود حلقة وصل رابطة بين هذه العناصر الثلاثة، للخروج من إشكالية الموقف؛ وهي السؤال الذي يتطلب (القول) والجواب الذي يتطلب ردا، ولاختصار كل هذا التفسير والتحليل، جاء التعبير القرآني باللفظ الذي يحمل هذه المعاني والدلالات، بحيث لا يمكن أن يستبدل به لفظ آخر، مثل لفظ (قال) أو أي من تصريفاته، علما أنّ كليهما لفظ (قول) ولكن لكل واحد منهما دلالاته واستخداماته لا يمكن وضع أحدها مكان الآخر. وأرى أنّ من دلالات اللفظ أنها تحمل السؤال الذي يحتاج جوابا شرعيا من المنطلق الديني (الإسلامي) وهذا مركوز في الطبع، ومعروف في الفكر الإسلامي؛ بحيث لو توجهت بهذا السؤال لأي شخص كان وقلت له: "أفتني" فلا يتبادر إلى الذهن إلّا أنّه يريد جوابا حسب رأي الإسلام وحكمه، وهذا في الأعمّ الأغلب.

---

1 السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص 206، المراغي، تفسير المراغي، ج5، ص 170، القطان، إبراهيم، المتوفى (1404هـ) ، تيسير التفسير، ج1، ص 346، نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- السعودية، ط2-1430هـ -2009م، ج1، ص 98.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ جملة إنشائية، خبرية فعلية، تشير إلى وقوع هذا الإجراء حقيقة، وأنهم سوف يستفتون حينما يواجهون ما يشكل عليهم؛ فإذا ما سألوا – وهو واقع لا محالة– فأجبهم بهذا الجواب الرباني، والخطاب موجه إلى سيدنا محمد ﷺ.

وجاء بين (وَيَسْتَفْتُونَكَ) و (يُفْتِيكُمْ) جناس اشتقاق، وأفادت هذه العلاقة على أنّ الجواب جاء من جنس السؤال؛ فهم سألوا سؤال يحتاج حكما شرعيا في بيانه، وتَبْيِينِ حُكْمٍ فجاء الجواب أن أفتهم في المسألة، وأجبهم عنها فجاء الجواب بالفتيا حسب مقتضيات الشرع الإلهي.

(2)– وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يوسف: 46﴾.

التفسير: جاء في التفسير أن القوم طلبوا من يوسف عليه السلام "الِاسْتِفْتَاءُ: وهو طَلَبُ الْفَتْوَى فِي إِخْبَارٌ عَنْ أَمْرٍ خفي عَنْ غَيْرِ الْخَوَاصِّ فِي غَرَضٍ مَا وعِلْمٍ مُخْتَصٌّ بِهِ الْمُخْبِرُ، وعندما وصل الرجل إلى يوسف قال له: "يوسف أيها الصديق فسِّر لنا رؤيا مَن رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات هزيلات، ورأى سبع سنبلات خضر وأخر يابسات; لعلي أرجع إلى الملك وأصحابه فأخبرهم; ليعلموا تأويل ما سألتك عنه، وليعلموا مكانتك وفضلك"[1].

البعد البلاغي: طلب الرجل الفتيا من يوسف عليه السلام وهو يريد منه (قولا) واضحا بينًا يحل اللّغز الذي رمى به الملك على حاشيته، ولكن طلبه لا يقتصر على القول مجردا؛ بل طلب معه بيان ما أغلق عليه فهمه ومعرفة مغزاه، فطلب ذلك بلفظ دالّ على مبتغاه فقال (أَفْتِنَا) لأن الفتيا لا يستطيعها إلا رجل مختص، وله الجرأة عليها، وباع في العلم والقدرة على التأويل، ولم يكن

---

1 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص 282، نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ج1، ص 241، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج23، ص 94.

أحد أقدر من يوسف عليه السلام على ذلك بما آتاه الله به من علم، وعلمه من تأويل الأحاديث، ولقد لمس منه الرجل التقوى في صحبة السجن؛ وهذا ما دعاه لأن يستفتيه، فكان هو المقصود ...

وعودا على بدء؛ فإن التأويل يتطلب (قولا) ومع ذلك لم يأت التعبير القرآني بلفظ (قال) في هذا النص القرآني ؛ ذلك لأن الملك لا يريد من يقول له أي قول، فالأقوال كثيرة، والقالة أكثر، ولكنّه يريد من يخرجه من حيرته والعبور به من حالة المنام والخيالات إلى حالة اليقظة، فلم يكن ليجد لفظا أبلغ من لفظ (أفتنا) ولا أوجز منه، مع ما يحيط به من عناصر تكمل دائرته.

وجاءت الجملة القرآنية: (أَفْتِنَا) جملة إنشائية، طلبية، بصيغة الأمر الذي خرج عن دلالته الأصلية إلى الدلالة على "أنّ المستَفْهِمَ جاهلٌ يطلبُ الفهمَ"[1]. أو الأمر الدّال على "المشورة"[2].

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ﴿الكهف: 22﴾.

جاء في تفسير: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ أي: "لا تسأل في عدّة الفتية من أصحاب الكهف من أهل الكتاب أحدا، لأنهم لا يعلمون عدتهم، وإنما يقولون فيهم رجما بالغيب، لا يقينا من القول. ولا تطْلَبُ الْفَتْوَى، وَهِيَ الْخَبَرُ عَنْ أَمْرٍ عِلْمِيٍّ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ كُلُّ أَحَدٍ. وَالْمُرَادُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ اسْتِفْتَائِهِمْ

---

1 حبنكة، البلاغة العربية، ص 167.

2 حبنكة، البلاغة العربية، ص 238.

الْكِنَايَةُ عَنْ جَهْلِهِمْ بِأَمْرِ أَهْلِ الْكَهْفِ أَوْ يَكُونُ كِنَايَةً رَمْزِيَّةً عَنْ حُصُولِ علم النبي ﷺ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ بِحَيْثُ هُوَ غَنِيٌّ عَنِ اسْتِفْتَاءِ أَحَدٍ"[1].

البعد البلاغي: طلب الفتيا يعني أننا ننتظر ردا بـ(القول) عن أمر أغلق فهمه واستعصى بيانه؛ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وهذا (القول) يتضمن إجابة عن هذا الأمر المبهم، فجاء التعبير القرآني بلفظ يحمل معنى (القول) مشفوعا بطلب البيان، ولم يأت التعبير بلفظ (قال) لأنها لا تفي بالمطلوب، ولا تحقق الدقة المرجوة منه، فجاء التعبير بالجملة الإنشائية (تَسْتَفْتِ) مسبوقا بأداة النهي و(لا)، "وَالْمُرَادُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ اسْتِفْتَائِهِمِ الْكِنَايَةُ عَنْ جَهْلِهِمْ بِأَمْرِ أَهْلِ الْكَهْفِ أَوْ يَكُونُ كِنَايَةً رَمْزِيَّةً عَنْ حُصُولِ علم النبي ﷺ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ بِحَيْثُ هُوَ غَنِيٌّ عَنِ اسْتِفْتَاءِ أَحَدٍ"[2]. وجاءت الجملة بالصيغة الإنشائية موافقة للحدث الذي أُنشِئَ وقت النطق بها، النهي عن القيام بذلك الإجراء.

*****

(4)- (فرض) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "(فَرَضَ) الْفَاءُ وَالرَّاءُ وَالضَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى اقْتِطَاعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ وَمِنَ الْبَابِ اشْتِقَاقُ الْفَرْضِ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ لَهُ مَعَالِمَ وَحُدُودًا"[3]، "والفَرْضُ: الإيجابُ، تَفرِضُ على نفسِكَ فَرْضاً، والفَرِيضةُ الاسمُ، والفارِضُ في قوله تعالى: ﴿لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ﴾ ﴿البقرة: 68﴾ أي لا مُسِنَّة، ولَا صَغيرَةً،

---

1 الطبري، جامع البيان، ج17، ص 643، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 343، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص 294، العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، المتوفى 1421هـ، تفسير العثيمين، سورة الكهف، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1-1423هـ ،ج1، ص 44.

2 الطبري، جامع البيان، ج17، ص 643، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 343، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص 294، العثيمين، تفسير العثيمين، سورة الكهف،ج1، ص 44.

3 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص488- 489، الجوهري، الصحاح تاج اللغة.

وفَرائضُ اللهِ: حدوده التي أمر بها ونهى عنها، وقوله تعالى: ﴿لأَتَّخِذَنَّ من عِبادك نصيباً مَفْروضاً﴾ ﴿النساء: 118﴾ أي مُقْتَطَعاً محدوداً"[1].

(فرض) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (فرض) واشتقاقاته في القرآن الكريم سبع عشرة مرة)[2]، كلها بمعنى ما أوجب الله من فرائض وحدود، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ ﴿النساء: 7﴾.

التفسير: جاء في عدد من كتب التفسير: "أنّ الفرض ما فرضه الله تعالى وهو آكد من الواجب، و ﴿نَصيباً مَفْرُوضاً﴾ يعني: نصيبا معلوما محددا، وحصة مفروضة، واجبةً معلومة مؤقتة، وحظاً معلوماً ومقطوعا به لكل واحد من الميراث واجبا، لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ أَنْ يَحُوزُوهُ. ولا يستأثر به أحد. فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ، كَأَنَّهُ قِسْمَةٌ مَفْرُوضَةٌ"[3].

البعد البلاغي: لم تكن حدود الله وشرائعه وفروضه معروفة محددة لولا قوله ﷺ، وقوله هو ما أنزله في كتابه، وبين فيه أوامره ونواهيه، ومن ضمن فرائضه التي فرضها على الناس، وأوجبها عليهم نصيب كل وارث من المواريث، في آيات بينات، وجاء التعبير القرآني بلفظ (مَفْرُوضًا) إشارة إلى (القول) متضمنا بيان الحدّ المجتزأ المقطوع به، والمحدد لكل وارث، مع الجزم والقطع والتأكيد على عدم التهاون في إقامة تلك الحدود، وهي المقصودة بـــ(الفروض).

---

1 الفراهيدي، العين، ج7، ص29، الجوهري، الصحاح تاج اللغة، ج3، ص 1097، ابن منظور، اللسان، حرف الضاد المعجمة، فصل الفاء.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 515.

3 الطبري، جامع البيـــان، ج7، ص 597، و ج9، ص 212، الـــسمرقندي، بحـــر العلـــوم، ج1، ص 283، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 476، الخازن، لباب التأويل، ج1، ص 344، أبو حيان الأندلـــسي، البحـــر المحيط، ج3، ص 525.

ولم يأت التعبير بلفظ (قال) لأنها لا تف بالمطلوب ولا تبين مدى هذا الاقتطاع، وقيمته، وفرضيته، ومدى وجوبية العمل به كأمر لا يتهاون في تطبيقه.

وجاءت الآية الكريمة: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ بصيغة الجملة الخبرية، الاسمية، التي تحمل حكما ثابتا، لم ينشئ بناء على موقف، أو ظرف، بل هو واجب التنفيذ في الأحوال كلها.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿النور: 1﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿وَفَرَّضْنَاهَا﴾، أي: "بينّا فيها الأمر بالحلال، والنّهي عن الحرام، وفَصَّلْنَاهَا، وقيل أصل الفريضة الوجوب، والإلزام، والحتمية، أي فرضنا أحكامها التي فيها، وجعلناها واجبة مقطوعا بوجوب الأحكام التي فيها عليكم وعلى من بعدكم، وألزمناكم العمل بها؛ وقدرنا ما فيها من الحدود، والشهادات، لأن المشرّع قالها وحكم بها وقدّرها"[1].

البعد البلاغي: ربط المولى ﷻ نزول هذه السورة وبين فرضية ما جاء فيها من أحكام وشرائع، وفرضية تطبيق ما جاء فيها من أوامر، وتجنب ما نهى عنه، ومن المعلوم أنّ أوامر الله ﷻ، ونواهيه هي أقوال وأحكام؛ ولتمييز هذه الأقوال عن غيرها من الأقوال، وتمييز ما تحمل من دلالات ومعان، وبيان درجة وجوبية العمل بما جاء فيها فقد استوجبت لفظا يعبر عن المقصود؛ فجاء لفظ: (وَفَرَضْنَاهَا) ليبين قيمة تلك الحدود التي تحملها هذه السورة كاملة، دالّا

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 86، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 494، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 208، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص 158، الخازن، لباب التأويل، ج3، ص 279، السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص 561، الشعراوي، الخواطر، ج16، ص 10192، و ج18، ص 11039.

على معنى (القول) وفرضيته، لأنّ لفظ (قال) وحده لن يف بالغرض المحدد لو جاء بديلا عن (فرض) في السياق، ولم يكن ليبين أهميته.

وقد جاءت البلاغة في البراعة في استهلال السورة، وحسن مطلعها، بجملة خبرية اسمية، بقوله: "سُورَةٌ"، تقريرية: يقينية مؤكدة لا تقبل الشك: "أَنْزَلْنَاهَا"، ومفسرة بجملة ثانية تعليلية، توضيحية: "وَفَرَضْنَاهَا".

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿القصص: 85﴾.

التفسير: جاء في معنى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي: "إنّ الذي أنزل عليك يا محمد القرآن، والذي أعطاك إياه فرض عليك العمل بما فيه من أحكام وفرائض، وأوجب عليك تلاوته وتبليغه، وبيّن فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لجميع المكلفين"[1].

البعد البلاغي: (فرض) لفظ يحمل معنى (القول)، مضافا إليه وجوبية التطبيق، والتلاوة والتبليغ؛ وحتمية العمل، والالتزام بما جاء فيما فرض الله في كتابه العزيز، لذا لم يكن كافيا أن يحل مكانه في النص لفظ (قال) على إنه لفظ (قول)؛ لأنه لا يشير إلى كل ما أشار إليه اللفظ الموجود (فرض)، الذي يحمل خبرا قطعي الثبوت والدلالة، فالفرض الذي فيه لم يكن بسبب موقف عرضي ما؛ ففرضية القرآن وقراءته وتلاوته، والتصديق بما جاء به أمر لا ينتهي بانتهاء جيل، ولا هو لفئة دون أخرى؛ وإن كان الخطاب فيه موجها إلى سيدنا محمد ﷺ على وجه الخصوص، وجاءت الجملة القرآنية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 638، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج8، ص 5585، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 436، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج7، ص 28، الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص 6، و ص 217، السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص 625.

جملة خبرية اسمية، مؤكدة تأكيدا إنكاريا، لوجود غير أداة من أدوات التوكيد فيها، فجاء حرف التوكيد: (إنّ)، ثم لام القسم الداخلة على الفعل (رادك) تؤكد أنّ الذي نزل عليك القرآن هو من سيبعثك يوم القيامة، قولا واحدا.

*****

(5)- (فصل) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: (فصل) ما يلي: "الْفَاءُ وَالصَّادُ وَاللَّامُ كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَمْيِيزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وَإِبَانَتِهِ عَنْهُ. وَالْفَيْصَلُ: الْحَاكِمُ. وَالْمِفْصَلُ: اللِّسَانُ، لِأَنَّ بِهِ تُفْصَلُ الْأُمُورُ وَتُمَيَّزُ"[1]، واتفق الفراهيدي وابن سيده على أنّ: "الفَصْل هو: القَضاء بين الحقِّ والباطل، واسمُ ذلكَ القضاءِ فَيصَلٌ. وحُكْمٌ فاصِل، وقولٌ فَصْلٌ حقٌ ليس بباطلٍ، وقد فَصَلَ الحُكْمُ وحُكْمٌ فاصِلٌ وفَيْصَلٌ ماضٍ وحكومة فَيْصَلٌ كذلك"[2]، وأضاف صاحب اللسان أنّ: "الفاصل صفة من صفات الله ﷻ يفصل القضاء بين الخلق. ويوم الفصل: هو يوم القيامة، وقول فصل: حق ليس بباطل. وفي صفة كلام سيدنا رسول الله ﷺ: فصل لا نزر ولا هذر: أي بين ظاهر يفصل بين الحق والباطل"[3].

(فصل) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (فصل) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاثاً وأربعين مرة)[4]، منها:

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص505، باب الفاء والصاد وما يثلثهما.

2 الفراهيدي، العين، باب الصاد واللام والفاء، ابن سيده، المحكم، مقلوبة فصل.

3 بن منظور، اللسان، حرف اللام، فصل الفاء.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 520- 521.

(1)- قوله تعالى:﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾﴿الإسراء:12﴾.

التفسير: ذكر عدد من المفسرين في معنى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ أي: "وكلّ شيء بيّناه لكم بيانا شافيا غير ملتبس لكم أيها النّاس في القرآن، مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم، فأزحنا عللكم، وما تركنا لكم حجة علينا"[1].

البعد البلاغي: هذا لفظ (فصل) يحمل معنى القول، ويشير إليه، ويشير إلى ما بينه الله ﷻ بيانا شافيا كافيا في كتابه العزيز، مفصلا، غير ملتبس بغيره، وتوضيح ما جاء به، مما لا يحتاج فيه إلى غيره إذا ما أشكل أمر ما، ومن المعلوم قطعا أنّ التفصيل يحتاج إلى قول وبيان، ولأن في هذا البيان توضيح وتفصيل جاء الدّال الدقيق الذي يعبر عن هذا المدلول.

وجاء اللفظ في الآية الكريمة: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ في سياق الجملة الخبرية ثابتة الحكم والدلالة، ولم يكن النطق بها تبعا لحدث ما.

وقد جاء بين لفظ: "(فَصَّلْنَاهُ) ولفظ: (تَفْصِيلًا) (المفعول المطلق) جناس الاشتقاق"[2]. وهذا يفيد مطلق التفصيل، دون قيد، ويؤكد عليه، وأن التفصيل جاء لأدق الأشياء، وألطفها، وتوضيح أجزاء كل شيء، عدا عن الجرس الموسيقي الذي يمنح الأذن راحة سماعية.

(2)-وقوله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾﴿السجدة: 25﴾.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج17، ص 395، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 304، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 652، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 250.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 406.

التفسير: جاء في معنى: ﴿هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: "إنّ ربك يا محمّد هو يبيّن لجميع خلقه يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا من أمور الدين والبعث والثواب والعقاب، وغير ذلك من أسباب دينهم، فيفرق بينهم بقضاء فاصل بإيجابه لأهل الحقّ الجنّة، ولأهل الباطل النّار"[1].

البعد البلاغي: بيان الحكم من المولى ﷻ بين العباد يوم القيامة يستوجب (قولا) يفرّق فيه بين أهل الحق وأهل النار، ولأنّ هذا القول فيه قضاء وحكم قاطع؛ جاء بلفظ يشير إلى تلك المعاني المقصودة بقول واحد هو: (يَفْصِلُ)، ففيه معنى (القول) مع الدلالة على وجود حكم يفصل بين الحق والباطل، ويفرق بينهما، لذا لم يكن شافيا أن يؤتى بلفظ (قال) في هذا السياق ليكون بديلا عن (فصل) على نية الحصول على المعاني نفسها؛ علما أن كلا اللفظين من ألفاظ القول.

وجاء اللفظ في سياق الجملة الخبرية الاسمية، المؤكدة بـ(إنّ) الثقيلة، وباسم الإشارة (هُوَ)، وتتحدث عن خبر واقع لا محالة، محدداً بالظرف (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ، مما يزيد من عوامل تأكيد هذا الخبر؛ لذا جاء الخبر فيها إنكاريا.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿الشورى: 21﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين في معنى قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾، أي: "ولولا السابق من قول الله في أنه لا يعجل لهم العذاب في الدنيا، وأنه مضى من قيله إنّهم مؤخرون بالعقوبة إلى قيام الساعة، لفرغ من الحكم بينكم وبينهم بتعجيله العذاب لهم في الدنيا."[2].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج20، ص 195، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 39، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص 109، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 223.

2 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 522، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 241، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص 80.

البعد البلاغي: إنّ الله ﷻ قد فصل بين العباد بحكم قاطع، وقول فاصل، وقضاء سابق أن لا يعجل العذاب لمستحقيه في الدنيا، وهذا الحكم هو في الحقيقة (قول)، ولكن لما فيه من دلالات؛ جيء بدالّ يحمل الدلالات، وهو لفظ (الْفَصْلِ) بدلا من (القول) ليشير إلى معنى القول مصاحبا لمعنى الحكم، وأنّ هذا الحكم عادل، وقرار قطعي ثابت، نهائي لا رجعة فيه، والذي يؤكد أنّ لفظ (الْفَصْلِ) لفظ دالّ على (قول) هو إضافته إلى كلمة (كَلِمَةُ) فالإضافة عرفت نوع الكلمة وحددتها من أنواع الكلام، وميزتها، وميزت المقصود من الفصل في أي الأبواب هو.

وجاءت الجملة القرآنية: في سياق الجملة الخبرية الاسمية، وهي شرطية بوجود أداة الشرط (لولا)، التي تفيد امتناع لوجود"[1]، حيث امتنع القضاء في الدنيا لوجود ﴿كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾.

*****

(6)- (قضي) في معاجم العربية:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "(قضى) الْقَافُ وَالضَّادُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْكَامِ أَمْرٍ وَإِتْقَانِهِ وَإِنْفَاذِهِ لِجِهَتِهِ، والْقَضَاءُ: الْحُكْمُ. وسُمِّيَ الْقَاضِي قَاضِيًا، لِأَنَّهُ يُحْكِمُ الْأَحْكَامَ وَيُنْفِذُهَا. وَسُمِّيَتِ الْمَنِيَّةُ قَضَاءً لِأَنَّهُ أَمْرٌ يُنْفَذُ فِي ابْنِ آدَمَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ"[2]، وقيل إنّ: "القضاء الوصية، أو الحتم، أو الفراغ، ويكون بمعنى الأداء والإنهاء"[3]، وعند ابن سيده: "القضاء البيان"[4]، وعند ابن منظور: "إنّ القضاء يكون بمعنى الخلق، والقضاء في اللغة على

---

1 البغدادي، عبد القادر بن عمر (المتوفى: 1093هـ)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1418 هـ - 1997 م، ج 11، ص 247.

2 ابن فارس، مقاييس اللغة، (قضى).

3 الفراهيدي، العين، باب القاف والضاد و(وايء) معهما ق ض ي، الجوهري، الصحاح، ج6، ص 2463، ابن سيده، المحكم، القاف والضاد والياء.

4 ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، القاف والضاد والياء.

وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه. وكل ما أحكم عمله أو أتــم أو خـتم أو أدي أداء أو أوجب أو أعلم أو أنفذ أو أمضي فقد قضي. وقضى الشيء قضاء: صنعه وقدّره؛ ومنــه قولــه تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ﴿فصلت: 12﴾، والقضاء الخلق والعمل والـصنع والقطع والإحكام، والقضاء: الحتم والأمر. وقــضى أي: حكــم، فــي معنــى الأداء والإنهـاء وأعلمناهم إعلاما قاطعا. وقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ ﴿الحجر: 66﴾: أي أنهينـــاه إليـــه وأبلغناه ذلك، وقضى القاضي بين الخصوم أي قد قطع بينهم في الحكم"[1].

(قضي) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (قضي) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاثاً وستين مرة)[2]، كلها تعود إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه، كالحكم والقضاء، أو الموت وانقضاء الأجل، أو بمعنى العهد، أو بمعنى الإعلام والبلاغ والأمر والوصية، مثل:

(1)- قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُــونُ﴾ ﴿البقرة : 117﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أي: "وإذا أحكم أمرا وحتمه، فإنما يقول لذلك الأمر"كن"، فيكون ذلك الأمر على ما أمره الله أن يكون وأراده، وما قضاه فإنما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما أنّ المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء. وقَضَاءُ الشَّيْءِ إِحْكَامُهُ وَإِمْضَاؤُهُ وَالْفَرَاغُ مِنْهُ"[3].

---

1 ابن منظور، اللسان، باب الواو والياء من المعتل، فصل القاف.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 546- 547.

3 الطبري، جامع البيان، ج2، ص 542، وص 544، وص 549، الزمخـشري، الكـشاف، ج1، ص 181، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص 87.

البعد البلاغي: يتبين من الآية أنّ قضاء الله هو قوله؛ وإرادته هي قضاؤه، وقضاؤه سبحانه أن يقول؛ فتنفذ الإرادة، ولأهمية هذا القول، ولما يحمل من دلالات؛ جاء التعبير عنه بلفظ يشير إلى تلك الدلالات، مصاحبا إلى قيمته وقطعيته في الوقت نفسه، وارتباطه بالأحكام واجبة التنفيذ، فجاء لفظ (قَضَى) ليوسع آفاق النص، وليعط القارئ دلالات أوسع وأشمل من مجرد (القول).

وجاءت الجملة القرآنية في سياق الجملة الخبرية، وهي ظرفية شرطية، من أداة الشرط: "(إِذَا) الظرفية الدالة لما يستقبل من الزمن"[1]، و(قَضَى) اسمها، و (يَقُولُ) خبرها.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿طه: 72﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية: "قال السحرة لفرعون بعدما عرفوا الحق: "اصنع ما أنت صانع، فاحكم فينا من القطع والصلب ما شئت، و﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ جوابٌ عن تهديده قوله "لأقطعنّ"، وعن ما أوعدتنا به من القطع والصلب والعذاب وَالْقَضَاءُ بِمَعْنَى الْإِرَادَةِ "[2].

البعد البلاغي: تحدى السحرة الذين اتبعوا موسى قرارات فرعون التي كان قد أطلقها بين الملأ لمن عصاه، ولم تتعد قراراته تلك (الأقوال)؛ ولكن لأن فيها أحكام وفصل جاء التعبير القرآني بلفظ يدل عليها فكان القول بـ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾، أي قل قولك الذي يحمل الحكم الذي تريد، فما الحكم والقضاء والإرادة إلا ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ التي خلقها الله،

---

1 مصطفى درويش، محيي الدين بن أحمد (المتوفى : 1403هـ)، إعراب القرآن وبيانه، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية ، (دار اليمامة - دمشق - بيروت) ، (دار ابن كثير دمشق - بيروت)، ط 4، ، 1415 هـ ، ج1، ص 173.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 406، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 237، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 33، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج6، ص 30، السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص 508.

وأودع فيه قراراته وأحكامه، فلم يكن لفظ (قال) ليدل على ما أريد من النص بلفظ واحد دون طول شرح وبيان ليفهم المتلقي ما يراد. وجاءت الجملة: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ جملة أمر إنشائية، أنشئت في حينها للرد على وعيد فرعون للسحرة الذين تركوه واتبعوا موسى عليه السلام، وجاء لفظ (فَاقْضِ) فعل أمر دال على التسوية، والإباحة، والتعجيز؛ أي سيان عندهم ما فعلت؛ هذا إن استطعت أن تفعل شيئاً"[1].

وقد جاء بين الألفاظ التالية "(فَاقْضِ) و(قَاضٍ) و (تَقْضِي) جناس الاشتقاق" [2].

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿الإسراء: 23﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، أي: "فصل الحكم فيه بين عباده، بأمره إياهم بذلك قولا، أي ما أمر الله، وأوصى ربك أن لا تطيعوا أحداً إلا إياه، وَحَقِيقَة الْقَضَاء هُوَ إِحكام الشَّيْء وإمضاؤه على وَجه الْفَرَاغ مِنْهُ، قولاً أو فعلاً"[3].

البعد البلاغي: لقد جاء الفراغ من الحكم الذي أوجبه الله ﷻ على الخلق والأمر بعبادته (قولا)، ولكن لتمييز هذا القول، والتأكيد على ما به من حتمية ووجوب، وإلزام بالعمل فقد عبر عنه سبحانه بلفظ يحمل دلالات المعنى المراد، من التمام والمضاء والفراغ منه، مع إلزامية العمل، مع محافظته على الأصل أنّه لفظ (قول)، جاء لفظ (قَضَى) البليغ في المكان المناسب.

---

1 المراغي، أحمد بن مصطفى، علوم البلاغة، ج78.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 409.

3 الطبري، جامع البيان، ج2، ص 542، و ج17، ص 413، وص 414، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 306، السمعاني، تفسير القرآن، ج3، ص 231، الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج1، ص 302، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 657، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص 88.

وجاءت الآية: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ في سياق الجملة الخبرية، الفعلية، التي تتحدث عن حكم نهائي، وقول فصل، غير مرتبط بظرف، ولا مرهون بحدث.

*****

(7)- (كتب) في معاجم اللغة:

من خلال الدراسة والاستقراء تبيّن للباحثة أنّ لفظ (كَتَبَ) في جانب من جوانب معانيه اللغوية يتناسب أن يكون مع الألفاظ الدالة على الحكم والقضاء، وفي جانب آخر مع الألفاظ الدالة على الفنون الأدبية؛ لذا اقتضى التنويه، وللتأكيد على ذلك سأتناول هنا بعض الآيات الدالة؛ وسيكون تمامه في الألفاظ الدالة على الفنون الأدبية .

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: "(كتب) ما يلي: "الكتاب والكتابة: مصدر كتبت. والمُكْتِبُ: المعلم. والكتاب معروف، والجمع كُتُبٌ وكُتْبٌ. وقد كتبْتُ كَتْباً وكِتاباً وكِتابَةً. والكتاب: الفَرْضُ والحُكْمُ والقَدَر. ويقال: كتّبت الغلام وأكتبته، وأكتبني أملى عليّ"[1].

(كتب) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (كتب) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاثمائة وتسع عشرة مرة)[2]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ ﴿النساء: 66﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية: أن: "لو أنّا (فرضنا) على هؤلاء الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك، المحتكمين إلى الطاغوت، أن يقتلوا أنفسهم وأمرناهم بذلك أو أن يخرجوا من ديارهم

---

1 الفراهيدي، العين، باب الكاف والتاء والباء، الجوهري، الصحاح، كتب، ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص 778، ابن فارس، مقاييس اللغة، كتب، الزمخشري، أساس البلاغة، ك ت ب.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص591- 595.

مهاجرين منها إلى دار أخرى سواها ما فعلوه"[1]، "ولو أوجبنا عليهم مثلَ ما أوجبنا على بني إسرائيلَ من قتلهم أنفسَهم أو خروجهم من ديارهم حين استتابتِهم من عبادة العجل، ما استجاب لذلك الأمر إلا عدد قليل منهم، وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا في معنى أمَرنا"[2].

البعد البلاغي: تشير التفاسير أنّ (كتَب) بمعنى (حكم) أو أمر؛ وهذا الأمر هو (قول) من الأقوال التي أمر بها ﷻ وأوجب تنفيذها؛ ولتميز مدلولها عن أي (قول) جاء التعبير القرآني يشير إلى هذا الاختلاف حتى لا يقع التهاون في التنفيذ، وتتضح الصورة أنّ المقصود بهذا اللّفظ هو الحكم الذي لا رجعة فيه ما دام قد صدر من الذات الإلهية.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ...﴾ جملة خبرية شرطية، تفيد امتناع لامتناع بوجود حرف (لو) الذي دلّ على ذلك؛ حيث لم يقتلوا أنفسهم؛ لأن الله ﷻ لم يكلفهم بذلك.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿النساء :77﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: "فرض عليهم القتال"[1]، وقد أكد الزمخشري على المعنى نفسه قائلا: "لا تحتمل وجها إلا وجوب القتال"[2]، ووضح آخرون السبب فقالوا: "لما حول اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ بِالْقِتَالِ"[3].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج8، ص 525، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج2، ص 1380.

2 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج2، ص 198.

البعد البلاغي: يؤكد غير واحد من المفسرين أنّ (كتب) لفظ (قول) يحمل أكثر من مجرد القول العادي؛ بل يؤكد على وقوع حكم القتال وفرضيته، والقول على تنفيذه على وجه الحكم قطعي الوجوب، لذا لم يكن التعبير عنه بلفظ (قال) أو أحد مشتقاتها لأنها لا تشير إلى المعنى المقصود بدقة، ولن تشير إلى أهمية ما كتب ﷻ. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ ...﴾ جملة خبرية، شرطية، من أداة الشرط (لمّا)، و (كُتِبَ) فعل الشرط، وهي تتحدث عن أمر واقع فعلا، ومقطوع بوجوبه، وجملة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ جملة مقول القول، إنشائية، أنشئت جوابا على الجملة الأولى، واستفهاما عنها، وهي جملة جواب الشرط، وجاء بين الألفاظ: (كُتِبَ) و (كَتَبْتَ) جناس اشتقاق.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿المائدة :45﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ أي: "فرضنا على بني إسرائيل، في التوراة أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ إذا كان القتل عمداً"[4]، "وكتبنا عليهم ذلك، إما لإجراء كتبنا مجرى قلنا، والمعنى: فرضنا عليهم فيها أنَّ النَّفْسَ مأخوذة بِالنَّفْسِ مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق وكذلك الْعَيْنَ مفقوءة بِالْعَيْنِ"[5]، وأكد غير واحد من المفسرين على أن:"كَتَبْنا بِمَعْنَى فَرَضْنَا"[6].

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 162، الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج3، ص 1327، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 487.

2 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 324.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص 281، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج3، ص 712،

4 السمرقندي، البحر المحيط، ج1، ص 394،

5 الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 638.

6 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص 191، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص 128.

البعد البلاغي: إنّ لفظ (كتبنا) لفظ (قول) يدل على الفرض والأمر واجب التنفيذ؛ والعمل به على إنه حكم إن وقع ما يوجب تنفيذه، ولا تساهل في ذلك برأي الشرع، ولأنه كذلك فقد ميزه ﷻ وتعالى بلفظ يشير إلى تلك الدلالات، ويؤكد على المقصود، لأن لفظ (قال) في هذا السياق لا يفسر الفرق بينه وبين أي قول دون الكثير من التوضيح والتفسير.

وجاءت الجملة القرآنية جملة خبرية، تشير إلى وجوب حكم القصاص، بوجه ثابت ودائم، وليس تبعا لمتغيرات؛ ولأنّ الإخبار فيها طلبي فقد جيء بــ(أنّ) المؤكدة؛ لتزيل الشك عند المتلقي.

ومن أمثال معاني (الحُكم) للفظ (كتبنا) في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ ﴿المائدة: 32﴾.

انتهى المبحث السادس -بحمد الله-؛؛؛

*****

المبحث السابع

ألفاظ القول الدالة على "المرادّة بين طرفين متوافقين" وبيان معانيها ودلالاتها وأساليبها البلاغية

سأتناول في هذا المبحث ألفاظ القول الدالة على "المرادّة بين طرفين متوافقين" وأبين معانيها اللغوية، ثمّ البحث في دلالاتها في السياقات التي وردت فيها، لمعرفة مقاصدها ومدى توافقها تحت هذا المبحث، ثم البحث في أساليبها البلاغية، وعدد ورود كل لفظ في القرآن الكريم. وعدد هذه الألفاظ خمسة، هي: (حور، سر، شاور، نجو، نصح).

*****

(1)- (حور) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: "(حور) (حَوَرَ) الْحَاءُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: أَحَدُهَا لَوْنٌ، وَالْآخَرُ الرُّجُوعُ، وَالثَّالِثُ أَنْ يَدُورَ الشَّيْءُ دَوْرًا. وَأَمَّا الرُّجُوعُ، فَيُقَالُ حَارَ، إِذَا رَجَعَ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: "الْبَاطِلُ فِي حُورٍ" أَيْ رَجْعٍ وَنَقْصٍ، وَكُلُّ نَقْصٍ وَرُجُوعٍ حُورٌ. والغصةَ إذا انحدرت. "وَالْحَوْرُ: مَصْدَرُ حَارَ حَوْرًا رَجَعَ. وَتَقُولُ: كَلَّمْتُهُ فَمَا رَجَعَ إِلَيَّ حَوَارًا وَحِوَارًا وَمَحُورَةً وَحَوِيرًا. وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ الْمِحْوَرُ: الْخَشَبَةُ الَّتِي تَدُورُ فِيهَا الْمَحَالَةُ"[1]، جاء هذا في مقاييس اللغة؛ أما في كتاب العين فجاء أنّ: "المحاورة: مراجعة الكلام. مثل: حاورت فلانا في المنطق، وأحرت إليه جوابا. وما أحار بكلمة، والاسم: الحوير، تقول: سمعت حويرهما وحوارهما. والمحورة من المحاورة، كالمشورة من المشاورة، والمحور: الحديدة التي يدور فيها

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص115، حور.

لسان الإبزيم في طرف المنطقة وغيرها، والحديدة التي تدور عليها البكرة يقال لها: المحورة"[1]، وَالْمُحَاوَرَةُ الْمُجَاوَبَةُ، وَالتَّحَاوُرُ التَّجَاوُبُ. وَيُقَالُ: كَلَّمْتُهُ فَمَا أَحَارَ إِلَيَّ جَوَابًا، وَمَا رَجَعَ إِلَيَّ حَوِيرًا وَلَا حَوِيرَةً وَلَا مَحُورَةً وَلَا حِوَارًا، أَيْ مَا رَدَّ جَوَابًا"[2]. وجاء عند الأصفهاني أنّ: "الحور: التردد إما بالذات أو بالفكر أو مَحورَةً"[3]، وفي الصحاح أنّ: "الحور: الاسم من قولك: طحَنتِ الطاحنةُ فما أحارَتْ شيئاً، أي ما ردَّتْ شيئاً من الدقيق، والمَحَارُ والحُؤُور: المرجع"[4]. "(حور) الجـور: الميل عن القصد. يقال: جارَ عن الطريق، وجارَ عليه في الحكم"[5].

(حور) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (حور) واشتقاقاته في القرآن الكريم (ثلاث عشرة مرة)[6]، بمعان مختلفة؛ واحدة منها بمعنى الرجوع، ومنها أربعة تعني نساء الجنة، وحواريو موسى في خمسة مواقع، وثلاثـة منها فقط جاءت بالمعنى المقصود من الدراسة، هي:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْـكَ مَالًـا وَأَعَـزُّ نَفَرًا﴾ ﴿الكهف: 34﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: "قال هذا الـذي جعلنا له جنتين من أعناب لصاحبه الذي لا مال له، وهو يخاطبه، ويُرَاجِعُهُ فِي الْكَلَام وَيُجَاوِبُهُ؛

---

1 الفراهيدي، العين، باب الحاء والراء و(واي) معهما.
2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 403.
3 الأصفهاني، المفردات، ص 262.
4 الجوهري، الصحاح تاج اللغة، حور.
5 الفراهيدي، العين، باب الحاء والراء و(و)، الجوهري، الصحاح، (حور) ابن منظور، اللسان، فـصل الحـاء المهملة، حرف الراء.
6 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 220.

وَالْمُحَاوَرَةُ الْمُجَاوَبَةُ، وَالتَّحَاوُرُ التَّجَاوُبُ"[1]. أي: "قال الكافر للمؤمن، وَالمؤمن يُحاوِرُهُ، والكافر يفاخره ويراجعه، وذلك أن أخاه احتاج فأتاه يسأله منه شيئاً، فلم يعطه، وعاتبه بدفع ماله، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾، يعني: وأكثر خدما. ويحاوره: يراجعه في الكلام من حار إذا رجع"[2]، فكأنه يعيد الحديث مرة بعد أخرى، ويرجع من حيث يبدأ ليؤكد على الفكرة. والمحاورة على وزن المفاعلة التي تقتضي المشاركة بين أكثر من طرف؛ والواضح من الآية أنّ الطرفين هما الأخَوان اللّذين كانا يتحدثان بشأن الجنّة، "(وهو يحاوره) أي يناظره, وفيما يحاوره فيه وجهان: أحدهما: في الإيمان والكفر. الثاني: في طلب الدنيا وطلب الآخرة, فجرى بينهما ما قصة الله تعالى من قولهما"[3].

البعد البلاغي: يتبين أنّ المحاورة تقتضي وجود (قول) بين الطرفين المعنيين؛ وقد أكد عليها سبحانه بقوله (لِصَاحِبِهِ) فكشف عن الحوار الذي اقتضى وجود الصحبة والتوافق ابتداءً؛ والصاحبان هما المؤمن والكافر، وقد جرى بينهما حديث ودي وجهه المؤمن للكافر ليدخله في دينه، ولو جاء التعبير القرآني بلفظ (قال) هكذا مباشرة لما كشف عن وجود طرفي الحوار، ولما تبين وجه العلاقة الودية التي تجمع المتحدثَين، كما أنه لن يشف عن أن هناك أخذ وردّ في الحديث؛ إذن فإنّ لفظ (يحاور) عبّر عن المعاني التي افتقر إليها لفظ (قال) والدلالات المقصودة في هذا السّياق؛ علما أنّ اللفظين (قال) و (حاور) من ألفاظ القول، لكن لكل واحد منهما وظيفته التي يشغلها في النّص، والقرآن الكريم قد وظف اللفظ الأنسب في المكان الأمثل؛ ليعبر عن المعنى البليغ الذي لا يعبر عنه فيه غيره.

---

1 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 403.

2 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 22، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 403، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 281.

3 الماوردي، النكت والعيون، ج3، ص 307.

وجاءت الجملة: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ جملة قول حالية خبرية، مؤكدة باسم الإشارة (وَهُوَ). لتؤكد على وقوع الحدث، وعلى الجانب الحواري في الموضوع.

(2)- وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ ﴿الكهف: 37﴾.

التفسير: تُبيّن هذه الآية أنّ "الجدال والنقاش قائم في الدنيا دائما على قدم وساق بين الكافر والمؤمن، وبين العاصي الفاجر والمستقيم الصالح، الأول يغتر بماله ونفسه ودنياه، والثاني يستمسك بإيمانه وينظر لنهايته، ويدرك فناء الدنيا مهما عظمت، ويتأمل الخير فيما عند ربه، وهكذا كان حال المؤمن في مواجهة الكافر صاحب الجنتين (البستانين) وذي الثراء الواسع، حكى القرآن الكريم هذا اللّون من الجدل الهادئ الصّادر عن غاية الإيمان والحكمة والعقل"[1]، فقد جاء في بيان: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾أي: "وهو يخاطبه ويكلمه"[2]، "أيْ قَالَ ذَلِكَ أثناء دخوله جَنَّتَهُ مُرَافِقًا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: "مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً"، لِأَنَّ الْقَوْلَ لَا يَكُونُ إِلَّا خِطَابًا لِآخَرَ، أَيْ قَالَ لَهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ: قَالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ. وَوُقُوعُ جَوَابِ قَوْلِهِ: "أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ..." خِلَالَ الْحِوَارِ الْجَارِي بَيْنَهُمَا، وحُكِيَ كَلَامُ صَاحِبِهِ بِفِعْلِ (الْقَوْلِ) بِدُونِ عَطْفٍ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ وَاقِعٌ مَوْقِعَ الْمُحَاوَرَةِ وَالْمُجَاوَبَةِ"[3]. "فقد كان يُحاوِرُهُ ويراجعه في الكلام ويجاوبه، من حار إذا رجع أي يناقشه في الكلام، ويراجعه في نفس الموضوع الذي بدءا منه"[4]

---

1 الزحيلي، لتفسير الوسيط، 2، ص 1425.

2 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 23.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص 320- 321.

4 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 281، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص 317، وص320، وص321، العثيمين، تفسير العثيمين، تفسير سورة الكهف، ج1، ص 70.

البعد البلاغي: أثناء (الحوار) الجاري بين الصاحبين، اقتطع القرآن الكريم جملة (قالهـا) المحاور المؤمن لصاحبه الكافر ليكشف عن قضية الحوار المختلف عليها، والتي يعاد فيها ويزاد بين الأطراف في كل عصر ومصر؛ وهي ما يمكن أن نطلق عليها في زماننـا هـذا (حـوار الأديان) وهي قضية كل العصور: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ...﴾، فبيّن لنا النّص أنّ مجرد (القول) لا يحدد خاصية الحوار؛ والحوار في حقيقته (قول)، ولكنّ لفظ (قول) لا يحدد العناصر التي اشتركت في الحوار ولا يحدد العلاقة التي تربط بين الأطـراف المتحـاورة مـن التّـواد والتّوافق، والرغبة بالحفاظ على العلاقة القائمة بينهما؛ فجاء لفظ (يُحَاوِرُهُ)؛ ليختزل التّعبيـرات السابقة كلها. ولكن ما هي نتيجة الحوار بين الطرفين؟ هل آمن الكافر بقضية المؤمن موضـوع الحوار، أم لا؟

جاء في أحد أعداد مجلة البيان أن: "ليس شرطاً للحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر، ويتفقان على موقف واحد، فهذا نجاح لاشك فيه. وإنّما يعتبر الحوار ناجحاً -أيضاً- إذا توصل الطّرفان إلى أنّ كل قول يقوله أحدهما هو صحيح. أو في الإطار الذي يسعه الخلاف، أما فشل الحوار فيكون عندما يتشبث كل طرف برأيه ويخطئ الطّرف الآخر"[1].

وجاءت الجملة: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ﴾ جملة قول خبرية، فعلية، حوارية، مؤكدة باسم الإشارة (هُوَ)؛ فأفاد هذا التأكيد على سلوك الشخص المؤمن، وعلى أسلوبه الراقـي المتميز في الطرح؛ وهو الحوار العقلي، الهادئ؛ وذلك لما يحمله لفظ (الحوار) من معاني.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿المجادلة: 1﴾.

---

1 المنتدى الإسلامي، مجلة البيان، ج23، ص 17.

التفسير: جاء في معنى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: و"يسمع حوار رسول الله ﷺ، وخولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت، وهي تراجعه الكلام، وتسائله، وتحاوره في شأن زوجها وفيمَا صدرَ عنْهُ في حقِّهَا من الظهارِ"[1]. فسمى الله ﷻ مجادلة المرأة للرسول ﷺ ومجاوبته لها محاورة، لأن الحوار كلمة غالباً ما تستعمل في المناظرة الهادئة التي يسود عليها الألفة والبحث عن الحق"[2]، وهذا ما كانت تبحث عنه المحاورة خولة بنت ثعلبة فعلا، فقد أشارت التفاسير أنها كانت تتحدث وتتكلم بصوت هادئ لا يكاد يسمع في تلك الأجواء.

البعد البلاغي: إذن فالحوار: الجواب. وحاوره محاورة وحواراً جاوبه وراجعه. فهو مراجعة في الكلام و (القول) بين طرفين أو أكثر دون ما يدل بالضرورة على وجود خصومة بينهما، أو اختلاف في الرأي، وقد يكون الجدل والحوار بمعنى واحد إذا خلا الجدل من العناد والتعنت للرأي كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، فسمى الله ﷻ مجادلة المرأة للرسول ﷺ ومجاوبته لها محاورة"[3].

إنّ الاختلافات والميزات التي يمتاز بها جو الحوار، ويستحوذ عليها، ويستأثر بها، لا يمكن أن نستوعبها، ونلم بها، ونتخيل لطفها لو جاء التعبير القرآني بلفظ آخر غير (تَحَاوُرَكُمَا) في هذا السياق، إلا أنّ التعبير القرآني الدقيق استأثر باللفظ المعبر الدال البليغ في السياق الذي لا يناسبه غيره.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 223، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 412، السمعاني، تفسير القرآن، ج5، ص 382، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 484، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص 215، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص 9، العثيمين، تفسير سورة الكهف، ج1، ص 52.

2 المنتدى الإسلامي، مجلة البيان، ج23، ص 17، الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج 28، ص 9.

3 المنتدى الإسلامي، مجلة البيان، ج23، ص 17.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ جملة خبرية اسمية.

والآيات الثلاث التي تمّ تناولها هي التي جاء فيها لفظ (حَوَر) بالمعنى الذي يخدم الدراسة؛ أمّا باقي الآيات فهي تشير إلى جوانب أخرى من التّعريف اللّغوي، مثل اللّون، والرّجوع.

*****

(2)- (سرّ) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: (سَرّ) السِّينُ وَالرَّاءُ يَجْمَعُ فُرُوعَهُ إِخْفَاءُ الشَّيْءِ. وَمَا كَانَ مِنْ خَالِصِهِ وَمُسْتَقَرِّهِ. لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْهُ عَنْ هَذَا. فَالسِّرُّ: خِلَافُ الْإِعْلَانِ. يُقَالُ أَسْرَرْتُ الشَّيْءَ إِسْرَارًا، خِلَافَ أَعْلَنْتُهُ"[1]، "السر ما أسررت، والسريرة: عمل السر من خير أو شر، ويقال: سريرته خير من علانيته. وأسررت الشيء: أظهرته، وأسررته: كتمته"[2]، وانفرد الأصفهاني في المفردات بقوله: "السّرّ هو الحديث المكتّم في النّفس، وسارّه: إذا أوصاه بأن يسرّه، وأسررت إلى فلانا حديثا: أفضيت إليه في خفية، والإسرار إلى الغير يقتضي إظهار المودة لمن يفضى إليه بالسّر وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره"[3]، "وأسررت الشيء: كتمته وأعلنْتُهُ أيضاً، فهو من الأضداد، وأسَرَّ إليه حَديثاً، أي أَفْضَى"[4]، وأضاف الرازي: "السِّرُّ: الَّذِي يُكْتَمُ وَجَمْعُهُ (أَسْرَارٌ)"[5].

---

1 ابن فارس، مجمل اللغة، باب السين وما بعدها في المطابق، وابن فارس، مقاييس اللغة، سر.

2 الفراهيدي، العين، باب السين والراء.

3 الأصفهاني، المفردات، ص 404.

4 الجوهري، الصحاح تاج اللغة، ج2، ص683.

5 الرازي، مختار الصحاح، ص146.

(سرّ) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (سرّ) واشتقاقاته في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة، بمعنى الخفاء والكتم)[1]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿التوبة: 78﴾.

التفسير: جاء في قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ الذي يسرُّونه في أنفسهم، من الكفر به وبرسوله، وما أسرّوه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، مما لا خير فيه، ويَعْلَمُ مَا يُضْمِرُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَمَا يَتَحَادَثُونَ بِهِ حَدِيثَ سِرٍّ لِئَلَّا يَطَّلِعَ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ. وَالْإِسْرَارُ: هُوَ الْكِتْمَانُ وَالْكَلَامُ الْخَفِيُّ جِدًّا"[2].

البعد البلاغي: السّرّ (قول) حاصل بين غير طرف؛ ولما فيه من الخصوصية والإنفراد، والرغبة في إخفاء الحديث عن الغير؛ فقد ميزه المولى ﷻ بلفظ يشير إلى تلك المعاني، بالإضافة إلى الإشعار بوجود علاقة مودة وتفاهم بين تلك الأطراف المتسارّة، مع الاحتفاظ بأصل الدلالة وهو الإشارة إلى وجود (قول)، ولكن لفظ (قول) تحديدا لا يعبر -في هذا السياق- عن المراد توضيحه من النص للمتلقي، وتفصيل أحوال علم الله ﷻ وشموله ودقته ولطفه، لأنّ لفظ (قال) عام لكل ما يمكن أن يقال، لا يخصص (سرا) دون (جهر)، أمّا (سرّ) فهو -كما سلف- يبين السّريّة المبتغاة.

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 348-349.

2 الطبري، جامع البيان، ج14، ص 371، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 293، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص 86، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص 274، و ج 17، ص 13.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ جملة إنشائية، استفهامية، والاستفهام فيها إنكاري، والجواب على السؤال الاستنكاري معروف.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ﴿الرعد: 10﴾.

التفسير: جاء عند البغوي في بيان: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ أي: "يَسْتَوِي فِي عِلْمِ اللَّهِ الْمُسِرُّ بِالْقَوْلِ وَالْجَاهِرُ بِهِ"[1]، وأضاف القرطبي أنّ: "إِسْرَارُ الْقَوْلِ: مَا حَدَّثَ بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ، وَالْجَهْرُ مَا حَدَّثَ بِهِ غَيْرَهُ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا أَسَرَّهُ الْإِنْسَانُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، كَمَا يَعْلَمُ مَا جَهَرَ بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ"[2]، ومن التفاسير الحديثة جاء عند الشعراوي: "السِّرُّ هو ما ائتمنتَ عليه غيرك، وإذا كان السرُّ هو ذلك؛ فالأخفى هو ما بَقِي عندك، وإنْ كان السر بمعنى ما يوجد عندك ولم تَقُلْه لأحد؛ فسبحانه يعلمه قبل أن يكون سراً"[3].

البعد البلاغي: يتضح أنّ (السّر) جانب مختزل من (القول) وجزء مخصوص منه، ولتمييز ذلك، وإظهار ما فيه من خفاء جاء التعبير القرآني عنه بما يخدم مفهوم السّياق، وبما يتناسب مع مدلوله اللّغوي، حيث أكد على الجانب (المخفي) من (القول) والذي لا يخفى على علم الله ﷻ وهو والجهر سيان، ولفظ (قال) الشامل لكل ما يقال لا يعبر عن هذه الحالات، فلولا تفصيل الحالتين (أَسَرَّ) و (جَهَرَ) لما وضّح النّص حالات العلم المختلفة التي لا تخفى عليه سبحانه. ولا يخفى علينا من الناحية البلاغية البديعية ما في اللفظين:"(أَسَرَّ) و (جَهَرَ) من طباق إيجاب"[4].

---

1 البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ج4، ص 229.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص 289.

3 الشعراوي، الخواطر، ج22، ص 7235.

4 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، طباق الإيجاب، ص 306.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ جملة خبرية تقريرية، تؤكد على التسوية عنده ﷺ بين حالتي السر من القول والجهر به.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿ يس: 76﴾.

التفسير: جاء في بحر العلوم بيان قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ أي: "إنّا نعلم أن الذي يدعوهم إلى قيل ذلك الحسد، وهم يعلمون أنّ الذي جئتهم به ليس بشعر، ولا يشبه الشّعر، وأنك لست بكذاب، فنعلم ما يسرّون من معرفتهم بحقيقة ما تدعوهم إليه، وما تكذيبهم إياك إلا كبراً في أنفسهم، فإِنَّا نَعْلَمُ ذلك من التكذيب، ونعلم وَمَا يُعْلِنُونَ لك من العداوة"[1]، أما الزمخشري فقال في ذلك: "فلا يهمنّك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم، فإنّا عالمون بما يسرون لك من عداوتهم وَمَا يُعْلِنُونَ وإنا مجازوهم عليه"[2]، وعند ابن عاشور: أنّ الآية جاءت: "تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ عَنِ الْحُزْنِ لِقَولِهِمْ. وَالْخَبَرُ كِنَايَةٌ عَنْ مُؤَاخَذَتِهِمْ بِمَا يَقُولُونَ، أَيْ أَنَّا مُحصُونَ عَلَيْهِمْ أَقْوَالَهَمْ وَمَا تُسِرُّهُ أَنْفُسُهُمْ مِمَّا لَا يَجْهَرُونَ بِهِ فَنُؤَاخِذُهُمْ بِذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يُكَافِئُهُ مِنْ عِقَابِهِمْ وَنَصْرِكَ عَلَيْهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ"[3].

البعد البلاغي: (السّرّ) فنّ من فنون القول؛ يتحقق استخدامه بين الذين تربطهم علاقة مودة، أو توافق نحو موضوع مشترك ما، ويرغبون بإخفاء حيثياته وتفاصيله عن عموم النّاس، لذا جاء اللفظ القرآني المعبر عن هذه المعاني، وبما يخدم النص القرآني بتوافق مع المعنى اللغوي للفظ، وهو: (السّرّ) والذي سبق وعرضنا تعريف الأصفهاني له بأنه: "الحديث المكتّم في النّفس، وأسررت إلى فلانا حديثا: أفضيت إليه في خفية، والإسرار إلى الغير يقتضي إظهار المودة لمن يفضى إليه بالسّر وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره"[4]، وهذا يؤكد بدوره أنه لا

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 132.

2 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 29.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج23، ص 72.

4 الأصفهاني، المفردات، ص 404.

يمكن لأي لفظ آخر من ألفاظ القول أن يحمل هذه المعاني، ولا أن يخدم النّص بلفظ دالّ واحد مثل هذا اللّفظ، لذا لم يعبر عنه بلفظ غيره؛ أمّا من حيث البعد البلاغي البديعي فإن: "طباق الإيجاب قد ربط بين اللفظين: يسرّون, ويعلنون"[1]؛ دليل على إحاطة علم الله ﷻ بالحالات القولية كلها، ما يبعث السكن وحسن التوكل عند المخاطب؛ وهو الرسول ﷺ، وكل من يسمع الخطاب من المسلمين؛ بأن الله ﷻمطلع على كل ما من شأنه أن يبعث الحزن في النفس.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ جملة خبرية اسمية، مؤكدة بـ(إنّا)؛ لإزالة ما في نفوس المشككين من إنكار.

*****

(3)- (شاور) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: "(شاور) (شَوَرَ) الشِّينُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ مُطَّرِدَانِ، الْأَوَّلُ مِنْهُمَا إِبْدَاءُ شَيْءٍ وَإِظْهَارُهُ وَعَرْضُهُ، وَالْآخَرُ أَخْذُ شَيْءٍ. فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: شُرْتُ الدَّابَّةَ شَوْرًا، إِذَا عَرَضْتَهَا. وَالْمَكَانُ الَّذِي يُعْرَضُ فِيهِ الدَّوَابُّ هُوَ الْمِشْوَارُ، وَالْبَابُ الْآخَرُ: قَوْلُهُمْ: شُرْتُ الْعَسَلَ أَشُورُهُ. وَقَدْ أَجَازَ نَاسٌ: أَشَرْتُ الْعَسَلَ وَالْمَشَارُ: الْخَلِيَّةُ يُشْتَارُ مِنْهَا الْعَسَلُ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ شَاوَرْتُ فُلَانًا فِي أَمْرِي. فَكَأَنَّ الْمُسْتَشِيرَ يَأْخُذُ الرَّأْيَ مِنْ غَيْرِهِ"[2]، و"اصطلاحاً: استنباط المرء الرأي من غيره فيما يعرض له من مشكلات الأمور، ويكون ذلك في الأمور الجزئية التي يتردد المرء بين فعلها وتركها"[3]. وَالْمَشُورَةُ قِيلَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْإِشَارَةِ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَشَاوِرِينَ يُشِيرُ بِمَا يَرَاهُ نَافِعًا فَلِذَلِكَ يَقُولُ الْمُسْتَشِيرُ لِمَنْ يَسْتَشِيرُهُ: بِمَاذَا تُشِيرُ عَلَيَّ كَأَنَّ

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، طباق الإيجاب، ص 333.

2 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص 226- 227.

3 مجلة البيان، ج207، ص 6.

أصلَهُ أنَّهُ يُشِيرُ لِلأَمْرِ الَّذِي فِيهِ النَّفْعُ، مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِشَارَةِ بِالْيَدِ، لِأَنَّ النَّاصِحَ الْمُدَبِّرَ كَالَّذِي يُشِيرُ إِلَى الصَّوَابِ وَيُعِينُهُ لَهُ مَنْ لَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهِ، وَقَالَ الرَّاغِبُ: إِنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنْ شَارَ الْعَسَلَ إِذا استخرجه، وأيا مَا كَانَ اشْتِقَاقُهَا فَمَعْنَاهَا إِبْدَاءُ الرَّأْيِ فِي عَمَلٍ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَهُ مَنْ يُشَاوِرُ"[1].

(شاور) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (شاور) واشتقاقاته في القرآن الكريم أربع مرات، واحدة منها بمعنى الإشارة والإظهار، وهي في قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ﴿مريم: 29﴾، وثلاث مرات منها تدل على معنى القول، جانب من مقاصد الدراسة)[2]، وهي:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿البقرة: 233﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿عن تشاور﴾، أي: "عن تراض من والدي المولود وتشاور منهما؛ أي فصالاً صادراً عن التراضي منهما قبل الحولين، والتّشاور والمشاورة والمشورة والمشورة استخراج الرأي من الغير فيما يعرض من مشكلات، من شُرْتُ العسل إذا استخرجته"[3]. "وَقَوْلُهُ: "وَتَشَاوُرٍ" هُوَ مَصْدَرُ شَاوَرَ إِذَا طَلَبَ الْمَشُورَةَ."[4].

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 2، ص 438.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 391.

3 الطبري، جامع البيان، ج5، ص 67، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص 145.

4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 2، ص 438.

البعد البلاغي: (التشاور) فن من فنون (القول) يفترض في تحققه غير ما هو مطلوب من أي قول كان؛ حيث يتعين وجود مشكلة محدثة من الأمور، وليس لها حل واحد قطعي، ويتعين وجود غير طرف يشارك في استخراج الرأي الأمثل لحل هذه المشكلة، فيحصل (التفاعل) والتّشاور بين المشاركين، إلى أن يتم استخراج الرأي بالـ(قول)؛ ومع ذلك لم يعبر بلفظ (القول) في هذا النص؛ لأنّه لا يفي بالمعنى المراد كما بينه لفظ (التشاور) ببلاغة وإيجاز؛ لأنّ من دلالاته ما يشير إلى استخراج ما عند الأطراف من حلول، واقتراحات يتم تناولها ومناقشتها بمودة وتراض.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ جملة خبرية، شرطية، من أداة الشرط (إن) غير الجازمة، معطوفة على قوله: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾؛ لِأَنَّهُ مُتَفَرِّعٌ عَنْهُ"[1].

(2)- وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ﴿آل عمران: 159﴾.

التفسير: ذهب عدد من المفسرين في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ "أنّ الله ﷻ أمر نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه في مكايد الحرب وعند لقاء العدو، تطيبًا منه بذلك أنفسهم، وتألفًا لهم على دينهم، وليروا أنه يسمع منهم ويستعين بهم، وهي للمؤمنين، أن يتشاوروا فيما لم يأتهم عن النبي ﷺ فيه أثر، ويقول: إذا أردت أن تعمل عملاً فاعمل بتدبيرهم ومشاورتهم، ويقال: ناظرهم في الأمر"[2]، ووضّح القرطبي أنّ: "الْمَشُورَةُ بَرَكَةٌ. وَالْمَشْوَرَةُ: الشُّورَى، وَمِنْهُ: شَاوَرْتُهُ فِي الْأَمْرِ

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 2، ص 437.

2 الطبري، جامع البيان، ج7، ص 343، و ص 345، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 260.

وَاستَشَرتُهُ بِمَعْنًى"[1]، "وجاءت بلفظ الأمر، فهي تأمر الرسول ﷺ وكل من يقوم مقامه في قيادة الأمة بمشاورة المسلمين، وذلك لما في الشورى من الخير والمصلحة"[2].

البعد البلاغي: أؤكد على البعد النفسي والاجتماعي الذي انتهى إليه التفسير، وذلك بتأثير (الشورى) النفسي، ودورها الإيجابي في بناء اللّحمة الدّاخلية للمجتمع المعني بها؛ وهي ليست أكثر من (قول) ولكنّ المشاركة والتفاعل الحاصلين لاستخراج رأي واحد مجمع عليه يشعر كل مشارك بقيمة قراره، وأهمية وجوده كفرد فاعل في المجتمع، وبالتالي شعوره بانتمائه إلى المجموعة، واعتزازه بفاعليته ومنه شعوره بوجود الآخرين حوله، وبوجوده بين جماعة فاعلة، ومنه الاجتهاد في استخراج الرأي الأكثر قربا إلى الصّواب، لهذا شرع مبدأ التشاور فيما لم يعرض له رأي قاطع؛ ليبقى باب الاجتهاد والتّواصل متاحا في المجتمع الإنساني عامة، وفي المجتمع الإسلامي خاصة، مما يؤكد أنّ لفظ (قال) لا يغني في هذا السياق عن لفظ (شاور) الفعلي في النص القرآني، ولا يفتح الآفاق الإنسانية التي فتحها اللفظ، وأوسعتها المشورة.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمرِ﴾ جملة إنشائية، بالأسلوب الحقيقي للأمر؛ لأنها من الأعلى إلى الأدنى؛ فهي من الله ﷻ إلى النبي ﷺ.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿الشورى: 38﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ "يعني: إذا أرادوا حاجة، تشاوروا فيما بينهم"[3]، "وكان العرب قبل الإسلام وقبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة إذا كان بهم أمر اجتمعوا

---

1 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 16، ص 38.

2 مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، الجزء (العدد) 217، ص 4.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 246، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 228.

وتشاوروا، فأثنى الله عليهم، حيث لا ينفردون برأي ولا يقدمون عليه ما لم يجتمعوا عليـه"[1]، "وَالْمَقْصُودُ مِنْهَا ابْتِدَاءً هُمُ الْأَنْصَارُ"[2]. والشورى هي من أهـم خـصائص الأمـة الإسـلامية والشرائع الربانية، فهي من صفات المؤمنين الموحدين الذين استجابوا لله رب العالمين ولأهمية الشورى جاء ذكرها في هذه الآية بين الصلاة والزكاة، فقد وصف الله المؤمنين بـأنهم الـذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة، وأدوا الزكاة وكان منهج الشورى هو منهجهم. وقد قال بعـض الباحثين إن سياق النص قد نبه عليه بعض المؤصلين والبلاغيين من حيث أن جملة (وَأَمْـرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) جاءت متوسطة بين الصلاة والزكاة لتدل بتنبيه عبارة الـنص وإشـارته علـى ضرورة مداومتها بما يشبه الصلاة والزكاة, وعموم خطاب الآية الكريمة هـو مـن الوجـوب الشمولي في الأمة."[3].

البعد البلاغي: الشورى مرة أخرى، في إيجابية ثانية؛ في مصاف الأعمال التي أثنى رب العزة ﷻ على الذين يقيمونها بينهم، والمتصفين بها، والذين يترجمونها عملا واقعا، حيث ثنّـى بها بعد إقامة الصلاة، وأعقبها بأفضلية الإنفاق، علما بأنها ليست أكثر من (أقوال) مطروحـة، وآراء مفتوحة، ولكن لسعة دلالاتها، وغزارة مفهومها أكثر من مجرد القـول، وفاعليتهـا فـي المجتمع الذي يسعى الإسلام لتعميق الروابط الاجتماعية والفكرية فيه، جاء لفظ (الشورى) في السياق المناسب، بدلا من (قالوا). وفي المحصلة إنّ لفظ (الشّورى) لفظ قول دالّ على المـرادّة

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 228، الرازي، مفاتيح الغيب، ج27، ص 603.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 25، ص 111.

3 القاضي، حسين بن محمد المهدي – عضو المحكمة العليا للجمهورية اليمنيـة، صـيد الأفكـار فـي الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، الناشر: سُجل هذا الكتاب بوزارة الثقافة، بـدار الكتـاب بـرقم إيـداع (449) لسنة2009م، راجعه: الأستاذ العلامة عبد الحميد محمد المهدي، مكتبة المحامي: أحمد بن محمد المهدي، ج 2، ص 25- 27.

بين طرفين متوافقين، أو استخراج رأي واحد من آراء عدة من غير طرف، تسعى لتوافق على رأي واحد، وإجماع عليه.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْـنَهُمْ﴾ صلة الموصول، خبرية، معطوفة على جملة صلة الموصول السابقة، في قوله تعالى: ﴿وَالَّـذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ ﴿الشورى: 37﴾. "فمفهوم الأمر جاء فيها بطبيعة الخبر والمدح وهو أعظم من الأمر الصريح"[1]. أي وكأنه يأمرهم بالشورى من باب التعريض، ومدح القائمين بذلك الإجراء.

*****

(4)- (نجو) في معاجم اللغة:

جاء حول مادة "نَجَوَ: النُّونُ وَالْجِيمُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى كَشْطٍ وَكَشْفٍ، وَالْآخَرُ عَلَى سَتْرٍ وَإِخْفَاءٍ. فَالْأَوَّلُ: نَجَوْتُ الْجِلْدَ أَنْجُوهُ وَالْجِلْدَ نَجًا إِذَا كَشَطْتَهُ. وَنَجَا الْإِنْسَانُ يَنْجُو نَجَاةً، وَنَجَاءً فِي السُّرْعَةِ; وَهُوَ مَعْنَى الذَّهَابِ وَالِانْكِشَافِ مِنَ الْمَكَانِ. النَّجَاءِ: النَّجَاةُ وَالنَّجْوَةُ مِنَ الْأَرْضِ، وَهِيَ الَّتِي لَا يَعْلُوهَا سَيْلٌ"[2]، هذا عند ابن فارس في مقاييس اللغة، وعنده في مجمل اللغة: "نجي، والنجو: السرّ بين اثنين. ناجيته، وتناجوا، وانتجوا. وفلان نجي فلان، والجمع أنجية. ونجوت الرّجل: ناجيته وانتجيته: اختصصته بمناجاتي"[3]، وفي العين: "النجو: كلام بين اثنين كالسرّ والتّسار. تقول: ناجيتهم وتناجوا فيما بينهم، وكذلك: انتجوا. والقوم نجوى"[4].

---

1 القاضي، حسين بن محمد المهدي، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، ج 2، ص 27.

2 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص397.

3 ابن فارس، مجمل اللغة، باب النون والجيم وما يثلثهما.

4 الفراهيدي، العين، باب الجيم والنون و(واي ء) معهما.

(نجو) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (نجو) واشتقاقاته في القرآن، ثماني عشرة مرة؛ بمعنى السرّ بين اثنين)[1]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿الإسراء: 47﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ "يعني: يتناجون فيما بينهم. أيْ مُتَنَاجُونَ فِي أَمْرِكَ"[2]، "وَالتَّنَاجِي: الْمُحَادَثَةُ سِرًّا، وَالْمُنَاجَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ"[3].

البعد البلاغي: أؤكد على ما انتهى به تفسير الآية: من أنّ المناجاة محادثة تشتمل على أقوال كثيرة، ولكن لمَ لمْ يعبر عنها القرآن الكريم بلفظ (قال) أو (قول) كونها تشتمل عليه؟ الإجابة: أنّ المولى ﷻ أراد أن يعطينا صورة تمثل حال الظالمين بالكلمات؛ بحيث تجسد لغة أجسادهم الخارجية الدالة على بواطنهم الداخلية، مع التأكيد على صورتهم الاجتماعية، بالتزامن مع الحديث الجاري بينهم، واتفاقهم على رأي واحد، في علو وانعزال عن الناس؛ بلفظ واحد! فكان التعبير القرآني باللفظ الذي اختزل كل هذا الشرح، فقال: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ وهو يريد أنّهم يتحدثون بهذه الهيئة، فكانت البلاغة والإيجاز والزخم المعنوي الدّال، ما يجعل المتلقي يفهم النّص بأبعاده، ويفهم أنّهم في اتفاق على أمر يتقاولون حوله ويتسارّون، ولا يستقيم لفظ (يقولون) لأنّه لا مكان له في هذه الصورة، علما بأنّهم في الواقع يتبادلون (الأقوال)!

وجاءت الآية في سياق الجملة الخبرية، الاسمية، ومؤكدة تأكيدا إنكاريا، لوجود أكثر من أداة توكيد فيها؛ ففيها تكرار للظرف (إذْ) للأهمية، ثم التأكيد بضمير الإشارة (هُمْ).

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 689- 690.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 314، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 272.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص 39.

(2)- وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿الزخرف: 80﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿نَجْوَاهُمْ﴾ أي: "ما يتناجون فيه بينهم بالطعن في الإسلام وأهله، وما أسرّوه من النّفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه، وما أسرُّوا به في أنفسهم مما لا خير فيه، وَالنَّجْوَى: الْمُحَادَثَةُ بِخَفَاءٍ، أيْ: إنّ الله يَعْلَمُ مَا يُضْمِرُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَمَا يَتَحَادَثُونَ بِهِ حَدِيثَ سِرٍّ لِئَلَّا يَطَّلِعَ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ"[1].

البعد البلاغي: الاعتبار بوظائف الحواس فيما خُلقت من أجله يؤكد على أنّ حاسة السمع ما ذكرت هنا إلا لخدمة السياق، ووظفت للدلالة على وجود (قول)، و (كلام)، ومع ذلك لم يشير القرآن الكريم إلى تلك الألفاظ، بل جاء بما يشير إليها مع دلالته إلى مصاحبات أخر تعطي مساحة أوسع من مجرد (القول)، مع مزامنته، والتأكيد على حصوله! فجاء التعبير بقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ فلفظ (نجواهم) يدل على فنّ من فنون القول، وحالة من حالاته؛ وذلك بالانعزال المقصود عن النّاس، بتوافق بين المتحدثين وتسّارّ بينهم؛ بحيث لا يمكن لأي لفظ من ألفاظ القول أن يشير -بدقة- إلى هذه الانعزالية والتوافقية فلم يكن التعبير إلا به في هذا النّص المحكم، والتنويع بين حالات القول الممكنة؛ من سر ونجوى جاءت لتؤكد على سعة علمه سبحانه؛ فيما يسر في النفس ولا يطلع عليه أحد، وفيما هو مشابه للسرية من تناجي بين متحابين، متفقين على التفرد بما يتناجوا به من قول.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ جملة إنشائية، بأسلوب الاستفهام الإنكاري، والجواب فيه معروف أن: (بلى).

---

1 الطبري، جامع البيان، ج14، ص 371، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 293، أبي السعود، إرشـاد العقـل السليم، ج4، ص 86، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص 274، و ج 17، ص 13.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿المجادلة: 12﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ يعني: "إذا كلمتم الرسول سراً، ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾، وتصدقوا قبل كلامكم بها على أهل المسكنة والحاجة، وذلك أنّ المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ، حتى شقّوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيّه؛ فلما قال ذلك صبر كثير من النّاس، وكفوا عن المسألة، فلم يناجه إلا عليّ بن أبي طالب ﷺ فقدم دينارًا فتصدق به، ثم أنزلت الرخصة في ذلك. قال عليّ ﷺ: "إنّ في كتاب الله ﷻ لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي- يقصد الآية السابقة-قال: فُرِضت، ثم نُسخت". أي: فَلَمَّا نَزَلَتِ الزَّكَاةُ نُسِخَ هَذَا، ومعنى (نَاجَيْتُمْ) ساررتم"[1].

البعد البلاغي: لم تكن النّجوى في كل حالاتها تشير إلى التوافق الممجوج بين المتناجين؛ فها هي تشير إلى رغبة الصحابة بالاستئثار بالرسول ﷺ، والإكثار من مناجاته منفردا والحديث معه جانبا حبا به ﷺ . والمناجاة تشتمل على (أقوال) كثيرة، وميزات تختلف عن مجرد الأقوال لذا لم يكن كافيا أن يعبر عنها بلفظ (قال) في النّص، فكان لفظ (نَاجَيْتُمُ) الذي يشير إلى القول والميزة، وحب الاستئثار، وجاء العلاج الناجع: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾.

وجاءت الجملة القرآنية جملة نداء، إنشائية، طلبية، مصحوبة بأمر، وهو: (فَقَدِّمُوا)، وهــو الأكثر ورودا في جملة النداء، أن تكون مصحوبة بأمر أو نهي، وقد تقدم ذكر ذلك، وجاء الأمر فيها بالمعنى الحقيقي للأمر؛ حيث هو من رب العزة ﷻ إلى المؤمنين، ومــن حيــث البلاغــة البديعية؛ "فقد جاء بين لفظ (نَاجَيْتُمُ) ولفظ (نَجْوَاكُمْ) من جناس الاشتقاق"[2].

---

1 الطبري، جامع البيان، ج 23، ص 247- 249، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 418، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص 301، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص 42.
2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 429.

*****

(5)- (نصح) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من المعاجم احول مادة: (نصح) "(نَصَحَ) النُّونُ وَالصَّادُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُلَاءَمَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ وَإِصْلَاحٍ لَهُمَا. أَصْلُ ذَلِكَ النَّاصِحُ: الْخَيَّاطُ. وَمِنْهُ النُّصْحُ وَالنَّصِيحَةُ: خِلَافُ الْغِشِّ. وَنَصَحْتُهُ أَنْصَحُهُ. وَهُوَ نَاصِحُ الْجَيْبِ لِمَثَلٍ، إِذَا وُصِفَ بِخُلُوصِ الْعَمَلِ، وَالتَّوْبَةُ النَّصُوحِ مِنْهُ، كَأَنَّهَا صَحِيحَةٌ لَيْسَ فِيهَا خَرْقٌ وَلَا ثُلْمَةٌ"[1]، وتوافق بعض المعاجم القديمة مع بعض الحديثة في تعريف اللفظ؛ فجاء: "النِّصَاحُ: الْخَيْطُ يُخَاطُ بِهِ، النصحُ من قولك نصحته أنصحه، وهو خلاف الغش، (نَاصح) فلَانا نصح كل مِنْهُمَا الآخر وَفُلَان (نَاصح) نَفسه فِي التَّوْبَة أخلصها"[2].

(نصح) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (نصح) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة)[3]، جاءت بمعنى تقديم النصيحة للطّرف الآخر كلها، المعنى المتوخى من الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿الأعراف: 21﴾.

التفسير: جاء: "أنّ الشيطان حلف بالله لآدم وحواء حتى خدعهما، إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما. وَيُقَالُ: أَقْسَمَ إِقْسَامًا، أَيْ حلَف إِنِّي نَاصِحٌ لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. وَمَعْنَى الْكَلَامِ: اتَّبِعَانِي أُرْشِدْكُمَا"[4]، "وَالْمُقَاسَمَةُ ظَاهِرُهَا الْمُشَافَهَةُ"[5]، ولَمْ يَكْتَفِ إِبْلِيسُ بِالْوَسْوَسَةِ

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص 435.

2 ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص 870، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ج2، ص 925.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 702.

4 الطبري، جامع البيان، ج12، ص 351، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 179.

5 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص 312.

وَهُوَ الْإِلْقَاءُ فِي خُفْيَةٍ سِرًّا وَلَا بِالْقَوْلِ حَتَّى أَقْسَمَ عَلَى أَنَّهُ نَاصِحٌ لَهُمَا، وَالْمُقَاسَمَةُ مُفَاعَلَةٌ تَقْتَضِي الْمُشَارَكَةَ فِي الْفِعْلِ فَتُقْسِمُ لِصَاحِبِكَ وَيُقْسِمُ لَكَ تَقُولُ قَاسَمْتُ فلانا خالفته وَتَقَاسَمَا تَحَالَفَا وَأَمَّا هُنَا فَمَعْنَى وَقَاسَمَهُمَا أَقْسَمَ لَهُمَا لِأَنَّ الْيَمِينَ لَمْ يُشَارِكَاهُ فِيهَا"[1].

البعد البلاغي: (النصيحة) لفظ استخدم (مجازا) للتّعبير عن (قول) يغلب على مضمونه الرّغبة في الإصلاح، من أجل التّوفيق بين طرفين على نقيض من الرأي، والتّقريب بين وجهتيهما، بأسلوب قولي يحمل حججا وأدلة تشير –في الغالب– إلى معايشة تجارب مماثلة. ولما فيها من معنى يدل على الخلوص في العمل، والبراءة من الغش؛ تميزت باللّفظ الدّالّ على ذلك متزامنا مع معنى (القول)، لأن هذا الأخير يحمل معنى القول على إطلاقه دون الإشارة إلى خصوصية ما في دلالته، على غير ما هو عليه لفظ (النَّاصِحِينَ)؛ الذي يختص بدلالة يقتضيها السياق فجاء بها التّعبير القرآني، (القول متزامنا مع الرغبة الصادقة في إصلاح الحال، بلفظ واحد دالّ. ولنكتة بلاغية؛ تقدم لفظ (الناصحين في هذا السياق لفظ (وَقَاسَمَهُمَا) وذلك لأنّ إبليس غير صادق في نصحه –على غير المعروف من النّصيحة– اضطر لأن يقسم ويحلف –كذبا– لِيُصدّق؛ حيث لم يرد مثل هذا القسم أو غيره في نص فيه (النّصح) في القرآن الكريم.

وجاءت الآية: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ في جملة خبرية، مؤكدة بلفظ القسم الظاهر (وَقَاسَمَهُمَا)؛ أي: أنّ قوله ابتداء كان مبنيا على القسم والحلف الكاذب، وليس كأي قول أو حديث، ثمّ بحرف التوكيد: (إنّ) المشددة، ثم بتوكيد ثالث، اللام في: (لَمِنَ)؛ ذلك لأنّه ليس من السهل تصديق إبليس اللعين؛ فساق هذه المؤكدات ليخدعهما... فجاء الخبر فيها إنكاريا.

(2)– ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿هود: 34﴾.

---

1 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص 26.

التفسير:أي: "ليس ينفعكم تحذيري إياكم عقوبة على كفركم، أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله، والْمُرَادُ بِالنُّصْحِ هُنَا هُوَ مَا سَمَّاهُ قَوْمُ نوح بِالْجِدَالِ، ولكن هُوَ أَوْلَى بِأَنْ يُسَمَّى نُصْحًا، لِأَنَّ الْجِدَالَ يَكُونُ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ"[1].

البعد البلاغي: إنّ حقيقة دعوة سيدنا نوح عليه السلام بأداء (الكلمة) الصادقة المخلصة التي تخلو من الغش والخداع من أجل التقريب بين وجهتي النظر المتفاوتة بينه وبين قومه تجاه الخالق والمخلوق، والوحدانية والعبودية، وبين الحياة والموت، والبعث والجزاء، بأسلوبه الدعوي المتكرر، والمتنوع بين السر والعلن؛ كمثل الخيط الواصل بين شقي ثوب محاولا رتقه، ولكن هيهاتَ هيهات أمام إرادة الله ﷻ إن أراد أن يغويهم.

إنّ الهدف الحقيقي من الدعوة، وهو إصلاح أحوال الناس، ورتق عيوبهم العقدية، وتوثيق الرابطة بينهم وبين رسلهم؛ بقول إلهي مرسل دل عليه لفظ (فالنصْح) الذي استخدم (مجازا) كفن من فنون القول يقتضيه السياق الحالي لا يمكن لأي لفظ أن يشير إلى دقائق معانيه كاملة.

جاءت الآية القرآنية: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ...﴾ في سياق الجملة الإنشائية، بصيغة النفي، من (لا) النافية، والفعل المضارع (ينفعكم)، وجاء بين لفظ (نُصْحِي) ولفظ (أَنْصَحَ) جناس الاشتقاق.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿القصص: 20﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ "أي: إني لك في إشارتي عليك بالخروج من المدينة من الناصحين لَكَ فِي الْأَمر، والنصح لِلْإِنْسَان هُوَ الْإِشَارَة عَلَيْهِ بِمَا يصلح أمره، وَقد

---

1 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج5، ص 3382، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 391، ابن عاشـور، التحرير والتنوير، ج12، ص 61.

كَانَ السّلف يطْلب من بَعضهم البعض النصيحة. وَعَن بَعضهم أنه قيل لَهُ: أَتُرِيدُ أن تنصح؟ قَالَ: أما سرا فَنعم، وَأما جَهرا فَلَا"[1].

البعد البلاغي: (النّصيحة) لفظ استخدم -مجازا- للدلالة على (قول)، يحمل طائفة من الكلام فيها الصدق والإخلاص والرغبة في إصلاح أحوال الناس، بعيدا عن الغش والخداع؛ وهذا ما رمى إليه الرجل الصالح الذي (نصح) سيدنا موسى ﷺ بالخروج من المدينة، وقد وصلت هذه النصيحة من الطرف الأول للطرف الثاني (قولا)؛ بمعنى: (إني أقول لك كذا وكذا بأمر الخروج)، وللحكمة الإلهية، ولبلاغة يقتضيها السياق جاء التعبير بلفظ ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ بجملة خبرية اسمية، إنكارية مؤكدة بإنّ الثقيلة؛ لإزالة الشك من نفس موسى ﷺ، والتردد حيال هذا الرجل، وأنّه مختلف عما صادفه قبله من رجال، كمثل هذا الذي كان من شيعته -مثلا- ثمّ انقلب عليه، وللتأكيد على أنّ هذا الرجل الصالح صادق فيما يقول، ثم لتأكيد الخبر.

انتهى المبحث السابع بفضل الله....,

---

1 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 548، مكي بن أبي طالب، الهداية، ج8، ص 5510، السمعاني، تفسير القرآن، ج4، ص 130.

المبحث الثامن

ألفاظ القول الدالة على"المرادّة بين طرفين مختلفين" وبيان معانيها ودلالاتها، وأساليبها البلاغية

سأتناول في هذا المبحث ألفاظ القول الدالة على (المرادّة بين طرفين مختلفين) وأبين معانيها اللّغوية، ودلالاتها في سياقاتها، لمعرفة مقاصدها ومدى توافقها تحت هذا المبحث، ثمّ البحث عن معانيها أساليبها البلاغية، وعدد ورود كل لفظ في القرآن الكريم. وعدد هذه الألفاظ أثنا عشر لفظاً، هي: (جدل، حجّ، حدّ، خصم، شقّ، شكس، شكو، لجّ، مارى، ظهر، نزع، نزغ).

*****

(1)- (جدل) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم اللّغة حول مادة: "(جدل) جَدَلَ: الْجِيمُ وَالدَّالُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ مِنْ بَابِ اسْتِحْكَامِ الشَّيْءِ فِي اسْتِرْسَالٍ يَكُونُ فِيهِ، وَامْتِدَادِ الْخُصُومَةِ وَمُرَاجَعَةِ الْكَلَامِ"[1]، و "جدل: رجل جَدِلٌ مجدالٌ أي خصمٌ مخصام، والجدالُ: الخصومة؛ سمّي بذلك لشدته، والفعل جادل يجادل مُجادلةً، وجَدَلْتُه جدلاً، أو جدلته تجديلا أي: صرعته، والجدالة: الأرض، وهي صلبة وَلِذَلِكَ يُقَالُ طَعَنَهُ فَجَدَّلَهُ، أَيْ رَمَاهُ بِالْأَرْضِ، أو ألقاه على الجدالة، وجدل الحبل: فتله"[2]، وجاء في بعض التفاسير ما يؤكد المعنى اللّغوي أنّ: "الْجَدَلُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ المبالغة في

---

1 ابن فارس، مقاييس للغة (جدل).

2 الفراهيدي، العين، باب الجيم والدال واللام، الجوهري، الصحاح تاج اللغة (جدل)، ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص 179، الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، ص 126، ابن منظور، اللسان، فصل الحاء.

الخصومة، وهو مشتق من الجدل"[1]، و "الْمُخَاصَمَةُ، مِنَ الْجَدْلِ وَهُوَ الْفَتْلُ، وَمِنْهُ رَجُلٌ مَجْدُولُ الْخَلْقِ، وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْجَدَالَةِ وَهِيَ وَجْهُ الْأَرْضِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَصْمَيْنِ يُرِيدُ أَنْ يُلْقِيَ صَاحِبَهُ عَلَيْهَا، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: تَرَكْتُهُ مُجَدَّلًا، أَيْ مَطْرُوحًا عَلَى الْجَدَالَةِ"[2]، وأضاف الأصفهاني أنّ: "المجادلة: المقاتلة، أي: المنازعة؛ من الإلقاء على الجدالة، والجدال المطلق مذموم"[3]، "الْجَدَلُ: الْمُنَازَعَةُ بِمُعَاوَضَةِ الْقَوْلِ، أَيْ هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يُحَاوِلُ بِهِ إِبْطَالَ مَا فِي كَلَامِ الْمُخَاطَبِ مِنْ رَأْيٍ أَوْ عَزْمٍ عَلَيْهِ: بِالْحُجَّةِ أَوْ بِالْإِقْنَاعِ أَوْ بِالْبَاطِلِ"[4]، "والجدال غالباً ما يكون في جوّ صاخب، وقد ينشأ عنه خصومة وعناد"[5]، وجاء في التحرير والتنوير أيضا أنه: "اخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِالْجِدَالِ فَقِيلَ السِّبَابُ وَالْمُغَاضَبَةُ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مُدَارَسَةَ الْعِلْمِ وَالْمُنَاظَرَةَ فِيهِ لَيْسَتْ مِنَ الْجِدَالِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْمُجَادَلَةَ فِي إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ وَإِقَامَةِ حُدُودِ الدِّينِ لَيْسَتْ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ فَالْمَنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ مَا يَجُرُّ إِلَى الْمُغَاضَبَةِ وَالْمُشَاتَمَةِ"[6]. والمجادلة على وزن مفاعلة، فتقتضي المشاركة.

(جدل) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (جدل) واشتقاقاته في القرآن الكريم تسعاً وعشرين مرة)[7]، كلها بمعنى واحد؛ هو الخصومة ومراجعة الكلام بشدّة، منها:

---

1 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص 27.
2 الطبري، جامع البيان، ج9، ص 190، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج5، ص 377.
3 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج3، ص 1427.
4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص 348.
5 المنتدى الإسلامي، مجلة البيان، ج23، ص 17.
6 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 235.
7 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 165.

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ ﴿النساء: 107﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "أن يا محمد لَا تُحَاجِجْ فتخاصم عَنِ الَّذِينَ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، من باب المخاصمة"[1].

البعد البلاغي: (جدل) فنٌّ من فنون (القول) المنهي عنه في هذا السياق؛ لأنّ الله ﷻ نهى سيدنا محمّدا ﷺ أن يحاجج عن أهل الشرك وأن يجادل عنهم، ونهاه أن يكون نصيراً لهم خوفاً عليهم؛ لأنه يدافع عنهم وهو لا يعلم حقيقة ما يخفون، ولو علم ما يخفون وما يبطنون من الكذب والخيانة لما جادل عنهم، ولأنه ﷺ أعلم بما يخفون من الخيانة؛ فقد نهاه عن الإتيان بهذا العمل.

والجدال المنهي عنه سيتضمن أقوالا وحججا تطرح من الفريق المجادل للفوز بالنتيجة التي يطلبها؛ وبما أنه نهي ﷺ عن المجادلة فهذا يعني عدم مصداقية ما يدلي به أهل الشرك من أقوال ومعاذير. وبناء على المدلول اللّغوي للفظ (جدل) فإنه يحمل معنى (القول) مضافاً إليه الأسلوب الحادّ في الحوار، والصخب الذي جعله مذموما؛ مما يؤكد أنّ لفظ (قال) هكذا مفردا لا يشف عنها، ولا يفي بالغرض المقصود؛ لأنّه سيكون من عموم الأقوال، وعموم الأقوال غير منهي عنها بالطبع؛ لأنها تتضمن أساليب مختلفة ومتنوعة من الحوار السهل، والجدال الحادّ، على غير ما هو مفهوم من (جدل) المنهي عنه تحديدا. ومن حيث البلاغة المعنوية فقد تصدرت الآية بأسلوب النهي: (وَلَا تُجَادِلْ) للتأكيد على أنّ فكرة الجدال دائما لا تأتي بخير، وفائدة النهي عن أمر ما لمجانبته، والحث على إتيان ما هو على العكس منه؛ لأن الخير فيه؛ فترك الجدال أحفظ للنفس من الوقوع في الزلل، وأبعد الطرق عن سلوك طرق الخصام.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج9، ص 190، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج5، ص 377.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿هود: 74﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿يُجَادِلُنَا﴾ "أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام كان يجادل الرسلَ على وجه المحاجّة لهم. ولم يكن يجادل بمعنى يخاصم، وكان يجادلهم في قوم لوط، وذكر أنّ مجادلته إياهم إنّه قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المؤمنين أمعذبوهم أنتم؟ قالوا: لا! حتى صار ذلك إلى عشرة قال، أرأيتم إن كان فيها عشرة أمعذبوهم أنتم؟ قالوا: لا!"[1]، وأضاف البيضاوي أنه: "اجترأ على خطابنا، أو فطن لمجادلتنا، ويجادل رسلنا في شأنهم ومجادلته إياهم قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ﴿العنكبوت: 32﴾"[2]، وأكد ابن عاشور على مجادلة سيدنا إبراهيم عليه السلام أنها: "الْمُجَادَلَةُ: الْمُخَاصَمَةُ بِالْقَوْلِ وَإِيرَادُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وصنفها بأنها من أبواب الْخَيْرِ: ﴿يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾، بالمقابل أنّ هناك مجادلة تَكُونُ فِي الشَّرِّ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ﴾ ﴿الْبَقَرَة:197﴾"[3].

البعد البلاغي: جاء في جانب من الجوانب اللغوية للفظ (جدل) أنّه يصح في أمور العلم والمناظرة، وإيراد الحجة بالحجة بالخير؛ وذلك عندما تقرع الحجج والبراهين المبنيّة على علم ومعرفة، وعدم الرّغبة في النّزاع والخصام، وعندما تكون محاجّة مبنية على أساس واقعي سليم، "وإن كان أكثر ما جاء من لفظ الجدال في القرآن الكريم يطلق على الجدال المذموم، ولكن جاء اللفظ في القرآن أيضًا في مواضع محمودة، وهو نوع من أنواع الحوار"[4]، وهو ما كان ينتهجه سيدنا إبراهيم عليه السلام في حواره مع الرسل -عليهم السلام- عن قوم لوط، وخوفه عليهم، ورغبته

---

1 الطبري، جامع البيان، ج15، ص 403- 404.

2 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص142.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 60.

4 فجر الأمة، الحوار، أهميته، أصوله، آدابه، أرشيف ملتقى أهل التفسير، ص 19600.

في دفع العذاب عنهم، فكان يجادل طرفا آخر، والطرف الآخر يردّ بالأسباب الموجبة للعذاب، وكلٌّ منهما يريد أن يكون هو صاحب الرأي الصائب في إيقاع العذاب، أو في دفعه.

إنّ لفظ (جدل) -بحسب المدلول اللّغوي- هو الذي كشف عن وجود أكثر من طرف (يجادل) ويفتل رأيه ليقويه، كما كشف عن وجود أكثر من رأي تجاه قضية واحدة، وهذا بالضرورة لن يتحقق بوجود أي لفظ، مثل لفظ (قال)، علماً بأنه يعبر عن (القول) ولكنّه لا يعبر عن المراد إيصاله للمتلقي بلفظه المنفرد عمّا كان يدور بين الرسل، وسيدنا إبراهيم -عليهم السلام- في هذا النّص القرآني الحواري، من الحجة ومقارعتها بالحجة المقنعة؛ وبهذه (المجادلة) يكون الطرفان كمن يجدل حبلاً، هذا يمسك طرفه الأول (بقوله) والطرف الثاني يرد عليه بفتل الحبل ثانية بما يناسبه من الطول والمقاس؛ وهذا ما يكون سببا في بيان براهين كل طرف، بطرح كل ما له شأن بالقضية موضوع الجدل، مما يوسع أبعادها، ويضاعف من أهميتها لدى المستمع ؛ ويجعل المتلقي على قناعة بما أسفرت عنه النتائج. وهذا الجدل نوع من أنواع الحوار بين طرفين متفقين؛ فالطرفان هما من هما؟ إنهما الملائكة وسيدنا إبراهيم - عليهم السلام-.

وجاءت الآية في سياق الجملة الخبرية الفعلية؛ جوابا لأداة الشرط غير الجازمة (لَمَّا): ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾، والتقدير قوله (أخذ يجادلنا)، واسمها في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ في بداية الآية نفسها.

(3)- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿العنكبوت:46﴾.

التفسير: جاء عند السمرقندي في: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: "ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ، وإلى دينه، وإلى طاعته بِالْحِكْمَةِ، وبالنّبوة والقرآن وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وعظهم وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وناظرهم بالحجّة والبيان. وباللّين. وفي الآية دليل أنّ المناظرة والمجادلة في العلم جائزة، إذا قصد بها إظهار الحق"[1]، وأضاف صاحب الهداية: "لا تجادلوا اليهود والنّصارى إلاّ بالجميل من القول، وهو الدّعاء إلى الله والتّنبيه على حججه"[2]، وأكد القشيري أنّه: "ينبغي أن يكون منك للخصم تبيّين، وفي خطابك تلييّن، وفي قبول الحق إنصاف، واعتقاد النّصرة- لمّا رآه صحيحا- بالحجة، وترك الميل إلى الشيء بالهوى"[3]، وجاء عند البغوي و الزمخشري أن: "جَادِلُوهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ، إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمّة ومنعوا الجزية، فإن أولئك مجادلتهم بالسّيف"[4]، "وبالخصلة التي هي أحسن كمعارضة الخشونة باللّين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنّصح"[5]، وأضاف السعدي: "ولمّا كان الإنسان لا يسع النّاس بماله، أمر بالإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، امتثالا لأمر الله، ورجاء لثوابه، لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي"[6]. وَالْمُجَادَلَةُ: مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْجَدَلِ، وَهُوَ إِقَامَةُ الدَّلِيلِ عَلَى رَأْيٍ اخْتَلَفَ فِيهِ صَاحِبُهُ مَعَ غَيْرِهِ"[7].

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 297.

2 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج9، ص 5635.

3 القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 100.

4 البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ج6، ص 247، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 457.

5 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 169.

6 السعدي، تيسير الكريم الرحمن،ج1، ص 57، ص 755.

7 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 21، ص 5.

البعد البلاغي: كشف لفظ (تُجَادِلُوا) عن وجود فريقين يختصمين حول موضوع جدلي، وأن كل فريق يدلي بما لديه من براهين وأسباب ليقنع بها الطرف الآخر، ولم يكن ليكشف عن هذه الأراء و الرد عليها دون وسيط مشترك؛ فكان (القول)؛ ومع ذلك لم يرد في هذا السياق، علما بأن عليه المعول، وعليه النتائج، ولكن ورد التعبير بما يشير إليه ضمنا، مضافا إليه معان أخرى جمعها لفظ (وجادلهم)؛ ذلك إنّه لا يمكن للفظ (قال) أن يشير إلى دقائق ما في المجادلة؛ علما أنّ كلا اللفظين من ألفاظ القول. مما يؤكد أنّه لو اتفقت بعض الألفاظ في بعض المعاني لا يعني أنها تتفق في جميعها، وجاءت الجملة: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى النهي، من (لا) الناهية، والفعل المضارع (تُجَادِلُوا)، معطوفة عَلَى جُمْلَةِ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ﴿العنكبوت: 45﴾ السابقة، وَجِيءَ فِي النَّهْيِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لِيَعُمَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَالْمُسْلِمِينَ إِذْ قَدْ تَعْرِضُ لِلْمُسْلِمِينَ مُجَادَلَاتٌ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي غَيْرِ حَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ قَبْلَ قُدُومِهِ الْمَدِينَةَ. وبِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مُسْتَثْنًى مِنْ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ الْمُسْتَثْنَى، تَقْدِيرُهُ: لَا تُجَادِلُوهُمْ بِجِدَالٍ إِلَّا بِجِدَالٍ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"[1]، وجاءت جملة صلة الموصول تحدد نوع المجادلة المأمور بها الداعية بأنها: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ دليل على وجود أسلوب آخر من الجدل هو: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾.

(4)- و قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ﴿غافر: 5﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ...﴾ في جامع البيان: "ما يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها، إلا الذين جحدوا توحيده"[2]، وفي بحر العلوم: "﴿وَجَادَلُوا

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 21، ص 5- 6.

2 الطبري، جامع البيان،ج21، ص 352.

بِالْباطِلِ...﴾ أي: جادلوا بالشرك، ليبطلوا به دين الحق، وهو الإسلام، والذي جاء بـه الرسـل. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ أي: عاقبتهم﴾"[1]، وفي معالم التنزيل: "لِيُبْطِلُوا، (بِهِ الْحَقَّ) الَّـذِي جَـاءَ بِـهِ الرُّسُـلُ وَمُجَادَلَتُهُمْ مِثْلُ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ ﴿إبراهيم:10﴾، و﴿لولا أُنْزِلَ عَلَيْنَـا الْمَلَائِكَـةُ﴾ ﴿الْفُرْقَانِ:21﴾ وَنَحْوَ ذَلِكَ"[2]، ووضّح الزمخشري أن: "سجل على المجـادلين فـي آيـات الله بالكفر، والمراد: الجدال بالباطل، من الطعن فيها، والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نـور الله، وقد دلّ على ذلك: ﴿وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ فأمّا الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهـاد فـي سبيل الله، وقال ﷺ: «إنّ جدالا في القرآن كفر» وإيراده منكرا، وإن لم يقل: إنّ الجدال، تمييـز منه بين جدال وجدال"[3]، وجاء أيضا أنّ الله ﷻ: "يخبر أنّه ما يجادل في آياته إلا الذين كفـروا والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفـار، وأمـا المؤمنون فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل"[4]. "وَالْمُرَادُ هُنَا مُطْلَقُ الْجَدَلِ وَبِخَاصَّةٍ مَا كَانَ مِنْهُ بِبَاطِلٍ، أَيْ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي طَبْعِهِ الْحِرْصُ عَلَى إِقْنَاعِ الْمُخَـالِفِ بِأَحَقِّيَّـةِ مُعْتَقَدِهِ أَوْ عَمَلِهِ. وَسِيَاقُ الْكَلَامِ يَقْتَضِي إِرَادَةَ الجدل الْبَاطِلِ"[5].

البعد البلاغي: يتبين أنّ الجدل هو الأخذ والرد بالكلام، و(القول) وإيراد حجج مـن أجـل دحض طرح الطرف الآخر، ورغم أنّ الرد بـ(القول)؛ إلا أنّ وجود أكثر من طرف واختلافهم حول الموضوع، وتضاربهم حول وجهات النظر، وتبادلها بأسلوب عدائي، يخلو مـن اللطـف

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 198.

2 البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ج7، ص 139.

3 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 150.

4 السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن، ص 731.

5 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص 349.

واللين، وتمسك كل طرف بوجهة نظره، وعدم إذعانه لتصديق الطرف الآخر؛ أخذ هذا الأسلوب من التقاول صفة (الجدل)؛ لأنّ لفظ (القول) لا يف بتلك الصورة الجدلية.

ولا يفوت الدراسة أن تضيف في هذا الصدد أنّ مادة (الجدل) إحدى مواد فكرة ثقافة الحوار التي دعا إليها القرآن الكريم، "ذلك لأن الحوار لم يكن هامشيا ضيقا أو ثانويا في النص القرآني بل شكل معلما بارزا فيه. إنّ القرآن جاء بالحوار، ودعا إليه، وحدد ضوابطه، وحذر من منزلقاته، ولم ترد كلمة حوار في القرآن الكريم إلا في آيات ثلاث، إلا أنّ الحوار باعتباره وسيلة تواصلية أوسع من حصره في هذه الكلمة، فقد جاء التعبير عنه بمفردات أخرى قريبة منه من أهمها الجدل التي وردت في تسعة وعشرين موضعا، وقد تمثّل الحوار في مستويات عدة؛ الحوار بين الأنبياء والملائكة، وقد مثل طرفا منها حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام ويشهد لهذا القسم آيات كثيرة منها قوله تعالى عن ابراهيم عليه السلام، التي مر بنا تفسيرها: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿هود: 74﴾. ففي الآية وصف موقف إبراهيم بأنّه جدال منه، ثم مدح موقف إبراهيم بقوله تعالى: ﴿إنّ إبراهيم لحليم أواه منيب﴾"[1].

ولقد قصدتُ في هذه المادة الحوارية الجدلية أن أستشهد بأكثر من آية دالة على أنواع (الجدل)؛ للوقوف على أكثر من تصنيف له؛ منه الجدل المنهي عنه؛ كما في الشاهد الأول: الذي نهى فيه رب العزة ﷻ سيدنا محمدا ﷺ الجدال عن الكافرين؛ لأن الجدل عنهم لا يجدي معهم، ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لأنهم خانوا أنفسهم وخانوا أماناتهم؛ والله: ﴿لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾، وفي الشاهد الثاني: جدال سيدنا إبراهيم عليه السلام مع الملائكة عليهم السلام من باب الحوار وإيراد الحجج المقنعة، ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ

---

1 الدكتور مولاي عمر بن حماد، ثقافة الحوار في القرآن ، كلية الآداب المحمدية، أرشيف ملتقى أهل التفسير، ص 4553.

لُوطٍ﴾، وفي الشاهد الثالث: مجادلة أهل الكتاب ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ لأنها أفضل طرق الحوار التي يتوخى منها نتائج مرضية، أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، لأنهم أهل كتاب، وعندهم ثقافة الحوار، على غير ما هم عليه المشركين، والشاهد الرابع : أوردته من باب ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾؛ ذلك لأنّ هدفهم: ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، فكانت عاقبتهم: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ أي: عاقبتهم﴾ على غير ما وصف فيه رب العزة ﷻ سيدنا إبراهيم عليه السلام في معرض جداله للملائكة –عليهم السلام– مادحا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.

*****

(2)– (حجّ) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "(حجج) حَجَّ: الْحَاءُ وَالْجِيمُ أُصُولٌ أَرْبَعَةٌ. فَالْأَوَّلُ الْقَصْدُ، وَكُلُّ قَصْدٍ حَجٌّ. ثم تُعورِفَ استعماله في القصد إلى مكة للنُسك؛ وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: الْحِجَّةُ وَهِيَ السَّنَةُ. وَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يُجْمَعَ هَذَا إِلَى الْأَصْلِ الْأَوَّلِ; لِأَنَّ الْحَجَّ فِي السَّنَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، فَكَأَنَّ الْعَامَ سُمِّيَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحَجِّ حِجَّةً. والحجّة: البرهان والدليل، وَمِنَ الْبَابِ الْمَحَجَّةُ، وَهِيَ جَادَّةُ الطَّرِيقِ. وَمُمْكِنٌ أَنْ يَكُونَ الْحُجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذَا ; لِأَنَّهَا تُقْصَدُ، أَوْ بِهَا يُقْصَدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ. يُقَالُ حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَجَجْتُهُ أَيْ غَلَبْتُهُ بِالْحُجَّةِ، وَذَلِكَ الظَّفَرُ يَكُونُ عِنْدَ الْخُصُومَةِ، أو مَا دُوفِعَ بِهِ الْخَصْمُ؛ وَالْجَمْعُ حُجَجٌ. وَالْمَصْدَرُ الْحِجَاجُ، وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: الْحِجَاجُ، وَهُوَ الْعَظْمُ الْمُسْتَدِيرُ حَوْلَ الْعَيْنِ. يُقَالُ لِلْعَظِيمِ الْحِجَاجِ أَحَجُّ، جَمْعُ الْحِجَاجِ أَحِجَّةٌ. وَالْأَصْلُ الرَّابِعُ: الْحَجْحَجَةُ النُّكُوصُ. يُقَالُ: حَمَلُوا عَلَيْنَا ثُمَّ حَجْحَجُوا وَالْمُحَجْحِجُ: الْعَاجِزُ، وَيُقَالُ أَنَا لَا أُحَجْحِجُ فِي كَذَا، أَيْ لَا

أَشُكُّ. يَقُولُونَ: لَا تَذْهَبَنَّ بِكَ حَجْحَجَةٌ وَلَا لَجْلَجَةٌ. وَرَجُلٌ حَجْحَجٌ: فَسْلٌ"[1]. "والتحاجُّ: التخاصُم. وحَجَجْتُهُ حَجّاً. فهو حجيج. ورَجُلٌ مِحجاجٌ أي جَدِلٌ؛ وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً: نَازَعَهُ الحُجَّةَ. وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً: غَلَبَهُ عَلَى حُجَّتِه. واحتَجَّ بالشيء: اتَّخَذَهُ حُجَّةً؛ فَجَعَلْتُ أَحُجُّ خَصْمِي أي أغْلِبُه بالحُجَّة"[2]. و "الْحُجَّةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَا يُقْصَدُ بِهِ إِثْبَاتُ الْمُخَالِفِ، بِحَيْثُ لَا يَجِدُ مِنْهُ مناصاً، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لِلَّذِي غَلَبَ مُخَالِفَهُ بِحُجَّتِهِ قَدْ حَجَّهُ، وَأَمَّا الِاحْتِجَاجُ فَهُوَ إِتْيَانُ الْمُحْتَجِّ بِمَا يَظُنُّهُ حُجَّةً وَلَوْ مغالطة يُقَال احتَجَّ وَيُقَال حَاجَّ إِذَا أَتَى بِمَا يَظُنُّهُ حُجَّةً فَالْحُجَّةُ لَا تُطْلَقُ حَقِيقَةً إِلَّا عَلَى الْبُرْهَانِ وَالدَّلِيلِ النَّاهِضِ الْمُبَكِّتِ لِلْمُخَالِفِ"[3].

(حجّ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (حجّ) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاثاً وثلاثين مرة، واحدة منها بمعنى السنين، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿القصص: 27﴾، واثنتي عشرة مرة بمعنى الحج، أو النسك، وعشرون مرة بمعنى البرهان والدليل، أو التخاصم بالقول؛ جانب من مقاصد الدراسة"[4]، منها:

---

1 الجوهري، الصحاح (حجج) ابن فارس، مجمل اللغة (باب الحاء والدال) ج1، ص 221، ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص 29و ص 30_ 31، و ص 142.

2 الفراهيدي، العين، باب الجيم والدال واللام، الجوهري، الصحاح تاج للغة (جدل)، ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص 179، الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، ص 126، ابن منظور، اللسان، فصل الحاء، ج2، ص 228.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 46.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 193- 194.

(1)- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿البقرة: 258﴾.

التفسير: جاء في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: "ألم تر يا محمد بقلبك إلى الذي خاصم إبراهيم"[1]، بمعنى أنّ هذا النمرود هو الذي كان يخاصم سيدنا إبراهيم عليه السلام"[2]، وكان يحاجج بما يظنه حجّة، وهو في الحقيقة على سبيل المغالطة لا على سبيل بيان الحقيقة والبرهان.

البعد البلاغي: يتبين أنّ (المحاجّة) فن من فنون (القول) يحمل معناه؛ مع الكشف عن وجود أكثر من طرف يتبادلانه على خلاف بينهما حول قضية ما، فيدلي كل منهما ببرهانه ليقنع الطرف الآخر ويستميله إليه، أو أن يثبت صدق ما يدعي -ولو كان باطلا-كما هو الشأن مع النمرود في محاجته سيدنا إبراهيم عليه السلام، و أكثر ما يميز هذا القول عن غيره من الأقوال هي: قوة الطرح، ومحاولة الإقناع بالأدلة والبراهين؛ لذا لم يكن كافياً معه ولا شافياً في هذا النص القرآني لفظ (قال). "وتمثل هذه المحاجّة أسلوباً من الأساليب والوسائل الدعوية التي جاء بها القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ جملة إنشائية، استفهامية، تفيد معنى الخبر، أي أنّ الاستفهام فيها تقريري، والرؤيا فيها قلبية، وليست عينيه، ولكن لصدق مصدرها فأصبحت في عداد العينية، والمشاهدة على الحقيقة.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج5، ص 429.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 46.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿الأنعام: 80﴾.

التفسير: جاء في التفاسير أن: "جادل إبراهيم قومه في توحيد الله وبراءته من الأصنام، كما جادلوه؛ وكان جدالهم إياه قولُهم: أنّ آلهتهم التي يعبدونها خيْر من إلهه. فقال لهم: ﴿أتحاجّونّي في الله﴾، أي: أتخاصمونني في الله وتجادلونني في توحيدي له، وإخلاصي العمل له دون ما سواه من آلهة وقد هداني، ووفقني لمعرفة وحدانيته، حتى أيقنتُ أن لا شيء يستحق أن يعبد سواه ولا أخاف ما تشركون به"[1]، كما جاء أيضاً: أن: حاجّ يحاجّ حجاجا ومحاجّة وهي الجدل والتّخاصم، الْمُحَاجَّةُ مُفَاعَلَةٌ مِنِ اثْنَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي حُكْمَيْنِ يُدْلِي كُلٌّ مِنْهُمَا بِحُجَّتِهِ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ "[2]، وذكر أنّ: "الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ كان كافر، لِقَوْلِهِ: (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)، وأَنَّهُ خَاصَمَهُ خِصَامًا بَاطِلًا فِي شَأْنِ صِفَاتِ اللَّهِ رَبِّ إِبْرَاهِيمَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ نُمْرُودُ بْنُ فَالِخِ بْنِ عَابِرِ بْنِ شَالِحِ[3]. "وقيل نمرود بن كنعان، وكان قد ملك الدنيا"[4]، "وَالْمُحَاجَّةُ مُفَاعَلَةٌ مُتَصَرِّفَةٌ مِنَ الْحُجَّةِ، وَهِيَ الدَّلِيلُ الْمُؤَيِّدُ لِلدَّعْوَى. وَلَا يُعْرَفُ لِهَذِهِ الْمُفَاعَلَةِ فِعْلٌ مُجَرَّدٌ بِمَعْنَى اسْتَدَلَّ بِحُجَّةٍ، وَإِنَّمَا الْمَعْرُوفُ فِعْلُ حَجَّ إِذَا غَلَبَ فِي الْحُجَّةِ، فَإِنْ كَانَتِ احْتِجَاجًا مِنَ الْجَانِبَيْنِ فَهِيَ حَقِيقَةٌ وَهُوَ الْأَصْلُ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ بِاعْتِبَارِ أَنَّ مُحَاوِلَ الْغَلَبِ فِي الْحُجَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَلَقَّى مِنْ خَصْمِهِ مَا يَرُدُّ احْتِجَاجَهُ فَتَحْصُلُ الْمُحَاوَلَةُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، فَبِذَلِكَ الِاعْتِبَارِ أُطْلِقَ عَلَى الِاحْتِجَاجِ مُحَاجَّةٌ، أَوِ الْمُفَاعَلَةُ فِيهِ

---

1 الطبري، جامع البيان، ج11، ص 488، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، مجلة البحوث الإسلامية -مجلة دورية- ،ج68، ص 173.

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج4، ص 569.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 32، و ج7، ص 325.

4 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج1، ص 536.

لِلْمُبَالَغَةِ. وَالْأَوْلَى حَمْلُهَا هُنَا عَلَى الْحَقِيقَةِ بِأَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى حُصُولَ مُحَاجَّةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ"[1].

البعد البلاغي: من الواضح أنّ هذه المناظرة، وهذا الطرح لقضية كبرى مثل قضية سيدنا إبراهيم ﷺ مع قومه، في قضية التوحيد، وإثباتها والدفاع عنها تحتاج إلى كلام، و (أقوال) تتبادل، وهو ما كان بالفعل؛ حيث الحجّة تناظر بما يقرعها ويدحضها؛ فإن كانت من طرف سيدنا إبراهيم ﷺ فهي محاجّة على وجه الحقيقة، وإن كانت من قومه فهي من باب الجدل والتّخاصم الباطل، ولما في هذه الـ(أقوال) من غنى وقيمة عند كلا الجانبين؛ حيث يضع فيها كل منهم كل ما أوتي من قوة وبرهان ليبيّن صدق ما يدعو إليه – بحسب معتقده- فلم يكن ليجدي عنها في التعبير بـ(القول) وجعلها من جملة الأقوال العادية المألوفة؛ فجاءت التّعبير القرآني بتفصيل هذا القول وبيان نوعه أنّه (محاجّة)، مشيرا إلى أطرافها، وجوهرها، وأنها قضية كبرى تستحق إثبات براهين وأدلة عقلية ومنطقية، أو بوجود معتقد يعبر عنه غير طرف، بأسلوب حججي قوي، يختلف في فحواه عن (القول)؛ ليعطي المتلقي مساحة أوسع من التفكير والبحث في تلك المحاجّة بين سيدنا إبراهيم ﷺ وقومه. و جاء بين لفظ (وَحَاجَّهُ) و (أَتُحَاجُّونِّي) جناس الاشتقاق؛ وهذا ما زاد من قوة سيدنا إبراهيم ﷺ في الرد، والمواجهة، حينما خاطبهم صراحة بما ينتهجون من طرق باطلة، مطلقاً الاسم الحقيقي على أسلوبهم، مستغربا منهم هذا النهج في إدلاء الحجج والبراهين لمعرفة الحقيقة؛ متسائلا باستنكار ﴿أتحاجّونّي في الله﴾؟. وهل أنتم على المستوى المطلوب من هذه المحاجة؟ وهل تظنون مني التصديق بحججكم وأنا مؤيد من الله ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾؛ لأنّ الذي يدافع عن قضيته ويدعي أنّه على صواب لا يفعل مثل من تفعلون، ويأتي بالبراهين والحجج لأنه (موقن) أنه على حق. إذن فالمجادلة والمقارعة بالحجة تتطلب

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 32، و ج7، ص 325.

مؤهلات ورصيد من العلم. فقبل أن يحاجج لا بد من توفر المؤهلات. والمؤهلات التي يجب أن تتوفر في إبراهيم هي أن يكون عنده (اليقين) واثقا من ربه، ومن قضيته الإيمانية، ومن قـدرة نفسه، فإذا توفرت فيه هذه الشروط فليحاجج من يشاء من المشركين. وبعد هذا الرصيد اليقينـي فليحاجه من يشاء، فجاءت الآية بعد ذلك تقول: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِـي اللَّـهِ وَقَـدْ هَدَانِ...﴾ فماذا بعد الهداية من الله من تأييد؟، وكلما ذكر الله لنا في القرآن محاجة قوم إبراهيم إلا ونبه قبل ذلك على مؤهلاته اليقينية"[1].

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ جملة خبرية فعلية، بـصيغة المبالغـة، وجـاءت الجملة: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ إنشائية استفهامية، بدخول همزة الاسـتفهام علـى (تُحَاجُّونِّي) والسؤال فيها استنكاري. والهمزة أداةٌ يُطلَبُ بها التصوّر، ويُطلَبُ بها التصديق"[2].

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿الشورى: 16﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: "يخاصمون في دينه مِنْ بَعْدِ مـا استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام، ليردّوهم إلى دين الجاهلية، وقيل إنها نَزَلَتْ فِي طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ هَمَّتْ بِرَدِّ النَّاسِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَإِضْلَالِهِمْ وَمُحَاجَّتِهِمْ، بَلْ قَالُوا: كِتَابُنَا قَبْـلَ كِتَـابِكُمْ، وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ فَدِينُنَا أَفْضَلُ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ، كَانُوا يُجَادِلُونَ فِـي هَذَا الْمَعْنَى، وَيَطْمَعُونَ فِي رَدِّ الْمُؤْمِنِينَ إلى الجاهلية"[3].

---

1 أبو مجاهد العبيدي، أرشيف ملتقى أهل التفسير، ص 2077.

2 حبنكة، البلاغة العربية، ج 1، ص 260.

3 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 217، أبو حيان الأندلسي، البحر المحـيط، ج9، ص 330، أبـو الـسعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص 28.

البعد البلاغي: لقد أطلق القرآن الكريم لفظ (يحاجّون) أو (الحجّة) على ادعاءات وردت على لسان الكفرة، أرادوا منها الكيد للإسلام وللمسلمين، ومخاصمة أهله بأقوالهم الباطلة، والتي يظنّون بها الصّدق والإقناع؛ بأن كتابهم قبل القرآن الكريم، ونبيهم قبل نبينا، وعبر بأنّها (حجّة) ولكنه أكد عليها في الوقت نفسه أنّها (داحضة)؛ لأنها تفتقد إلى الدليل العلمي، والبرهان العقلي اللذان بهما تكتمل الحجج وتُعتَمد، أمّا غير ذلك فهو باطل، لأنّه ومع ما يختصمون فالقرآن آخر الكتب السماوية، ورسالة محمّد ﷺ آخر الرسالات التي عليهم إتباعها، ولو لم يكن التعبير بلفظ (الحجّة) لما تبيّن من النّص رغبتهم في النّزاع والمخاصمة؛ علما أن ما يدعونه هي: (أقوال)؛ ولو جاء التعبير عنها بلفظ (القول) لا يبين أنّها محاجة جدلية تحتاج أخذ ورد. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ جملة خبرية تقريرية.

وقد جاء بين لفظ (يُحَاجُّونَ) و (حُجَّتُهُمْ) جناس الاشتقاق؛ واستخدام الفعل والتأكيد عليه من أصل مصدره هو ذاته، للتأكيد على أنّ هو نفسه مرفوض ومدحوض جملة وتفصيلا؛ "لأنه لا محاجة في ذات الله ﷻ"[1].

*****

(3)- (حدّ) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: (حدّ) "الحَدُّ: المَنْعُ، والمُحادَّةُ: المُخالفة، ومَنْعُ ما يَجِبُ عليك. وكذلك التَحادُّ. والحَديدُ معروف، لأنّه مَنيعٌ. والمُحادَّة: الْمُعَادَاةُ وَالْمُخَالَفَةُ وَالْمُنَازَعَةُ، وَهُوَ مُفَاعلة مِنَ الْحَدِّ كأَنَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُجَاوِزُ حَدَّهُ إِلى الْآخَرِ. وحُدُود اللَّهِ تَعَالَى: الأَشياء الَّتِي

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 745.

بيّن تَحْرِيمَهَا وَتَحْلِيلَهَا، وأمر أن لَا يُتعدى شَيْءٌ مِنْهَا فَيَتَجَاوَزُ إِلى غَيْرِ مَا أمر فِيهَا أو نَهَى عَنْهُ مِنْهَا، وَمَنَعَ مِنْ مخالفتها، وفلان حَديدُ فلان: إذا كان أرضه إلى جنب أرضه"[1].

(حدّ) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (حدّ) واشتقاقاته في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة)[2]؛ أربعة عشر مرة بمعنى حُدُود اللَّهِ تَعَالَى، أي: الأشياء الَّتِي بيَّن تَحْرِيمَهَا وَتَحْلِيلَهَا، وست مرات ورد بلفظ الحديد، العنصر الصلب المعروف، وخمسة منها بالمعنى المقصود منَ الدّراسة، والتي تعني الْمُعَادَاةُ وَالْمُخَالَفَةُ وَالْمُنَازَعَةُ، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿التوبة: 63﴾.

التفسير: جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ أي: "ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يحلفون بالله كذبًا للمؤمنين ليرضوهم، أنّه من يحارب الله ورسوله، ويخالفهما ويناوئهما؛ و يخالف أمر الله في الفرائض، وأمر رسوله في السنن وفيما بيّن، ويعادي الله ورسوله، فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ" خالدًا فيها، إلى غير نهاية؟"[3]، و"المحادّة مفاعلة من الحدّ، كالمشاقة من الشقّ"[4]، و"الْمُحَادَّةُ أيضا: وُقُوعُ هَذَا فِي حَدٍّ وَذَاكَ فِي حَدٍّ، و يُقَالُ: حَادَّ فُلَانٌ فُلَانًا أَيْ صَارَ فِي حَدٍّ غَيْرِ حَدِّهِ"[5]، و"هي: الْمُعَادَاةُ وَالْمُخَالَفَةُ"[6].

---

1 الجوهري، الصحاح، ج2، ص 462- 463، ابن منظور، اللسان، ج3، ص 140.
2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 195.
3 الطبري، جامع البيان، ج14، ص 330، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 69.
4 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 285.
5 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص 194.
6 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص 246.

البعد البلاغي: جاء التعبير القرآني عن المعاداة والمخالفة لأمر الله ﷻ ولرسوله ﷺ سواء بالقول أو بالفعل بلفظ (المحادّة) ذلك لأن المخالف يقع في حد ما نهى عنه الشرع، ودخل فيما أمر أن يكون حذرا منه، كما أنّ (المحادّة) تعني المشاقّة و الْمُعَادَاةُ وَالْمُخَالَفَةُ وَالْمُنَازَعَةُ، وَهِي مُفاعلة تعني المشاركة؛ لوجود أكثر من جانب يشارك في هذا العمل ومخالفة القول؛ فهؤلاء الكفرة والمنافقون يخالفون أمر الله ويحلفون كذبا وزورا للمؤمنين ليرضوهم، وهم يبطنون النفاق والكذب، وحلفهم هذا ومخالفتهم لأمر الله هي المحادّة اللفظية المنهي عنها، ولو كان التعبير القرآني بلفظ (قال) أو أحد مشتقاته في هذا السياق لما فهم منه التعبير عن وجود مخالفين ومعاندين لله في أقوالهم وأفعالهم. ومن حيث البلاغة المعنوية؛ فقد جاءت الجملة القرآنية ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ جملة إنشائية،استفهامية، "وَالِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْإِنْكَارِ وَالتَّشْنِيعِ، لِأَنَّ عَدَمَ عِلْمِهِمْ بِذَلِكَ مُحَقَّقٌ بِضَرُورَةِ أَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِالرَّسُولِ، وَبِأَنَّ رِضَى اللَّهِ عِنْدَ رِضَاهُ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ عَدَمُ عِلْمِهِمْ بِذَلِكَ غَرِيبًا لِوُجُودِ الدَّلَائِلِ الْمُقْتَضِيَةِ أَنَّهُ مِمَّا يَحِقُّ أَنْ يَعْلَمُوهُ، كَانَ حَالُ عَدَمِ الْعِلْمِ بِهِ حَالًا مُنْكَرًا"[1]، وتشنيعا عليهم، إن كانوا لا يعلمون عاقبة من يحادد الله، كما أفاد الاستفهام المفهوم من الهمزة معنى: " الإنكار، التوبيخ والتقريع"[2]، لأنه يشير إلى أنهم يعلمون عاقبة ما يفعلون؛ ولكنهم يصرون عليه عنادا واستكبارا. والإنكار بمعنى لا ينبغي لهؤلاء المنافقين المخالفة والمعاداة لله تعالى ورسوله ﷺ، وتوبيخهم على إقدامهم على هذه المخالفة والمعاداة، مع علمهم بالعاقبة الوخيمة، وهي: أن لهم

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص 246

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، التوبيخ والتقريع، ص 49.

نار جهنم خالدين فيها، وذلك العذاب هو الخزي العظيم. والتقدير ألم يعلموا وجوب نار جهنم لمن يحادد الله ورسوله؟"[1].

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿الأحزاب: 19﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، أي: "سلاط باسطة بالشر أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ حرصا على الغنيمة"[2]، وأنهم: "اجترءوا عليكم وضربوكم بألسنتهم"[3]، وقيل صَلَقُوكُمْ بِالصَّادِ. وَخَطِيبٌ مِسْلَاقٌ وَمِصْلَاقٌ إِذَا كَانَ بَلِيغًا وَأَصْلُ الصَّلْقِ الصَّوْتُ"[4]، وجاء أيضا: "سَلَقُوكُمْ ضربوكم، بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ذربة يطلبون الغنيمة، والسلق البسط بقهر باليد أو باللسان"[5].

البعد البلاغي: واضح أنّ التّعبير باللسان كناية عن وجود (قول)؛ ولكن ليس المهم هو (القول) بقدر صفته، وهي الإساءة والجرأة على المسلمين والقدح بهم، فجاء التّعبير القرآني بلفظ (حداد) تأكيدا مجازيا على تعدي المنافقين حدودهم، ووقوعهم فيما نهوا عنه من النّيل من المسلمين بقول حادّ جارح فعله مثل فعل الحديد، بحيث لو جاء التعبير القرآني بلفظ (قال) أو (ألسنة قائلة) -مثلا- ما استساغ المتلقي التعبير وانتظر تمام الجملة، وما هي قائلة؟. ومن بلاغة التعبير "ذكر الله ﷻ لنبيه ﷺ حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة، واللدد عند الخصومة،

---

1 الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، رسائل لم يحملها البريد، فضيلة الشيخ عبد الرؤوف اللبدي، المدرس بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية ج23، ص 78.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 53.

3 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 529.

4 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص 153.

5 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 228، أبا السعود، إرشاد العقل السليم، ج7، ص 96.

فقال تعالى: "فَإِذا ذَهَبَ الْخَوفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ"[1]، وهذا كناية عن: "فصاحتهم وحلاوة ألسنتهم"[2]، وقد جاءت الآية مثالا على: "الاستعارة المكنية"[3]، "وهي التي لم يُصَرَّح فيها باللّفظ المستعار، وإنما ذُكِرَ فيها شيءٌ من صفاته أو خصائصه أو لوازمه القريبة أو البعيدة، كنايةً به عن اللّفظ المستعار"[4]، أو هي التي لا يصرح فيها بلفظ المشبه به، بل يطوى ويرمز له بلازم من لوازمه، ويسند هذا اللازم إلى مشبه، ولهذا سميت استعارة مكنية، و تسمى أيضا بالاستعارة التخييلية، وهي قرينة المكنية"[5]، أو هو: "التشبيه المضمر في النفس المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه"[6].

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ جملة خبرية، شرطية من أداة الشرط غير الجازمة (إِذَا)، و (ذهب) اسمها، و (سَلَقُوكُمْ) فعلها.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ ﴿المجادلة: 20﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ...﴾ أي: يعادون الله ورسوله في حدوده، ويخالفونه فيما فرض عليهم من فرائضه"[7]، وقيل يشاقون الله ورسوله، ويقال يشاقون أولياء الله

---

1 الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، (المتوفى: 255هـ)، البيان والتبيين، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت-1423 هـ، ج1، ص 32.

2 ميادة بنت كامل الماضي، من لطائف وفوائد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى- في كتابه المسمى: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب أرشيف ملتقى أهل التفسير، ص 5959.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البيان، الاستعارة المكنية، ص 262.

4 حبنكة، حسن عبد الرحمن، البلاغة العربية، ج2، ص 243.

5 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 1- البيان والبديع، جامعة المدينة العالمية، المرحلة: بكالوريوس كود المادة: LARB4093، ، ج1، ص 153.

6 عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، ج3، ص 278.

7 القرطبي، جامع البيان، ج23، ص 256.

ورسوله، لأن أحداً لا يعادي الله، ولكن من عادى أولياء الله فقد عادى الله تعالى"[1]، وجـاء أنّ: "الْمُحَادَّةُ أَنْ تَكُونَ فِي حَدٍّ يُخَالِفُ حَدَّ صَاحِبِكَ. وَأَصْلُهَا الْمُمَانَعَةُ، وَمِنْهُ الْحَدِيدُ، وَمِنْـهُ الْحَـدَّادُ لِلْبَوَّابِ"[2]، وقيل هم الذين "يخالفون الله في حدوده، فيصيرون في حدّ آخر غير الذي حدّ لهم"[3].

البعد البلاغي: إنّ الذين ينصّبون أنفسهم معاندين لله ولرسوله محادّين للشرائع فـإنهم قـد تبنوا المعاداة قولا، أولا، ثم فكرا وعملا. والمعاداة، المشاقّة، المحادّة كلها ألفاظ تدل على وجود خصم مخالف، يبتغي النزاع، وأخذت المحادة صفة للقسوة التي فيها من المعدن الـصلب الـذي يحمل اسمها نفسه (الحديد)، أو للتشابه الحاد بينهما! وسلوك هذا الطريق لم يكن دون تفوه بكلام ما؛ ونوع هذا الكلام هو ما يفسره لفظ (يُحَادُّونَ) فيفهم تلقائيا أنه كلام عـدائي جـارح، غيـر مرغوب فيه، وكذلك سلوك، كما ويفهم من (المحادّة) الوقوع في جانب الآخر، وتجاوز الـدائرة الممنوحة، والتجاوز فيما نهى وأمر، لذا لم يكن ليفهم من هذا السياق هذه التجاوزات، والمعاداة بلفظ بديل مثل لفظ (قال) على أنه أصل الأقوال، ومفتاح أبوابها.

وجاءت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ مثـالا علـى الجملة الخبرية المؤكدة بأداة التوكيد (إنّ) الثقيلة، واسمها جملة صلة الموصول ﴿الَّذِينَ يُحَـادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ، أمّا خبرها فهو الجملة الاسمية ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾.

*****

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 415.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص 288.

3 القيسي، مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج11، ص 7373.

(4)- (خصم) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من المعاجم العربية حول مادة: (خصم) (خَصَمَ) الْخَاءُ وَالصَّادُ وَالْمِيمُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْمُنَازَعَةُ، وَالثَّانِي جَانِبُ وِعَاءٍ. فَالْأَوَّلُ الْخَصْمُ الَّذِي يُخَاصِمُ. وَالْخِصَامُ: مَصْدَرُ خَاصَمْتُهُ مُخَاصَمَةً وَخِصَامًا. وَالْأَصْلُ الثَّانِي: الْخُصْمُ جَانِبُ الْعِدْلِ الَّذِي فِيهِ الْعُرْوَةُ. وَيُقَالُ إِنَّ جَانِبَ كُلِّ شَيْءٍ وناحيته خُصْمٌ وهو: الطّرف والزّاوية ومؤخرة العدل، وهي: الأخْصام وزوايا الوسائد والجواليق والفرش كلها أخْصام، واحدها: خصم، والطّرف الأعلى هو العصم. وَيُمْكِنُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ الْأَصْلَيْنِ فَيَرُدَّ إِلَى مَعْنًى وَاحِدٍ. وَذَلِكَ أَنَّ جَانِبَ الْعِدْلِ مَائِلٌ إِلَى أَحَدِ الشِّقَّيْنِ، وَالْخَصْمُ الْمُنَازِعُ فِي جَانِبٍ; فَالْأَصْلُ وَاحِدٌ. والخَصْم: واحد وجميعٌ، وخَصيمُك: الذي يُخاصِمكَ، والخُصومةُ: الاسم من التّخاصُم والاختصام. يقال: اختصم القوم وتخاصموا، والخَصِمُ بكسر الصاد: الشّديد الخُصومَة"[1].

(خصم) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (خصم) واشتقاقاته في القرآن الكريم (ثماني عشرة مرة)[2]، تدور حول المعنى المقصود من الدّراسة كلها؛ وهو الخصم المنازع، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿الحج: 19﴾.

التفسير: ذكر إنّه: "اختلف أهل التأويل في المعنيّ بهذين الخصمين اللّذين ذكرهما الله، فقال بعضهم: أحد الفريقين: أهل الإيمان، والفريق الآخر: عبدة الأوثان من مشركي قريش الذين

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص 187، الفراهيدي، العين، باب الخاء والصاد والميم، الجوهري، الصحاح تاج اللغة، (خصم).

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 234.

تبارزوا يوم بدر، وقيل: هم أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله، وأقدم منكم كتابا، ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحقّ بالله، آمنّا بمحمّد ﷺ، وآمنّا بنبيكم، وبما أنزل الله من كتاب، فأنتم تعرفون كتابنا ونبينا، ثم تركتموه وكفرتم به حسدا. وكان ذلك خصومتهم في ربهم، واختصامهم في ذلك معاداة كل فريق منهما الفريق الآخر ومحاربته إياه على دينه"[1]، وهم أهل دينين: احتجوا في دين ربهم. أي: إنّ المؤمنين يخاصمون الكفار ويجاهدونهم ويقاتلونهم، ولم يقل اختصما، لأنّ كل واحد من الخصمين جمع"[2]، وذكر أنّ: "الِاخْتِصَامُ: افْتِعَالٌ مِنَ الْخُصُومَةِ، وَهِيَ الْجَدَلُ وَالِاخْتِلَافُ بِالْقَوْلِ، يُقَالُ: خَاصَمَهُ وَاخْتَصَمَا، وَهُوَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمُقْتَضِيَةِ جَانِبَيْنِ فَلِذَلِكَ لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ فِعْلٌ مُجَرَّدٌ إِلَّا إِذَا أُرِيدَ مِنْهُ مَعْنَى الْغَلَبِ فِي الْخُصُومَةِ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ يَصِيرُ فَاعِلُهُ وَاحِدًا"[3].

البعد البلاغي: تشير التّفاسير أنّ المخاصمة تقتضي وجود جانبين متخالفين، بينهما نزاع حول قضية ما، وهي هنا قضية الكفر والإيمان، وجوهرها الاختلاف في الدّين والعقيدة، وظاهرها الْجَدَلُ وَالِاخْتِلَافُ بِالْقَوْلِ؛ ومع ذلك لم يكن التّعبير القرآني عنها بلفظ (القول) لأنه لفظ عام مطلق، لا يحدد نوع القول ولا سببه، ولكن عندما جاء التّعبير بلفظ (اختصموا) كشف عن وجود طرفين متخاصمين، بينهما مرادّة كلامية، ونزاع فكري، وجدلي، وبناءً عليه (قَولي)، ليثبت كل فريق صدق حجته في الوقت الذي يدحض فيه حجة خصمه، والبلاغة في استخدام اللّفظ من باب المجاز حيث الأصل اللّغوي له هو التّعبير عن جانبي الأخصام والجوالق والفرش وأطرافها، فجاء التّعبير القرآني يشبه كل فريق من المتخاصمين كمن يشد طرفي ثوب تجاه نفسه

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 587-590، الطبري، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص 25.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 453- 454.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص 228.

لينال الغلبة و الفوز على المنازع الثاني. ومن حيث البديع؛ جاء بين: (خصمان) و (اختصموا) "جناس الاشتقاق"[1]، وهذا يؤكد بدوره على قوة النّص وبلاغته؛ باشتقاق الفعل (اختصموا) الذي يقوم به (الخصمان) من صفتهما، أو اسمهما، وأنّ عملهما مطابق لما وصفا به، ومتوافق معه تماماً وآنياً، ولم تطلق عليهما الصفة عبثاً، كما أنّ هذا الجناس قد أضفى على النص جرسا موسيقيا عذبا، وفي الآية نكتة بلاغية لطيفة، هي: أنّ جملة: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم ... ﴾ و الصواب اللغوي أن يقال فيها: "هذان خصمان اختصما"، ولكن التفسير يشير إلى أنّ الخصمين هم أكثر من اثنين. وسياق الآيات يدل على أنّ الخصم الأول هم الكفار والخصم الثاني هم أهل الإيمان"[2]، "واسم الخصم يطلق على الواحد و على الجماعة إذا اتحدت خصومهم، فلمراعاة تثنية اللفظ أُتي باسم الإشارة الموضوع للمثنى، و لمراعاة العدد أُتي بضمير الجماعة"[3]، وسبب نزول الآية هو: "عَنْ أَبِي ذَرٍّ: أَنَّهُ كَانَ يُقْسِمُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نَزَلَتْ فِي حَمْزَةَ وَصَاحِبَيْهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ. قَالَ قَيْسُ بْنُ عُبَادَةَ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ، وأنها نَزَلَتْ فِي يَوْمِ بَدْرٍ؛ وَعَلَيْهِ فَهَذِهِ الْآيَةُ مَدَنِيَّةٌ فَتَكُونُ "هَذانِ" إِشَارَةً إِلَى فَرِيقَيْنِ حَاضِرَيْنِ فِي أَذْهَانِ الْمُخَاطَبِينَ فَنُزِّلَ حُضُورُ قِصَّتِهِمَا الْعَجِيبَةِ فِي الْأَذْهَانِ مَنْزِلَةَ الْمُشَاهَدَةِ حَتَّى أُعِيدَ عَلَيْهَا اسْمُ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْمُشَاهَدِ، وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ فِي كَلَامِ الْبُلَغَاءِ، وَالِاخْتِصَامُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ حَقِيقِيٌّ وَعَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي أُطْلِقَ الِاخْتِصَامُ عَلَى الْمُبَارَزَةِ مَجَازًا مُرْسَلًا لِأَنَّ الِاخْتِصَامَ فِي الدِّينِ هُوَ سَبَبُ تِلْكَ الْمُبَارَزَةِ"[4].

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 410.

2 بسام جرار، من شبهات المبشّرين ، أخطاء لغوية مزعومة، أرشيف ملتقى أهل التفسير، ص 12156.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص 229.

4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص 228- 229. .

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ مثالا على الجملة الخبرية الاسمية، التقريرية.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿النحل: 4﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي: "أولم يعلم هذا الكافر أنّا خلقناه أول مرة مِن نُطْفَةٍ؛ فَإِذا هُوَ جدل بالباطل، خَصِيمٌ بيِّن"[1]، وجاء أيضاً: فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه، فصيح، مكافح للخصوم مبين للحجّة، بعد ما كان نطفة من منيّ، جماداً لا حس به ولا حركة، دلالة على قدرته. والثاني: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: من يحيي العظام وهي رميم، وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتّمادي في كفران النّعمة. وقيل نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمّ؟"[2]، "وقيل أنّ: مُخَاصِمٌ، كَالنَّسِيبِ بِمَعْنَى الْمُنَاسِبِ. و (مُبِينٌ) ظَاهِرُ الْخُصُومَةِ. الْمُفْصِحُ عمّا في ضميره بمنطقه"[3]، وقيل أيضا: "أَنَّهُ شَدِيدُ الشَّكِيمَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَصْلُهُ نُطْفَةً"[4].

البعد البلاغي: وهنا أيضا لفظ (خَصِيمٌ) فنّ من فنون القول، يحمل في دلالاته الإشارة إلى وجود (قول) فيه خصومة وجدل بالباطل بيّن؛ وفي هذه الدلالة أيضا ما يشير إلى وجود أكثر من طرف للخصومة، فإما خصمين مختلفين، متساويين في الرد؛ وإما أن يكون هناك خصم ظاهر الخصومة -كما في هذه الآية- يظاهر الله في العداء، ويجادله بالباطل، ويجاهره

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 132.

2 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 593، و ج4، ص 30.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 68.

4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 23، ص 74.

المعصية، بحيث لا يمكن أن نستشف هذه المعاني من لفظ (قال) لو افترضناه بديلا له في هذا السّياق، على أساس أنّ لفظ (قال) و (خاصم) من فنون القول.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿ص: 64﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية السابقة: "أن ذلك ما يتكلم به أهل النّار ويتخاصمون فيما بينهم"[1]، كما "أنه لَحَقٌّ لا بد أن يتكلموا به، وسمي تخاصما لأنه شبّه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك ولأنّ قول الرؤساء: "لا مرحبا بهم"، وقول أتباعهم: "بل أنتم لا مرحبا بكم"، من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصما لأجل اشتماله على ذلك، وإنّ ذلك لصدق كائن لا محالة"[2]، وذكر: "أنّ الْأَغْلَبَ أَنَّهُ يُفِيدُ الْخِصَامَ بِبَاطِلٍ"[3].

البعد البلاغي: أبدأ من حيث أشار ابن عاشور في إنّ الخصام يفيد -على الأغلب- تقاول بالباطل، ومن عند الزمخشري والنسفي أتبيّن أنّه سؤال وجواب؛ مما يعني وجود طرفين، يتبادلان (قولا) بالباطل؛ هذا يطرح، وذاك يرد، وبينهما خلاف حول موضوع ما، كل منهما يجذب العدل ناحيته، ليتغلب على الآخر، كمن يمسك جانب الفرش والثياب ليجذبها ناحيته، وهكذا هم أهل النّار يتبادلون التّهم والسباب في نزاع ومشادّة كلامية لا يف التعبير عنها بلفظ (القول) أو أحد مشتقاته على أنّه مجرد (قول)، لذا لم يكن يعط هذا السياق لفظ دالّ أبلغ من لفظ (تخاصم)، حيث جمع صورة مؤطرة لكامل المشهد الجهنمي- والعياذ بالله منه - "حيث يطوي تخاصماً يجري بين أهلِ النار، فلا تعرض السورة من مضمونه شيئاً، لكنْ يدُلُّ على حَدَثٍ

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 172.

2 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 103، النسفي، مدارك التنزيل، ج3، ص 163.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 32.

التخاصُم قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النارِ﴾، وللذّهن أن يَنطَلِقَ في تَصوير ما يجري حولَهُ التخاصم، وأول ما يُدْرِكُهُ ما يكون بين الأتباع وقادتهم من تراشُقِ المسؤولية وتدافُعِها"[1].

وقد جاءت هذه الجملة ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ بالأسلوب الخبري، الإنكاري؛ لتعدد المؤكدات، فقد أكدت بـ: إنّ المشددة، واللام؛ بالإضافة لكلمة (حقّ) التي تؤكد على هذا التخاصم بتوكيد لفظي، وذلك تأكيدا للسامع لما سوف يحصل بين أهل النار يوم القيامة.

*****

(5)- (شقّ) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: "(شَقَّ) الشِّينُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى انْصِدَاعٍ فِي الشَّيْءِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ وَيُشْتَقُّ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى الِاسْتِعَارَةِ. تَقُولُ شَقَقْتُ الشَّيْءَ أَشُقُّهُ شَقًّا، إِذَا صَدَعْتَهُ. وَبِيَدِهِ شُقُوقٌ، وَبِالدَّابَّةِ شُقَاقٌ. وَالْأَصْلُ وَاحِدٌ. وَالشِّقَّةُ: شَظِيَّةٌ تُشَظَّى مِنْ لَوْحٍ أَوْ خَشَبَةٍ. وَمِنَ الْبَابِ: الشِّقَاقُ، وَهُوَ الْخِلَافُ، وَذَلِكَ إِذَا انْصَدَعَتِ الْجَمَاعَةُ وَتَفَرَّقَتْ يُقَالُ: شَقُّوا عَصَا الْمُسْلِمِينَ، وَقَدِ انْشَقَّتْ عَصَا الْقَوْمِ بَعْدَ الْتِئَامِهَا، إِذَا تَفَرَّقَ أَمْرُهُمْ. وَيُقَالُ لِنِصْفِ الشَّيْءِ الشِّقُّ. وَيُقَالُ أَصَابَ فُلَانًا شِقٌّ وَمَشَقَّةٌ، وَذَلِكَ الْأَمْرُ الشَّدِيدُ كَأَنَّهُ مِنْ شِدَّتِهِ يَشُقُّ الْإِنْسَانَ شَقًّا. وشقة شاقة، وأمر شاقٌ. والشُّقَّةُ من الثياب، والشُّقَّةُ أيضاً: السَفَرُ، أو بعد مسير إلى أرض بعيدة. والشِّقَاقُ: الخلاف. والخارجي يشُقُّ عصا المسلمين ويُشاقُّهم خلافاً، والاشتِقاقُ: الأخذُ في الكلام وفي الخصومة يميناً وشمالاً، مترك القصد"[2].

---

1 حبنكة، حسن عبد الرحمن، البلاغة العربية، ج2، ص 353.

2 ابن فارس، مقاييس اللغة، شق، الفراهيدي، العين، باب القاف مع الشين، الجوهري، الصحاح تاج اللغة، شقق.

(شقّ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (شقّ) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثمانياً وعشرين مرة)[1]، بمعـــان مختلفـــة، عشرة منها بمعنى الصّدع والقطع، وثلاث بمعنى الجهد، ومرة واحدة بمعنى بعد مـــسير إلـــى أرض بعيدة، وأربعة عشر بمعنى النّزاع، والأخذ في الكلام وفي الخصومة، جانب من مقاصـــد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِـــنْ أَهْلِهَـــا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ ﴿النساء: 35﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: "الخلاف بين الرّجل وزوجته ومشاقّة كـــلّ واحد منهما صاحبه، وهو إتيانه ما يشق عليه من الأمور. فأمّا من المرأة؛ فالنشوز، وتركها أداء حق الله عليها الذي ألزمها الله لزوجها. وأما من الزّوج؛ فتركُه إمساكها بالمعروف أو تسريحها بإحسان، و الشقاق مصدر شاقّ فلان فلانًا وذلك قد يكون عداوة"[2]، "الشقاق: التعـــادي، ومنـــه قيل: شقّ فلان العصى، إذا تباعد في الخروج"[3]، "وَإِنْ خِفْتُمْ" يعني وإن علمتم، وتيقنتم، أو هـــو الظن أي ظننتم شقاقَ بين الزوجين، وأصل الشقاق المخالفة، وكون كلّ واحد من المتخالفين في شقّ غير شقّ صاحبه، أو يكون أصله من شقّ العصا وهو أن يقول كل واحد من الزوجين مـــا يشق على صاحبه سماعه، وذلك أنّه إذا ظهر بين الزوجين شقاق ومخالفة واشتبه حالهما ولـــم يفعل الزّوج الصّلح ولا الصّفح ولا الفرقة وكذلك الزّوجة لا تؤدي الحقّ ولا الفدية وخرجا إلـــى ما لا يحل قولا وفعلا؛ ﴿فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها﴾"[4]، "وَهَذَا حُكْمُ أَحْوَالٍ أُخْـــرَى

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 385.

2 الطبري، جامع البيان، ج8، ص 318- 319، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص 73.

3 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج3، ص 1226.

4 الخازن، لباب التأويل، ج1، ص 372.

تَعْرِضُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَهِيَ أَحْوَالُ الشِّقَاقِ مِنْ مُخَاصَمَةٍ وَمُغَاضَبَةٍ وَعِصْيَانٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الشِّقَاقِ"[1].

البعد البلاغي: (شقّ) لفظ من ألفاظ القول، يشير إلى وجود معاداة بين طرفين، وكل واحد يُسْمِعُ ندّه كلام يشقّ عليه سماعه، لأنه يحمل الخلاف وإظهار العداء، ومن البلاغة في التّعبير القرآني استخدام اللفظ المناسب في المكان المناسب؛ فقد جاء بلفظ (شقاق) للتّعبير عن صدع يصيب الحياة الزّوجية، وهذا توافق بين المعنى المعجمي وما جاء في كتب التّفسير للفظ في السياق، والصّدع لا يحصل إلا في شيء واحد متماسك، فأشار بذلك ضمنا إلى قوة العلاقة الزّوجية، والعلاقة القائمة بين الزوجين كأنها حال واحد. ولعلاج حصول الصّدع فيها، وضع الحلول العاملة على درءه، كما وتفيد بعض الجوانب اللّغوية للفظ (شقّ) إنها تعني النصف، وهذا ما تأكد بالنّص القرآني ﴿شقاق بينهما﴾، فكل طرف يشكل شقّ الحياة المشتركة، وجاء لفظ (شقاق) مشيرا إلى وجود (قول) لا يستحب سماعه متناوبا بين نصفين، هم في الأصل واحد اختلفا فانصدعا، وهذا ما لا يمكن أن يشير إليه لفظ آخر من ألفاظ القول، لأنه هو الأنسب للسياق.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا...﴾ جملة خبرية اسمية، شرطية لفعل الشرط غير الجازم (إنْ)، واسمها (خِفْتُمْ)، وخبرها الجملة الفعلية: (فَابْعَثُوا).

وفي الآية مثالا على النسبة الإضافية في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ ﴿النساء: 35﴾ و"المقصود بالنسبة الإضافية هو: إضافة

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج5، ص 44.

المصدر إلى غير ما حقه أن يضاف إليه؛ والتقدير: وإن خفتم شقاق الزوجين في الحالة التي بينهما. فقد أضيف المصدر: (شِقَاقَ) إلى الظرف "بين" فهو مجاز عقلي علاقته المكانية"[1].

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿هود: 89﴾.

التفسير: جاء في معنى ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾، أي: "عداوتي وبغضائي وفراقي، لا يكسبنكم مشاقتي، ومخالفتي"[2]، و "الشِّقَاقُ: مَصْدَرُ شَاقَّهُ إِذَا عَادَاهُ، أي أَنَّ الْكَلَامَ فِي ظَاهِرِهِ أَنَّهُ يَنْهَى الشِّقَاقَ أَنْ يُجَرَّ إِلَيْهِمْ ذَلِكَ. وَالْمَقْصُودُ نَهْيُهُمْ عَنْ أَنْ يَجْعَلُوا الشِّقَاقَ سَبَبًا لِلْإِعْرَاضِ عَنِ النَّظَرِ فِي دَعْوَتِهِ، فَيُوقِعُوا أَنْفُسَهُمْ فِي أَنْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ مِثْلُ مَا أَصَابَ الْأُمَمَ قَبْلَهُمْ فَيَحْسَبُوا أَنَّهُمْ يَمْكُرُونَ بِهِ بِإِعْرَاضِهِمْ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ"[3].

البعد البلاغي: هذا سيدنا شعيب عليه السلام يحذر قومه من سوء عاقبة تكذيبهم رسالته، والغيّ في معاداته، مستخدماً أسلوباً دعوياً محبباً بمناداتهم يا قوم، ليذكرهم إنّه منهم، ثمّ ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي لا يغرنّكم معاداتي؛ على الأصل أنّهم قومٌ واحد انصدع شقين متعاديين، وسيدنا شعيب عليه السلام يحذرهم هذه المشاقّة بأسلوب النّهي والتحذير.

هذه المعاني استنبطت من لفظ (شقاقي) الذي يحمل معنى (القول) مع المعاداة والإساءة لشقّ آخر، بحيث لا يمكن استبداله بلفظ (قول) آخر في هذا النّص القرآني.

---

1 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2- المعاني، ص 120.

2 الطبري، جامع البيان، ج15، ص 455، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 167، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج5،ص 3454، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 421، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 146.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 146- 147.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ جملة نداء إنشائية؛ طلبية؛ مصحوبة بنهي؛ فهو ينادي قومه، وينهاهم عن أن تكون بينهما المشاقة والبغضاء.

(3)- وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿الأنفال: 13﴾.

التفسير: جاء في معنى قوله تعالى: ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، عند الطبري والسمرقندي أي: "فارقوا أمرَ الله ورسوله وعصوهما، وعادوا الله ورسوله، وخالفوا الله ورسوله في الدين"[1]، وعند ابن عاشور: "الْمُشَاقَّةُ: الْمُخَاصَمَةُ وَالْعَدَاوَةُ"[2]، أي: "ومن يخالف أمرَالله وأمر رسوله ففارق طاعتهما، فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، والمشاقّة: مشتقة من الشقّ، لأنهم كانوا في الشق المعادي لله ولرسوله"[3].

البعد البلاغي: لا تقف المشاقّة لله ولرسوله على معاندة في العمل، ولكن يلازمها العناد في القول، وجاء التّعبير عنها بـ(المشاقّة)؛ ذلك لأنها تجعل المعادي في شق غير الأصل الذي يجب أن يكون عليه من التوافق والانسجام، فهؤلاء المشاقّون لأمر الله ولرسوله وقفوا في شق غير شقّ الدين والعقيدة التي يدعون إليها، ولأنّه ظهر منهم ما يشير إلى مخاصمة ومعاداة بـ(القول) جاء التعبير عنه بلفظ (المشاقّة) لتمييزها من ألفاظ القول عامة؛ فلو كان التعبير بلفظ (القول) لما وجب لهم العذاب، لأنه ليس كل قول فيه مخالفة لله ولرسوله.

ومن حيث البعد البلاغي البديعي: ارتبط لفظ (شَاقُّوا) ولفظ (يُشَاقِقِ) بجناس الاشتقاق.

*****

---

1 الطبري، جامع البيان، ج13، ص 433، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 11،

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص 74.

3 الطبري، جامع البيان، ج13، ص 433، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 11، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 205.

(6)- (شكس) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "(شكس) الشَّكِسُ: السيئ الخلق في المبايعة وغيرها، والشّكس: المصدر. الشَّكْسُ والشَّكِسُ والشَّرِسُ، رَجُلٌ شَكِسٌ عَكِصٌ، وتَشاكَسَ الرَّجُلانِ: تَضادّا"[1].

(شكس) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (شكس) في القرآن الكريم مرة واحدة؛ بالاشتقاق (مُتَشَاكِسُونَ)[2]، في:

(1)- قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الزمر: 29﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: "مُتَضَايِقُونَ مُتَضادُّون"[3]، أي: "جماعة مختلفين متنازعين، ومتعاسرين، سيئة أخلاقهم، من قولهم: رجل شكس: إذا كان سيئ الخلق"[4]، "مثل المشرك على ما يقتضيه مذهبه من أن يدعي كل واحد من معبوديه عبوديته، فيتنازعوا فيه، ويتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المختلفة، في تحيره وتوزع قلبه، على النقيض من الموحد الذي خلص لواحد ليس لغيره عليه سبيل (ورَجُلًا) بدل من مثل وفيه صلة شُرَكاءُ، والتشاكس والتشاخص الاختلاف"[5]، "رجل شَكِسُ أي: عسير لا يرضى بالإنصاف"[6].

---

1 الفراهيدي، العين، باب الكاف والشين والسين، ابن سيده، المحكم، باب الكاف والسين والشين، ابن منظور، اللسان، فصل الشين المعجمة، حرف السين المهملة.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 368.

3 ابن منظور، اللسان، فصل الشين المعجمة، حرف السين المهملة.

4 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 283، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 184، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص 252.

5 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص 42.

6 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج10، ص 6333.

البعد البلاغي: لم يكن ليكشف عن أخلاق الرجال صالحها وطالحها دون المعاملة العملية والقولية؛ وبهذه الأخيرة يتبين سوء خلق المشرك، وسوء فعله وقوله، وتـشتت قلبـه، وتـوزع أفكاره، ذلك لتوزع موالاته، واللاانتماءه، فجاء التعبير القرآني عنه بـ(المشاكس) ليجمع (القول) مع تصنيفه من الرجال، وهذا ما لم يكن يبين عنه فن آخر من فنون القول. و(متشاكسون) على وزن متفاعلون الذي يفيد المشاركة و المفاعلة والمبادلة المتضادة بين طرفين وسبب اختلافهمـا هو المعتقد والدين؛ حيث هذا يشاكس هذا، أو يعاكس ذاك في الرأي والاعتقاد.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُـرَكَاءُ مُتَشَاكِـسُونَ ...﴾ خبريـة تقريرية.

*****

(7)- (شكو) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "(شَكَوَ) الشِّينُ وَالْكَافُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْـلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَوَجُّعٍ مِنْ شَيْءٍ. فَالشَّكْوُ الْمَصْدَرُ; شَكَوْتُهُ شَكْوًا، وَشَكَاةً، وَشِكَايَةً. وَشَكَوْتُ فُلَانًـا فَأَشْكَانِي، أَيْ أَعْتَبَنِي مِنْ شَكْوَايَ. وَأَشْكَانِي، إِذَا فَعَلَ بِمَا يُحْوِجُ إِلَى شِـكَايَتِهِ. وَالـشَّكِيُّ: الَّـذِي يَشْتَكِي وَجَعًا. وَالشَّكِيُّ الْمَشْكُوُّ أَيْضًا; ويستعمل الاشتكاء في الموجدة والمرض، والشَّكْوُ: المرض نفسه، وقد تَشَكَّى واشتَكَى. وشكا إلي فلان فلاناً، فأشْكَيْته، أي: أخذت ما يرضاه"[1].

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص 207، الفراهيدي، العين، باب الكاف والشين والواو، ابن منظور، اللسان، فصل الشين المعجمة، حرف الواو.

(شكو) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (شكو) واشتقاقاته (في القرآن الكريم مرتين)[1]، بمعنى يدل على توجـع، همـا في:

(1)- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يوسف: 86﴾.

التفسير: "جاء هذا القول على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام، موجهه إلى أولاده، عندما لاموه في حزنه الدائم على فراق يوسف عليه السلام، فقال لهم: "إنّي لا أشكو إليكم، ولا إلى غيركم، إنّما أشـكو حاجتي، وحزني على فراق يوسف إلى ربى داعياً له، وملتجئاً إليه، فخلوني وشكايتي". فتـولى عنهم إلى الله يشكو إليه ما به من ألم الفراق، ويبثه حزنه، ويطلعه على ما نفسه؛ وهو الأعلم ما به"[2].

البعد البلاغي: (الشّكاية) فن من فنون (القول)، اتخذها سيدنا يعقوب عليه السلام وسيلة التجـاء، وبث حزن وألم الفقد، ومصاب الفراق إلى ربه ﷻ يشكو إليه وجعه بـ(القول) والدّعاء ما حـل به؛ عندما ابيضت عيناه من الحزن لفقدان يوسف عليه السلام فاعتزل الناس متوجها إلى مـن يـسمع (قوله).

وللخصوصية التي تتمثل في هذا (القول) أطلق عليه لفظ يحمل معنى (القول) متـضمنا معاني المرض والألم، والحزن، والشّكاية التي أشار إليها السّياق، وهذا ما يتوافـق فعـلاً مـع المعنى المعجمي للّفظ، وما جاءت به التفاسير للآية الكريمة، بحيث لا يتحقق هذا التّوافق مع أي لفظ آخر من ألفاظ (القول)، لو افترضناه بديلا له. وورود هذا اللّفظ بهذا المعنى في السّياق يشير

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 367.

2 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 499، النسفي، مدارك التنزيل، ج2، ص 130.

إلى وجود ثلاثة أطراف: طرف متضرر شاكي، وطرف معتد، مشكو منه، وثالث ترتفع إليه الشّكوى، رجاء الإنصاف، وهذا ما لا يتحقق في غيره من ألفاظ القول؛ ليكون بديلا عنه في السياق.

وجاءت الآية: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ جملة خبرية فعلية، تفيد الحصر.

(2)- وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿المجادلة: 1﴾.

التفسير: ذكر أن "جاءت المجادلة (خولة بنت ثعلبة) تشتكي ما لها من الهمّ بظهار زوجها (أوس بن الصامت) إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سنّي، ومات أهلي، وانقطع ولدي، ظاهر منّي، اللهمّ إنّي أشكو إليك فاقتي ووجدي وَوَحْدَتِي وَوَحْشَتِي وَفِرَاقَ زَوْجِي وَابْنَ عَمِّي،... وتسأله الفرج، فقال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، فهتفت وشكت إلى الله، وكلما قال لها ذلك؛ تعيد شكايتها إلى الله، وتتضرع إليه مخافة الفرقة، وتأسفها على فراق زوجها[1]"وَالِاشْتِكَاءُ: مُبَالَغَةٌ فِي الشَّكْوَى وَهِيَ ذِكْرُ مَا آذَاهُ، وَالْأَكْثَرُ أَنْ تَكُونَ الشِّكَايَةُ لِقَصْدِ طَلَبِ إِزَالَةِ الضُّرِّ الَّذِي يَشْتَكِي مِنْهُ بِحُكْمٍ أَوْ نَصْرٍ أَوْ إِشَارَةٍ بِحِيلَةِ خَلَاصٍ."[2] وهذا ما كانت ترجوه خولة، وتلتمسه من رسول الله ﷺ، فسمع الله ﷻ شكايتها من فوق سبع سماوات، وأزال عنها هذا الضر، وأنصفها بحكم ما زال يتلى ويؤخذ به إلى قيام الساعة!

---

1 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 226_ 227، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 412، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج11، ص 7347، و ص 7350، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 485، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص 270.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص 9.

البعد البلاغي: جاء لفظ (الشكوى) ليشير إلى جملة من المعاني متضمنة الألم والحزن، والدعاء إلى الله بتفريج هذا الحزن، وكشفه؛ وهذا ما صدر من الشاكية (خولة) وخوفها فراق زوجها، مما يتوافق مع ما أشارت إليه المعاجم اللّغوية، والتّفاسير حول قضيتها، وتوجعها من ظهار زوجها أوس؛ ويؤكد معنى التّوَجُّع مِنْ مَرَضٍ أَوْ مَوْجِدَة، وتعذر حلول أيّ لفظ مكانه من ألفاظ فنون (القول). ويجتمع في هذا اللّفظ أطراف ثلاثة: -وهي هنا- الشّاكي: المتضرر (الزّوجة خولة)، والمشكو منه: المعتدي (زوجها أوس)، والمشكو إليه رجاء الإنصاف، وكشف الهمّ والظلم الذي حل بالمظلوم هو: (الله ﷻ) فالشكوى ليست إلا إليه سبحانه، وهذا ما جاء في الآيتين الكريمتين.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ خبرية تقريرية مؤكدة؛ بما أفاده حرف التحقيق (قد).

*****

(8)- (ظَهَر) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "(ظَهَرَ) الظَّاءُ وَالْهَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ وَبُرُوزٍ. فَظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظُهُورًا فَهُوَ ظَاهِرٌ، إِذَا انْكَشَفَ وَبَرَزَ. وَلِذَلِكَ سُمِّيَ وَقْتُ الظُّهْرِ وَالظَّهِيرَةِ، وَهُوَ أَظْهَرُ أَوْقَاتِ النَّهَارِ وَأَضْوَؤُهَا. وَالْأَصْلُ فِيهِ كُلِّهِ ظَهْرُ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ خِلَافُ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَجْمَعُ الْبُرُوزَ وَالْقُوَّةَ. وَيُقَالُ لِلرِّكَابِ: الظَّهْرُ"[1]، "وظهر الشيء ظُهوراً: تَبَيَّنَ. وظَهَرْتُ على الرجل: غلبته. وظَهَرْتُ البيت: علوته. وأَظْهَرْتُ بفلانٍ: أعلنتُ به. وأَظْهَرَهُ الله على عدوه. وأَظْهَرْنا، أي سرنا في وقت الظُهر. والتَظاهُرُ: التعاون. وتظاهرَ القومُ أيضاً: تدابَروا، كأنّه ولّى كلُّ واحدٍ منهم ظهرَه الى صاحبه. واستَظْهَرَ به، أي استعان به. والظِهارُ:

---

1 ابن فارس، مقاييس للغة، (ظهر)، ج3، ص471.

قول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أمّي. وقد ظاهَرَ من امرأته، وتَظَهَّرَ، وظَهَّرَ من امرأته تظهيرا، كله بمعنى"[1].

(ظَهَر) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (ظهر) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاثاً وخمسين مرة)[2]، منها بمعنى البـدو والوضوح، ومنها بمعنى القوة والغلبة، ومنها بمعنى النّشر، ومنها بمعنى المعاونة والمـساندة، ومنها بمعنى الظُّهْر خلاف البطن، العضو من الجسم، ومنها وقت الظُّهْـر المعـروف، وتـسع مرات ما يفيد اللفظ والكلام؛ بما فيها (الظهار)، اللفظ الذي يحمل قولا محددا؛ وهو المقـصودة من هذا اللفظ، جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿الأحزاب: 4﴾.

التفسير: جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: "لم يجعل الله أيها الرجال نساءكم اللائي تقولون لهنّ: "أنتنّ علينا كظهور أمهاتنا" أمهاتكم، بل جعل ذلك من قيلكم كذبا ولَكِنَّهُ مُنْكَرٌ وَزُورٌ، وألزمكم عقوبة على قولكم هذا كفّارة"[3]، وهو ما يسمى بالظّهار: "وَصُورَتَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِامْرَأَتِهِ: "أَنْتَ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمّي"، فهذا ظهار كانوا في الجاهلية يحرمون به الزّوجات ويجعلونهن في التّحريم كالأمهات، ومعلوم أنّ ظهر الأم مُحرّم على الابن حرمة مؤبدة، لذلك كانوا يعتبرون هذه الكلمة تقع موقع الطلاق، فأبطل الله ذلك لأنها

---

1 الجوهري، الصحاح تاج اللغة، (ظهر)، ج2، ص 732.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 440- 441.

3 الطبري، جامع البيان، ج20، ص 205، البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ج3، ص 607، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص 118.

ليست بأمّ، وأوجب عليه بالظهار منها إذا صار فيه عامداً كفارة، وحدد هذه الكفارة إما: عتق رقبة، أو إطعام ستين مسكيناً، أو صيام ستين يوماً، ومنعه من إصابتها حتى يكفّر"[1]، وأكد الشعراوي أنّه: "لمّا جاء الإسلام لم يجعلها طلاقاً، إنمّا جعل لها كفارة كذب؛ لأنّ الزّوجة ليست أمّاً لك"[2].

البعد البلاغي: (تُظَاهِرُونَ): هي جملة (قول)! وصورة جديدة من صوره، مختزل فيها معاني كثيرة؛ لا يمكن للفظ آخر من فنون القول التي مرت بنا والتي سوف نبحث عنها، ستعبر عن المعنى المخبوء داخل هذا اللفظ؛ أنْ يقولِ الرجل لزوجته جملة يحرمها بها على نفسه، عبر به بكلمة (الظّهار) واختزل معه الحياة كلها مع شريكة حياته، فهو في زمنه وحينه (قول) مفصلي، ولكنه زورٌ من القول ومنكرٌ، لما فيه ادعاء غير حقيقي، ونسب علاقات قربى باطلة؛ ولأنه كذلك فقد حرمه الإسلام وأبطله، وأنهى شرعيته، وزمنه.

وبناء عليه فإنّ لفظ (يقولون) أو أي لفظ آخر من فنون (القول) قاطبة لا تعطي المعنى المحرم الذي احتواه لفظ (الظّهار)، أو بمعنى الزور الذي اشتمل عليه.

ومن حيث البلاغة البديعية؛ ففي هذه الآية ما يسمى بالمذهب الكلامي وهو: "من القضايا العقليّة المنطقيّة؛ أي: أنّ النقيضَيْنِ لاَ يجتمعان في شيءٍ واحد، وقد أشار الله عزّ وجلّ إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿مَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ والله يَقُولُ الحق وَهُوَ يَهْدِي السبيل﴾ ﴿الأحزاب: 4﴾، أي: (فالقلب الواحد لا يقبل فكْرَتَيْنِ مُتَنَاقِضَتَيْن، والزوجات لا تكون أمَّهَات، والأدعياء لا يكونون أبناءً)، وهو من البدائع المعنوية، بحيث يأتي الأديب البليغ على صحة

---

1 الماوردي، تفسير الماوردي، النكت والعيون، ج4، ص 371.

2 الشعراوي، الخواطر، ج19، ص 11921.

دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجّة عقليّة برهانيّة أو دُونَها. وقالوا: هذه التسمية تُنْسَبُ إلى الجاحظ، والسببُ في إطلاق هذه التسميّة أنَّ عِلْمَ الكلام يَستَنِد في حُجَجه إلى الحجج العقلية، فإذا استخدم الأديبُ الحجج العقليّة في كلامه، فقد ذهب مذْهَبَ عُلَماءِ الكلام"[1]، ومن البلاغيين من ينسبه: "إِلَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ يُسَمَّى الِاحْتِجَاجَ النَّظَرِيَّ وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ الْمَذْهَبَ الْكَلَامِيَّ، وَهُوَ أَنْ يُلْزِمَ الْخَصْمَ مَا هُوَ لَازِمٌ لِهَذَا الِاحْتِجَاجِ، وإبطال دعوى خصمه بحجة عقلية قاطعة تصح نسبتها إلى علم الكلام"[2]، وعلم الكلام، أو "المذهب الكلامي: هو أن يورد المتكلم على صحّة دعواه حُجّة قاطعة مسلمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب، ولم يستشهد على هذا النوع بأعظم من شواهد القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿الأنبياء: 22﴾، فاللازم وهو الفساد باطل، فكذا الملزوم وهو تعدد الآلهة باطل، وليس أدلّ على ذلك من الحقيقة والواقع، وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ﴿الحج: 5﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ﴿الروم: 27﴾، أي: وكل ما هو أهون عليه فهو وأدخل تحت الإمكان، فالإعادة ممكنة وسمي هذا النوع (بالمذهب الكلامي) لأنه جاء على طريقة: (علم الكلام والتوحيد) وهو عبارة عن إثبات (أصول الدين) بالبراهين العقلية القاطعة"[3].

---

1 حبنكة، حسن عبد الرحمن، البلاغة العربية، ج2، ص 446- 447.

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص 177، وج6، ص 330، المراغي، أحمد بن مصطفى، علوم البلاغة، البيان، المعاني، البديع، ص 339.

3 الهاشمي، أحمد ابن إبراهيم، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص 306، المراغي، علوم البلاغة، البيان المعاني البديع، ص 339.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ جملة إنشائية، بأسلوب النفي. معطوفة على جملة: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ من الآية نفسها.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ﴿المجادلة: 2﴾.

التفسير: جاء في تفسير هذه الآية: "كان ظهار الجاهلية طلاقا، وأول من ظاهر في الإسلام أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت من امرأته الخزرجية، خولة بنت ثعلبة بن مالك)[1]، فدعا رسول الله ﷺ زوجها، فقال له: أَتَقدِرُ عَلَى رَقَبَةٍ تُعتِقُها؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ما أقدر عليها، فجمع له رسول الله ﷺ حتى أعتق عنه، ثم راجع أهله"[2]، "وجملة الظهار أن يقول الرجل لزوجته: "أنت عليّ كظهر أمي"، فكان الظهار طلاقا في الجاهلية، الذي إذا تكلم به أحدهم لم يرجع في امرأته أبدا، فأنزل الله ﷻ فيه ما أنزل" وبهذه الآية حرم موضوع الظهار كلفظ طلاق، ولكن لا ينفي وقوعه يمين يوجب الكفارة."[3].

البعد البلاغي: (يُظَاهِرُونَ) في النص القرآني، ليس كلمة تقال فحسب، بل هي جملة (قول) كاملة، يتلفظ بها الرجل، يترتب عليها -في الجاهلية- انقطاع الحياة الزوجية؛ اختزلها القرآن بكلمة واحدة تشير إليها جملةً، لا يستقيم أن يحل مكانها لفظ آخر من ألفاظ القول في النص القرآني-أو في غيره- فلفظ: (يقُولونَ) لن يكون بديلا لها؛ لأنه لن يعطي معنى القول المنكر

---

1 انظر الآية (2) من مادة (شكو).

2 الطبري، جامع البيان، ج 23، ص 227.

3 الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ)، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ت، مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م، الماوردي، تفسير الماوردي، النكت والعيون، ج5، ص 489.

والزور المتمكن في هذا اللفظ، ولن يفيد معنى (اليمين) الذي يقصد أن يرمي به الرجل امرأته إن أراد أن يقيدها، أو أراد أن يحرمها على نفسه بلفظ يظن به الطلاق؛ جاعل حرمتها على نفسه كحرمة أمّه، ولو افترضنا ذلك لاحتاج السياق إلى جملة مقول القول توضح ما وراء هذا القول؛ حتى نفهمه؛ بينما (ظاهَرَ) هي جملة دالة بذاتها على ذاتها، وهي شبه مصطلح مفهوم المغزى والدلالات والأبعاد؛ ولا تحتاج في النص إلى طول شرح وبيان، وهو بظاهر لفظه يحرم الجزء ويريد الكل؛ وهو لفظ استخدم مجازا وعلاقته المكانية، والجزئية، وقد ورد توضيحه بلاغيا تحت ما يسمى بـــ(المذهب الكلامي) في الشاهد السابق. وجاء قوله: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ مَنْزِلَةَ الْبَيَانِ لِجُمْلَةِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ ﴿المجادلة: 1﴾؛ لِأَنَّ فِيهَا مَخْرَجًا مِمَّا لَحِقَ بِالْمُجَادِلَةِ مِنْ ضُرٍّ بِظِهَارِ زَوْجِهَا، وَإِبْطَالًا لَهُ، وَلَهَا أَيْضًا مَوْقِعُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ لِجُمْلَةِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ يُثِيرُ سُؤَالًا فِي النَّفْسِ أَنْ تَقُولَ: فَمَاذَا نَشَأَ عَنِ اسْتِجَابَةِ اللَّهِ لِشَكْوَى الْمُجَادِلَةِ فَيُجَابُ بِمَا فِيهِ الْمَخْرَجُ لَهَا مِنْهُ."[1]. أن قد سمع شكواها، وأزال الضر عنها.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿التحريم: 3﴾.

التفسير: جاء في التفسير أنّ: "مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِهَا صَاحِبَتَهَا"[2]، أو ما "أظهر الله قولها لرسوله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ حفصة، فأخبرها ببعض ما أخبرت عائشة رضي الله عنهما، ولم يخبرها عن الجميع"[3]، وقد "أطلع الله نبيه ﷺ على أنّها قد نبأت به"[4].

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 28، ص 10.
2 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 92.
3 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 467.
4 الثعلبي، الكشف والبيان، ج9، ص 345.

البعد البلاغي: (وَأَظْهَرَهُ) لفظ ورد في النص القرآني ليُعلم أنّ الله ﷻ كشف القول، موضوع الحدث، وأخبر به الرسول ﷺ وأطلعه على مضمونه الذي كان قد أخفي عنه، بحيث لا يستقيم النص لو استبدل به لفظ (قال)-على سبيل المثال- لأنه لن يستبين منه أن هناك (قولا) ما مخفيا وانكشف؛ بينما هذا ما يشير إليه لفظ (وأظهره) بعدما كان مخفيا، أو ظنت حفصة أنّه كذلك! فالظهور ضد الخفاء الذي سلكته أمّ المؤمنين حفصة؛ فالضمير في هاء (وأظهره) يعود على الحديث، والحديث أطلق مجازا على (القول)؛ و(القول) هو (قول) حفصة التي نبأت به عائشة-رضي الله عنهما- سراً، وبالطبع فإن إظهاره يكون بإعادة محوره، ومضمونه على سمع الرسول ﷺ، مما أعطاه قوة وتأييداً؛ بحسب بعض التفاسير، وهو أنه: "اسْتُعِيرَ الْإِظْهَارُ إِلَى الْإِطْلَاعِ لِأَنَّ إِطْلَاعَ الله نبيه ﷺ عَلَى السِّرِّ الَّذِي بَيْنَ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ كَانَ غَلَبَةً لَهُ عَلَيْهِمَا فِيمَا دَبَّرَتَاهُ فَشُبِّهَتِ الْحَالَةُ الْخَاصَّةُ مِنْ تَآمُرِ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ عَلَى مَعْرِفَةِ سرّ النبي ﷺ وَمِنْ عِلْمِهِ بِذَلِكَ بِحَالِ مَنْ يُغَالِبُ غَيْرَهُ فَيَغْلِبُهُ الْغَيْرُ وَيَكْشِفُ أَمْرَهُ. فجاء الْإِظْهَارُ هُنَا أيضا مِنَ الظُّهُورِ بِمَعْنَى الِانْتِصَارِ. وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الظُّهُورِ ضِدَّ الْخَفَاءِ، لِأَنَّهُ لَا يَتَعَدَّى بِحَرْفِ (عَلَى)، وهذا رأي ابن عاشور"[1].

*****

(9)- (لجّ) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: "(لَجَّ) اللَّامُ وَالْجِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَرَدُّدِ الشَّيْءِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ، وَتَرْدِيدُ الشَّيْءِ مِنْ ذَلِكَ اللَّجَاجُ، يُقَالُ لَجَّ يَلَجُّ، وَمِنَ الْبَابِ لُجُّ الْبَحْرِ، لِأَنَّهُ يَتَرَدَّدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، حيثُ لا تُرى أرضٌ ولا جَبَلٌ. وبحرٌ لُجِّيٌّ واسع اللُّجَّة. ولَجْلَجَ الرَّجُلُ الْمُضْغَةَ فِي فِيهِ، إِذَا رَدَّدَهَا وَلَمْ يُسِغْهَا. وَاللَّجْلَاجُ: الَّذِي يُلَجْلِجُ فِي كَلَامِهِ لَا يُعْرِبُ. وَاللَّجَّةُ الْجَلَبَةُ.

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص 352- 353.

ولَجَّجَ القومُ: دخلوا في لُجَّةٍ. والتجَّ الظَّلامُ: أختلط، والأصواتُ اختلطت وارتفعت. ولَجَّةُ الْقَوْمِ واللَّجلجة: اخْتِلَاط الْأَصْوَات"[1]. وَاللَّجَاجُ بِفَتْحِ اللَّامِ: الِاسْتِمْرَارُ عَلَى الْخِصَامِ وَعَدَمُ الْإِقْلَاعِ عَنْ ذَلِكَ"[2].

(لجَّ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (لجّ) واشتقاقاته في القرآن الكريم أربع مرات)[3]، اثنتان بمعنى لجّة البحر، واثنتان بمعنى لجّة الأصوات؛ جانب من مقاصد الدراسة، هما في:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 75﴾

التفسير: جاء في بيان: ﴿لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ﴾، أي: "مضوا وتمادوا في طغيانهم يعمهون، ولم ينزعوا عنه"[4]، كما جاء أن: "لو كشف الله عنهم هذا الضرّ وهو الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب، لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله ﷺ والمؤمنين وإفراطهم فيها، ولذهب عنهم هذا الإبلاس وهذا التملق بين يديه ويسترحمونه"[5].

البعد البلاغي: (اللّجج) لفظ يشير إلى (قول)، ويعبر عن صوت يحمل معنى التمادي والفجور، واستمرار الخصومة والمنازعة للطرف المقابل، وعدم الرضا بأي حل من الحلول، بأصوات مختلطة فيما بينها؛ تكاد لا تتميز من بعضها البعض لعدم وضوح الحجة؛ لأن: "الحق

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، (لج)، الفراهيدي، العين، باب الجيم مع اللام، ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج7، ص 210.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 18، ص 100.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 645.

4 السمعاني، تفسير القرآن، ج3، ص 485، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 486، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص 142.

5 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 197.

أبلج والباطل لجلج"[1]، وجاء اللفظ في الآية ليكشف عن أحوال الكافرين إذا ما أنعم الله عليهم بالرزق والأمان والرحمة؛ بعد حال الذّل والتّضرع والاسترحام التي كانوا عليها، فيظهر منه استمرارهم في سلوك المنهج نفسه من التمادي، وعدم الرضى بأي حل من الأحوال، مستمرين في غيهم وفجورهم، ومعاداتهم للرسول ﷺ ولأصحاب الإيمان، متمردين على من أنعم عليهم بالرحمة؛ منكرين ما كانوا عليه قبل حين...

فلو افترضنا جدلا وجود لفظ (قالوا) مكان (لجّوا) في النص لانتظر المتلقي تمام النص، متسائلا ماذا (قالوا)...؟ وكيف كانت حالهم...؟ ولماذا قالوا...؟ وتساؤلات أخرى لم يكن لفظ (قال) أو أي لفظ من ألفاظ القول أن يجيب عنها...

وقد جاء التعبير في الآية: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ بجملة خبرية، بأسلوب الشرط؛ لوجود حرف (لو) الذي يفيد امتناع لامتناع"؛ [2]أي امتنعت عنهم الرحمة، ولم يكشف عنهم الضر، فلم يسمع لهم لجج.

(2)- وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ ﴿الملك: 21﴾.

التفسير: ذكر بعض المفسرين في قوله: ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، أي: "تمادوا واستمروا في طغيان ونفور عن الحقّ واستكبارا عنه، وتمادوا في عناد وبعد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه، وتابعوا طريقهم في طغيانهم وإفكهم وضلالهم، ولم يعتبروا ولم يتفكروا"[3]، "وكأنه قيل إنهم لم يتأثروا بالتبكيت والتعجيز، ولم يذعنوا للحق؛ فاللّجاج التّمادي في العناد في تعاطي الفعل

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 103، الهامش.

2 مناهج جامعة المدينة العالمية، الكتاب: البلاغة 2 – المعاني، كود المادة: LARB4103، ص 329.

3 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 514، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 581، الزحيلي، تفسير المنير، ج29، ص 32.

المزجور عنه والعتو والتّجاوز عن الحدّ والنفور والفرار"[1]، و"لَجَّ فِي الْخُصُومَةِ اشْتَدَّ فِي النِّزَاعِ وَالْخِصَامِ، أَيِ اسْتَمَرُّوا عَلَى الْعِنَادِ يَكْتَنِفُهُمُ الْعُتُوُّ وَالنُّفُورُ، وَلَا يَتْرُكُ مَخْلَصًا لِلْحَقِّ إِلَيْهِمْ"[2].

البعد البلاغي: تتكامل المعاجم العربية في تعريف لفظ (لجّ) مع ما أشارت إليه التفاسير القرآنية؛ بأنّه حالة من حالات (القول)؛ تحمل بالإضافة لمعناه التعبير عن اشتداد الخصومة والنّزاع بأصوات مبهمة لا يكاد يتبين منها شيء؛ بسبب الغيّ في الباطل والتّمادي به، وضعف الحجّة، لأنّ الباطل لجلج، ولصاحب الحق بيانا، فمن أين يأتي البيان والقوة والوضوح للباطل؟ فهو يتلجلج ويترنح في الكلام ويهمهم ليوهم الخصم بقوته؛ وقطع الطريق عليه حتى لا تظهر حجته؛ فلا يترك للحق طريقا، ولا يتراجع عن تماديه في الباطل...، هذه بعض الإشارات التي يمكن استخلاصها من لفظ (لجّ) في هذا النّص القرآني، فليس من الممكن أن يستبدل به لفظ آخر مع ضمان المحافظة على المعاني نفسها، وهذا يؤكد أنّ لكل لفظ ورد في القرآن الكريم دلالات ومعاني لا يقوم بها غيره، ولو كان في الظاهر أنه رديف له، وفي هذا إعجاز بياني في استخدام اللفظ المناسب في النّص المناسب، فلفظ (لجّ) جاء في النّص القرآني ليكشف عن أصوات أهل الباطل؛ والتعبير عنها بلفظ يشير إلى ضبابيتها وعدم وضوحها؛ لفقدان الحجة والدليل، بحيث لا يمكن أن يستبدل بلفظ (قال) تحديدا؛ علما بأن أصواتهم ولججهم ومنازعتهم هي أصوات يعبرون بها عما في داخلهم.

*****

---

1 أبو الفداء، روح البيان، ج10، ص 93،

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 44.

(10)- (مارى) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم اللّغة حول مادة: "(مَرِيَ) الْمِيمُ وَالرَّاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى مَسْحِ شَيْءٍ وَاسْتِدْرَارٍ، وَالْآخَرُ عَلَى صَلَابَةٍ فِي شَيْءٍ. فَالْأَوَّلُ الْمَرْيُ: مَرْيُ النَّاقَةِ، وَذَلِكَ إِذَا مُسِحَتْ لِلْحَلْبِ، يُقَالُ مَرَيْتُهَا أَمْرِيهَا مَرْيًا. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ الْمَرْوُ: جَمْعُ مَرْوَةٍ، وَهِيَ حِجَارَةٌ تَبْرُقُ. وأَنَّ الْمِرَاءَ من الأصل الثاني؛ مِمَّا يَتَمَارَى فِيهِ الرَّجُلَانِ مِنْ هَذَا، لِأَنَّهُ كَلَامٌ فِيهِ بَعْضُ الشِّدَّةِ"[1]، "ومَارَاهُ مِرَاءً وَمُمَارَاةً، ماريت الرجل أماريه مراء، إذا جادلته، ومَرَاهُ حقّه، أي جحده، والمِرْيةُ والمُرْيَةُ: الشَّكُّ والجدل"[2].

(مارى) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (مارى) واشتقاقاته في القرآن الكريم عشرين مرة)[3]، جاءت جميعها بمعنى واحد؛ هو المراء والجدل في الكلام، جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ﴿الأنعام: 2﴾.

التفسير: جاء في بعض التفاسير: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي: "إنكم بعد ما جاءكم من أدلة خلقكم تشكون في وحدانية الله ﷻ، فتعاقب الأحكام؛ خلق من طين، وانقضاء الأجل بالموت الذي تشاهدونه، ورغم ذلك هناك امتراء وشك، فالمرية في كلام العرب، هي الشك، أي: تشكون في

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، (مري).

2 الجوهري، الصحاح، ج6، ص 2491، ابن منظور، اللسان، فصل الميم، حرف الياء المعتل.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 665.

البعث بعد الموت وفي الأجل المسمى"[1]، وحدد القرطبي: "أيْ تَشُكُّونَ فِي أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَقِيلَ: تُمَارُونَ فِي ذَلِكَ أَيْ تُجَادِلُونَ جِدَالَ الشَّاكِّينَ وَالتَّمَارِي الْمُجَادَلَةُ عَلَى مَذْهَبِ الشَّكِّ"[2].

البعد البلاغي: توافق المعنى المعجمي مع ما جاء من تفسير الآية الكريمة ببلاغة تامة في أنّ (المراء) لفظ يشير إلى (القول) متضمنا معنى الجدل، مع الشك، وكأن المماري لا يريد أن يفهم الحق، أو يتظاهر بعدم فهمه، ظنّاً منه أنه بذلك يطمسه أو يخفيه! وارتباط المراء ببعض جوانبه الدلالية بالحجارة؛ تأكيدا على شدة المماري وصلابته في تعنته لرأيه، وهو يعلم الحقيقة التي يماري فيها. وبالطبع فإن للمماري طرفاً آخر يتجادل معه، وهو طرف مضاد؛ لا يتوافق معه في الفكرة. فهؤلاء الكفرة يجادلون جدال المعاند في الحياة والموت، وفي وحدانية الإله وهم يعايشون الآيات الدالة على دحض جدالهم، ولا يفتحون عقولهم للاعتبار، أو الإيمان، وليس لديهم الاستعداد الأخذ من الطرف الآخر...

إنّ بلاغة التعبير القرآني لا يمكن أن يكون فيها احتمال للفظ غير ما ورد في النص، أو توقع غيره لعلّه يكون أبلغ، فهذا مرفوض جملة وتفصيلا، ولو حاولنا أن نستبدل به لفظ (قال) فما علينا إلا أن نمرر الآية على أذهاننا بتغيير اللفظ مقصد الدراسة، بهذا اللفظ، فهل يستقيم المعنى؟ هل لدينا إجابة ماذا (تقولون)؟ أو عن ماذا تقولون؟ أو هل لدينا القدرة على إكمال الآية مع المحافظة على جلال معاني القرآن الكريم، مع عدم وسمنا بالمحرفين لألفاظه...؟ بالطبع فإن الجدال في ذلك هو من (المراء) العقيم- والعياذ بالله منه-.

(2)- وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿مريم: 34﴾.

---

1 الطبري، جامع البيان، ج11، ص 260، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 434،

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص 389.

التفسير: جاء في بعض التفاسير أنّ ذلك عيسى "الذي فيه يختصمون ويختلفون، من قولهم: ماريت فلانا: إذا جادلته وخاصمته"[1]، وذكر الزمخشري أنّ: "يتمارون: يتلاحون، فامترت فيه اليهود والنصارى; فأما اليهود فزعموا أنّه ساحر كذّاب; وأمّا النّصارى فزعموا أنّه ابن الله، وثالث ثلاثة، وإله، وكذبوا كلهم، ولكنه عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه"[2].

البعد البلاغي: إذن يتمارى الكافرون في حقيقة واضحة، ويجادلون في عناد، ويخاصمون في باطل، وهم يعلمون ذلك، ولا يحيدون عنه علوا واستكبارا، والأدلة والبراهين واضحة لمن أراد التصديق والإتباع؛ فاليهود مخترعين فنّ السّحر يميزون السّاحر ممن ليس هو بساحر؛ ويدّعون أنّ عيسى عليه السلام ساحر، والنّصارى تدّعي أنّه ابن الله وهم يعلمون أنهم يقولون قولا عظيما منكرا: ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾.

وللعنف الجاري بين الفريقين في هذا الخصام ليثبت كل منهم صدق ما يدعي -وهو يعلم كذبه- عبر عنه القرآن الكريم بلفظ (يَمْتَرُونَ)؛ اللفظ الدقيق الذي يعبر عن المعنى المراد؛ بحيث لا يمكن أن يعبر عنه لفظ آخر غيره، في هذا السياق. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ جملة خبرية تقريرية.

(3)- وقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿الشورى: 18﴾.

التفسير: أي: (إنّ الذين يخاصمون في قيام الساعة ويجادلون فيها ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾"[3]، وأنّ الذين "يشكون ويخاصمون فيها في خطأ طويل، بعيد عن الحق"[1]، وأن الذين يمارون: أي:

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 194_ 195، السمعاني، تفسير القرآن، ج3، ص 291.

2 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 16، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 374، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 10.

3 الطبري، جامع البيان، ج21، ص 520، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص 16،

"يجادلون فيها، ويمارون من المرية، أو من مري الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلاً من المتجادلين يماري ليستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة. لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ عن الحق"[2].

البعد البلاغي: إنّ الذين يجادلون في موضوع الساعة وقيامها لا يجادلون من أجل معرفة الحقيقة وإتباعها؛ بل من أجل التشكيك والجحود، والإنكار؛ وهم في جدالهم ومماراتهم يستخرجون ما عند الطرف الآخر من براهين بأسلوب ممقوت، عنيف، وهذا الطرح للبراهين من كلا الطرفين هو في الحقيقة كلام و (أقوال). ولاختلاف الموقف والفكرة، وصفة المتلقي، أخذ هذا (القول) لفظا جديد في القرآن الكريم يعبر عنه، ويؤدي صورة الجدل كاملة وهو لفظ (المراء)، ولا يمكن أن نستبدل به لفظ (قال) ليعبر عنه في السياق الذي ورد فيه، على أساس أن كلا منهما من ألفاظ (القول). وجاءت الجملة القرآنية: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ خبرية، مؤكدة تأكيدا إنكاريا، من أداة التوكيد (إنّ)، ولام التوكيد الداخلة على حرف الجر: (لَفِي).

*****

(11)- (نزع) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم اللّغة حول مادة: "نزع: نَزَعْتُ الشيء: قَلَعْتُه، أَنْزِعُه نَزْعاً، وانتزعته أسرع وأخف، ونازَعْتُهُ مُنازَعَةً ونزاعا، إذا جاذبته في الخصومة. وبينهم نِزاعَةٌ، أي خصومةٌ في حقّ. والتّنازُعُ: التّخاصمُ والتّجاذب والنُّزاعة، والنِّزاعَة، والمنزَعَة والمَنزعَة: الخُصُومَة، كما ينازِعُ الفرسُ فارسهَ العنانَ، ونازَعَتِ النفسُ إلى كذا نِزاعاً، أي اشتاقت"[3].

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 241.

2 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص 79، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص 28.

3 الفراهيدي، العين، باب العين والزاي والنون، الجوهري، الصحاح، (نزع)، 1289، ابن سيده، المحكم، ج1، ص 526.

(نزع) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (نزع) واشتقاقاته في القرآن الكريم عشرين مرة)[1]، جاءت في ثلاثة عشر موقعا بمعنى الاقتلاع بخفة، وفي سبعة مواقع بمعنى الخصومة، جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿آل عمران: 152﴾.

التفسير: جاء في: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ...﴾ أي: "واختلفتم في أمر الله، وَعَصَيْتُمْ أمر الرسول ﷺ"[2]، والْأَمْرِ إما أن يكون بمعنى الشأن والقصة أي تنازعتم فيما كنتم فيه من الشأن، أو بمعنى الأمر الذي يضاد النّهي أي تنازعتم فيما أمركم الرسول به وعصيتم بترك ملازمة ذلك المكان. وإنما قدم ذكر الفشل على التنازع والمعصية كأنهم فشلوا في أنفسهم عن الثبات طمعا في الغنيمة، ثمّ تنازعوا من طريق القول في إنّا هل نذهب في طلب الغنيمة أم لا، ثمّ اشتغل بعضهم بطلب الغنيمة"[3]، ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ فاختلفتم، فمن قائل نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور، فعصيتم الرسولﷺ، وتركتم أمره من بعد ما أراكم الله ما تحبون وهو انخذال أعدائكم"[4].

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص693- 694.

2 الطبري، جامع البيان، ج7، ص 289، السمرقدي، بحر العلوم، ج1، ص 257.

3 النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: 850هـ)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه - بيروت- 1416 ه، ج2، ص 280.

4 السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص 152.

البعد البلاغي: من جوانب التفسير: أنّ اختلاف الصحابة في شأن الثبات، مـن عدمـه، وتبني كل طرف قولا يخالف قول الآخر، وتجاذبهم الخصومة، واختلافهم في أمر رسول الله ﷺ سُمي في التعبير القرآني بـ(النزاع)؛ علما بأنها آراء عرضت بـ(القول)؛ ولكنّ لفظ (القـول) وحده لا يفيد التّعبير عن وجود خصومة، ولا يتطرق لذكر فريقين مختلفين ..! كمـا أنّ حـبهم للغنيمة واشتياقهم لحيازتها، والتسارع إليها يسمى نزاعا أيضا، ولكنّه نزاع نفسي داخلـي، أمـا النّزاع بالقول، والرأي فهو نزاع خارجي. وقد جاء التعبير عن هذا (النزاع) بجملـة خبريـة، تقريرية، صورت مجريات الحدث وما آل إليه بالترتيب؛ فكان الفشل أولا؛ ثم (النزاع) المترتب عليه ثانيا؛ أسبابا ضيعت عليكم فرصة الفوز التي كنتم تحسونها بإذنه!.

(2)- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ﴿النساء: 59﴾.

التفسير: جاء في التفسير: "فإن اختلفتم، أيها المؤمنون، في شيءٍ من أمر دينكم: أنتم فيما بينكم، أو أنتم وولاة أمركم، وتشاجرتم فيه، فردّوه إلى الله، يعني بذلك: وارتادوا معرفة حكم ذلك الأمر بما يقضي به الله، من كتابه الله، فاتبعوا ما وجدتم"[1]، أو إن اختلفتم في شيء من أمـور دينكم فردّوه إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله، وحكمه"[2]، وذكر أنّ هذا "هو خطـاب للكافـة، وقيل: بل لأولي الأمر منهم إذا وقع تنازع فيما بينهم في حكم"[3]، وقيل إنّه: "لَمَّا كَانَ التَّنَازُعُ مِنْ

---

1 الطبري، جامع البيان، ج8، ص 504.

2 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج2، ص 1371،

3 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج3، ص 1288، الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 524.

شَأْنِه أَنْ يَنْشَأَ عَنِ اخْتِلَافِ الْآرَاءِ، وَهُوَ أَمْرٌ مُرْتَكِزٌ فِي الْفِطْرَةِ بَسَطَ الْقُرْآنُ الْقَوْلَ فِيهِ بِبَيَانِ سيِّء آثَارِهِ"[1].

البعد البلاغي: للحدّ من تفشي ظاهرة التّنازع بين المسلمين والخصومة، واختلاف الآراء بينهم؛ لما لها من آثار سيئة على المجتمع المسلم، وعلى المسلمين أنفسهم؛ جعل لها القرآن الكريم ضوابطاً وحدوداً مرجعيه، يرجع إليها عند الضرورة؛ هي إلى أمر الله ﷻ، وإلى أمر رسوله ﷺ من القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ومعظم منشأ هذه الخصومات هو اختلاف الآراء، ولا وسيلة للتعبير عنها، والتصريح بها إلا بـ(الأقوال)؛ ولكن استخدام لفظ (الأقوال) في هذه الآية الكريمة لا يحمل الإشارة حول وجود أكثر من طرف، كما لا يعبر عن اختلاف هذه الأطراف حول الحلول المقترحة لعارض ما! فجاء التّعبير القرآني عن هذه الحالة بلفظ يحمل الدلالات والمعاني التي لا يختلف حولها اثنان؛ هو لفظ (تنازعتم) وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ...﴾ جملة خبرية، شرطية من أداة الشرط (إن)، وفعلها جملة (تَنَازَعْتُمْ)، وجوابها في جملة الأمر الفعلية: (فَرُدُّوهُ).

(3)- وقوله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ ﴿طه:62﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ عند عدد من المفسرين؛ أي: "فتنازع السحرة أمرهم بينهم. وكان تنازعهم أمرهم بينهم فيما ذكر أن قال السحرة بينهم:" إن كان هذا ساحرا فإنا سنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر". وقال آخرون: بل هو أن قال بعضهم لبعض: "ما هذا القول بقول ساحر"، ويعني: أن السحرة تناظروا أمرهم بينهم، واختلفوا فيما بينهم سراً من

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص 31.

فرعون "[1]، وقيل: "تَجَاذَبُوهُ؛ وَالتَّنَازُعُ يَقْتَضِي الِاخْتِلَافَ"[2]، وأنهم "أخذوا يتساومون القول ويتبادلون الآراء"[3].

البعد البلاغي: إذا ما ألّفنا بين آراء المفسرين حول لفظ (التّنازع) في الآية السابقة: نخرج بحقيقة أنّه اختلاف آراء وأفكار، وتجاذب خصومة، يعبر عنها بـ(قول) يؤدي إلى الشقاق؛ وهذا ما كان من تناجي السّحرة حول قضية سيدنا موسى عليه السلام واختلافهم في شأنه؛ ورغم أنّ هذا التّنازع سببه (القول) ؛ إلا أنّ افتراض لفظ (قول) وحده في هذا السياق لا يشير إلى ما يشير إليه لفظ (النّزاع) من دلالات ومعاني. وجاءت الجملة: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ خبرية استئنافية.

*****

(12)- (نزغ) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم اللّغة حول مادة: (نَزَغَ)؛ ما يلي: مقاييس اللغة: "النُّونُ وَالزَّاءُ وَالْغَيْنُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى إِفْسَادٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ. وَنَزَغَ بَيْنَ الْقَوْمِ: أَفْسَدَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ"[4]، وفي معاجم أخرى: "نَزَغ فلان بينهم ينزغ نَزْغاً، أي: أغرى وحمل بعضهم على بعض بفساد ذات بينهم، والنّزَغ: الْكَلَام الَّذِي يُغري بَين النَّاس، ونزغ الشَّيْطَان وساوسه ومَا يحمل بِهِ الْإِنْسَان على الْمعاصِي. ونَزغه: حرّكه أدنى حَرَكَة. وقَوله تَعَالَى: ﴿وإِمَّا يَنْزغَنك من الشَّيطان نَزْغ﴾ يَعْنِي: يُلقي فِي قَلْبك مَا يُفسدك على أَصْحَابك، أَو: إِن نالك من الشَّيْطَان أدنى نَزغ ووسَوسة وتحريك يَصرفك

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 327، السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 403، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج7، ص 4657، الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 72.

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص 349.

3 الشعراوي، الخواطر، ج15، ص 9306.

4 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص 415.

عَن الِاحتِمَال؛ فاستعذ بِاللَّه من شَره وامض على حكمك. ونزغ الرجلَ ينزغه نزغا: ذكر بقَبيح. وكَذَلِكَ نَزَغَ بَيْنَهُمْ. الناز غ المغتاب، النزغ: الْكَلَام يقْصد بِهِ الإغراء بَين النَّاس"[1].

(نزغ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (نزغ) في القرآن الكريم ست مرات، في أربع آيات)[2]، بمعنى واحد جميعها؛ هو نزغ الشّيطان بين النّاس للإغراء والوقيعة، منها:

(1)- قوله تعالى:﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾﴿الأعراف:200﴾.

التفسير: جاء في معنى الآية: "وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدّك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم؛ فاستجر بالله منه، وأصل "النـزغ": الفساد، يقال: "نـزغ الشيطان بين القوم"، إذا أفسد بينهم وحمل بعضهم على بعض. ويقال منه: "نزغ ينزغ"، فالمعنى: وإما يلقين الشيطان يا محمّد في نفسك وسوسة من حديث النّفس إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة، ودعائك إلى مساءاته، فاستجر بالله واعتصم من خطواته، إنّ الله هو السميع لاستعاذتك منه، ولغير ذلك من كلامك وكلام غيرك، العليم بما ألقى في نفسك من نزغاته، وحدثتك به نفسك ومما يذهب ذلك من قبلك، وغير ذلك من أمورك وأمور خلقه"[3]، والنّزغ أدنى حركة"[4].

1 الفراهن سيبدي، العين، باب الغين والزاي والنون معهما، ابن سيده، المحكم، ج5، ص 448، ابن منظور، لسان العرب، فصل النون، حرف الغين المعجمة، مجمع اللغة العربية- القاهرة، المعجم الوسيط ج2، ص 914.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص694.

3 الطبري، جامع البيان، ج13، ص 332- 333، و ج21، ص 473.

4 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 577.

البعد البلاغي: "النّزغ على العموم هو: الْكَلَام الذي يقْصد بِهِ الإغراء بَين النَّاس، وحملهم على العداء"[1] وأكثر ما يلتصق هذا الأسلوب بالشيطان الرجيم؛ لأنه من الأعمال التي يبدع فيها؛ لما تتميز به من الخفة، والخفاء لا يستطيعهما البشر؛ لإيقاع الخصام والعداوة بين النّاس، ويكون نزغه إما بالكلام، أو الإلقاء في القلب بالوسوسة، أو بحديث النّفس من حيث لا يشعر ذلك الشخص المُلقى في قلبه! فيكون ذلك الشخص أداة سهلة، ووسيلة سريعة لمخاصمة النّاس، والانتقام منهم. و النَّزْغُ: "النَّخْسُ، وَحَقِيقَتُهُ: مَسٌّ شَدِيدٌ لِلْجِلْدِ بِطَرَفِ عُودٍ أَوْ إِصْبَعٍ، فَهُوَ مَصْدَرٌ، وَهُوَ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِاتِّصَالِ الْقُوَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ بِخَوَاطِرِ الْإِنْسَانِ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَصْرِفُهُ عَنِ الْخَيْرِ"، "وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالنَّزْغِ هُنَا: النَّازِغُ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ، وُصِفَ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ، والمعنى: إِن يَنْزَغَنَّكَ النَّازِغُ الَّذِي هُوَ الشَّيْطَانُ. وَالْمُبَالَغَةُ حَاصِلَةٌ"[2].

و (النزغ) في غالب الأحوال هو كلام و(قول) من عموم الأقوال؛ ولكن اختلافه عن عمومها كثير؛ فجلّ وظيفته الوقيعة بين الناس، وحامل لواءه – في الغالب– هو الشّيطان الرّجيم، وأحب الأماكن إليه القلب، وأفضل الأصوات إليه السّرية والخفاء، وإن كانت الخطرات من حيث لا يلاحظ ولا يرى فهي الأمثل، وأقل ضحاياه اثنين! فهل من الممكن أن يستبدل به لفظ (قال) مع ضمان المحافظة على ما مر بيانه، ودلالاته، وما رافقها من تحذيرات على أساس أنّ قال هو الأصل في ألفاظ (القول)؟ بالطبع فإن هذا لا يستقيم؛ ولأن المولى ﷻ هو الأعلم بلطائف الألفاظ ودلالاتها، والأعلم بما يراد توصيله للمتلقي؛ فلا تختلط الألفاظ عليه لتوقع احتمال لفظ مكان آخر!.

---

1 الفراهيدي، العين، باب الغين والزاي والنون معهما، ابن سيده، المحكم، ج5، ص 448، ابن منظور، لسان العرب، فصل النون، حرف الغين المعجمة، مجمع اللغة العربية– القاهرة، المعجم الوسيط، ج2، ص 914.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 297.

وجاءت جملة: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ خبرية، شـرطية مـن أداة الشرط (إمّا)، وجملة (يَنْزَغَنَّكَ) الفعلية جملة فعل الشرط، وجملة (فَاسْتَعِذْ) الفعلية جملة جـواب الشرط.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَـشَاءُ إِنَّـهُ هُـوَ الْعَلِـيمُ الْحَكِـيمُ﴾ ﴿يوسف:100﴾.

التفسير: جاء في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ﴾ أي: "من بعد أن أفسد ما بينـي وبينهم، وجَهِل بعضنا على بعض"[1]، و "حرّش بعضنا على بعـض "[2] لأنّ: "النَّـزْغُ الـنَّخْسُ وَالْغَرْزُ، وقيل: "قَلَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ فِعْلِ الشَّيْطَانِ، وَإِطْلَاقُ النَّزْغِ هُنَا عَلَى وَسْوَسَةِ الـشَّيْطَانِ اسْتِعَارَةٌ: شَبَّهَ حُدُوثَ الْوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي النَّفْسِ بِنَزْغِ الْإِبْرَةِ وَنَحْوِهَا فِي الْجِسْمِ بِجَامِعِ التَّأْثِيرِ الْخَفِيِّ، وَشَاعَتْ"[3]، "وَالنَّزْغُ: أَصْلُهُ الطَّعْنُ السَّرِيعُ، وَاسْتُعْمِلَ هُنَا فِي الْإِفْسَادِ السَّرِيعِ الْأَثَرِ، ونَزْغ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ ديني عقدي، بل ينزغ بين الإخـوة والأهل والأحبة، كما قال يوسف: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِي وَبَيْنَ إخوتي﴾"[4].

البعد البلاغي: لِمَا يتحلى به يوسف عليه السلام من خلق رفيع، وتسامح، فقد عزى سبب ما حصل بينه وبين إخوته لنزغ الشّيطان الرّجيم؛ لأنه يريد أن ينتحل لهم عذرا أمام والدهم، لأنه يعلم أن لو نسبه لإخوته لأثار غضب والدهم عليهم، وأغرى لديه حب الانتقام له منهم، فجاء على لسانه

---

1 الطبري، جامع البيان، ج16، ص 277.

2 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 177، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص 307.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص 299.

4 الشعراوي، الخواطر، ج14، ص 8613.

قول الله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، وإن كان في الحقيقة أنّه سبب النزغ بينه وبين إخوته؛ ولكن تُرجم هذا النزغ على ألسنتهم أقوالا تضمنت معاداة يوسف، والوقيعة به بكلام منكر، لا يمت للخير بصلة، بل يدعو للفتنة، وإثارة الضغينة، وحب الانتقام منه، بحيث لا يمكن للفظ (قال) أن يشير إلى ما أشار إليه لفظ (نزغ) في النّص ولا يمكن أن يستبدل به.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ﴿الإسراء: 53﴾.

التفسير: ذكر إنّ الشيطان "يوسوس لهم ويوقع بينهم العداء، ليفسد أمرهم، ويلقى بينهم الفساد ويغرى بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارّة والمشاقة، وهو اعتِرَاضٌ"[1]، وقيل إنّ: "النَّزْغُ الْإِغْرَاءُ، ونَخْس الشيطان ووسوسته"[2].

البعد البلاغي: النّزغ حديث سري، خفي الصوت، كبير التّأثير على القلب والشعور؛ تأتي ترجمة فعله -في الغالب- بعمل مستقبح غير محمود العواقب من ألفاظ و(أقوال) تثير النزاع والاختلاف بين طرفين من الناس، لذا نجد أنّ غالب اقترانه بعمل الشيطان الرجيم؛ فأكد القرآن على ترك هذا الأسلوب من (القول)، وأن يستبدل به الذي هو أحسن؛ مما يؤكد أنّه نوع من أنواع (القول) التي تثير الخلاف والخصام بين طرفين مختلفين. وجاءت الجملة: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ خبرية مؤكدة بـ(إنّ) تأكيدا إنكاريا.

وبهذا يكون المبحث الثامن: ألفاظ (القول) "الدّالة على المرادّة بين طرفين مختلفين" قد تم بفضل الله وتوفيقه,,,

*****

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 316، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 762، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص 67.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 277، الشعراوي، الخواطر، ج14، ص 8612.

المبحث التاسع

ألفاظ القول الدالة على "الفنون الأدبية" وبيان معانيها، ودلالاتها وأساليبها البلاغية

سأتناول في هذا المبحث ألفاظ القول الدالة على (الفنون الأدبية) وأبيّن معانيها اللّغوية، ثمّ البحث عن مواطنها في القرآن الكريم ودلالاتها في السياقات التي وردت فيها، لمعرفة مقاصدها ومدى توافقها تحت هذا المبحث، ثمّ الكشف عن أساليبها البلاغية. والعدد الذي وردت فيه بالمعنى المقصود من الدراسة. وعدد هذه الألفاظ ستة؛ هي: (درس، شعر، قصّ، كتب، ملّ، وصّى).

*****

(1)- (درس) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "دَرَسَ: الدَّالُ وَالرَّاءُ وَالسِّينُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خَفَاءٍ وَخَفْضٍ وَعَفَاءٍ. والدَّرس: بقيّة أَثَرِ الشيءِ الدّارس، والدَّرْسُ: الطَّرِيقُ الْخَفِيُّ. وَمِنَ الْبَابِ دَرَسْتُ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ. وَذَلِكَ أَنَّ الدَّارِسَ يَتَتَبَّعُ مَا كَانَ قَرَأَ، كَالسَّالِكِ لِلطَّرِيقِ يَتَتَبَّعُهُ"[1] "والمصدر الدُّرُوس ودَرَسَتهُ الرِّياح أي عفَتْه. والدَّرْس: دَرْسُ الكتابِ للحِفْظ، ودَرَسَ دِراسةً، كرر قراءته ودرست الكتاب دَرْساً ودِراسة، ودارسته مدارسة، وتدارسوه حتى حفظوه. والدِّرِيس: الثَّوْبُ الخَلَق"[2].

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص 267.

2 الفراهيدي، العين، باب السين والدال والراء، ج7، 227، الجوهري، الصحاح، درس، الزمخشري، أساس البلاغة، درس.

(درس) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (درس) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثماني مرات)[1]، مرتان منها اسم سيدنا إدريس عليه السلام، والست الباقية بمعنى دراسة الكتاب للحفظ، جانب من مقاصد الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى:﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(آل عمران:79).

التفسير: جاء في تفسير ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: "بعلمكم الكتابَ ودراستكم إيّاه وقراءتكم، كونوا أيها النّاس، سادة النّاس، وقادتهم في أمر دينهم ودنياهم، ربّانيّين بتعليمكم إيّاهم كتاب الله وما حواه من معاني أمور دينهم، وبتلاوتكم إياه"[2]، و "كونوا علماء بالكتاب عاملين به"[3]، وجاء أن "تُدَرِّسُونَ غَيْرَكُمُ الْعِلْمَ، وتَدْرُسُونَ، مِنْ أَدْرَسَ بِمَعْنَى دَرَّسَ"[4]، "وتَدْرُسُونَ مَعْنَاهُ تَقْرَءُونَ أَيْ قِرَاءَةً بِإِعَادَةٍ وَتَكْرِيرٍ: لِأَنَّ مَادَّةَ دَرَسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تَحُومُ حَوْلَ مَعَانِي التَّأَثُّرِ مِنْ تَكَرُّرِ عَمَلٍ يُعْمَلُ فِي أَمْثَالِه وَقَالُوا: دَرَسَ الْكِتَابَ إِذَا قَرَأَهُ بِتَمَهُّلٍ لِحِفْظِهِ، أَوْ لِلتَّدَبُّرِ، وَالدِّرَاسَةَ أَخَصُّ مِنَ الْقِرَاءَةِ. وَمَادَّةُ دَرَسَ تَسْتَلْزِمُ التَّمَكُّنَ مِنَ الْمَفْعُولِ فَلِذَلِكَ صَارَ دَرْسُ الْكِتَابِ مَجَازًا فِي فَهْمِهِ وَإِتْقَانِهِ، وَالدِّرَاسَةُ: الْقِرَاءَةُ بِتَمَهُّلٍ وَتَفَهُّمٍ"[5]، يقول الشعراوي في الآية: "إنّ العلم هو تلقي النص المنهجي. والدراسة هي البحث الفكري في النص المنهجي؛ لذلك فالناس في الريف يقولون: «ندرس القمح» أي ندرس القمح بآلة حادة كالنورج حتى تنفصل حبوب القمح عن «التبن»

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 256.

2 الطبري، جامع البيان، ج6، ص 544- 546.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 226.

4 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج3، ص 233.

5 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 295، و ج22، ص 228.

وتكون نتيجة الدراس هي استخلاص النافع. إذن فهناك فرق بين «تعلمون» أي تُعلّمون غيركم المنهج الصادر من الله وذلك خاضع لتلقي النص، وبين ﴿مَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي تُعمِلون أفكاركم في الفهم عن النص، إنّ الفهم عن النص يحتاج إلى مدارسة، ومعنى المدارسة هو أخذ وعطاء، ويقال: «دارسه» أي أن واحد قد قام بتبادل التدريس مع آخر، ويقال: «تدارسنا» أي أنني قلت ما عندي وأنت قد قلت ما عندك حتى يمكن أن نستخلص ونستنبط الحكم الذي يوجد في النص. وقد يأتي النص محكما، وقد يأتي محتملا لأكثر من معنى"[1]، ويخلص فريد الأنصاري في مقالة له أنّ: "التدارس هو أساس التعلم"[2].

البعد البلاغي: أبدأ من حيث انتهى الأنصاري في الجملة الأخيرة، آنفاً: "أنّ التدارس هو أساس التعليم"، والتدارس لا يتم من غير قول وتكرار، وإمعانا في التفكير ليحقق معنى التعليم؛ كما أنّ الدراسة تتطلب القراءة بتمهل وتفهم، وكل هذا بدوره يتطلب (قولا) وكلاما؛ إلا أنّ لفظ (القول) في هذا السياق لا يف بالغرض المقصود، ولا يعطي المعاني المرادة من الآية الكريمة، في ميزة من يعلم الكتاب ويدرسه بفهم وتعمق وإعمال فكر، حتى يستحق أن يكون معلما، وجاء هنا لفظ (الدراسة) ليحقق المعنى المطلوب، بالإضافة إلى أنه لفظ (قول)، فإنه يشير إلى فن من الفنون الأدبية التي لها خصوصية معينة، وباب معروف به؛ وهو باب العلم والتعلم والحث على طلبه، والاستمرار في متابعته وتعلمه وتعليمه والازدياد منه ونشره بين الناس؛ لأن به يتم الفهم والإدراك والحفظ، ولا يكون هذا العمل إلا مع التكرار، والتدبر، ولا تحصل (الدراسة) أصلا إلا بالقراءة ابتداءً؛ وبالقراءة وحدها لا تحصل الدراسة؛ ذلك لأن الدراسة أخص من القراءة؛ فكل دراسة قراءة وليس كل قراءة دراسة؛ فهي تحتاج إلى تكرار وتمعن واستحضار النية للحفظ

---

1 الشعراوي، تفسير الشعراوي، الخواطر، ج3، ص 1566.

2 فريد الأنصاري، قضايا دعوية، مجلة البيان، ج174، ص 26.

والفهم. ثم إنّ القراءة التي بدأنا بها أصلا لا تتم إلا بالتلفظ و (القول) ومع ذلك لم يتم التعبير بلفظه في هذا السياق، ولا حتى بلفظ القراءة التي هي أخص من (القول)؛ ذلك لأن لا (القول) ولا القراءة تفي بالمعنى المقصود من النص، ولا تعطي المعاني والدلالات المرادة منه. ثم لو افترضنا ذلك ومررنا النص على أسماعنا لاحتجنا إلى تتمة للنص ومعرفة ما يقولون؛ بينما لفظ (تدرسون) عبر بوجوده عن (القول) أصلا متضمنا معاني أخرى؛ منها القراءة وصفة هذه القراءة؛ وهي التكرار مع التمكن.

(2)- ومنها قوله تعالى:﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ﴿سبأ:44﴾.

التفسير: جاء في معنى ﴿يَدْرُسُونَهَا﴾، أي: "ما أعطيناهم من كتب يقرءونها وفيها حجة لهم بأنّ مع الله شريكاً"[1]، و"ما أنزلنا على العرب كتباً سماويه دالة على صحة الإشراك يدرسون فيها ويقرأونها"[2]، "وأنّ الله ﷻ يذكر حمق جهالتهم، وتعجبا من حالهم فِي أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ لَمْ يُدْرِكُوا مَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْمَزِيَّةِ بِمَجِيءِ الْحَقِّ إِلَيْهِمْ إِذْ هَيَّأَهُمُ اللَّهُ بِهِ لِأَنْ يَكُونُوا فِي عِدَادِ الْأُمَمِ ذَوِي الْكِتَابِ، وَفِي بَدْءِ حَالٍ يَبْلُغُ بِهِمْ مَبْلَغَ الْعِلْمِ، إِذْ هُمْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ أَنْ أَتَاهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَوْ رَسُولٌ مِنْهُ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ: فَكَيْفَ رَفَضُوا إِتِبَاعَ الرَّسُولِ وَتَلَقِّيَ الْقُرْآنِ وَكَانَ الْأَجْدَرُ بِهِمُ الِاغْتِبَاطَ بِذَلِكَ. وَثَانِيهِمَا: أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى هُدًى وَلَا دِينٍ مَنْسُوبٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَكُونَ تَمَسُّكُهُمْ بِهِ وَخَشْيَةُ الْوُقُوعِ فِي الضَّلَالَةِ إِنْ فَرَّطُوا فِيهِ يَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّرَدُّدِ فِي الْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ وَصِدْقِ الرَّسُولِ الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ فَيَكُونُ لَهُمْ فِي الصَّدِّ عَنْهُمَا بَعْضُ الْعُذْرِ: فَيَكُونُ الْمَعْنَى: التَّعْجِيبُ مِنْ رَفْضِهِمُ الْحَقَّ حِينَ لَا مَانِعَ يَصُدُّهُمْ، لِإِفَادَةِ التَّعْجِيبِ وَالتَّحْمِيقِ. وَالدِّرَاسَةُ: الْقِرَاءَةُ بِتَمَهُّلٍ

---

1 الطبري، جامع البيان، ج20، ص 416، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 94.

2 القنوجي، أبو الطيب محمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن، ج11، ص 206.

وَتَفَهُّم، وَلَمْ يُقَيِّدْ إِيتَاءَ الْكُتُبِ بِقَيْدٍ كَمَا قَيَّدَ الْإِرْسَالَ بِقَوْلِهِ: قَبْلَكَ لِأَنَّ الْإِيتَاءَ هُوَ التَّمْكِينُ مِنَ الشَّيْءِ وَهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْقُرْآنِ بِخِلَافِ إِرْسَالِ النَّذِيرِ فَهُوَ حَاصِلٌ سَوَاءٌ تَقَبَّلُوهُ أَمْ أَعْرَضُوا عَنْهُ"[1].

البعد البلاغي: وهنا أيضا لفظ (يَدْرُسُونَهَا) لفظ يدل على فن من الفنون الأدبية التي لا تنفك عن القراءة، والتي تكاد تعتمد عليها بالكلية، وبالتأكيد فإنّ جل ما تعتمد عليه القراءة هو (القول) والكلام؛ ولكن التعبير بلفظ (القول) لا يحقق الغرض المقصود من النص، ولا يعطي الدلالات المبتغاة منه؛ فالدراسة تفيد – على الأقل- النظر في كتاب والأخذ منه، مع التفكر والتدبر، وجعله حجة مرجعا حين الحاجة لذلك، وهذا ما نفاه القرآن الكريم في الآية الكريمة، من وجود مثل هذه المراجع التي تجعلهم يدعون أن مع الله ﷻ شريكا. وهذا بالطبع ما لا يتحقق في التعبير بلفظ (قال)؛ علما أنّ لفظ (درس) ولفظ (قال) من ألفاظ القول، لكن لكل لفظ مجاله ودلالاته التي لا يحققها لفظ آخر. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ إنشائية، تفيد معنى النفي؛ أي نفى الله ﷻ عنهم أنه قد أرسل إليهم كتبا يقرؤونها ويحتجون بها، وقد ارتبط لفظ (يَدْرُسُونَهَا) ولفظ (أَرْسَلْنَا) بعلاقة بديعية هي: الجناس الناقص"[2].

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ﴿القلم :37﴾.

التفسير: أي: "ألكم كتاب من السماء تقرؤون فيه، وتدرسون لما تخيرون؟"[3]، "أم لكم – أيها القوم – بتسويتكم الطائع كالعاصي- كتاب نزل من عند الله أتاكم به رسول أن الطائع كالعاصي

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج22، ص 228.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، الجناس الناقص، ص 387.

3 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 553، السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 484، الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج10، ص 18، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج12، ص 7643، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص 236.

فيه تقرؤون؟!"[1]، وهو: "إِضْرَابُ انْتِقَالٍ مِنْ تَوْبِيخٍ إِلَى احْتِجَاجٍ عَلَى كَذِبِهِمْ. وَالِاسْتِفْهَامُ الْمُقَدَّرُ مَعَ أَمْ إِنْكَارٌ لِأَنْ يَكُونَ لَهُمْ كِتَابٌ إِنْكَارًا مَبْنِيًّا عَلَى الْفَرْضِ وَإِنْ كَانُوا لَمْ يَدَّعُوهُ"[2]، وفي الآية "إنكار لسفه عقولهم وهزءا بضلال حكمهم ألهم كتاب يدرسون فيه إن لهم ما يتخيرون من دنياهم وأخراهم؟ أم لهم أيمان وعهود موثقة على الله سبحانه، بالغة إلى يوم القيامة، إن لهم ما يحكمون؟"[3].

البعد البلاغي: إنّ القرآن الكريم يعيب على الكافرين به عنادهم، وسلوكهم المنافي للدعوة وللحق، ويستنكر عليهم ذلك بسؤال يعرف جوابه؛ ألهم كتاب موثوق المرجعية والمصدر يأخذون منه تعاليمهم وشرائعهم. وقد أُستفهم عن كتاب يدرس منه؛ ذلك لما للدراسة من أهمية ومصداقية؛ فإنه لو كان كذلك لأخذ بحجتهم، وكونه لم يحصل ذلك فحجتهم داحضة، وأقوالهم باطلة، وما تكون الدراسة -في الأعم الأغلب- إلا من كتاب وباللفظ والقول؛ لأنها تحتاج إلى نطق ومدارسة، ومع ذلك لم يأت التعبير القرآني عن هذه الدراسة بلفظ (القول) ذلك لأنه لا يف بالمعنى المطلوب، ولا يؤدي الدلالات المرادة من النص بالكامل؛ لأنه لفظ يعبر عن عموم الكلام والأقوال، لا يميز المدروس من المقروء، من المحفوظ؛ فكلها بالنسبة للفظ القول تأخذ نفس البعد، والمعنى دون تمييز معنى عن آخر، بينما التعبير بلفظ (الدراسة) أشار إلى وجود قول يعتمد على مراجع يؤخذ منها؛ ألا وهي الكتب، ومع ذلك فقد نفى القرآن الكريم وجود مثل هذه المراجع التي تنفي حججهم وأحكامهم بتسوية المؤمنين كالمجرمين، وردها جملة وتفصيلا. (وجاءت الآية بالأسلوب الاستفهامي الذي يخرج عن أصل معناه اللغوي في طلب الجواب، إلى

---

1 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج 12، ص 7642.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 93.

3 بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، ج2، ص 66- 67.

الرفض والإنكار: أن يجعل الله المسلمين كالمجرمين. وهو إنكار يحمل من التقرير لمثوبة المتقين المسلمين ومآب العصاة المجرمين، بقدر ما يحمل من الردع لذوي العقول والبصائر. والخطاب في الآيات للمشركين المجرمين من عتاة قريش، إنكاراً لسفه عقولهم وهزءا بضلال حكمهم ألهم كتاب يدرسون فيه إنّ لهم ما يتخيرون من دنياهم وأخراهم؟ أم لهم أيمان وعهود موثقة على الله سبحانه، بالغة إلى يوم القيامة، إن لهم ما يحكمون؟ أي غرور غرهم بالخالق، أن يبقى عليهم ما آتاهم من نعمة يبتليهم بها فكفروا وجحدوا؟"[1]، "ومن ناحية البلاغة المعنوية فقد جاءت الآية إنشائية، تحمل معنى الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع"[2]. وأحكامهم بتسوية المؤمنين كالمجرمين، وردها جملة وتفصيلا"[3]

*****

(2)- (شعر) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم العربية حول مادة: "(شَعَرَ) الشِّينُ وَالْعَيْنُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ مَعْرُوفَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى ثَبَاتٍ، وَالْآخَرُ عَلَى عِلْمٍ وَعَلَمٍ. وشعر فلان: قال الشعر، والشِّعْرُ: القريض المحدَّد بعِلامات لا يجاوزها، وسُمِّيَ شعرا، لأن الشاعر يفطن له بما لا يفطن له غيره من معانيه. وسمي شاعرا لفطنته. والمُتَشاعِرُ: الذي يتعاطى قولَ الشِعْرِ"[4].

---

1 بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، ج2، ص 66- 67.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، الاستفهام للأنكار والتوبيخ والتقريع، ص 44.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، الاستفهام للأنكار والتوبيخ والتقريع، ص 44.

4 ابن فارس، مقاييس اللغة، شعر، ج3، ص 193، الفراهيدي، العين، باب العين والشين، الجوهري، الصحاح، شعر، الزمخشري، أساس البلاغة، ش ع ر.

(شعر) في القرآن الكريم:

"ورد لفظ (شعر) واشتقاقاته في القرآن الكريم أربعين مرة"[1]، سبعة وعشرين مرة منها بمعنى العِلْم، ومرة بمعنى الشعر الذي يغطي الجلد المعروف، وأربع مرات بمعنى (شعائر الله؛ البقرة: 158)، ومرة (المشعر الحرام البقرة: 198) والمقصود ب: " شَعائر الله"، أي: معالم الله التي جعلها تعالى ذكره لعباده مَعلمًا ومَشعَرًا يعبدونه عندها، إما بالدعاء، وإما بالذكر، وإما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها"[2]، وهي مُشْتَقَّةٌ مِنَ الشُّعُورِ. وَشَعَائِرُ اللَّهِ: لَقَبٌ لِمَنَاسِكِ الْحَجِّ، جَمْعُ شَعِيرَةٍ بِمَعْنَى: مُشْعِرَةٍ بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ أَيْ مُعْلِمَةٍ بِمَا عَيَّنَهُ اللَّهُ وهو أعمال الحج من السعي والطَّواف والذبائح، كل ذلك شعائر الحج"[3]، والشعيرة: البَدَنَةُ التي تُهْدَى إلى بيت الله، وجُمِعَتْ على الشَّعائر"[4]، ومرة بمعنى (الشعرى، في سورة النجم 49) "وهو: كوكبٌ وراء الجوزاء"[5]، أما بالمعنى المقصود من الدراسة؛ وهو: "الشِّعْرُ: القَريض المحدَّد بعلامات لا يجاوزها، وسُمِّيَ شعراً. ويقولون: شِعْرٌ شاعرٌ أي: جيّد"[6]، أو قائله الشاعر الذي يفطن له بما لا يفطن له غيره من معانيه، ورد ست مرات؛ منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿الأنبياء: 5﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ شاعِرٌ﴾ يعني: "هُمْ مُتَحَيِّرُونَ لَا يَسْتَقِرُّونَ عَلَى شي ينقضون قولهم بعضهم ببعض، قَالُوا مَرَّةً سِحْرٌ، وَمَرَّةً أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، وَمَرَّةً افْتَرَاهُ، وَمَرَّةً

---

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص383- 384.

2 الطبري، جامع البيان، ج3، ص 226.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 17، ص 256.

4 الفراهيدي، كتاب العين، ج 1، ص 251.

5 الفراهيدي، كتاب العين، ج 1، ص 252.

6 الفراهيدي، كتاب العين، ج 1، ص 251.

شَاعِرٌ. أَيْ قَالَ فَرِيقٌ إِنَّهُ سَاحِرٌ: وَفَرِيقٌ إِنَّهُ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، وَفَرِيقٌ إِنَّهُ افْتَرَاهُ، وَفَرِيقٌ إِنَّهُ شَاعِرٌ. وَالِافْتِرَاءُ الِاخْتِلَاقُ"[1]، "وقول الحق على لسانهم: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ إضراب لهم عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام افتراه، ثم إلى أنه قول شاعر، والظاهر أن بَلْ الأولى لتمام حكاية والابتداء بأخرى أو للإضراب عن تحاورهم في شأن الرسول ﷺ وما ظهر عليه من الآيات إلى تقاولهم في أمر القرآن، وبَلْ الثَّانِيَةُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَلَامِ الْمَحْكِيِّ عَنْهُمْ وَهِيَ إِضْرَابُ انْتِقَالٍ فِيمَا يَصِفُونَ بِهِ الْقُرْآنَ. وَالْمَعْنَى: بَلِ افْتَرَاهُ وَاخْتَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَحْلَامٍ، أَيْ هُوَ كَلَامٌ مَكْذُوبٌ. بَلْ الثَّالِثَةِ إِضْرَابٌ مِنْهُمْ عَنْ كَلَامِهِمْ كونه أباطيل خيلت إليه وخلطت عليه إلى كونه مفتريات اختلقها من تلقاء نفسه وَذَلِكَ مُؤْذِنٌ بِاضْطِرَابِهِمْ وَهَذَا الِاضْطِرَابُ نَاشِئٌ عَنْ تَرَدُّدِهِمْ مِمَّا يَنْتَحِلُونَهُ مِنَ الِاعْتِلَالِ عَنِ الْقُرْآنِ. وَذَلِكَ شَأْنُ الْمُبْطِلِ الْمُبَاهِتِ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي حُجَّتِهِ كَمَا قِيلَ: الْبَاطِلُ لَجْلَجٌ، أَيْ مُلْتَبِسٌ مُتَرَدَّدٌ فِيهِ. ثم إلى أنه كلام شعري يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها ويرغبه فيها، ويجوز أن يكون الكل من الله تنزيلاً لأقوالهم في درج الفساد لأن كونه شعراً أبعد من كونه مفترى لأنه مشحون بالحقائق والحكم وليس فيه ما يناسب قول الشعراء"[2]، وبالمحصلة فقد انتهوا: و"انْتَقَلُوا فَقَالُوا هُوَ شَاعِرٌ أَيْ كَلَامُهُ شِعْرٌ، فَقَوْلُهُمْ: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ يَقْتَضِي لَا مَحَالَةَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ شِعْرٌ"[3].

البعد البلاغي: لا شك أن إطلاق اسم (شاعر) على شخص ما يشير إلى آثاره الأدبية، وبكونه يقول الشعر، وهذا ما قصده كفار مكة حينما أضربوا عن كل الاتهامات التي وجهوها للرسولﷺ وانتهوا إلى الاتهام الأخير الذي يحمل معنى الصفة والموصوف؛ أي الموصوف وهو

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 420، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص 270.

2 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 46، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص 15- 16، و ج23، ص 56.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص 15- 16، و ج23، ص 56.

القرآن الكريم بأنه شعر، وعلى صفة الرسول ﷺ بأنه شاعر، وهو من جاء بما جاء به وادعى نزوله، وهو في حكمهم أنه شعر-وحاشى للقرآن الكريم أن يكون كذلك- وبالمحصلة فإن شعر (الشاعر) لا ينفصل عن (القول) بحال من الأحوال؛ ومع ذلك لم يأت التعبير القرآني عنه بلفظ (قائل) أو أي لفظ يحمل جذوره؛ لأنه بالضرورة لا يعبر عن مقصدهم وكيدهم، ونتيجة تحاورهم؛ كما يعبر لفظ (شاعر) الذي استخدمه القرآن الكريم على لسانهم، والذي يأتي بكلام موزون، له رونق وجاذبية، وسحر يخلب الألباب، يعجز من هم في مثل عقولهم الإتيان بمثله، ومع أنهم كانوا أصحاب بلاغة وبيان إلا أنهم لم يستطيعوا تمييز القرآن من الشعر، أو أنهم أرادوا بذلك الاتهام عن قصد، وإلصاقه بشياطين الشعر الذي كانوا ينسبون إليها إلهامهم ونظمهم ونبوغهم، كما هو الحال عند كثير من شعراء الجاهلية، "وقد جاءت الآية مثالا على الإضراب، من باب المعاني"[1].

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ ﴿الطور:30﴾.

التفسير: ذكر بعض المفسرين في بيان الآية: "أن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبيﷺ فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم، وهو قول الوليد بن المغيرة، وأبي جهل، وأصحابهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾"[2]، وذلك: "لما وجدوا من بَلَاغَة القرآن وَتَنَاسُقِهِ فكان نَافِذُ الْوُصُولِ إِلَى الْقُلُوبِ حَتَّى وَصَفُوهُ بِالسِّحْرِ

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، الإضراب، ص 218.

2 الطبري، جامع البيان، ج22، ص ص 479.

وَبِالشِّعْرِ"[1]،"وهم يقصدون بالشعر الكلام العَذْب الذي يستميل النفس، ويُؤثِّر في الوجدان، ولو كان نثراً"[2].

البعد البلاغي: وفي هذه الآية أيضا شبهت قريشا الرسولﷺ بشعراء الجاهلية، وكادت له؛ ليلقى نفس مصيرهم من الموت والهلاك، وعبر القرآن على لسانهم بأنهم يقولون بأنه شاعر، وسبب هذا النعت هو ما رأوه صفة للقرآن الكريم بنظرهم بأنه شعر، لأنه ما كان شاعرا إلا لما انتشر شعره، وعلا خبره، وهذا بالتأكيد قول باطل مردود عليهم. والشعر الذي ينسبوه للرسول ﷺ هو قوله القرآن الكريم، وتلاوته، وعرضه عليهم، ولما خلبهم هذا القول وجذبهم، وحير عقولهم فقد نسبوه مرة للسحر، وأخرى للشعر؛ وفي كل الأحوال ما كانت رسالة الرسول ﷺ ودعوته ومعجزته إلا بالقول البليغ، والكلام المعجز، والبيان الذي عجزوا أن يأتوا بمثله، ومع ذلك لم يأت التعبير القرآني عن تلك الرسالة، أو مبلغها – حسب رأي قريش- بـ (القائل) و المتكلم، أو المتحدث، لأن هذه الألفاظ فضفاضة الدلالات والمعاني وتحتمل كل ما يمكن أن يقال؛ شعرا منظوما مقفى، أو نثرا حرا مسجوعا، بل جاء التعبير عنه بلفظ (شاعر) ليعبر عن تشبيههم له بالشعراء السابقين الذين جاءوا بكلام عذب استمال عقولهم، وأثر في وجدانهم، لكن مكابرتهم، وتعنتهم للآباء والأجداد جعلهم يرتدون عنه، وهم يصفوه بالشعر؛ وما ذلك يعود إلا لمبلغ علمهم، وسمعهم الذي لم يتجاوز قول الشعر وسماعه، وبالإضافة لذلك فهو أرفع مستوى علمي يصلون إليه؛ لذا شبهوا القرآن به، "وقد جاءت الآية مثالا على الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع، من باب المعاني البلاغية"[3].

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 119.

2 الشعراوي، الخواطر، ج17، ص 10712- 10713.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب المعاني، الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع، ص 43.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الحاقة:41﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ أي أنّ "القرآن ليس هو بقول شاعر؛ لأن محمداً لا يحسن قول الشعر فتقولون هو شاعر، ولِأَنَّهُ مُبَايِنٌ لِصُنُوفِ الشِّعْرِ كُلِّهَا"[1]، وبالمحصلة: "فالقرآن ليس هو بقول شاعر"[2]، "﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وجيه عند الله. وقول الرسول الكريم هو القرآن أو قراءة القرآن؛ وهو ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾"[3]، "وقوله وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ لإثبات أنه رسول، لا شاعر ولا كاهن"[4]، و "الشعر هو الكلام العَذْب الذي يستميل النفس، ويُؤثّر في الوجدان، ولو كان نثراً"[5].

البعد البلاغي: وهذا شاهد ثالث من آيات الذكر الحكيم الذي يتأكد لنا من خلاله أن الشاعر هو الذي يأتي بالشعر ويشتهر بقوله؛ وهذا ما نفاه رب العزة ﷻ عن الرسولﷺ، وعن القرآن الكريم جملة وتفصيلا، وإن كان الشعر في حقيقته لا يراوح الكلام، وإن امتاز بصفات ما تميزه عن الكلام العادي، بأنه: (الكلام العذب الموزون، الذي يستميل النفس، ويؤثر في الوجدان – بحسب رأي الشعراوي آنفا) ولكنه في الأصل وفي المحصلة يبقى (قولا) ومع ذلك لم يرد التعبير القرآني عنه باستخدام لفظ (لقول)، أو النفي بأنه ليس من قول (قائل) ذلك لو كان كذلك لانتفى (القول) كله؛ لأن القرآن في حقيقته قول الله ﷻ وكلماته، إذن فله قائل، والرسولﷺ نقله فهو (قائل) له وناقل للرسالة؛ أما النفي فهو كونه من قول (شاعر) تحديدا؛ لأن كفار مكة يقصدون ما يقصدون من تلفيق تهمة الشاعرية على رسول الله ﷺ، والشعر على القرآن الكريم،

---

1 الطبري، جامع البان، ج23، ص 592السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 492، مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج12، ص 7689، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص 275،

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 492.

3 القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 627.

4 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 606. لأحكام القرآن، ج18، ص 275.

5 الشعراوي، الخواطر، ج17، ص 10712.

علما بأن ما يأتي به الشاعر لا يخرج في أصله عن قول البشر -وإن اختلف في طريقة نظمه وبعض صفاته- إلا أنه يبقى قولا، والشاعر قائل؛ ومع ذلك فإن لفظ (شاعر) هو اللفظ الأمثل في هذا السياق. فلم يكن اختيار المولى ﷻ لألفاظ كتابه المعجز اختيارا عبثيا، فضفاض الدلالات، واسع الاحتمالات، بل اختيارا بليغا معجزا، لا يمكن فيه حلول لفظ مكان لفظ مهما بلغت درجة توافقهما في الدلالات، وهذا ما يدحض دعوى الترادف في القرآن الكريم عند المروجين لها.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى النفي، حيث تنفي عن الرسول ﷺ صفة الشاعرية، "وقد مثلت الآية مع الآية التي تليها مثالا على توافق الفواصل، من باب البلاغة البديعية"[1].

*****

(3)- (قصّ) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم اللّغة حول مادة (قصّ): "الْقَافُ وَالصَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَتَبُّعِ الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: اقْتَصَصْتُ الْأَثَرَ، إِذَا تَتَبَّعْتَهُ. وَمِنْ ذَلِكَ اشْتِقَاقُ الْقِصَاصِ فِي الْجِرَاحِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ مِثْلُ فِعْلِهِ بِالْأَوَّلِ، فَكَأَنَّهُ اقْتَصَّ أَثَرَهُ. وَمِنَ الْبَابِ الْقِصَّةُ وَالْقَصَصُ، كُلُّ ذَلِكَ يُتَتَبَّعُ فَيُذْكَرُ"[2]، "والقاصُّ يقُصُّ القِصَصَ قصّاً، والقِصَّة معروفة. ويقال: في رأسه قِصَّةٌ أي جملة من الكلام ونحوه. والقِصَّةُ: الأمرُ والحديث. واقْتَصَصْتُ الحديث: رويته على وجهه. وقد قَصَّ عليه الخبرَ قَصَصاً. واستقصّه: سأله أن يقصّه منه. وقصّ عليه الحديث والرؤيا، واقتصّه. وتقصّصت كلام فلان، وله قصّة عجيبة، وقصص حسن، وقصيصة وقصص وقصائص

---

1 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، السجع، (توافق الفواصل)، ص 509.
2 ابن فارس، مقاييس اللغة، قص.

وأقاصيص"[1]، "وَالْقِصَّةُ: الْخَبَرُ عَنْ حَادِثَةٍ غَائِبَةٍ عَنِ الْمُخْبَرِ بِهَا، فَلَيْسَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الْأَحْوَالِ الْحَاضِرَةِ فِي زَمَنِ نُزُولِهِ قَصَصًا مِثْلَ ذِكْرِ وَقَائِعِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ عَدُوِّهِمْ. وَجَمْعُ الْقِصَّةِ قِصَصٌ بِكَسْرِ الْقَافِ، وَأَمَّا الْقَصَصُ بِفَتْحِ الْقَافِ فَاسْمٌ لِلْخَبَرِ الْمَقْصُوصِ، وَهُوَ مَصْدَرٌ سُمِّيَ بِهِ الْمَفْعُولُ، يُقَالُ: قَصَّ عَلَيَّ فُلَانٌ إِذَا أَخْبَرَهُ بِخَبَرٍ"[2].

(قصّ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (قصّ) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاثين مرة)[3]، جاء في موقعين بمعنى تتبع الأثر في السير، وفي أربعة مواقع بمعنى التتبع في حد من الحدود الشرعية، و الباقي بمعنى قصّ الحديث أو (القول) جانب من مقاصد الدّراسة؛ منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿الأعراف: 176﴾.

التفسير: جاء في التفسير أن "اسْرُدْ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ كَخَبَرِ بِلْعَامٍ أَوْ مَنْ هو مثله من الأمم الماضية؛ إِذْ هُوَ مِنَ الْقَصَصِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مَنْ دَرَسَ الْكُتُبَ؛ إذ هُوَ من خَفِيِّ أَخْبَارِهِمْ؛ فَفِي إِخْبَارِكَ بِذَلِكَ أَعْظَمُ مُعْجِزٍ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا جَرَى عَلَى الْمُكَذِّبِينَ فَيَكُونَ ذَلِكَ عِبْرَةً لَهُمْ وَرَادِعًا عَنِ التَّكْذِيبِ وَأَنْ يَكُونُوا أَخْبَارًا شَنِيعَةً تُقَصُّ كَمَا قُصَّ خَبَرُ تلك الأمم"[4]، وجاء: "أَنَّ فِي حِكَايَةِ الْقِصَصِ سُلُوكَ أُسْلُوبِ التَّوْصِيفِ وَالْمُحَاوَرَةِ وَذَلِكَ أُسْلُوبٌ لَمْ يَكُنْ مَعْهُودًا لِلْعَرَبِ، فَكَانَ

---

1 الفراهيدي، العين، باب القاف مع الصاد، الجوهري، الصحاح، ج3،ص 1051، الزمخشري، أساس البلاغة، ق ص ص.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 64، المقدمات.

3عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص546.

4 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص 226.

مجيئه فِي الْقُرْآنِ ابْتِكَارَ أُسْلُوبٍ جَدِيدٍ فِي الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ شَدِيدِ التَّأْثِيرِ فِي نُفُوسِ أَهْلِ اللِّسَانِ، وَهُوَ مِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ إِذْ لَا يُنْكِرُونَ أَنَّهُ أُسْلُوبٌ بَدِيعٌ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ إِذْ لَمْ يَعْتَادُوهُ"[1]، "فعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان، وأنت لن تحكي الأمر التافه، بل ستحكي ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة؛ تنتفع بها حركة المجتمع"[2].

البعد البلاغي: (القصّ) فن أدبي جميل، يحمل الفائدة والمتعة والتسلية بأخبار أقوام وحضارات لم نعيشها، أو على الأقل خفيت علينا فلم نعاينها. ولكن نتتبع أخبارها؛ إما لفائدة، أو لعبرة، أو لموعظة، أو للتسلية، وتعتمد القصّة على أسلوب السّرد والتّوصيف والحوار فيما بين شخصياتها، يخبر عنهم القاصّ بأسلوبه وطريقته، وكلما كان بارعا في ذلك جذب إليه أكبر عدد من المستمعين، وكل ذلك في القصّة وأكثر يعتمد على (القول) ففيه يتصرف القاص كيفما شاء؛ بما يناسب مجريات قصته، وأما في: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: "الأمر بقص القصص"[3]، "أي اقصص هذه القصّة وغيرها"[4]، وهذا هو الأسلوب البلاغي الذي جاءت به الآية؛ (أي أسلوب الأمر)، "وَفِي الْقَصَصِ تَفَكُّرًا وَمَوْعِظَةً، فَيُرْجَى مِنْهُ تحقيق ذلك، لِأَنَّ لِلْأَمْثَالِ وَاسْتِحْضَارِ النَّظَائِرِ شَأْنًا عَظِيمًا فِي اهْتِدَاءِ النُّفُوسِ بِهَا وَتَقْرِيبِ الْأَحْوَالِ الْخَفِيَّةِ إِلَى النُّفُوسِ الذَّاهِلَةِ أَوِ الْمُتَغَافِلَةِ، لِمَا فِي التَّنْظِيرِ بِالْقِصَّةِ الْمَخْصُوصَةِ مِنْ تَذَكُّرِ مُشَاهَدَةِ الْحَالَةِ بِالْحَوَاسِّ، بِخِلَافِ التَّذْكِيرِ الْمُجَرَّدِ عَنِ التَّنْظِيرِ بالشَّيْء المحسوس"[5]، وهي في القرآن أسلوب جديد بهر

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 66، و ج9، ص 179.

2 الشعراوي، الخواطر، ج7، ص 4477.

3 المنتدى الإسلامي، مجلة البيان، عبد الله المسلم القصة وسيلة دعوية، ج136، 40.

4 الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المجلة البحوث الإسلامية – مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، التفكر في مصارع الغابرين، ج66، ص 162.

5 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص 179.

عقول قريش وقلوبهم، حيث لم يعتادوه؛ لأن جل اهتمامهم، ومبلغ علمهم، وأعلى مراتبهم العلمية كانت منصبة على الشعر- وهذا ما جعلهم يصفون القرآن الكريم بالشعر، والرسول ﷺ بالشاعر؛ كما مر معنا في لفظ (الشعر)- ومع ذلك لم يأت التعبير القرآني عنها في هذا النص بلفظ (القول)! ذلك لأن السياق يحتاج إلى لفظ جديد يحمل معنى القول بالضرورة، مضافا إليه لفت النظر إلى أخذ العبرة والموعظة ممن كان على الشاكلة نفسها من السابقين، "وَشَأْنُ الْقَصَصِ الْمُفْتَتَحَةِ بِقَوْلِهِ: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُقْصَدَ مِنْهَا وَعْظُ الْمُشْرِكِينَ بِصَاحِبِ الْقِصَّةِ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ"[1]؛ وهذا ما تحقق في هذه الآية، وبالطبع فإن هذا لا يتأتى بلفظ (قال) ولا يحقق الوعظ ولا يتناسب مع هذا السياق؛ علما بأن اللفظين: (قصّ) و (قال) من ألفاظ القول، لكن لكل منهما مقامه.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى الأمر في معناه الحقيقي بصدوره من الأعلى إلى الأدنى، وذلك أنّ الله ﷻ يأمر سيدنا محمدا ﷺ بسرد القصص على قومه؛ وذلك لما فيها من العبرة والفائدة، وقد مثلت الآية أنموذجا من نماذج "جناس الاشتقاق بين اللفظين (فَاقْصُصِ) و (الْقَصَصَ)"[2]. والفائدة من هذا الجناس أن احكي لهم يا محمد ما كان من الأمم السابقة, وتتبع أثرها بالقص.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿يوسف: 5﴾.

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص 173.

2 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 399.

التفسير: جاء في تفسير الآية: "أنه لما قصّ يوسفعليه السلام الرؤيا على أبيه انتهره وزجره، وقال له في السر: إذا رأيت رؤيا بعد هذا، فلا تقصها على إخوتك"[1]، "وَالْقَصُّ: حِكَايَةُ الرُّؤْيَا. ويُقَالُ: قَصَّ الرُّؤْيَا إِذَا حَكَاهَا وَأَخْبَرَ بِهَا.وَجَاءَ هذا مِنَ الْقَصَصِ، وَالرُّؤْيَا هِيَ: رُؤْيَةُ الصُّوَرِ فِي النَّوْمِ"[2]، و "وَأَصْلُ الْقَصَصِ تَتَبُّعُ الشَّيْءِ، ومنه قوله تعالى:﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أيْ تَتَبَّعِي أَثَرَهُ، فَالْقَاصُّ يَتَبَّعُ الْآثَارَ فَيُخْبِرُ بِهَا"[3]. "(الْقَصَصِ) : على وجهين: أحدهما يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص تقول قصّ الحديث يقصّه قصصا وثانيهما يكون فعلا بمعنى مفعول كالنفض بمعنى المنفوض، واشتقاقه من قصّ أثره إذا تبعه لأن الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئا فشيئا"[4].

البعد البلاغي: "نظراً لما للقصة من تأثير، وما تحدثه من نتائج وأهداف تنعكس على سلوك الناس عامة، وسلوك الطفل وتصرفاته خاصة، ونظراً لأهميتها ، وتأثيرها الفعّال في النفس البشرية"[5]؛ فقد نهى سيدنا يعقوب عليه السلام ابنه الطفل يوسف عليه السلام من أن يقص رؤياه على إخوته، لمعرفته ما سيلاقي جراء هذا القص؛ لأنه استشرف من الرؤيا المبشرات، ولمس من الأخوة الغيرة والحسد ليوسف، ومعرفته عليه السلام بأن رؤيا الأنبياء حق جعلته يخشى على ولده نتائج هذه الرؤيا؛ لأنها تستدعي المكيدة؛ لما يلوح منها لمستقبل مشرق، استشفها يعقوب بقدرته على تأويل الرؤيا، وما ستؤول إليه. وهذا ما ذكره الشعراوي في خواطره قائلا: "لا بُدَّ أن يعقوب

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 179.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 213.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص 119.

4 درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى (المتوفى : 1403هـ)، إعراب القرآن وبيانه، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية ، (دار اليمامة - دمشق - بيروت) ، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة : الرابعة ، 1415 هـ، ج4، ص 449.

5 المنتدى الإسلامي، مجلة البيان، علي لطفي عبد الحكيم حسين، القصة فن تربية النشء ج214، ص 9.

ﷺ قد علِم تأويل الرُّؤيا: وأنها نبوءة لأحداث سوف تقع؛ ولا بُدَّ أن يعقوب ﷺ قد علم أيضاً قدرة أولاده على تأويل تلك الرؤيا، ولو قالها يوسف لهم لَفهِموا المقصود منها، ولا بُدَّ حينئذ أن يكيدوا له كيداً يُصيبه بمكروه. فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً، فما بالـه بضيقهم إنْ عَلِموا مثل هذه الرؤيا التي سيسجد له فيها الأب والأم مع الإخوة"[1]. كل ما سبق بيانه بخصوص الرؤيا، وقصها وتأويلها -مع الاحتفاظ بما يحيط بها من ميزات وخصوصية، وظروف خاصة بها- فهي قول وحديث، فالدلائل تشير إلى أنّ يوسف ﷺ حينما قصها على أبيه ﷺ كلمه إياها كلاما، وأخبره بها (قولا)، وهذا ما كان سينتهجه مع إخوته لو لم يقل لـه والده: ﴿يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ﴾، لأنه الطريق المتاح للتعبير عن الرؤيا، والأسلوب المعروف للحوار والتعبير عن الذات وأسرارها، وقد جاء التعبير القرآني عن هذا الأسلوب بـ (القص)؛ لما فيه من عناصر أدبية، وشخوص، وأحداث متسلسلة، وحبكة تكاد لا تحل -في التأويل- إلا باستنفاد مقومات التشوق، والتلهف والصبر...، وانتظار ما سيكشف عنه المستقبل أحيانا، كما أن في القص التتبع لمجريات الأحداث وإعادة سردها كما حصلت، وهذا ما جعل لها الميزة في اللفظ لما تمتاز به من معنى لا يمكن أن يتساوى مع لفظ (قال) تحديدا في هذا السياق.

وجاءت جملة: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ جملة نداء إنشائية، مَعَ حُضُورِ الْمُخَاطَبِ، وهو مُسْتَعْمَلٌ فِي طَلَبِ إِحْضَارِ الذِّهْنِ اهْتِمَامًا بِالْغَرَضِ الْمُخَاطَبِ فِيهِ."[2]. وهو هنا للنهي، والتحذير بأسلوب النداء المصحوب بالنهي.

---

1 الشعراوي، تفسير الشعراوي (الخواطر)، ج11، ص 6850.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 212.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿القصص: 25﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: "فلما دخل موسى على شعيب - عليهما السلام- إذا هو بالعشاء مهيأ، فقال له شعيب: اجلس يا شاب، فتعش، فجلس موسى فأكل، وأخبره بقصة القتل والهرب"[1]، بمعنى أخبره: "بما جرى عليه من الخبر المقصوص، والْقَصَصَ: الْخَبَرُ. وقَصَّ عَلَيْهِ أَخْبَرَهُ"[2]، "وذُكر أنّها لهذا السبب: "سُمِّيَتْ سُورَةَ الْقَصَصِ ولَا يُعْرَفُ لَهَا اسْمٌ آخَرُ. وَوَجْهُ التَّسْمِيَةِ بِذَلِكَ وُقُوعُ لَفْظِ الْقَصَصِ فِيهَا. فَالْقَصَصُ الَّذِي أُضِيفَتْ إِلَيْهِ السُّورَةُ هُوَ قَصَصُ مُوسَى الَّذِي قَصَّهُ عَلَى شُعَيْبٍ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- فِيمَا لَقِيَهُ فِي مِصْرَ قَبْلَ خُرُوجِهِ مِنْهَا. فَلَمَّا حُكِيَ فِي السُّورَةِ مَا قَصَّهُ مُوسَى كَانَتْ هَاتِهِ السُّورَةُ ذَاتَ قَصَصٍ لِحِكَايَةِ قَصَصٍ، فَكَانَ الْقَصَصُ مُتَوَغِّلًا فِيهَا"[3].

البعد البلاغي: القصّ مرة أخرى...؛ والحكاية عما جرى وتتبع الأحداث، وسرد التفاصيل، بأسلوب العودة للخلف، وذكر الحوار بين الشخوص، كشفت عنه الآية السابقة من خلال التعبير بلفظ (قَصَّ) الذي عبر عما قَصَّهُ سيدنا موسى على سيدنا شعيب-عليهما السلام-، لم يكن يجدي معه التعبير بلفظ: (قال)؟ ذلك أنّ القصّ يعيد الحديث عما جرى، وتتبع مجرياته، ولا يختلق الأحداث من نفسه، كما أنّ القاصّ لا يعبر في القصّة عن رأيه الشخصي أثناء السرد، أو عن حُكمه؛ لأنه يعيد ما كان قد حصل-إلا إذا كان هو أحد شخصيات القصة- ولفظ (قَصَّ)

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 604.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص 104.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص 61.

قد اختزل الحكاية بالكامل، وأفهم المتلقي أيا كان بأن سيدنا موسى قد أخبر نبـي الله شـعيب – عليهما السلام– بما قد تم وجرى، "لأنها تشير إلى التتبع، وإلى رواية الحديث على وجهه، وفيها أمرٌ وحديث. "وَالْقِصَّةُ: الْخَبَرُ عَنْ حَادِثَةٍ غَائِبَةٍ عَنِ الْمُخْبَرِ بِهَا"[1]، "ومع ذلك فقد فهمها سـيدنا شعيب، وفهم مراميها، وأبعادها رغم عدم مشاهدته لمجريات أحداثها، "والتعبير بلفظ الْقَـصَصُ بِفَتْحِ الْقَافِ اسْمٌ لِلْخَبَرِ الْمَقْصُوصِ"[2]، وهذا ما توافق واقعا وتعبيرا عما قصه سيدنا موسى مـن الخبر على سيدنا شعيب –عليهما السلام–. ومعروف أنّ وسيلة القصّ الوحيـدة المتبعـة هـي (القول) والكلام للحديث عمّا جرى؛ إلا أنه لم يكن التعبير في السياق القرآني بلفظ (قال) لأنها لا تعبر عن كل ما جرى، ولا عن حيثياته، فجاء التعبير الأمثل بلفظ (قَصَّ)؛ علما أن كلا اللفظين من ألفاظ (القول).

وجاءت جملة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ جملة خبرية، شرطية، من أداة الـشرط (لمّا)، واسمها جملة (جَاءَهُ وَقَصَّ) المعطوفة عليها، وجوابها قوله: (قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ...) ومن حيث البديع؛ "فقد شكل لفظ (قَصَّ) ولفظ (الْقَصَصَ) مثالا على جناس الاشتقاق"[3].

*****

(4)– (كتب) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم اللّغة حول مادة (كتب) ما يلي: "الكتاب والكتابة: مصدر كتبت. والمُكْتِبُ: المعلم. والكتاب معروف، والجمع كُتُبٌ وكُتْبٌ. وقد كتبْتُ كَتْباً وكِتاباً وكِتابَةً. والكتاب: الفَرْضُ والحُكْمُ والقَدَر. ويقال: كتّبت الغلام واكتبته، وأكتبني أملى عليّ"[1]

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، قص.

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 64، المقدمات.

3 صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، باب البديع، جناس الاشتقاق، ص 415.

(كتب) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (كتب) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاثمائة وتسع عشرة مرة)[2]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ ﴿التحريم: 12﴾.

التفسير: جاء في تفسير: "﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ يعني أنّ مريم عليها السلام آمنت بعيسى عليه السلام، وهو كلمة الله وصدقت بالتوراة والإنجيل التي هي كتب الله ﷻ"[3]، "وقرأ بعض القراء: "وكُتُبِهِ" يعني: الكتب التي أنزلت على الأنبياء، وقرأ الباقون "بكتابه" يعني: الإنجيل"[4]، "وجاء أنّ الكتب هي: الكتب الأربعة، وأن يراد جميع ما كلم الله به ملائكته وغيرهم، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره. وقرئ: بكلمة الله وكتابه. أي: بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل"[5]، "ويقال أنّ الْمُرَادُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الصُّحُفُ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى إِدْرِيسَ وَغَيْرِهِ، وَبِكُتُبِهِ الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةُ، وَأَنْ يُرَادَ جَمِيعُ مَا كَلَّمَ الله تعالى (به) مَلَائِكَتَهُ وَمَا كَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَغَيْرِهِ"[6]، "وَتَصْدِيقُهَا: يَقِينُهَا بِأَنَّ مَا أَبْلَغَ إِلَيْهَا الْمَلَكُ مِنْ إِرَادَةِ الله حملها. وبِكَلِماتِ رَبِّها: هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَيْهَا بِطَرِيقِ الْوَحْيِ"[7].

البعد البلاغي: لمّا يكون التعبير عن السيدة العذراء بأنها: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ فهذا يعني أنّ هناك كلاما ما محكيا، سمعته مريم، أو علمت به فصدقته، وقد أشارت التفاسير إلى

---

1 الفراهيدي، العين، باب الكاف والتاء والباء، الجوهري، الصحاح، كتب، ابن فارس، مجمل اللغة، ج1، ص 778، ابن فارس، مقاييس اللغة، كتب، الزمخشري، أساس البلاغة، ك ت ب.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص591- 595.

3 الطبري، جامع البيان، ج23، ص 500، السمرقندي، بحر العلوم، ج 3، ص 472.

4 السمرقندي، بحر العلوم، ج 3، ص 472.

5 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 573.

6 الرازي، مفاتيح الغيب، ج 30، ص 575.

7 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص 378.

بعض ما يمكن أن يكون من كلمات الله، وكلام الله ﷻ هو رديف (قوله)، ولكن جاء التعبير القرآني بلفظ (كلمات) لتشعر القارئ باختصاص هذا القول، وحمله لدلالات لم يكن لفظ (قوله) يشير إليها بدقة. وجاءت الجملة ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ جملة خبرية فعلية، تقريرية.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿النساء: 77﴾.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ "أي: فرض عليهم القتال"[1]، وقال الزمخشري: "لا تحتمل وجها إلا وجوب القتال"[2]، وأكد عدد من المفسرين بأنها تعني الأمر، "وذلك لمّا حول اللَّهُ تَعَالَى الهجرة إِلَى الْمَدِينَةِ، والدعوة فيها أَمَرَ الرسول ﷺ بِالْقِتَالِ"[3].

البعد البلاغي: لما كُلف ﷺ بالقتال كان ذلك التكليف قولا من الله ﷻ، وأمرا مكتوبا في كتاب، ولبيان درجة وجوبيته، وتمييزه عن أي قول منطوق جاء التعبير عنه بلفظ (كتب) ليتحقق فيه معنى القول مضافا إليه درجة التكليف. وجاءت جملة: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ جملة خبرية، شرطية من حرف الشرط (لَمَّا) الذي يَدُلُّ عَلَى اقْتِرَانِ وُجُودِ جَوَابِهِ بِوُجُودِ شَرْطِهِ، وَلَيْسَ فِيهِ مَعْنَى السَّبَبِيَّةِ مِثْلَ بَقِيَّةِ أَدَوَاتِ الشَّرْطِ"[4]، وهي جملة جواب أداة الشرط (لَمّا)، وهي

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 162، الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج3، ص 1327، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 487.

2 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 324.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص 281، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج3، ص 712.

4 ابن عاشور، الترير والتنوير، ج7، ص 229.

جملة إنشائية، استفهامية من أداة الاستفهام (لِمَ)؛ أنشئت ردا على أمر التكليف بالقتال. وقد جمع بين كلمتي: (كُتِبَ) و (كَتَبْتَ) بديعية جناس الاشتقاق؛ فأفاد أنّ جواب الشرط من جنس فعل الشرط.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿المائدة:45﴾.

التفسير: جاء أن: "فرضنا على بني إسرائيل، في التوراة أنّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ إذا كان القتل عمداً"[1]؛ "وهذا الحكم في مثل وقوع هذه الجرائم، أو الحدود، أما ما يعني التعبير بكتبنا فإنه يصح كتبنا مجرى قلنا، وقد يكون معنى الجملة التي هي قول النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما تقع عليه القراءة. تقول: كتبت الحمد لله، وقرأت سورة أنزلناها"[2]، "وكَتَبْنا بِمَعْنَى فَرَضْنَا"[3].

البعد البلاغي: لو تأملنا تفسيرات العلماء السابقة لمفهوم (كتبنا) لوجدنا أنها تشير إلى معنى (القول)، أو القراءة، مضافا إليه معنى الأمر والوجوب، ولكن التعبير بأي منهما لا يعطي المعاني المفهومة من لفظ (كتبنا) ولا يحمل مدى ضرورة تطبيق هذا الحد الشرعي، ووجوبية الالتزام به، مثل ما يشير إليه لفظ (كتبنا)، اللفظ الذي لا يستقيم غيره من الألفاظ في هذا السياق، وجاءت جملة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ خبرية فعلية تقريرية، مؤكدة بـ(أنّ) المشددة.

*****

1 السمرقندي، البحر المحيط، ج1، ص 394.

2 الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 638.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص 191، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص 128.

(5)- (ملّ) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة (أملى): "(مَلَوَ) الْمِيمُ وَاللَّامُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَـلُ أَصْـلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى امْتِدَادٍ فِي شَيْءٍ زَمَانٍ أَوْ غَيْرِهِ. وَأَمْلَيْتُ الْقَيْدَ لِلْبَعِيرِ إِمْلَاءً، إِذَا وَسَّعْتَهُ. وَتَمَلَّيْتُ عُمْرِي، إِذَا اسْتَمْتَعْتَ بِهِ. وَالْمِلَاوَةُ: مِلَاوَةُ الْعَيْشِ، أَيْ قَدْ أُمْلِيَ لَهُ. وَمِنَ الْبَابِ إِمْلَاءُ الْكِتَـابِ"[1]، وجاء في بعض كتب التفسير: "وأُمْلِي: مُضَارِعُ أَمْلَى، مَقْصُورًا بِمَعْنَى أَمْهَلَ وَأَخَّرَ وَهُوَ مُـشْتَقٌّ مِنَ الْمَلَا مَقْصُورًا، وَهُوَ الْحِينُ وَالزَّمَنُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ: الْمَلَوَانِ، فَيَكُونُ أَمْلَـى بِمَعْنَـى طَوَّلَ فِي الزَّمَانِ، وَمَصْدَرُهُ إِمْلَاءٌ"[2]. وَيُطْلَقُ عَلَى الْإِبْقَاءِ عَلَى الشَّيْءِ كَثِيرًا"[3].

(ملّ) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (ملّ) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة)[4]، في تسعة مواقع بمعنى امتداد في شيء زمان أو غيره، وفي أربعة مواقع بمعنى إملاء الكتاب؛ جانب من مقاصد، ثلاثة منها في الآية(282) من سورة البقرة؛ وهي:

(1)- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّـهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِـلَّ هُـوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَـانِ مِمَّـنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَـا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص 352،

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص 101.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص 116.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 676.

إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿البقرة: 282﴾.

التفسير: جاء في بيان: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ "أي: ليقر"[1]، "﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وَهُوَ الْمَدْيُونُ الْمَطْلُوبُ يُقِرُّ عَلَى نَفْسِهِ بِلِسَانِهِ لِيُعْلَمَ مَا عَلَيْهِ. وَالْإِمْلَاءُ وَالْإِمْلَالُ لُغَتَانِ، أَمَلَّ وَأَمْلَى، فَأَمَلَّ لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَبَنِي أَسَدٍ، وَتَمِيمٍ تَقُولُ: أَمْلَيْتُ. وَجَاءَ الْقُرْآنُ بِاللُّغَتَيْنِ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:" فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَالْأَصْلُ أَمْلَلْتُ، أُبْدِلَ مِنَ اللَّامِ يَاءٌ لِأَنَّهُ أَخَفُّ. فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْإِمْلَاءِ، لِأَنَّ الشَّهَادَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِسَبَبِ إِقْرَارِهِ. وَأَمَرَهُ تَعَالَى بِالتَّقْوَى فِيمَا يُمِلُّ، وَنَهَى عَنْ أَنْ يَبْخَسَ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ. وَالْبَخْسُ النَّقْصُ"[2]، كما جاء أيضا أن: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ بمعنى: "وليكن المملي مَن عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه، والإملال والإملاء واحد. وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ أي المملي. أو الكاتب. وَلا يَبْخَسْ ولا ينقص. مِنْهُ شَيْئاً أي من الحق، أو مما أملى عليه. فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً ناقص العقل مبذراً. أَوْ ضَعِيفاً صبياً أو شيخاً مختلاً. أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ بنفسه لخرس أو جهل باللغة. فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ أي الذي يلي أمره ويقوم مقامه من قيم، أو وكيل أو مترجم إن كان غير مستطيع"[3].

البعد البلاغي: الإملاء أو الإملال فن أدبي؛ يعتمد على ركيزتين؛ الأولى: تلاوة المادة المراد إملاؤها، بالقول المنطوق، والصوت المسموع، والإقرار من الذي عليه الحق عَلَى نَفْسِهِ بِلِسَانِهِ ما عليه من الحقوق، معترفا بها، والركيزة الثانية: كتابة المادة، وتحريرها خطيا؛ لتثبتها

---

1 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج1، ص 589.
2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص 385.
3 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص 164.

وتوثيقها، حفظا لحق الدائن، وهذا ما أشارت إليه الآية؛ متضمنة الكتابة الالتزام بشروط التقوى، وعدم البخس، وتشير إلى وجود نص محدد متفق على إملائه؛ ليكون مطابقا لما يملى إذا أريد مطابقة النصوص أو مقارنتها، أو قضية حقوقية ليس عليها خلاف بوجود شاهدين، وبالمقابل: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ وبالطبع فإنه ليس لولي العدل أن يملل من هوى نفسه، إن لم يُملى عليه ما يملل! والأصل أن يكون الإملال من الذي عليه الحقّ، وكيف يكتب الكاتب الحقوق إن لم يسمعها؟ وهل يكون السماع من دون (قول) أو كلام؟ كل ذلك جاء ليبين أن التعبير بلفظ (مل) هو التعبير السليم الذي يشير إلى ما سبق من معاني، لا يمكن أن يعبر عنها لفظ آخر من ألفاظ (القول). فهو يشير إلى وجود مال ومملل، ويشير إلى قضية تدعو للتثبيت والكتابة، ويقتضي هذا اللفظ التثبيت مع وجود شاهدين عليه، كما يقتضي ضرورة الكتابة خوفا من الضياع أو النسيان، ولحفظ الحقوق، وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ جملة إنشائية، تفيد معنى الأمر في معناه الحقيقي بصدوره من الأعلى إلى الأدنى، وجاء بين الألفاظ: (وَلْيُمْلِلِ) (يُمِلَّ) و(فَلْيُمْلِلْ) جناس اشتقاق.

(2) – وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿الفرقان: 5﴾.

التفسير: ذكر بعض المفسرين في بيان قوله: ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ يعني: "تقرأ وتملى عليه من كتابة يتحفظها"[1]، "والملة: القود إلى الحق من أمللت عليه الكتاب"[2]، وجاء أيضا: "أمليت عليه فهو يكتتبها؟ فيها وجهان؛ أحدهما: أراد اكتتابها أو طلبه ﴿فهي تملى عليه﴾. أو كتبت له وهو

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 529.

2 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج4، ص 172.

أمّي ﴿فهي تملى عليه﴾: أي تلقى عليه من كتابة يتحفظها: لأن صورة الإلقـاء علـى الحـافظ كصورة الإلقاء على الكاتب"[1]، "﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ أي تلقى عليه وتقرأ. و" تُملى" أصلُهُ تُمْلَلُ، فَأُبْدِلَتِ اللَّامُ الْأَخِيرَةُ يَاءً مِنَ التَّضْعِيفِ"[2]، "وتُلقي عليه تلك الأساطيرُ بعد اكتتابِها ليحفظَها مـن أفواهِ مَن يُمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أمياً لا يقدرُ على أنْ يتلقّاها منه بالقراءةِ أو تملـي على الكاتب على أنَّ معنى اكتتبها أرادَ اكتتابَها أو استكتابَها"[3]، إذن فإن: ﴿تملَى عَلَيْـهِ بُكْـرَةً وَأَصِيلًا﴾ تَشْهَدُ بِأَنَّ الْإِمْلَاءَ وَالْإِمْلَالَ يَكُونَانِ لِغَرَضِ الْكِتَابَةِ ولِغَرَضِ الرِّوَايَةِ وَالنَّقْلِ كَمَا فِي هـذه الآيَةِ ، ولِغَرَضِ الحفظ كَمَا يُقَالُ مَلَّ الْمُؤَدِّبُ عَلَى الصَّبِيِّ لِلْحِفْظِ، وَهِيَ طَرِيقَةُ تَحْفِيظِ الْعُمْيَـانِ. فَتَحْرِيرُ الْعِبَارَةِ أَنْ يُفَسَّرَ هَذَانِ اللَّفْظَانِ بِإِلْقَاءِ كَلَامٍ لِيُكْتَبَ عَنْهُ أَوْ لِيُرْوَى أَوْ لِيُحْفَظَ"[4].

البعد البلاغي: أبدأ من حيث انتهى النص التفسيري السابق بقول ابن عاشور: "بأنّ تملـى عليه تعني: إِلْقَاءِ كَلَامٍ لِيُكْتَبَ عَنْهُ أَوْ لِيُرْوَى أَوْ لِيُحْفَظَ"[5]؛ لألتقط منه لفظ (الإلقاء) لأنه معروف بأنه لا يراوح (القول) والكلام، ولكن لا يغني استخدامه في هذا السياق القرآني؛ لأنه لفظ عام لا يرجح معنى أكثر من غيره من المعاني والدلالات، وعلينا أن نفترض وجوده في النص بدلا من لفظ (ملّ) ونقارن المعاني المتواردة على الذهن؛ هل تفيد معنى خاصا؟، أو هل يمتـاز بمعنـى جديدا متزامنا مع القول؟، أو هل يفيد معنى مزدوجا يفيد الإلقاء والكـلام مـصاحبا لـضرورة التوثيق والكتابة كما يفيد معنى لفظ (ملّ) الذي أثرى النص القرآني بهذه المعاني والدلالات التي لم يحملها اللفظ الأم (قال)، وبما أنه أفاد الكتابة فهو ينتمي للفن الأدبي التحريري الكتابي، وهذا

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 264. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج8، ص 82.
2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص 4.
3 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج6، ص 203.
4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 103.
5 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 103.

ما أعطاه امتيازا عن مجرد (القول)، مع أنّ اللفظين من ألفاظ (القول) لكن لكل منهما دلالاته واستخداماته، ومعانيه التي يفيدها بحسب السياق الذي يرد فيه، وما هذا إلا جزء من بلاغة التعبير القرآني، الذي يتخير الألفاظ المناسبة بحسب النص المناسب.

وجاء لفظ (تُملَى) في الجملة القرآنية: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ضمن جملة مقول قول الكافرين الخبرية.

*****

(6)- (وصّى) في معاجم اللّغة:

جاء في عدد من معاجم اللّغة حول مادة: "(وَصَى): الْوَاوُ وَالصَّادُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى وَصْلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ. وَوَصَيْتُ اللَّيْلَةَ بِالْيَوْمِ: وَصَلْتُهَا، وَذَلِكَ فِي عَمَلٍ تَعْمَلُهُ. وَالْوَصِيَّةُ مِنْ هَذَا الْقِيَاسِ، كَأَنَّهُ كَلَامٌ يُوصَى أَيْ يُوصَلُ. يُقَالُ: وَصَّيْتُهُ تَوْصِيَةً، وَأَوْصَيْتُهُ إِيصَاءً"[1]، و "وصي: والوَصاة كالوَصيّة. والوِصايةُ مصدر الوَصيِّ، والفعل: أوصَيْتُ. ووَصَّيْتُه تَوصِيةً في المبالغة والكَثْرة. وصّى أوصيت له بشيء، وأوصيت إليه، إذا جعلته وَصِيَّكَ. والاسم الوِصاية والوَصاية، بالكسر والفتح. وأوصيته ووصيته أيضا تَوْصِيَةً بمعنًى. والاسمُ الوَصاةُ. وتَواصى القوم، أي أوْصى بعضُهم بعضاً"[2]، و"الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ واشتقاقه من وصاه أي وصله، ومضاده قصاه أي فصله"[3].

(وصّى) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (وصّى) واشتقاقاته في القرآن الكريم اثنتين وثلاثين مرة"[4]، منها:

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، وصى.

2 الفراهيدي، العين، باب اللفيف من حرف الصاد، الجوهري، الصحاح، وصى.

3 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج1، ص 319.

4 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 752.

(1)- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿البقرة:132﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي: إذا كانت: "الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به بفعل فيه صلاح وقربة، مقترناً بوعظ، واشتقاقه من وصاه أي وصله"[1]، فهذا ما ترجمه كل من سيدنا إبراهيم وسيدنا يعقوب -عليهما السلام- حينما جمع كل منهم بنيه ووصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها، وتعاهدهم لدين الإسلام، وإيلاؤه الأهمية التي يستحقها، ومراعاته والثبات عليه، تمثلا لـ "الوصية، كأن الموصي يصل فعله بفعل الموصَى"[2]، وكذلك "لِمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْحِكْمَةِ أَنْ يَكُونُوا حَرِيصِينَ عَلَى صَلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَاحِ أُمَّتِهِمْ كَانَ مِنْ مُكَمِّلَاتِ ذَلِكَ أَنْ يَحْرِصُوا عَلَى دَوَامِ الْحَقِّ فِي النَّاسِ مُتَّبَعًا مَشْهُورًا فَكَانَ مِنْ سُنَنِهِمُ التَّوْصِيَةُ لِمَنْ يظنونهم خَلَفًا عَنْهُمْ فِي النَّاسِ بِأَنْ لَا يَحِيدُوا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَلَا يُفَرِّطُوا فِيمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْهُ، فَإِنَّ حُصُولَهُ بِمُجَاهَدَةِ نُفُوسٍ وَمُرُورِ أَزْمَانٍ فَكَانَ لِذَلِكَ أَمْرًا نَفِيسًا يَجْدُرُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِ. وَالْإِيصَاءُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ يَتَعَلَّقُ بِصَلَاحِ الْمُخَاطَبِ خُصُوصًا أَوْ عُمُومًا، وَفِي فَوْتِهِ ضُرٌّ، فَالْوَصِيَّةُ أَبْلَغُ مِنْ مُطْلَقِ أَمْرٍ وَنَهْيٍ فَلَا تُطْلَقُ إِلَّا فِي حَيْثُ يُخَافُ الْفَوَاتُ؛ وَلِذَلِكَ كَثُرَ الْإِيصَاءُ عِنْدَ تَوَقُّعِ الْمَوْتِ"[3]، وهذا ما كان من الأنبياء عليهم السلام، وعند غيرهم من السلف الصالح.

البعد البلاغي: توافق عدد من المعاجم اللغوية مع عدد من التفاسير بأن لفظ (وصّى) فن من الفنون الأدبية التي تعتمد على الكلام؛ الدال على النصح وتقديم الموعظة من جيل إلى جيل؛

1 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج1، ص 319.
2 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج1، ص 107.
3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 727.

ذلك لضمان استمرار الخير وتواصله من السلف إلى الخلف، والعهد إلى من سيخلفهم بتوارث الخير وبقاءه في الناس، بأسلوب (القول) الذي يحمل معنى التجارب وخبرة الأيام، يقدمها الناصح لمن تربطه بهم علاقة قربى، أو رحم، أو مودة أو مسؤولية، ويتجلى هذا الأسلوب بأبلغ صوره وأصدقها عند معاينة الموت وقرب أجل الموصي؛ لشعوره بضرورة نقل الرسالة إلى من سيرثه من بعده، ويتابع مسيرته ورسالته، وهذا ما حصل من سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا يعقوب عليه السلام حينما جمع كل منهما بنيه وأوصاهم (قائلا) لهم: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، فهذه الوصية جاءت لفظا و(قولا) علما أن أنه لم يرد التعبير عنها في النص القرآني بلفظ (القول)؛ ذلك لأنه لفظ لا يصل إلى العمق المراد من الوصية والمقصود منها؛ حيث هو لفظ عام لا يختص بمعنى دون آخر، ولا يحمل معاني محددة بدلالات مميزة مثل لفظ (وصّى) علما أنّ كلا اللفظين من ألفاظ القول؛ إلا أن لكل لفظ مقامه وسياقه الخاص به.

وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ﴾ جملة خبرية فعلية.

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿مريم :31﴾.

التفسير: جاء في تفسير: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، يعني: "أوصاني وأمرني بإتمام الصلاة وإعطاء الزكاة مَا دُمْتُ حَيًّا، وأوصاني ببر والدتي"[1]، "وَأَوْصانِي بالصلاة والزكاة وأمرني بهما مَا دُمْتُ حَيًّا"[2]، حيث أنّ: "الْوِصَايَةُ: الْأَمْرُ الْمُؤَكَّدُ بِعَمَلٍ مُسْتَقْبَلٍ، أيْ قَدَّرَ

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 374.

2 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 10.

وَصِيَّتي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، أَيْ أَنْ يَأْمُرَنِي بِهِمَا أَمْرًا مُؤَكَّدًا مُسْتَمِرًّا، وَالْإِيصَاءُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ يَتَعَلَّقُ بِصَلَاحِ الْمُخَاطَبِ خُصُوصًا أَوْ عُمُومًا، وَفِي فَوْتِهِ ضَرٌّ، فَالْوَصِيَّةُ أَبْلَغُ مِنْ مُطْلَقِ أَمْرٍ وَنَهْيٍ"[1].

البعد البلاغي: لو كان التعبير بـ(أمرني) بالصلاة والزكاة، أو قال لي: صلّي وزكّي؛ ما كان يفهم من السياق القرب والمحبة التي أضفاها لفظ (أوصاني) ولا تفهم المعاني نفسها، ولا الدلالات التي أشاعها هذا اللفظ! بالطبع إنّ الفرق واضح بين المعاني والدلالات التي نفهمها من كل لفظ، فالوصية التي تؤكد على استمرار عمل الخير، وتواصله من الحاضر إلى المستقبل، أعمق وأبعد من مجرد أن تقوم بهذا العمل، أو أن تستمر فيه مادمت على قيد الحياة أنت وحدك؛ بل على الموصَى أن يتابع رسالته ويعمل على نقلها، وتواصلها بين الأجيال؛ لأن لفظ (أوصى) يشعر بأهمية القيام بعمل الخير بشكل محدد ومؤكد، بأسلوب تستشعر منه المودة والقربى على غير ما يفهم من مجرد إلقاء الأمر، كما إنه أقوى من مجرد (القول) علما أنّ: (قال) و (أمر) و (أوصى) كلها ألفاظ (قول). ولكن هل من الصواب استخدام أحدها بدل الآخر في النص القرآني على أنها تجتمع كلها تحت مظلة واحدة هي: (ألفاظ قول)؟ بالطبع: إنّ وضوح الإجابة أكثر من أن يعلل...! أضف على ما سبق أنّه مركوز في الذاكرة أن الوصية مما يفضل كتابته تحريريا؛ لأمر ما، كأن تكون من غريب في ديار الغربة ويريد أن يوصي لأهله بوصية، فيكتبها لهم خوفا من النسيان أو الضياع، وكذلك من السنة النبوية على المسلم أن يوصي قبل موته، فلا بد من كتابة هذه الوصية للحفظ، فأخذت الوصية من هذا وغيره الجانب الأدبي من ألفاظ القول (الدالة على الفنون الأدبية).

(3)– ومنها قوله تعال: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ﴿الذاريات:53﴾.

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص 99، و ج 1، ص 727.

التفسير: ذكر بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ يعني: توافقوا، وتواطئوا فيما بينهم. وأوصى الأول الآخر. ويقال: توافقوا، وتواطئوا به كل قوم، وجعلوا كلمتهم واحدة أن يقولوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ"[1]، "أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعا متفقين عليه"[2] ، "﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أَيْ: أَوْصَى أَوَّلُهُمْ آخِرَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ. وَتَوَاطَئُوا عَلَيْهِ، وَالْأَلِفُ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّعَجُّبِ"[3]، و"الِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعْجِيبِ مِنْ تَوَاطُئِهِمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ، أَيْ كَأَنَّهُمْ أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَنْ يَقُولُوهُ. فَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنْ لَازِمِهِ وَهُوَ التَّعْجِيبُ لِأَنَّ شَأْنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ وَضَمِيرُ تَوَاصَوْا عَائِدٌ إِلَى مَا سَبَقَ مِنَ الْمَوْصُولِ وَمِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي أُضِيفَ إِلَيْهِ قَبْلِهِمْ، أَيْ أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى بَلَغَتِ الْوَصِيَّةُ إِلَى الْقَوْمِ الْحَاضِرِينَ"[4].

البعد البلاغي: كيف يوصي الأول الآخر على أمر ما والثبات عليه، وتناقله، والتعاضد على قضية مشتركة أن لم يتواصلا بـ(القول)؟ وكيف تتفق أقوام على الكذب والتواطؤ عليه إن لم تستخدم لغة فيما بينها، وترجمة ما تريد إن لم تستخدم الحديث و(القول)؟! وكيف يتعرف الأشخاص على خبايا غيرهم وأفكارهم إن لم تستخدموا (الأقوال)؟ هذا ما تم التعجب منه في السؤال الاستنكاري الذي ورد في الآية الكريمة، ومع ذلك لم يرد التعبير بلفظ (القول) في هذا النص؛ لأن المقصود منه أكثر من مجرد القول! فالمقصود هو الاستنكار من تواطئهم على الكذب جيلا بعد جيل، واتفاقهم قوما إثر قوم حتى أتقنوا القول جميعا بأن ادعوا أن سيدنا محمدﷺ ساحر أو مجنون؛ لقد تم هذا الأمر وفهم من كلمة واحدة استخدمت في هذا السياق: هي كلمة:

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 348.

2 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 405، البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص 151.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص 54.

4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، ص 22.

(تواصوا) التي أفادت مفهوم (القول) مضافا إليه ضرورة التناقل عبر الأجيال، بين فئة من الناس تجمعهم علاقة مشتركة ومصلحة واحدة؛ تعني الصغير كما تعني الكبير، وعلى الكل أن يعيهـــا. وإن كانت الوصية تحمل في ثناياها ما يشير إلى القبيح من الأعمال؛ وقد أفاد الاستنكار في هذه الآية متسائلا أين الجوهر في الوصية، وأين الأصل الذي عرفت به من تناقل الخيـــر والتـــواتر عليه مما هم فيه من الكفر والإساءة، فكأنه يؤنبهم ويوبخهم عما اتفقوا عليه من الطعن والإساءة للرسول ﷺ ولرسالته. فكأنما انتكست الوصية عما وضعت له في أصل اللغة!

انتهى البحث في ألفاظ المبحث التاسع -بحمد الله-,,,

*****

المبحث العاشر

ألفاظ القول الدالة على "التفسير وكشف الغامض" وبيان معانيها ودلالاتها وأساليبها البلاغية

سأتناول في هذا المبحث ألفاظ القول الدالة على (التفسير وكشف الغامض) وأبيّن معانيها اللغوية، ثم البحث عن مواطنها في القرآن الكريم ودلالاتها في السياقات التي وردت فيها، لمعرفة مقاصدها ومدى توافقها تحت هذا المبحث، ثم الكشف عن أساليبها البلاغية من المراجع ذات الاختصاص. ومعرفة ورود كل لفظ في القرآن الكريم؛ بالمعنى المقصود من الدراسة. وعدد هذه الألفاظ سبعة، هي: (أوّل، برهن، بيّن، شرح، عرب، فسر، كشف).

******

(1)- (أوّل) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: "(أول) والتّأوّل والتّأويل: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، ولا يصحّ إلاّ ببيان غير لفظه، والتّأويل: تفسير ما يَؤُولُ إليه الشيء. وقد أوّلته وتأوّلته"[1].

(أوّل) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (أوّل) واشتقاقاته في القرآن الكريم سبع عشرة مرة)[2]، جاءت كلها بالمعنى المقصود من الدراسة وهو: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، منها:

1 الفراهيدي، العين، باب اللفيف من اللام، الجوهري، الصحاح، أول.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص97.

(1)- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ﴿النساء:59﴾.

التفسير: جاء في بيان: "التَّأْوِيلُ هو: تَوْضِيحُ مَا خَفِيَ، وَتَفْسِيرُه مِنْ مَقْصِدِ كَلَامٍ أَوْ فِعْلٍ"[1]؛ "لِأَنَّ التَّأْوِيلَ مَصْدَرُ أَوَّلَهُ إِذَا أَرْجَعَهُ إِلَى الْغَايَةِ الْمَقْصُودَةِ، وَالْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنَ اللَّفْظِ هُوَ مَعْنَاهُ وَمَا أَرَادَهُ مِنْهُ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ مِنَ الْمَعَانِي فَسَاوَى التَّفْسِيرَ، عَلَى أَنَّهُ لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى مَا فِيهِ تَفْصِيلُ مَعْنًى خَفِيٍّ مَعْقُولٍ"[2]، "والتأويل هو: أن تُرْجِع الأمر إلى حكمه الحقيقي"[3]؛ والمقصود من الآية أن إذا اختلفتم في احتكامكم إلى شيء فاجعلوا مصدر تفصيله، وغاية مقصوده في إرجاع حكمه الحقيقي إلى كتاب الله ﷻ أو إلى سنة رسولهﷺ ستجدون ذلك فيهما؛ ففي ذلك الخير فيما أولتم به.

البعد البلاغي: (التأويل) فن من فنون (القول) مختص بباب التفسير والتوضيح لما لم يتم الاتفاق على فهم مقصوده بلفظه الذي عبر به عنه أصلا؛ لذا يتم اللجوء إلى إرجاعه إلى الأصل و(التأويل) بلفظ جديد يكون أقرب للفهم، وتوضيح ما خفي منه؛ وكل ذلك لا يتجاوز الكلام و(القول) ولا يتعداهما، ولكن جاء التعبير في هذا السياق باللفظ الذي يناسبه غيره، الذي يشير إلى معنى (القول) مضافا إليه دلالة التفسير والتوضيح وكشف ما خفي فهمه؛ وهذا بالطبع من البلاغة القرآنية في التعبير البياني، وفي مناسبة الألفاظ للسياقات التي وردت فيها بحيث لا يغني فيها عنها غيرها. وجاءت جملة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ خبرية اسمية، تفيد معنى التفضيل.

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 8ب، ص 154.
2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 16، المقدمات.
3 الشعراوي، الخواطر، ج4، ص 2361.

(2)- ومنها قوله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾﴿يوسف: 6﴾.

التفسير: جاء في تفسير ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: "ويعلمك ربك من علم ما يؤول إليه أحاديثُ الناس، عما يرونه في منامهم؛ بتعبير الرؤيا. أو عبارة الرؤيا. أو أنّ تأويل الكلام: العلم والكلام"[1]، أو هي: "تعبير الرؤيا"[2]، وقيل أخبار الأمم"[3]، "وتأويلها: عبارتها وتفسيرها"[4]، "وَالتَّأْوِيلُ: إِرْجَاعُ الشَّيْءِ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَدَلِيلِهِ. وَالْأَحَادِيثُ: يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ جَمْعَ حَدِيثٍ بِمَعْنَى الشَّيْءِ الْحَادِثِ، فَتَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ: إِرْجَاعُ الْحَوَادِثِ إِلَى عِلَلِهَا وَأَسْبَابِهَا بِإِدْرَاكِ حَقَائِقِهَا عَلَى التَّمَامِ. وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِكَ بِالِاسْتِدْلَالِ بِأَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْأَحَادِيثُ جَمْعَ حَدِيثٍ بِمَعْنَى الْخَبَرِ الْمُتَحَدَّثِ بِهِ"[5].

البعد البلاغي: عند تفسير حديث الناس وكلامهم، وإرجاع الأشياء إلى حقيقتها، وعند توضيح الرؤيا وبيانها لمن أشكلت عليه ومعرفة مآلها؛ لا بد من استخدام الكلام و(القول) لأن به يتم الشرح والتواصل بين الناس، وبه يتم التفاهم والتخاطب؛ فهو منّة من الله ﷻ لأنه من طرق التواصل الاجتماعي والنجاح بين الناس؛ وهذا جزء من المطلوب في الآية الكريمة سابقة الذكر، ولذلك؛ لا بد من لفظ يفصح عن المطلوب؛ يوضح معنى الشرح التفسير، وبيان ما أشكل فهمه أو الاتفاق على دلالته؛ ولأن القرآن الكريم معجز بإيجازه وبلاغته فجاء بلفظ واحد دال معجز،

---

1 الطبري، جامع البيان، ج15، ص 560.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 179.

3 مكي بن أبو طالب القيسي، الهداية، ج5، ص 3504.

4 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 444، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 247.

5 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 216.

يفصح عن غير دلالة مقصودة؛ هو التعبير بلفظ (تأويل)؛ الذي يحمل دلالات متعددة، منها دلالة (القول) ودلالة (التأويل) بلفظ واحد. وجاءت الجملة القرآنية: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ جملة خبرية فعلية.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿الكهف: 78﴾.

جاء في تفسير: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: "يقول سيدنا الخضر لسيدنا موسى عليهما السلام- سأخبرك بما يئول إليه عاقبة أفعالي التي فعلتها، ولم تستطع على تَرك المسألة عنها"[1]، أي: سَأُنَبِّئُكَ "بتفسير مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً، أي تعلم ما رأيتني أصنع فأنكرت لتعرف أهله وتأويله"[2]، وتَأْوِيلُ الشَّيْءِ مَآلُهُ"[3]. "وَالتَّأْوِيلُ تَوْضِيحُ وَتَفْسِيرُ مَا خَفِيَ، مِنْ مَقْصِدِ كَلَامٍ أَوْ فِعْلٍ، وَتَحْقِيقُهُ"[4].

البعد البلاغي: (التأويل) الذي يهدف إليه سيدنا الخضر عليه السلام هو توضيح الحالة المحيرة التي جعلت من سيدنا موسى عليه السلام يتساءل عن أسباب تصرفاته، ودوافعه إليها؛ (بقول) جامع مانع يزيل اللبس، ويجلي الغموض الذي جعل سيدنا موسى يخرج عن وعد الصمت الذي عاهد عليه، ولأن في هذا (القول) شرح وبيان، وتفسير ما أغلق إدراكه، على غير المعهود من عموم الأقوال وشائعها؛ فكان لا بد من لفظ دال موجز يعبر عن المراد بأقصر الطرق، وأدقها مع غناه بالفصاحة والبلاغة فجاء التعبير القرآني بلفظ (تأويل) الذي يشير إلى معنى ما سيقول الخضر

---

1 الطبري، جامع البيان، ج18، ص 82.

2 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 357.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص 33.

4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج8-ب، ص 154.

ﷺ، مع معنى الشرح المصاحب والتفسير وكشف الغامض الذي جعل من سيدنا موسى ﷺ قد أدرك ما تؤول إليه تصرفات الخضر ﷺ الغريبة كافة – ولكن بعد فوات الأوان–.

وجاءت جملة: ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ جملة خبرية فعلية، تفيد معنى وقوع الخبر في المستقبل؛ وذلك من دلالات حرف السين.

*****

(2)- (برهن) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: (برهن) "البُرْهان: الحُجّة الفَاصِلَةُ البَيِّنَةُ والدليل، يُقَالُ: بَرْهَنَ يُبَرْهِنُ بَرْهَنَةً إِذَا جَاءَ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ لِلَدَد الخَصم فَهُوَ مُبَرْهِنٌ، ويُبَرْهن بِمَعْنَى يُبَيِّن، وجَمْعُ البرهانِ براهينُ. وَقَدْ بَرْهَنَ عَلَيْهِ: أقام عليه الْحُجَّةَ"[1].

(برهن) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (برهن) واشتقاقاته في القرآن الكريم ثماني مرات)[2]، جاءت بالمعنى المقصود من الدراسة جميعها؛ وهو الحجّة الفاصلة والدليل القاطع، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿البقرة :111﴾.

التفسير: جاء في بيان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: "هاتوا برهانكم على ذلك، ودليلكم عليه إن كنتم صادقين في دعواكم"[3]، بدليل أنّ: "البرهان هو: كل حجة لا يعتريها شبهة بوجه"[4]، فعليهم

---

1 ابن منظور، اللسان، باب اللفيف من اللام، الرازي، مختار الصحاح، ب ر ه ن.
2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص118.
3 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج8، ص 5456.
4 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج1، ص 293.

أن يثبتوا ذلك بما لا يخالطه الشك بدخولهم الجنة، أي: "أحضروا حُجتَكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كُنتُمْ صادقين في دعواكم"[1].

البعد البلاغي: عند الإتيان بالبرهان والدليل؛ لإظهار الحجة ممن ادعى صدق نفسه؛ لا بد للطرف الآخر الذي يشك في صدق تلك الحجة من عدمه من أن يعلم بها، وذلك إما بقراءتها، أو إعلانها؛ وهذا الإعلان يتطلب (قولا) وكلاما فاصلا يبين هذا البرهان ويظهره؛ ولمدى أهمية هذا (القول) وما يعتمد عليه من نتائج مصيرية؛ إما بدخول الجنة أو بدخول النار -في هذه الآية- فهو يختلف عن بقية (الأقوال) وعمومها؛ ولهذا الاختلاف فقد اختلف اللفظ؛ ليعطي المعنى الأهمية التي يستحقها؛ فجاء التعبير القرآني باللفظ البليغ، الموجز، المعجز الذي يحمل دلالة (القول) مع ما يسانده من دليل، ويدعمه ببيان؛ فقال تعالى: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ ذلك لأن القوة البيانية التي أودعها الله في (البرهان) يفتقد إليها أي لفظ من ألفاظ (القول) الذي من الممكن أن يكون (قولا) قويا يحتج به، أو ضعيفا ركيكا لا يؤبه له، على غير (البرهان) الذي في كل أحواله قوة وحجة.

سُبق لفظ ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ في الآية الكريمة "بأسلوب الأمر من باب التعجيز والتحدي، وذلك لإظهار عجز من يدعي قدرته على فعل ما، وليس في وسعه ذلك. فجاءت هذه الآية من قوة التحدي والتسجيل على المخاطبين وإبراز عجزهم، وفي ذلك لفتهم إلى النظر في حالهم، والتفكر فيما هم فيه من عناد ومكابرة، وسوء تقدير. فليس المراد بالأمر هنا التكليف والإلزام والإتيان

---

1 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج1، ص 147.

بالبرهان لأنهم إن حاولوا ذلك ولم يتمكنوا منه، بَدَا عجزهم وظهر. وسر بلاغة التعبير بــالأمر في مقام ليتعظوا ويقلعوا عما هم فيه من عنادٍ ومكابرةٍ، وهذا من باب المعاني "[1]

(2)- ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَــيْكُمْ نُــورًا مُبِينًا﴾ ﴿النساء:174﴾.

التفسير: ذكر أنّ المقصود "بالبرهان: الحجة"[2]، أي: "لقد جاءكم: بيان من ربكم وحجة"[3]، "تبرهن لكم بُطُولَ ما أنتم عليه مقيمون من أديانكم ومللكم؛ وهو محمد ﷺ، الذي جعله الله عليكم حجة قطع بها عذركم، بإرساله إليكم، مع تعريفه إياكم صحة نبوته، وتحقيق رسالته ومعه القرآن الكريم"[4]، كما عنى بالبرهان: "الآيات القاهرة المبنية عن المعجزات، وبالنور: القرآن لأن بــه يعرف الطريق إلى الله"[5]، أي قد جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبق لكم عذر ولا علــة، وقيل: البرهان الدين أو رسول الله ﷺ أو القرآن"[6]، وجاء أنّ: "الْبُرْهَــانُ: يُخَــصَّصُ بِالْحُجَّــةِ الْوَاضِحَةِ الْفَاصِلَةِ، وَغَالِبُ مَا يُقْصَدُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا سَمَّى حُكَمَاءُ الْإِسْلَامِ أَجَلَّ أَنْوَاعِ الدَّلِيلِ، بُرْهَانًا"[7].

البعد البلاغي: سواء أكان ما يقصد بــ(البرهان) القرآن، أو الآيات القاهرة الدالــة علــى النبوة وصدقها، أو دلائل العقل والنقل، أو الحجة التي جاء بها الرسول ﷺ فكلها تحمــل معنــى البيان والتفسير لما يختلفون فيه، متضمنة للكلام و(القول) لأنها تحتاج في عرضها وتوصــيلها

---

1 مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 – المعاني، كود المادة: LARB4103، بكالوريوس، الناشر: جامعة المدينة العالمية، ج1، ص 356-357.

2 الطبري، جامع البيان، ج9، ص 428.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج1، 362.

4 الطبري، جامع البيان، ج9، ص 427- 428، السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 362.

5 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج4، ص 243.

6 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص 112.

7 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص 62.

للأمة إلى ذلك، ولكن بطريقة مختلفة عن مجرد (القول) وبقوة تغاير ما تعود عليه الناس قبل هذا (البرهان)، سواء بطول مـداه الـذي لا ينقطـع بانقـضاء فتـرة زمنيـة، أو بوضـوحه، أو بديمومته(برهان) لذا اختلف لفظه لاختلاف دلالته، فكان التعبير القرآني الدال المعجـز الـذي يحمل معنى (القول) متوشحا بالقوة التي لا تدحض: ﴿قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ﴾ مؤيد ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فهل بعد هذا قول بأن كلها ألفاظ (قول)؟ أو قول بترادف؟!. "فَعَمَّمَ فِي مَجِيءِ الْبُرْهَانِ وَإِنْزَالِ النُّـورِ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَصَّصَ فِي الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ وَالْهِدَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا مُنْتَهَى الْبَلَاغَـةِ وَصِـحَّةِ التَّقْسِيمِ"[1]. و"التقسيم، وهو أن تذكر شيئاً ذا جزأين أو أكثر ثم تضيف على كل واحد من أجزائه ما هو له"[2].

وجاءت الآية بأسلوب النداء لعامة الناس، ثم جاء النداء مصحوبا بجملة خبرية تقريريـة مؤكدة بحرف التحقيق (قد) التي تؤكد وقوع الخبر.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿النمل:64﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي هاتوا "حجتكم البينة على أن شيئا سـوى الله يفعل ذلك"[3]، " وقل لهم يا محمد "هاتوا برهانكم" على ذلك، ودليلكم عليه إن كنتم صادقين فـي دعواكم"[4] و"البرهان: كل حجة لا يعتريها شبهة بوجه"[5].

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص 203.

2 السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ) مفتـاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلميـة، بيـروت – لبنـان، الطبعة: الثانية، 1407 هـ - 1987 م، ص 425.

3 الطبري، جامع البيان، ج19، ص 486.

4 الطبري، جامع البيان، ج2، ص 510، مكي بن أبي طالب القيسي، ج8، ص 5456.

5 الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، ج1، ص 293.

البعد البلاغي: من كانت لديه حجة أمام قضية ما ليكسبها؛ أو لديه اعتراض على ما يرى من حقائق علمية، أو معجزات كونية فعليه أن يدلي بما عنده من اعتراضات؛ ليبين للطرف المتحدي صدق حجته، وقوة بيانه، ويفسر له أسباب قناعته، من عدمها، ولا بد له من وسيلة يتم بها ذلك؛ لذا لا بد من (القول) بحيث لا يختلف اثنان على ما يشرح و(يقول)؛ لأنه الوسيلة الوحيدة في معظم ذلك في ذلك-أو حتى في كل جزئية يتناولها-وهو الأكثر وضوحا في التواصل بين الناس، وأسهل تفاهما؛ كي يبسط حجته ودليله، وإلا انقطعت رسالته وتاه دليله إلى مبتغاه؛ ومع ذلك لم يرد التحدي بلفظ (قولكم) أو أحد مشتقاته في النص القرآني الذي نحن بصدده! بل يطالعنا لفظ أقوى من مجرد (القول) وهو لفظ ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ الذي يحمل معنى (القول) متضمنا المعاني التي أشير إليها آنفا، وهو المقصود بالتحدي للمشككين بوحدانية الخالق، ليبينوا سبب كفرهم، وكشف ما لديهم من موانع للإيمان -إن وجدت- وإلا سوف يلاقوا المصير الذي وعد به أمثالهم.

وجاءت جملة: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ...﴾ إنشائية، تفيد معنى الأمر على الوجه الحقيقي؛ لأنه من الأعلى إلى الأدنى. وهو بمعنى التحدي، والتقريع؛ لا الإتيان فعلا؛ لأنه لا برهان لديهم.

*****

(3)- (بيّن) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: (بيّن) "بَيْنَ: الْبَاءُ وَالْيَاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وَانْكِشَافُهُ. فَالْبَيْنُ الْفِرَاقُ ؛ وَبَانَ الشَّيْءُ وَأَبَانَ إِذَا اتَّضَحَ وَانْكَشَفَ"[1]، "وَفُلَانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلَانٍ: أَيْ أفصح منه كلاما و أَوْضَحُ. ورجلٌ بَيِّنٌ وجهيرٌ إذا كان بَيِّنَ المنطق وجهير. والبيان: الفصاحة واللسن. والبيان: ما يتبين به الشيء من الدلالة وغيرها. وبان الشيء بَياناً واستَبان

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، بين.

وتَبَيَّنَ وأبان، وأَبَنْتُهُ أوضحته وتَبَيَّنْتُهُ، والتَبْيِينُ: الإيضاح والوضوح. وأبان فهو بـين ومبـين وبائِنٌ"[1].

(بيَّن) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (بيَّن) واشتقاقاته في القرآن الكريم مائتين وثمانياً وخمسين مرة)[2]، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿آل عمران: 187﴾.

التفسير: جاء أنّ: "هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئًا فليعلّمه، وإياكم وكتمانَ العلم، فإن كتمان العلم هَلَكة، لتتكلمن بالحق، ولتصدّقنه بالعمل"[3]، "وكفى به دلـيلا علـى أنـه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس، وما علموه، وأن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطيب لنفوسهم... "[4]، "وعن النبي ﷺ: «من كتم علمه عن أهلـه ألجـم بلجام من نار»"[5]، "والناس هُنَا: أَهْلُ الْكِتَابِ، وَالْكِتَابُ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ، وَقِيـلَ: النَّـاسُ أمـة محمد ﷺ، وَالْكِتَابُ: الْقُرْآنُ. وَالْأَوْلَى وَالْأَظْهَرُ: عُمُومُ الْآيَةِ فِي الْكَاتِمِينَ، وَفِي النَّاسِ، وَفِي الْكِتَابِ وَإِنْ نَزَلَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ، فَهِيَ تَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ كَتَمَ عِلْمًا مِنْ دِينِ اللَّهِ يُحْتَاجُ إِلَى بَثِّهِ وَنَـشْرِهِ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ لَا يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ فِي بَثِّهِ. كَمَا رُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِمَا: لَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ. وَقَدِ امْتَنَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ تَحْدِيثِهِ بِبَعْضِ مَا يَخَافُ مِنْهُ فَقَالَ: لَوْ بَثَثْتُـهُ لَقُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ. وَظَاهِرُ الْآيَةِ اسْتِحْقَاقُ اللَّعْنَةِ عَلَى مَنْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَإِنْ لَمْ يُسْأَلْ عَنْهُ، بَلْ

---

1 الفراهيدي، العين، باب النون والباء و (وا)، الجوهري، الصحاح، بين، ابن فارس، مجل اللغة، بـاب البـاء والياء، ابن سيده، المحكم.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 141- 145.

3 الطبري، جامع البيان، ج7، ص 461.

4 الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 450.

5 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج2، ص 53.

يَجِبُ التَّعْلِيمُ وَالتَّبْيِينُ، وَإِنْ لَمْ يَسْأَلُوا، وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَزْمٍ الْقُرْطُبِيُّ، فِيمَا سَمِعَ مِنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بن أبي نَصْرٍ الْحُمَيْدِيُّ الْحَافِظُ: الْحَظُّ لِمَنْ آثَرَ الْعِلْمَ وَعَرَفَ فَضْلَهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ جُهْدَهُ وَيُقْرِئَهُ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ وَيُحَقِّقَهُ مَا أَمْكَنَهُ، بَلْ لَوْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَهْتِفَ بِهِ عَلَى قَوَارِعِ طُرُقِ الْمَارَّةِ ويدعو إليه في شوارع السَّابِلَةِ وَيُنَادِي عَلَيْهِ فِي مَجَامِعِ السَّيَّارَةِ "[1]، و"﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ هُمُ الْيَهُودُ أُخِذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقُ فِي أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ فَكَتَمُوهُ وَنَبَذُوهُ. وَقِيلَ: هِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَعُلَمَاءُ هَذَا الْأُمَّةِ دَاخِلُونَ فِي هَذَا الْمِيثَاقِ"[2]، و "الآية: توبيخ لمعاصري النبيّ ﷺ، ثم هو مع ذلك خَبَرٌ عامٌ لهم ولغيرهم، وقيل أنّ: الآية عامةٌ في كلّ من علّمه اللّه عِلْماً، والضميرُ في: لَتُبَيِّنُنَّهُ، وَلا تَكْتُمُونَهُ: عائدٌ على الْكِتَابَ، والنَّبْذُ: الطَّرْح، وأقوى الأقوال في هذه الآيةِ أنَّها نزلَتْ في اليهودِ، وهم المعْنِيُّون، ثم كلّ كاتمٍ من هذه الأمّة يأخذ بحظّه من هذه المذَمّة"[3]، "وَقَدْ أُخِذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقُ بأمرين: هما بَيَان الْكِتَابُ أَيْ عَدَمُ إِجْمَالِ مَعَانِيهِ أَوْ تَحْرِيفِ تَأْوِيلِهِ، وَعَدَمُ كِتْمَانِهِ أَيْ إِخْفَاءِ شَيْءٍ مِنْهُ. فَقَوْلُهُ: وَلا تَكْتُمُونَهُ عَطْفٌ عَلَى لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ"[4]، "ومعناه الإظهار والتبليغ وعدم كتمان شيء من الكتاب أو إخفائه عن العالمين"[5] و"إنّ العلماء هم أقدر الناس على قول الحق وبيانه لاسيما ما يتعلق بأعمال الولاة والحكام، مما تكون مفسدته عامة على جميع الأمة"[6].

البعد البلاغي: إنّ كل ما مر من تفسير للآية من توحيد الربوبية، وإظهار الحق، ونشر العلم، وبث تعاليم الدين، وحقائق الدعوة والرسالة، وبيان صفات الرسول محمد ﷺ يدور في فلك

---

1 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج2، ص 69.

2 المرجع السابق، ج3، ص 464.

3 الثعالبي، الجواهر الحسان، ج2، ص 147.

4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص 191.

5 صدقي، محمد توفيق، مجلة المنار، الإسلام هو القرآن وحده، ج9، ص 906

6 الوابل، عبد اللطيف، العلماء ومسؤولية البلاغ، ، مجلة البيان، ج79، ص

الميثاق الذي أخذه الله ﷻ على أهل العلم، في بيان ما علموا، وعدم كتمانه عمن جهلوا؛ لتتساوى المعادلة بينهما، ولا يتم الوفاء بالعهد، ونحصل على نتيجة فعلية إن لم نتعامل بالأسلوب الأمثل في (البيان) وهذا الأسلوب – حتما- يحتاج إلى وسيلة تفاهم، وهذه الوسيلة هي استخدام اللغة المناسبة في توصيل المهمة، وهذه الوسيلة في كل لغات العالم تحتاج إلى (القول) الذي به تترجم الحاجات وتصل الرسائل، وتحلل الرموز والإشارات، ومن خلال هذه المرحلة العملية في توصيل العلم يتبين أنّ (التبيين) فن من فنون (القول) لكنه جاء في مقام خاص يحث على توضيح ما أشكل فهمه، و(بيان) ما استتر قسرا من علم، ذلك لو حل محل هذا اللفظ لفظ (لتقولونه) للناس) لأشكل على عموم المخاطبين ماذا يقولون؛ لأن (القول) كثير شائع، وفيه الصالح والطالح، وفيه ما يقال وما لا يقال، أما بلفظ (لتبيننه) اتضح أن المطلوب المباشرة في استخدام (القول) بأسلوب مناسب، وكيفية مناسبته من الكشف والشرح وتعميم ما عرف من علوم، ونشره، ليعم العلم والمعرفة، وليحارب الجهل والاحتكار، ويتم الوفاء بالعهد.

وجاءت الآية القرآنية في سياق الجملة الخبرية، وهي مؤكدة تأكيدا إنكاريا بحرف اللام في: (لَتُبَيِّنُنَّهُ)، وبالنون المشددة في (لَتُبَيِّنُنَّهُ)، وجاء بين لفظ: (لَتُبَيِّنُنَّهُ) و (ولَا تَكْتُمُونَهُ) طباق سلب، وقد أفاد هذا الطباق التأكيد على الفكرة بتنويع الأسلوب البلاغي البديعي، و جاء بين (لَتُبَيِّنُنَّهُ) و (تَكْتُمُونَهُ) طباق إيجاب.

(2)- وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿المائدة:15﴾.

التفسير: جاء في تفسير الآية: "أن هذا خطاب لليهود والنصارى ، وتوضيح لما كانوا يخفون من نحو صفة رسول اللّه ﷺ، من كتبهم، ومن نحو الرجم، ومِنَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَمِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ السَّبْتِ الذين مسخوا قردة، فإنهم كانوا يخفونها. ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أيْ يَتْرُكُهُ وَلَا

يُبَيِّنُهُ، وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ مَا فِيهِ حُجَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَدَلَالَةٌ عَلَى صِدْقِهِ وَشَهَادَةٌ بِرِسَالَتِهِ، وَيَتْرُكُ مَا لَمْ يكن به حاجة إلى تبيينه"[1]، "وَالظَّاهِرُ أَنَّ فَاعِلَ يُبَيِّنُ وَيَعْفُو عَائِدٌ عَلَى رَسُولُنَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى"[2]، وفي أسلوب الآية أنّه: "أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِالْخِطَابِ بِالْمَوْعِظَةِ إِذْ قَدْ تَهَيَّأَ مِنْ ظُهُورِ صدق الرَّسُول ﷺ مَا يُسَهِّلُ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَلِذَلِكَ ابْتُدِئَ وَصْفُ الرَّسُولِ بِأَنَّهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَثِيرًا مِمَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ، وَحُذِفَ مَفْعُولُ يُبَيِّنُ لِظُهُورِ أَنَّ الْمُرَادَ بَيَانُ الشَّرِيعَةِ"[3].

البعد البلاغي: لم يكن ليكتمل (البيان) والتوضيح المراد من الرسول ﷺ على كماله وحقيقته في الدعوة إن لم يكن بلسان واضح، وأسلوب مناسب؛ ألا وهو أسلوب (القول) والكلام، الذي من خلاله يستطيع أن يصدح بالدعوة ويجهر بالرسالة، والموعظة التي تحمل تعاليم هذا الدين وشرائعه، وبالخطاب الذي يتحمل العبء الأكبر من كل ذلك، ولولا هذه الوسائل وغيرها من أساليب الدعوة ما وصلتنا الرسالة السماوية، ولا تعرفت الأمم على ما أخفي من حقائق في الكتب السابقة للقرآن الكريم، وعلى الرغم من أنّ نجاح الدعوة، وإقامة الحجج تعتمد على القوة في الطرح، ووضوح البيان في (القول) إلا أنّ هذا اللفظ لم يرد في السياق؛ ذلك لأنه استغني عنه بلفظ يحمل دلالته، بالمشاركة مع دلالات أخر مصاحبة له، تزيد من قوته كلفظ، وتضيف إليه دلالات؛ ألا وهو لفظ (يبيّن) الذي يشير بقوة إلى إظهار ما خفي من معلومات، بالإضافة إلى ما أغلق من معاني وبيانها، وتوضيحها، وتسهيل فهمها وإدراك ما ترمي إليه؛ فلفظ (بيّن) فن من فنون (القول) يهدف إلى (التفسير وكشف الغامض) .

---

1 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص118.

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج4، ص 208.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص 150، وص 158.

وجاءت الآية الكريمة: بأسلوب النداء الذي يليه جملة خبرية مؤكدة بحرف التحقيق (قـد)، وجاءت جملة (يُبَيِّنُ) تعليلية لمجيء الرسول ﷺ.

(3)- ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿إبراهيم: 4﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ يقول: "ليفهمهم ما أرسله الله به إليهم من أمره ونَهيه، ليُثْبت الحجة عليهم، ثم التوفيقُ والخذلانُ بيد الله، فيخذُل عن قبول ما أتاه به رسُوله من عنده من شاء منهم، ويوفّق لقبوله من شاء"[1]، و﴿بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾ أي: بلغتهم، ليبينوا لَهُـمْ أَمْـرَ دِينِهِمْ، وَوَحَّدَ اللِّسَانَ وَإِنْ أَضَافَهُ إِلَى الْقَوْمِ لِأَنَّ الْمُرَادَ اللُّغَةُ"[2]، "وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ إِلَيْهِمْ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، لِأَنَّهَا أَصْلَحُ اللُّغَاتِ جَمْعَ مَعَانٍ، وَإِيجَازَ عِبَارَةٍ، وَسُهُولَةَ جَرْيٍ عَلَى الْأَلْسُنِ، وَسُرْعَةَ حِفْظٍ، وَجَمَالَ وَقْعٍ فِي الْأَسْمَاعِ، وَجُعِلَتِ الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ المتلقية للكتاب بادئ ذِي بَدْءٍ، وَعُهِدَ إِلَيْهَا نَشْرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ. وَفِي التَّعْلِيلِ بِقَوْلِهِ: لِيُبَيِّنَ لَهُمْ إِيمَاءٌ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى، لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنَ التَّشْرِيعِ الْبَيَانَ كَانَتْ أَقْرَبُ اللُّغَاتِ إِلَى التَّبْيِينِ مِنْ بَيْنِ لُغَاتِ الْأُمَمِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ وَهِيَ الْأَجْدَرُ بِأَنْ يَأْتِيَ الْكِتَابُ بِهَا، وَلَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ سِيَاقِهَا الرَّدُّ عَلَى طَعْنِهِمْ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَةٍ لَمْ يَنْزِلْ بِهَا كِتَابٌ قَبْلَهُ اقْتَصَرَ فِي رَدِّ خَطَئِهِمْ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُهِمُّهُمْ"[3].

البعد البلاغي: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُـمْ﴾ "لأنّ مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتّفهم. وكلما كان اللّسان أبين كان أحمـد

---

1 الطبري، جامع البيان، ج16، ص 516، و ص 517.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص 340.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص 187.

كما أنّه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد. والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أنّ المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم"[1]. وجاءت الجملة (وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ) خبرية؛ تفيد الحصر والاستثناء، وجملة (لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) تعليلية، مفسرة.

*****

(4)- (شرح) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: (شرح) "الشرح: الكشف، تقول: شرحت الغامضَ، إذا فسّرتَه. وشرَحَ الشَّيْءَ يَشْرَحُه شرْحا وشرَّحَه: فَتحه وبَينه، وَمِنْهُ تَشْرِيحُ اللَّحْمِ، وَشَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَانْشَرَحَ، وشرَح مسألة مُشْكِلَةً: بَيَّنها"[2].

(شرح) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (شرح) واشتقاقاته في القرآن الكريم خمس مرات)[3]، لم ترد فيها بالمعنى المتوخى من الدراسة في التفسير والشرح البياني والقولي؛ بل جاءت مقترنة بلفظ الصدر، في المواطن كلها، وتعني الفتح المعنوي، وقد أكدت ذلك بنت الشاطئ بأنّ: "الآيات الخمس مكية، والشرح فيها جميعاً للصدر. ولا يعني هذا بأنه المعنى المادي للصدر، أو الصدر الجارحة؛ بل هو معنوي خالص يعني هدى الإيمان ونور الحق وراحة اليقين والسلام النفسي"[4]، وقد ذكر

---

1 الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ.

2 الجوهري، الصحاح، ابن سيده، المحكم، الرازي، مختار الصحاح، ش ر ح، ابن منظور، اللسان، حرف الحاء المهملة، فصل الشين، ج2، ص 497.

3 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص378.

4 بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، ج1، ص 59-60.

الطبري قبلها بأنّ: "شرح الصدر يعني فسح صدره للإسلام وهوّنه عليه، وسهّله لـه، بلطفـه ومعونته، حتّى يستنير به في قلبه، فيضيء له، ويتسع له صدره بالقبول"[1]، وهي:

(1)- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿الأنعام: 125﴾.

(2)- و قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿النحل: 106﴾

(3)- و قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿طه: 25﴾.

(4)- وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ﴿الزمر:22﴾

(5)- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿الشرح: 1﴾.

*****

(5)- (عرب) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: (عرب): "(عَرَبَ) الْعَيْنُ وَالرَّاءُ وَالْبَاءُ أُصُـولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا الْإِبَانَةُ وَالْإِفْصَاحُ، وَالْآخَرُ النَّشَاطُ وَطِيبُ النَّفْسِ، وَالثَّالِثُ فَسَادٌ فِي جِسْمٍ أَوْ عُـضْوٍ. فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: أَعْرَبَ الرَّجُلُ عَنْ نَفْسِهِ، إِذَا بَيَّنَ وَأَوْضَحَ وأفصح القول والكلام، عرب: العـرب العاربة: الصريح منهم. والأعاريب: جماعة الأعراب. ورجل عربيّ، وعربـانيّ اللـسان، أي: فصيح. عَرَّبْتُ عَنِ الْقَوْمِ إِذا تكلمتَ عَنْهُمْ، واحتَجَجْتَ لَهُمْ، وَقِيلَ: إن أعـربَ بمعنـى عـرَّبَ. والإعْرابُ والتَّعْريبُ: الإبانةُ، يُقَالُ: أَعْرَبَ عَنْهُ لِسانهُ وعَرَّبَ أي أَبانَ وأَفصَحَ. وأَعْـرَبَ عَـنِ

---

1 الطبري، جامع البيان،ج12، ص 98.

الرَّجل: بيَّنَ عَنْهُ. وعَرَّبَ عَنْهُ: تَكَلَّمَ بِحُجَّتِه. وسُمِّيَ الإعراب إعراباً، لِتَبْيِينِهِ وإِيضاحه، قَالَ: وكِلَا الْقَوْلَيْنِ لُغَتَانِ مُتَسَاوِيَتَانِ، بِمَعْنَى الإبانة والإيضاح"[1].

(عرب) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (عرب) واشتقاقاته في القرآن الكريم اثنتين وعشرين مرة)[2]، جاء في عشرة مواقع بمعنى العرب العاربة: الصريح منهم، وجماعة الأعراب. وواحد بمعنى النَّشَاطُ وَطِيبُ النَّفْسِ، وفي أحد عشر موقعا بمعنى الْإِبانةُ وَالْإِفْصَاحُ، المعنى المقصود من الدراسة، منها:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ﴿الرعد: 37﴾.

التفسير: جاء في معنى: ﴿حكماً عَرَبِيًّا﴾ يعني: "أَنَّ القرآن بلغة العرب"[3]، و "أنزلنا الذكر والحكم حكماً عربياً"[4]، "والإنذار بدار الجزاء حُكْماً عَرَبِيًّا حكمة عربية مترجمة بلسان العرب"[5]، وجاء أيضا أنّه: (حُكْماً عَرَبِيًّا) حَالَانِ مِنْ ضَمِيرِ أَنْزَلْناهُ. وَالْحُكْمُ: هُنَا بِمَعْنَى الْحِكْمَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ﴿مَرْيَم: 12﴾ . وَالْمُرَادُ أَنَّهُ ذُو حُكْمٍ، أَيْ حِكْمَةٍ. وَالْحِكْمَةُ تَقَدَّمَتْ. وعَرَبِيًّا حَالٌ ثَانِيَةٌ وَلَيْسَ صِفَةً لِ حُكْماً، إِذِ الْحِكْمَةُ لَا تُوصَفُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأُمَمِ وَإِنَّمَا الْمَعْنَى أَنَّهُ حِكْمَةٌ مُعَبَّرٌ عَنْهَا بِالْعَرَبِيَّةِ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي هِيَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَجْمَلُهَا وَأَسْهَلُهَا، وَفِي ذَلِكَ إِعْجَازُهُ. فَحَصَلَ لِهَذَا الْكِتَابِ كَمَالَانِ: كَمَالٌ مِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ وَمَقَاصِدِهِ وَهُوَ كَوْنُهُ حُكْمًا، وكَمَالٌ مِنْ جِهَةِ أَلْفَاظِهِ وَهُوَ الْمُكَنَّى عَنْهُ بِكَوْنِهِ عَرَبِيًّا، وَذَلِكَ مَا لَمْ يَبْلُغْ إِلَيْهِ كِتَابٌ

---

1 الفراهيدي، العين، باب العين والراء والباء، ابن فارس، مقاييس اللغة، عرب، ابن منظور، اللسان، فصل العين المهملة، حرف الباء الموحدة.

2 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص456.

3 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 230.

4 مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية، ج5، ص 7350

5 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 533.

قَبْلَهُ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ أَشْرَفُ الْمَعْقُولَاتِ فَيُنَاسِبُ شَرَفَهَا أَنْ يَكُونَ إِبْلَاغُهَا بِأَشْرَفِ لُغَةٍ وَأَصْلَحِهَا لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْحِكْمَةِ"[1]، "والحق سبحانه هنا يوضح أن القرآن هو الحكم العدل، ويصفه بأنـــه: (حُكْماً عَرَبِيّاً) لأن اللسان الذي يخاطب به الرسول القوم الذين يستقبلون بآذانهم ما يقوله لهم لابـــد أن يكون عربياً"[2].

البعد البلاغي: لو تناولنا في هذا البعد التفسير الأول الذي ورد في معنى: (حكما عربيـــا) يتبين أنّ لفظ (عربيا) هو لفظ من ألفاظ (القول) يشير إلى كل ما يمكن أن يحمل معنى الفصاحة والبلاغة والبيان، والكشف والتوضيح عن المراد، ويعرب عنه بأفصح تعبير، وأبلـــغ أســـلوب، يتناسب مع شرفية القرآن الكريم، ويتناسب مع الحكمة التي هي من ميزاته، كما يتناسب التعبير بالعربية مع لسان القوم الذي أنزل فيهم هذا القرآن الكريم ولغتهم؛ فهو لفظ (قول) يتميـــز بمـــا سلف من الصفات التي لا يمكن إنكارها، ولا يختلف أحد في وضوح بيانها، ودقـــة تعبيرهـــا، ولطف بلاغتها؛ بحيث لا يمكن أن نستبدله بلفظ (قال) أو أحد مشتقاته في هذا السياق؛ علمـــا أن كلا اللفظين-كما تبين- من ألفاظ (القول). والتعبير بلفظ (قال) في هذا السياق قد يحتاج إلى كثير من توضيح حال المنزل وفصاحته، وبيانه وبلاغته وسهولته، وقدرته علـــى حمـــل الأفكـــار، وتوصيل المعاني.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿النحل: 103﴾.

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص 160.

2 الشعراوي، الخواطر، ج12، ص 7378.

التفسير: جاء في معنى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي أنّ: "القرآن لِسانٌ عَرَبِــيٌّ مُبِــينٌ، مفقه بلغتهم"[1]، "والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أعْجَمِيٌّ، غير بين وَهذا القرآن لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ، ذو بيان وفصاحة ردًا لقولهم وإبطالا لطعنهم"[2]، "وَاللِّسَانُ: هُنَا اللُّغَةُ"[3]، "أيْ كَيْفَ يُعَلِّمُهُ وَهُوَ أعْجَمِيٌّ لَا يَكَادُ يُبِينُ، وَهَذَا الْقُرْآنُ فَــصِيحٌ عَرَبِــيٌّ مُعْجِــزٌ، وَاللِّسَانُ: الْكَلَامُ. سُمِّيَ الْكَلَامُ بِاسْمِ آلَتِهِ، وَالْمُبِينُ: اسْمُ فَاعِلٍ مَنْ أَبَانَ، إِذَا صَارَ ذَا إِبَانَةٍ، أيْ زَائِدٌ فِي الْإِبَانَةِ بِمَعْنَى الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، فَحَصَلَ تَمَامُ التَّضَادِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ"[4].

البعد البلاغي: بالطبع فإن الفصاحة والبيان، والفقه، والاستقامة، صفات لا تظهر إن لم يبن عنها المنطق، ويفصح بها (القول) ويعرب عنها اللسان، وهذه جزء من صــفات لغــة القــرآن الكريم، التي تحدى بها ﷺ العرب كلهم، والمعنى أن لغة القرآن الكريم، وحال لسان الناطقين به تعرب عن الفصاحة والبلاغة والوضوح والبيان، وتكشف عما فيه، وتشف عن المقصود بحيث يفهمه القاصي والداني، على غير لغة من يلحدون إليه، وينسبون إليه لغة الدعوة التــي توجــه إليهم، فــ(الإعراب) لفظ من ألفاظ (القول) التي تعبر عن الإفصاح والبيان، وطلاقــة المنطــق، وقوة الحجة، والبرهان بما لا يدع مجالا للافتراض أو -حتى- الظن أنّ لفظ (قال) يمكن أن يسد مكانه في هذا السياق؛ علما أن كلا اللفظين من فنون (القول). وجاءت جملة: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ خبرية اسمية، تقريرية.

(3)- وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فصلت: 3﴾.

---

1 السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 292.

2 الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 635.

3 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، ص 595.

4 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص 287_ 288.

التفسير: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: "فصلت آياته في حال كونه قرآنا عربيا، (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أي لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين، لا يلتبس عليهم شيء منه"[1]، "قُرْآناً عَرَبِيًّا نصب على المدح أو الحال من فُصِّلَتْ، وفيه امتنان بسهولة قراءته وفهمه. لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أي لقوم يعلمون العربية أو لأهل العلم والنظر"[2]، "وَمَعْنَى: فُصِّلَتْ آيَاتُهُ بُيِّنَتْ، وَالتَّفْصِيلُ: التَّبْيِينُ وَالْإِخْلَاءُ مِنَ الِالْتِبَاسِ"[3].

البعد البلاغي: تطالعنا آيات كثيرة، تتحدث عن لغة القرآن الكريم ولسانه، وفي كل مرة يتجلى فيها وصف تلك اللغة، ومدحها بما ينفرد بها عن سائر اللغات في الكتب السماوية والأرضية، وفي كل مرة تدعم من سبقها، وتضيف صفة مؤكدة على ما جاء بها غيرها؛ فها هنا نستشف بأنه قرآنا واضحا، معربا ومفصحا عما يحتوي من آيات، لا تلتبس معانيها على من يقرأها، أو يتلوها؛ لما تعبر عنه من البيان والتفصيل، وسهولة الفهم لمن يتناولها بالقراءة والتلاوة وترديد ما جاء فيه بـ(القول) والتدبر. والتلفظ بهذه الآيات. والتلفظ بها يعني نطقها و(القول) بها؛ فتتكشف الأسرار، وتظهر الخبايا والمزايا التي ينفرد بها هذا القرآن المفصل البيّن، الواضح وضوح الشمس؛ ومن هنا يتبين لنا أن الإعراب يعني (القول) والإفصاح عما في مكنونات الداخل، والبيان عنها دون تعثر، أو تلعثم، وهذا القرآن الكريم (قولا) واضحا كاشفا وشارحا لكل من رام خباياه، وابتغى مزاياه؛ بحيث لا يمكن أن نفهم هذه المعاني، أو أن نشير إليها لو طالعنا النص بلفظ (قال) أو أحد مشتقاته على أن القرآن الكريم (قولا) (ما) لقوم يعلمون، ولاحتاج منا فهم النص وتحليله إلى استخدام كثير من الألفاظ التي يظن منها أنها تفسر المقصود

---

1 الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 184.

2 البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص 66.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص 230.

من (قرآنا مقولا) لو حلت –جدلا– محل لفظ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾؛ بينما لفظ (عربيا) عبر عن إنـــه (قول) مشتملا على سائر المعاني سالفة الذكر.

*****

(6)- (فسر) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من المعاجم حول مادة: (فسر) (فَسِرَ) الْفَاءُ وَالسِّينُ وَالرَّاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى بَيَانِ شَيْءٍ وَإِيضَاحِهِ. مِنْ ذَلِكَ الْفَسْرُ، يُقَالُ: فَسَرْتُ الشَّيْءَ وَفَسَّرْتُهُ"[1]، "الفَسْرُ: التفسير وهو بيان وتفصيل للكتاب، وفَسَره يفسِره فسرا، وفسره تفسيرا، وقد فَسَرْتُ الشَيْء أفسره. واسْتَفْسَرْتُهُ سألته أن يُفَسِّرَ لي"[2]، "التَّفْسِيرُ: مَصْدَرُ فَسَّرَ بِتَشْدِيدِ السِّينِ الَّذِي هُوَ مُضَاعَفُ فَسَرَ بِالتَّخْفِيفِ، وهو الْإِبَانَةُ وَالْكَشْفُ لِمَدْلُولِ كَلَامٍ أَوْ لَفْظٍ بِكَلَامٍ آخَرَ هُوَ أَوْضَحُ لِمَعْنَى الْمُفَسَّرِ عِنْدَ السَّامِعِ"[3].

(فسر) في القرآن الكريم:

ورد لفظ (فسر) واشتقاقاته في القرآن الكريم مرة واحدة، هي:

(1)- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿الفرقان: 33﴾.

التفسير: جاء في: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ أَيْ تَفْصِيلًا. أي: أَحْسَنَ مِنْ مَثَلِهِمْ تَفْصِيلًا"[4]، "وَالتَّفْسِيرُ فِي الِاصْطِلَاحِ: هُوَ اسْمٌ لِلْعِلْمِ الْبَاحِثِ عَنْ بَيَانِ مَعَانِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا بِاخْتِصَارٍ أَوْ تَوَسُّعٍ، وَمَوْضُوعُهُ: أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ الْبَحْثُ عَنْ مَعَانِيهِ وَمَا يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ، وَالتَّفْسِيرُ: الْبَيَانُ وَالْكَشْفُ عَنِ الْمَعْنَى، وَالْمُرَادُ هُنَا كَشْفُ الْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ. وَمَعْنَى كَوْنِهِ أَحْسَنَ، أَنَّهُ أَحَقُّ فِي الِاسْتِدْلَالِ، فَالتَّفْضِيلُ لِلْمُبَالَغَةِ إِذْ لَيْسَ فِي حُجَّتِهِمْ حُسْنٌ أَوْ يُرَادُ بِالْحُسْنِ مَا يَبْدُو مِنْ بَهْرَجَةِ

---

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص 504.

2 الفراهيدي، العين، باب السين والراء والفاء، الجوهري، الصحاح، فسر.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، المقدمات، ج1، ص 10.

4 القرطبي، الجمع لأحكام القرآن، ج13، ص 29.

سَفْسَطَتِهِمْ وَشُبَهِهِمْ فَيَجِيءُ الْكَشْفُ عَنِ الْحَقِّ أَحْسَنَ وَقْعًا فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ مِنْ مُغَالَطَاتِهِمْ، فَيَكُونُ التَّفْصِيلُ بِهَذَا الْوَجْهِ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَهَذِهِ نُكْتَةٌ مِنْ دَقَائِقِ الِاسْتِعْمَالِ ودقائق التَّنْزِيلِ"[1].

البعد البلاغي: إذن التفسير في حقيقته لفظ لا ينفصل لتحقيق مدلوله عن (القول) والكلام؛ موضوعه البحث والْإِبَانَةُ عن مَدْلُولِ الكَلَامِ وَالْكَشْف عنه وَإِيضَاحِهِ بِلَفْظٍ أو بِكَلَامٍ آخَرَ هُوَ أَوْضَحُ منه أو لِمَعْنَاه عِنْدَ السَّامِعِ، ومجاله القرآن الكريم؛ الذي جاء فيه بأن توضيحه لكل ما احتوى عليه من أمثلة بيانه وتفسيرها وتوضيحها يفوق وضوح وبيان كل من تحداه، ولا يتم هذا التوضيح والتفسير إلا باللفظ و (القول)؛ وتفسيره بطريقة جديدة ومبسطه بين يدي القارئ، والكشف عن المعنى بطريقة مفهومة واضحة، الذي هو الطريقة المثلى في توضيح النص، وبسطه لمن أراده بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ ﴿القمر:17، 22، 32، 40﴾؛ ومع ذلك لم يعبر عن هذا المعنى بلفظ (قال) أو أحد مشتقاته في هذا النص القرآني المحكم؛ لأنه لا يعبر عن معنى التوضيح والبيان المقصودين في التفصيل والمبالغة التي جاءت على وجهها في الآية الكريمة؛ علما أن كلا اللفظين من ألفاظ (القول).

*****

(7)- (كشف) في معاجم اللغة:

جاء في عدد من معاجم اللغة حول مادة: كشف: "كشف الْأمر يكشفه كشفاً: أظهره. وكشفه عَن الْأمر: أكرهه على إظْهَاره"[2].

---

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 11- 12، و ج 19، ص 23.

2 ابن سيده، المحكم، الكاف والشين والفاء، الرازي، مختار الصحاح، (ك ش ف)، ج1، ص 270، للفيروز آبادي، القاموس المحيط، فصل الكاف، ص 849.

(كشف) في القرآن الكريم:

(ورد لفظ (كشف) واشتقاقاته في القرآن الكريم عشرين مرة)[1]، وهي وإن كانت تعني الإظهار والبيان المادي الفعلي، ولكنها لم ترد في القرآن الكريم بالمعنى المتوخى منها بما يفيد الدراسة من حيث الكشف والبيان، ولكن ذلك لا يمنع من ذكرها في هذا الباب من أجل استقصاء الألفاظ الدالة لغويا على معنى (التفسير وكشف الغامض)؛ ومن الأمثلة عليه:

(1)- قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿الأنعام: 41﴾.

(2)- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ ﴿يونس: 12﴾.

(3)- وقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ ﴿النمل: 44﴾ .

وبهذا يكون البحث في ألفاظ المبحث العاشر قد انتهى بفضل من الله وتوفيقه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين,,,

*****

1 عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 605.

الخاتمة

النتائج والتوصيات

- أولا: النتائج:

1- غزارة الاشتقاقات في اللغة العربية، متمثلة في كتابها العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حيث رصدت الدراسة خمسين اشتقاقا من مادة (قول) في القرآن الكريم.

2- رصدت الدراسة تكرار الألفاظ المشتقة من مادة (قول) في القرآن الكريم، حيث بلغت ألفا وسبعمائة واثنتين وعشرين مرة، موزعة على الاشتقاقات الخمسين.

3- التوافق التام بين الاشتقاقات المتولدة من مادة (قول) مع ما تسند إليه في النص، أي التوافق بين المسند والمسند إليه في الجملة القرآنية في السياقات التي وردت فيها، مثال ذلك: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ ﴿البقرة: 38﴾، و ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿الأنبياء: 69﴾ معنويا للتعظيم، و﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿البقرة: 30﴾، و ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ ﴿يوسف: 4﴾، و ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ ﴿يوسف: 36﴾، و ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ﴾ ﴿القصص: 25﴾، و ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الشعراء: 16﴾، و ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ ﴿المؤمنون: 113﴾، و ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ﴿يوسف: 23﴾ و ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ ﴿ويوسف: 51﴾، و﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ﴿النمل: 18﴾، و ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ ﴿القصص: 23﴾، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

4- قدرة اللغة العربية – متمثلة في كتابها العزيز– على توليد معان جديدة للفظ من خلال وجوده في السياق؛ مما أثرى الدراسة بألفاظ عديدة تشير في جانب من جوانبها الدلالية "على معنى القول".

5- الألفاظ التي تم تصنيفها على أنها "ألفاظ دالة على القول" وجدت الدراسة –من خلال المعاجم العربية– أنها تشير في جانب من جوانبها إلى معنى القول، مضافا إليه المعنى المصاحب للقول والدال عليه؛ مثل (قرأ) (جادل) (حاور) (صرخ)... وهكذا، ففي كل لفظ معنى القول مصاحبا لمعنى آخر، صنف في مبحث تبعا لهذا الجديد في المعنى.

6- في كل لفظ من الألفاظ "الدالة على القول" تجد فيه معنى القول مضافا إليه المعنى الذي اكتسبه من السياق، وكل سياق يضفي معنى جديدا على اللفظ، يختلف عن المعنى الذي اكتسبه من نص آخر، مع احتفاظه بأصل المعنى، وهذا يشير إلى أنّ اللفظ مؤثر ومتأثر من السياق الذي ورد فيه.

7- لم يغفل العلماء عن الدراسات البلاغية، وأقسام الجملة في اللغة العربية مستشهدين بأروع الأمثلة مما جاء في الآيات القرآنية، ولكنها كانت دراسة أحادية الجانب، لا تربط نوع الجملة وتقسيماتها؛ من حيث الخبر والإنشاء مع موضوعها في القرآن الكريم، وتفسيرها وارتباطها –كجملة– مع ما يحيط بها من آيات، فجاءت هذه الدراسة لتعالج هذا الجانب، وإخراجه بصورة أوضح.

8- رصدت هذه الدراسة الأساليب البلاغية التي جاءت في كل آية تناولتها الدراسة، ونوع هذه الجملة من حيث قسمي الجملة؛ الخبرية والإنشائية، وأنواعهما، متوافقا مع ما جاء في تفسير هذه الآية، أو أسباب النزول من أمهات كتب التفسير، فخرجت بما يشير إلى التوافق التام بين نوع الجملة الخبرية وأقسامها وما جاء في تفسيرها؛ فما كان في

التشريع والأحكام الثابتة تجده في جملة الجملة الخبرية، وانسجام عجيب بين نوع الجملة الإنشائية وأقسامها وما جاء حولها من تفسير، أو أسباب نزول؛ فما كان ردا على سؤال، نزول اقتضاه موقف فأكثر ما تجده في جملة الجملة الإنشائية، وكان هذا أكثر ما لفت اهتمام الباحثة، مما يفتح آفاقا واسعة لدراسة الجملة القرآنية دراسة متكاملة، تفسيرا وإعجازا وبلاغة... وموسيقى، وليس استشهادا على فن ما دون ربطها بجميع ما يحيط بها من فنون وظلال، كل ذلك من خلال السياق الذي ترد فيه.

9- لا يمكن استبدال لفظ (قال) بأي لفظ من الألفاظ الدالة على معنى القول في السياق الذي ورد فيه على أنهما لفظي (قول)، على نية الاحتفاظ بما جاء في السياق من معنى، على النحو التالي مثلا: استبدال قال بـ(خطب)، أو استبدال قال بـ(حدث)، أو استبدال قال بـ(صرخ)، أو استبدال قال بـ(ضرع)، وهكذا، وهذا ما حاولت الدراسة اثباته في الفصل الثاني من الدراسة، باستبدال اللفظ المستعمل في السياق بلفظ (قال) جدلا...

10- لا يمكن استبدال أي لفظ من الألفاظ الدالة على معنى القول ورد في السياق القرآني بلفظ آخر من الحقل الدلالي نفسه، مع المحافظة على المعنى المقصود من السياق، على نحو من التالي —على سبيل المثال-: استبدال صرخ بـ(استغاث)، أو جادل بـ(خصم)، أو سرّ بـ(كتم)، أو جهر بـ(نادى)، أو حاور بـ(ناجى)، ولا قال بـ(قالوا)، ولا قالت بـ(قالتا) وغير ذلك كثير؛ على نية أنها ألفاظ دالة على القول، وهذا بدوره يقودنا إلى دحض دعوى الترادف في القرآن الكريم عند المروجين لها.

11- لم تستقص هذه الدراسة الأساليب البلاغية الواردة في النصوص القرآنية -عينة الشاهد- كلها؛ ولكن حسبها أنها وقفت على ما يمكن أن يشير إليها؛ -فما لا يدرك كله لا يترك جله- علها تفتح أبوابا أوسع للدراسات البلاغية في هذا الباب.

12- القرآن الكريم مرجع متكامل للأبواب البلاغية كاملة، فلا يوجد فن بلاغي، أو أسلوب بياني إلا وفي القرآن الكريم شواهد عليه كثيرة، أو هو بالأحرى منبع الدراسات البلاغية؛ فيحتوي عليها كلها، حتى تجد في الآية الواحدة أكثر من أسلوب بلاغي، وهذا ما لا يمكن للدراسة أن تحيط به، وحسبها أنها وقفت على بعض جوانبه؛ لتفتح آفاقا جديدة لدراسات أرحب، وما جهد الباحثة إلا جهد المقل... تسأل الله عليه الأجر.

- ثانيا: التوصيات:

- أوصي المسلمين كافة بقراءة القرآن العظيم قراءة متأنية، بفهم وتدبر.

- أوصي طلاب العلم والباحثين في القرآن الكريم وعلومه القراءة المتكاملة للنص، ودراسة جمله وآياته بالتوافق مع ما يحيط بها من ظلال التفسير، وأسباب النزول، لعل ذلك يخرج بدراسات بلاغية جديدة.

- التوجه إلى دراسات بلاغية لألفاظ قد تشير إلى معان جديدة على غرار ألفاظ (القول) مثلا، مثل ما يشير إلى (السمع) أو (الحس)، أو (الحزن) أو(الفرح) وغير ذلك كثير في القرآن الكريم.

- وفي الختام هذا ما تيسر لي الوقوف عليه من دراسة "ألفاظ القول في القرآن الكريم، دراسة بلاغية" فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فأسأل الله أن لا يفوتني أجر

المحاولة، ويسرني أن أقف على توجيهات أساتذتي ونـصائحهم مـع وافـر شـكري وتقديري.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

قائمة المراجع

أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، 1421هـ - 2001 م.

الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، (المتوفى 1270ه)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ت علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، 1415ه.

الأنجري، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ت، أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر، الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة،1419هـ.

البخاري، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، (المتوفى 1307هـ)، فتح البيان في مقاصد القرآن، قدم له عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1412هـ-1992م.

البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي، (المتوفى 510ه)، معالم التنزيل في تفسير القران تفسير البغوي، ت عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1- 1420ه.

البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الاسلامي القاهرة.

بنت الشاطئ، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة (المتوفى: 1419هـ)، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف – القاهرة.

البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، (المتوفى 685ه)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ت محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط1 1418ه.

التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع، (المتوفى 283ه)، تفسير التستري، جمعها أبو بكر محمد البلدي، ت محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية– بيروت، ط1–1423ه.

الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق، (المتوفى 427ه)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ت الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي– بيروت– لبنان، ط1–1422ه –2002م.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي– بيروت، تحقيق: محمد التنجي، ط1، 1995.

الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، (المتوفى864ه)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (المتوفى 911ه)، تفسير الجلالين، دار الحديث– القاهرة.

الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (المتوفى 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، ت عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي– بيروت، ط1– 1422هـ.

ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي، الرازي، (المتوفى327ه)، تفسير القران العظيم، ت أسعد محمد الخطيب، مكتبة نـزار مـصطفى الباز– المملكة العربية السعودية، ط3–1419ه.

الحجازي، محمد محمود، التفسير الواضح، دار الجيل الجديد_ بيروت، ط10، 1413هـ.

ابن حيان الأندلسي، أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسـف أثيـر الـدين الأندلـسي، (المتوفى 745ه)، البحر المحيط في التفسير، ت صدقي محمد جميل، دار الفكر– بيروت، ط1420هـ.

الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، (المتوفى 741هـ)، لباب التأويل، ت تصحيح محمد علـي شـاهين، دار الكتـب العلميـة- بيـروت، ط1- 1415هـ.

الخطيب، عبد الكريم يونس، (المتوفى بعد 1390هـ)، التفسير القرآنـي للقـرآن، دار الفكـر العربي – القاهرة.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، الملقب بفخر الدين الـرازي، خطيب الري، (المتوفى 606ه)، مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط3- 1420ه.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغـب الأصـفهاني (المتـوفى: 502هـ)، تفسير الراغب الأصفهاني، جزء 1: المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيـق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعـة طنطـا، 1420 هـــ - 1999م.

الزحيلي، د وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر – دمشق، ط 2، 1418 هـ.

الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير الوسيط، دار الفكر – دمشق، ط1- 1422هـ.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، (المتوفى 538ه)، أساس البلاغة، ت محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1-1419هـ-1998م.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، (المتوفى: 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ ، ج2.

ابن أبي زمنين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري، المالكي، (المتوفى 399ه)، تفسير القرآن العزيز، ت أبو عبد الله حسين بن عكاشة- محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة- مصر/ القاهرة، ط1-1423ه-2002م.

أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.

سراج الدين، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: 804هـ)، البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير، المحقق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع – الرياض-السعودية، 1425هـ-2004م.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (المتوفى: 1376هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ت، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، 1420هـ - 2000.

ابن السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، (المتوفى 982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 1407 هـ – 1987 م.

السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ) مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1407 هـ – 1987 م.

السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (المتوفى: 373هـ)، بحر العلوم، ج1.

السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي، التميمي الحنفي ثم الشافعي، (المتوفى489ه)، تفسير السمعاني تفسير القران، ت ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض- السعودية، ط1-1418ه – 1997م، ج4.

الشعراوي، محمد متولي، (المتوفى: 1418هـ)، تفسير الشعراوي- الخواطر، مطابع أخبار اليوم، ج1.

لشعراوي، محمد متولي، المتوفى1418ه، تفسير الشعراوي، الخواطر، مطابع أخبار اليوم، رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام 1997م، ج14.

لشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (المتوفى : 1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، 1415 هـ – 1995 مـ، ج4، ص 91، أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج9، ص 4777.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط1- 1414 هـ، ج5.

صالح، مخيمر، معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، دار الكتاب الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن/ إربد، 1426هـ- 2005م معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، المعاني، الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

صدقي، محمد توفيق، مجلة المنار، الإسلام هو القرآن وحده، ج9

الصعيدي، عبد المتعال (المتوفى: 1391هـ)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط17، 1426هـ-2005م، التحرير والتنوير، ج1.

الصعيدي، عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج12.

الطبري، جامع البيان، ت شاكر،ج20، ص50-51، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر (المتوفى: 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، ت، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، 1420 هـ - 2000م.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، (المتوفى1393هـ)، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الطبعة التونسية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس،1997م.

ابن عباس، ينسب لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، (المتوفى 68ه)، تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، جمعه مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، (المتوفى 817ه)، دار الكتب العلمية- لبنان.

عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار ومطبعة الشعب، ق و ل.

العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، المتوفى 1421ه، تفسير العثيمين، سورة الكهف، دار ابـن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1-1423ه ،ج1.

عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، أبو محمد بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ)، تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الناشر: دار ابن حزم - بيروت، 1416هـ- 1996م.

عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد أبو حامد، (المتوفى: 656هـ) شرح نهج البلاغة، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج9.

العز بن عبد السلام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، (المتوفى660ه)، تفسير القران (وهو اختصار لتفسير الماوردي) ت الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم- بيروت، ط1-1416ه-1996م، ج3.

عزت، محمد دروزة، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، 1383ه، ج5.

ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت- 1422 هـ.

علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، جمع وترتيب وتعليق علي بن نايف الشحود، ج1.

على الجارم ومصطفى أمين، النحو الواضح في قواعد اللغة العربية، الناشر: الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، ج1.

عمر، د. أحمد مختار عبد الحميد، عمر (المتوفى: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3.

عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، ج3.

فجر الأمة، الحوار، أهميته، أصوله، آدابه، أرشيف ملتقى أهل التفسير

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، المتوفى 207ه، معاني القران، ت، أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة-مصر، ج3.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري، (المتوفى: 170هـ)، كتاب العين، ت، د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج1212.

الفراهيدي، كتاب العين، حرف الحاء، باب الثلاثي الصحيح، باب الحاء والدال والثاء معهما، الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، أبو منصور، (المتوفى370هـ)، تهذيب اللغة، ت محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، أبواب الحاء والدال.

الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: 817هـ)، القاموس المحيط، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط 8، 1426 هـ – 2005 م.

القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، (المتوفى1332هـ)، محاسن التأويل، ت محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت–1418هـ، ج8.

القاضي، حسين بن محمد المهدي – عضو المحكمة العليا للجمهورية اليمنية، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، الناشر: سُجل هذا الكتاب بوزارة الثقافة، بدار الكتاب برقم إيداع (449) لسنة2009م، راجعه: الأستاذ العلامة عبد الحميد محمد المهدي، مكتبة المحامي: أحمد بن محمد المهدي، ج 2.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي، ت، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط الثانية، 1384هـ – 1964م، ج1.

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت: أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش دار الكتب المصرية – القاهرة ط2، 1384ه، 1964م، ج12.

القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: 739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، ت، محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، ط، الثالثة، ج 1.

القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: 465هـ)، لطائف الإشارات تفسير القشيري، ت، إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر ط 3، ج1.

القطان، إبراهيم، المتوفى (1404ه) ، تيسير التفسير، ج1، ص 346، نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف– السعودية، ط2–1430ه – 2009م، ج1.

القنوجي، أبو الطيب محمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن، ج11

القيسي، مكي بن أبي طالب، أبو محمد حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني، الهداية إلى بلوغ النهاية، ت مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي جامعة الشارقة، ط1 1429هـ-2008م، ج8.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، ت، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999 م.

الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، أبو البقاء الحنفي، (المتوفي 1094ه)، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق الفردية، ت عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة- بيروت، ج1.

المؤيد بالله، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: 745هـ)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت، 1423 هـ، ج 2.

الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور (المتوفى: 333هـ)، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ت، د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، 1426 هـ - 2005 م، ج2.

ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: 273هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، باب فضل العلماء والحث على العلم.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، (المتــوفى450هـ)، تفسير الماوردي النكت والعيون، ت السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتــب العلمية/ بيروت– لبنان، ، ص 246، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20.

مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، (المتــوفى 104هـــ)، تفسير مجاهد، ت محمد عبد السلام أبو النيــل، دار الفكــر الإســلامي الحديثــة، ط1، 1410هـ -1989م، ج1.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ج2.

المراغي، أحمد بن مصطفى (المتوفى: 1371هـ)، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع».

المراغي، أحمد بن مصطفى، المتوفى1371هـ، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة بــابي المصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ط1365هـ - 1946م، ج29.

مصطفى درويش، محيي الدين بن أحمد (المتوفى : 1403هـ)، إعراب القرآن وبيانه، الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية ، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير دمشق - بيروت)، ط 4، ، 1415 هـ ، ج1

أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن احمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثــم الشافعي (ت 489هـ)، تفسير القران، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنــيم دار الوطن، الرياض– السعودية، 1418هـ 1997م.

مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 - المعاني، كود المــادة: LARB4103، المرحلــة: بكالوريوس، جامعة المدينة العالمية.

مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 1– البيان والبديع، كود المادة: LARB4093، المرحلة: بكالوريوس، الناشر: جامعة المدينة العالمية ج1.

مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة 2 – المعاني، كـود المـادة: LARB4103، المرحلـة: بكالوريوس، الناشر: جامعة المدينة العالمية، ج1.

المولى أبي الفداء، إسماعيل حقي بن مـصطفى الاسـتانبولي الحنفـي الخلـوتي، (المتـوفى 1127هـ)، روح البيان، دار الفكر – بيروت، ج6.

النجار، محمد عبد العزيز، ضياء السالك إلى أوضح المـسالك، الناشـر: مؤسـسة الرسـالة، 1422هـ – 2001م، ج4.

نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف-السعودية، ط14302هـ-2009م، ج1.

النخجواني، نعمة الله بن محمود، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، دار ركابي للنشر-الغوريـة، مصر، 11419هـ-1999م، ج2.

النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (المتـوفى: 710هـ)، تفـسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، حققه وخرج أحاديثه: يوسـف علـي بـديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، 1419 هـ – 1998 م، ج2.

النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتـوفى: 850هـ)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشـر: دار الكتـب العلميه – بيروت– 1416 ه، ج2.

الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (المتوفى: 1362هـ)، جواهر البلاغة فـي المعـاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.

الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، (المتوفى: 1362هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.

الواحدي، أبو الحسن علي بن محمد بن علي، النيسابوري، الشافعي، (المتوفى 468ه)، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت، صفوان عدنان داوودي، دار القلم الشامية- دمشق، بيروت، ط1 1415ه، ج1.

ياسين، حكمت بن بشير، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية، 1420 هـ - 1999 م.

المجلات والدوريات:

1. المنتدى الإسلامي، مجلة البيان، علي لطفي عبد الحكيم حسين، القصة فن تربية النشء.
2. ميادة بنت كامل الماضي، من لطائف وفوائد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله تعالى- في كتابه المسمى: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب أرشيف ملتقى أهل التفسير.
3. الوابل، عبد اللطيف، العلماء ومسؤولية البلاغ، مجلة البيان.

Abstract

Albashaireh, Umaymah Suleiman Al-Awad, Phrases of (Saying) In The Holy Quran - A Rhetorical Study- Master thesis, Yarmouk University, 2014. prof. Mukhaimar salah Yahya

I have made the search in t preface, two chapters and conclusion, and it stood through the preface on the saying importance in the Holy Quran, and the multiplicity of words, and words upon the function.

In the first chapter I dealt ptirases saying of in the Qur'an -derived from (say) subject specifically, that number had reached one thousand, seven hundred and twenty-two of the rude, spread over fifty derivation, and I dealt with all derivative studied separately, and took on all derivesion three verses interpretation and statement and rhetorical techniques contained therein, and the rest of the verses are included at the end of each derivative evidence on him and his fellow countryman, but what was the receipt three times or less has dealt with the whole language and a statement of explanation and eloquence.

In the second chapter dealt the ptiatses (the function to say in Holy Quran) in the Qur'an, and made it in ten sections, each Section of quite a few of the terms that collects field semantic one, where converge in the side of the aspects in the sense of a common, and diverge in other aspects.

The study revealed the multiparty of rhetorical methods and its pictures which used in the expression about the saying according the protiunciation and its significance commensurate.

The study with true thought from with context spite of the multiplicity of words to say in the Holy, whether it was derived from the subject (say) or (meaning to say), they meet in the side of its aspects in the meaning of the saying, but they diverge in many other aspects, which committed to the

individual privacy, even if they are from the sea of semantic one, and this leads us to refute the claim tandem in the Holy Quran when its promoters, because each ptirase have meaning that does not sing with him other in the context in which it is stated; though prima facie indicates the same meaning, the ptirase (say)was not is the ptirase (she says) and the term (event) was not the ptirase (speeches) and so on.

The researcher recommended to all Muslims to fend verses of the Holy Quran recitation and a statement and explanation; to know in meaning and understand its objectives, and savor the sweetness of the recitation, and Ieinwa secrets of his eloquence, which incapacitated eloquents of his time, and exhausting writers of his time to this day, and will not taste the sweetness, and will not come in contact with this recitation followed only slowly and skill.